تفسير أبي السعود

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي

٩٠٠هـ — ٩٨٢هـ

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا

الجزء الخامس

بطلب من الناشر

مكتبة الرياض الحديثة

بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمن

مكية ، وآيها خمس أو ثمان وثمانون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ حم ﴾ بتفخيم الألف وتسكين الميم وقرىء بإمالة الألف وبإخراجها بين بين وبفتح الميم لالتقاء الساكنين أو نصبها بإضمار اقرأ ونحوه ومنع الصرف للتعريف والتأنيث أو للتعريف وكونها على زنة قابيل وهابيل وبقية الكلام فيه وفى قوله تعالى ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ كالذى سلف فى آلم السجدة وقوله تعالى ﴿ من الله العزيز العليم ﴾ كما فى مطلع سورة الزمر فى الوجوه كلها ووجه التعرض لنعتى العزة والعلم ما ذكر هناك ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول ﴾ إما صفات أخر لتحقيق ما فيها من الترغيب والترهيب والحث على ما هو المقصود والإضافة فيها حقيقية على أنه لم يرد بها زمان مخصوص وأريد بشديد العقاب مشدده أو الشديد عقابه بحذف اللام للازدواج وأمن الالتباس أو إبدال وجعله وحده بدلا كما فعله الزجاج مشوش للنظم وتوسيط الواو بين الأولين لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة أو تغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الاتحاد أو تغاير موقع الفعلين لأن الغفر هو الستر مع بقاء الذنب وذلك لمن لم يتب فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والتوب مصدر كالتوبة وقيل هو جمعها والطول الفضل بترك العقاب المستحق وفى توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل سبقها ورجحانها

﴿ لا إله إلا هو ﴾ فيجب الإقبال الكلى على طاعته فى أوامره ونواهيه ﴿ إليه المصير ﴾ فحسب لا إلى غيره لا استقلالا ولا اشتراكا فيجازى كلا من المطيع والعاصى ﴿ ما يجادل فى آيات الله ﴾ أى بالطعن فيها واستعمال المقدمات الباطلة لإدحاض الحق كقوله تعالى (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق).

﴿ إلا الذين كفروا ﴾ بها وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة منها فضلا عن الطعن فيها وأما الجدال فيها لحل مشكلاتها وكشف معضلاتها واستنباط حقائقها الكلية وتوضيح مناهج الحق فى مضايق الأفهام ومزالق الأقدام وإبطال شبه أهل الزيغ والضلال فمن أعظم الطاعات ولذلك قال عليه الصلاة والسلام إن جدالا فى القرآن كفر بالتنكير للفرق بين جدال وجدال والفاء فى قوله تعالى ﴿ فلا يغررك تقلبهم فى البلاد ﴾ لترتيب النهى أو وجوب الانتهاء على ما قبلها من التسجيل عليهم بالكفر الذى لا شىء أمقت منه عند الله تعالى ولا أجلب لخسران الدنيا والآخرة فإن من تحقق ذلك لا يكاد يغتر بما لهم من حظوظ الدنيا وزخارفها فإنهم مأخوذون عما قليل أخذ من قبلهم من الأمم حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ﴾ أى الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوح مثل عاد وثمود وأضرابهم ﴿ وهمت كل أمة ﴾ من تلك الأمم العاتية ﴿ برسولهم ﴾ وقرىء برسولها ﴿ ليأخذوه ﴾ ليتمكنوا منه فيصيبوا به ما أرادوا من تعذيب أو قتل من الأخذ بمعنى الأسر ﴿ وجادلوا بالباطل ﴾ الذى لا أصل ولا حقيقة له أصلا ﴿ ليدحضوا به الحق ﴾ الذى لا محيد عنه كما فعل هؤلاء [المذكورون][1] ﴿ فأخذتهم ﴾ بسبب ذلك أخذ عزيز مقتدر ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ الذى عاقبتهم به فإن آثار دمارهم عبرة للناظرين ولآخذن هؤلاء أيضا لاتحادهم فى فى الطريقة واشتراكهم فى الجريرة كما ينبىء عنه قوله تعالى :

---

(1) سقطت من ط.

﴿ وكذلك حقت كلمة ربك ﴾ أى كما وجب وثبت حكمه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذبة المتحزبة على رسلهم المجادلة بالباطل لادحاض الحق به وجب أيضاً ﴿ على الذين كفروا ﴾ أى كفروا بك وتحزبوا عليك وهموا بما لم ينالوا كما ينبىء عنه إضافة اسم الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام فإن ذلك للإشعار بأن وجوب كلمة العذاب عليهم من أحكام تربيته التى من جملتها نصرته عليه الصلاة والسلام وتعذيب أعدائه وذلك إنما يتحقق بكون الموصول عبارة عن كفار قومه لا عن الأمم المهلكة وقوله تعالى ﴿ أنهم أصحاب النار ﴾ فى حيز النصب بحذف لام التعليل أى لأنهم مستحقوا أشد العقوبات وأفظعها التى هى عذاب النار وملازموها أبدا لكونهم كفارا معاندين متحزبين على الرسول عليه الصلاة والسلام كدأب من قبلهم من الأمم المهلكة فهم لسائر فنون العقوبات أشد استحقاقا وأحق استيجابا وقيل هو فى محل الرفع على أنه بدل من كلمة ربك والمعنى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة المهلكة كونهم من أصحاب النار أى كما وجب إهلاكهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال كذلك وجب تعذيبهم بعذاب النار فى الآخرة ومحل الكاف على التقديرين النصب على أنه نعت لمصدر محذوف ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله ﴾ وهم أعلى طبقات الملائكة عليهم السلام وأولهم وجودا وحملهم إياه وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له وكناية عن زلفاهم من ذى العرش جل جلاله[1] ومكانتهم عنده ومحل الموصول الرفع على الابتداء خبره .

﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ والجملة استئناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان أن أشراف الملائكة عليهم السلام مثابرون على ولاية من معه من المؤمنين ونصرتهم واستدعاء ما يسعدهم فى الدارين أى ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل ملتبسين بحمده على نعمائه التى لا تتناهى ﴿ ويؤمنون به ﴾ إيمانا حقيقيا بحالهم والتصريح به مع الغنى عن ذكره رأسا

---

(١) فى ١١ : عز وجل

لإظهار فضيلة الإيمان وإبراز شرف أهله والإشعار بعلة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ فإن المشاركة فى الإيمان أقوى المناسبات وأتمها وأدعى الدواعى إلى النصح والشفقة وفى نظم استغفارهم لهم فى سلك وظائفهم المفروضة عليهم من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم إيذان بكمال اعتنائهم به وإشعار بوقوعه عند الله تعالى فى موقع القبول . روى أن حملة العرش أرجلهم فى الأرض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تتفكروا فى عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة فإن خلقا من الملائكة يقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه فى الأرض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وإنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوضع » وفى الحديث « إن الله أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائرهم » وقيل خلق الله تعالى العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام وقيل حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا أيمانهم على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر ﴿ ربنا ﴾ على إرادة القول أى يقولون ربنا على أنه إما بيان لاستغفارهم أو حال .

﴿ وسعت كل شىء رحمة وعلما ﴾ أى وسعت رحمتك وعلمك فأزيل عن أصله للإغراق فى وصفه تعالى بالرحمة والعلم والمبالغة فى عمومهما وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات ههنا والفاء فى قوله تعالى ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ أى للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق لترتيب الدعاء على ما قبلها من سعة الرحمة والعلم ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ واحفظهم عنه وهو تصريح بعد إشعار للتأكيد ﴿ ربنا وأدخلهم ﴾ عطف على قهم وتوسيط النداء بينهما للمبالغة فى الجؤار ﴿ جنات عدن التى وعدتهم ﴾ أي وعدتهم إياها وقرىء

جنة عدن ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أى صلاحا مصححا لدخول الجنة فى الجملة وإن كان دون صلاح أصولهم وهو عطف على الضمير الأول أى وأدخلها معهم هؤلاء ليتم سرورهم ويتضاعف ابتهاجهم أو على الثانى لكن لا بناء على الوعد العام للكل كما قيل إذ لا يبقى حينئذ للعطف وجه بل بناء على الوعد الخاص بهم بقوله تعالى (ألحقنا بهم ذريتهم) بأن يكونوا أعلى درجة من ذريتهم قال سعيد بن جبير يدخل المؤمن الجنة فيقول أين أبى أين ولدى أين زوجى فيقال إنهم لم يعملوا مثل عملك فيقول إنى كنت أعمل لى ولهم فيقال أدخلوهم الجنة وسبق الوعد بالإدخال والإلحاق لا يستدعى حصول الموعود بلا توسط شفاعة واستغفار وعليه مبنى قول من قال فائدة الاستغفار زيادة الكرامة والثواب والأول هو الأولى لأن الدعاء بالإدخال فيه صريح وفى الثانى ضمنى وقرىء صلح بالضم وذريتهم بالإفراد ﴿ إنك أنت العزيز ﴾ أى الغالب الذى لا يمتنع عليه مقدور ﴿ الحكيم ﴾ أى الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة الباهرة من الأمور التى من جملتها إنجاز الوعد فالجملة تعليل لما قبلها .

﴿ وقهم السيئات ﴾ أى العقوبات لأن جزاء السيئة سيئة مثلها أو جزاء السيئات على حذف المضاف وهو تعميم بعد تخصيص أو مخصوص بالأتباع أو المعاصى فى الدنيا فمعنى قوله تعالى ﴿ ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ﴾ ومن تقه المعاصى فى الدنيا فقد رحمته فى الآخرة كأنهم طلبوا لهم السبب بعد ما سألوا المسبب ﴿ وذلك ﴾ إشارة إلى الرحمة المفهومة من رحمته أو إليها وإلى الوقاية وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الإشعار ببعد درجة المشار إليه ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ الذى لا مطمع وراءه لطامع ﴿ إن الذين كفروا ﴾ شروع فى بيان أحوال الكفرة بعد دخولهم النار بعد ما بين فيما سبق أنهم أصحاب النار ﴿ ينادون ﴾ أى من مكان بعيد وهم فى النار وقد مقتوا أنفسهم الأمارة بالسوء التى وقعوا فيما وقعوا باتباع هواها أو مقت بعضهم بعضا من الأحباب كقوله تعالى (يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) أى أبغضوها أشد البغض وأنكروها أبلغ الإنكار وأظهروا ذلك على رؤس الأشهاد فيقال لهم عند

ذلك ﴿ لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ أى لمقت الله أنفسكم الأمارة بالسوء أو مقته إياكم فى الدنيا ﴿ إذ تدعون ﴾ من جهة الأنبياء ﴿ إلى الإيمان ﴾ فتأبون قبوله ﴿ فتكفرون ﴾ إتباعا لأنفسكم الأمارة ومسارعة إلى هواها أو اقتداء بأخلائكم المضلين واستحبابا لآرائهم أكبر من مقتكم أنفسكم الأمارة بالسوء أو من مقت بعضكم بعضا اليوم فإذا ظرف للمقت الأول وإن توسط بينهما الخبر لما فى الظروف من الاتساع وقيل لمصدر آخر مقدر أى مقته إياكم إذ تدعون وقيل بمفعول لاذكروا والأول هو الوجه وقيل كلا المقتين فى الآخرة وإذ تدعون تعليل لما بين الظرف والسبب من علاقة اللزوم والمعنى لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقتكم أنفسكم لما كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون وتخصيص هذا الوجه بصورة كون المراد بأنفسهم أضرابهم مما لا داعى إليه .

﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ صفتان لمصدرى الفعلين المذكورين أى إماتتين وإحياءتين أو موتتين وحياتين على أنهما مصدران لهما أيضا بحذف الزوائد أو لفعلين يدل عليهما المذكوران فإن الإماتة والإحياء ينبئان عن الموت والحياة حتما كأنه قيل أمتنا فمتنا موتتين اثنتين وأحييتنا فحيينا حياتين اثنتين على طريقة قول من قال :

وعضة دهر يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق إلا مسحت الخ قيل أرادوا بالإماتة الأولى خلقهم أمواتا وبالثانية إماتتهم عند انقضاء آجالهم على أن الإماتة جعل الشىء عادم الحياة أعم من أن يكون بإنشائه كذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أو بجعله كذلك بعد الحياة وبالإحياءين الإحياء الأول وإحياء البعث وقيل أرادوا بالإماتة الأولى ما بعد حياة الدنيا وبالثانية ما بعد حياة القبر وبالإحياءين ما فى القبر وما عند البعث وهو الأنسب بحالهم وأما حديث لزوم الزيادة على النص ضرورة تحقق حياة الدنيا فمدفوع لكن لا بما قيل من عدم اعتدادهم بها لزوالها وانقضائها وانقطاع آثارها وأحكامها بل بأن مقصودهم إحداث الاعتراف بما كانوا ينكرونه فى الدنيا كما ينطق به قولهم :

﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ والتزام العمل بموجب ذلك الاعتراف ليتوسلوا بذلك إلى ما علقوا به أطماعهم الفارغة من الرجع إلى الدنيا كما قد صرحوا به حيث قالوا (فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) وهو الذى أرادوه بقولهم ﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ مع نوع استبعاد له واستشعار يأس منه لا أنهم قالوه بطريق القنوط البحت كما قيل ولا ريب في أن الذي كان ينكرونه ويفرعون عليه فنون الكفر والمعاصى ليس إلا الإحياء بعد الموت وأما الإحياء الأول فلم يكونوا ينكرونه لينظموه فى سلك ما اعترفوا به وزعموا أن الاعتراف يجديهم نفعا وإنما ذكروا الموتة الأولى مع كونهم معترفين بها فى الدنيا لتوقف حياة القبر عليها وكذا حال الموتة فى القبر فإن مقصدهم الأصلى هو الاعتراف بالإحياءين وإنما ذكروا الإماتتين لترتبهما عليهما ذكرا حسب ترتبهما عليهما وجودا وتنكير سبيل للإبهام أى من سبيل ما كيفما كان وقوله تعالى :

﴿ ذلكم ﴾ الخ جواب لهم باستحالة حصول ما يرجونه ببيان ما يوجبها من أعمالهم السيئة أى ذلكم الذى أنتم فيه من العذاب مطلقا لا مقيدا بالخلود كما قيل ﴿ بأنه ﴾ أى بسبب أن الشأن ﴿ إذا دعى الله ﴾ فى الدنيا أى عبد ﴿ وحده ﴾ أى منفردا ﴿ كفرتم ﴾ أى بتوحيده ﴿ وإن يشرك به تؤمنوا ﴾ أى بالإشراك به وتسارعوا فيه وفى إيراد إذا وصيغة الماضى فى الشرطية الأولى وأن وصيغة المضارع فى الثانية مالا يخفى من الدلالة على كمال سوء حالهم وحيث كان حالكم كذلك ﴿ فالحكم لله ﴾ الذى لا يحكم إلا بالحق ولا يقضى إلا بما تقتضيه الحكمة ﴿ العلى الكبير ﴾ الذى ليس كمثله شىء فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه وقد حكم بأنه لا مغفرة للمشرك ولا نهاية لعقوبته كما لا نهاية لشناعته فلا سبيل لكم إلى الخروج أبداً ﴿ هو الذى يريكم آياته ﴾ الدالة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرده بالألوهية لتستدلوا بها على ذلك وتعملوا بموجبها فتوحدوه تعالى وتخصوه بالعبادة ﴿ وينزل ﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف من الإنزال ﴿ لكم من السماء رزقا ﴾ أى سبب رزق وهو المطر وإفراده بالذكر مع كونه من جملة الآيات الدالة

على كمال قدرته تعالى لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته وجلائل نعمته الموجبة للشكر وصيغة المضارع فى الفعلين للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل واستمرارهما وتقديم الجار والمجرور على المفعول لما مر غير مرة ﴿ وما يتذكر ﴾ بتلك الآيات الباهرة ولا يعمل بمقتضاها ﴿ إلا من ينيب ﴾ إلى الله تعالى ويتفكر فيما أودعه فى تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى ومن ليس كذلك فهو بمعزل من التذكر والاتعاظ ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أى إذا كان الأمر كما ذكر من اختصاص التذكر بمن ينيب فاعبدوه أيها المؤمنون مخلصين له دينكم بموجب إنابتكم إليه تعالى وإيمانكم به ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ ذلك وغاظهم إخلاصكم.

﴿ رفيع الدرجات ﴾ نحو بديع السموات على أنه صفة مشبهة أضيفت إلى فاعلها بعد النقل إلى فعل بالضم كما هو المشهور وتفسيره بالرافع ليكون من إضافة اسم الفاعل إلى المفعول بعيد فى الاستعمال أى رفيع درجات ملائكته أى معارجهم ومصاعدهم إلى العرش ﴿ ذو العرش ﴾ أى مالكه وهما خبران آخران لقوله تعالى هو أخبر عنه بهما إيذانا بعلو شأنه تعالى وعظم سلطانه الموجبين لتخصيص العبادة به وإخلاص الدين له إما بطريق الاستشهاد بهما عليهما فان ارتفاع معارج ملائكته إلى العرش وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوى والسفلى تحت ملكوته وقبضة قدرته مما يقضى بكون علو شأنه وعظم سلطانه فى غاية لا غاية وراءها وإما بجعلهما عبارة عنهما بطريق المجاز المتفرع على الكناية كالاستواء على العرش وتمهيداً لما يعقبهما من قوله تعالى ﴿ يلقى الروح من أمره ﴾ فإنه خبر آخر لما ذكر منبىء عن إنزال الرزق الروحانى الذى هو الوحى بعد بيان إنزال الرزق الجسمانى الذى هو المطر أى ينزل الوحى الجارى من القلوب منزلة الروح من الأجساد وقوله تعالى من أمره بيان للروح الذى أريد به الوحى فانه أمر بالخير أو حال منه أى حال كونه ناشئا ومبتدأ من أمره أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الروح الكائن من أمره أو متعلق بيلقى ومن للسببية كالباء

مثل ما فى قوله تعالى مما خطيئاتهم أى يلقى الوحى بسبب أمره ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ وهو الذى اصطفاه لرسالته وتبليغ أحكامه إليهم ﴿ لينذر ﴾ أى الله تعالى أو الملقى عليه أو الروح وقرىء لتنذر على أن الفاعل هو الرسول عليه الصلاة والسلام أو الروح لأنها قد تؤنث ﴿ يوم التلاق ﴾ إما ظرف للمفعول الثانى أى لينذر الناس العذاب يوم التلاق وهو يوم القيامة لأنه يتلاقى فيه الأرواح والأجسام وأهل السموات والأرض أو هو المفعول الثانى اتساعا أو أصالة فإنه من شدة هوله وفظاعته حقيق بالإنذار أصالة وقرىء لينذر على البناء للمفعول ورفع اليوم ﴿يوم هم بارزون﴾ بدل من يوم التلاق أى خارجون من قبورهم أو ظاهرون لا يسترهم شىء من جبل أو أكمة أو بناء لكون الأرض يومئذ قاعا صفصفا ولا عليهم ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء فى الحديث « يحشرون عراة حفاة غرلا » وقيل ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشى الأبدان أو أعمالهم وسرائرهم ﴿ لا يخفى على الله منهم شىء ﴾ استئناف لبيان بروزهم وتقرير له وإزاحة لما كان يتوهمه المتوهمون فى الدنيا من الاستتار توهما باطلا أو خبر ثان وقيل حال من ضمير بارزون أى لا يخفى عليه تعالى شىء ما من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم الجلية والخفية السابقة واللاحقة .

﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ حكاية لما يقع حينئذ من السؤال والجواب بتقدير قول معطوف على ما قبله من الجملة المنفية المستأنفة أو مستأنف يقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية بروزهم وظهور أحوالهم كأنه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقال الخ أى ينادى مناد لمن الملك اليوم فيجيبه أهل المحشر لله الواحد القهار وقيل المجيب هو السائل بعينه لما روى أنه يجمع الله الخلائق يوم القيامة فى صعيد واحد فى أرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فأول ما يتكلم به أن ينادى مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقيل حكاية لما ينطق به لسان الحال من تقطع أسباب التصرفات المجازية واختصاص جميع الأفاعيل بقبضة القدرة الإلهية (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) إلخ إما من تتمة الجواب لبيان حكم اختصاص الملك به تعالى ونتيجته التى هى الحكم السوى والقضاء الحق أو حكاية لما سيقوله تعالى يومئذ عقيب السؤال والجواب أى تجزى كل نفس من

النفوس البرة والفاجرة بما كسبت من خير أو شر ﴿لا ظلم اليوم﴾ بنقص ثواب أو زيادة عذاب ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي سريع حسابه تماما إذ لا يشغله تعالى شأن عن شأن فيحاسب الخلائق قاطبة فى أقرب زمان كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه تعالى إذا أخذ فى حسابهم لم يقل أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها فيكون تعليلا لقوله تعالى اليوم تجزى الخ فإن كون ذلك اليوم بعينه يوم التلاق ويوم البروز بما يوهم استبعاد وقوع الكل فيه أو سريع مجيئا[1] فيكون تعليلا للإنذار .

﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ أى القيامة سميت بها لأزوفها وهو القرب غير أن فيه إشعارا بضيق الوقت وقيل الخطة الآزفة وهى مشارفة أهل النار دخولها وقيل وقت حضور الموت كما فى قوله تعالى (فلولا إذا بلغت الحلقوم) وقوله (كلا إذا بلغت التراقى) . وقوله تعالى ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ بدل من يوم الآزفة فإنها ترتفع من أماكنها فتلتصق بحلوقهم فلا تعود فيتروحوا ولا تخرج فيستريحوا بالموت ﴿كاظمين﴾ على الغم حال من أصحاب القلوب على المعنى إذ الأصل قلوبهم أو من ضميرها فى الظرف وجمع السلامة باعتبار أن الكظم من أحوال العقلاء كقوله تعالى (فظلت أعناقهم لها خاضعين) أو من مفعول أنذرهم على أنها حال مقدرة أى أنذرهم مقدرا كظمهم أو مشارفين الكظم .

﴿ما للظالمين من حميم﴾ أى قريب مشفق ﴿ولا شفيع يطاع﴾ أى لا شفيع مشفع على معنى نفى الشفاعة والطاعة معا على طريقة قوله ٭ على لاحب لا يهتدى بمناره ٭ والضمائر إن عادت إلى الكفار وهو الظاهر فوضع الظالمين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم به ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ النظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى غير المحرم واستراق النظر إليه أو خيانة الأعين على أنها مصدر كالعافية ﴿وما تخفى الصدور﴾ من الضمائر والأسرار والجملة خبر

---

(١) فى ط ١٣٦ أو سريع المجئ .

آخر مثل يلقي الروح للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء ﴿والله يقضي بالحق﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضي بشيء إلا وهو حق وعدل ﴿والذين يدعون﴾ يعبدونهم ﴿من دونه﴾ تعالى ﴿لا يقضون بشيء﴾ تهكم بهم لأن الجماد لا يقال في حقه يقضي أو لا يقضي وقرىء تدعون على الخطاب التفاتا أو على إضمار قل ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه ؛

﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ أي مآل حال من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم كعاد وثمود وأضرابهم ﴿كانوا هم أشد منهم قوة﴾ قدرة وتمكنا من التصرفات وإنما جيء بضمير الفصل مع أن حقه التوسط بين معرفتين لمضاهاة أفعل من للمعرفة في امتناع دخول اللام عليه وقرىء أشد منكم بالكاف ﴿وآثارا في الأرض﴾ مثل القلاع الحصينة والمدائن المتينة وقيل المعنى وأكثر آثارا كقوله . متقلدا سيفا ورمحا ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أخذا وبيلا ﴿وما كان لهم من الله من واق﴾ أي من واق يقيهم عذاب الله ﴿ذلك﴾ أي ما ذكر من الأخذ ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي المعجزات أو بالأحكام الظاهرة ﴿فكفروا فأخذهم الله إنه قوي﴾ متمكن مما يريد غاية التمكن ﴿شديد العقاب﴾ لا يؤبه عند عقابه بعقاب ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ وهي معجزاته ﴿وسلطان مبين﴾ أي وحجة قاهرة وهي إما عين الآيات والعطف لتغاير العنوانين وإما بعض مشاهيرها كالعصا أفردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات لإنافتها إفراد جبريل وميكال به مع دخولهما في الملائكة عليهم السلام ﴿إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب﴾ أي فيما أظهره من المعجزات وفيما ادعاه من رسالة رب العالمين ﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا﴾ وهو ما ظهر على يده من المعجزات القاهرة ﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم﴾ كما قال فرعون سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم أي أعيدوا

عليهم ما كنتم تفعلونه أولا وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان فلما بعث عليه الصلاة والسلام وأحس بأنه قد وقع ما وقع أعاده عليهم غيظا وحنقا وزعما منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرته ظنا منهم أنه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكهم على يده ﴿وما كيد الكافرين إلا فى ضلال﴾ أى فى ضياع وبطلان لا يغنى عنهم شيئاً وينفذ عليهم لا محالة القدر المقدور والقضاء المحتوم واللام إما للعهد والإظهار فى موقع الإضمار لذمهم بالكفر والإشعار بعلة الحكم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة اعتراض جىء به فى تضاعيف ما حكى عنهم من الأباطيل للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهروه من الإبراق والإرعاد واضمحلاله بالمرة.

﴿وقال فرعون ذرونى أقتل موسى﴾ كان ملؤه إذا هم بقتله عليه الصلاة والسلام كفوه بقولهم ليس هذا بالذى تخافه فإنه أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا بعض السحرة وبقولهم إذا قتلته أدخلت على الناس شبهة واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة وعدلت إلى المقارعة بالسيف والظاهر من دهاء اللعين ونكارته أنه كان قد استيقن أنه نبى وأن ما جاء به آيات باهرة وما هو بسحر ولكن كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك وكان قوله هذا تمويها على قومه وإيهاما أنهم هم الكافون له عن قتله ولولاهم لقتله وما كان الذى يكفه إلا ما فى نفسه من الفزع الهائل وقوله ﴿وليدع ربه﴾ تجلد منه وإظهار لعدم المبالاة بدعائه ولكنه أخوف ما يخافه ﴿إنى أخاف﴾ إن لم أقتله ﴿أن يبدل دينكم﴾ أن يغير ما أنتم عليه من الدين الذى هو عبارة عن عبادته وعبادة الأصنام لتقربهم إليه ﴿أو أن يظهر فى الأرض الفساد﴾ ما يفسد دنياكم من التحارب والتهارج إن لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية وقرىء بالواو الجامعة وقرىء بفتح الياء والهاء ورفع الفساد وقرىء يظهر بتشديد الظاء والهاء من تظهر بمعنى تظاهر أى تتابع وتعاون ﴿وقال موسى﴾ أى لقومه حين سمع بما تقوله اللعين من حديث قتله عليه الصلاة والسلام ﴿إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ صدر عليه الصلاة والسلام كلامه بأن

تأكيداً له وإظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه وفرط الرغبة فيه وخص اسم الرب المنبىء عن الحفظ والتربية لأنهما الذى يستدعيه وأضافه إليه وإليهم حثاً لهم على موافقته فى العياذ به تعالى والتوكل عليه فإن فى تظاهر النفوس تأثيرا قوياً فى استجلاب الإجابة ولم يسم فرعون بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة لتعميم الاستعاذة والإشعار بعلة القساوة والجرأة على الله تعالى وقرىء عدت بالإدغام .

مؤمن آل فرعون

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون ﴾ قيل كان قبطيا ابن عم لفرعون آمن بموسى سرا وقيل كان إسرائيليا أو غريبا موحدا ﴿ يكتم إيمانه ﴾ أى من فرعون وملئه ﴿ أتقتلون رجلا ﴾ أتقصدون قتله .

﴿ أن يقول ﴾ لأن يقول أو كراهة أن يقول ﴿ ربى الله ﴾ أى وحده من غير روية وتأمل فى أمره ﴿ وقد جاءكم بالبينات ﴾ والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التى شاهدتموها وعهدتموها ﴿ من ربكم ﴾ أضافه إليهم بعد ذكر البينات احتجاجا عليهم واستنزالا لهم عن رتبة المكابرة ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال ﴿ فإن يك كاذبا فعليه كذبه ﴾ لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج فى دفعه إلى قتله ﴿ وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ﴾ أى إن لم يصبكم كله فلا أقل من إصابة بعضه لا سيما إن تعرضتم له بسوء وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف وعدم التعصب ولذلك قدم من شقى الترديد كونه كاذبا أو يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا وهو بعض ما يعدهم كأنه خوفهم بما هو أظهر احتمالا عندهم وتفسير البعض بالكل مستدلا بقول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يرتبط بعض النفوس حمامها

مردود لما أن مراده بالبعض نفسه ﴿ إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾ احتجاج آخر ذو وجهين أحدهما أنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه

الله تعالى إلى البينات ولما أيده بتلك المعجزات وثانيهما إن كان كذلك خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم الى قتله ولعله أراهم المعنى الثانى وهو عاكف على المعنى الأول لتلين شكيمتهم وقد عرض به لفرعون بأنه مسرف كذاب لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة ﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين﴾ غالبين عالين على بنى اسرائيل ﴿فى الأرض﴾ أى أرض مصر لا يقاومكم أحد فى هذا الوقت ﴿فمن ينصرنا من بأس الله﴾ من أخذه وعذابه ﴿إن جاءنا﴾ أى فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله بقتله فإنه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور فى الأرض اليهم خاصة ونظم نفسه فى سلكهم فيما يسوؤهم من مجيء بأس الله تعالى تطييبا لقلوبهم وإيذانا بأنه ناصح لهم ساع فى تحصيل ما يجديهم ودفع ما يرديهم سعيه فى حق نفسه ليتأثروا بنصحه

﴿قال فرعون﴾ بعد ما سمع نصحه ﴿ما أريكم﴾ أى ما أشير عليكم ﴿إلا ما أرى﴾ واستصوبه من قتله ﴿وما أهديكم﴾ بهذا الرأى ﴿إلا سبيل الرشاد﴾ أى الصواب أو لا أعلمكم إلا ما أعلم ولا أسر عنكم خلاف ما أظهره ولقد كذب حيث كان مستشعرا للخوف الشديد ولكنه كان يتجلد ولولاه لما استشار أحدا أبدا وقرىء بتشديد الشين للمبالغة من رشد كعلام أو من رشد كعباد لا من أرشد كجبار من أجبر لأنه مقصور على السماع أو للنسبة إلى الرشد كعواج وبتات غير منظور فيه إلى فعل ﴿وقال الذى آمن﴾ مخاطبا لقومه (١) ﴿يا قوم إنى أخاف عليكم﴾ فى تكذيبه والتعرض له بالسوء ﴿مثل يوم الأحزاب﴾ مثل أيام الأمم الماضية يعنى وقائعهم وجمع الأحزاب مع التفسير أغنى عن جمع اليوم ﴿مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود﴾ أى مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر وإيذاء الرسل ﴿والذين من بعدهم﴾ كقوم لوط ﴿وما الله يريد ظلما للعباد﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب ولا يخلى الظالم منهم بغير انتقام وهو أبلغ من قوله تعالى (وما ربك بظلام للعبيد) لما أن المنفى فيه إرادة ظلم ما فينتفى

[illegible]

(١) فى ١١ : مخاطبا قومه.

الظلم بطريق الأولوية ﴿ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد﴾ خوفهم بالعذاب الأخروى بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوى ويوم التناد يوم القيامة لأنه ينادى فيه بعضهم للاستغاثة أو يتصايحون بالويل والثبور أو يتنادى أصحاب الجنة وأصحاب النار حسبما حكى فى سورة الأعراف وقرىء بتشديد الدال وهو أن يند بعضهم من بعض كقوله تعالى (يوم يفر المرء من أخيه) وعن الضحاك إذا سمعوا زفير النار ندوا هربا فلا يأتون قطرا من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفا فبينا هم يموج بعضهم فى بعض إذ سمعوا مناديا أقبلوا إلى الحساب ﴿يوم تولون مدبرين﴾ بدل من يوم التناد أى منصرفين عن الموقف الى النار أو فارين منها حسبما نقل آنفا ﴿مالكم من الله من عاصم﴾ يعصمكم من عذابه والجملة حال أخرى من ضمير تولون ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ يهديه الى طريق النجاة .

﴿ولقد جاءكم يوسف﴾ هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام على أن فرعونه فرعون موسى أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد وقيل سبطه يوسف بن إبراهيم بن يوسف الصديق ﴿من قبل﴾ من قبل موسى ﴿بالبينات﴾ بالمعجزات الواضحة ﴿فما زلتم فى شك مما جاءكم به﴾ من الدين ﴿حتى إذا هلك﴾ بالموت ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا﴾ ضما إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من بعده أو جزما بأن لا يبعث بعده رسول مع الشك فى رسالته وقرىء ألن يبعث الله على أن بعضهم يقرر بعضا بنفى البعث ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الإضلال الفظيع ﴿يضل الله من هو مسرف﴾ فى عصيانه ﴿مرتاب﴾ فى دينه شاك فيما تشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك فى التقليد ﴿الذين يجادلون فى آيات الله﴾ بدل من الموصول الأول أو بيان له أو صفة باعتبار معناه كأنه قيل كل مسرف مرتاب أو المسرفين المرتابين ﴿بغير سلطان﴾ متعلق بيجادلون أى بغير حجة صالحة للتمسك بها فى الجملة ﴿أتاهم﴾ صفة سلطان ﴿كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا﴾ فيه ضرب من التعجب والاستعظام وفى كبر ضمير يعود إلى من وتذكيره باعتبار اللفظ وقيل الى الجدال المستفاد من يجادلون ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾

فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والمجادلة بالباطل وقرىء بتنوين قلب ووصفه بالتكبر والتجبر لأنه منبعهما ﴿وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا﴾ أى بناء مكشوفا عاليا من صرح الشيء إذا ظهر ﴿لعلى أبلغ الأسباب﴾ أى الطرق ﴿أسباب السموات﴾ بيان لها وفى إبهامها ثم إيضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها .

﴿فأطلع إلى إله موسى﴾ بالنصب على جواب الترجى وقرىء بالرفع عطفا على أبلغ ولعله أراد أن يبنى له رصدا فى موضع عال ليرصد منه أحوال الكواكب التى هى أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله تعالى إياه أو أن يرى فساد قوله عليه الصلاة والسلام بأن إخباره من إله السماء يتوقف على اطلاعه عليه ووصوله إليه وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء وهو مما لا يقوى عليه الإنسان وما ذاك إلا لجهله بالله سبحانه وكيفية استنبائه .

﴿وإنى لأظنه كاذبا﴾ فيما يدعيه من الرسالة ﴿وكذلك﴾ أى ومثل ذلك التزيين البليغ المفرط ﴿زين لفرعون سوء عمله﴾ فانهمك فيه انهماكا لا يرعوى عنه بحال ﴿وصد عن السبيل﴾ أى الرشاد والفاعل فى الحقيقة هو الله تعالى ويؤيده قراءة زين بالفتح وبالتوسط الشيطان وقرىء وصد على أن فرعون صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التمويهات والشبهات ويؤيده قوله تعالى ﴿وما كيد فرعون إلا فى تباب﴾ أى خسار وهلاك أو على أنه من صد صدودا أى أعرض وقرىء بكسر الصاد على نقل حركة الدال إليه وقرىء وصد على أنه عطف على سوء عمله وقرىء وصدوا أى هو وقومه ﴿وقال الذى آمن﴾ أى مؤمن آل فرعون وقيل موسى عليه السلام ﴿يا قوم اتبعونى﴾ فيما دللتكم عليه ﴿أهدكم سبيل الرشاد﴾ أى سبيلا يصل سالكه إلى المقصود وفيه تعريض بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغى والضلال ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ أى تمتع يسير لسرعة زوالها أجمل لهم أولا ثم فسر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها لأن الإخلاد إليها رأس كل شر ومنه تتشعب

فنون ما يؤدى إلى سخط الله تعالى ثم ثنى بتعظيم الآخرة فقال ﴿ وإن الآخرة هى دار القرار ﴾ لخلودها ودوام ما فيها ﴿ من عمل ﴾ فى الدنيا ﴿ سيئة فلا يجزى ﴾ فى الآخرة ﴿ إلا مثلها ﴾ عدلا من الله سبحانه وفيه دليل على أن الجنايات تغرم بأمثالها ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك ﴾ الذين عملوا ذلك ﴿ يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أى بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافا مضاعفة فضلا من الله عز وجل ورحمة وجعل العمل عمدة والإيمان حالا للإيذان بأنه لا عبرة بالعمل بدونه وأن ثوابه أعلى من ذلك ﴿ وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ﴾ كرر نداءهم إيقاظا لهم عن سنة الغفلة واعتناء بالمنادى له ومبالغة فى توبيخهم على ما يقابلون به نصحه ومدار التعجب الذى يلوح به الاستفهام دعوتهم إياه إلى النار ودعوته إياهم إلى النجاة كأنه قيل أخبرونى كيف هذه الحال أدعوكم إلى الخير وتدعوننى إلى الشر وقد جعله بعضهم من قبيل مالى أراك حزينا أى مالك تكون حزينا وقوله تعالى ﴿ تدعوننى لأكفر بالله ﴾ بدل أو بيان فيه تعليل والدعاء كالهداية فى التعدية بإلى واللام ﴿ وأشرك به ما ليس لى به ﴾ بشركته له تعالى فى المعبودية وقيل بربوبيته ﴿ علم ﴾ والمراد نفى المعلوم والإشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان موجب للعلم بها ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ الجامع لجميع صفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والإرادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران .

﴿ لا جرم ﴾ لا رد لما دعوه إليه وجرم فعل ماض بمعنى حق وفاعله قوله تعالى ﴿ أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ﴾ أى حق ووجب عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلا أو عدم دعوة مستجابة أو عدم استجابة دعوة لها وقيل جرم بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه أى كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته بمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته وقيل جرم فعل من الجرم وهو القطع كما أن بدا من لا بد فعل من التبديد أى التفريق والمعنى لا قطع لبطلان ألوهية الأصنام أى لا ينقطع فى وقت ما فينقلب حقا

ويؤيده قولهم لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء وفعل وفعل أخوان كرشد ورشد ﴿ وأن مردنا إلى الله ﴾ أى بالموت عطف على أن ما تدعوننى داخل فى حكمه وكذا قوله تعالى ﴿ وأن المسرفين ﴾ أى فى الضلال والطغيان كالإشراك وسفك الدماء ﴿ هم أصحاب النار ﴾ أى ملازموها ﴿ فستذكرون ﴾ وقرىء فستذكرون أى فسيذكر بعضكم بعضا عند معاينة العذاب ﴿ ما أقول لكم ﴾ من النصائح ﴿ وأفوض أمرى إلى الله ﴾ قاله لما أنهم كانوا توعدوه ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ فيحرس من يلوذ به من المكاره ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم قيل نجا مع موسى عليه السلام ﴿ وحاق بآل فرعون ﴾ أى بفرعون وقومه وعدم التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره ضرورة أنه أولى منهم بذلك وقيل بطلبة المؤمن من قومه لما أنه فر إلى جبل فاتبعه طائفة ليأخذوه فوجدوه يصلى والوحوش صفوف حوله فرجعوا رعبا فقتلهم ﴿ سوء العذاب ﴾ الغرق والقتل والنار .

﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية سوء العذاب أو النار خبر مبتدأ محذوف كأن قائلا قال ما سوء العذاب فقيل هو النار ويعرضون استئناف للبيان أو بدل من سوء العذاب ويعرضون حال منها أو من الآل ولا يشترط فى الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه حتى يرد أن آل فرعون لم يهموا بتعذيبه بالنار ليكون ابتلاؤهم بها من قبيل رجوع ما هموا به عليهم بل يكفى فى ذلك أن يكون مما يطلق عليه اسم السوء وقرئت منصوبة على الاختصاص أو بإضمار فعل يفسره يعرضون مثل يصلون فإن عرضهم على النار بإحراقهم بها من قولهم عرض الأسارى على السيف إذا قتلوا به وذلك لأرواحهم كما روى ابن مسعود رضى الله عنه أن أرواحهم فى أجواف طير سود تعرض على النار بكرة وعشيا إلى يوم القيامة وذكر الوقتين إما للتخصيص وإما فيما بينهما فالله تعالى أعلم بحالهم وإما للتأبيد هذا ما دامت الدنيا ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ يقال للملائكة ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾

أى عذاب جهنم فإنه أشد مما كانوا فيه أو أشد عذاب جهنم فإن عذابها ألوان بعضها أشد من بعض وقرىء ادخلوا من الدخول أى يقال لهم ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب ﴿ وإذ يتحاجون فى النار ﴾ أى واذكر لقومك وقت تخاصمهم فيها ﴿ فيقول الضعفاء ﴾ منهم ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم رؤساؤهم ﴿ إنا كنا لكم تبعا ﴾ أتباعا كخدم فى جمع خادم أو ذوى تبع أى أتباع على إضمار المضاف أو تبعا على الوصف بالمصدر مبالغة ﴿ فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ بالدفع أو بالحمل ونصيبا منصوب بمضمر يدل عليه مغنون أى دافعون عنا نصيبا الخ أو بمغنون على تضمينه معنى الحمل أى مغنون عنا حاملين نصيبا الخ أو نصب على المصدرية كشيئا فى قوله تعالى (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) فإنه فى موقع غناء فكذلك نصيبا ﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ أى نحن وأنتم فكيف نغنى عنكم ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا وقرىء كلا على التأكيد لاسم إن بمعنى كلنا وتنوينه عوض عن المضاف إليه ولا مساغ لجعله حالا من المستكن فى الظرف فإنه لا يعمل فى الحال المتقدمة كما يعمل فى الظرف المتقدم فإنك تقول كل يوم لك ثوب ولا تقول جديدا لك ثوب ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ وقضى قضاء متقنا لا مرد له ولا معقب لحكمه .

﴿ وقال الذين فى النار ﴾ من الضعفاء والمستكبرين جميعا لما ضاقت حيلهم وعيت بهم عللهم ﴿ لخزنة جهنم ﴾ أى للقوام بتعذيب أهل النار ووضع جهنم موضع الضمير للتهويل والتفظيع أو لبيان محلهم فيها بأن تكون جهنم أبعد دركات النار وفيها أعتى الكفرة وأطغاهم أو لكون الملائكة الموكلين بعذاب أهلها أقدر على الشفاعة لمزيد قربهم من الله تعالى ﴿ ادعوا ربكم يخفف عنا يوما ﴾ أى مقدار يوم أو فى يوم ما من الأيام على أنه ظرف لا معيار شيئاً ﴿ من العذاب ﴾ واقتصارهم فى الاستدعاء على ما ذكر من تخفيف قدر يسير من العذاب فى مقدار قصير من الزمان دون رفعه رأسا أو تخفيف قدر كثير منه فى زمان مديد لأن ذلك عندهم مما ليس فى حيز الإمكان ولا يكاد يدخل تحت

أمانيهم ﴿ قالوا ﴾ أى الخزنة ﴿ أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ أى ألم تنبهوا على هذا ولم تك تأتيكم رسلكم فى الدنيا على الاستمرار بالحجج الواضحة الدالة على سوء مغبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصى كما فى قوله تعالى (ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أرادوا بذلك إلزامهم وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء وتعطيل أسباب الإجابة ﴿ قالوا بلى ﴾ أى أتونا بها فكذبناهم كما نطق به قوله تعالى (بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير) والفاء فى قوله تعالى ﴿ قالوا فادعوا ﴾ فصيحة كما فى قول من قال * فقد جئنا خراسانا * أى إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم فإن الدعاء لمن يفعل ذلك مما يستحيل صدوره عنا وتعليل امتناعهم عن الدعاء بعدم الإذن فيه مع عرائه[1] عن بيان أن سببه من قبلهم كما تفصح عنه الفاء ربما يوهم أن الآذن فى حيز الإمكان وأنهم لو أذن لهم فيه لفعلوا ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء إطماعهم فى الإجابة بل إقناطهم منها وإظهار خيبتهم حسبما صرحوا به فى قولهم ﴿ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ أى ضياع وبطلان وقوله تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴾ كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى لبيان أن ما أصاب الكفرة من العذاب المحكى من فروع حكم كلى تقتضيه الحكمة وهو أن شأننا المستمر أنا ننصر رسلنا وأتباعهم ﴿ فى الحيوة الدنيا ﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبى وغير ذلك من العقوبات ولا يقدح فى ذلك ما قد يتفق لهم من صورة الغلبة امتحانا إذ العبرة إنما هى بالعواقب وغالب الأمر ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ أى يوم القيامة عبر عنه بذلك للإشعار بكيفية النصرة وأنها تكون عند جميع الأولين والآخرين بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ وعلى الكفرة بالتكذيب ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ بدل من الأول وعدم نفع المعذرة لأنها باطلة وقرىء لا تنفع بالتاء ﴿ ولهم اللعنة ﴾ أى

(١) فى ١١ : مع عروه .

البعد عن الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ أى جهنم ﴿ ولقد آتينا موسى الهدى ﴾ ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع ﴿ وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب ﴾ وتركنا عليهم من بعده التوراة ﴿ هدى وذكرى ﴾ هداية وتذكرة أو هاديا ومذكرا ﴿ لأولى الألباب ﴾ لذوى العقول السليمة العاملين بما فى تضاعيفه ﴿ فاصبر ﴾ على ما نالك من أذية المشركين .

﴿ إن وعد الله ﴾ أى وعده الذى ينطق به قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) أو وعده الخاص بك أو جميع مواعيده التى من جملتها ذلك ﴿ حق ﴾ لا يحتمل الإخلاف أصلا واستشهد بحال موسى وفرعون ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ تداركا لما فرط منك من ترك الأولى فى بعض الأحايين فإنه تعالى كافيك فى نصرة دينك وإظهاره على الدين كله ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار ﴾ أى ودم على التسبيح ملتبسا بحمده تعالى وقيل صل لهذين الوقتين إذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين عشيا وقيل صل شكرا لربك بالعشى والإبكار وقيل هما صلاة العصر وصلاة الفجر ﴿ إن الذين يجادلون فى آيات الله ﴾ ويجحدون بها ﴿ بغير سلطان أتاهم ﴾ فى ذلك من جهته تعالى وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيانه للإيذان بأن التكلم فى أمر الدين لا بد من استناده إلى سلطان مبين البتة وهذا عام لكل مجادل مبطل وإن نزل فى مشركى مكة وقوله تعالى ﴿ إن فى صدورهم إلا كبر ﴾ خبر لأن أى ما فى قلوبهم إلا تكبر عن الحق وتعظم عن التفكر والتعلم أو إلا إرادة الرياسة والتقدم على الإطلاق أو إلا إرادة أن تكون النبوة لهم دونك حسداً وبغيا حسبما قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وقالوا (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) ولذلك يجادلون فيها لا أن فيها موقع جدال ما أو أن لهم شيئاً يتوهم أن يصلح مدارا لمجادلتهم فى الجملة وقوله تعالى : ﴿ ماهم ببالغيه ﴾ صفة لكبر قال مجاهد ما هم ببالغى مقتضى ذلك الكبر وهو ما أرادوه من الرياسة أو النبوة وقيل المجادلون هم اليهود وكانوا يقولون لست صاحبنا المذكور فى التوراة بل هو

المسيح بن داود يريدون الدجال يخرج فى آخر الزمان ويبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار وهو آية من آيات الله تعالى فيرجع إلينا الملك فسمى الله تعالى تمنيهم ذلك كبرا ونفى أن يبلغوا متمناهم ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أى فالتجىء إليه من كيد من يحسدك ويبغى عليك وفيه رمز إلى أنه من همزات الشياطين ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ لأقوالكم وأفعالكم وقوله تعالى:

﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ تحقيق للحق وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه من أمر البعث على منهاج قوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ لقصورهم فى النظر والتأمل لفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم ﴿وما يستوى الأعمى والبصير﴾ أى الغافل والمستبصر ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ﴾ أى والمحسن والمسيء فلا بد أن تكون لهم حال أخرى يظهر فيها ما بين الفريقين من التفاوت وهى فيما بعد البعث وزيادة لا فى المسيء لتأكيد النفى لطول الكلام بالصلة ولأن المقصود نفى مساواته للمحسن فيما له من الفضل والكرامة والعاطف الثانى عطف الموصول بما عطف عليه على الأعمى والبصير لتغاير الوصفين فى المقصود أو الدلالة بالصراحة والتمثيل .

﴿ قليلا ما تتذكرون ﴾ على الخطاب بطريق الالتفات أى تذكرا قليلا تتذكرون وقرىء على الغيبة والضمير للناس أو الكفار ﴿ إن الساعة لآتية لا ريب فيها ﴾ أى فى مجيئها لوضوح شواهدها وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ لا يصدقون بها لقصور أنظارهم على ظواهر ما يحسون به ﴿ وقال ربكم ادعونى ﴾ أى اعبدونى ﴿ أستجب لكم ﴾ أى أثبكم لقوله تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أى صاغرين أذلاء وإن فسر الدعاء بالسؤال كان الأمر الصارف عنه منزلا منزلة الاستكبار عن العبادة للمبالغة أو المراد بالعبادة الدعاء فإنه من أفضل أبوابها وقرىء سيدخلون على صيغة المبنى للمفعول من الإدخال

﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ بأن خلقه باردا مظلما ليؤدى إلى ضعف المحركات وهدء الحواس لتستريحوا فيه وتقديم الجار والمجرور على المفعول قد مر سره مرارا ﴿ والنهار مبصرا ﴾ أى مبصرا فيه أو به ﴿ إن الله لذو فضل ﴾ عظيم لا يوازيه ولا يدانيه فضل ﴿ على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواضع النعم وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم .

﴿ ذلكم ﴾ المتفرد بالأفعال المقتضية للألوهية والربوبية ﴿ الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو ﴾ أخبار مترادفة تخصص اللاحقة منها السابقة وتقررها وقرىء خالق بالنصب على الاختصاص فيكون لا إله إلا هو استئنافا بما هو كالنتيجة للأوصاف المذكورة ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ فكيف ومن أى وجه تصرفون عن عبادته خاصة إلى عبادة غيره ﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ أى مثل ذلك الإفك العجيب الذى لا وجه له ولا مصحح أصلا يؤفك كل من جحد بآياته تعالى أى آية كانت لا إفكا آخر له وجه ومصحح فى الجملة ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء ﴾ بيان لفضله تعالى المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان وقوله تعالى : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ بيان لفضله المتعلق بأنفسهم والفاء فى فأحسن تفسيرية فإن الإحسان عين التصوير أى صوركم أحسن تصوير حيث خلقكم منتصب القامة بادى البشرة متناسب الأعضاء والتخطيطات متهيئا لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أى اللذائذ ﴿ ذلكم ﴾ الذى نعت بما ذكر من النعوت الجليلة ﴿ الله ربكم ﴾ خبران لذلكم ﴿ فتبارك الله ﴾ أى تعالى بذاته ﴿ رب العالمين ﴾ أى مالكهم ومربيهم والكل تحت ملكوته مفتقر إليه فى ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعا بحيث لو انقطع فيضه عنه آنا لانعدم بالكلية ﴿ هو الحى ﴾ المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية ﴿ لا إله إلا هو ﴾ إذ لا موجود يدانيه فى ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ فادعوه ﴾ فاعبدوه خاصة لاختصاص ما يوجبه به تعالى ﴿ مخلصين

له الدين ﴾ أى الطاعة من الشرك الجلى والخفى ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ أى قائلين ذلك ، عن ابن عباس رضى الله عنهما من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين .

من دلائل التوحيد

﴿ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى ﴾ من الحجج والآيات أو من الآيات لكونها مؤيدة لأدلة العقل منبهة عليها فإن الآيات التنزيلية مفسرات للآيات التكوينية الآفاقية والأنفسية ﴿ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ أى بأن أنقاد له وأخلص له دينى ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ﴾ أى فى ضمن خلق آدم عليه الصلاة والسلام منه حسبما مر تحقيقه مرارا ﴿ ثم من نطفة ﴾ أى ثم خلقكم خلقا تفصيليا من نطفة أى منى ﴿ ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ﴾ أى أطفالا والإفراد لإرادة الجنس أو لإرادة كل واحد من أفراده ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ علة ليخرجكم معطوفة على علة أخرى له مناسبة لها كأنه قيل ثم يخرجكم طفلا لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل وكذا الكلام فى قوله تعالى ﴿ ثم لتكونوا شيوخا ﴾ ويجوز عطفه على لتبلغوا وقرىء شيخا كقوله تعالى طفلا ﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ أى من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشد أو قبله أيضا ﴿ ولتبلغوا ﴾ متعلق بفعل مقدر بعده أى ولتبلغوا ﴿ أجلا مسمى ﴾ هو وقت الموت أو يوم القيامة يفعل ذلك ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ ولكى تعقلوا ما فى ذلك من فنون الحكم والعبر ﴿ هو الذى يحيى ﴾ الأموات ﴿ ويميت ﴾ الأحياء أو الذى يفعل الإحياء والإماتة ﴿ فإذا قضى أمرا ﴾ أى أراد أمرا من الأمور ﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾ من غير توقف على شىء من الأشياء أصلا وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى المقدورات عند تعلق إرادته بها وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه من غير أن يكون هناك أمر ومأمور والفاء الأولى للدلالة على أن مابعدها من نتائج ما قبلها من اختصاص الإحياء والإماتة

به سبحانه ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ﴾ تعجيب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن وبسائر الكتب والشرائع وترتيب الوعيد على ذلك كما أن ما سبق من قوله تعالى (إن الذين يجادلون فى آيات الله) الخ بيان لابتناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد يدخل تحت الوجود هو الأمنية الفارغة فلا تكرير فيه أى انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين فى آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعى إلى الإقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها بالكلية وقوله تعالى ﴿ الذين كذبوا بالكتاب ﴾ أى بكل القرآن أو بجنس الكتب السماوية فإن تكذيبه تكذيب لها فى محل الجر على أنه بدل من الموصول الأول أو فى حيز النصب أو الرفع على الذم وإنما وصل الموصول الثانى بالتكذيب دون المجادلة لأن المعتاد وقوع المجادلة فى بعض المواد لا فى الكل وصيغة الماضى للدلالة على التحقق كما أن صيغة المضارع فى الصلة الأولى للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها ﴿ وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ من سائر الكتب أو مطلق الوحى والشرائع .

﴿ فسوف يعلمون ﴾ كنه ما فعلوا من الجدال والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم ﴾ ظرف ليعلمون إذ المعنى على الاستقبال ولفظ الماضى لتيقنه ﴿ والسلاسل ﴾ عطف على الأغلال والجار فى نية التأخير وقيل مبتدأ حذف خبره لدلالة خبر الأول عليه وقيل قوله تعالى ﴿ يسحبون ﴾ بحذف العائد أى يسحبون بها وهو على الأولين حال من المستكن فى الظرف وقيل استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حالهم كأنه قيل فماذا يكون حالهم بعد ذلك فقيل يسحبون ﴿ فى الحميم ﴾ وقرىء والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء على تقديم المفعول وعطف الفعلية على الاسمية والسلاسل بالجر حملا على المعنى لأن قوله تعالى (الأغلال فى أعناقهم) فى معنى أعناقهم فى الأغلال أو إضمارا للباء ويدل عليه القراءة به ﴿ ثم فى النار يسجرون ﴾ أى يحرقون من سجر التنور إذا ملأه بالوقود ومنه السجير للصديق كأنه سجر بالحب أى ملىء

والمراد بيان أنهم يعذبون بأنواع العذاب وينقلون من باب إلى باب ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا ﴾ أى يقال لهم ويقولون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق ومعنى ضلوا عنا غابوا عنا وذلك قبل أن يقرن بهم آلهتهم أو ضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم ﴿ بل لم نكن ندعو من قبل شيئا ﴾ أى بل تبين لنا أنا لم نكن نعبد شيئا بعبادتهم لما ظهر لنا اليوم أنهم لم يكونوا شيئاً يعتد به كقولك حسبته شيئا فلم يكن:

﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الضلال الفظيع ﴿ يضل الله الكافرين ﴾ حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم فى الآخرة أو كما ضل عنهم آلهتهم يضلهم عن آلهتهم حتى لو تطالبوا[1] لم يتصادفوا ﴿ ذلكم ﴾ الإضلال ﴿ بما كنتم تفرحون فى الأرض ﴾ أى تبطرون وتتكبرون ﴿ بغير الحق ﴾ وهو الشرك والطغيان ﴿ وبما كنتم تمرحون ﴾ تتوسعون فى البطر والأشر والالتفات للمبالغة فى التوبيخ .

﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ أى أبوابها السبعة المقسومة لكم ﴿خالدين فيها﴾ مقدرا خلودكم فيها ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾ أى عن الحق جهنم والتعبير عن مدخلهم بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود ﴿ فاصبر ﴾ الى أن يلاقوا ما أعدلهم من العذاب ﴿ إن وعد الله ﴾ بتعذيبهم ﴿حق﴾ كائن لا محالة ﴿ فإما نرينك ﴾ أى فإن نرك وما مزيدة لتأكيد الشرطية ولذلك لحقت النون الفعل ولا تلحقه مع إن وحدها ﴿ بعض الذى نعدهم ﴾ وهو القتل والأسر ﴿ أو نتوفينك ﴾ قبل ذلك ﴿فإلينا يرجعون﴾ يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم وهو جواب نتوفينك وجواب نرينك محذوف مثل فذاك ويجوز أن يكون جوابا لهما بمعنى إن نعذبهم فى حياتك أو لم نعذبهم فإنا نعذبهم فى الآخرة أشد العذاب وأفظعه كما ينبيء عنه الاقتصار على ذكر الرجوع فى هذا المعرض ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ إذ قيل عدد الأنبياء عليهم

---

(١) فى ١١ : لو طلبوا.

السلام مائة وأربعةوعشرون ألفا والمذكور قصصهم أفراد معدودة وقيل أربعة آلاف من بنى إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس ﴿وما كان لرسول﴾ أى وما صح وما استقام لرسول منهم ﴿أن يأتى بآية إلا بإذن الله﴾ فإن المعجزات على تشعب فنونها عطايا من الله تعالى قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة كسائر القسم ليس لهم اختيار فى إيثار بعضها والاستبداد بإتيان المقترح منها ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ بالعذاب فى الدنيا والآخرة ﴿قضى بالحق﴾ بإنجاء المحق وإثابته وإهلاك المبطل وتعذيبه ﴿وخسر هنالك﴾ أى وقت مجىء أمر الله اسم مكان استعير للزمان ﴿المبطلون﴾ أى المتمسكون بالباطل على الإطلاق فيدخل فيهم المعاندون المقترحون دخولا أوليا.

﴿الله الذى جعل لكم الأنعام﴾ قيل هى الإبل خاصة أى خلقها لأجلكم ومصلحتكم وقوله تعالى ﴿لتركبوا منها ومنها تأكلون﴾ تفصيل لما دل عليه اللام إجمالا ومن لابتداء الغاية ومعناها ابتداء الركوب والأكل منها أى تعلقهما بها وقيل للتبعيض أى لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها لا على أن كلا من الركوب والأكل مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن كل بعض منها صالح لكل منهما وتغيير النظم الكريم فى الجملة الثانية لمراعاة الفواصل مع الإشعار بأصالة الركوب ﴿ولكم فيها منافع﴾ أخر غير الركوب والأكل كألبانها وأوبارها وجلودها ﴿ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم﴾ بحمل أثقالكم من بلد إلى بلد ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ لعل المراد به حمل النساء والولدان عليها بالهودج وهو السر فى فصله عن الركوب والجمع بينها وبين الفلك فى الحمل لما بينهما من المناسبة التامة حتى سميت سفائن البر وقيل هى الأزواج الثمانية فمعنى الركوب والأكل منها تعلقهما بالكل لكن لا على أن كلا منهما يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن بعضها يتعلق به كلاهما كالإبل والبقر والمنافع تعم الكل وبلوغ الحاجة عليها يعم البقر ﴿ويريكم آياته﴾ دلائله الدالة على كمال قدرته ووفور رحمته ﴿فأى آيات الله﴾ اى فأى آية من تلك الآيات الباهرة ﴿تنكرون﴾ فإن كلامنها من الظهور بحيث

لا يكاد يجترىء على إنكارها من له عقل فى الجملة وهو ناصب لأى
الآيات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وتهويل إنكارها وتذكيراتها (١)
الشائع المستفيض والتأنيث قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الأ
الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهى فى أى أغرب لإبهامه .

﴿أفلم يسيروا﴾ أى أقعدوا فلم يسيروا ﴿فى الأرض فينظروا ك
عاقبة الذين من قبلهم﴾ من الأمم المهلكة وقوله تعالى ﴿كانوا أكثر منه
قوة﴾ الخ استئناف مسوق لبيان مبادى أحوالهم وعواقبها ﴿وا
الأرض﴾ باقية بعدهم من الأبنية والقصور والمصانع وقيل هى آثار
فى الأرض لعظم أجرامهم ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ ما الأو
أو استفهامية منصوبة بأغنى والثانيـــة موصولة أو مصدرية
أى لم يغن عنهم أو أى شىء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم ﴿فلما جاءته
بالبينات﴾ بالمعجزات أو بالآيات الواضحة ﴿فرحوا بما عندهم من
أى أظهروا الفرح بذلك وهو ما لهم من العقائد الزائغة والشبه ال
وتسميتها علما للتهكم بهم أو علم الطبائع والتنجيم والصنائع ونحو ذلك أو
الأنبياء الذى أظهره رسلهم على أن معنى فرحهم به ضحكهم منه واستهز
ويؤيده قوله تعالى ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ وقيل الفرح
للرسل فإنهم لما شاهدوا تمادى جهلهم وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا
العلم المؤدى إلى حسن العاقبة وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء
واستهزائهم ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ شدة عذابنا ومنه قوله تعالى (بعذاب
﴿قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ يعنون ا
﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ أى عند رؤية عذابنا لامتناع
حينئذ ولذلك قيل فلم يك بمعنى لم يصح ولم يستقم والفاء الأولى بيان
كثرتهم وشدة قوتهم وما كانوا يكسبون بذلك زعما منهم أن ذلك يغنى ع

(١) سقطت من ط .

يترتب عليه إلا عدم الإغناء فبهذا الاعتبار جرى مجرى النتيجة وإن كان عكس الغرض ونقيض المطلوب كما فى قولك وعظته فلم يتعظ والثانية تفسير وتفصيل لما أبهم وأجمل من عدم الإغناء وقد كثر فى الكلام مثل هذه الفاء ومبناها على أن التفسير بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال والثالثة لمجرد التعقيب وجعل ما بعدها تابعا لما قبلها واقعا عقيبه لأن مضمون قوله تعالى فلما جاءتهم الخ هو أنهم كفروا فصار بمجموع الكلام بمنزلة أن يقال فكفروا ثم لما رأوا بأسنا آمنوا والرابعة للعطف على آمنوا كأنه قيل فآمنوا فلم ينفعهم لأن النافع هو الإيمان الاختيارى ﴿ سنة الله التى قد خلت فى عباده ﴾ أى سن الله تعالى ذلك سنة ماضية فى العباد وهو من المصادر المؤكدة ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ أى وقت رؤيتهم البأس على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفا . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبى ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له .

* * *

سورة السجدة

مكية ، وآيها ثلاث أو أربع وخمسون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ حم ﴾ إن جعل اسما للسورة فهو إما خبر لمبتدأ محذوف وهو الأظهر لما مر [من][1] سره مراراً أو مبتدأ خبره ﴿ تنزيل ﴾ وهو على الأول خبر بعد خبر وخبر لمبتدأ محذوف إن جعل مسروداً على نمط التعديد وقوله تعالى ﴿ من الرحمن الرحيم ﴾ متعلق به مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أو خبر آخر أو تنزيل مبتدأ لتخصصه بالصفة خبره ﴿ كتاب ﴾ وهو على

(١) سقطت من ط .

الوجوه الأول بدل منه أو خبر آخر أو خبر لمحذوف ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم للإيذان بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية حسبما ينبىء عنه قوله تعالى وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿ فصلت آياته ﴾ ميزت بحسب النظم والمعنى وجعلت تفاصيل فى أساليب مختلفة ومعان متغايرة من أحكام وقصص ومواعظ وأمثال ووعد ووعيد وقرئ فصلت أى فرقت بين الحق والباطل أو فصل بعضها من بعض باختلاف الأساليب والمعانى من قولك فصل من البلد فصولا ﴿ قرآنا عربيا ﴾ نصب على المدح أو الحالية من كتاب لتخصصه بالصفة أو من آية ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى معانيه لكونه على لسانهم وقيل لأهل العلم والنظر لأنهم المنتفعون به واللام متعلقة بمحذوف هو صفة أخرى لقرآنا أى كائنا لقوم الخ أو بتنزيل على أن من الرحمن الرحيم ليست بصفة له أو بفصلت ﴿ بشيرا ونذيرا ﴾ صفتان أخريان لقرآنا أى بشيرا لأهل الطاعة ونذيرا لأهل المعصية أو حالان من كتاب أو من آياته وقرئا بالرفع على الوصفية لكتاب أو الخبرية لمحذوف ﴿ فأعرض أكثرهم ﴾ عن تدبره مع كونه على لغتهم ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ سماع تفكر وتأمل حتى يفهموا جلالة قدره فيؤمنوا به ﴿ وقالوا ﴾ أى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند دعوته إياهم إلى الإيمان والعمل بما فى القرآن ﴿ قلوبنا فى أكنة ﴾ أى أغطية متكاثفة ﴿ مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ﴾ أى صمم وأصله الثقل وقرئ بالكسر وقرئ بفتح القاف ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ غليظ يمنعنا عن التواصل ومن للدلالة على أن الحجاب مبتدأ من الجانبين بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ولم يبق ثمة فراغ أصلا وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ومج أسماعهم له كأن بها صمما وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول عليه الصلاة والسلام .

﴿ فاعمل ﴾ أى على دينك وقيل فى إبطال أمرنا ﴿ إننا عاملون ﴾ أى على ديننا وقيل فى إبطال أمرك والأول هو الأظهر فإن قوله تعالى ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ تلقين للجواب عنه أى لست من

من جنس مغاير لكم حتى يكون بينى و بينكم حجاب و تباين مصحح لتباين الأعمال والأديان كما ينبىء عنه قولكم فاعمل إننا عاملون بل إنما أنا بشر مثلكم مأمور بما أمرتم به حيث أخبرنا جميعا بالتوحيد بخطاب جامع بينى وبينكم فإن الخطاب فى الحكم محكى منتظم للكل لا أنه خطاب منه عليه الصلاة والسلام للكفرة كما فى مثلكم وقيل المعنى لست ملكا ولا جنيا لا يمكنكم التلقى منه ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول والأسماع وإنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة فى العمل وقد تدل عليهما دلائل العقل وشواهد النقل وقيل المعنى إنى لست بملك وإنما أنا بشر مثلكم وقد أوحى إلى دونكم فصحت بالوحى إلى وأنا بشر نبوتى وإذا صحت نبوتى وجب عليكم اتباعى فتأمل والفاء فى قوله تعالى ﴿ فاستقيموا إليه ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من إيحاء الوحدانية فإن ذلك موجب لاستقامتهم إليه تعالى بالتوحيد والإخلاص فى الأعمال ﴿ واستغفروه ﴾ مما كنتم عليه من سوء العقيدة والعمل وقوله تعالى ﴿ وويل للمشركين ﴾ ترهيب وتنفير لهم عن الشرك إثر ترغيبهم فى التوحيد ووصفهم بقوله تعالى ﴿ الذين لا يؤتون الزكوة ﴾ لزيادة التحذير والتخويف عن منع الزكاة حيث جعل من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة حيث قيل ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ وهو عطف على لا يؤتون داخل فى حيز الصلة واختلافهما بالفعلية والإسمية لما أن عدم إيتائها متجدد والكفر أمر مستمر ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه فسر لا يؤتون الزكاة بقوله لا يقولون لا إله إلا الله فإنها زكاة الأنفس والمعنى لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد وهو مأخوذ من قوله تعالى (ونفس وما سواها) وقال الضحاك ومقاتل لا ينفقون فى الطاعات ولا يتصدقون وقال مجاهد لا يزكون أعمالهم .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ أى لا يمن به عليهم من المن وأصله الثقل أو لا يقطع من مننت الحبل قطعته وقيل نزلت فى المرضى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملونه ﴿قل أئنكم لتكفرون﴾ إنكار وتشنيع لكفرهم وإن واللام إما لتأكيد الإنكار

وتقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة لا لإنكار التأكيد وإما للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد وإنما علق كفرهم بالموصول حيث قيل ﴿ بالذى خلق الأرض فى يومين ﴾ لتفخيم شأنه تعالى واستعظام كفرهم به أى بالعظيم الشأن الذى قدر وجودها أى حكم بأنها ستوجد فى مقدار يومين أوفى نوبتين على أن ما يوجد فى كل نوبة يوجد بأسرع ما يكون وإلا فاليوم الحقيقى إنما يتحقق بعد وجودها وتسوية السموات وإبداع نيراتها وترتيب حركاتها ﴿ وتجعلون له أندادا ﴾ عطف على تكفرون داخل فى حكم الإنكار والتوبيخ وجمع الأنداد باعتبار ما هو الواقع لا بأن يكون مدار الإنكار هو التعدد أى وتجعلون له أنداد والحال أنه لا يمكن أن يكون له ند واحد ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته فى العظمة وإفراد الكاف لما مر مرارا من أن المراد ليس تعيين المخاطبين وهو مبتدأ خبره ما بعده أى ذلك العظيم الشأن الذى فعل ماذكر ﴿ رب العالمين ﴾ أى خالق جميع الموجودات ومربيها دون الأرض خاصة فكيف يتصور أن يكون أخس مخلوقاته نداً له وقوله تعالى ﴿ وجعل فيها رواسى ﴾ عطف على خلق داخل فى حكم الصلة والجعل إبداعى وحديث لزوم الفصل بينهما بجملتين خارجتين عن حيز الصلة مدفوع بأن الأولى متحدة بقوله تعالى تكفرون فهو بمنزلة الإعادة له والثانية اعتراضية مقررة لمضمون الكلام بمنزلة التأكيد فالفصل بهما كلا فصل على أن فيه فائدة التنبيه على أن مجرد المعطوف عليه كاف فى تحقق ربوبيته للعالمين واستحالة أن يجعل له ند فكيف إذا انضم إليه المعطوفات وقيل هو عطف على مقدر أى خلقها وجعل الخ وقيل هو كلام مستأنف وأيا ماكان فالمراد تقدير الجعل لا الجعل بالفعل وقوله تعالى ﴿ من فوقها ﴾ متعلق بجعل أو بمضمر هو صفة لرواسى أى كائنة من فوقها مرتفعة عليها لتكون منافعها معرضة لأهلها ويظهر للنظار ما فيها من مراصد الاعتبار ومطارح الأفكار ﴿ وبارك فيها ﴾ أى قدر أن يكثر خيرها بأن يخلق أنواع الحيوانات التى من جملتها الإنسان وأصناف النبات

التى منها معايشهم ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ أى حكم بالفعل بأن يوجد فيما سيأتى لأهلها من الأنواع المختلفة أقواتها المناسبة لها على مقدار معين تقتضيه الحكمة وقرىء وقسم فيها أقواتها ﴿ فى أربعة أيام ﴾ متعلق بحصول الأمور المذكورة لا بتقديرها أى قدر حصولها فى يومين وإنما قيل فى أربعة أيام أى تتمة أربعة تصريحا بالفذلكة ﴿ سواء ﴾ مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لأيام أى استوت سواء أى استواء كما ينبىء عنه القراءة بالجر وقيل هو حال من الضمير فى أقواتها أو فى فيها وقرىء بالرفع أى هى سواء ﴿ للسائلين ﴾ متعلق بمحذوف تقديره هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها أو بقدر أى قدر فيها أقواتها لأجل السائلين أى الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين وقوله تعالى :

﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ شروع فى بيان كيفية التكوين إثر كيفية التقدير ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها لما أن بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادى معايشهم قبل خلقهم مما يحملهم على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان أى ثم قصد نحوها قصدا سويا لا يلوى على غيره ﴿ وهى دخان ﴾ أى أمر ظلمانى عبر به عن مادتها أو عن الأجزاء المتصغرة التى ركبت هى منها أو دخان مرتفع من الماء كما سيأتى وإنما خص الاستواء بالسماء مع أن الخطاب المترتب عليه متوجه إليهما معا حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿ فقال لها وللأرض ﴾ اكتفاء بذكر تقدير ما فيها كأنه قيل فقال لها وللأرض التى قدر وجود ما فيها ﴿ ائتيا ﴾ أى كونا واحدثا على وجه معين وفى وقت مقدر لكل منكما وهو عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقا فعليا بطريق التمثيل بعد تقدير أمرهما من غير أن يكون هناك أمر ومأمور كما فى قوله تعالى كن وقوله تعالى ﴿ طوعا أو كرها ﴾ تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لا لإثبات الطوع والكره لهما وهما مصدران وقعا موقع الحال أى طائعتين أو كارهتين وقوله تعالى ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ أى منقادين تمثيل لكمال تأثرهما بالذات عن القدرة الربانية وحصولهما كما أمرتا به وتصوير الكون وجودهما كما هما عليه جاريا على مقتضى الحكمة البالغة فإن الطوع

منبىء عن ذلك والكره موهم لخلافه وإنما قيل طائعين باعتبار كونهما فى معرض الخطاب والجواب كقوله تعالى (ساجدين) وقوله تعالى ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ تفسير وتفصيل لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالأمر وجوابه لا أنه فعل مترتب على تكوينها أى خلقهن خلقا إبداعيا وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة والضمير إما للسماء على المعنى أو مبهم وسبع سموات حال على الأول تمييز على الثانى ﴿فى يومين﴾ فى وقت مقدر بيومين وقد بين مقدار زمان خلق الأرض وخلق ما فيها عند بيان تقديرهما فكان خلق الكل فى ستة أيام حسبما نص عليه فى مواقع من التنزيل .

﴿وأوحى فى كل سماء أمرها﴾ عطف على قضاهن أى خلق فى كل منها ما فيها من الملائكة والنيرات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى كما قاله قتادة والسدى فالوحى عبارة عن التكوين كالأمر مقيد بما قيد به المعطوف عليه من الوقت أو أوحى إلى أهل كل منها أوامره وكلفهم ما يليق بهم من التكاليف فهو بمعناه ومطلق عن القيد المذكور وأيا ما كان فعلى ما قرر من التفصيل لا دلالة فى الآية الكريمة على الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء وإنما الترتيب بين التقدير والإيجاد وإما على تقدير كون الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة فهى وما فى سورة البقرة من قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) تدلان على تقدم خلق الأرض وما فيها على خلق السماء وما فيها وعليه إطباق أكثر أهل التفسير وقد روى أن العرش العظيم كان قبل خلق السموات والأرض على الماء ثم إنه تعالى أحدث فى الماء اضطرابا فأزبد فارتفع منه دخان فأما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات وروى أنه تعالى خلق جرم الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وخلق السموات وما فيهن يوم الخميس ويوم الجمعة وخلق آدم عليه السلام فى آخر ساعة منه وهى الساعة التى تقوم فيها القيامة وقيل إن خلق جرم

الأرض مقدم على خلق السموات لكن دحوها وخلق ما فيها مؤخر عنه لقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) ولما روى عن الحسن رحمه الله من أنه تعالى خلق الأرض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى (كانتا رتقا ففتقناهما) الآية وليس المراد بنظمها مع السماء فى سلك الأمر بالإتيان إنشاءها وإحداثها بل إنشاء دحوها وجعلها على وجه خاص يليق بها من شكل معين ووصف مخصوص كأنه قيل ائتيا على ما ينبغى أن تأتيا عليه ائتى يا أرض مدحوة قرارا ومهادا لأهلك وائتى ياسماء مقببة سقفاً لهم ومعنى الإتيان الحصول على ذلك الوجه كما تنبىء عنه قراءة آتيا وآتينا من المواتاة وهى الموافقة وأنت خبير بأن المذكور قبل الأمر بالإتيان ليس مجرد خلق جرم الأرض حتى يتأتى ماذكر بل خلق مافيها أيضا من الأمور المتأخرة عن دحوها قطعاً فالأظهر أن يسلك مسلك الأولين ويحمل الأمر بالإتيان على تكوينهما متوافقتين على الوجه المذكور وليس من ضرورته أن يكون دحوها مترتبا على ذلك التكوين وإنما اللازم ترتب حصول التوافق عليه ولا ريب فى أن تكوين السماء على الوجه اللائق بها كاف فى حصوله ولا يقدح فى ذلك تكوين الأرض على الوجه المذكور قبل ذلك وأن يجعل الأرض فى قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) منصوبا بمضمر قد حذف على شريطة التفسير ويجعل ذلك إشارة إلى ذكر ما ذكر من بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وغيرها لا إلى أنفسها وتحمل البعدية إما على أنه قاصر عن الأول فى الدلالة على القدرة القاهرة كما قيل وإما على أنه أدخل فى الإلزام لما أن المنافع المنوطة بما فى الأرض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر وأحاطتهم بتفاصيلها أكمل وليس ما روى عن الحسن رضى الله عنه نصا فى تأخر دحو الأرض عن خلق السماء فإن بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلق السماء بالواو فلا دلالة فى ذلك على الترتيب قطعا وقد نقل الإمام الواحدى عن مقاتل أن خلق السماء مقدم على إيجاد الأرض فضلا عن دحوها فلابد من حمل الأمر بإتيانهما حينئذ أيضا على

ما ذكر من التوافق والمواتاة ولا يقدح فى ذلك تقدم خلق السماء على خلق الأرض كما لم تقدح فيه تقدم خلق الأرض على خلق السماء هذا كله على تقدير كون كلمة ثم للتراخى الزمانى وأما على تقدير كونها للتراخى الرتبى كما جنح إليه الأكثرون فلا دلالة فى الآية الكريمة على الترتيب كما فى الوجه الأول وعلى ذلك بنى الكلام فى تفسير قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) الآية وإنما لم يحمل الخلق هناك على معنى التقدير كما حمل عليه ههنا لتوفية مقام الامتنان حقه ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ من الكواكب فإنها كلها ترى متلألئة عليها كأنها فيها والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بالأمر وقوله تعالى ﴿ وحفظا ﴾ مصدر مؤكد لفعل معطوف على زينا أى وحفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظا وقيل مفعول له على المعنى كأنه قيل وخلقنا المصابيح زينة وحفظا ﴿ ذلك ﴾ الذى ذكر بتفاصيله ﴿ تقدير العزيز العليم ﴾ المبالغ فى القدرة والعلم .

﴿ فإن أعرضوا ﴾ متصل بقوله تعالى (قل أئنكم) الخ أى فإن أعرضوا عن التدبر فيما ذكر من عظائم الأمور الداعية إلى الإيمان أو عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿ فقل ﴾ لهم ﴿ أنذرتكم ﴾ أى أنذركم وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الإنذار المنبىء عن تحقق المنذر به ﴿ صاعقة ﴾ أى عذابا هائلا شديد الوقع كأنه صاعقة ﴿ مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ وقرىء صعقة مثل صعقة عاد وثمود وهى المرة من الصعق أو الصعق يقال صعقته الصاعقة صعقا فصعق صعقا وهو من باب فعلته ففعل ﴿ إذ جاءتهم الرسل ﴾ حال من صاعقة عاد ولا سداد لجعله ظرفا لأنذرتكم أو صفة لصاعقة لفساد المعنى وأما جعله صفة لصاعقة عاد أى الكائنة إذ جاءتهم ففيه حذف الموصول مع بعض صلته ﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ متعلق بجاءتهم أى من جميع جوانبهم واجتهدوا بهم من كل جهة أو من جهة الزمان الماضى بالإنذار عما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل بالتحذير عما سيحيق بهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقيل المعنى جاءتهم الرسل المتقدمون والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم

إلى الحق منزلة مجيء أنفسهم فإن هودا وصالحا كانا داعيين لهم إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل بمن جاء من بين أيديهم أى من قبلهم وممن يجيء من خلفهم أى من بعدهم فكأن الرسل قد جاءوهم وخاطبوهم بقوله تعالى ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ أى بأن لا تعبدوا على أن أن مصدرية أو أى لا تعبدوا على أنها مفسرة ﴿ قالوا لو شاء ربنا ﴾ أى إرسال الرسل لا إنزال الملائكة كما قيل فإنه عار عن إفادة ما أرادوه من نفى رسالة البشر وقد مر فيما سلف ﴿ لأنزل ملائكة ﴾ أى لأرسلهم لكن لما كان إرسالهم بطريق الإنزال قيل لأنزل ﴿ فإنا بما أرسلتم به ﴾ أى على زعمكم وفيه ضرب تهكم بهم ﴿ كافرون ﴾ لما أنكم بشر مثلنا من غير فضل لكم علينا روى أن أبا جهل قال فى ملأ من قريش قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما وما يخفى على فأتاه فقال أنت يا محمد خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فيم تشتم آلهتنا وتضللنا فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسا وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن أى بنات قريش شئت وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ عتبة قال عليه الصلاة والسلام (بسم الله الرحمن الرحيم حم) إلى قوله تعالى (مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة على فيه عليه الصلاة والسلام وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا ما نرى عتبة إلا قد صبأ فانطلقوا إليه وقالوا يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت فغضب ثم قال والله لقد كلمته فأجابنى بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب .

﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض ﴾ شروع فى حكاية ما يخص بكل واحدة من الطائفتين من الجناية والعذاب إثر حكاية ما يعم الكل من الكفر

المطلق أى فتعظموا فيها على أهلها أو استعلوا فيها واستولوا على أهلها ﴿ بغير الحق ﴾ أى بغير استحقاق للتعظم والولاية ﴿ وقالوا ﴾ مدلين بشدتهم وقوتهم ﴿ من أشد منا قوة ﴾ حيث كانوا ذوى أجسام طوال وخلق عظيم وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده ﴿ أولم يروا ﴾ أى أغفلوا أو لم ينظروا ولم يعلموا علما جليا شبيها بالمشاهدة والعيان .

﴿أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ أى قدرة فإنه تعالى قادر بالذات مقتدر على ما لا يتناهى قوى على ما لا يقدر عليه غير مفيض للقوى والقدر على كل قوى وقادر وإنما أورد فى حيز الصلة خلقهم دون خلق السموات والأرض لادعائهم الشدة فى القوة وفيه ضرب من التهكم بهم ﴿وكانوا بآياتنا﴾ المنزلة على الرسل ﴿ يجحدون ﴾ أى ينكرونها وهم يعرفون حقيقتها وهو عطف على فاستكبروا كقوله تعالى وقالوا وما بينهما اعتراض للرد على كلمتهم الشنعاء ﴿فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً﴾ أى باردة تهلك وتحرق بشدة بردها من الصر وهو البرد الذى يصرأى يجمع ويقبض أوعاصفة تصوت فى هبوبها من الصرير ﴿فى أيام نحسات﴾ جمع نحسة من نحس نحسا نقيض سعد سعدا وقرىء بالسكون على التخفيف أو على أنه نعت على فعل أو وصف بمصدر مبالغة قيل كن آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء وما عذب قوم إلا فى يوم الأربعاء ﴿ لنذيقهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا﴾ وقرىء لنذيقهم على إسناد الإذاقة إلى الريح أو إلى الأيام وأضيف العذاب إلى الخزى الذى هو الذل والاستكانة على أنه وصف له كما يعرب عنه قوله سبحانه ﴿ ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ وهو فى الحقيقة وصف للمعذب وقد وصف به العذاب للمبالغة ﴿ وهم لا ينصرون ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه .

﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ فدللناهم على الحق بنصب الآيات التكوينية وإرسال الرسل وإنزال الآيات التشريعية وأزحنا عللهم بالكلية وقد مر تحقيق معنى الهدى فى تفسير قوله تعالى (هدى للمتقين) وقرىء ثمود بالنصب بفعل يفسره

ما بعده ومنونا فى الحالين وبضم الثاء ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أى اختاروا الضلالة على الهداية ﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾ داهية العذاب وقارعة العذاب والهون الهوان وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من اختيار الضلالة ﴿ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ من تلك الصاعقة ﴿ويوم يحشر أعداء الله﴾ شروع فى بيان عقوباتهم الآجلة إثر بيان عقوباتهم العاجلة والتعبير عنهم بأعداء الله تعالى لذمهم والإيذان بعلة ما يحيق بهم من ألوان العذاب وقيل المراد بهم الكفار من الأولين والآخرين ويرده ما سيأتى من قوله تعالى (فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) وقرىء يحشر على بناء الفاعل ونصب أعداء الله وبنون العظمة وضم الشين وكسرها ﴿إلى النار﴾ أى إلى موقف الحساب إذ هناك تتحقق الشهادة الآتية لا بعد تمام السؤال والجواب وسوقهم إلى النار والتعبير عنه بالنار إما للإيذان بأنها عاقبة حشرهم وأنهم على شرف دخولها وإما لأن حسابهم يكون على شفيرها ويوم إما منصوب باذكر أو ظرف لمضمر مؤخر قد حذف إيهاما لقصور العبارة عن تفصيله كما مر فى قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل) وقيل ظرف لما يدل عليه قوله تعالى ﴿فهم يوزعون﴾ أى يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا وهو عبارة عن كثرتهم وقيل يساقون ويدفعون إلى النار وقوله تعالى ﴿حتى إذا ما جاءوها﴾ أى جميعا غاية ليحشر أو ليوزعون أى حتى إذا حضروها وما مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾ فى الدنيا من فنون الكفر والمعاصى بأن ينطقها الله تعالى أو يظهر عليها آثار ما اقترفوا بها وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بشهادة الجلود شهادة الفروج وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها فى قوله تعالى ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا﴾ فإن ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحا وأجلب للخزى والعقوبة مما يشهد به السمع والأبصار من الجنايات المكتسبة بتوسطهما وقيل المراد بالجلود الجوارح أى سألوها سؤال توبيخ لما روى أنهم قالوا لها فعنكن كنا نناضل وفى رواية بعداً لكن وسحقا عنكن كنت أجادل وصيغة جمع

العقلاء فى خطاب الجلود وفى قوله تعالى ﴿قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء﴾ لوقوعها فى موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء أى أنطقنا الله الذى أنطق كل ناطق وأقدرنا على بيان الواقع فشهدنا عليكم بما عملتم بواسطتنا من القبائح ما كتمناها وقيل ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وليس بذاك لما فيه من إيهام الاضطرار فى الإخبار وقيل سألوها سؤال تعجب فالمعنى حينئذ ليس نطقنا بعجب من قدرة الله الذى أنطق كل حى ﴿وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ فإن من قدر على خلقكم وإنشائكم أولا وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه ثانيا لا يتعجب من إنطاقه لجوارحكم ولعل صيغة المضارع مع أن هذه المحاورة بعد البعث والرجع لما أن المراد بالرجع ليس مجرد الرد إلى الحياة بالبعث بل مايعمه وما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند التخاطب على تغليب المتوقع على الواقع على أن فيه مراعاة الفواصل وقوله تعالى:

﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ حكاية لما سيقال لهم يومئذ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريراً لجواب الجلود أى ما كنتم تستترون فى الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون من الناس مخافة الافتضاح عندهم بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأسا ﴿ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾ من القبائح المخفية فلا يظهرها فى الآخرة ولذلك اجترأتم على ما فعلتم وفيه إيذان بأن شهادة الجوارح بإعلامه تعالى حينئذ لا بأنها كانت عالمة بما شهدت به عند صدوره عنهم . عن ابن مسعود رضى الله عنه كنت مستتراً بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر ثقفيان وقرشى ، أو قرشيان وثقفى فقال أحدهم أترون أن الله يسمع ما نقول قال الآخر يسمع إن جهرنا ولا يسمع أن أخفينا فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (وما كنتم تستترون) الآية فالحكم المحكى حينئذ يكون خاصاً بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفرة ولعل الأنسب أن يراد بالظن معنى مجازى يعم معناه الحقيقى وما

يجرى مجراه من الأعمال المنبئة عنه كما فى قوله تعالى (يحسب أن ماله أخلده) ليعم ما حكى من الحال جميع أصناف الكفرة فتدبر ﴿ وذلكم ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ظنهم وما فيه من معنى البعد للإيذان بغاية بعد منزلته فى الشر والسوء وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم ﴾ خبران له ويجوز أن يكون ظنكم بدلا وأرداكم خبرا ﴿ فأصبحتم ﴾ بسبب ذلك الظن السوء الذى أهلككم ﴿ من الخاسرين ﴾ إذ صار ما منحوا لنيل سعادة الدارين سببا لشقاء النشأتين ﴿ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ﴾ أى محل ثواء وإقامة أبدية لهم بحيث لا براح لهم منها والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ويحكى سوء حالهم لغيرهم أو للاشعار بإبعادهم عن حيز الخطاب وإلقائهم فى غاية دركات النار ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ أى يسألوا العتبى وهو الرجوع إلى ما يحبونه جزعا مما هم فيه ﴿ فما هم من المعتبين ﴾ المجابين إليها ونظيره قوله تعالى (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) وقرىء وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين أى إن يسألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون لفوات المكنة.

﴿ وقيضنا لهم ﴾ أى قدرنا وقرنا للكفرة فى الدنيا ﴿ قرناء ﴾ جمع قرين أى أخدانا من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض وهو القشر وقيل أصل القيض البدل ومنه المقايضة للمعاوضة ﴿ فزينوا لهم ما بين أيديهم ﴾ من أمور الدنيا واتباع الشهوات ﴿ وما خلفهم ﴾ من أمور الآخرة حيث أروهم أن لا بعث ولا حساب ولا مكروه قط ﴿ وحق عليهم القول ﴾ أى ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب وتحقق موجبها ومصداقها وهو قوله تعالى لإبليس (فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقوله تعالى (لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) كما مر مرارا ﴿ فى أمم ﴾ حال من الضمير المجرور أى كائنين فى جملة أمم وقيل فى بمعنى مع وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بأعداء الله تعالى فيما سبق المعهودون من عاد وثمود لا الكفار من الأولين والآخرين كما قيل ﴿ قد خلت ﴾ صفة لأمم أي مضت

﴿من قبلهم من الجن والإنس﴾ على الكفر والعصيان كدأب هؤلاء ﴿إنهم كانوا خاسرين﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير للأولين والآخرين ﴿وقال الذين كفروا﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم أو قال بعضهم لبعض ﴿لاتسمعوا لهذا القرآن﴾ أى لا تنصتوا له ﴿والغوا فيه﴾ وعارضوه بالخرافات من الرجز والشعر والتصدية والمكاء أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوشوه على القارىء وقرىء بضم الغين والمعنى واحد يقال لغى يلغى كلقى يلقى ولغا يلغو إذا هذى ﴿لعلكم تغلبون﴾ أى تغلبونه على قراءته ﴿فلنذيقن الذين كفروا﴾ أى فوالله لنذيقن هؤلاء القائلين واللاغين أو جميع الكفار وهم داخلون فيهم دخولا أوليا ﴿عذابا شديداً﴾ لايقادر قدره ﴿ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون﴾ أى جزاء سيئات أعمالهم التى هى فى أنفسها أسوأ وقيل إنه لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة الملهوفين وصلة الأرحام وقرى الأضياف لأنها محبطة بالكفر وعن ابن عباس رضى الله عنهما عذابا شديدا يوم بدر وأسوأ الذى كانوا يعملون فى الآخرة ﴿ذلك﴾ مبتدأ وقوله تعالى ﴿جزاء أعداء الله﴾ خبره أى ما ذكر من الجزاء جزاء معد لأعدائه تعالى وقوله تعالى ﴿النار﴾ عطف بيان للجزاء أو ذلك خبر مبتدأ محذوف أى الأمر ذلك على أنه عبارة عن مضمون الجملة لا عن الجزاء وما بعده جملة مستقلة مبينة لما قبلها وقوله تعالى ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ جملة مستقلة مقررة لما قبلها أو النار مبتدأ هى خبره أى هى بعينها دار إقامتهم على أن فى التجريد وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله مبالغة لكماله فيها كما يقال فى البيضة عشرون منا حديد وقيل هى على معناها والمراد أن لهم فى النار المشتملة على الدركات دارا مخصوصة هم فيها خالدون ﴿جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ منصوب بفعل مقدر أى يجزون جزاء أو بالمصدر السابق فإن المصدر ينتصب بمثله كما فى قوله تعالى (فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) والباء الأولى متعلقة بجزاء والثانية بيجحدون قدمت عليه لمراعاة الفواصل أى بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقة أو يلغون فيها وذكر الجحود لكونه سببا للغو ،

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب ﴿ ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس ﴾ يعنون فريقى شياطين النوعين المقيضين لهم الحاملين لهم على الكفر والمعاصى بالتسويل والتزيين وقيل هما إبليس وقابيل فإنهما سنا الكفر والقتل بغير الحق وقرىء أرنا تخفيفاً كفخذ فى فخذ وقيل معناه أعطناهما وقرىء باختلاس كسرة الراء ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ أى ندوسهما (١) انتقاما منهما وقيل نجعلهما فى الدرك الأسفل ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ أى ذلا ومهانة أو مكانا ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ﴾ شروع فى بيان حسن أحوال المؤمنين فى الدنيا والآخرة بعد بيان سوء حال الكفرة فيهما أى قالوه اعترافا بربوبيته تعالى وإقرارا بوحدانيته ﴿ ثم استقاموا ﴾ أى ثبتوا على الإقرار ومقتضياته على أن ثم للتراخى فى الزمان أو فى الرتبة فإن الاستقامة لها الشأن كله وما روى عن الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم فى معناها من الثبات على الإيمان وإخلاص العمل وأداء الفرائض بيان لجزئياتها ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ من جهته تعالى يمدونهم فيما يعن لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام كما أن الكفرة يغويهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح وقيل تتنزل عند الموت بالبشرى وقيل إذا قاموا من قبورهم وقيل البشرى فى مواطن ثلاثة عند الموت وفى القبر وعند البعث والأظهر هو العموم والإطلاق كما ستعرفه ﴿ أن لا تخافوا ﴾ ما تقدمون عليه فإن الخوف غم يلحق لتوقع المكروه ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما خلفتم فإنه غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار وقيل المراد نهيهم عن الغموم على الاطلاق والمعنى أن الله تعالى كتب لكم الأمن من كل غم فلن تذوقوه أبدا وأن إما مفسرة أو مخففة من الثقيلة والأصل بأنه لا تخافوا والهاء ضمير الشأن وقرىء لا تخافوا أى يقولون لا تخافوا على أنه حال من الملائكة أو استئناف ﴿ وأبشروا ﴾ أى سروا ﴿ بالجنة التى كنتم توعدون ﴾

(١) فى الأصل : ندسهما .

فى الدنيا على ألسنة الرسل هذا من بشاراتهم فى أحد المواطن الثلاثة وقوله تعالى ﴿ نحن أولياؤكم فى الحيوة الدنيا ﴾ الخ من بشاراتهم فى الدنيا أى أعوانكم فى أموركم فلهمكم الحق ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم ولعل ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرين على الطاعات من أن ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييده لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام ﴿ وفى الآخرة ﴾ نمدكم بالشفاعة ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم ما يقع من التعادى والخصام ﴿ ولكم فيها ﴾ أى فى الآخرة ﴿ ما تشتهى أنفسكم ﴾ من فنون الطيبات ﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾ ما تتمنون افتعال من الدعاء بمعنى الطلب أى تدعون لأنفسكم وهو أعم من الأول ولكم فى الموضعين خبر وما مبتدأ وفيها حال من ضميره فى الخبر وعدم الاكتفاء بعطف ما تدعون على ما تشتهى للاشباع فى البشارة والإيذان باستقلال كل منهما ﴿ نزلا من غفور رحيم ﴾ حال مما تدعون مفيدة لكون ما تتمنونه بالنسبة إلى ما يعطون من عظائم الأجور كالنزل للضيف .

﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله ﴾ أى إلى توحيده تعالى وطاعته . عن ابن عباس رضى الله عنهما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى الإسلام وعنه أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى المؤذنين والحق أن حكمها عام لكل من جمع ما فيها من الخصال الحميدة وإن نزلت فيمن ذكر ﴿ وعمل صالحا ﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿ وقال إننى من المسلمين ﴾ ابتهاجا بأنه منهم أو اتخاذا للاسلام دينا ونحلة من قولهم هذا قول فلان أى مذهبه لا أنه تكلم بذلك وقرىء إنى بنون واحدة .

العلاقات الاجتماعية

﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الرب عز وجل ترغيباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصبر على أذية المشركين ومقابلة إساءتهم بالإحسان أى لا تستوى الخصلة الحسنة والسيئة فى الآثار والأحكام

ولا الثانية مزيدة لتأكيد النفي وقوله تعالى ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ الخ استئناف مبين لحسن عاقبة الحسنة أي إدفع السيئة حيث اعترضتك من بعض أعاديك بالتي هي أحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات كالإحسان إلى من أساء فإنه أحسن من العفو وإخراجه مخرج الجواب عن سؤال من قال كيف أصنع للمبالغة ولذلك وضع أحسن موضع الحسنة وقوله تعالى ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ بيان لنتيجة الدفع المأمور به أي فإذا فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل الولي الشفيق ﴿وما يلقاها﴾ أي ما يلقى هذه الخصلة والسجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إلا الذين صبروا﴾ أي شأنهم الصبر ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ من الخير وكمال النفس وقيل الحظ العظيم الجنة وقيل هو الثواب قيل نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان مؤذيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فصار وليا مصافيا ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ النزغ والنسخ بمعنى وهو شبه النخس شبه به وسوسة الشيطان لأنها بعث على الشر وجعل نازغا على طريقة جد جده أو أريد وإما ينزغنك نازغ وصفا للشيطان بالمصدر أي وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿فاستعذ بالله﴾ من شره ولا تطعه ﴿إنه هو السميع﴾ باستعاذتك ﴿العليم﴾ بنيتك أو بصلاحك وفي جعل ترك الدفع بالأحسن من آثار نزغات الشيطان مزيد تحذير وتنفير عنه ﴿ومن آياته﴾ الدالة على شئونه العظيمة ﴿الليل والنهار والشمس والقمر﴾ كل منها مخلوق من مخلوقاته مسخر لأمره ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر﴾ لأنهما من جملة مخلوقاته المسخرة لأوامره مثلكم ﴿واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ الضمير للأربعة لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث أو لأنها عبارة عن الآيات وتعليق الفعل بالكل مع كفاية بيان مخلوقية الشمس والقمر للإيذان بكمال سقوطهما عن رتبة المسجودية بنظمهما في المخلوقية في سلك الأعراض التي لا قيام لها بذاتها وهو السر في نظم الكل في سلك آياته تعالى ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ فإن السجود أقصى مراتب العبادة فلا بد من تخصيصه به سبحانه وهو موضع السجود عند الشافعي رحمه الله وعندنا آخر الآية الأخرى لأنه

تمام المعنى ﴿فإن استكبروا﴾ عن الامتثال ﴿فالذين عند ربك﴾ من الملائكة ﴿يسبحون له بالليل والنهار﴾ أى دائما ﴿وهم لا يسأمون﴾ لا يفترون ولا يملون وقرىء لا يسأمون بكسر الياء .

من آيات الله

﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة﴾ يابسة متطامنة مستعار من الخشوع بمعنى التذلل ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء﴾ أى المطر ﴿اهتزت وربت﴾ أى تحركت بالنبات وانتفخت لأن النبت إذا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ثم تصدعت عن النبات وقيل تزخرفت بالنبات وقرىء ربأت أى ارتفعت ﴿إن الذى أحياها﴾ بما ذكر بعد موتها ﴿لمحيى الموتى﴾ بالبعث ﴿إنه على كل شىء﴾ من الأشياء التى من جملتها الإحياء ﴿قدير﴾ مبالغ فى القدرة ﴿إن الذين يلحدون﴾ يميلون عن الاستقامة وقرىء يلحدون ﴿فى آياتنا﴾ بالطعن فيها وتحريفها بحملها على المحامل الباطلة ﴿لا يخفون علينا﴾ فنجازيهم بإلحادهم وقوله تعالى :

﴿أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمنا يوم القيامة﴾ تنبيه على كيفية الجزاء ﴿اعملوا ما شئتم﴾ من الأعمال المؤدية إلى ما ذكر من الإلقاء فى النار والإتيان آمنا وفيه تهديد شديد ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم وقوله تعالى :

﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ بدل من قوله تعالى إن الذين يلحدون الخ وخبر إن هو الخبر السابق وقيل مستأنف وخبرها محذوف وقال الكسائى سد مسده الخبر السابق والذكر القرآن وقوله تعالى ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أى كثير المنافع عديم النظير أو منيع لا تتأتى معارضته جملة حالية مفيدة لغاية شناعة الكفر به وقوله تعالى ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أى لا يتطرق اليه الباطل من جهة من الجهات صفة أخرى لكتاب وقوله تعالى ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ خبر لمبتدأ محذوف أو صفة أخرى

لكتاب مفيدة لفخامته الاضافية كما أن الصفتين السابقتين مفيدتان لفخامته الذاتية وقوله تعالى لا يأتيه الخ اعتراض عند من لا يجوز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح كل ذلك لتأكيد بطلان الكفر بالقرآن وقوله تعالى ﴿ ما يقال لك ﴾ الخ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يصيبه من أذية الكفار أى ما يقال فى شأنك وشأن ما أنزل إليك من القرآن من جهة كفار قومك ﴿إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ أى إلا ما قد قيل فى حقهم مما لا خير فيه ﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ لأنبيائه ﴿ وذو عقاب أليم﴾ لأعدائهم وقد نصر من قبلك من الرسل وانتقم من أعدائهم وسيفعل مثل ذلك بك وبأعدائك أيضاً ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجميا ﴾ جواب لقولهم هلا أنزل القرآن بلغة العجم والضمير للذكر ﴿لقالوا لولا فصلت آياته ﴾ أى بينت بلسان نفقهه وقوله تعالى ﴿ أأعجمى وعربى ﴾ إنكار مقرر للتحضيض والأعجمى يقال لكلام لا يفهم وللمتكلم به والياء للمبالغة فى الوصف كأحمرى والمعنى أكلام أعجمى ورسول أو مرسل إليه عربى على أن الأفراد مع كون المرسل إليهم أمة جمة لما أن المراد بيان التنافى والتنافر بين الكلام وبين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحدا أو جمعا وقرىء أعجمى أى أكلام منسوب إلى أمة العجم وقرىء أعجمى على الأخبار بأن القرآن أعجمى والمتكلم والمخاطب عربى ويجوز أن يراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربيا لإفهام العرب وأياما كان فالمقصود بيان أن آيات الله تعالى على أى وجه جاءتهم وجدوا فيها متعنتا يتعللون به ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى ﴾ يهديهم إلى الحق ﴿ وشفاء ﴾ لما فى الصدور من شك وشبهة ﴿ والذين لا يؤمنون ﴾ مبتدأ خبره ﴿ فى آذانهم وقر ﴾ على أن التقدير هو أى القرآن فى آذانهم وقر على أن وقر خبر للضمير المقدر وفى آذانهم متعلق بمحذوف وقع حالا من وقر وهو أوفق لقوله تعالى ﴿ وهو عليهم عمى ﴾ وقيل خبر الموصول فى آذانهم ووقر فاعل الظرف وقيل وقر مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للموصول وقيل التقدير والذين لا يؤمنون فى آذانهم منه وقر ومن جوز العطف على عاملين عطف الموصول على الموصول

الأول أى هو للأولين هدى وشفاء وللآخرين وقر فى آذانهم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصول الثانى باعتبار اتصافه بما فى حيز صلته وملاحظة ماأثبت له وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته فى الشر مع ما فيه من كمال المناسبة للنداء من بعيد أى أولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من التصام عن الحق الذى يسمعونه والتعامى عن الآيات الظاهرة التى يشاهدونها ﴿ينادون من مكان بعيد﴾ تمثيل لهم فى عدم قبولهم واستماعهم له بمن ينادى من مسافة نائية لا يكاد يسمع من مثلها الأصوات ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أن الاختلاف فى شأن الكتب عادة قديمة للأمم غير مختص بقومك على منهاج قوله تعالى (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) أى وبالله لقد آتيناه التوراة فاختلف فيها فمن مصدق لها ومكذب وهكذا حال قومك فى شأن ما آتيناك من القرآن فمن مؤمن به وكافر ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ فى حق أمتك المكذبة وهى العدة بتأخير عذابهم وفصل ما بينهم وبين المؤمنين من الخصومة إلى يوم القيامة بنحو قوله تعالى (بل الساعة موعدهم) وقوله تعالى (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) ﴿لقضى بينهم﴾ باستئصال المكذبين كما فعل بمكذبى الأمم السالفة ﴿وإنهم﴾ أى كفار قومك ﴿لفى شك منه مريب﴾ أى من القرآن وجعل الضمير الأول لليهود والثانى للتوراة مما لا وجه له ﴿من عمل صالحا﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها ﴿فلنفسه﴾ أى فلنفسه يعمله أو فنفعه لنفسه لا لغيره ﴿ومن أساء فعليها﴾ ضرره لا على غيره ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله مبنى على تنزيل ترك إثابة المحسن بعمله أو إثابة الغير بعمله وتنزيل التعذيب بغير إساءة أو بإساءة غيره منزلة الظلم الذى يستحيل صدوره عنه سبحانه وتعالى وقد مر مافى المقام من التحقيق والتفصيل فى سورة آل عمران وسورة الأنفال .

﴿إليه يرد علم الساعة﴾ أى إذا سئل عنها يقال الله يعلم أو لا يعلمها إلا الله تعالى ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ أى من أوعيتها جمع كم بالكسر وهو

وعاء الثمرة كجف الطلعة وقرىء من ثمرة على إرادة الجنس والجمع لاختلاف الأنواع وقد قرىء بجمع الضمير أيضا وما نافية ومن الأولى مزيدة للاستغراق واحتمال أن تكون ما موصولة معطوفة على الساعة ومن مبينة بعيد ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع ﴾ أى حملها وقوله تعالى ﴿ إلا بعلمه ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى وما يحدث شىء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع ملابسا بشىء من الأشياء إلا ملابسا بعلمه المحيط ﴿ ويوم يناديهم أين شركائى ﴾ أى بزعمكم كما نص عليه فى قوله تعالى (نادوا شركائى الذين زعمتم) وفيه تهكم بهم وتقريع لهم ويوم منصوب باذكر أو ظرف لمضمر مؤخر قد ترك إيذانا بقصور البيان عنه كما مر فى قوله تعالى(يوم يجمع الله الرسل) ﴿قالوا آذناك ﴾ أى أخبرناك ﴿ ما منا من شهيد لهم بالشركة إذ تبرأنا منهم لما عاينا الحال وما منا أحد إلا وهو موحد لك أو ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم حينئذ وقيل هو قول الشركاء أى ما منا من شهيد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين وقولهم آذناك إما لأن هذا التوبيخ مسبوق بتوبيخ آخر مجاب عنه[1] بهذا الجواب أو لأن معناه أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه أو لأن معناه الإنشاء لا الإخبار بإيذان قد كان قبل ذلك ﴿ وضل عنهم ما كانوا يدعون ﴾ أى يعبدون ﴿ من قبل ﴾ أى غابوا عنهم أو ظهر عدم نفعهم فكان حضورهم كغيبتهم ﴿ وظنوا ﴾ أى أيقنوا ﴿ ما لهم من محيص ﴾ مهرب والظن معلق عنه بحرف النفى ﴿ لا يسأم الإنسان ﴾ أى لا يمل ولا يفتر ﴿ من دعاء الخير ﴾ من طلب السعة فى النعمة وأسباب المعيشة وقرىء من دعاء بالخير .

﴿ وإن مسه الشر ﴾ أى العسر والضيقة ﴿ فيؤوس قنوط ﴾ فيه مبالغة من جهة البناء ومن جهة التكرير ومن جهة أن القنوط عبارة عن يأس مفرط يظهر أثره فى الشخص فيتضاءل وينكسر أى مبالغ فى قطع الرجاء من فضل الله تعالى ورحمته وهذا وصف للجنس بوصف غالب أفراده لما أن اليأس من رحمته تعالى لا يتأتى إلا من الكافر وسيصرح به ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد

ضراء مسته ﴾ بتفريجها عنه ﴿ ليقولن هذا لى ﴾ أى حق أستحقه لما لى من الفضل والعمل أو لى لا لغيرى فلا يزول عنى أبدا ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أى تقوم فيما سيأتى ﴿ ولئن رجعت إلى ربى ﴾ على تقدير قيامها ﴿ إن لى عنده للحسنى ﴾ أى للحالة الحسنى من الكرامة وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له وأن نعم الآخرة كذلك ﴿فلننبئن الذين كفروا بما عملوا﴾ أى لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورة الحقيقية وقد مر تحقيقه فى الأعراف عند قوله تعالى (والوزن يومئذ الحق) وفى قوله تعالى (إنما بغيكم على أنفسكم) من سورة يونس ﴿ ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ﴾ أى عن الشكر ﴿ ونأى بجانبه ﴾ أى ذهب بنفسه وتباعد بكليته تكبرا وتعظما والجانب مجاز عن النفس كما فى قوله تعالى (فى جنب الله) ويجوز أن يراد به عطفه ويكون عبارة عن الانحراف والازورار كما قالوا ثنى عطفه وتولى بركنه ﴿ وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ أى كثير مستعار مما له عرض متسع للإشعار بكثرته واستمراره وهو أبلغ من الطويل إذ الطول أطول الامتدادين فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله ولعل هذا شأن بعض غير البعض الذى حكى عنه اليأس والقنوط أو شأن الكل فى بعض الأوقات .

﴿ قل أرأيتم ﴾ أى أخبرونى ﴿ إن كان ﴾ أى القرآن ﴿ من عند الله ثم كفرتم به ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿ من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ﴾ أى من أضل منكم فوضع الموصول موضع الضمير شرحا لحالهم وتعليلا لمزيد ضلالهم ﴿سنريهم آياتنا﴾ الدالة على حقيته وكونه من عند الله ﴿فى الآفاق﴾ هو أما خبرهم به النبى صلى الله عليه وسلم من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية وما يسر الله تعالى له ولخلفائه من الفتوح والظهور على آفاق الدنيا والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب على وجه خارق للعادة ﴿وفى أنفسهم﴾ هو ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حل بهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآفاق أى منازل الأمم الخالية وآثارهم وفى أنفسهم يوم بدر وقال مجاهد

والحسن والسدى فى الآفاق ما يفتح الله من القرى عليه عليه الصلاة والسلام والمسلمين وفى أنفسهم فتح مكةوقيل فى الآفاق أى فى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم ومايترتب عليها من الليل والنهار والأضواء والظلال والظلمات ومن النبات والأشجار والأنهار وفى أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة فى تكوين الأجنة فى ظلمات الأرحام وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة كقوله تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) واعتذر بأن معنى السين مع أن إراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك أنه تعالى سيطلعهم على تلك الآيات زماناً فزماناً ويزيدهم وقوفا على حقائقها يوما فيوما ﴿ حتى يتبين لهم ﴾ بذلك ﴿ أنه الحق ﴾ أى القرآن أو الإسلام والتوحيد .

﴿ أو لم يكف بربك ﴾ استئناف وارد لتوبيخهم على ترددهم فى شأن القرآن وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدار يقتضيه المقام أى ألم يغن ولم يكف ربك والباء مزيدة للتأكيد ولا تكاد تزاد إلا مع كفى وقوله تعالى ﴿ أنه على كل شهيد ﴾ بدل منه أى ألم يغنهم عن إراءة الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن ولم يكفهم فى ذلك أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء وقد أخبر بأنه من عنده وقيل معناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذى هو على كل شىء شهيد أى مطلع يستوى عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عنده ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصرة فتأمل وأما ما قيل من أن المعنى أو لم يكفك أنه تعالى على كل شىء شهيد محقق له فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة فمع إشعاره بما لا يليق بجلالة منصبه عليه السلام من التردد فيما ذكر من تحقيق الموعود يرده قوله تعالى ﴿ ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ﴾ أى فى شك عظيم من ذلك بالبعث والجزاء فإنه صريح فى أن عدم الكفاية معتبر بالنسبة إليهم وقرىء مرية بالضم وهو لغة فيها ﴿ ألا إنه بكل شىء محيط ﴾ عالم بجميع الأشياء

جملها وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية منهم وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم لا محالة .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة السجدة أعطاه الله تعالى بكل حرف عشر حسنات والله أعلم .

* * *

سورة حم عسق وتسمى الشورى

مكية ، وهى ثلاث وخمسون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ حم عسق ﴾ اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما وعدا آيتين وقيل اسم واحد والفصل ليناسب سائر الحواميم وقرىء حم سق فعلى الأول هما خبران لمبتدأ محذوف وقيل حم مبتدأ وعسق خبره وعلى الثانى الكل خبر واحد وقوله تعالى ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ كلام مستأنف وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرسل المتقدمة فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق أو أن إيحاءها مثل إيحائها بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شأنها والكاف فى حيز النصب على أنه مفعول ليوحى على الأول وعلى أنه نعت لمصدر مؤكد له على الثانى وذلك على الأول إشارة إلى ما فيها وعلى الثانى إلى إيحائها وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل أى مثل ما فى هذه السورة من المعانى أوحى إليك فى سائر السور وإلى من قبلك من الرسل فى كتبهم على أن مناط المماثلة ما أشير إليه من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق وما فيه صلاح العباد فى المعاش والمعاد أو مثل إيحائها أوحى إليك عند إيحاء سائر السور وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم لا إيحاء مغايرا له كما فى قوله تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح) الآية على أن مدار

المثلية كونه بواسطة الملك وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للإيذان باستمرار الوحى وأن إيحاء مثله عادته وفى جعل مضمون السورة أو إيحائها مشبها به من تفخيمها مالا يخفى وكذا فى وصفه تعالى بوصفى العزة والحكمة وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل مع ما فيه من التشويق وقرىء يوحى على البناء للمفعول على أن كذلك مبتدأ ويوحى خبره المسند إلى ضميره أو مصدر ويوحى مسند إلى إليك والله مرتفع بما دل عليه يوحى كأنه قيل من يوحى فقيل الله والعزيز الحكيم صفتان له أو مبتدأ كما فى قراءة نوحى والعزيز وما بعده خبران له أوالعزيز الحكيم صفتان له وقوله تعالى ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم ﴾ خبران له وعلى الوجوه السابقة استئناف مقرر لعزته وحكمته .

﴿ تكاد السموات ﴾ وقرىء بالياء ﴿ يتفطرن ﴾ يتشققن من عظمة الله تعالى وقيل من دعاء الولد له كما فى سورة مريم وقرىء ينفطرن والأول أبلغ لأنه مطاوع فطر وهذا مطاوع فطر وقرىء تنفطرن بالتاء لتأكيد التأنيث وهو نادر ﴿ من فوقهن ﴾ أى يبتدأ التفطر من جهتهن الفوقانية وتخصيصها على الأول لما أن أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال من تلك الجهة وعلى الثانى للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى لأن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة فى الأرض حيث أثرت فى جهة الفوق فلأن تؤثر فى جهة التحت أولى وقيل الضمير للأرض فإنها فى معنى الأرضين ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده ﴿ ويستغفرون لمن فى الأرض ﴾ بالسعى فيما يستدعى مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وترتيب الأسباب المقربة إلى الطاعة واستدعاء تأخير العقوبة طمعا فى إيمان الكافر وتوبة الفاسق وهذا يعم المؤمن والكافر بل لو فسر الاستغفار بالسعى فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد وحيث خص بالمؤمنين كما فى قوله تعالى (ويستغفرون للذين آمنوا) فالمراد به الشفاعة ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ إذ ما من مخلوق إلا وله حظ عظيم من رحمته تعالى والآية على الأول زيادة تقرير لعظمته تعالى وعلى الثانى بيان لكمال

تقدسه عما نسب إليه وأن ترك معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاء بسبب استغفار الملائكة وفرط غفرانه ورحمته ففيها رمز إلى أنه تعالى يقبل استغفارهم ويزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمة ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ شركاء وأندادا ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ بموكل بهم أو بموكول إليه أمرهم وإنما وظيفتك الإنذار .

﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا ﴾ ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا ومحل الكاف النصب على المصدرية وقرآنا عربيا مفعول لأوحينا أى ومثل ذلك الإيحاء البديع البين المفهم أوحينا إليك قرآنا عربيا لا لبس فيه عليك ولا على قومك وقيل إشارة إلى معنى الآية المتقدمة من أنه تعالى هو الحفيظ عليهم وإنما أنت نذير فحسب فالكاف مفعول به لأوحينا وقرآنا عربيا حال من المفعول به أى أوحيناه إليك وهو قرآن عربى بين ﴿ لتنذر أم القرى ﴾ أى أهلها وهى مكة ﴿ ومن حولها ﴾ من العرب ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ أى يوم القيامة لأنه يجمع فيه الخلائق قال تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع وقيل تجمع فيه الأرواح والأشباح وقيل الأعمال والعمال والإنذار يتعدى إلى مفعولين وقد يستعمل ثانيهما بالباء وقد حذف ههنا ثانى مفعولى الأول وأول مفعولى الثانى للتهويل وإيهام التعميم وقرىء لينذر بالياء على أن فاعله ضمير القرآن ﴿ لا ريب فيه ﴾ اعتراض مقرر لما قبله ﴿ فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾ أى بعد جمعهم فى الموقف فإنهم يجمعون فيه أولا ثم يفرقون بعد الحساب والتقدير منهم فريق والضمير للمجموعين لدلالة الجمع عليه وقرىء منصوبين على الحالية منهم أى وتنذر يوم جمعهم متفرقين أى مشارفين للتفرق أو متفرقين فى دارى الثواب والعقاب ﴿ ولو شاء الله لجعلهم ﴾ أى فى الدنيا ﴿ أمة واحدة ﴾ قيل مهتدين أو ضالين وهو تفصيل لما أجمله ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله على دين واحد فمعنى قوله تعالى ﴿ ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ﴾ أنه تعالى يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها ويدخل فى عذابه من يشاء أن يدخله فيه ولا ريب فى أن مشيئته تعالى لكل

من الادخالين تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله ومن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلاف حال الداخلين فيهما قطعا فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة بل جعلهم فريقين وإنما قيل .

﴿ والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير ﴾ للإيذان بأن الادخال فى العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لا من جهته تعالى كما فى الادخال فى الرحمة لا لما قيل من المبالغة فى الوعيد وقيل مؤمنين كلهم وهو ما قاله مقاتل على دين الإسلام كما فى قوله تعالى (ولوشاء الله لجمعهم على الهدى) وقوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) والمعنى ولو شاء الله مشيئة قدرة لقسرهم على الإيمان ولكنه شاء مشيئة حكمه وكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين فى رحمته وهم المرادون بقوله تعالى (يدخل من يشاء) وترك الظالمين بغير ولى ولا نصير وأنت خبير بأن فرض جعل الكل مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بإدخال بعضهم فى رحمته إذ الكل حينئذ داخلون فيها فكان المناسب حينئذ تصديره بإخراج بعضهم من بينهم وإدخالهم فى عذابه فالذى يقتضيه سياق النظم الكريم وسباقه أن يراد الاتحاد فى الكفر كما فى قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين) الآية على أحد الوجهين بأن يراد بهم الذين فى فترة إدريس أو فى فترة نوح عليهما السلام فالمعنى ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر بأن لا يرسل إليهم رسولا لينذرهم ما ذكر من يوم الجمع وما فيه من ألوان الأهوال فيبقوا على ما هم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء فى رحمته أى شأنه ذلك فيرسل إلى الكل من ينذرهم ما ذكر فيتأثر بعضهم بالإنذار فيصرفون اختيارهم إلى الحق فيوفقهم الله للإيمان والطاعة ويدخلهم فى رحمته ولا يتأثر به الآخرون ويتمادون فى غيهم وهم الظالمون فيبقون فى الدنيا على ما هم عليه من الكفر ويصيرون فى الآخرة إلى السعير من غير ولى يلى أمرهم ولا نصير يخلصهم من العذاب ﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين ولى أو نصير وأم منقطعة وما فيها من بل للانتقال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها والهمزة لإنكار الوقوع ونفيه

على أبلغ وجه وآكده لا لإنكار الواقع واستقباحه كما قيل إذ المراد بيان أن ما فعلوا ليس من اتخاذ الأولياء فى شىء لأن ذلك فرع كون الأصنام أولياء وهو أظهر الممتنعات أى بل اتخذوا متجاوزين الله أولياء من الأصنام وغيرها هيهات وقوله تعالى ﴿فالله هو الولى﴾ جواب شرط محذوف كأنه قيل بعد إبطال ولاية ما اتخذوه أولياء إن أرادوا وليا فى الحقيقة فالله هو الولى لا ولى سواه ﴿وهو يحيى الموتى﴾ أى ومن شأنه ذلك ﴿وهو على كل شىء قدير﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ وليا فليخصوه بالاتخاذ دون من لا يقدر على شىء

﴿وما اختلفتم فيه من شىء﴾ حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أى وما خالفكم الكفار فيه من أمور الدين فاختلفتم أنتم وهم ﴿فحكمه﴾ راجع ﴿إلى الله﴾ وهو إثابة المحقين وعقاب المبطلين ﴿ذلكم﴾ الحاكم العظيم الشأن ﴿الله ربى﴾ مالكى ﴿عليه توكلت﴾ فى مجامع أمورى خاصة لا على غيره ﴿وإليه أنيب﴾ أرجع فى كل ما يعن لى من معضلات الأمور لا إلى أحد سواه وحيث كان التوكل أمرا واحدا مستمرا والإنابة متعددة متجددة حسب تجدد موادها أوثر فى الأول صيغة الماضى وفى الثانى صيغة المضارع وقيل وما اختلفتم فيه وتنازعتم فى شىء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره وقيل وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا فى بيانه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التى لا تتعلق بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا الله أعلم كمعرفة الروح ولا مساغ لحمل هذا على الاجتهاد لعدم جوازه بحضرة الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿فاطر السموات والأرض﴾ خبر آخر لذلكم أو خبر لمبتدأ محذوف أو مبدأ خبره ﴿جعل لكم﴾ وقرىء بالجر على أنه بدل من الضمير أو وصف للاسم الجليل فى قوله تعالى إلى الله وما بينهما اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم ﴿أزواجا﴾ نساء وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح قد مر سره غير مرة ﴿ومن الأنعام﴾

أى وجعل للأنعام من جنسها ﴿ أزواجا ﴾ أو خلق لكم من الأنعام أصنافا أو ذكورا وإناثا ﴿ يذرؤكم ﴾ يكثركم من الذرء وهو البث وفى معناه الذرو والذر ﴿ فيه ﴾ أى فيما ذكر من التدبير فإن جعل الناس والأنعام أزواجا يكون بينهم توالد كالمنبع للبث والتكثير ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ أى ليس مثله شىء فى شأن من الشؤون التى من جملتها هذا التدبير البديع والمراد من مثله ذاته كما فى قولهم مثلك لا يفعل كذا على قصد المبالغة فى نفيه عنه فإنه إذا نفى عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى ثم سلكت هذه الطريقة فى شأن من لا مثل له وقيل مثله صفته أى ليس كصفته صفة ﴿ وهو السميع البصير ﴾ المبالغ فى العلم بكل ما يسمع ويبصر.

وحدة الإسلام

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ أى خزائنهما ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ يوسع ويضيق حسبما تقتضيه مشيئته المؤسسة على الحكم البالغة ﴿ إنه بكل شىء عليم ﴾ مبالغ فى الإحاطة به فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغى أن يفعل عليه والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ وإيذان بأن ما شرع لهم صادر عن كمال العلم والحكمة أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه دينا قديما أجمع عليه الرسل والخطاب لأمته عليه الصلاة والسلام أى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ومن بعده من أرباب الشرائع وأولى العزائم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرهم به أمرا مؤكدا على أن تخصيصهم بالذكر لما ذكر من علو شأنهم ولاستمالة قلوب الكفرة إليه لاتفاق الكل على نبوة بعضهم وتفرد اليهود فى شأن موسى عليه السلام وتفرد النصارى فى حق عيسى عليه السلام وإلا فما من نبى إلا وهو مأمور بما أمروا به وهو عبارة عن التوحيد ودين الإسلام وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الإعصار من أصول الشرائع والأحكام كما ينبىء عنه التوصية فإنها معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمورية والمراد

بإيحائه إليه عليه الصلاة السلام إما ماذكر فى صدر السورة الكريمة وفى قوله تعالى (وكذلك أوحينا) الآية أو ما يعمهما وغيرهما مما وقع فى سائر المواقع التى من جملتها قوله تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) وقوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) وغير ذلك والتعبير عن ذلك عند نسبته إليه عليه الصلاة والسلام بالذى لزيادة تفخيم شأنه من تلك الحيثية وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع فى الآيات المذكورة ولما فى الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة والإلتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه وهو السر فى تقديمه على ما بعده مع تقدمه عليه زمانا وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم دينا قديما وتوجيه الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام ﴿ أن أقيموا الدين ﴾ أى دين الإسلام الذى هو توحيد الله تعالى وطاعته والإيمان بكتبه وبرسله وبيوم الجزاء وسائر ما يكون الرجل به مؤمنا والمراد بإقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ أو المواظبة عليه والتشمر له ومحل أن أقيموا إما النصب على أنه بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه أو الرفع على أنه جواب عن سؤال نشأ من إبهام المشروع كأنه قيل وما ذاك فقيل هو إقامة الدين وقيل بدل من ضمير به وليس بذاك لما أنه مع إفضائه إلى خروجه عن حيز الإيحاء إلى النبى عليه الصلاة والسلام مستلزم لكون الخطاب في قوله تعالى ﴿ ولا تتفرقوا فيه ﴾ للأنبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام وتوجيه النهى إلى أممهم تمحل ظاهر مع أن الأظهر أنه متوجه إلى أمته صلى الله عليه وسلم وأنهم المتفرقون كما ستحيط به خبرا أى تتفرقوا فى الدين الذى هو عبارة عما ذكر من الأصول دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم باختلاف الأعصار كما ينطق به قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وقوله تعالى ﴿ كبر على المشركين ﴾ شروع لهم ماشرع فى بيان أحوال بعض من شرع من الدين القويم أى عظم وشق عليهم

﴿ ما تدعوهم إليه ﴾ من التوحيد ورفض عبادة الأصنام واستبعدوه حيث قالوا (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب) وقوله تعالى ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ﴾ استئناف وارد لتحقيق الحق وفيه إشعار بأن منهم من يجيب إلى الدعوة أي الله يجتلب إلى ما تدعوهم إليه من يشاء أن يجتبيه إليه وهو من صرف اختياره إلى ما دعي إليه كما ينبيء عنه قوله تعالى ﴿ ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي يقبل إليه حيث يمده بالتوفيق والألطاف وقوله تعالى ﴿ وما تفرقوا ﴾ شروع في بيان أحوال أهل الكتاب عقيب الإشارة الإجمالية إلى أحوال أهل الشرك قال ابن عباس رضي الله عنهما هم اليهود والنصارى لقوله تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) أي وما تفرقوا في الدين الذي دعوا إليه ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ بحقيته بما شاهدوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن من دلائل الحقية حسبما وجدوه في كتابهم أو العلم بمبعثه عليه الصلاة والسلام وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو من أعم الأوقات أي وما تفرقوا في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات إلا حال مجيء العلم ﴿ بغيا بينهم ﴾ وحمية وطلبا للرياسة لا لأن لهم في ذلك شبهة ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ وهي العدة بتأخير العقوبة ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ هو يوم القيامة ﴿ لقضي بينهم ﴾ لأوقع القضاء بينهم باستئصالهم لاستيجاب جناياتهم لذلك قطعاً وقوله تعالى ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ الخ بيان لكيفية كفر المشركين بالقرآن إثر بيان كيفية كفر أهل الكتاب وقريء ورثوا وورثوا أي وإن المشركين الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم ﴿ لفي شك منه ﴾ من القرآن ﴿ مريب ﴾ موقع في القلق أو في الريبة ولذلك لا يؤمنون به لا لمحض البغي والمكابرة بعد ما علموا بحقيته كدأب أهل الكتابين هذا وأما ما قيل من أن ضمير تفرقوا للأمم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأن المراد تفرق كل أمة بعد نبيها مع علمهم بأن الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيرده قوله تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل

مسمى لقضى بينهم وكذا ما قيل من أن الناس كانوا أمة واحدة مؤمنين بعد ما أهلك الله تعالى الأرض بالطوفان فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم وذلك حين بعث الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم وإنما اختلفوا للبغى بينهم فإن مشاهير الأمم المذكورة قد أصابهم عذاب الاستئصال من غير إنظار وإمهال على أن مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمة وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتحقيق أن ماشرع لهؤلاء دين قديم أجمع عليه أولئك الأعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيدا لوجوب إقامته وتشديدا للزجر عن التفرق والاختلاف فيه فالتعرض لبيان تفرق أممهم عنه ربما يوهم الإخلال بذلك المرام .

﴿ فلذلك ﴾ أى فلأجل ما ذكر من التفرق والشك المريب أو فلأجل أنه شرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون ﴿ فادع ﴾ أى الناس كافة إلى إقامة ذلك الدين والعمل بموجبه فإن كلا من تفرقهم وكونهم فى شك مريب ومن شرع ذلك الدين لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب للدعوة إليه والأمر بها وليس المشار إليه ماذكر من التوصية والأمر بالإقامة والنهى عن التفرق حتى يتوهم شائبة التكرار وقيل المشار إليه نفس الدين المشروع واللام بمعنى إلى كما فى قوله تعالى(بأن ربك أوحى لها) أى فإلى ذلك الدين فادع ﴿ واستقم ﴾ عليه وعلى الدعوة إليه ﴿ كما أمرت ﴾ وأوحى إليك ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ الباطلة ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ أى كتاب كان من الكتب المنزلة لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض وفيه تحقيق للحق وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول وتأليف لقلوب أهل الكتابين وتعريض بهم وقد مر بيان كيفية الإيمان بها فى خاتمة سورة البقرة ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ فى تبليغ الشرائع والأحكام وفصل القضايا عند المحاكمة والخصام وقيل معناه لا سوى بينى وبينكم ولا آمركم بما لا أعمله ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ولا أفرق بين أكابركم وأصاغركم واللام إما على حقيقتها والمأمور به محذوف أى أمرت بذلك لأعدل أو زائدة أى أمرت أن

أعدل والباء محذوفة ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أى خالقنا جميعا ومتولى أمورنا ﴿ لنا أعمالنا ﴾ لا يتخطانا جزاؤها ثوابا كان أو عقابا ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ لا تجاوزكم آثارها لنستفيد بحسناتكم ونتضرر بسيآتكم ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ أى لا محاجة ولا خصومة لأن الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة حاجة ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ يوم القيامة ﴿ وإليه المصير ﴾ فيظهر هناك حالنا وحالكم وهذا كما ترى محاجزة فى مواقف المجاوبة لا متاركة فى مواطن المحاربة حتى يصار إلى النسخ بآية القتال ﴿ والذين يحاجون فى الله ﴾ أى فى دينه ﴿ من بعد ما استجيب له ﴾ من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه أو من بعد ما استجاب الله لرسوله عليه الصلاة والسلام وأيده بنصره أو من بعد ما استجاب له أهل الكتاب بأن أقروا بنبوته عليه الصلاة والسلام واستفتحوا به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام وذلك أن اليهود والنصارى كانوا يقولون للمؤمنين كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالحق ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ زالة زائلة باطلة بل لا حجة لهم أصلا وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة مجاراة معهم على زعمهم الباطل ﴿ وعليهم غضب ﴾ عظيم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره ﴿ ولهم عذاب شديد ﴾ لا يقادر قدره ﴿ الله الذى أنزل الكتاب ﴾ أى جنس الكتاب ﴿ بالحق ﴾ ملتبسا به فى أحكامه وأخباره أو بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام ﴿ والميزان ﴾ والشرع الذى يوزن به الحقوق ويسوى بين الناس أو نفس العدل بأن أنزل الأمر به أو آلة الوزن ﴿ وما يدريك ﴾ أى أى شىء يجعلك عالما ﴿ لعل الساعة ﴾ التى يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق ﴿ قريب ﴾ أى شىء قريب أو قريب مجيئها وقيل القريب بمعنى ذات قرب أو الساعة بمعنى البعث والمعنى أنها على جناح الإتيان فاتبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذي يوزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها .

﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ استعجال إنكار واستهزاء كانوا

يقولون متى هى ليتها قامت حتى يظهر لنا الحق أهو الذى نحن عليه أم الذى عليه محمد وأصحابه ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ خائفون منها مع اعتناء بها لتوقع الثواب ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ أى الكائن لا محالة ﴿ ألا إن الذين يمارون فى الساعة ﴾ يجادلون فيها من المرية أو من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلا من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة ﴿ لفى ضلال بعيد ﴾ عن الحق فإن البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات فمن لم يهتد إلى تجويزه فهو عن الاهتداء إلى ما وراءه أبعد وأبعد ﴿ الله لطيف بعباده ﴾ أى بر بليغ البر بهم يفيض عليهم من فنون ألطافه ما لا يكاد يناله أيدى الأفكار والظنون ﴿ يرزق من يشاء ﴾ أن يرزقه كيفما يشاء فيخص كلا من عباده بنوع من البر على ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ﴿ وهو القوى ﴾ الباهر القدرة الغالب على كل شىء ﴿ العزيز ﴾ المنيع الذى لا يغلب ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ الحرث فى الأصل إلقاء البذر فى الأرض يطلق على الزرع الحاصل منه ويستعمل فى ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور أى من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿ نزد له فى حرثه ﴾ نضاعف له ثوابه بالواحد عشرة إلى سبعمائة فما فوقها ﴿ ومن كان يريد ﴾ بأعماله ﴿ حرث الدنيا ﴾ وهو متاعها وطيباتها ﴿ نؤته منها ﴾ أى شيأ منها حسبما قسمنا له لا ما يريده ويبتغيه ﴿ وما له فى الآخرة من نصيب ﴾ إذ كانت همته مقصورة على الدنيا وقد مر تفصيله فى سورة الإسراء .

﴿ أم لهم شركاء ﴾ أى بل ألهم شركاء من الشياطين والهمزة للتقرير والتقريع ﴿ شرعوا لهم ﴾ بالتسويل ﴿ من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا وقيل شركاؤهم أوثانهم وإضافتها إليهم لأنهم الذين جعلوها شركاء لله تعالى وإسناد الشرع إليها لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم كقوله تعالى (إنهن أضللن كثيرا) أو تماثيل من سن الضلالة لهم ﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾ أى القضاء السابق بتأخير الجزاء أو العدة بأن الفصل يكون يوم

القيامة ﴿لقضى بينهم﴾ أى بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم ﴿وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ وقرىء بالفتح عطفا على كلمة الفصل أى ولولا كلمة الفصل وتقدير عذاب الظالمين فى الآخرة لقضى بينهم فى الدنيا فإن العذاب الأليم غالب فى عذاب الآخرة ﴿ترى الظالمين﴾ يوم القيامة والخطاب لكل أحد ممن يصلح له للقصد إلى أن سوء حالهم غير مختص برؤية راء دون راء ﴿مشفقين﴾ خائفين ﴿مما كسبوا﴾ من السيآت ﴿وهو واقع بهم﴾ أى ووباله لاحق بهم لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا والجملة حال من ضمير مشفقين أو اعتراض ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات﴾ مستقرون فى أطيب بقاعها وأنزهها ﴿لهم مايشاءون عند ربهم﴾ أى مايشتهونه من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم على أن عند ربهم ظرف للاستقرار العامل فى لهم وقيل ظرف ليشاءون ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من حال المؤمنين وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه ﴿هو الفضل الكبير﴾ الذى لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته ﴿ذلك﴾ الفضل الكبير هو ﴿الذى يبشر الله عباده﴾ أى يبشرهم به لحذف الجار ثم العائد إلى الموصول كما فى قوله تعالى (أهذا الذى بعث الله رسولا) أو ذلك التبشير الذى يبشره الله تعالى عباده ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وقرىء يبشر من أبشر .

﴿قل لا أسألكم عليه﴾ روى أنه اجتمع المشركون فى مجمع لهم فقال بعضهم لبعض أترون أن محمدا يسأل على ما يتعاطاه أجرا فنزلت أى لا اطلب منكم على ما أنا عليه من التبليغ والبشارة ﴿أجرا﴾ نفعا ﴿إلا المودة فى القربى﴾ أى إلا أن تودونى لقرابتى منكم أو تودوا أهل قرابتى وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لا أسألكم أجرا قط ولكن أسألكم المودة وفى القربى حال منها أى إلا المودة ثابتة فى القربى متمكنة فى أهلها أو فى حق القرابة والقربى مصدر كالزلفى بمعنى القرابة روى أنها لما نزلت قيل يارسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال على وفاطمة وابناهما وعن النبى صلى الله عليه وسلم حرمت الجنة على من ظلم أهل

بيتى وآذانى فى عترتى ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه فأنا أجازيه عليها غدا إذا لقينى يوم القيامة وقيل القربى التقرب إلى الله أى إلا أن تودوا الله ورسوله فى تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح وقرىء إلا مودة فى القربى ﴿ ومن يقترف حسنة ﴾ أى يكتسب أى حسنة كانت فتتناول مودة ذى القربى تناولا أوليا وعن السدى أنها المرادة وقيل نزلت فى الصديق رضى الله عنه ومودته فيهم ﴿ نزد له فيها ﴾ أى فى الحسنة ﴿ حسنا ﴾ بمضاعفة الثواب وقرىء يزد أى يزد الله وقرىء حسنى ﴿ إن الله غفور ﴾ لمن أذنب ﴿ شكور ﴾ لمن أطاع بتوفيقه الثواب والتفضل عليه بالزيادة .

﴿ أم يقولون ﴾ بل أيقولون ﴿ افترى ﴾ محمد ﴿ على الله كذبا ﴾ بدعوى النبوة وتلاوة القرآن على أن الهمزة للإنكار التوبيخى كأنه قيل أيتمالكون أن ينسبوا مثله عليه السلام وهو هو إلى الافتراء لا سيما الافتراء على الله الذى هو أعظم الفرى وأفحشها وقوله تعالى ﴿ فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ استشهاد على بطلان ما قالوا ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعا وتحقيقه أن دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم بأنه تعالى لا يشاء صدوره عن النبى صلى الله عليه وسلم بل يشاء عدم صدوره عنه ومن ضرورته منعه عنه قطعا فكأنه قيل لو كان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك وإن يشأ ذلك يختم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنى من معانيه ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث لم يكن الأمر كذلك بل تواتر الوحى حينا فحينا تبين أنه من عند الله تعالى هذا وقيل المعنى إن يشأ يجعلك من المختوم على قلوبهم فإنه لا يجترىء على الافتراء عليه تعالى إلا من كان كذلك ومؤداه استبعاد الافتراء من مثله عليه السلام وأنه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى جملة المختوم على قلوبهم وعن قتادة يختم على قلبك ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى يعنى لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك وهذا معنى ما قيل لو كذب على الله لأنساه القرآن وقيل يختم على قلبك يربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم ﴿ ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته ﴾ استئناف مقرر لنفى الافتراء غير

معطوف على يختم كما ينبيء عنه إظهار الاسم الجليل وسقوط الواو كما فى بعض المصاحف لاتباع اللفظ كما فى قوله تعالى (ويدع الإنسان بالشر) أى ومن عادته أنه تعالى يمحو الباطل ويثبت الحق بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) فلو كان افتراء كما زعموا لمحقه ودمغه أو عدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه تعالى يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والتكذيب ويثبت الحق الذى هو عليه بالقرآن أو بقضائه الذى لا مرد له بنصرته عليهم ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ فيجرى عليها أحكامها اللائقة بها من المحو والإثبات ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ﴾ التوبة هى الرجوع عن المعاصى بالندم عليها والعزم على أن لا يعاودها أبدا وروى جابر رضى الله عنه أن أعرابيا دخل مسجد رسول صلى الله عليه وسلم وقال اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على رضى الله عنه يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك هذه تحتاج إلى التوبة فقال يا أمير المؤمنين وما التوبة قال اسم يقع على ستة معان على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته ﴿ويعفو عن السيئات﴾ صغيرها وكبيرها لمن يشاء ﴿ ويعلم ما يفعلون ﴾ كائنا ما كان من خير وشر فيجازى ويتجاوز حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وقرىء ما تفعلون بالتاء ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أى يستجيب الله لهم لحذف اللام كما فى قوله تعالى (وإذا كالوهم) أى كالوا لهم والمراد إجابة دعوتهم والإثابة على طاعتهم فإنها كدعاء وطلب لما يترتب عليها ومنه قوله عليه السلام أفضل الدعاء . الحمد لله أو يستجيبون الله بالطاعة إذا دعاهم إليها وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له ما بالنا ندعو فلا نجاب قال لأنه دعاكم ولم تجيبوه ثم قرأ (والله يدعو إلى دار السلام) ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ على ما سألوا واستحقوا بموجب الوعد ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ بدل ما للمؤمنين من الثواب والفضل المزيد .

﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض﴾ لتكبروا وأفسدوا فيها بطرا أو لعلا بعضهم على بعض بالاستيلاء والاستعلاء كما عليه الجبلة البشرية وأصل البغى طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى من حيث الكمية أوالكيفية ﴿ولكن ينزل بقدر﴾ أى بتقدير ﴿ما يشاء﴾ أن ينزله مما تقتضيه مشيئته ﴿إنه بعباده خبير بصير﴾ محيط بخفايا أمورهم وجلاياها فيقدر لكل واحد منهم فى كل وقت من أوقاتهم ما يليق بشأنهم فيفقر ويغنى ويمنع ويعطى ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعا لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا وروى أن أهل الصفة تمنوا الغنى فنزلت وقيل نزلت فى العرب كانوا إذا أخصبوا تحاربوا وإذا أجدبوا انتجعوا ﴿وهو الذى ينزل الغيث﴾ أى المطر الذى يغيثهم من الجدب ولذلك خص بالنافع منه وقرىء ينزل من الإنزال ﴿من بعد ماقنطوا﴾ يئسوا منه وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضا لتذكر كمال النعمة وقرىء بكسر النون ﴿وينشر رحمته﴾ أى بركات الغيث ومنافعه فى كل شىء من السهل والجبل والنبات والحيوان أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاما أوليا ﴿وهو الولى﴾ الذى يتولى عباده بالإحسان ونشر الرحمة ﴿الحميد﴾ المستحق للحمد على ذلك لا غيره ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض﴾ على ما هما عليه من تعاجيب الصنائع فإنها بذاتها وصفاتها تدل على شئونه العظيمة ﴿ومابث فيهما﴾ عطف على السموات أو الخلق ﴿من دابة﴾ من حى على إطلاق اسم المسبب على السبب أو مما يدب على الأرض فإن ما يختص بأحد الشيئين المتجاورين يصح نسبته إليهما كما فى قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من الملح وقد جوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران فيوصفوا بالدبيب وأن يخلق الله فى السماء حيوانا يمشون فيها مشى الأناسى على الأرض كما ينبىء عنه قوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فوق السماء السابعة بحر من أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش العظيم .

﴿ وهو على جمعهم ﴾ أى حشرهم بعد البعث للمحاسبة وقوله تعالى ﴿ إذا شاء ﴾ متعلق بما قبله لا بقوله تعالى ﴿ قدير ﴾ فإن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لا قدرته وإذا عند كونها بمعنى الوقت كما تدخل الماضى تدخل المضارع ﴿ وما أصابكم من مصيبة ﴾ أى مصيبة كانت ﴿ فبما كسبت أيديكم ﴾ أى فهى بسبب معاصيكم التى اكتسبتموها والفاء لأن ما شرطية أو متضمنة لمعنى الشرط وقرىء بدونها اكتفاء بما فى الباء من معنى السببية ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ من الذنوب فلا يعاقب عليها والآية مخصوصة بالمجرمين فإن ما أصاب غيرهم لأسباب أخرى منها تعريضه للثواب بالصبر عليه ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ﴾ فائتين ما قضى عليكم من المصائب وإن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿ وما لكم من دون الله من ولى ﴾ يحميكم منها ﴿ ولا نصير ﴾ يدفعها عنكم .

﴿ ومن آياته الجوار ﴾ السفن الجارية ﴿ فى البحر ﴾ وقرىء الجوارى ﴿ كالأعلام ﴾ أى كالجبال على الإطلاق لا التى عليها النار للاهتداء خاصة ﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ التى تجريها وقرىء الرياح ﴿ فيظللن رواكد على ظهره ﴾ فيبقين ثوابت على ظهر البحر أى غير جاريات لا غير متحركات أصلا ﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى ذكر من السفن اللاتى يجرين تارة ويركدن أخرى على حسب مشيئته تعالى ﴿ لآيات ﴾ عظيمة فى أنفسها كثيرة فى العدد دالة على ما ذكر من شئونه تعالى ﴿ لكل صبار شكور ﴾ لكل من حبس نفسه عن التوجه إلى ما لا ينبغى ووكل همته بالنظر فى آيات الله تعالى والتفكر فى آلائه أو لكل مؤمن كامل فإن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ عطف على يسكن والمعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يرسلها فيغرقن بعصفها وإيقاع الإيباق عليهن مع أنه حال أهلهن للمبالغة والتهويل وإجراء حكمه على العفو فى قوله تعالى ﴿ ويعف عن كثير ﴾ لما أن المعنى أو يرسلها فيوبق ناسا وينج آخرين بطريق العفو عنهم وقرىء ويعفو على الاستئناف ﴿ ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ﴾ عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم وليعلم الخ كما فى قوله تعالى (ولنجعله آية للناس) وقوله (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) ونظائرهما وقرىء

بالرفع على الاستئناف وبالجزم عطفا على يعف فيكون المعنى وإن يشأ يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير قوم ﴿ ما لهم من محيص ﴾ أى من مهرب من العذاب والجملة معاق عنها الفعل ﴿ فما أوتيتم من شىء ﴾ مما ترغبون وتتنافسون فيه ﴿ فمتاع الحيوة الدنيا ﴾ أى فهو متاعها تتمتعون به مدة حياتكم ﴿ وما عند الله ﴾ من ثواب الآخرة ﴿ خير ﴾ ذاتا لخلوص نفعه ﴿ وأبقى ﴾ زمانا حيث لايزول ولا يفنى ﴿ للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ لا على غيره أصلا والموصول الأول لما كان متضمناً لمعنى الشرط من حيث أن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها فى الحيوة الدنيا دخلت جوابها الفاء بخلاف الثانى وعن على رضى الله عنه أنه تصدق أبو بكر رضى الله عنه بماله كله فلامه جمع من المسلمين فنزلت وقوله تعالى :

﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم ﴾ أى الكبائر من هذا الجنس ﴿ والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ مع ما بعده عطف على الذين آمنوا أو مدح بالنصب أو الرفع وبناء يغفرون على الضمير خبرا له للدلالة على أنهم الأخصاء بالمغفرة حال الغضب لعزة منالها وقرىء كبير الإثم وعن ابن عباس رضى الله عنهما كبير الإثم الشرك ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلوة ﴾ نزل فى الأنصار دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فاستجابوا له ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ أى ذو شورى لا ينفردون برأى حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه وكانوا قبل الهجرة وبعدها إذا حزبهم أمر اجتمعوا وتشاوروا ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أى فى سبيل الخير ولعل فصله عن قرينه بذكر المشاورة لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾ أى ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم كراهة التذلل وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر مهمات الفضائل وهذا لاينافى وصفهم بالغفران فإن كلا منهما فضيلة محمودة فى موقع نفسه ورذيلة مذمومة فى موقع صاحبه فإن الحلم عن العاجز وعوراء الكرام محمود وعن المتغلب ولغواء اللئام مذموم فإنه إغراء على البغى وعليه قول من قال :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وقوله تعالى ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ بيان لوجه كون الانتصار من الخصال الحميدة مع كونه فى نفسه إساءة إلى الغير بالإشارة إلى أن البادىء هو الذى فعله لنفسه فان الأفعال مستتبعة لأجزيتها حتما إن خيرا فخير وإن شرا فشر وفيه تنبيه على حرمة التعدى وإطلاق السيئة على الثانية لأنها تسوء من نزلت به ﴿ فمن عفا ﴾ عن المسيء إليه ﴿ وأصلح ﴾ بينه وبين من يعاديه بالعفو والإغضاء كما فى قوله تعالى (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) ﴿ فأجره على الله ﴾ عدة مبهمة منبئة عن عظم شأن الموعود وخروجه عن الحد المعهود ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ البادئين بالسيئة والمتعدين فى الانتقام . ﴿ ولمن انتصر بعـــد ظلمه ﴾ أى بعد ما ظلم وقد قرىء به ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من باعتبار المعنى كما أن الضميرين لها باعتبار اللفظ ﴿ ما عليهم من سبيل ﴾ بالمعاتبة أو المعاقبة ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ يبتدئونهم بالإضرار أو يعتدون فى الانتقام ﴿ ويبغون فى الأرض بغير الحق ﴾ أى يتكبرون فيها تجبرا وفسادا ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من الظلم والبغى بغير الحق ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم ﴿ ولمن صبر ﴾ على الأذى ﴿ وغفر ﴾ لمن ظلمه ولم ينتصر وفوض أمره إلى الله تعالى ﴿ إن ذلك ﴾ الذى ذكر من الصبر والمغفرة ﴿ لمن عزم الأمور ﴾ أى إن ذلك منه فحذف ثقة بغاية ظهوره كما فى قولهم السمن منوان بدرهم وهذا فى المواد التى لا يؤدى العفو إلى الشر كما أشير إليه ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده ﴾ من ناصر يتولاه من بعد خذلانه تعالى إياه ﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب ﴾ أى حين يرونه وصيغة الماضى للدلالة على التحقق ﴿ يقولون هل إلى مرد ﴾ أى إلى رجعة إلى الدنيا ﴿ من سبيل ﴾ حتى نؤمن ونعمل صالحا ﴿ وتراهم يعرضون عليها ﴾ أى على النار المدلول عليها بالعذاب والخطاب فى الموضعين لكل من يتأتى منه الرؤية ﴿ خاشعين من الذل ﴾ متذللين متضائلين مما دهاهم ﴿ ينظرون من

طرف خفى ﴾ أى يبتدىء نظرهم إلى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف كالمصبور ينظر إلى السيف ﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين ﴾ أى المتصفين بحقيقة الخسران ﴿ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ﴾ بالتعريض للعذاب الخالد ﴿ يوم القيامة ﴾ إما ظرف لخسروا فالقول فى الدنيا أو لقال فالقول يوم القيامة أى يقولون حين يرونهم على تلك الحال وصيغة الماضى للدلالة على تحققه وقوله تعالى ﴿ ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم ﴾ إما من تمام كلامهم أو تصديق من الله تعالى لهم.

﴿ وما كان لهم من أولياء ينصرونهم ﴾ برفع العذاب عنهم ﴿ من دون الله ﴾ حسبما كانوا يرجون ذلك فى الدنيا ﴿ ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ يؤدى سلوكه إلى النجاة.

﴿ استجيبوا لربكم ﴾ إذا دعاكم إلى الإيمان على لسان نبيه ﴿ من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله ﴾ أى لا يرده الله بعد ما حكم به على أن من صلة مرد أو من قبل أن يأتى من الله يوم لا يمكن رده ﴿ ما لكم من ملجأ يومئذ ﴾ أى مفر تلتجئون إليه ﴿ وما لكم من نكير ﴾ أى إنكار لما اقترفتموه لأنه مدون فى صحائف أعمالكم وتشهد عليكم جوارحكم ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ تلوين للكلام وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة وتوجيه له إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أى فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه فما أرسلناك رقيباً ومحاسبا عليهم ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ وقد فعلت ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ أى نعمة من الصحة والغنى والأمن ﴿ فرح بها ﴾ أريد بالإنسان الجنس لقوله تعالى ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أى بلاء من مرض وفقر وخوف ﴿ بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ بليغ الكفر ينسى النعمة رأسا ويذكر البلية ويستعظمها ولا يتأمل سببها بل يزعم أنها أصابته بغير استحقاق لها وإسناد هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها من خواص المجرمين لغلبتهم فيما بين الإفراد وتصدير الشرطية الأولى بإذا مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة للتنبيه على أن إيصال النعمة محقق الوجود كثير

الوقوع وأنه مقتضى الذات كما أن تصدير الثانية بإن وإسناد الإصابة إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم للإيذان بندرة وقوعها وأنها بمعزل عن الانتظام فى سلك الإرادة بالذات ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم ﴿ لله ملك السموات والأرض ﴾ فمن قضيته أن يملك التصرف فيهما وفى كل ما فيهما كيفما يشاء ومن جملته أن يقسم النعمة والبلية حسبما يريده ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ مما تعلمه ومما لا تعلمه ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ﴾ من الأولاد ﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ منهم من غير أن يكون فى ذلك مدخل لأحد ﴿ أو يزوجهم ﴾ أى يقرن بين الصنفين فيهبهما جميعا ﴿ ذكرانا وإناثا ﴾ قالوا معنى يزوجهم أن تلد غلاما ثم جارية أو جارية ثم غلاما أو تلد ذكرا وأنثى توأمين ﴿ ويجعل من يشاء عقيما ﴾ والمعنى يجعل أحوال العباد فى حق الأولاد مختلفة على ما تقتضيه المشيئة فيهب لبعض إما صنفا واحدا من ذكر أو أنثى وإما صنفين ويعقم آخرين ولعل تقديم الإناث لأنها أكثر لتكثير النسل أو لأن مساق الآية للدلالة على أن الواقع ما تتعلق به مشيئته تعالى لا ما تتعلق به مشيئة الإنسان والإناث كذلك أو لأن الكلام فى البلاء والعرب تعدهن أعظم البلايا أو لتطييب قلوب آبائهن أو للمحافظة على الفواصل ولذلك عرف الذكور أو لجبر التأخير وتغيير العاطف فى الثالث لأنه قسيم المشترك بين القسمين ولا حاجة إليه فى الرابع لإفصاحه بأن قسيم المشترك بين الأقسام المتقدمة وقيل المراد بيان أحوال الأنبياء عليهم السلام حيث وهب لشعيب ولوط إناثاً ولإبراهيم ذكورا وللنبى صلى الله عليه وسلم ذكورا وإناثا وجعل يحيى وعيسى عقيمين ﴿ إنه عليم قدير ﴾ مبالغ فى العلم والقدرة فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة .

﴿ وما كان لبشر ﴾ أى وما صح لفرد من أفراد البشر ﴿ أن يكلمه الله ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ إلا وحيا ﴾ أى إلا بأن يوحى إليه ويلهمه ويقذف فى قلبه كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليهما السلام فى ذبح ولده وقد روى عن مجاهد أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام فى صدره أو بأن يسمعه

كلامه الذى يخلقه فى بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه وهو المراد بقوله تعالى ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ فإنه تمثيل له بحال الملك المحتجب الذى يكلم بعض خواصه من وراء الحجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه وذلك كما كلم موسى وكما يكلم الملائكة عليهم السلام أو بأن يكلمه بواسطة الملك وذلك قوله تعالى ﴿ أو يرسل رسولا ﴾ أى ملكا ﴿ فيوحى ﴾ ذلك الرسول إلى المرسل إليه الذى هو الرسول البشرى ﴿ بإذنه ﴾ أى بأمره تعالى وتيسيره ﴿ مايشاء ﴾ أن يوحيه إليه وهذا هو الذى يجرى بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى عامة الأوقات من الكلام وقيل قوله تعالى وحيا وقوله تعالى أو يرسل مصدران واقعان موقع الحال وقوله تعالى أو من وراء حجاب ظرف واقع موقعها والتقدير وما صح أن يكلم إلا موحيا أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلا وقرىء أو يرسل بالرفع على إضمار مبتدأ وروى أن اليهود قالت للنبى عليه الصلاة والسلام ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر إليه فإنا لن نؤمن حتى تفعل ذلك فقال عليه السلام لم ينظر موسى عليه السلام إلى الله تعالى فنزلت وعن عائشة رضى الله عنها من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ثم قالت رضى الله عنها أو لم تسمعوا ربكم يقول فتلت هذه الآية ﴿ إنه على ﴾ متعال عن صفات المخلوقين لا يتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلا بأحد الوجوه المذكورة ﴿ حكيم ﴾ يجرى أفعاله على سنن الحكمة فيكلم تارة بواسطة وأخرى بدونها إما إلهاما وإما خطابا ﴿ وكذلك ﴾ أى ومثل ذلك الإيحاء البديع ﴿ أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ هو القرآن الذى هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يحييها حياة أبدية وقيل هو جبريل عليه السلام ومعنى إيحائه إليه عليهما السلام إرساله إليه بالوحى ﴿ ما كنت تدرى ﴾ قبل الوحى ﴿ ما الكتاب ﴾ أى أى شىء هو ﴿ ولا الإيمان ﴾ أى الإيمان بتفاصيل ما فى تضاعيف الكتاب من الأمور التى لاتهتدى إليها العقول لا الإيمان بما يستقل به العقل والنظر فإن درايته عليه الصلاة والسلام له مما لا ريب فيه قطعا ﴿ ولكن جعلناه ﴾ أى الروح الذى أوحيناه إليك ﴿ نورا نهدى به من نشاء ﴾ هدايته ﴿ من عبادنا ﴾ وهو الذى

يصرف اختياره نحو الاهتداء به وقوله تعالى ﴿ وإنك لتهدى ﴾ تقرير لهدايته تعالى وبيان لكيفيتها ومفعول لتهدى محذوف ثقة بغاية الظهور أى وإنك لتهدى بذلك النور من نشاء هدايته ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام وقرىء لتهدى أى ليهديك الله وقرىء لتدعو ﴿ صراط الله ﴾ بدل من الأول وإضافته الى الاسم الجليل ثم وصفه بقوله تعالى ﴿ الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيد وجوب سلوكه فإن كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقا وملكا وتصرفا مما يوجب ذلك أتم إيجاب ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ أى أمور ما فيهما قاطبة لا إلى غيره ففيه من الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم والوعيد للضالين عنه ما لا يخفى . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة حم عسق كان ممن تصلى عليه الملائكة ويستغفرون ويسترحمون له .

* * *

سورة الزخرف

مكية ، وقيل إلا قوله (واسأل من أرسلنا) وآياتها تسع وثمانون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ حم ﴾ الكلام فيه كالذى مر فى فاتحة سورة يس خلا أن الظاهر على تقدير إسميته كونه اسما للقرآن لا للسورة كما قيل فإن ذلك مخل بجزالة النظم الكريم ﴿ والكتاب ﴾ بالجر على أنه مقسم به إما ابتداء أو عطفا على حم على تقدير كونه مجرورا بإضمار باء القسم على أن مدار العطف المغايرة فى العنوان ومناط تكرير القسم المبالغة فى تأكيد مضمون الجملة القسمية ﴿ المبين ﴾ أى البين لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى أساليبهم أو المبين لطريق الهدى من طريق الضلالة الموضح لكل ما يحتاج إليه فى أبواب الديانة ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا ﴾

جواب للقسم لكن لا على أن مرجع التأكيد جعله كذلك كما قيل بل ما هو غايته التي يعرب عنها قوله تعالى ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ فإنها المحتاجة الى التحقيق والتأكيد لكونها منبئة عن الاعتناء بأمرهم وإتمام النعمة عليهم وإزاحة أعذارهم أي جعلنا ذلك الكتاب قرآنا عربيا لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق والمعنى الفائق وتقفوا على ما يتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر وتعرفوا حق النعمة فى ذلك وتنقطع أعذاركم بالكلية ﴿ وإنه فى أم الكتاب ﴾ أى فى اللوح المحفوظ فإنه أصل الكتب السماوية وقرىء إم الكتاب بالكسر ﴿ لدينا ﴾ أى عندنا ﴿ لعلى ﴾ رفيع القدر بين الكتب شريف ﴿ حكيم ﴾ ذو حكمة بالغة أو محكم وهما خبران لأن وما بينهما بيان لمحل الحكم كأنه قيل بعد بيان اتصافه بما ذكر من الوصفين الجليلين هذا فى أم الكتاب ولدينا والجملة إما عطف على الجملة المقسم عليها داخلة فى حكمها ففى الإقسام بالقرآن على علو قدره عنده تعالى براعة بديعة وإيذان بأنه من علو الشان بحيث لايحتاج فى بيانه إلى الاستشهاد عليه بالإقسام بغيره بل هو بذاته كاف فى الشهادة على ذلك من حيث الإقسام به كما أنه كاف فيها من حيث إعجازه ورمز إلى أنه لا يخطر بالبال عند ذكره شيء آخر أولى منه بالإقسام به وإما مستأنفة مقررة لعلو شأنه الذى أنبأ عنه الإقسام به على منهاج الاعتراض فى قوله تعالى (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وبعدما بين علو شأن القرآن العظيم وحقق أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجبه عقب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه فقيل ﴿ أفنضرب عنكم الذكر ﴾ أى ننحيه ونبعده عنكم مجاز من قولهم ضرب الغرائب عن الحوض وفيه إشعار باقتضاء الحكمة توجه الذكر إليهم وملازمته لهم كأنه يتهافت عليهم والفاء للعطف على محذوف يقتضيه المقام أى أنهملكم فننحى الذكر عنكم ﴿ صفحا ﴾ أى إعراضا عنكم على أنه مفعول له للمذكور أو مصدر مؤكد لما دل هو عليه فإن التنحية منبئة عن الصفح والإعراض قطعا كأنه قيل أفنصفح عنكم صفحا أو بمعنى الجانب فينتصب على الظرفية أى أفننحيه عنكم جانبا ﴿ إن كنتم قوما مسرفين ﴾ أى لأن كنتم منهمكين فى الإسراف

مصرين عليه على معنى أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة وتبقوا فى العذاب الخالد لكنا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك بل نهديكم إلى الحق بإرسال الرسول الأمين وإنزال الكتاب المبين وقرىء بالكسر على أن الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك لاستجهالهم والجزاء محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه وقوله تعالى :

﴿وكم أرسلنا من نبى فى الأولين وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزؤن﴾ تقرير لما قبله ببيان أن إسراف الأمم السالفة لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزاء قومه به وقوله تعالى ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشا ﴾ أى من هؤلاء القوم المسرفين عدة له عليه الصلاة والسلام ووعيد لهم بمثل ما جرى على الأولين ووصفهم بأشدية البطش لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولوية ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ أى سلف فى القرآن غير مرة ذكر قصتهم التى حقها أن تسير مسير المثل ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ أى ليسندن خلقها إلى من هذا شأنه فى الحقيقة وفى نفس الأمر لا أنهم يعبرون عنه بهذا العنوان وسلوك هذه الطريقة للإشعار بأن اتصافه تعالى بما سرد من جلائل الصفات والأفعال وبما يستلزمه ذلك من البعث والجزاء أمر بين لا ريب فيه وأن الحجة قائمة عليهم شاؤا أو أبوا وقد جوز أن يكون ذلك عين عبارتهم وقوله تعالى ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا ﴾ استئناف من جهته تعالى أى بسطها لكم تستقرون فيها ﴿ وجعل لكم فيها سبلا ﴾ تسلكونها فى أسفاركم ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أى لكى تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم أو بالتفكر فيها إلى التوحيد الذى هو المقصد الأصلى ﴿ والذى نزل من السماء ماء بقدر ﴾ بمقدار تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿ فأنشرنا به ﴾ أى أحيينا بذلك الماء ﴿ بلدة ميتا ﴾ خاليا عن النماء والنبات بالكلية وقرىء ميتا بالتشديد وتذكيره لأن البلدة فى معنى البلد والمكان والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم

خطره ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الإحياء الذى هو فى الحقيقة إخراج النبات من الأرض ﴿تخرجون﴾ أى تبعثون من قبوركم أحياء وفى التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذى هو إحياء الموتى وعن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال وتوضيح منهاج القياس .

﴿والذى خلق الأزواج كلها﴾ أى أصناف المخلوقات وعن ابن عباس رضى الله عنهما الأزواج الضروب والأنواع كالحلو والحامض والأبيض والأسود والذكر والأنثى وقيل كل ماسوى الله تعالى فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار الى غير ذلك ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ أى ما تركبونه تغليبا للأنعام على الفلك فإن الركوب متعد بنفسه واستعماله فى الفلك ونحوها بكلمة فى للرمز إلى مكانيتها وكون حركتها غير إرادية كما مر فى سورة هود عند قوله تعالى وقال (اركبوا فيها) ﴿لتستووا على ظهوره﴾ أى لتستعلوا على ظهور ما تركبونه من الفلك والأنعام والجمع باعتبار المعنى ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ أى تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها بألسنتكم ﴿وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا﴾ متعجبين من ذلك كما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا وضع رجله فى الركاب قال بسم الله فاذا استوى على الدابة قال الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخر لنا هذا إلى قوله تعالى لمنقلبون وكبر ثلاثا وهلل ثلاثا ﴿وما كنا له مقرنين﴾ أى مطيقين من أقرن الشىء إذا أطاقه وأصله وجده قرينته لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف وقرىء بالتشديد والمعنى واحد وهذا من تمام ذكر نعمته تعالى إذ بدون اعتراف المنعم عليه بالعجز عن تحصيل النعمة لا يعرف قدرها ولا حق المنعم بها ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ أى راجعون وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من المسير ويتذكر منه المسافرة العظمى التى هى الانقلاب إلى الله تعالى فيبنى أموره فى مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولا يخطر بباله فى شىء مما يأتى ويذر أمراً ينافيها ومن ضرورته أن يكون ركوبه لأمر مشروع .

﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً ﴾ متصل بقوله تعالى ولئن سألتهم . الخ أى وقد جعلوا له سبحانه بألسنتهم واعتقادهم بعد ذلك الاعتراف من عباده ولدا وإنما عبر عنه بالجزء لمزيد استحالته فى حق الواحد الحق من جميع الجهات وقرىء جزؤا بضمتين ﴿ إن الإنسان لكفور مبين ﴾ ظاهر الكفران مبالغ فيه ولذلك يقولون ما يقولون سبحان الله عما يصفون ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ أم منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من بيان بطلان جعلهم له تعالى ولدا على الإطلاق إلى بيان بطلان جعلهم ذلك الولد من أخس صنفيه والهمزة للإنكار والتوبيخ والتعجيب من شأنهم وقوله تعالى ﴿ وأصفاكم بالبنين ﴾ إما عطف على اتخذ داخل فى حكم الإنكار والتعجيب أو حال من فاعله بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور والالتفات إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتشديد التوبيخ أى بل اتخذ من خلقه أخس الصنفين واختار لكم أفضلهما على معنى هبوا أنكم اجترأتم على إضافة اتخاذ جنس الولد إليه سبحانه مع ظهور استحالته وامتناعه أما كان لكم شىء من العقل ونبذ من الحياء حتى اجترأتم على التفوه بالعظيمة الخارقة للعقول من ادعاء أنه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفين وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما وتنكير بنات وتعريف البنين لتربية ما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة .

من دلائل الكفر

﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ﴾ الخ استئناف مقرر لما قبله وقيل حال على معنى أنهم نسبوا إليه ما ذكر ومن حالهم أن أحدهم إذا بشر به اغتم والالتفات للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم وتحكى لغيرهم تعجيبا منها أى إذا أخبر أحدهم بولادة ما جعله مثلا له سبحانه إذ الولد لابد أن يجانس الوالد ويماثله ﴿ ظل وجهه مسودا ﴾ أى صار أسود فى الغاية من سوء ما بشر به ﴿ وهو كظيم ﴾ مملوء من الكرب والكآبة والجملة حال وقرىء مسود ومسواد على أن فى ظل ضمير المبشر ووجهه مسود جملة وقعت خبرا له ،

﴿ أو من ينشأ فى الحلية ﴾ تكرير للإنكار وتثنية للتوبيخ ومن منصوبة بمضمر معطوف على جعلوا أى أو جعلوا من شأنه أن يربى فى الزينة وهو عاجز عن أن يتولى لأمره بنفسه فالهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وقد جوز انتصابها بمضمر معطوف على اتخذ فالهمزة حينئذ لإنكار الوقوع واستبعاده وإقحامها بين المعطوفين لتذكير ما فى أم المنقطعة من الإنكار وتأكيده والعطف للتغاير العنوانى أى أو اتخذ من هذه الصفة الذميمة صفته ﴿ وهو ﴾ مع ماذكر من القصور ﴿ فى الخصام ﴾ أى الجدال الذى لا يكاد يخلو عنه الإنسان فى العادة ﴿ غير مبين ﴾ غير قادر على تقرير دعواه وإقامة حجته لنقصان عقله وضعف رأيه وإضافة غير لا تمنع عمل ما بعده فى الجار المتقدم لأنه بمعنى النفى وقرىء ينشأ ويناشأ من الإفعال والمفاعلة والكل بمعنى واحد ونظيره غلاه وأغلاه وغالاه ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾ بيان لتضمن كفرهم المذكور لكفر آخر وتقريع لهم بذلك وهو جعلهم أكمل العباد وأكرمهم على الله عز وجل أنقصهم رأيا وأخسهم صنفا وقرىء عبيد الرحمن وقرىء عبد الرحمن على تمثيل زلفاهم وقرىء أنثا وهو جمع الجمع ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ أى أحضروا خلق الله تعالى إياهم فشاهدوهم إناثا حتى يحكموا بأنوثتهم فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة وهو تجهيل لهم وتهكم بهم وقرىء أأشهدوا بهمزتين مفتوحة ومضمومة وآأشهدوا بألف بينهما ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ هذه فى ديوان أعمالهم ﴿ ويسألون ﴾ عنها يوم القيامة وقرىء سيكتب وسنكتب بالياء والنون وقرىء شهاداتهم وهى قولهم إن لله جزءاً وإن له بنات وأنها الملائكة وقرىء يساءلون من المساءلة للمبالغة ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ بيان لفن آخر من كفرهم أى لو شاء عدم عبادتنا للملائكة مشيئة ارتضاء ما عبدناهم أرادوا بذلك بيان أن ما فعلوه حق مرضى عنده تعالى وأنهم إنما يفعلونه بمشيئته تعالى إياه منهم مع اعترافهم بقبحه حتى ينتهض ذمهم به دليلا للمعتزلة ومبنى كلامهم الباطل على مقدمتين إحداهما أن عبادتهم لهم بمشيئته تعالى والثانية أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى ولقد أخطأوا فى الثانية حيث جهلوا

أن المشيئة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كائنا ما كان من غير اعتبار الرضا أو السخط فى شىء من الطرفين ولذلك جهلوا بقوله تعالى ﴿ ما لهم بذلك ﴾ أى بما أرادوا بقولهم ذلك من كون ما فعلوه بمشيئة الارتضاء لا بمطلق المشيئة فإن ذلك محقق ينطق به ما لا يحصى من الآيات الكريمة ﴿ من علم ﴾ يستند إلى سند ما ﴿ إن هم إلا يخرصون ﴾ يتمحلون تمحلا باطلا وقد جوز أن يشار بذلك إلى أصل الدعوى كأنه لما أظهر وجوه فسادها وحكى شبههم المزيفة نفى أن يكون لهم بها علم من طريق العقل ثم أضرب عنه إلى إبطال أن يكون لهم سند من جهة النقل فقيل :

﴿ أم آتيناهم كتابا من قبله ﴾ من قبل القرآن أو من قبل ادعائهم ينطق بصحة ما يدعونه ﴿ فهم به ﴾ بذلك الكتاب ﴿ مستمسكون ﴾ وعليه معولون ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ أى لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية بل اعترفوا بأن لا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم والأمة الدين والطريقة التى تأم أى تقصد كالرحلة لما يرحل إليه وقرىء إمة بالكسر وهى الحالة التى يكون عليها الآم أى القاصد وقوله تعالى على آثارهم مهتدون خبر إن والظرف صلة لمهتدون ﴿ وكذلك ﴾ أى والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة وتشبثهم بذيل التقليد وقوله تعالى ﴿ ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ استئناف مبين لذلك دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم ليس لأسلافهم أيضا سند غيره وتخصيص المترفين بتلك المقالة للإيذان بأن التنعم وحب البطالة هو الذى صرفهم عن النظر إلى التقليد ﴿ قال ﴾ حكاية لما جرى بين المنذرين وبين أممهم عند تعللهم بتقليد آبائهم أى قال كل نذير من أولئك المنذرين لأممهم ﴿ أولو جئتكم ﴾ أى أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم ﴿ بأهدى ﴾ بدين أهدى ﴿ مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ من الضلالة التى ليست من الهداية فى شىء وإنما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على مسلك الإنصاف وقرىء على أنه حكاية أمر ماض أوحى حينئذ إلى كل نذير لا على أنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم كما قيل لقوله تعالى :

﴿ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ فإنه حكاية عن الأمم قطعا أى قالت كل أمة لنذيرها إنا بما أرسلت به الخ وقد أجمل عند الحكاية للإيجاز كما مر فى قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) وجعله حكاية عن قومه عليه الصلاة والسلام بحمل صيغة الجمع على تغليبه على سائر المنذرين عليهم السلام وتوجيه كفرهم إلى ما أرسل به الكل من التوحيد لإجماعهم عليه كما فى نظائر قوله تعالى (كذبت عاد المرسلين) تمحل بعيد يرده بالكلية قوله تعالى ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أى بالاستئصال .

﴿فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ من الأمم المذكورين فلا تكترث بتكذيب قومك ﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ أى واذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام ﴿لأبيه وقومه ﴾ المكبين على التقليد كيف تبرأ مما هم فيه بقوله ﴿إننى براء مما تعبدون﴾ وتمسك بالبرهان ليسلكوا مسلكه فى الاستدلال أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بد من التقليد فإنه أشرف آبائهم وبراء مصدر نعت به مبالغة ولذلك يستوى فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وقرىء برىء وبراء بضم الباء ككريم وكرام وما إما مصدرية أو موصولة حذف عائدها أى إننى برىء من عبادتكم أو معبودكم .

﴿ إلا الذى فطرنى ﴾ استثناء منقطع أو متصل على أن ما تعم أولى العلم وغيرهم وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام أو صفة على أن ما موصوفة أى إننى براء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى ﴿ فإنه سيهدين ﴾ أى سيثبتنى على الهداية أو سيهدين إلى ما وراء الذى هدانى إليه إلى الآن والأوجه أن السين للتأكيد دون التسويف وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ﴿ وجعلها ﴾ أى جعل إبراهيم كلمة التوحيد التى ما تكلم به عبارة عنها ﴿كلمة باقية فى عقبه﴾ أى فى ذريته حيث وصاهم بها كما نطق به قوله تعالى (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب) الآية فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو إلى توحيده وقرىء كلمة وفى عقبه على التخفيف ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ علة للجعل أى جعلها باقية فى عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد ﴿ بل متعت هؤلاء ﴾

إضراب عن محذوف ينساق إليه الكلام كأنه قيل جعلها كلمة باقية فى عقبه بأن وصى بها بنيه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد فلم يحصل ما رجاه بل متعت منهم هؤلاء المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم من أهل مكة ﴿ وآباءهم ﴾ بالمد فى العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة وانهمكوا فى الشهوات وشغلوا بها عن كلمة التوحيد ﴿ حتى جاءهم ﴾ أى هؤلاء ﴿ الحق ﴾ أى القرآن ﴿ ورسول ﴾ أى رسول ﴿ مبين ﴾ ظاهر الرسالة واضحها بالمعجزات الباهرة أو مبين للتوحيد بالآيات البينات والحجج وقرىء متعنا ومتعت بالخطاب على إنه تعالى اعترض به على ذاته فى قوله تعالى (وجعلها كلمة باقية) الخ مبالغة فى تعييرهم فإن التمتع بزيادة النعم يوجب عليهم أن يجعلوه سببا لزيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان فجعله سببا لزيادة الكفران أقصى مراتب الكفر والضلال .

﴿ ولما جاءهم الحق ﴾ لينبههم عما هم فيه من الغفلة ويرشدهم إلى التوحيد ازدادوا كفرا وعتوا وضموا إلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به حيث ﴿ قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ فسموا القرآن سحرا وكفروا به واستحقروا الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين ﴾ أى من إحدى القريتين مكة والطائف على نهج قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) ﴿ عظيم ﴾ أى بالجاه والمال كالوليد بن المغيرة المخزومى وعروة بن مسعود الثقفى وقيل حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى وعن مجاهد عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل ولم يتفوهوا بهذه العظيمة حسدا على نزوله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم دون من ذكر من عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته بل استدلالا على عدمها بمعنى أنه لو كان قرآنا لنزل إلى أحد هؤلاء بناء على ما زعموا من أن الرسالة منصب جليل لا يليق به إلا من له جلالة من حيث المال والجاه ولم يدروا أنها رتبة روحانية لا يترقى إليها إلا همم الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتحلين بالفضائل الأنسية وأما المتزخرفون بالزخارف الدنيوية المتمتعون بالحظوظ فهم من استحقاق

تلك الرتبة بألف منزل وقوله تعالى ﴿ أهم يقسمون رحمت ربك ﴾ إنكار فيه تجهيل لهم وتعجيب من تحكمهم والمراد بالرحمة النبوة ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم ﴾ أى أسباب معيشتهم ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح ولم نفوض أمرها إليهم علما منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض ﴾ فى الرزق وسائر مبادى المعاش ﴿ درجات ﴾ متفاوتة بحسب القرب والبعد حسبما تقتضيه الحكمة فمن ضعيف وقوى وفقير وغنى وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم ﴿ ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ ليصرف بعضهم بعضا فى مصالحهم ويستخدموهم فى مهمتهم ويتسخروهم فى أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم لا لكمال فى الموسع ولا لنقص فى المقتر ولو فوضنا ذلك إلى تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم من متاع الدنيا الدنيئة وهو فى طرف الثمام على هذه الحالة فما ظنهم بأنفسهم فى تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط العيوق ومن أين لهم البحث عن أمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بأمرها ﴿ ورحمة ربك ﴾ أى النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين ﴿ خير مما يجمعون ﴾ من حطام الدنيا الدنيئة الفانية وقوله تعالى ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ استئناف مبين لحقارة متاع الدنيا ودناءة قدره عند الله عز وجل والمعنى أن حقارة شأنه بحيث لولا أن يرغب الناس لحبهم الدنيا فى الكفر إذا رأوا أهله فى سعة وتنعم فيجتمعوا عليه لأعطيناه بحذافيره من هو شر الخلائق وأدناهم منزلة وذلك قوله تعالى ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ﴾ أى متخذة منها ولبيوتهم بدل اشتمال من لمن وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن أفراد المستكن فى يكفر باعتبار لفظها والسقف جمع سقف كرهن جمع رهن وعن الفراء أنه جمع سقيفة كسفن وسفينة وقرىء سقفا بسكون القاف تخفيفا وسقفا اكتفاء بجمع البيوت وسقفا كأنه لغة فى سقف وسقوفا ﴿ ومعارج ﴾ أى جعلنا لهم معارج من فضة أى مصاعد جمع معرج وقرىء معاريج جمع معراج ﴿ عليها يظهرون ﴾ أى يعلون السطوح والعلالى ﴿ ولبيوتهم ﴾ أى وجعلنا لبيوتهم ﴿ أبوابا وسررا ﴾ من فضة ﴿ عليها ﴾ أى على السرر ﴿ يتكئون ﴾

ولعل تكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير ﴿وزخرفا﴾ أى زينة عطف على سقفا أو ذهبا عطف على محل من فضة .

﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحيوة الدنيا ﴾ أى وما كل ما ذكر من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة إلا شىء يتمتع به فى الحياة الدنيا وفى معناه ما قرىء وما كل ذلك إلا متاع الحيوة الدنيا وقرىء بتخفيف ما على أن أن هى المخففة واللام هى الفارقة وقرىء بكسر اللام على أنها لام العلة وما موصولة قد حذف عائدها أى للذى هو متاع الخ كما فى قوله تعالى (تماما على الذى أحسن)﴿والآخرة﴾ بما فيها من فنون النعم التى يقصر عنها البيان ﴿ عند ربك للمتقين ﴾ أى عن الكفر والمعاصى وبهذا تبين أن العظيم هو العظيم فى الآخرة لا فى الدنيا ﴿ ومن يعش ﴾ أى يتعام ﴿ عن ذكر الرحمن ﴾ وهو القرآن وإضافته إلى اسم الرحمن للإيذان بنزوله رحمة للعالمين وقرىء يعش بالفتح أى يعم يقال عشى يعشى إذا كان فى بصره آفة وعشا يعشو إذا تعشى بلا آفة كعرج وعرج وقرىء يعشو على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط والمعنى ومن يعرض عنه لفرط اشتغاله بزهرة الحياة الدنيا وانهماكه فى حظوظها الفانية والشهوات ﴿ نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ لا يفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه وقرىء يقيض بالياء على إسناده إلى ضمير الرحمن ومن رفع يعشو فحقه أن يرفع يقيض ﴿ وإنهم ﴾ أى الشياطين الذين قيض كل واحد منهم لكل واحد ممن يعشو ﴿ ليصدونهم ﴾ أى قرناءهم فدار جمع الضميرين اعتبار معنى من كما أن مدار إفراد الضمائر السابقة اعتبار لفظها ﴿ عن السبيل ﴾ المستبين الذى يدعو إليه القرآن ﴿ويحسبون﴾ أى العاشون ﴿أنهم﴾ أى الشياطين ﴿مهتدون﴾ أى إلى السبيل المستقيم وإلا لما اتبعوهم أو يحسبون أن أنفسهم مهتدون لأن اعتقاد كون الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتحاد مسلكهما والجملة حال من مفعول يصدون بتقدير المبتدأ أو من فاعله أو منهما لاشتمالها على ضميريهما أى وإنهم ليصدونهم عن الطريق الحق وهم يحسبون أنهم مهتدون

إليه وصيغة المضارع فى الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجددى لقوله تعالى :

﴿ حتى إذا جاءنا ﴾ فإن حتى وإن كانت ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضى حتما أن تكون غاية لأمر ممتد كما مر مرارا وإفراد الضمير فى جاء وما بعده لما أن المراد حكاية مقالة كل واحد واحد من العاشقين لقرينة لتهويل الأمر وتفظيع الحال والمعنى يستمر العاشقون على ما ذكر من مقارنة الشياطين والصد والحسبان الباطل حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة .

﴿ قال ﴾ مخاطبا له ﴿ ياليت بينى وبينك ﴾ فى الدنيا ﴿ بعد المشرقين ﴾ أى بعد المشرق والمغرب أى تباعد كل منهما عن الآخر فغلب المشرق وثنى وأضيف البعد إليهما ﴿ فبئس القرين ﴾ أى أنت وقوله تعالى ﴿ ولن ينفعكم ﴾ الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ من جهة الله عز وجل توبيخا وتقريعا أى لن ينفعكم ﴿ اليوم ﴾ أى يوم القيامة تمنيكم لمباعدتهم ﴿ إذ ظلمتم ﴾ أى لأجل ظلمكم أنفسكم فى الدنيا باتباعكم إياهم فى الكفر والمعاصى وقيل إذ ظلمتم بدل من اليوم أى إذ تبين عندكم وعند الناس جميعا أنكم ظلمتم أنفسكم فى الدنيا وعليه قول من قال * إذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة * أى تبين أنى لم تلدنى لئيمة بل كريمة وقوله تعالى ﴿ أنكم فى العذاب مشتركون ﴾ تعليل لنفى النفع أى لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم فى العذاب كما كنتم مشتركين فى سببه فى الدنيا ويجوز أن يسند الفعل إليه لكن لا بمعنى لن ينفعكم اشتراككم فى العذاب كما ينفع الواقعين فى شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم فى تحمل أعبائها وتقسمهم لعنائها لأن لكل منهم ما لا تبلغه طاقته كما قيل لأن الانتفاع بذلك الوجه ليس مما يخطر ببالهم حتى يرد عليهم بنفيه بل بمعنى لن يحصل لكم التشفى بكون قرنائكم معذبين مثلكم حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم (ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) وقولكم (فآتهم عذابا ضعفا من النار) ونظائرهما لتتشفوا بذلك . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبالغ فى المجاهدة فى دعاء

قومه وهم لا يزيدون إلا غيا وتعاميا عما يشاهدونه من شواهد النبوة وتصاما عما يسمعونه من بينات القرآن فنزل .

﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ﴾ وهو إنكار تعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم وهم قد تمرنوا فى الكفر واستغرقوا فى الضلال بحيث صار ما بهم من العشى عمى مقرونا بالصمم ﴿ ومن كان فى ضلال مبين ﴾ عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار فى الضلال المفرط بحيث لا ارعواء له منه لا توهم القصور من قبل الهادى ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى وحده بالقسر والإلجاء ﴿ فإما نذهبن بك ﴾ أى فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ونشفى بذلك صدرك وصدور المؤمنين ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ لا محالة فى الدنيا والآخرة فما مزيدة للتأكيد بمنزلة لام القسم فى أنها لا تفارق النون المؤكدة ﴿ أو نرينك الذى وعدناهم ﴾ أى أو أردنا أن نريك العذاب الذى وعدناهم ﴿ فإنا عليهم مقتدرون ﴾ بحيث لا مناص لهم من تحت ملكتنا وقهرنا ولقد أراه عليه السلام ذلك يوم بدر ﴿ فاستمسك بالذى أوحى إليك ﴾ من الآيات والشرائع سواء عجلنا لك الموعود أو أخرناه إلى يوم الآخرة وقرىء أوحى على البناء للفاعل وهو الله عز وجل ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ تعليل للاستمساك أو للأمر به ﴿ وإنه لذكر ﴾ لشرف عظيم ﴿ لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ يوم القيامة عنه وعن قيامكم بحقوقه ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ أى واسأل أممهم وعلماء دينهم كقوله تعالى (فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) وفائدة هذا المجاز التنبيه على أن المسؤل عنه عين ما نطقت به ألسنة الرسل لا ما يقوله أممهم وعلماؤهم من تلقاء أنفسهم قال الفراء هم إنما يخبرونه عن كتب الرسل فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ أى هل حكمنا بعبادة الأوثان وهل جاءت فى ملة من مللهم والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه حتى يكذب ويعادى .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ ملتبسا بها ﴿ إلى فرعون وملئه فقال إنى رسول رب العالمين ﴾ أريد باقتصاصه تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد إثر ما أشير إلى إجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه ﴿ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ أى فاجؤا وقت ضحكهم منها أى استهزؤا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها ﴿ وما نريهم من آية ﴾ من الآيات ﴿ إلا هى أكبر من أختها ﴾ إلا وهى بالغة أقصى مراتب الإعجاز بحيث يحسب كل من ينظر إليها أنها أكبر من كل ما يقاس بها من الآيات والمراد وصف الكل بغاية الكبر من غير ملاحظة قصور فى شىء منها أو إلا وهى مختصة بضرب من الإعجاز مفضلة بذلك الاعتبار على غيرها ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ كالسنين والطوفان والجراد وغيرها ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ لكى يرجعوا عما هم عليه من الكفر ﴿ وقالوا يا أيها الساحر ﴾ نادوه بذلك فى مثل تلك الحالة لغاية عتوهم ونهاية حماقتهم وقيل كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر وقرىء أيه الساحر بضم الهاء ﴿ ادع لنا ربك ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿ بما عهد عندك ﴾ بعهده عندك من النبوة أو استجابة دعوتك أو من كشف العذاب عمن اهتدى أو بما عهد عندك فوفيت به من الإيمان والطاعة ﴿ إننا لمهتدون ﴾ أى لمؤمنون على تقدير كشف العذاب عنا بدعوتك كقولهم (لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك) ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب ﴾ بدعوته ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ فاجؤا وقت نكث عهدهم بالاهتداء وقد مر تفصيله فى الأعراف ﴿ ونادى فرعون ﴾ بنفسه أو بمناديه ﴿ فى قومه ﴾ فى مجمعهم وفيما بينهم بعد أن كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمنوا ﴿ قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار ﴾ أنهار النيل ومعظمها أربعة أنهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس ﴿ تجرى من تحتى ﴾ أى من تحت قصرى أو أمرى وقيل من تحت سريرى لارتفاعه وقيل بين يدى فى جنانى وبساتينى والواو إما عاطفة لهذه الأنهار على ملك مصر فتجرى حال منها أو للحال فهذه مبتدأ والأنهار صفتها وتجرى خبر للمبتدأ ﴿ أفلا تبصرون ﴾ ذلك يريد به استعظام ملكه .

﴿ أم أنا خير ﴾ مع هذه المملكة والبسطة ﴿ من هذا الذى هو مهين ﴾ ضعيف حقير من المهانة وهى القلة ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ أى الكلام قاله افتراء عليه عليه السلام وتنقيصا له عليه السلام فى أعين الناس باعتبار ما كان فى لسانه عليه السلام من نوع رتة وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى (قد أوتيت سؤلك) وأم إما منقطعة والهمزة للتقرير كأنه قال إثر ما عدد أسباب فضله ومبادى خيريته أثبت عندكم واستقر لديكم أنى أنا خير وهذه حالى من هذا الخ وإما متصلة فالمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون خلا أنه وضع قوله أنا خير موضع تبصرون لأنهم إذا قالوا له أنت خير فهم عنده بصراء وهذا من باب تنزيل السبب منزلة المسبب ويجوز أن يجعل من تنزيل المسبب منزلة السبب فإن إبصارهم لما ذكر من أسباب فضله سبب على زعمه لحكمهم بخيريته ﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ﴾ أى فهلا ألقى اليه مقاليد الملك إن كان صادقا لما أنهم كانوا إذا سودوا رجلا سوروه وطوقوه بطوق من ذهب وأسورة جمع سوار وقرىء أساور جمع أسورة وقرىء أساورة جمع أسوار بمعنى السوار على تعويض التاء من ياء أساوير وقد قرىء كذلك وقرىء ألقى عليه أسورة وأساور على البناء للفاعل وهو الله تعالى ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ مقرونين يعينونه أو يصدقونه من قرنته به فاقترن أو متقارنين من اقترن بمعنى تقارن ﴿ فاستخف قومه ﴾ فاستفزهم وطلب منهم الخفة فى مطاوعته أو فاستخف أحلامهم ﴿ فأطاعوه ﴾ فيما أمرهم به ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغوى .

﴿ فلما آسفونا ﴾ أى أغضبونا أشد الغضب منقول من أسف إذا اشتد غضبه ﴿ انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ فى اليم ﴿ فجعلناهم سلفا ﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار يسلكون مسلكهم فى استيجاب مثل ما حل بهم من العذاب وهو إما مصدر نعت به أو جمع سالف كخدم جمع خادم وقرىء بضم السين واللام على أنه جمع سليف أى فريق قد سلف كرغف أو سالف كصبر أو سلف كأسد وقرىء سلفا بإبدال ضمة اللام فتحة أو على أنه جمع سلفة أى ثلة قد سلفت

﴿ ومثلا للآخرين ﴾ أى عظة لهم أوقصة عجيبة تسير مسير الأمثال لهم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون .

أمثلة ضربها الكفار

﴿ولما ضرب ابن مريم مثلا﴾ أى ضربه ابن الزبعرى حين جادل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) حيث قال أهذا لنا ولآلهتنا أو لجميع الأمم فقال عليه الصلاة والسلام هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال اللعين خصمتك ورب الكعبة أليس النصارى يعبدون المسيح واليهود عزيرا وبنو مليح الملائكة فإن كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرح به قومه وضحكوا وارتفعت أصواتهم وذلك قوله تعالى ﴿ إذا قومك منه ﴾ أى من ذلك المثل ﴿ يصدون ﴾ أى يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وجذلا وقرىء يصدون أى من أجل ذلك المثل يعرضون عن الحق أى يثبتون على ما كانوا عليه من الإعراض أو يزدادون فيه وقيل هو أيضا من الصديد وهما لغتان فيه نحو يعكف ويكف وهو الأنسب بمعنى المفاجأة ﴿وقالوا أآلهتنا خير أم هو﴾ حكاية لطرف من المثل المضروب قالوه تمهيدا لما بنوا عليه من الباطل المموه بما يغتر به السفهاء أى ظاهر أن عيسى خير من آلهتنا فحيث كان هو فى النار فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها واعلم أن ما نقل عنهم من الفرح ورفع الأصوات لم يكن لما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام سكت عند ذلك إلى أن نزل قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الآية فإن ذلك مع إيهامه لما يجب تنزيه ساحته عليه الصلاة والسلام عنه من شائبة الإفحام من أول الأمر خلاف الواقع كيف لا وقد روى أن قول ابن الزبعرى خصمتك ورب الكعبة صدر عنه من أول الأمر عند سماع الآية الكريمة فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله عليه الصلاة والسلام ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل وإنما لم يخص عليه السلام هذا الحكم بآلهتهم حين سأل الفاجر عن الخصوص والعموم عملا بما ذكر من اختصاص كلمة ما بغير

العقلاء لأن إخراج بعض المعبودين عنه عند الحاجة موهم للرخصة فى عبادته فى الجملة فعممه عليه السلام للكل لكن لا بطريق عبارة النص بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك فى المعبودية من دون الله تعالى ثم بين عليه الصلاة والسلام بقوله بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك إن الملائكة والمسيح بمعزل من أن يكونوا معبوديهم كما نطق به قوله تعالى (سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن) الآية وقد مر تحقيق المقام عند قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الآية بل إنما كان ماأظهروه من الأحوال المنكرة لمحض وقاحتهم وتهالكهم على المكابرة والعناد كما ينطق به قوله تعالى:

﴿ ما ضربوه لك إلا جدلا ﴾ أى ما ضربوا لك ذلك المثل إلا لأجل الجدال والخصام لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ أى لد شداد الخصومة مجبولون على المحك واللجاج وقيل لما سمعوا قوله تعالى (إن مثل عيسى عندالله كمثل آدم خلقه من تراب) قالوا نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ونحن نعبد الملائكة فنزلت فقولهم (أآلهتنا خير أم هو) حينئذ تفضيل لآلهتهم على عيسى عليه السلام لأن المراد بهم الملائكة ومعنى ما ضربوه الخ ما قالوا هذا القول إلا للجدل وقيل لما نزلت (إن مثل عيسى) الآية قالوا ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشرا كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر ومعنى يصدون يضجون ويضجرون والضمير فى أم هو لمحمد عليه الصلاة والسلام وغرضهم بالموازنة بينه عليه السلام وبين آلهتهم الاستهزاء به وقد جوز أن يكون مرادهم التنصل عما أنكر عليهم من قولهم الملائكة بنات الله تعالى ومن عبادتهم لهم كأنهم قالوا ما قلنا بدعا من القول ولا فعلنا منكرا من الفعل فإن النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه فنحن أشف منهم قولا وفعلا حيث نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسى فقوله تعالى ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ أى بالنبوة ﴿ وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل ﴾ أى أمرا عجيبا حقيقا بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة على الوجه الأول استئناف مسوق لتنزيهه عليه السلام عن أن ينسب اليه مانسب

إلى الأصنام بطريق الرمز كما نطق به صريحا قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الآية وفيه تنبيه على بطلان رأى من رفعه عن رتبة العبودية وتعريض بفساد رأى من يرضى رأيهم فى شأن الملائكة وعلى الثانى والرابع لبيان أنه قياس باطل بباطل أو بأبطل على زعمهم وما عيسى إلا عبد كسائر العبيد قصارى أمره أنه ممن أنعمنا عليهم بالنبوة وخصصناه ببعض الخواص البديعة بأن خلقناه بوجه بديع وقد خلقنا آدم بوجه أبدع منه فأين هو من رتبة الربوبية ومن أين يتوهم صحة مذهب عبدته حتى يفتخر عبدة الملائكة بكونهم أهدى منهم أو يعتذروا بأن حالهم أشف أو أخف من حالهم وأما على الوجه الثالث فهو لردهم وتكذيبهم فى افترائهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان أن عيسى فى الحقيقة وفيما أوحى الى الرسول عليهما الصلاة والسلام ليس إلا أنه عبد منعم عليه كما ذكر فكيف يرضى عليه السلام بمعبوديته أو كيف يتوهم الرضا بمعبودية نفسه وقوله تعالى ﴿ ولو نشاء ﴾ الخ لتحقيق أن مثل عيسى عليه السلام ليس ببدع من قدرة الله وأنه تعالى قادر على أبدع من ذلك وأبرع مع التنبيه على سقوط الملائكة أيضا من درجة المعبودية أى قدرتنا بحيث لو نشاء ﴿ لجعلنا ﴾ أى لخلقنا بطريق التوالد ﴿ منكم ﴾ وأنتم رجال ليس من شأنكم الولادة ﴿ ملائكة ﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿ فى الأرض ﴾ مستقرين فيها كما جعلناهم مستقرين فى السماء ﴿ يخلفون ﴾ أى يخلفونكم مثل أولادكم فيما تأتون وما تذرون ويباشرون الأفاعيل المنوطة بمباشرتكم مع أن شأنهم التسبيح والتقديس فى السماء فمن شأنهم بهذه المثابة بالنسبة الى القدرة الربانية كيف يتوهم استحقاقهم للمعبودية أو انتسابهم اليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

﴿ وإنه ﴾ وإن عيسى ﴿ لعلم للساعة ﴾ أى إنه بنزوله شرط من أشراطها وتسميته علما لحصوله به أو بحدوثه بغير أب أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذى هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة فى الساعة وقرىء لعلم أى علامة وقرىء للعلم وقرىء لذكر على تسمية ما يذكر به ذكرا كتسمية ما يعلم به علما وفى الحديث إن عيسى عليه السلام ينزل على ثنية بالأرض المقدسة

يقال لها أفيق وعليه ممصرتان وبيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة الصبح فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به وقيل الضمير للقرآن لما أن فيه الإعلام بالساعة ﴿ فلا تمترن بها ﴾ فلا تشكن فى وقوعها ﴿ واتبعون ﴾ أى واتبعوا هداى أو شرعى أو رسولى وقيل هو قول الرسول مأموراً من جهته تعالى ﴿ هذا ﴾ أى الذى أدعوكم إليه أو القرآن على أن الضمير فى أنه له ﴿ صراط مستقيم ﴾ موصل إلى الحق ﴿ ولا يصدنكم الشيطان ﴾ عن اتباعى ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ بين العداوة حيث أخرج أباكم من الجنة وعرضكم للبلية ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات ﴾ أى بالمعجزات أو بآيات الإنجيل أو بالشرائع الواضحات ﴿ قال ﴾ لبنى اسرائيل ﴿ قد جئتكم بالحكمة ﴾ لأعلمكم إياها ﴿ ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ﴾ وهو ما يتعلق بأمور الدين وأما يتعلق بأمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الأنبياء عليهم السلام كما قال عليه السلام أنتم أعلم بأمور دنياكم .

﴿ فاتقوا الله ﴾ فى مخالفتى ﴿ وأطيعون ﴾ فيما أبلغه عنه تعالى ﴿ إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه ﴾ بيان لما أمرهم بالطاعة فيه وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿ هذا ﴾ أى التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿ صراط مستقيم ﴾ لا يضل سالكه وهو إما من تتمة كلامه عليه السلام أو استئناف من جهته تعالى مقرر لمقالة عيسى عليه السلام ﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ الفرق المتحزبة ﴿ من بينهم ﴾ أى من بين من بعث إليهم من اليهود والنصارى ﴿ فويل للذين ظلموا ﴾ من المختلفين ﴿ من عذاب يوم أليم ﴾ هو يوم القيامة ﴿ هل ينظرون ﴾ أى ما ينتظر الناس ﴿ إلا الساعة أن تأتيهم ﴾ أى إلا إتيان الساعة ﴿ بغتة ﴾ أى فجأة لكن لا عند كونهم مترقبين لها بل غافلين عنها مشتغلين بأمور الدنيا منكرين لها وذلك قوله تعالى ﴿ وهم لا يشعرون الأخلاء ﴾ المتحابون فى الدنيا على الإطلاق أو فى الأمور الدنيوية ﴿ يومئذ ﴾ يوم إذ تأتيهم الساعة ﴿ بعضهم

لبعض عدو﴾ لانقطاع ما بينهم من علائق الخلة والتحاب لظهور كونها أسبابا للعذاب ﴿إلا المتقين﴾ فإن خلتهم فى الدنيا لما كانت فى الله تبقى على حالها بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار خلتهم من الثواب ورفع الدرجات والاستثناء على الأول متصل وعلى الثانى منقطع ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون فى الله يومئذ تشريفا لهم وتطبيبا لقلوبهم ﴿الذين آمنوا بآياتنا﴾ صفة للمنادى أو نصب على المدح ﴿وكانوا مسلمين﴾ أى مخلصين وجوههم لنا جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا وهو حال من واو آمنوا عن مقاتل إذا بعث الله الناس فزع كل أحد فينادى مناد يا عبادى فيرفع الخلائق رؤسهم على الرجاء ثم يتبعها الذين آمنوا الآية فينكس أهل الأديان الباطلة رؤسهم ﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم﴾ نساؤكم المؤمنات ﴿تحبرون﴾ تسرون سرورا يظهر حباره أى أثره على وجوهكم أو تزينون من الحبرة وهو حسن الهيئة أو تكرمون إكراما بليغا والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل ﴿يطاف عليهم﴾ بعد دخولهم الجنة حسبما أمروا به ﴿بصحاف من ذهب وأكواب﴾ كذلك والصحاف جمع صحفة قيل هى كالقصعة وقيل أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة ثم الصحفة ثم المكيلة والأكواب جمع كوب وهو كوز لا عروة له ﴿وفيها﴾ أى فى الجنة ﴿ماتشتهيه الأنفس﴾ من فنون الملاذ وقرىء ما تشتهى ﴿وتلذ الأعين﴾ أى تستلذه وتقر بمشاهدته وقرىء وتلذه ﴿وأنتم فيها خالدون﴾ إتمام للنعمة وإكمال للسرور فإن كل نعيم له زوال بالآخرة مقارن لخوفه لا محالة والالتفات للتشريف.

﴿وتلك الجنة﴾ مبتدأ وخبر ﴿التى أورثتموها﴾ وقرىء ورثتموها ﴿بما كنتم تعملون﴾ فى الدنيا من الأعمال الصالحة شبه جزاء العمل بالميراث لأنه يخلفه العامل عليه وقيل تلك الجنة مبتدأ وصفة والموصول مع صلته خبره وقيل هو صفة الجنة كالوجه الأول والخبر بما كنتم تعملون فتتعلق الباء بمحذوف لا بأورثتموها كما فى الأولين ﴿لكم فيها فاكهة كثيرة﴾ بحسب الأنواع والأصناف لا بحسب الأفراد فقط ﴿منها تأكلون﴾ أى بعضها

تأكلون فى كل نوبة وأما الباقى فعلى الأشجار على الدوام لا ترى فيها شجرة خلت عن ثمرها لحظة فهى مزينة بالثمار أبدا موقرة بها وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا ينزع رجل من الجنة من ثمرها إلا نبت مثلاها مكانها ﴿ إن المجرمين ﴾ أى الراسخين فى الإجرام وهم الكفار حسبما ينبىء عنه إيرادهم فى مقابلة المؤمنين بالآيات ﴿ فى عذاب جهنم خالدون ﴾ خبر إن أو خالدون هو الخبر وفى متعلقة به ﴿ لا يفتر عنهم ﴾ أى لا يخفف العذاب عنهم من قولهم فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلا والتركيب للضعف ﴿ وهم فيه ﴾ أى فى العذاب وقرىء فيها أى فى النار ﴿ مبلسون ﴾ آيسون من النجاة ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بذلك ﴿ ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد ﴿ ونادوا ﴾ خازن النار ﴿ يا مالك ﴾ وقرى يا مال على الترخيم بالضم والكسر ولعله رمز إلى ضعفهم وعجزهم عن تأدية[1] اللفظ بتمامه ﴿ ليقض علينا ربك ﴾ أى ليمتنا حتى نستريح من قضى عليه إذا أماته والمعنى سل ربك أن يقضى علينا وهذا لا ينافى ما ذكر من إبلاسهم لأنه جؤار وتمن للموت لفرط الشدة ﴿ قال إنكم ماكثون ﴾ أى فى العذاب أبدا لا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لا يجيبهم إلا بعد ألف سنة وقيل بعد مائة وقيل بعد أربعين سنة .

﴿ لقد جئناكم بالحق ﴾ فى الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب وهو خطاب توبيخ وتقريع من جهة الله تعالى مقرر لجواب مالك ومبين لسبب مكثهم وقيل فى قال ضمير الله تعالى ﴿ ولكن أكثركم للحق ﴾ أى حق كان ﴿ كارهون ﴾ لا يقبلونه وينفرون عنه وأما الحق المعهود الذى هو التوحيد أو القرآن فكلهم كارهون له مشمئزون منه ﴿ أم أبرموا أمرا ﴾ كلام مبتدأ ناع على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله صلى الله عليه وسلم وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء والهمزة للإنكار فإن أريد بالإبرام الإحكام حقيقة فهى لإنكار الوقوع واستبعاده وإن أريد

---

(١) فى ١١ : عن أداء اللفظ

الإحكام صورة فهى لإنكار الواقع واستقباحه أى أأبرم مشركوا مكة أمرا من كيدهم ومكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فإنا مبرمون ﴾ كيدنا حقيقة لاهم أو فإنا مبرمون كيدنا بهم حقيقة كما أبرموا كيدهم صورة كقوله تعالى (أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون) وكانوا يتناجون فى أنديتهم ويتشاورون فى أموره عليه الصلاة والسلام ﴿ أم يحسبون ﴾ أى بل أيحسبون ﴿أنا لا نسمع سرهم﴾ وهو ما حدثوا به أنفسهم أو غيرهم فى مكان خال ﴿ونجواهم﴾ أى ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجى ﴿ بلى ﴾ نحن نسمعهما ونطلع عليهما ﴿ ورسلنا ﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم ويلازمونهم أينما كانوا ﴿لديهم﴾ عندهم ﴿ يكتبون ﴾ أى يكتبونهما أو يكتبون كل ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال التى من جملتهاما ذكر من سرهم ونجواهم والجملة إما عطف على ما يترجم عنه بلى أو حال أى نسمعهما والحال أن رسلنا يكتبون ﴿ قل ﴾ أى للكفرة تحقيقا للحق وتنبيها لهم على أن مخالفتك لهم بعدم عبادتك لما يعبدونه من الملائكة عليهم السلام ليست لبغضك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم بل إنما هو لجزمك باستحالة ما نسبوا إليهم وبنوا عليه عبادتهم من كونهم بنات الله تعالى ﴿ إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ أى له وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بشئونه تعالى وبما يجوزعليه وبما لا يجوز وأولاهم بمراعاة حقوقه ومن مواجب تعظيم الوالد تعظيم ولده وفيه من الدلالة على انتفاء كونهم كذلك على أبلغ الوجوه وأقواها وعلى كون رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوة يقين وثبات قدم فى باب التوحيد ما لا يخفى مع ما فيه من استنزال الكفرة عن رتبة المكابرة حسبما يعرب عنه إيراد أن مكان لو المنبئة عن امتناع مقدم الشرطية وقيل إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين لله تعالى وقيل فأنا أول الآنفين أى المستنكفين منه أو من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه وقيل إن نافية أى ما كان للرحمن ولد فأنا أول من قال بذلك وقرىء ولد .

﴿سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون﴾ أى يصفونه

به من أن يكون له ولد وفى إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته كيف يتوهم أن يكون شىء منها جزءاً منه سبحانه وفى تكرير اسم الرب تفخيم لشأن العرش ﴿ فذرهم ﴾ حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا هذا البرهان الجلى ﴿ يخوضوا ﴾ فى أباطيلهم ﴿ ويلعبوا ﴾ فى دنياهم فإن ما هم فيه من الأفعال والأقوال ليست إلا من باب الجهل واللعب والجزم فى الفعل لجواب الأمر ﴿حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾ من يوم القيامة فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا وما يفعل بهم ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ﴾ الظرفان متعلقان بالمعنى الوصفى الذى ينبىء عنه الاسم الجليل من معنى المعبودية بالحق بناء على اختصاصه بالمعبود بالحق كما مر فى تفسير البسملة كأنه قيل وهو الذى مستحق لأن يعبد فيهما وقد مر تحقيقه فى سورة الأنعام وقرىء وهو الذى فى السماء الله وفى الأرض الله والراجع إلى الموصول مبتدأ قد حذف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه ولا مساغ لكون الجار خبرا مقدما وإله مبتدأ مؤخرا للزوم عراء الجملة حينئذ عن العائد نعم يجوز أن يكون صلة للموصول وإله خبرا لمبتدأ محذوف على أن الجملة بيان للصلة وأن كونه فى السماء على سبيل الإلهية لا على سبيل الاستقرار وفيه نفى الآلهة السماوية والأرضية وتخصيص لاستحقاق الإلهية به تعالى وقوله تعالى ﴿ وهو الحكيم العليم ﴾ كالدليل على ما قبله ﴿وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ إما على الدوام كالهواء أو فى بعض الأوقات كالطير ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أى العلم بالساعة التى فيها تقوم القيامة ﴿وإليه ترجعون﴾ للجزاء والالتفات للتهديد وقرىء على الغيبة وقرىء تحشرون .

﴿ ولا يملك الذين يدعون ﴾ أى يدعونهم وقرىء بالتاء مخففا ومشددا ﴿ من دونه الشفاعة ﴾ كما يزعمون ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ الذى هو التوحيد ﴿ وهم يعلمون ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن الإفراد أو لا باعتبار لفظها والاستثناء إما متصل

والموصول عام لكل ما يعبد من دون الله أو منفصل على أنه خاص بالأصنام ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ﴾ أى سألت العابدين والمعبودين ﴿ ليقولن الله ﴾ لتعذر الإنكار لغاية بطلانه ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع اعترافهم بكون الكل مخلوقا له تعالى ﴿ وقيله ﴾ بالجر إما على أنه عطف على الساعة أى عنده علم الساعة وعلم قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ يارب ﴾ الخ فإن القول والقيل والقال كلها مصادر أو على أن الواو للقسم وقوله تعالى ﴿ إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ جوابه وفى الإقسام به من رفع شأنه عليه الصلاة والسلام وتفخيم دعائه والتجائه إليه تعالى مالا يخفى وقرىء بالنصب بالعطف على سرهم أو على محل الساعة أو بإضمار فعله أو بتقدير فعل القسم وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر مابعده وقد جوز عطفه على علم الساعة ﴿ فاصفح عنهم ﴾ فأعرض عن دعوتهم واقنط عن إيمانهم ﴿ وقل سلام ﴾ أى أمرى تسلم منكم ومتاركة ﴿ فسوف يعلمون ﴾ حالهم البتة وإن تأخر ذلك وهو وعيد من الله تعالى لهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء تعلمون على أنه داخل فى حيز قل . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ادخلوا الجنة بغير حساب .

* * *

سورة الدخان

مكية، إلا قوله (إنا كاشفو العذاب) الآية
وهى سبع أو تسع وخمسون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ حم والكتاب المبين ﴾ الكلام فيه كالذى سلف فى السورة السابقة ﴿ إنا أنزلناه ﴾ أى الكتاب المبين الذى هو القرآن ﴿ فى ليلة مباركة ﴾ هى ليلة القدر وقيل ليلة البراءة ابتدىء فيها إنزاله أو أنزل فيها جملة إلى السماء الدنيا من اللوح وأملاه جبريل عليه السلام على السفرة ثم كان ينزله على النبى صلى الله عليه وسلم نجو ما فى ثلاث وعشرين سنة كما مر فى سورة الفاتحة ووصفها بالبركة لما أن نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية[1] بأجمعها أو لما فيها من تنزل الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة وقسم النعمة وفصل الأقضية وفضيلة العبادة وإعطاء تمام الشفاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل يزيد فى هذه الليلة ماء زمزم زيادة ظاهرة ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ استئناف مبين لما يقتضى الإنزال كأنه قيل إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب وقيل جواب للقسم وقوله تعالى إنا أنزلناه الخ اعتراض وقيل جواب ثان بغير عاطف ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ استئناف كما قبله فإن كونها مفرق الأمور المحكمة أو الملتبسة بالحكمة الموافقة لها يستدعى أن ينزل فيها القرآن الذى هو من عظائمها وقيل صفة أخرى لليلة وما بينهما اعتراض وهذا يدل على أنها ليلة القدر ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة وقيل

(١) ١١ : الأخروية والدنيوية .

يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ونسخة الحروب إلى جبريل وكذا الزلازل والخسف والصواعق ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت عليهم السلام وقرىء يفرق بالتشديد وقرىء يفرق على البناء للفاعل أى يفرق الله تعالى كل أمر حكيم وقرىء نفرق بنون العظمة .

﴿ أمرا من عندنا ﴾ نصب على الاختصاص أى أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا على مقتضى حكمتنا وهو بيان لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية ويجوز كونه حالا من كل أمر لتخصصه بالوصف أو من ضميره فى حكيم وقد جوز أن يراد به مقابل النهى ويجعل مصدرا مؤكدا ليفرق لاتحاد الأمر والفرقان فى المعنى أو لفعله المضمر لما أن الفرق به أو حالا من أحد ضميرى أنزلناه أى آمرين أو مأمورا به ﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ بدل من إنا كنا منذرين وقيل جواب ثالث وقيل مستأنف ، وقوله تعالى ﴿ رحمة من ربك ﴾ غاية للإرسال متأخرة عنه على أن المراد بها الرحمة الواصلة إلى العباد وباعث متقدم عليه على أن المراد مبدؤها أى إنا أنزلنا القرآن لأن من عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل إفاضة رحمتنا عليهم أو لاقتضاء رحمتنا السابقة إرسالهم ووضع الرب موضع الضمير للإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها وإضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه أو تعليل ليفرق أو لقوله تعالى أمرا على أن قوله تعالى رحمة مفعول للإرسال كما فى قوله تعالى (وما يمسك فلا مرسل له) أى يفرق فيها كل أمر أو تصدر الأوامر من عندنا لأن من عادتنا إرسال رحمتنا ولا ريب فى أن كلا من قسمة الأرزاق وغيرها والأوامر الصادرة منه تعالى من باب الرحمة فإن الغاية لتكليف العباد تعريضهم للمنافع وقرىء رحمة بالرفع أى تلك رحمة وقوله تعالى : ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ تحقيق لربوبيته تعالى وأنها لا تحق إلا لمن هذه نعوته .

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ بدل من ربك أو بيان أو نعت وقرىء بالرفع على أنه خبر آخر أو استئناف على إضمار مبتدأ ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أى إن كنتم من أهل الإيقان فى العلوم أو إن كنتم موقنين فى إقراركم بأنه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما إذا سئلتم من خلقها فقلتم الله علمتم أن الأمر كما قلنا أو إن كنتم مريدين اليقين فاعلموا ذلك ﴿ لا إله إلا هو ﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها وقيل خبر لقوله رب السموات الخ وما بينهما اعتراض ﴿ يحيى ويميت ﴾ مستأنفة كما قبلها وكذا قوله تعالى ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ بإضمار مبتدأ أو بدل من رب السموات على قراءة الرفع أو بيان أو نعت له وقيل فاعل ليميت وفى يحيى ضمير راجع إلى رب السموات وقرىء بالجر بدلا من رب السموات على قراءة الجر ﴿ بل هم فى شك ﴾ مما ذكر من شئونه تعالى غير موقنين فى إقرارهم ﴿ يلعبون ﴾ لا يقولون ما يقولون عن جد وإذعان بل مخلوطا بهزؤ ولعب والفاء فى قوله تعالى ﴿ فارتقب ﴾ لترتيب الارتقاب أو الأمر به على ماقبلها فإن كونهم فى شك مما يوجب ذلك حتما أى فانتظر لهم ﴿ يوم تأتى السماء بدخان مبين ﴾ أى يوم شدة ومجاعة فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان إما لضعف بصره أو لأن فى عام القحط يظلم الهواء لقلة الأمطار وكثرة الغبار أو لأن العرب تسمى الشر الغالب دخانا وذلك أن قريشا لما استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فأخذتهم سنة حتى أكلوا الجيف والعظام والعلهز وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان وكان يحدث الرجل ويسمع كلامه ولا يراه من الدخان وذلك قوله تعالى :

﴿ يغشى الناس ﴾ أى يحيط بهم ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أى قائلين ذلك فمشى إليه عليه الصلاة والسلام أبو سفيان ونفر معه وناشدوه الله تعالى والرحم وواعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا وذلك قوله تعالى ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ وهذا قول ابن عباس وابن مسعود

رضى الله عنهم وبه أخذ مجاهد ومقاتل وهو اختيار الفراء والزجاج وقيل هو دخان يأتى من السماء قبل يوم القيامة فيدخل فى أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ ويعترى المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر قال حذيفة يارسول الله وما الدخان فتلا الآية وقال يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره والأول هو الذى يستدعيه مساق النظم الكريم قطعا فإن قوله تعالى ﴿أنى لهم الذكرى﴾ إلخ رد لكلامهم واستدعائهم الكشف وتكذيب لهم فى الوعد بالإيمان المنبىء عن التذكر والاتعاظ بما اعتراهم من الداهية أى كيف يتذكرون أو من أين يتذكرون بذلك ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ﴿ وقد جاءهم رسول مبين ﴾ أى والحال أنهم شاهدوا من دواعى التذكر وموجبات الاتعاظ ما هو أعظم منه فى إيجابها حيث جاءهم رسول عظيم الشأن وبين لهم مناهج الحق باظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة تخر لها صم الجبال ﴿ثم تولوا عنه﴾ عن ذلك الرسول وهو هو ريثما شاهدوا منه ماشاهدوه من العظائم الموجبة للإقبال عليه ولم يقتنعوا بالتولى ﴿ وقالوا ﴾ فى حقه ﴿ معلم مجنون ﴾ أى قالوا تارة يعلمه غلام أعجمى لبعض ثقيف وأخرى مجنون أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير وما مثلهم إلا كمثل الكلاب إذا جاع ضغا وإذا شبع طغى وقوله تعالى ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتهديد وما بينهما اعتراض أى إنا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفا قليلا أو زمانا قليلا إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتو والإصرار على الكفر وتنسون هذه الحالة وصيغة الفاعل فى الفعلين للدلالة

على تحققهما لامحالة ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من العتو والعناد ومن فسر الدخان بما هو من الأشراط قال إذا جاء الدخان تضور المعذبون به من الكفار والمنافقين وغوثوا وقالوا ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون فيكشفه الله تعالى عنهم بعد أربعين يوما وريثما يكشفه عنهم يرتدون ولا يتمهلون .

﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ يوم القيامة وقيل يوم بدر وهو ظرف لما دل عليه قوله تعالى ﴿ إنا منتقمون ﴾ لا لمنتقمون لأن إن مانعة من ذلك أي يومئذ ننتقم إنا منتقمون وقيل هو بدل من بدل من يوم تأتي الخ وقرىء نبطش أي نحمل الملائكة على أن يبطشوا بهم البطشة الكبرى وهو التناول بعنف وصولة أو نحمل البطشة الكبرى باطشة بهم وقرىء نبطش بضم الطاء وهي لغة ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ﴾ أي امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام أو أوقعناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم وقرىء بالتشديد للمبالغة أو لكثرة القوم ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ على الله تعالى أو على المؤمنين أو في نفسه لأن الله تعالى لم يبعث نبيا إلا من سراة قومه وكرامهم ﴿ أن أدوا إلى عباد الله ﴾ أي بأن أدوا إلى بني إسرائيل وأرسلوهم معي أو بأن أدوا إلي يا عباد الله حقه من الإيمان وقبول الدعوة وقيل أن مفسرة لأن مجيء الرسول لا يكون إلا برسالة ودعوة وقيل مخففة من الثقيلة أي جاءهم بأن الشأن أدوا إلى الخ وقوله تعالى ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به أي رسول غير ظنين قد ائتمنني الله تعالى على وحيه وصدقني بالمعجزات القاهرة ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ أي لا تتكبروا عليه تعالى بالاستهانة بوحيه وبرسوله وأن كالتي سلفت وقوله تعالى ﴿ إني آتيكم ﴾ أي من جهته تعالى ﴿ بسلطان مبين ﴾ تعليل للنهي أي آتيكم بحجة واضحة لاسبيل الى إنكارها وآتيكم على صيغة الفاعل أو المضارع وفي إيراد الأداء مع الأمين والسلطان مع العلا من الجزالة ما لا يخفى .

﴿ وإنى عذت بربى وربكم ﴾ أى التجأت اليه وتوكلت عليه ﴿ أن ترجمون ﴾ من أن ترجمونى أى تؤذونى ضربا أو شتما أو أن تقتلونى قيل لما قال وأن لا تعلوا على الله توعدوه بالقتل وقرىء بإدغام الذال فى التاء ﴿ وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون ﴾ أى وإن كابرتم مقتضى العقل ولم تؤمنوا لى فخلونى كفافا لا على ولا لى ولا تتعرضوا لى بشر ولا أذى فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحكم وحمله على معنى فاقطعوا أسباب الوصلة عنى فلا موالاة بينى وبين من لا يؤمن بأباه المقام ﴿ فدعا ربه ﴾ بعد ما تموا على تكذيبه عليه السلام ﴿ أن هؤلاء ﴾ أى بأن هؤلاء ﴿ قوم مجرمون ﴾ وهو تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما استوجبوه به ولذلك سمى دعاء وقرىء بالكسر على إضمار القول قيل كان دعاؤه اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم وقيل هو قوله (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) ﴿ فأسر بعبادى ليلا ﴾ بإضمار القول إما بعد الفاء أى فقال ربه أسر بعبادى وإما قبلها كأنه قيل قال إن كان الأمر كما تقول فأسر بعبادى أى بنى اسرائيل فقد دبر الله تعالى أن تتقدموا وقرىء بوصل الهمزة من سرى ﴿ إنكم متبعون ﴾ أى يتبعكم فرعون وجنوده بعد ما علموا بخروجكم ﴿ واترك البحر رهوا ﴾ مفتوحا ذا فجوة واسعة أو ساكنا على هيئته بعد ما جاوزته ولا تضربه بعصاك لينطبق ولا تغيره عن حاله ليدخله القبط ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ وقرىء أنهم بالفتح أى لأنهم ﴿ كم تركوا ﴾ أى كثيرا تركوا بمصر ﴿ من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ﴾ محافل مزينة ومنازل محسنة ﴿ ونعمة ﴾ أى تنعم ﴿ كانوا فيها فاكهين ﴾ متنعمين وقرىء فكهين ﴿ كذلك ﴾ الكاف فى حيز النصب وذلك إشارة إلى مصدر فعل يدل عليه تركوا أى مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ﴿ وأورثناها قوما آخرين ﴾ وقيل مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها وقيل فى حيز الرفع على الخبرية أى الأمر كذلك فحينئذ يكون أورثناها معطوفا على تركوا وعلى الأولين على الفعل المقدر ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال له بكت عليه السماء

والأرض ومنه ما روى أن المؤمن ليبكى عليه مصلاه ومحل عبادته ومصاعد عمله ومهابط رزقه وآثاره فى الأرض وقيل تقديره أهل السماء والأرض ﴿ وما كانوا ﴾ لما جاء وقت هلاكهم ﴿ منظرين ﴾ ممهلين إلى وقت آخر أو إلى الآخرة بل عجل لهم فى الدنيا .

﴿ ولقد نجينا بنى إسرائيل ﴾ بأن فعلنا بفرعون وقومه ما فعلنا ﴿ من العذاب المهين ﴾ من استعباد فرعون إياهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم على الخسف والضيم ﴿ من فرعون ﴾ بدل من العذاب إما على جعله نفس العذاب لإفراطه فيه وإما على حذف المضاف أى عذاب فرعون أو حال من المهين أى كائنا من فرعون وقرىء من فرعون على معنى هل تعرفونه من هو فى عتوه وتفرعنه وفى إبهام أمره أولا وتبيينه بقوله تعالى ﴿ إنه كان عاليا من المسرفين ﴾ ثانيا من الإفصاح عن كنه أمره فى الشر والفساد مالا مزيد عليه وقوله تعالى من المسرفين إما خبر ثان لكان أى كان متكبرا مسرفا أو حال من الضمير فى عاليا أى كان رفيع الطبقة من بين المسرفين فائقا لهم بليغا فى الإسراف ﴿ ولقد اخترناهم ﴾ أى بنى اسرائيل ﴿ على علم ﴾ أى عالمين بأنهم أحقاء بالاختيار أو عالمين بأنهم يزيغون فى بعض الأوقات ويكثر منهم الفرطات ﴿ على العالمين ﴾ جميعا لكثرة الأنبياء فيهم أو على عالمى زمانهم ﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغيرها من عظائم الآيات التى لم يعهد مثلها فى غيرهم ﴿ ما فيه بلاء مبين ﴾ نعمة جلية أو اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون .

﴿ إن هؤلاء ﴾ يعنى كفار قريش لأن الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على تماثلهم فى الإصرار على الضلالة والتحذير عن حلول مثل ما حل بهم ﴿ ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى ﴾ أى ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية ولا قصد فيه إلى إثبات موتة أخرى كما فى قولك حج زيد الحجة الأولى ومات وقيل لما قيل لهم إنكم تموتون موتة تعقبها حياة كما تقدمتكم موتة كذلك قالوا ما هى إلا موتتنا الأولى

أى ما الموتة التى تعقبها حياة إلا الموتة الأولى وقيل المعنى ليست الموتة إلا هذه الموتة دون الموتة التى تعقب حياة القبر كما تزعمون ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ بمبعوثين ﴿ فأتوا بآبائنا ﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى ليظهر أنه حق وقيل كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله تعالى فينشر لهم قصى بن كلاب ليشاوروه وكان كبيرهم ومفزعهم فى المهمات والملمات .

﴿ أهم خير ﴾ رد لقولهم وتهديد لهم أى أهم خير فى القوة والمنعة اللتين يدفع بهما أسباب الهلاك ﴿ أم قوم تبع ﴾ هو تبع الحميرى الذى سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند وقيل هدمها وكان مؤمنا وقومه كافرين ولذلك ذمهم الله تعالى دونه وكان يكتب فى عنوان كتابه بسم الله الذى ملك بحرا وبحرا أى بحارا كثيرة وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم وعنه عليه الصلاة والسلام ما أدرى أكان تبع نبيا أو غير نبى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان نبيا وقيل لملوك اليمن التبابعة لأنهم يتبعون كما يقال لهم الأقيال لأنهم يتقيلون ﴿ والذين من قبلهم ﴾ عطف على قوم تبع والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم من كل جبار عنيد أولى بأس شديد والاستفهام لتقرير أن أولئك أقوى من هؤلاء وقوله تعالى ﴿ أهلكناهم ﴾ استئناف لبيان عاقبة أمرهم وقوله تعالى ﴿ إنهم كانوا مجرمين ﴾ تعليل لإهلاكهم ليعلم أن أولئك حيث أهلكوا بسبب إجرامهم مع ما كانوا فى غاية القوة والشدة فلأن يهلك هؤلاء وهم شركاء لهم فى الإجرام أضعف منهم فى الشدة والقوة أولى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما ﴾ أى ما بين الجنسين وقرىء وما بينهن ﴿ لاعبين ﴾ لاهين من غير أن يكون فى خلقهما غرض صحيح وغاية حميدة ﴿ ما خلقناهما ﴾ وما بينهما ﴿ إلا بالحق ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو أعم الأسباب أى ما خلقناهما ملتبسا بشىء من الأشياء إلا ملتبسا بالحق أو ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذى هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن الأمر كذلك فينكرون البعث والجزاء ﴿ إن يوم

الفصل ﴾ أى فصل الحق عن الباطل وتمييز المحق من المبطل أو فصل الرجل عن أقاربه وأحبائه ﴿ ميقاتهم ﴾ وقت موعدهم ﴿ أجمعين ﴾ وقرىء ميقاتهم بالنصب على أنه اسم إن ويوم الفصل خبرها أى أن ميعاد حسابهم وجزائهم فى يوم الفصل ﴿ يوم لا يغنى ﴾ بدل من يوم الفصل أو صفة لميقاتهم أو ظرف لما دل عليه الفصل لا لنفسه ﴿ مولى ﴾ من قرابة أو غيرها ﴿ عن مولى ﴾ أى مولى كان ﴿ شيئاً ﴾ أى شيئاً من الإغناء ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ الضمير لمولى الأول باعتبار المعنى لأنه عام .

﴿ إلا من رحم الله ﴾ بالعفو عنه وقبول الشفاعة فى حقه ومحله الرفع على البدل من الواو أو النصب على الاستثناء ﴿ إنه هو العزيز ﴾ الذى لا ينصر من أراد تعذيبه ﴿ الرحيم ﴾ لمن أراد أن يرحمه ﴿ إن شجرة الزقوم ﴾ وقرىء بكسر الشين وقد مر معنى الزقوم فى سورة الصافات ﴿ طعام الأثيم ﴾ أى الكثير الآثام والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه ﴿ كالمهل ﴾ وهو ما يمهل فى النار حتى يذوب وقيل هو دردى الزيت ﴿ يغلى فى البطون ﴾ وقرىء بالتاء على إسناد الفعل إلى الشجرة ﴿ كغلى الحميم ﴾ غليانا كغليه ﴿ خذوه ﴾ على إرادة القول والخطاب للزبانية ﴿ فاعتلوه ﴾ أى جروه والعتل الأخذ بمجامع الشىء وجره بقهر وعنف وقرىء بضم التاء وهى لغة فيه ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أى وسطه ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ كان الأصل يصب من فوق رؤسهم الحميم فقيل يصب من فوق رؤسهم عذاب هو الحميم للمبالغة ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف وزيد من للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ أى وقولوا له ذلك استهزاء به وتقريعا له على ما كان يزعمه ، روى أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين جبليها أعز ولا أكرم منى فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئاً وقرىء بالفتح أى لأنك أو عذاب أنك ﴿ إن هذا ﴾ أى العذاب ﴿ ما كنتم به تمترون ﴾ تشكون وتمارون فيه والجمع باعتبار المعنى لأن المراد جنس الأثيم .

﴿ إن المتقين ﴾ أى عن الكفر والمعاصى ﴿ فى مقام ﴾ فى موضع قيام

والمراد المكان على الإطلاق فإنه من الخاص الذى شاع استعماله فى معنى العموم وقرىء بضم الميم وهو موضع إقامة ﴿ أمين ﴾ يأمن صاحبه الآفات والانتقال عنه وهو من الأمن الذى هو ضد الخيانة وصف به المكان بطريق الاستعارة كأن المكان المخيف يخون صاحبه لما يلقى فيه من المكاره ﴿ فى جنات وعيون ﴾ بدل من مقام جىء به دلالة على نزاهته واشتماله على طيبات المآكل والمشارب ﴿ يلبسون من سندس واستبرق ﴾ إما خبر ثان أو حال من الضمير فى الجار أو استئناف والسندس ما رق من الحرير والاستبرق ما غلظ منه معرب ﴿ متقابلين ﴾ فى المجالس ليستأنس بعضهم ببعض ﴿ كذلك ﴾ أى الأمر كذلك أو كذلك أثبناهم ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ على الوصف وقرىء بالإضافة أى قرناهم بهن والحور جمع الحوراء وهى البيضاء والعين جمع العيناء وهى العظيمة العينين واختلف فى أنهن نساء الدنيا أو غيرها ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة ﴾ أى يطلبون ويأمرون بإحضار مايشتهونه من الفواكه لايتخصص شىء منها بمكان ولا زمان ﴿ آمنين ﴾ من كل ما يسوؤهم ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ بل يستمرون على الحياة أبدا والاستثناء منقطع أو متصل على أن المراد بيان استحالة ذوق الموت فيها على الإطلاق كأنه قيل لا يذوقون فيها الموت إلا إذا أمكن ذوق الموتة الأولى حينئذ ﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ وقرىء مشددا للمبالغة فى الوقاية ﴿ فضلا من ربك ﴾ أى أعطوا ذلك كله عطاء وتفضلا منه تعالى وقرىء بالرفع أى ذلك فضل ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ الذى لا فوز وراءه إذ هو خلاص عن جميع المكاره ونيل لكل المطالب وقوله تعالى ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ فذلكة للسورة الكريمة أى إنما أنزلنا الكتاب المبين بلغتك كى يفهمه قومك ويتذكروا ويعملوا بموجبه وإذ لم يفعلوا ذلك ﴿ فارتقب ﴾ فانتظر ما يحل بهم ﴿ إنهم مرتقبون ﴾ ما يحل بك * روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أصبح مغفورا له .

* * *

سورة الجاثية

مكية ، وهى سبع أو ست وثلاثون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ حم ﴾ الكلام فيه كما مر فى فاتحة سورة المؤمن فإن جعل اسما للسورة فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذا مسمى بحم والإشارة إلى السورة قبل جريان ذكرها قد وقفت على سره مرارا وإن جعل مسرودا على نمط التعديد فلا حظ له من الإعراب وقوله تعالى ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ على الأول خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى خبر لمبتدأ مضمر يلوح به ماقبله أى المؤلف من جنس ماذكر تنزيل الكتاب وقيل هو خبر لحم أى المسمى به تنزيل الخ وقد مر مرارا أن الذى يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه وإذ لا عهد بالتسمية بعد فحقها الإخبار بها وأما جعله خبرا له بتقدير المضاف وإبقاء التنزيل على أصله أى تنزيل حم تنزيل الكتاب فمع عرائه عن إفادة فائدة يعتد بها تمحل على تمحل وقوله تعالى ﴿ من الله العزيز الحكيم ﴾ كما مر فى صدر سورة الزمر على التفصيل وقيل حم مقسم به وتنزيل الكتاب صفته وجواب القسم قوله تعالى ﴿ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾ وهو على الوجوه المتقدمة كلام مستأنف مسوق للتنبيه على الآيات التكوينية الآفاقية والأنفسية ومحل الآيات إما نفس السموات والأرض فإنهما منطويتان من فنون الآيات على ما يقصر عنه البيان وإما خلقهما كما فى قوله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض) وهو الأوفق بقوله تعالى ﴿ وفى خلقكم ﴾ أى من نطفة ثم من علقة متقلبة فى أطوار مختلفة إلى تمام الخلق ﴿ وما يبث من دابة ﴾ عطف على المضاف دون المضاف إليه أى وفيما ينشره ويفرقه من دابة .

﴿ آيات ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجملة معطوفة على

ما قبلها من الجملة المصدرة بأن وقيل آيات عطف على ما قبلها من آيات باعتبار المحل عند من يجوزه وقرىء آية بالتوحيد وقرىء آيات بالنصب عطفا على ما قبلها من اسم إن والخبر هو الخبر كأنه قيل وإن فى خلقكم وما يبث من دابة آيات ﴿ لقوم يوقنون ﴾ أى من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هى عليه ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ بالجر على إضمار الجار المذكور فى الآيتين قبله وقد قرىء بذكره والمراد باختلافهما إما تعاقبهما أو تفاوتهما طولا وقصرا ﴿ وما أنزل الله من السماء ﴾ عطف على اختلاف ﴿ من رزق ﴾ أى من مطر وهو سبب للرزق عبر عنه بذلك تنبيها على كونه آية من جهتى القدرة والرحمة ﴿ فأحيى به الأرض ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزروع والثمرات والنبات ﴿ بعد موتها ﴾ وعرائها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها وخلو أشجارها عن الثمار ﴿ وتصريف الرياح ﴾ من جهة إلى أخرى ومن حال إلى حال وقرىء بتوحيد الريح وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدمه عليه فى الوجود إما للإيذان بأنه آية مستقلة حيث لو روعى الترتيب الوجودى لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة وإما لأن كون التصريف آية ليس لمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر بل له ولسائر المنافع التى من جملتها سوق السفن فى البحار ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ما تقدم من الجار والمجرور والجملة معطوفة على ماقبلها وقرىء بالنصب على الاختصاص وقيل على أنها اسم أن والمجرور المتقدم خبرها بطريق العطف على معمولى عاملين مختلفين هما أن وفى أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر فى اختلاف والنصب فى آيات وتنكير آيات فى المواقع الثلاثة للتفخيم كما وكيفا واختلاف الفواصل لاختلاف مراتب الآيات فى الدقة والجلاء .

﴿ تلك آيات الله ﴾ مبتدأ وخبر وقوله تعالى ﴿ نتلوها عليك ﴾ حال عاملها معنى الإشارة وقيل هو الخبر وآيات الله بدل أو عطف بيان ﴿ بالحق ﴾ حال من فاعل نتلو ومن مفعوله أى نتلوها محقين أو ملتبسة بالحق ﴿ فبأى حديث ﴾ من الأحاديث ﴿ بعد الله وآياته ﴾ أى بعد آيات الله وتقديم الاسم الجليل

لتعظيمها كما فى قولهم أعجبنى زيد وكرمه أو بعد حديث الله الذى هو القرآن حسبما نطق به قوله تعالى (الله نزل أحسن الحديث) وهو المراد بآياته أيضا ومناط العطف التغاير العنوانى ﴿ يؤمنون ﴾ بصيغة الغيبة وقرىء بالتاء ﴿ ويل لكل أفاك ﴾ كذاب ﴿ أثيم ﴾ كثير الآثام ﴿ يسمع آيات الله ﴾ صفة أخرى لأفاك وقيل حال من الضمير فى أثيم ﴿ تتلى عليه ﴾ حال من آيات الله ولا مساغ لجعله مفعولا ثانيا ليسمع لأن شرطه أن يكون ما بعده مما لا يسمع كقولك سمعت زيدا يقرأ ﴿ ثم يصر ﴾ أى يقيم على كفره وأصله من إصرار الحمار على العانة ﴿ مستكبرا ﴾ عن الإيمان بما سمعه من آيات الله تعالى والإذعان لما تنطق به من الحق مزدريا لها معجبا بما عنده من الأباطيل وقيل نزلت فى النضر بن الحرث وكان يشترى من أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن لكنها وردت بعبارة عامة ناعية عليه وعلى كل من يسير سيرته ما هم فيه من الشر والفساد وكلمة ثم لاستبعاد الإصرار والاستكبار بعد سماع الآيات التى حقها أن تذعن لها القلوب وتخضع لها الرقاب كما فى قول من قال :

* يرى غمرات الموت ثم يزورها *

﴿ كأن لم يسمعها ﴾ أى كأنه لم يسمعها فخفف وحذف ضمير الشأن والجملة حال من يصر أى يصر شبيها بغير السامع ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ على إصراره واستكباره .

﴿ وإذا علم من آياتنا شيئا ﴾ أى إذا بلغه من آياتنا شىء وعلم أنه من آياتنا لا أنه علمه كما هو عليه فإنه بمعزل عن ذلك العلم وقيل إذا علم منها شيئا يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملا فاسدا يتوصل به إلى الطعن والغميزة ﴿ اتخذها ﴾ أى الآيات كلها ﴿ هزوا ﴾ أى مهزوءا بها لا ما سمعه فقط وقيل الضمير للشىء والتأنيث لأنه فى معنى الآية ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى كل أفاك من حيث الاتصاف بما ذكر من القبائح والجمع باعتبار الشمول للكل كما فى قوله تعالى (كل حزب بما لديهم فرحون) كما أن الإفراد فيما سبق من الضمائر باعتبار كل واحد واحد ﴿ لهم ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿ عذاب مهين ﴾ وصف العذاب بالإهانة

توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات الله سبحانه وتعالى ﴿من ورائهم جهنم﴾ أى من قدامهم لأنهم متوجهون إلى ما أعد لهم أو من خلفهم لأنهم معرضون عن ذلك مقبلون على الدنيا فإن الوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف وقدام ﴿ ولا يغنى عنهم ﴾ ولا يدفع ﴿ ما كسبوا ﴾ من الأموال والأولاد ﴿شيئا﴾ من عذاب الله تعالى أو شيئا من الإغناء ﴿ ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء﴾ أى الأصنام وتوسيط حرف النفى بين المعطوفين مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعا مبنى على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون فى شفاعتهم وفيه تهكم ﴿ ولهم ﴾ فيما وراءهم من جهنم ﴿عذاب عظيم﴾ لا يقادر قدره ﴿ هذا ﴾ أى القرآن ﴿ هدى ﴾ فى غاية الكمال من الهداية كأنه نفسها ﴿ والذين كفروا ﴾ أى بالقرآن وإنما وضع موضع ضميره قوله تعالى ﴿ بآيات ربهم ﴾ لزيادة تشنيع كفرهم به وتفظيع حالهم ﴿لهم عذاب من رجز﴾ أى من أشد العذاب ﴿أليم﴾ بالرفع صفة عذاب وقرىء بالجر على أنه صفة رجز وتنوين عذاب فى المواقع الثلاثة للتفخيم ورفعه إما على الابتداء وإما على الفاعلية .

﴿ الله الذى سخر لكم البحر﴾ بأن جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلل كالأخشاب ولا يمنع الغوص والخرق لميعانه ﴿لتجرى الفلك فيه بأمره﴾ وأنتم راكبوها ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ﴿ ولعلكم تشكرون﴾ ولكى تشكروا النعم المترتبة على ذلك ﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض﴾ من الموجودات بأن جعلها مدار لمنافعكم ﴿ جميعا ﴾ إما حال من ما فى السموات والأرض أو توكيد له ﴿ منه ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لجميعا أو حال من ما أى جميعا كائنا منه تعالى أو سخر لكم هذه الأشياء كائنة منه مخلوقة له تعالى أو خبر لمحذوف أى هى جميعا منه تعالى وقرىء منه على المفعول له ومنه على أنه فاعل سخر على الاسناد المجازى أو خبر مبتدأ محذوف أى ذلك منه ﴿إن فى ذلك﴾ أى فيما ذكر من الأمور العظام ﴿لآيات﴾ عظيمة

الشأن كثيرة العدد ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فى بدائع صنع الله تعالى فإنهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها ويوفقون لشكرها .

﴿ قل للذين آمنوا ﴾ حذف المقول لدلالة ﴿ يغفروا ﴾ عليه فإنه جواب للأمر باعتبار تعلقه به لا باعتبار نفسه فقط أى قل لهم اغفروا يغفروا ﴿ للذين لا يرجون أيام الله ﴾ أى يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون وقائعه تعالى بأعدائه من قولهم أيام العرب لوقائعها وقيل لا يأملون الأوقات التى وقتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها قيل نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بها وقيل نزلت فى عمر رضى الله عنه حين شتمه غفارى فهم أن يبطش به وقيل حين قال ابن أبى ما قال وذلك أنهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع فأرسل ابن أبى غلامه يستقى فأبطأ عليه فلما أتاه قال له ما حبسك قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قرب النبى صلى الله عليه وسلم وقرب أبى بكر فقال ابن أبى ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه فأنزلها الله تعالى .

﴿ ليجزى قوما بما كانوا يكسبون ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة والمراد بالقوم المؤمنون والتنكير لمدحهم والثناء عليهم أى أمروا بذلك ليجزى يوم القيامة قوما أيما قوم قوما مخصوصين بما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الحسنة التى من جملتها الصبر على أذية الكفار والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه ما يقصر عنه البيان من الثواب العظيم هذا وقد جوز أن يراد بالقوم الكفرة وبما كانوا يكسبون سيئاتهم التى من جملتها ما حكى من الكلمة الخبيثة والتنكير للتحقير وفيه أن مطلق الجزاء لا يصلح تعليلا للأمر بالمغفرة لتحققه على تقديرى المغفرة وعدمها فلابد من تخصيصه بالكل بأن لا يتحقق بعض منه فى الدنيا أو بما يصدر عنه تعالى بالذات وفى ذلك من التكلف ما لا يخفى وأن يراد كلا الفريقين وهو أكثر تكلفا وأشد تمحلا وقرىء ليجزى قوم وليجزى قوما أى ليجزى الجزاء قوما وقرىء لنجزى بنون العظمة ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء

فعلها ﴾ لا يكاد يسرى عمل إلى غير عامله ﴿ ثم إلى ربكم ﴾ مالك أموركم ﴿ ترجعون ﴾ فيجازيكم على أعمالكم خيرا كان أوشرا ﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب ﴾ أى التوراة ﴿ والحكم ﴾ أى الحكمة النظرية والعملية والفقه فى الدين أو فصل الخصومات بين الناس إذ كان الملك فيهم ﴿ والنبوة ﴾ حيث كثر فيهم الأنبياء ما لم يكثر فى غيرهم ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ مما أحل الله تعالى من اللذائذ كالمن والسلوى ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من فلق البحر وإظلال الغمام ونظائرهما وقيل على عالمى زمانهم ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ دلائل ظاهرة فى أمر الدين ومعجزات قاهرة وقال ابن عباس رضى الله عنهما هو العلم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وما بين لهم من أمره وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ويكون أنصاره أهل يثرب ﴿ فما اختلفوا ﴾ فى ذلك الأمر ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ بحقيقته وحقيته فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا لرسوخه ﴿ بغياً بينهم ﴾ أى عداوة وحسدا لا شكا فيه ﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة ﴾ بالمؤاخذة والجزاء ﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ من أمر الدين .

﴿ ثم جعلناك على شريعة ﴾ أى سنة وطريقة عظيمة الشأن ﴿ من الأمر ﴾ أى أمر الدين ﴿ فاتبعها ﴾ بإجراء أحكامها فى نفسك وفى غيرك من غير إخلال بشيء منها ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ أى آراء الجهلة واعتقاداتهم الزائغة التابعة للشهوات وهم رؤساء قريش كانوا يقولون له عليه الصلاة والسلام ارجع إلى دين آبائك ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ﴾ مما أراد بك ان اتبعتهم ﴿ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ لا يواليهم ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالما مثلهم ﴿ والله ولى المتقين ﴾ الذين أنت قدوتهم فدم على ما أنت عليه من توليه خاصة والإعراض عما سواه بالكلية ﴿ هذا ﴾ أى القرآن أو اتباع الشريعة ﴿ بصائر للناس ﴾ فإن ما فيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلة البصائر فى القلوب ﴿ وهدى ﴾ من ورطة الضلالة ﴿ ورحمة ﴾ عظيمة ﴿ لقوم يوقنون ﴾ من شأنهم الإيقان بالأمور ﴿ أم حسب الذين اجترحوا

السيئات ﴾ استئناف مسوق لبيان تباين حالى المسيئين والمحسنين إثر تباين حالى الظالمين والمتقين وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثانى والهمزة لإنكار الحسبان لكن لا بطريق إنكار الوقوع ونفيه كما فى قوله تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) بل بطريق إنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه والاجتراح الاكتساب ﴿ أن نجعلهم ﴾ أى نصيرهم فى الحكم والاعتبار وهم على ما هم عليه من مساوى الأحوال .

﴿ كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وهم فيما هم فيه من محاسن الأعمال ونعاملهم معاملتهم فى الكرامة ورفع الدرجة وقوله تعالى ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ أى محيا الفريقين جميعا ومماتهم حال من الضمير فى الظرف والموصول معا لاشتماله على ضميريهما على أن السواء بمعنى المستوى ومحياهم ومماتهم مرتفعان به على الفاعلية والمعنى أم حسبوا أن نجعلهم كائنين مثلهم حال كون الكل مستويا محياهم ومماتهم كلا لا يستوون فى شىء منهما فان هؤلاء فى عز الإيمان والطاعة وشرفهما فى المحيا وفى رحمة الله تعالى ورضوانه فى الممات وأولئك فى ذل الكفر والمعاصى وهوانهما فى المحيا وفى لعنة الله والعذاب الخالد فى الممات شتان بينهما وقد قيل المراد إنكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة لأن المسيئين والمحسنين مستو محياهم فى الرزق والصحة وإنما يفترقون فى الممات وقرىء محياهم ومماتهم بالنصب على أنهما ظرفان كمقدم الحاج وسواء حال على حاله أى حال كونهم مستوين فى محياهم ومماتهم وقد ذكر فى الآية الكريمة وجوه أخر من الاعراب والذى يليق بجزالة التنزيل هو الأول فتدبر وقرىء سواء بالرفع على أنه خبر ومحياهم مبتدأ فقيل الجملة بدل من الكاف وقيل حال وأياً ما كان فنسبة حسبان التساوى إليهم فى ضمن الإنكار التوبيخى مع أنهم بمعزل منه جازمون بفضلهم على المؤمنين للمبالغة فى الإنكار والتشديد فى التوبيخ فإن إنكار حسبان التساوى والتوبيخ عليه إنكار لحسبان الجزم بالفضل وتوبيخ عليه على أبلغ وجه وآكده ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أى ساء حكمهم هذا أو بئس

شيئا حكموا به ذلك ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ استئناف مقرر لما سبق من الحكم فإن خلق الله تعالى لهما ولما فيهما بالحق المقتضى للعدل يستدعى لا محالة تفضيل المحسن على المسيء فى المحيا والممات وانتصار المظلوم من الظالم وإذا لم يطرد ذلك فى المحيا فهو بعد الممات حتما ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴾ عطف على بالحق لأن فيه معنى التعليل إذ معناه خلقها مقرونة بالحكمة والصواب دون العبث والباطل فحاصله خلقها لأجل ذلك ولتجزى الخ أو على علة محذوفة مثل ليدل بها على قدرته أو ليعدل ولتجزى ﴿ وهم ﴾ أى النفوس المدلول عليها بكل نفس ﴿ لا يظلمون ﴾ بنقص ثواب أو بزيادة عقاب وتسمية ذلك ظلما مع أنه ليس كذلك على ما عرف من قاعدة أهل السنة لبيان غاية تنزه ساحة لطفه تعالى عما ذكر تنزيله منزلة الظلم الذى يستحيل صدوره عنه تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنه عبده أى أنظرت فرأيته فإن ذلك مما يقضى منه العجب وقرىء آلهة هواه لأن أحدهم كان يستحسن حجراً فيعبده فإذا رأى أحسن منه رفضه إليه فكأنه اتخذ آلهة شتى ﴿ وأضله الله ﴾ وخذله ﴿ على علم ﴾ أى عالما بضلاله وتبديله لفطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها ﴿ وختم على سمعه وقلبه ﴾ بحيث لا يتأثر بالمواعظ ولا يتفكر فى الآيات والنذر ﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾ مانعة عن الاستبصار والاعتبار وقرىء بفتح الغين وضمها وقرىء غشوة ﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ أى من بعد إضلاله تعالى إياه بموجب تعاميه عن الهدى وتماديه فى الغى ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى ألا تلاحظون فلا تذكرون وقرىء تتذكرون على الأصل .

﴿ وقالوا ﴾ بيان لأحكام ضلالهم المحكى أى قالوا من غاية غيهم وضلالهم ﴿ ما هى ﴾ أى ما الحياة ﴿ إلا حياتنا الدنيا ﴾ التى نحن فيها ﴿ نموت ونحيا ﴾ أى يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة وقيل نكون نطفا وماقبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك أو نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا أو يموت بعضنا ويحيا بعضنا وقد جوز أن يريدوا به التناسخ فإنه عقيدة أكثر عبدة

الأوثان وقرىء نحيا ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ إلا مرور الزمان وهو فى الأصل مدة بقاء العالم من دهره أى غلبه وقرىء إلا دهر يمر وكانوا يزعمون أن المؤثر فى هلاك الأنفس هو مرور الأيام والليالى وينكرون ملك الموت وقبضه للأرواح بأمر الله تعالى ويضيفون الحوادث إلى الدهر والزمان ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر أى فإن الله هو الآتى بالحوادث لا الدهر ﴿ وما لهم بذلك ﴾ أى بما ذكر من اقتصار الحياة على ما فى الدنيا واستناد الحياة والموت إلى الدهر ﴿ من علم ﴾ ما مستند إلى عقل أو نقل ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يكون لهم شىء يصح أن يتمسك به فى الجملة هذا معتقدهم الفاسد فى أنفسهم ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ الناطقة بالحق الذى من جملته البعث ﴿ بينات ﴾ واضحات الدلالة على ما نطقت به أو مبينات له ﴿ ما كان حجتهم ﴾ بالنصب على أنه خبر كان أى ما كان متمسكا لهم شىء من الأشياء ﴿ إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ فى أنا نبعث بعد الموت أى إلا هذا القول الباطل الذى يستحيل أن يكون من قبيل الحجة وتسميته حجة إما لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم أو لأنه من قبيل :

* تحية بينهم ضرب وجيع *

وقرىء برفع حجتهم على أنها اسم كان فالمعنى ما كان حجتهم شيئا من الأشياء إلا هذا القول الباطل .

﴿ قل الله يحييكم ﴾ ابتداء ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند انقضاء آجالكم لا كما تزعمون من أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر ﴿ ثم يجمعكم ﴾ بعد الموت ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ للجزاء ﴿ لا ريب فيه ﴾ أى فى جمعكم فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة والوعد المصدق بالآيات دل على وقوعها حتما والإتيان بآبائهم حيث كان مزاحما للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ استدراك من قوله تعالى لا ريب فيه وهو إما من تمام الكلام المأمور به أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقا للحق

وتنبيها على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم فى النظر والتفكر لا لأن فيه شائبة ريب ما ﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ بيان لاختصاص الملك المطلق والتصرف الكلى فيهما وفيما بينهما بالله عز وجل إثر بيان تصرفه تعالى فى الناس بالإحياء والإماتة والبعث والجمع للمجازاة ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ العامل فى يوم يخسر ويومئذ بدل منه .

﴿ وترى كل أمة ﴾ من الأمم المجموعة ﴿ جاثية ﴾ باركة على الركب مستوفزة وقرىء جاذية أى جالسة على أطراف الأصابع والجذو أشد استيفازا من الجثو وعن ابن عباس رضى الله عنهما جاثية مجتمعة وقيل جماعات من الجثوة وهى الجماعة ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ إلى صحيفة أعمالها وقرىء كل بالنصب على أنه بدل من الأول وتدعى صفة أو حال أو مفعول ثان ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أى يقال لهم ذلك وقوله تعالى :

﴿ هذا كتابنا ﴾ الخ من تمام ما يقال حينئذ وحيث كان كتاب كل أمة مكتوبا بأمر الله تعالى أضيف إلى نون العظمة تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره فهذا مبتدأ وكتابنا خبره وقوله تعالى ﴿ ينطق عليكم ﴾ أى يشهد عليكم ﴿ بالحق ﴾ من غير زيادة ولا نقص خبر آخر أو حال وبالحق حال من فاعل ينطق وقوله تعالى ﴿ إنا كنا نستنسخ ﴾ الخ تعليل لنطقه عليهم بأعمالهم من غير إخلال بشىء منها أى إنا كنا فيما قبل نستكتب الملائكة ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا من الأعمال حسنة كانت أو سيئة وقوله تعالى ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ﴾ أى فى جنته تفصيل لما يفعل بالأمم بعد بيان ما خوطبوا به من الكلام المنطوى على الوعد والوعيد ﴿ ذلك ﴾ أى الذى ذكر من الإدخال فى رحمته تعالى ﴿ هو الفوز المبين ﴾ الظاهر كونه فوزا لا فوز وراءه ﴿ وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم ﴾ أى فيقال لهم بطريق التوبيخ والتقريع ألم يكن يأتيكم رسلى فلم تكن آياتى تتلى عليكم فحذف المعطوف عليه ثقة بدلالة القرينة عليه ﴿ فاستكبرتم ﴾ عن الإيمان بها ﴿ وكنتم قوما مجرمين ﴾ أى قوما عادتهم الإجرام ﴿ وإذا قيل إن وعد الله ﴾ أى ما وعده

من الأمور الآتية أو وعده بذلك ﴿ حق ﴾ أى واقع لا محالة أو مطابق للواقع ﴿ والساعة ﴾ التى هى أشهر ما وعده ﴿ لا ريب فيها ﴾ أى فى وقوعها وقرىء والساعة بالنصب عطفا على اسم إن وقراءة الرفع للعطف على محل إن واسمها ﴿ قلتم ﴾ لغاية عتوكم ﴿ ما ندرى ما الساعة ﴾ أى أى شىء هى استغرابا لها ﴿ إن نظن إلا ظنا ﴾ أى ما نفعل إلا ظنا وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) وقيل ما نعتقد إلا ظنا أى لا علما وقيل ما نحن إلا نظن ظنا وقيل ما نظن إلا ظنا ضعيفا ويرده قوله تعالى ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ أى لإمكانه فإن مقابل الاستيقان مطلق الظن لا الضعيف منه ولعل هؤلاء غير القائلين ما هى إلا حياتنا الدنيا ﴿ وبدا لهم ﴾ أى ظهر لهم حينئذ ﴿ سيئات ما عملوا ﴾ على ما هى عليه من الصورة المنكرة الهائلة وعاينوا وخامة عاقبتها أو جزاءها فإن جزاء السيئة سيئة ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ من الجزاء والعقاب .

﴿ وقيل اليوم ننساكم ﴾ نترككم فى العذاب ترك المنسى ﴿ كما نسيتم ﴾ فى الدنيا ﴿ لقاء يومكم هذا ﴾ أى كما تركتم عدته ولم تبالوا به وإضافة اللقاء إلى اليوم إضافة المصدر إلى ظرفه ﴿ ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ﴾ أى ما لأحد منكم ناصر واحد يخلصكم منها ﴿ ذلكم ﴾ العذاب ﴿ بأنكم ﴾ بسبب أنكم ﴿ اتخذتم آيات الله هزوا ﴾ مهزوءا بها ولم ترفعوا لها رأسا ﴿ وغرتكم الحيوة الدنيا ﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿ فاليوم لا يخرجون منها ﴾ أى من النار وقرىء يخرجون من الخروج والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيابة النار ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أى يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أى يرضوه لفوات أوانه ﴿ فلله الحمد ﴾ خاصة ﴿ رب السموات والأرض رب العالمين ﴾ فلا يستحق الحمد أحد سواه وتكرير الرب للتأكيد والإيذان بأن ربوبيته تعالى لكل منها بطريق الأصالة وقرىء برفع الثلاثة على المدح بإضمار هو ﴿ وله الكبرياء فى السموات والأرض ﴾ لظهور آثارها وأحكامها فيهما وإظهارهما فى موقع الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء ﴿ وهو

العزيز ﴾ الذى لا يغلب ﴿ الحكيم ﴾ فى كل ما قضى وقدر فاحمدوه وكبروه وأطيعوه . عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ حم الجاثية ستر الله تعالى عورته وسكن روعته يوم الحساب .

* * *

سورة الأحقاف

مكية ، وآيها أربع أو خمس وثلاثون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ الكلام فيه كالذى مر فى مطلع السورة السابقة ﴿ ما خلقنا السموات والأرض ﴾ بما فيهما من حيث الجزئية منهما ومن حيث الاستقرار فيهما ﴿ وما بينهما ﴾ من المخلوقات ﴿ إلا بالحق ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أى إلا خلقا ملتبسا بالحق الذى تقتضيه الحكمة التكوينية والتشريعية أو من أعم الأحوال من فاعل خلقنا أو من مفعوله أى ما خلقناها فى حال من الأحوال ملابستنا بالحق أو حال ملابستها به وفيه من الدلالة على وجود الصانع تعالى وصفات كماله وابتناء أفعاله على حكم بالغة وانتهائها إلى غايات جليلة ما لا يخفى ﴿ وأجل مسمى ﴾ عطف على الحق بتقدير مضاف أى وبتقدير أجل مسمى ينتهى إليه أمر الكل وهو يوم القيامة يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وقيل هو آخر مدة البقاء المقدر لكل واحد ويأباه قوله تعالى ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ فإن ما أنذروه يوم القيامة وما فيه من الطامة التامة والأهوال العامة لا آخر أعمارهم وقد جوز كون ما مصدرية والجملة حالية أى ما خلقنا الخلق إلا بالحق وتقدير الأجل الذى يجازون عنده والحال أنهم غير مؤمنين به معرضون عنه وعن الاستعداد له ﴿ قل ﴾ توبيخا لهم وتبكيتا

﴿ أرأيتم ﴾ أخبرونى وقرىء أرأيتكم ﴿ ما تدعون ﴾ ما تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ من الأصنام ﴿ أرونى ﴾ تأكيد لأرأيتم ﴿ ماذا خلقوا من الأرض ﴾ بيان للإبهام فى ماذا .

﴿ أم لهم شرك ﴾ أى شركة مع الله تعالى ﴿ فى السموات ﴾ أى فى خلقها أو ملكها وتدبيرها حتى يتوهم أن يكون لهم شائبة استحقاق للمعبودية فإن ما لامدخل له فى وجود شىء من الأشياء بوجه من الوجوه فهو بمعزل من ذلك الاستحقاق بالمرة وإن كان من الأحياء العقلاء فما ظنكم بالجماد وقوله تعالى ﴿ ائتونى بكتاب ﴾ الخ تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلى بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلى أى ائتونى بكتاب إلهى كائن ﴿ من قبل هذا ﴾ الكتاب أى القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشرك دال على صحة دينكم ﴿ أو أثارة من علم ﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم للعبادة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى دعواكم فإنها لا تكاد تصح ما لم يقم عليها برهان عقلى أو سلطان نقلى وحيث لم يقم عليها شىء منهما وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل تبين بطلانها وقرىء إثارة بكسر الهمزة أى مناظرة فإنها تثير المعانى وأثرة أى شىء أوثرتم به وخصصتم من علم مطوى من غيركم وأثرة بالحركات الثلاث مع سكون الثاء أما المكسورة فبمعنى الإثرة وأما المفتوحة فهى المرة من أثر الحديث أى رواه وأما المضمومة فاسم ما يؤثر كالخطبة التى هى اسم ما يخطب به .

﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له ﴾ إنكار ونفى لأن يكون أحد يساوى المشركين فى الضلال وإن كان سبك التركيب لنفى الأضل منهم من غير تعرض لنفى المساوى كما مر غير مرة أى هم أضل من كل ضال حيث تركوا عبادة خالقهم السميع القادر المجيب الخبير إلى عبادة مصنوعهم العارى عن السمع والقدرة والاستجابة ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ غاية لنفى الاستجابة ﴿ وهم عن دعائهم ﴾ الضمير الأول لمفعول يدعو والثانى لفاعله والجمع فيهما باعتبار معنى من كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها ﴿ غافلون ﴾ لكونهم

جمادات وضمائر العقلاء لإجرائهم إياها مجرى العقلاء ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة مع ظهور حالها للتهكم بها وبعبدتها كقوله تعالى (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) الآية ﴿ وإذا حشر الناس ﴾ عند قيام القيامة ﴿ كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ أى مكذبين بلسان الحال أو المقال على ما يروى أنه تعالى يحيى الأصنام فتتبرأ عن عبادتهم وقد جوز أن يراد بهم كل من يعبد من دون الله من الملائكة والجن والإنس وغيرهم ويبنى إرجاع الضمائر وإسناد العداوة والكفر إليهم على التغليب ويراد بذلك تبرؤهم عنهم وعن عبادتهم وقيل ضمير كانوا للعبدة وذلك قولهم (والله ربنا ما كنا مشركين).

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ واضحات أو مبينات ﴿ قال الذين كفروا للحق ﴾ أى لأجله وفى شأنه وهو عبارة عن الآيات المتلوة وضع موضع ضميرها تنصيصا على حقيتها ووجوب الإيمان بها كما وضع الموصول موضع ضمير المتلو عليهم تسجيلا عليهم بكمال الكفر والضلالة ﴿ لما جاءهم ﴾ أى فى أول ما جاءهم من غير تدبر وتأمل ﴿ هذا سحر مبين ﴾ أى ظاهر كونه سحرا ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ إضراب وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة إلى حكاية ما هو أشنع منها وما فى أم من الهمزة للإنكار التوبيخى المتضمن للتعجيب أى بل أيقولون افترى القرآن ﴿ قل إن افتريته ﴾ على الفرض ﴿ فلا تملكون لى من الله شيئاً ﴾ إذ لا ريب فى أنه تعالى يعاجلنى حينئذ بالعقوبة فكيف أجترىء على أن أفترى عليه تعالى كذبا فأعرض نفسى للعقوبة التى لا مناص عنها ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه ﴾ أى تندفعون فيه من القدح فى وحى الله والطعن فى آياته وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى ﴿ كفى به شهيدا بينى وبينكم ﴾ حيث يشهد لى بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والجحود وهو وعيد بجزاء إفاضتهم وقوله تعالى ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ وعد بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن وإشعار بحلم الله تعالى عنهم مع عظم جرائمهم.

﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل ﴾ البدع بمعنى البديع كالخل بمعنى الخليل وهو ما لا مثل له وقرىء بفتح الدال على أنه صفة كقيم وزيم أو جمع مقدر

بمضاف أى ذا بدع وقد جوز ذلك فى القراءة الأولى أيضاً على أنه مصدر
كانوا يقترحون عليه عليه الصلاة والسلام آيات عجيبة ويسألونه عن المغيبات
عنادا ومكابرة فأمر عليه السلام بأن يقول لهم ما كنت بديعا من الرسل قادراً
على ما لم يقدروا عليه حتى آتيكم بكل ما يقترحونه وأخبركم بكل ما تسألون عنه
من الغيوب فإن من قبلى من الرسل عليهم الصلاة والسلام ما كانوا يأتون إلا بما
آتاهم الله تعالى من الآيات ولا يخبرونهم إلا بما أوحى إليهم ﴿ وما أدرى
ما يفعل بى ولا بكم ﴾ أى أى شىء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان من أفعاله
تعالى وماذا يقدر لنا من قضاياه وعن الحسن رضى الله عنه ما أدرى ما يصير
إليه أمرى وأمركم فى الدنيا وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما يفعل بى ولا بكم
فى الآخرة وقال هى منسوخة بقوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما
تأخر) وقيل يجوز أن يكون المنفى هى الدراية المفصلة والأظهر الأوفق لما
ذكر من سبب النزول أن ما عبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من
الحوادث والواقعات الدنيوية دون ما سيقع فى الآخرة فإن العلم بذلك من
وظائف النبوة وقد ورد به الوحى الناطق بتفاصيل ما يفعل بالجانبين هذا وقد
روى عن الكلبى أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا له عليه السلام وقد
ضجروا من أذية المشركين حتى متى نكون على هذا فقال ما أدرى ما يفعل بى
ولا بكم أأترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرض ذات نخيل وشجر قد رفعت
لى ورأيتها يعنى فى منامه وجوز أن تكون ما موصولة والاستفهامية أقضى لحق
مقام التبرؤ عن الدراية وتكرير لا لتذكير النفى المنسحب إليه وتأكيده وقرىء
ما يفعل على إسناد الفعل على ضميره تعالى ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلى ﴾ أى
ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلى على معنى قصر أفعاله عليه الصلاة والسلام على
اتباع الوحى لا قصر اتباعه على الوحى كما هو المتسارع إلى الأفهام وقد مر
تحقيقه فى سورة الأنعام وقرىء يوحَى على البناء للفاعل وهو جواب عن
اقتراحهم الأخبار عما لم يوح إليه عليه السلام من الغيوب وقيل عن استعجال
المسلمين أن يتخلصوا عن أذية المشركين والأول هو الأوفق لقوله تعالى ﴿ وما

أنا إلا نذير ﴾ أنذركم عقاب الله تعالى حسبما يوحى إلى ﴿ مبين ﴾ بين الإنذار بالمعجزات الباهرة .

﴿ قل أرأيتم إن كان ﴾ أى ما يوحى إلى من القرآن ﴿ من عند الله ﴾ لا سحرا ولا مفترى كما تزعمون وقوله تعالى ﴿ وكفرتم به ﴾ حال بإضمار قد من الضمير فى الخبر وسطت بين أجزاء الشرط مسارعة إلى التسجيل عليهم بالكفر أو عطف على كان كما فى قوله تعالى (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به) لكن لا على أن نظمه فى سلك الشرط المترددين بين الوقوع وعدمه عندهم باعتبار حاله فى نفسه بل باعتبار حال المعطوف عليه عندهم فإن كفرهم به أمر محقق عندهم أيضاً وإنما ترددهم فى أن ذلك كفر بما من عند الله تعالى أم لا وكذا الحال فى قوله تعالى ﴿ وشهد شاهد من بنى اسرائيل ﴾ وما بعده من الفعلين فإن الكل أمور محققة عندهم وإنما ترددهم فى أنها شهادة وإيمان بما من عند الله تعالى واستكبار عنه أولا والمعنى أخبرونى إن كان ذلك فى الحقيقة من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد عظيم الشأن من بنى إسرائيل الواقفين على شؤون الله تعالى وأسرار الوحى بما أوتوا من التوراة ﴿ على مثله ﴾ أى مثل القرآن من المعانى المنطوية فى التوراة المطابقة لما فى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك فإنها عين مافيه فى الحقيقة كما يعرب عنه قوله تعالى (وإنه لفى زبر الأولين) وقوله تعالى (إن هذا لفى الصحف الأولى) والمثلية باعتبار تأديتها بعبارات أخر أو على مثل ما ذكر من دونه من عند الله تعالى والمثلية لما ذكر وقيل المثل صلة والفاء فى قوله تعالى :

﴿ فآمن ﴾ للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن لما علم أنه من جنس الوحى الناطق بالحق وهو عبد الله بن سلام لما سمع بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه فنظر إلى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله فتحقق أنه النبى المنتظر فقال له إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه فقال عليه الصلاة والسلام أما أول أشراط الساعة فنار

تحشرهم من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد حوت وأما الولد فإن سبق ماء الرجل نزعه وإن سبق ماء المرأة نزعته فقال أشهد أنك رسول الله حقا فقام ثم قال يا رسول الله إن اليهود قوم بهت فإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبى عليه السلام أى رجل عبد الله فيكم فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا قال أرأيتم إن أسلم عبد الله قالوا أعاذه الله من ذلك فخرج اليهم عبد الله فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه قال هذا ما كنت أخاف يارسول الله وأحذر قال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزل (وشهد شاهد) الآية وقيل الشاهد موسى عليه السلام وشهادته بما فى التوراة من بعثة النبى عليهما الصلاة والسلام وبه الشعبى وقال مسروق والله ما نزلت فى عبد الله بن سلام فإن آل حم نزلت بمكة وإنما أسلم عبد الله بالمدينة وأجاب الكلبى بأن الآية مدنية وإن كانت السورة مكية ﴿ واستكبرتم ﴾ عطف على شهد شاهد وجواب الشرط محذوف والمعنى أخبرونى إن كان من عند الله تعالى وشهد على ذلك أعلم بنى إسرائيل فآمن به من غير تلعثم واستكبرتم عن الإيمان به بعد هذه المرتبة من أضل منكم بقرينة قوله تعالى (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) وقوله تعالى ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ فإن عدم الهداية مما ينبىء عن الضلال قطعا ووصفهم بالظلم للإشعار بعلة الحكم فإن تركه تعالى لهدايتهم لظلمهم ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ حكاية لبعض آخر من أقاويلهم الباطلة فى حق القرآن العظيم والمؤمنين به أى قال كفار مكة ﴿ للذين آمنوا ﴾ أى لأجلهم ﴿ لو كان ﴾ أى ما جاء به عليه الصلاة والسلام من القرآن والدين ﴿ خيرا ما سبقونا إليه ﴾ فإن معالى الأمور لا ينالها أيدى الأراذل وهم سقاط عامتهم فقراء وموال ورعاة قالوه زعما منهم أن الرياسة الدينية مما ينال بأسباب دنيوية كما قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وزل عنهم أنها منوطة

بكمالات نفسانية وملكات روحانية مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنية والإقبال على الآخرة بالكلية وأن من فاز بها فقد حازها بحذافيرها ومن حرمها فما له منها من خلاق وقيل قاله بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع لما أسلم جهينة ومزينة وأسلم وغفار وقيل قالته اليهود حين أسلم عبدالله بن سلام وأصحابه ويأباه أن السورة مكية ولا بد حينئذ من الالتجاء إلى ادعاء أن الآية نزلت بالمدينة .

﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ ظرف لمحذوف يدل عليه ما قبله ويترتب عليه ما بعده أى وإذ لم يهتدوا بالقرآن قالوا ما قالوا ﴿ فسيقولون ﴾ غير مكتفين بنفى خيريته ﴿ هذا إفك قديم ﴾ كما قالوا أساطير الأولين وقيل المحذوف ظهر عنادهم وليس بذاك ﴿ ومن قبله ﴾ أى من قبل القرآن وهو خبر لقوله تعالى ﴿ كتاب موسى ﴾ قيل والجملة حالية أو مستأنفة وأياما كان فهو لرد قولهم هذا إفك قديم وإبطاله فإن كونه مصدقا لكتاب موسى مقرر لحقيته قطعا ﴿ إماما ورحمة ﴾ حالان من كتاب موسى أى إماما يقتدى به فى دين الله تعالى وشرائعه كما يقتدى بالإمام ورحمة من الله تعالى لمن آمن به وعمل بموجبه ﴿ وهذا ﴾ الذى يقولون فى حقه ما يقولون ﴿ كتاب ﴾ عظيم الشأن ﴿ مصدق ﴾ أى لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة أو لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية وقد قرىء كذلك ﴿ لسانا عربيا ﴾ حال من ضمير الكتاب فى مصدق أو من نفسه لتخصصه بالصفة وعاملها معنى الاشارة وعلى الأول مصدق وقيل مفعول لمصدق أى يصدق ذا لسان عربى ﴿ لينذر الذين ظلموا ﴾ متعلق بمصدق وفيه ضمير الكتاب أو الله تعالى أو الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيد الأخير القراءة بتاء الخطاب ﴿ وبشرى للمحسنين ﴾ فى حيز النصب عطفا على محل لينذر وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمر أى وهو بشرى وقيل على أنه عطف على مصدق .

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ أى جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم والاستقامة فى أمور الدين التى هى منتهى العمل وثم للدلالة على

تراخى رتبة العمل وتوقف الاعتداد به على التوحيد ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ من لحوق مكروه ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ من فوات محبوب والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط والمراد بيان دوام نفي الحزن لا بيان نفي دوام الحزن كما يوهمه كون الخبر مضارعا وقد مر بيانه مرارا ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من الوصفين الجليلين ﴿ أصحاب الجنة خالدين فيها ﴾ حال من المستكن في أصحاب وقوله تعالى ﴿ جزاء ﴾ منصوب إما بعامل مقدر أى يجزون جزاء أو بمعنى ما تقدم فإن قوله تعالى أولئك أصحاب الجنة في معنى [1] جازيناهم ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ من الحسنات العلمية والعملية ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ بأن يحسن ﴿ بوالديه إحسانا ﴾ وقرىء حسنا أى بأن يفعل بهما حسنا أى فعلا ذا حسن أو كأنه في ذاته نفس الحسن لفرط حسنه وقرىء بضم السين أيضا وبفتحهما أى بأن يفعل بهما فعـــلا حسنا أو وصيناه إيصاء حسنا ﴿ حملته أمه كرها ووضعته كرها ﴾ أى ذات كره أو حملا ذا كره وهو المشقة وقرىء بالفتح وهما لغتان كالفقر وقيل المضموم اسم والمفتوح مصدر ﴿ وحمله وفصاله ﴾ أى مدة حمله وفصاله وهو الفطام وقرىء وفصله والفصال كالفطم والفطام بناء ومعنى والمراد به الرضاع التام المنتهى به كما أراد بالأمد المدة من قال:

كل حي مستكمل مدة العمـــر ومود إذا انتهى أمده

﴿ ثلاثون شهرا ﴾ تمضي عليها بمعاناة المشاق ومقاساة الشدائد لأجله وهذا دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لما أنه إذا حط عنه للفصال حولان لقوله تعالى (حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) يبقى للحمل ذلك قيل ولعل تعيين أقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط النسب والرضاع بهما ﴿ حتى إذا بلغ أشده ﴾ أى اكتهل واستحكم قوته وعقله ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ قيل لم يبعث نبي قبل أربعين وقرىء حتى إذا استوى وبلغ أشده

---

(١) في ١٢٠ فهو بمعنى

﴿قال رب أوزعنى﴾ أى ألهمنى وأصله أولعنى من أوزعته بكذا ﴿أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى﴾ أى نعمة الدين أو ما يعمها وغيرها ﴿وأن أعمل صالحا ترضاه﴾ التنكير للتفخيم والتكثير ﴿وأصلح لى فى ذريتى﴾ أى واجعل الصلاح ساريا فى ذريتى راسخا فيهم كما فى قوله ٭ يجرح فى عراقيبها نصلى ٭ قال ابن عباس أجاب الله تعالى دعاء أبى بكر رضى الله عنهم فأعتق تسعة من المؤمنين منهم عامر بن فهيرة ولم يرد شيئا من الخير إلا أعانه الله تعالى عليه ودعا أيضا فقال وأصلح لى فى ذريتى فأجابه الله عز وجل فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعا فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعا فأدرك أبوه أبو قحافة رسول الله صلى عليه وسلم وابنه عبد الرحمن بن أبى بكر وابن عبد الرحمن أبو عتيق كلهم أدركوا النبى عليه الصلاة والسلام ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ﴿إنى تبت إليك﴾ عما لا ترضاه أو عما يشغلنى عن ذكرك ﴿وإنى من المسلمين﴾ الذين أخلصوا لك أنفسهم .

﴿أولئك﴾ إشارة إلى الإنسان والجمع لأن المراد به الجنس المتصف بالوصف المحكى عنه وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته أى أولئك المنعوتون بما ذكر من النعوت الجليلة ﴿الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ من الطاعات فإن المباح حسن ولا يثاب عليه ﴿ونتجاوز عن سيئاتهم﴾ وقرىء الفعلان بالياء على إسنادهما إلى الله تعالى وعلى بنائهما للمفعول ورفع أحسن على أنه قائم مقام الفاعل وكذا الجار والمجرور ﴿فى أصحاب الجنة﴾ أى كائنين فى عدادهم منتظمين فى سلكهم ﴿وعد الصدق﴾ مصدر مؤكد لما أن قوله تعالى نتقبل ونتجاوز وعد من الله تعالى لهم بالتقبل والتجاوز ﴿الذى كانوا يوعدون﴾ على ألسنة الرسل .

﴿والذى قال لوالديه﴾ عند دعوتهما له إلى الإيمان ﴿أف لكما﴾ هو صوت يصدر عن المرء عند تضجره واللام لبيان المؤفف له كما فى هيت لك وقرىء أف بالفتح والكسر بغير تنوين وبالحركات الثلاث مع التنوين والموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول ولذلك أخبر عنه بالمجموع كما سبق قيل هو فى

الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث وعن قتادة هو نعت عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه وما روى من أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما قبل إسلامه يرده ما سيأتى من قوله تعالى (أولئك الذين حق عليهم القول) الآية فإنه كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم وقد كذبت الصديقة رضى الله عنها من قال ذلك ﴿ أتعداننى أن أخرج ﴾ أبعث من القبر بعد الموت وقرىء أخرج من الخروج ﴿ وقد خلت القرون من قبلى ﴾ ولم يبعث منهم أحد ﴿ وهما يستغيثان الله ﴾ يسألانه أن يغيثه ويوفقه للإيمان ﴿ ويلك ﴾ أى قائلين له ويلك وهو فى الأصل دعاء عليه بالثبور أريد به الحث والتحريض على الايمان لا حقيقة الهلاك ﴿ آمن إن وعد الله حق ﴾ أى البعث أضافاه إليه تعالى تحقيقاً للحق وتنبيها على خطئه فى إسناد الوعد إليهما وقرىء أن وعد الله أى آمن بأن وعد الله حق ﴿ فيقول ﴾ مكذبا لهما ﴿ ما هذا ﴾ الذى تسميانه وعد الله ﴿ إلا أساطير الأولين ﴾ أباطيلهم التى سطروها فى الكتب من غير أن يكون لها حقيقة ﴿ أولئك ﴾ القائلون هذه المقالات الباطلة ﴿ الذين حق عليهم القول ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ﴾ وقد مر تفسيره فى سورة الم السجدة ﴿ إنهم ﴾ جميعا ﴿ كانوا خاسرين ﴾ قد ضيعوا فطرتهم الأصلية الجارية مجرى رؤس أموالهم باتباعهم الشيطان والجملة تعليل للحكم بطريق الاستئناف التحقيقى ﴿ ولكل ﴾ من الفريقين المذكورين ﴿ درجات مما عملوا ﴾ مراتب من أجزية ما عملوا من الخير والشر والدرجات غالبة فى مراتب المثوبة وإيرادها ههنا بطريق التغليب ﴿ وليوفيهم أعمالهم ﴾ أى أجزية أعمالهم وقرىء بنون العظمة ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ بنقص ثواب الأولين وزيادة عقاب الآخرين والجملة إما حال مؤكدة للتوفية أو استئناف مقرر لها واللام متعلقة بمحذوف مؤخر كأنه قيل وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم فعل ما فعل من تقدير الأجزية على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات

والعقاب دركات ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ أى يعذبون بها من قولهم عرض الأسارى على السيف أى قتلوا وقيل يعرض النار عليهم بطريق القلب مبالغة ﴿ أذهبتم طيباتكم ﴾ أى يقال لهم ذلك وهو الناصب للظرف وقرىء أأذهبتم بهمزتين وبألف بينهما على الاستفهام [1] التوبيخى أى أصبتم وأخذتم ما كتب لكم من حظوظ الدنيا ولذائذها ﴿ فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ فلم يبق لكم بعد ذلك شىء منها ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ أى الهوان وقد قرىء كذلك ﴿ بما كنتم ﴾ فى الدنيا ﴿ تستكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ بغير استحقاق لذلك ﴿ وبما كنتم تفسقون ﴾ أى تخرجون عن طاعة الله عز وجل أى بسبب استكباركم وفسقكم المستمرين وقرىء تفسقون بكسر السين :

﴿ واذكر ﴾ أى لكفار مكة ﴿ أخا عاد ﴾ أى هودا عليه السلام ، ﴿ إذ أنذر قومه ﴾ بدل اشتمال منه أى وقت إنذاره إياهم ﴿ بالأحقاف ﴾ جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من احقوقف الشىء إذا اعوج وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن وقيل بين عمان ومهرة ﴿ وقد خلت النذر ﴾ أى الرسل جمع نذير بمعنى المنذر ﴿ من بين يديه ﴾ أى من قبله ﴿ ومن خلفه ﴾ أى من بعده والجملة اعتراض مقرر لما قبله مؤكد لوجوب العمل بموجب الإنذار وسط بين أنذر قومه وبين قوله ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ مسارعة إلى ما ذكر من التقرير والتأكيد وإيذانا باشتراكهم فى العبارة المحكية والمعنى واذكر لقومك إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه قومهم مثل ذلك فاذكرهم وأما جعلها حالا من فاعل أنذر على معنى أنه عليه الصلاة والسلام أنذرهم وقال لهم لا تعبدوا إلا الله ﴿ إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ وقد أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا

(١) فى ١١ : على أنه استفهام .

قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره فمع ما فيه من تكلف تقدير الإعلام لا بد فى نسبة الخلو إلى من بعده من الرسل من تنزيل الآتى منزلة الخالى ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا ﴾ أى تصرفنا ﴿ عن آلهتنا ﴾ عن عبادتها ﴿ فائتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب العظيم ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فى وعدك بنزوله بنا .

﴿ قال إنما العلم ﴾ أى بوقت نزوله أو العلم بجميع الأشياء التى من جملتها ذلك ﴿ عند الله ﴾ وحده لاعلم لى بوقت نزوله ولا مدخل لى فى إتيانه وحلوله وإنما علمه عند الله تعالى فيأتيكم به فى وقته المقدر له ﴿ وأبلغكم ما أرسلت به ﴾ من مواجب الرسالة التى من جملتها بيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك من غير وقوف على وقت نزوله وقرىء أبلغكم من الإبلاغ ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ حيث تقترحون على ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب وتعيين وقته والفاء فى قوله تعالى ﴿ فلما رأوه ﴾ فصيحة والضمير أما مبهم يوضحه قوله تعالى ﴿ عارضا ﴾ إما تمييزا أو حالا أو راجع إلى ما استعجلوه بقولهم فائتنا بما تعدنا أى فأتاهم فلما رأوه سحابا يعرض فى أفق السماء ﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ أى متوجه أوديتهم والإضافة فيه لفظية كما فى قوله تعالى ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ ولذلك وقعا وصفين للنكرة ﴿ بل هو ﴾ أى قال هود وقد قرىء كذلك وقرىء قل وهو رد عليهم أى ليس الأمر كذلك بل هو ﴿ ما استعجلتم به ﴾ من العذاب ﴿ ريح ﴾ بدل من ما أو خبر لمبتدأ محذوف ﴿ فيها عذاب أليم ﴾ صفة لريح وكذا قوله تعالى ﴿ تدمر ﴾ أى تهلك ﴿ كل شىء ﴾ من نفوسهم وأموالهم ﴿ بأمر ربها ﴾ وقرىء يدمر كل شىء من دمر دمارا إذا هلك فالعائد إلى الموصوف محذوف أو هو الهاء فى ربها ويجوز أن يكون استئنافا واردا لبيان أن لكل ممكن فناء مقضيا منوطا بأمر بارئه وتكون الهاء لكل شىء لكونه بمعنى الأشياء وفى ذكر الأمر والرب والإضافة إلى الريح من الدلالة على عظمة شأنه عز وجل مالا يخفى والفاء فى قوله تعالى ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾

فصيحة أى فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا بحيث لا يرى إلا مساكنهم وقرىء ترى بالتاء ونصب مساكنهم خطابا لكل أحد يتأتى منه الرؤية تنبيها على أن حالهم بحيث لو حضر كل أحد بلادهم لا يرى فيها إلا مساكنهم ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿ نجزى القوم المجرمين ﴾ وقد مر تفصيل القصة فى سورة الأعراف وقد روى أن الريح كانت تحمل الفسطاط والظعينة فترفعها فى الجو حتى ترى كأنها جرادة قيل أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار وروى أن أول ما عرفوا به أنه عذاب ما رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير بها الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم فأمال الله تعالى الأحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم فى البحر وروى أن هودا عليه السلام لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا إلى جنب عين تنبع وعن ابن عباس رضى الله عنهما اعتزل هود ومن معه فى حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين على الجلود وتلذه الأنفس وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة .

﴿ ولقد مكناهم ﴾ أى قررنا عادا أو أقدرناهم وما فى قوله تعالى ﴿ فيما إن مكناكم فيه ﴾ موصولة أو موصوفة وإن نافية أى فى الذى أو فى شىء ما مكناكم فيه من السعة والبسطة وطول الأعمار وسائر مبادى التصرفات كما فى قوله تعالى (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم) ومما يحسن موقع إن ههنا التفصى عن تكرر لفظة ما وهو الداعى إلى قلب ألفها هاء فى مهما وجعلها شرطية أو زائدة مما لا يليق بالمقام ﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ﴾ ليستعملوها فيما خلقت له ويعرفوا بكل منها ما نيطت بمعرفته من فنون النعم ويستدلوا بها على شؤون منعمها عز وجل ويداوموا على شكره ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ﴾ حيث لم يستعملوه فى استماع الوحى ومواعظ الرسل ﴿ ولا أبصارهم ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المنصوبة فى

صحائف العالم ﴿ ولا أفئدتهم ﴾ حيث لم يستعملوها فى معرفة الله تعالى ﴿ من شىء ﴾ أى شيئاً من الإغناء ومن مزيدة للتأكيد وقوله تعالى ﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾ متعلق بما أغنى وهو ظرف جرى مجرى التعليل من حيث أن الحكم مرتب على ما أضيف إليه فإن قولك أكرمته إذ أكرمنى فى قوة قولك أكرمته لإكرامه لأنك إذا أكرمته وقت إكرامه فإنما أكرمته فيه لوجود إكرامه فيه وكذا الحال فى حيث ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء ويقولون فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم ﴾ يا أهل مكة ﴿ من القرى ﴾ كحجر ثمود وقرى قوم لوط ﴿ وصرفنا الآيات ﴾ كررناها لهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ لكى يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصى ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ﴾ القربان ما يتقرب به إلى الله تعالى وأحد مفعولى اتخذوا ضمير الموصول المحذوف والثانى آلهة وقربانا حال والتقدير فهلا نصرهم وخلصهم من العذاب الذين اتخذوهم آلهة حال كونها متقربا بها إلى الله تعالى حيث كانوا يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى وهؤلاء شفعاؤنا عند الله وفيه تهكم بهم ولا مساغ لجعل قربانا مفعولا ثانيا وآلهة بدلا منه لفساد المعنى فإن البدل وإن كان هو المقصود لكنه لا بد فى غير بدل الغلط من صحة المعنى بدونه ولا ريب فى أن قولنا اتخذوهم من دون الله قربانا أى متقربا به مما لا صحة له قطعا لأنه تعالى متقرب إليه لا متقرب به فلا يصح أنهم اتخذوهم قربانا متجاوزين الله فى ذلك وقرىء قربانا بضم الراء ﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ أى غابوا عنهم وفيه تهكم آخر بهم كأن عدم نصرهم لغيبتهم أو ضاعوا عنهم أى ظهر ضياعهم عنهم بالكلية وقيل امتنع نصرهم امتناع نصر الغائب عن المنصور ﴿ وذلك ﴾ أى ضياع آلهتهم عنهم وامتناع نصرهم ﴿ إفكهم ﴾ أى أثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة ونتيجة شركهم وقرىء إفكهم وكلاهما مصدر كالحذر والحذر وقرىء أفكهم على صيغة الماضى فذلك إشارة حينئذ إلى الاتخاذ أى وذلك الاتخاذ الذى هذه ثمرته وعاقبته صرفهم عن الحق وقرىء

أفكهم بالتشديد للمبالغة وآفكهم من الأفعال أي جعلهم آفكين وقرىء آفكهم على صيغة اسم الفاعل مضافا إلى ضميرهم أى قولهم الإفك أى ذو الإفك كما يقال قول كاذب ﴿وما كانوا يفترون﴾ عطف على إفكهم أى وأثر افترائهم على الله تعالى أو أثر ما كانوا يفترونه عليه تعالى وقرىء وذلك إفك مما كانوا يفترون أى بعض ما كانوا يفترون من الإفك.

﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾ أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك وقرىء صرفنا بالتشديد للتكثير لأنهم جماعة وهو السر فى جمع الضمير فى قوله تعالى ﴿ يستمعون القرآن ﴾ وما بعده وهو حال مقدرة من نفر لتخصصه بالصفة أو صفة أخرى له أى واذكر لقومك وقت صرفنا إليك نفرا كائنا من الجن مقدرا استماعهم القرآن ﴿ فلما حضروه ﴾ أى القرآن عند تلاوته أو الرسول عند تلاوته له على الالتفات والأول هو الأظهر ﴿ قالوا ﴾ أى قال بعضهم لبعض ﴿ أنصتوا ﴾ أى اسكتوا لنسمعه ﴿ فلما قضى ﴾ أتم وفرغ عن تلاوته وقرىء على البناء للفاعل وهو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام وهذا يؤيد عود ضمير حضروه إليه عليه الصلاة والسلام ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ مقدرين إنذارهم عند رجوعهم إليهم. روى أن الجن كانت تسترق السمع فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا ما هذا إلا لنبأ حدث فنهض سبعة نفر أو ستة نفر من أشراف جن نصيبين أو نينوى منهم زوبعة فضربوا حتى بلغوا تهامة ثم اندفعوا إلى وادى نخلة فوافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم فى جوف الليل يصلى أو فى صلاة الفجر فاستمعوا لقراءته وذلك عند منصرفه من الطائف وعن سعيد بن جبير ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم وإنما كان يتلو فى صلاته فمروا به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر بهم فأنبأه الله تعالى باستماعهم وقيل بل أمره الله تعالى أن ينذر الجن ويقرأ عليهم فصرف إليه نفراً منهم جمعهم له فقال عليه الصلاة والسلام إنى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعنى قالها ثلاثا فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون خط لى خطا فقال

لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديدا حتى خفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه حتى ما أسمع صوته عليه الصلاة والسلام ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت شيئاً قلت نعم رجالا سودا مستشعرى ثياب بيض فقال أولئك جن نصيبين وكانوا اثنى عشر ألفا والسورة التى قرأها عليهم اقرأ باسم ربك .

﴿ قالوا ﴾ أى عند رجوعهم إلى قومهم ﴿ يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ﴾ قيل قالوه لأنهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس رضى الله عنهما إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ أرادوا به التوراة ﴿ يهدى إلى الحق ﴾ من العقائد الصحيحة ﴿ وإلى طريق مستقيم ﴾ موصل إليه وهو الشرائع والأعمال الصالحة ﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ﴾ أرادوا به ما سمعوه من الكتاب وصفوه بالدعوة إلى الله تعالى بعد ما وصفوه بالهداية إلى الحق والصراط المستقيم لتلازمهما دعوهم إلى ذلك بعد بيان حقيته واستقامته ترغيبا لهم فى الإجابة ثم أكدوه بقولهم ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أى بعض ذنوبكم وهو ما كان فى خالص حق الله تعالى فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان ﴿ ويجركم من عذاب أليم ﴾ معد للكفرة واختلف فى أن لهم أجراً غير هذا أو لا والأظهر أنهم فى حكم بنى آدم ثوابا وعقابا وقوله تعالى ﴿ ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ﴾ إيجاب للإجابة بطريق الترهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب وتحقيق لكونهم منذرين وإظهار داعى الله من غير اكتفاء بأحد الضميرين للمبالغة فى الايجاب بزيادة التقرير وتربية المهابة وإدخال الروعة وتقييد الإعجاز بكونه فى الأرض لتوسيع الدائرة أى فليس بمعجز له تعالى بالهرب وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل فى أعماقها وقوله تعالى ﴿ وليس له من دونه أولياء ﴾ بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير إثر بيان استحالة نجاته بنفسه وجمع الأولياء باعتبار معنى من فيكون من باب مقابلة الجمع بالجمع لانقسام الآحاد إلى الآحاد كما أن الجمع

فى قوله تعالى ﴿ أولئك ﴾ بذاك الاعتبار أى أولئك الموصوفون بعدم إجابة داعى الله ﴿ فى ضلال مبين ﴾ أى ظاهر كونه ضلالا بحيث لا يخفى على أحد حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه .

﴿ أولم يروا ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام والرؤية قلبية أى ألم يتفكروا ولم يعلموا علما جازما متاخما للمشاهدة والعيان والعيان أن الله ﴿ الذى خلق السموات والأرض ﴾ ابتداء من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه ﴿ ولم يعى بخلقهن ﴾ أى لم يتعب ولم ينصب بذلك أصلا أولم يعجز عنه يقال عييت بالأمر إذا لم يعرف وجهه وقوله تعالى ﴿ بقادر ﴾ فى حيز الرفع لأنه خبر أن كما ينبىء عنه القراءة بغير باء ووجه دخولها فى القراءة الأولى اشتمال النفى الوارد فى صدر الآية على أن وما فى حيزها كأنه قيل أوليس الله بقادر ﴿ على أن يحيى الموتى ﴾ ولذلك أجيب عنه بقوله تعالى : ﴿ بلى إنه على كل شىء قدير ﴾ تقريرا للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ ظرف عامله قول مضمر مقوله ﴿ أليس هذا بالحق ﴾ على أن الإشارة إلى ما يشاهدونه حينئذ من حيث هو من غير أن يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه إذ هو اللائق بتهويله وتفخيمه وقد مر فى سورة الأحزاب وقيل هى إلى العذاب وفيه تهكم بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم وما نحن بمعذبين ﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ أكدوا جوابهم بالقسم كأنهم يطمعون فى الخلاص بالاعتراف بحقيتها كما فى الدنيا وأنى لهم ذلك ﴿ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ بها فى الدنيا ومعنى الأمر الإهانة بهم والتوبيخ لهم والفاء فى قوله تعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ جواب شرط محذوف أى إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذكر فاصبر على ما يصيبك من جهتهم كما صبر أولو الثبات والحزم[1] من الرسل فإنك من جملتهم بل من عليتهم ومن للتبيين وقيل

---

(١) فى ١١ : والعزم

للتبعيض والمراد بأولى العزم أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا فى تأسيسها وتقريرها وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاعنين فيها ومشاهيرهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام وقيل هم الصابرون على بلاء الله كنوح صبر على أذية قومه كانوا يضربونه حتى يغشى عليه وإبراهيم صبر على النار وعلى ذبح ولده والذبيح على الذبح ويعقوب على فقد الولد والبصر ويوسف على الجب والسجن وأيوب على الضر وموسى قال له قومه (إنا لمدركون قال كلا إن معى ربى سيهدين) وداود بكى على خطيئته أربعين سنة وعيسى لم يضع لبنة على لبنة صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين .

﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ أى لكفار مكة بالعذاب فإنه على شرف النزول بهم ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون ﴾ من العذاب ﴿ لم يلبثوا ﴾ فى الدنيا ﴿ إلا ساعة ﴾ يسيرة ﴿ من نهار ﴾ لما يشاهدون من شدة العذاب وطول مدته وقوله تعالى ﴿ بلاغ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هذا الذى وعظتم به كفاية فى الموعظة أو تبليغ من الرسول ويؤيده أنه قرىء بلغ وقرىء بلاغا أى بلغوا بلاغا ﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ أى الخارجون عن الاتعاظ أو عن الطاعة وقرىء بفتح الياء وكسر اللام وبفتحهما من هلك وهلك وبنون العظمة من الإهلاك ونصب القوم ووصفه . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة فى الدنيا .

* * *

سورة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتسمى سورة القتال

وهى مدنية ، وقيل : مكية ، وآيها تسع أو ثمان وثلاثون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ أى أعرضوا عن الإسلام وسلوك طريقه من صد صدودا أو منعوا الناس عن ذلك من صده صدا كالمطعمين يوم بدر وقيل هم اثنا عشر رجلا من أهل الشرك كانوا يصدون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر وقيل أهل الكتاب الذين كفروا وصدوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل فى الإسلام وقيل هو عام فى كل من كفر وصد ﴿ أضل أعمالهم ﴾ أى أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة لا أثر لها أصلا لكن لا بمعنى أنه أبطلها وأحبطها بعد أن لم تكن كذلك بل بمعنى أنه حكم ببطلانها وضياعها فإن ما كانوا يعملون من أعمال البر كصلة الأرحام وقرى الأضياف وفك الأسارى وغيرها من المكارم ليس لها أثر من أصلها لعدم مقارنتها للإيمان أو أبطل ماعملوا من الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والصد عن سبيله بنصر رسوله وإظهار دينه على الدين كله وهو الأوفق لما سيأتى من قوله تعالى (فتعسا لهم وأضل أعمالهم) وقوله تعالى (فإذا لقيتم) الخ . ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قيل هم ناس من قريش وقيل من الأنصار وقيل هم مؤمنو أهل الكتاب وقيل عام للكل ﴿ وآمنوا بما نزل على محمد ﴾ خص بالذكر الإيمان بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويها بشأنه وتنبيها على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به وأنه الأصل فى الكل ولذلك أكد بقوله تعالى ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ بطريق حصر الحقية فيه وقيل حقيته بكونه ناسخا غير منسوخ فالحق على هذا مقابل الزائل وعلى الأول مقابل الباطل وأيا ما كان فقوله تعالى من ربهم حال من ضمير الحق وقرىء نزل على البناء للفاعل وأنزل على البناءين ونزل بالتخفيف ﴿ كفر عنهم سيئاتهم ﴾ أى سترها

بالإيمان والعمل الصالح ﴿ وأصلح بالهم ﴾ أى حالهم فى الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما مر من إضلال الأعمال وتكفير السيئات وإصلاح البال وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ﴾ أى ذلك كائن بسبب أن الأولين اتبعوا الشيطان كما قاله مجاهد ففعلوا ما فعلوا من الكفر والصد فبيان سببية اتباعه للإضلال المذكور متضمن لبيان سببيتهما له لكونه أصلا مستتبعا لهما قطعا وبسبب أن الآخرين اتبعوا الحق الذى لا محيد عنه كائنا من ربهم ففعلوا ما فعلوا من الإيمان به وبكتابه ومن الأعمال الصالحة فبيان سببية اتباعه لما ذكر من التكفير والإصلاح بعد الإشعار بسببية الإيمان والعمل الصالح له متضمن لبيان سببيتهما له لكونه مبدأ ومنشأ لهما حتما فلا تدافع بين الإشعار والتصريح فى شىء من الموضعين ويجوز أن يحمل الباطل على ما يقابل الحق وهو الزائل الذاهب الذى لا أصل له أصلا فالتصريح بسببية اتباعه لإضلال أعمالهم وإبطالها لبيان أن إبطالها لبطلان مبناها وزواله وأما حمله على مالا ينتفع به فليس كما ينبغى لما أن الكفر والصد أفحش منه فلا وجه للتصريح بسببيته لما ذكر من إضلال أعمالهم بطريق القصر بعد الإشعار بسببيتهما له فتدبر ويجوز أن يراد بالباطل نفس الكفر والصد وبالحق نفس الإيمان والأعمال الصالحة فيكون التنصيص على سببيتهما لما ذكر من الإضلال ومن التكفير والإصلاح تصريحا بالسببية المشعر بها فى الموقعين ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الضرب البديع ﴿ يضرب الله ﴾ أى يبين ﴿ للناس أمثالهم ﴾ أى أحوال الفريقين وأوصافهما الجارية فى الغرابة مجرى الأمثال وهى اتباع الأولين الباطل وخيبتهم وخسرانهم واتباع الآخرين الحق وفوزهم وفلاحهم والفاء فى قوله تعالى ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا ﴾ لترتيب ما فى حيزها من الأمر على ما قبلها فإن ضلال أعمال الكفرة وخيبتهم وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام

أى فإذا كان الأمر كما ذكر فإذا لقيتموهم فى المحاربة ﴿ فضرب الرقاب ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضربا فحذف الفعل وقدم المصدر وأنيب منابه مضافا إلى المفعول وفيه اختصار وتأكيد بليغ والتعبير به عن القتل تصوير له بأشنع صورة وتهويل لأمره وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه ﴿ حتى إذا أثخنتموهم ﴾ أى أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشىء الثخين وهو الغليظ أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ فأسروهم واحفظوهم والوثاق اسم لما يوثق به وكذا الوثاق بالكسر وقد قرىء بذلك ﴿ فإما مناً بعد وإما فداء ﴾ أى فإما تمنون منا بعد ذلك أو تفدون فداء والمعنى التخيير بين القتل والاسترقاق والمن والفداء وهذا ثابت عند الشافعى رحمه الله تعالى وعندنا منسوخ قالوا نزل ذلك يوم بدر ثم نسخ والحكم إما القتل أو الاسترقاق وعن مجاهد ليس اليوم من ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق وقرىء فدا كعصا .

﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ أوزار الحرب آلاتها وأثقالها التى لا تقوم إلا بها من السلاح والكراع وأسند وضعها إليها وهو لأهلها إسنادا مجازيا وحتى غاية عند الشافعى لأحد الأمور الأربعة أو للمجموع والمعنى أنهم لا يزالون على ذلك أبدا إلى أن لا يكون مع المشركين حرب بأن لا تبقى لهم شوكة وقيل بأن ينزل عيسى عليه السلام .وأما عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى فإن حمل الحرب على حرب بدر فهى غاية للمن والفداء والمعنى يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها وإن حملت على الجنس فهى غاية للضرب والشد والمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون حتى يضع جنس الحرب أوزارها بأن لا يبقى للمشركين شوكة وقيل أوزارها آثامها أى حتى يترك المشركون شركهم ومعاصيهم بأن أسلموا ﴿ ذلك ﴾ أى الأمر ذلك أو افعلوا ذلك ﴿ ولو شاء الله لانتصر منهم ﴾ لانتقم منهم ببعض أسباب الهلكة والاستئصال ﴿ ولكن ﴾ لم يشأ ذلك ﴿ ليبلو بعضكم ببعض ﴾ فأمركم بالقتال وبلاكم بالكافرين لتجاهدوهم فتستوجبوا الثواب العظيم بموجب الوعد والكافرين بكم ليعاجلهم على أيديكم

ببعض عذابهم كى يرتدع بعضهم عن الكفر ﴿ والذين قتلوا فى سبيل الله ﴾ أى استشهدوا وقرىء قاتلوا أى جاهدوا وقتلوا وقتلوا ﴿فلن يضل أعمالهم﴾ أى فلن يضيعها وقرىء يضل أعمالهم على البناء للمفعول ويضل أعمالهم من ضل وعن قتادة أنها نزلت فى يوم أحد ﴿ سيهديهم ﴾ فى الدنيا إلى أرشد الأمور وفى الآخرة إلى الثواب أو سيثبت هدايتهم ﴿ ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ فى الدنيا بذكر أوصافها بحيث اشتاقوا إليها أو بينها لهم بحيث يعلم كل أحد منزله ويهتدى إليه كأنه كان ساكنه منذ خلق وعن مقاتل أن الملك الموكل بعمله فى الدنيا يمشى بين يديه فيعرفه كل شىء أعطاه الله تعالى أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة أو حددها لهم وأفرزها من عرف الدار فالجنة كل منهم محددة مفرزة والجملة إما مستأنفة أو حال بإضمار قد أو بدونه.

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ﴾ أى دينه ورسوله ﴿ ينصركم ﴾ على أعدائكم ويفتح لكم ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ فى مواطن الحرب ومواقفها أو على محجة الإسلام ﴿ والذين كفروا فتعساً لهم ﴾ التعس الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط ورجل تاعس وتعس وانتصابه بفعله الواجب حذفه سماعا أى فقال تعسا لهم أوفقضى تعسا لهم وقوله تعالى ﴿وأضل أعمالهم ﴾ عطف عليه داخل معه فى حيز الخبرية للموصول .

﴿ذلك﴾ أى ما ذكر من التعس وإضلال الأعمال ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم ﴿ كرهوا ما أنزل الله﴾ من القرآن لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء ﴿فأحبط﴾ لأجل ذلك ﴿أعمالهم﴾ التى لو كانوا عملوها مع الإيمان لأثيبوا عليها ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض ﴾ أى أقعدوا فى أماكنهم فلم يسيروا فيها ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من الأمم المكذبة فإن آثار ديارهم تنبىء عن أخبارهم وقوله تعالى ﴿دمر الله عليهم﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل كيف كان عاقبتهم فقيل استأصل الله تعالى عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم يقال دمره أهلكه ودمر عليه أهلك عليه مايختص به ﴿ وللكافرين ﴾

أى ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم ﴿أمثالها﴾ أمثال عواقبهم أو عقوباتهم لكن لا على أن لهؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافه بل مثله وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الأمم المعذبة وقيل يجوز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين وقد قتلوا وأسروا بأيدى من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل أشد ألما من الهلاك بسبب عام وقيل المراد بالكافرين المتقدمون بطريق وضع الظاهر موضع الضمير كأنه قيل دمر الله عليهم في الدنيا ولهم فى الآخرة أمثالها .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عقوبة الأمم السالفة لهؤلاء ﴿ بأن الله مولى الذين آمنوا﴾ أى ناصرهم على أعدائهم وقرىء ولى الذين ﴿وأن الكافرين لامولى لهم﴾ فيدفع عنهم ما حل بهم من العقوبة والعذاب ولا يخالف هذا قوله تعالى (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) فإن المولى هناك بمعنى المالك ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ بيان لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها الأخروية ﴿ والذين كفروا يتمتعون ﴾ أى ينتفعون فى الدنيا بمتاعها ﴿ ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ غافلين عن عواقبهم ﴿ والنار مثوى لهم﴾ أى منزل ثواء وإقامة والجملة إما حال مقدرة من واو يأكلون أو استئناف ﴿ وكأى ﴾ كلمة مركبة من الكاف وأى بمعنى كم الخبرية ومحلها الرفع بالابتداء وقوله تعالى ﴿من قرية ﴾ تمييز لها وقوله تعالى ﴿ هى أشد قوة من قريتك ﴾ صفة لقرية كما أن قوله تعالى ﴿ التى أخرجتك ﴾ صفة لقريتك وقد حذف عنهما المضاف وأجرى أحكامه عليهما كما يفصح عنه الخبر الذى هو قوله تعالى ﴿أهلكناهم﴾ أى وكم من أهل قرية هم أشد قوة من أهل قريتك الذين كانوا سببا لخروجك من بينهم ووصف القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك[1] لضعف قوتها كما أن وصف الثانية بإخراجه عليه الصلاة والسلام للإيذان بأولويتها به لقوة جنايتها وعلى طريقته قول النابغة

---

(١) فى ١٩ : بالهلاك .

كليب لعمرى كان أكثر ناصرا وأيسر جرما منك ضرج بالدم

وقوله تعالى ﴿ فلا ناصر لهم ﴾ بيان لعدم خلاصهم من العذاب بواسطة الأعوان والأنصار إثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم والفاء لترتيب ذكر ما بالغير على ذكر ما بالذات وهو حكاية حال ماضية ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ تقرير لتباين حالى فريقى المؤمنين والكافرين وكون الأولين فى أعلى عليين والآخرين فى أسفل سافلين وبيان لعلة ما لكل منهما من الحال والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقد قرىء بدونها ومن عبارة عن المؤمنين المتمسكين بأدلة الدين وجعلها عبارة عن النبى عليه الصلاة والسلام أو عنه وعن المؤمنين لا يساعده النظم الكريم على أن الموازنة بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم مما يأباه منصبه الجليل والتقدير أليس الأمر كما ذكر فمن كان مستقرا على حجة ظاهرة وبرهان نير من مالك أمره ومربيه وهو القرآن الكريم وسائر المعجزات والحجج العقلية ﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾ من الشرك وسائر المعاصى مع كونه فى نفسه أقبح القبائح ﴿ واتبعوا ﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿ أهواءهم ﴾ الزائغة وانهمكوا فى فنون الضلالات من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ما هم عليه فضلا عن حجة تدل عليه وجمع الضميرين الأخيرين باعتبار معنى من كما أن إفراد الأولين باعتبار لفظها .

عجائب الجنة

﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ استئناف مسوق لشرح محاسن الجنة الموعودة آنفا للمؤمنين وبيان كيفية أنهارها التى أشير إلى جريانها من تحتها وعبر عنهم بالمتقين إيذاناً بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك السيئات عن آخرها ومثلها وصفها العجيب الشأن وهو مبتدأ محذوف الخبر فقدره النضر بن شميل مثل الجنة ما تسمعون وقوله تعالى ﴿ فيها أنهار ﴾ إلخ مفسر له وقدره سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة والأول هو الأنسب لصدر النظم الكريم وقيل المثل زائدة كزيادة الاسم فى قول من قال :

* إلى الحول ثم اسم السلام عليكما *

والجنة مبتدأ خبره فيها أنهار إلخ ﴿من ماء غير آسن﴾ أى غير متغير الطعم والرائحة وقرىء غير أسن ﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ بأن صار قارصا ولا خازرا كألبان الدنيا ﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ لذيذة ليس فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر ولا خمار وإنما هى تلذذ محض ولذة إما تأنيث لذ بمعنى لذيذ أو مصدر نعت به مبالغة وقرىء لذة بالرفع على أنها صفة أنهار وبالنصب على العلة أى لأجل لذة الشاربين ﴿وأنهار من عسل مصفى﴾ لا يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها وفى هذا تمثيل لما يجرى مجرى الأشربة فى الجنة بأنواع ما يستطاب منها ويستلذ فى الدنيا بالتخلية عما ينغصها وينقصها والتحلية بما يوجب غزارتها ودوامها ﴿ولهم فيها﴾ مع ما ذكر من فنون الأنهار ﴿من كل الثمرات﴾ أى صنف من كل الثمرات ﴿ومغفرة﴾ أى ولهم مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها وقوله تعالى ﴿من ربهم﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائنة من ربهم وقوله تعالى ﴿كمن هو خالد فى النار﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمن هو خالد فى هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد فى النار كما نطق به قوله تعالى والنار مثوى لهم وقيل هو خبر لمثل الجنة على أن فى الكلام حذفا تقديره أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فى النار أو أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد فى النار فعرى عن حرف الإنكار وحذف ماحذف تصوير المكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينة وبين التابع للهوى بمكابرة من سوى بين الجنة الموصوفة بما فصل من الصفات الجليلة وبين النار ﴿وسقوا ماء حميما﴾ مكان تلك الأشربة ﴿فقطع أمعاءهم﴾ من فرط الحرارة قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم وانمارت فروة رؤوسهم فإذا شربوه قطع أمعاءهم .

من أخلاق المنافقين

﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ هم المنافقون وإفراد الضمير باعتبار لفظ من

كما أن جمعه فيما سيأتى باعتبار معناها كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاونا منهم ﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم﴾ من الصحابة رضى الله عنهم ﴿ماذا قال آنفا﴾ أى ما الذى قال الساعة على طريقة الاستهزاء وإن كان بصورة الاستعلام وآنفا من قولهم أنف الشىء لما تقدم منه مستعار من الجارحة ومنه استأنف الشىء وائتنف وهو ظرف بمعنى وقتا مؤتنفا أو حال من الضمير فى قال وقرىء أنفا ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الذين طبع الله على قلوبهم﴾ لعدم توجههم نحو الخير أصلا ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ الباطلة فلذلك فعلوا ما فعلوا مما لا خير فيه ﴿والذين اهتدوا﴾ إلى طريق الحق ﴿زادهم﴾ أى الله تعالى ﴿هدى﴾ بالتوفيق والإلهام ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أعانهم على تقواهم أو أعطاهم جزاءها أو بين لهم ما يتقون .

﴿فهل ينظرون إلا الساعة﴾ أى القيامة وقوله تعالى ﴿أن تأتيهم بغتة﴾ أى تباغتهم بغتة وهى المفاجأة بدل اشتمال من الساعة والمعنى أنهم لا يتذكرون بذكر أهوال الأمم الخالية ولا بالأخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأهوال وما ينتظرون للتذكر إلا إتيان نفس الساعة بغتة وقرىء بغتة بفتح الغين وقوله تعالى ﴿فقد جاء أشراطها﴾ تعليل لمفاجأتها لا لإتيانها مطلقا على معنى أنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكر أمر مترقب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة إذ قد جاء أشراطها فلم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من مبادىء إتيانها فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة والأشراط جمع شرط بالتحريك وهى العلامة والمراد بها مبعثه صلى الله عليه وسلم وانشقاق القمر ونحوهما وقوله تعالى (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ حكم بخطئهم وفساد رأيهم فى تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكر حينئذ كقوله تعالى (يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى) أى وكيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم على أن أنى خبر مقدم وذكراهم مبتدأ وإذا جاءتهم اعتراض وسط بينهما رمزا إلى غاية سرعة

مجيئها وإطلاق المجيء عن قيد البغتة لما أن مدار استحالة نفع التذكر كونه عند مجيئه مطلقا لا مقيدا بقيد البغتة وقرىء أن تأتهم على أنه شرط مستأنف جزاؤه فأنى لهم إلخ والمعنى أن تأتهم الساعة بغتة لأنه قد ظهر أماراتها فكيف لهم تذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم .

﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ أى إذا علمت أن مدار السعادة هو التوحيد والطاعة ومناط الشقاوة هو الإشراك والعصيان فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية والعمل بموجبه ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ وهو الذى ربما يصدر عنه عليه الصلاة والسلام من ترك الأولى عبر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل كيف لا وحسنات الأبرار سيئات المقربين وإرشاد له عليه الصلاة والسلام إلى التواضع وهضم النفس واستقصار العمل ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ أى لذنوبهم بالدعاء لهم وترغيبهم فيما يستدعى غفرانهم وفى إعادة صلة الاستغفار تنبيه على اختلاف متعلقيه جنسا وفى حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه إشعار بعراقتهم فى الذنب وفرط افتقارهم الى الاستغفار ﴿ والله يعلم متقلبكم ﴾ فى الدنيا فإنها مراحل لا بد من قطعها لا محالة ﴿ ومثواكم ﴾ فى العقبى فإنها موطن إقامتكم فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم فيهما فبادروا الى الامتثال بما أمركم به فإنه المهم لكم فى المقامين وقيل يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه شىء منها .

﴿ ويقول الذين آمنوا ﴾ حرصا منهم على الجهاد ﴿ لولا نزلت سورة ﴾ أى هلا نزلت سورة تؤمر فيها بالجهاد ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ﴾ بطريق الأمر به أى سورة مبينة لا تشابه ولا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال . عن قتادة كل سورة فيها ذكر القتال فهى محكمة لم تنسخ وقرىء فإذا نزلت سورة وقرىء وذكر على إسناد الفعل الى ضميره تعالى ونصب القتال ﴿ رأيت الذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى ضعف فى الدين وقيل نفاق وهو الأظهر الأوفق لسياق النظم الكريم ﴿ ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ﴾ أى تشخص أبصارهم جبنا وهلعا كدأب من أصابته غشية الموت ﴿ فأولى لهم ﴾ أى فويل لهم وهو أفعل من الولى وهو القرب وقيل من آل ومعناه الدعاء عليهم

بأن يليهم المكروه أو يؤول إليه أمرهم وقيل هو مشتق من الويل وأصله أويل نقلت العين الى ما بعد اللام فوزنه أفلع ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ كلام مستأنف أى أمرهم طاعة الخ أو طاعة وقول معروف خير لهم أوحكاية لقولهم ويؤيده قراءة أبى يقولون طاعة وقول معروف أى أمرنا ذلك ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ أسند العزم وهو الجد إلى الأمر وهو لأصحابه مجازا كما فى قوله تعالى (إن ذلك من عزم الأمور) وعامل الظرف محذوف أى خالفوا وتخلفوا وقيل ناقضوا وقيل كرهوا وقيل هو قوله تعالى :

﴿ فلو صدقوا الله ﴾ على طريقة قولك إذا حضرنى طعام فلو جئتنى لأطعمتك أى فلو صدقوه تعالى فيما قالوا من الكلام المنبىء عن الحرص على الجهاد بالجرى على موجبه ﴿ لكان ﴾ أى الصدق ﴿ خيرا لهم ﴾ وفيه دلالة على اشتراك الكل فيما حكى عنهم من قوله تعالى (لولا نزلت) سورة وقيل فلو صدقوه فى الإيمان وواطأت قلوبهم فى ذلك ألسنتهم وأياما كان فالمراد بهم الذين فى قلوبهم مرض وهم المخاطبون بقوله تعالى ﴿ فهل عسيتم ﴾ الخ بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع أى هل يتوقع منكم ﴿ إن توليتم ﴾ أمور الناس وتأمرتم عليهم ﴿ أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا فإن من شاهد أحوالكم الدالة على الضعف فى الدين والحرص على الدنيا حين أمرتم بالجهاد الذى هو عبارة عن إحراز كل خير وصلاح ودفع كل شر وفساد وأنتم مأمورون شأنكم الطاعة والقول المعروف يتوقع منكم إذا أطلقت أعنتكم وصرتم آمرين ماذكر من الإفساد وقطع الأرحام وقيل إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا لى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الإفساد فى الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضا ووأد البنات وفيه أن الواقع فى حيز الشرط فى مثل هذا المقام لا بد أن تكون محذوريته باعتبار ما يستتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته ولا ريب فى أن الإعراض عن الإسلام رأس كل شر وفساد فحقه أن يجعل عمدة فى التوبيخ لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفاسد وقرىء وليتم على البناء للمفعول أى جعلتم

ولاة وقرىء توليتم أى تولاكم ولاة جور خرجتم معهم وساعدتموهم فى الإفساد وقطيعة الرحم وقرىء وتقطعوا من التقطع بحذف إحدى التاءين. فانتصاب أرحامكم حينئذ على نزع الجار أى فى أرحامكم وقرىء وتقطعوا من القطع وإلحاق الضمير بعسى لغة أهل الحجاز وأما بنو تميم فيقولون عسى أن تفعل وعسى أن تفعلوا ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات إيذانا بأن ذكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم وهو مبتدأ خبره ﴿الذين لعنهم الله﴾ أى أبعدهم من رحمته ﴿فأصمهم﴾ عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء اختيارهم ﴿وأعمى أبصارهم﴾ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق.

﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ أى ألا يلاحظونه ولا يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات ﴿أم على قلوب أقفالها﴾ فلا يكاد يصل إليها ذكر أصلا وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من التوبيخ بعدم التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر والهمزة للتقرير وتنكير القلوب إما لتهويل حالها وتفظيع شأنها بإبهام أمرها فى القساوة والجهالة كأنه قيل على قلوب منكرة لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها فى القساوة وإما لأن المراد بها قلوب بعض منهم وهم المنافقون وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة وقرىء أقفالها وإقفالها على المصدر.

﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم﴾ أى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وهم المنافقون الذين وصفوا فيما سلف بمرض القلوب وغيره من قبائح الأفعال والأحوال فإنهم قد كفروا به عليه الصلاة والسلام ﴿من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ بالدلائل الظاهرة والمعجزات القاهرة وقيل هم اليهود وقيل أهل الكتابين جميعا كفروا به عليه الصلاة والسلام بعدما وجدوا نعته فى كتابهم وعرفوا أنه المبعوث بذلك وقوله تعالى ﴿الشيطان سول لهم﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا لأن أى سهل لهم ركوب العظائم من السول وهو الاسترخاء

وقيل من السول المخفف من السؤل لاستمرار القلب فمعنى سول له أمرا حينئذ أوقعه فى أمنيته فإن السؤل الأمنية وقرىء سول مبنيا للمفعول على حذف المضاف أن كيد الشيطان ﴿ وأملى لهم ﴾ ومد لهم فى الأمانى والآمال وقيل أمهلهم الله تعالى ولم يعاجلهم بالعقوبة وقرىء وأملى لهم على صيغة المتكلم فالمعنى أى الشيطان يغويهم وأنا أنظرهم فالواو للحال أو للاستئناف وقرىء أملى لهم على البناء للمفعول أى أمهلوا ومد فى عمرهم .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم لا إلى الإملاء كما نقل عن الواحدى ولا إلى التسويل كما قيل لأن شيئا منهما ليس مسببا عن القول الآتى وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ قالوا ﴾ يعنى المنافقين المذكورين لا اليهود الكافرين به عليه الصلاة والسلام بعد ما وجدوا نعته فى التوراة كما قيل فإن كفرهم به ليس بسبب هذا القول ولو فرض صدوره عنهم سواء كان المقول لهم المنافقين أو المشركين على رأى القائل بل من حين بعثته عليه الصلاة والسلام ﴿ للذين كرهوا ما أنزل الله ﴾ أى لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع علمهم بأنه من عند الله تعالى حسدا وطمعا فى نزوله عليهم لا للمشركين كما قيل فإن قوله تعالى ﴿ سنطيعكم فى بعض الأمر ﴾ عبارة قطعا عما حكى عنهم بقوله تعالى (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لإن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم) وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادونهم وأرادوا بالبعض الذى أشاروا إلى عدم إطاعتهم فيه إظهار كفرهم وإعلان أمرهم بالفعل قبل قتالهم وإخراجهم من ديارهم فإنهم كانوا يأبون ذلك قبل مساس الحاجة الضرورية الداعية إليه لما كان لهم فى إظهار الإيمان من المنافع الدنيوية وإنما كانوا يقولون لهم ما يقولون سرا كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ والله يعلم إسرارهم ﴾ أى إخفاءهم لما يقولونه لليهود وقرىء أسرارهم أى جميع أسرارهم التى من جملتها قولهم هذا والجملة اعتراض مقرر لما قبله متضمن للإفشاء فى الدنيا والتعذيب فى الآخرة والفاء فى قوله

تعالى ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها وكيف منصوب بفعل محذوف هو العامل فى الظرف كأنه قيل يفعلون فى حياتهم ما يفعلون من الحيل فكيف يفعلون إذا توفتهم الملائكة وقيل مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى فكيف حالهم أو حياتهم إذا توفتهم الخ وقرىء توفاهم على أنه إما ماض أو مضارع قد حذف إحدى تاءيه ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ حال من فاعل توفتهم أو من مفعوله وهو تصوير لتوفيهم على أهول الوجوه وأفظعها وعن ابن عباس رضى الله عنهما لا يتوفى أحد على معصية إلا يضرب الملائكة وجهه ودبره ﴿ ذلك ﴾ التوفى الهائل ﴿ بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ اتبعوا ما أسخط الله ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿ وكرهوا رضوانه ﴾ أى ما يرضاه من الإيمان والطاعة حيث كفروا بعد الإيمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع اليهود ﴿ فأحبط ﴾ لأجل ذلك ﴿ أعمالهم ﴾ التى عملوها حال إيمانهم من الطاعات أو بعد ذلك من أعمال البر التى لو عملوها حال الإيمان لانتفعوا بها ﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض ﴾ هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشنيعة وصفوا بوصفهم السابق لكونه مدارا لما نعى عليهم بقوله تعالى ﴿ أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ فأم منقطعة وأن مخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف ولن بما فى حيزها خبرها والأضغان جمع ضغن وهو الحقد أى بل أحسب الذين فى قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أنه لن يخرج الله أحقادهم ولن يبرزها لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين فتبقى أمورهم مستورة والمعنى أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

﴿ ولو نشاء ﴾ اراءتهم ﴿ لأريناكهم ﴾ لعرفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية والالتفات إلى نون العظمة لإبراز العناية بالإراءة ﴿ فلعرفتهم بسيماهم ﴾ بعلامتهم التى نسمهم بها وعن أنس رضى الله عنه ما خفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شىء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ولقد كنا فى بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى كل واحد منهم مكتوب هذا منافق واللام لام

الجواب كررت فى المعطوف للتأكيد والفاء لترتيب المعرفة على الإراءة وأما ما فى قوله تعالى ﴿ ولتعرفنهم فى لحن القول ﴾ فلجواب قسم محذوف ولحن القول نحوه وأسلوبه أو إمالته إلى جهة تعريض وتورية ومنه قيل للمخطىء لاحن لعدله بالكلام عن سمت الصواب ﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ فيجازيكم بحسب قصدكم وهذا وعد للمؤمنين وإيذان[١] بأن حالهم بخلاف حالهم بخلاف حال المنافقين ﴿ ولنبلونكم ﴾ بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة ﴿ حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴾ على مشاق الجهاد علما فعليا يتعلق به الجزاء ﴿ ونبلو أخباركم ﴾ ما يخبر به عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبيحها وقرىء ويبلو بالياء وقرىء نبلو بسكون الواو على ونحن نبلوا ﴿ إن الذين كفروا وصدوا ﴾ الناس ﴿ عن سبيل الله وشاقوا الرسول ﴾ وعادوه ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ بما شاهدوا نعته عليه الصلاة والسلام فى التوراة بما ظهر على يديه من المعجزات ونزل عليه من الآيات وهم قريظة والنضير أو المطعمون يوم بدر ﴿ لن يضروا الله ﴾ بكفرهم وصدهم ﴿ شيئاً ﴾ من الأشياء أو شيئاً من الضرر أو لن يضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاقته شيئاً وقد حذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته ﴿ وسيحبط أعمالهم ﴾ أى مكايدهم التى نصبوها فى إبطال دينه تعالى ومشاقة رسوله عليه الصلاة والسلام فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل ولا تثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴾ حكم يعم كل من مات على الكفر وإن صح نزوله فى أصحاب القليب .

﴿ فلا تهنوا ﴾ أى لا تضعفوا ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ أى ولا تدعوا الكفار

---

(١) فى ١١ : وشعار

إلى الصلح خورا فإن ذلك إعطاء الدنية ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن على جواب النهى وقرىء ولا تدعوا من ادعى القوم بمعنى تداعوا نحو ارتموا الصيد وتراموه ومنه تراءوا الهلال فإن صيغة التفاعل قد يراد بها صدور الفعل عن المتعدد من غير اعتبار وقوعه عليه ومنه قوله تعالى (عم يتساءلون) على أحد الوجهين والفاء لترتيب النهى على ما سبق من الأمر بالطاعة وقوله تعالى ﴿وأنتم الأعلون﴾ جملة حالية مقررة لمعنى النهى مؤكدة لوجوب الانتهاء وكذا قوله تعالى ﴿والله معكم﴾ فإن كونهم الأعلين وكونه عز وجل ناصرهم من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل والضراعة وكذا توفيته تعالى لأجور الأعمال حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ أى ولن يضيعها من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم فأفردته عنه من الوتر الذى هو الفرد وعبر عن ترك الإثابة فى مقابلة الأعمال بالوتر الذى هو إضاعة شىء معتد به من الأنفس والأموال مع أن الأعمال غير موجبة للثواب على قاعدة أهل السنة إبرازاً لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق وتنزيل ترك الإثابة منزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها وقد مر فى قوله تعالى (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم) ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ لا ثبات لها ولا اعتداد بها ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم﴾ أى ثواب إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات التى يتنافس فيها المتنافسون ﴿ولا يسألكم أموالكم﴾ بحيث يخل أداؤها بمعاشكم وإنما اقتصر على نزر يسير منها هو ربع العشر تؤدونها إلى فقرائكم ﴿إن يسألكموها﴾ أى أموالكم ﴿فيحفكم﴾ أى يجهدكم بطلب الكل فإن الإحفاء والإلحاف المبالغة وبلوغ الغاية يقال أحفى شاربه إذا استأصله ﴿تبخلوا﴾ فلا تعطوا ﴿ويخرج أضغانكم﴾ أى أحقادكم وضمير يخرج لله تعالى ويعضده القراءة بنون العظمة أو للبخل لأنه سبب الأضغان وقرىء يخرج من الخروج بالياء والتاء مسندا إلى الأضغان .

﴿ها أنتم هؤلاء﴾ أى أنتم أيها المخاطبون هؤلاء الموصوفون وقوله تعالى

﴿ تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ﴾ استئناف مقرر لذلك أو صلة لهؤلاء على أنه بمعنى الذين أى ها أنتم الذين تدعون ففيه توبيخ عظيم وتحقير من شأنهم والإنفاق فى سبيل الله يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما ﴿ فمنكم من يبخل ﴾ أى ناس يبخلون وهو فى حيز الدليل على الشرطية السابقة ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ فإن كلا من نفع الإنفاق وضرر البخل عائد إليه والبخل يستعمل بعن وعلى لتضمنه معنى الإمساك والتعدى .

﴿ والله الغنى ﴾ دون من عداه ﴿ وأنتم الفقراء ﴾ فما يأمركم به فهو لاحتياجكم إلى ما فيه من المنافع فإن امتثلتم فلكم وإن توليتم فعليكم وقوله تعالى ﴿ وإن تتولوا ﴾ عطف على أن تؤمنوا أى وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿ يستبدل قوما غيركم ﴾ يخلف مكانكم قوما آخرين ﴿ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ فى التولى عن الإيمان والتقوى بل يكونوا راغبين فيهما قيل هم الأنصار وقيل الملائكة وقيل أهل فارس لما روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن القوم وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه فقال هذا وقومه والذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس وقيل كندة والنخع وقيل العجم وقيل الروم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله عز وجل أن يسقيه من أنهار الجنة .

* * *

سورة الفتح

مدنية ، نزلت فى مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية
وآيها تسع وعشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إنا فتحنا لك ﴾ فتح البلد عبارة عن الظفر به عنوة أو صلحا بحراب أو بدونه فإنه ما لم يظفر به منغلق مأخوذ من فتح باب الدار وإسناده إلى نون العظمة لاستناد أفعال العباد إليه تعالى خلقا وإيجادا والمراد به فتح مكة شرفها الله وهو المروى عن أنس رضى الله عنه بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند انصرافه من الحديبية والتعبير عنه بصيغة الماضى على سنن سائر الأخبار الربانية للإيذان بتحققه لا محالة تأكيدا للتبشير كما أن تصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك وفيه من الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبر جل جلاله وعز سلطانه ما لا يخفى وقيل هو ما أتيح له عليه الصلاة والسلام فى تلك السنة من فتح خيبر وهو المروى عن مجاهد وقيل هو صلح الحديبية فإنه وإن لم يكن فيه حراب شديد بل ترام بين الفريقين بسهام وحجارة لكن لما كان الظهور للمسلمين حيث سألهم المشركون الصلح كان فتحا بلا ريب وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم وعن الكلبى ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام حين بلغه أن رجلا قال ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا قال بل هو أعظم الفتوح وقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما يكرهون وعن الشعبى نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الغزوة ما لم يصب فى غزوة حيث أصاب أن بويع بيعة الرضوان وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبلغ الهدى محله وأطعموا نخل خيبر وظهرت الروم على فارس ففرح به المسلمون وكان فى فتح الحديبية

آية عظيمة هي أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه وشبع وقيل فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد وقيل هو جميع ما فتح له عليه الصلاة والسلام من الفتوح وقيل هو ما فتح الله له عليه الصلاة والسلام من الإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف ولا فتح أبين منه وأعظم وهو رأس الفتوح كافة إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو شعبة وفرع من فروعه وقيل الفتح بمعنى القضاء ومنه الفتاحة للحكومة والمعنى قضينا لك على أهل مكة أن تدخلها من قابل وهو المروى عن قتادة رضى الله عنه وأياً ما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل والإيذان بأن مناط التبشير نفس الفتح الصادر عنه سبحانه لا خصوصية المفتوح ﴿ فتحا مبينا ﴾ بينا ظاهر الأمر مكشوف الحال أو فارقا بين الحق والباطل وقوله تعالى :

﴿ ليغفر لك الله ﴾ غاية للفتح من حيث إنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام فى إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب واقتحام موارد الخطوب والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للإشعار بأن كل واحد مما انتظم فى سلك الغاية من أفعاله تعالى صادر عنه تعالى من حيثية غير حيثية الآخر مترتبة على صفة من صفاته تعالى ﴿ ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ أى جميع ما فرط منك من ترك الأولى وتسميته ذنبا بالنظر إلى منصبه الجليل ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ بإعلاء الدين وضم الملك إلى النبوة وغيرهما مما أفاضه عليه من النعم الدينية والدنيوية ﴿ ويهديك صراطا مستقيما ﴾ فى تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرياسة وأصل الاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبل الحق واستقامة مناهجه ما لم يكن حاصلا قبل ﴿ وينصرك الله ﴾ إظهار الاسم الجليل لكونه خاتمة الغايات ولإظهار كمال العناية بشأن النصر كما يعرب عنه تأكيده بقوله تعالى ﴿ نصراً عزيزا ﴾ أى نصراً فيه عزة ومنعة أو قوياً منيعا على وصف المصدر بوصف صاحبه مجازا للمبالغة أو عزيزا صاحبه ﴿ هو الذى أنزل السكينة ﴾ بيان لما أفاض عليهم

من مبادى الفتح من الثبات والطمأنينة أى أنزلها ﴿ فى قلوب المؤمنين ﴾ بسبب الصلح والأمن إظهاراً لفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ أى يقينا منضما إلى يقينهم أو انزل فيها السكون إلى ما جاء به عليه الصلاة والسلام من الشرائع ليزدادوا إيمانا بها مقرونا مع إيمانهم بالوحدانية واليوم الآخر عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أول ما أتاهم به النبي صلى الله عليه وسلم التوحيد ثم الصلاة والزكاة ثم الحج والجهاد فازدادوا إيمانا مع إيمانهم أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله تعالى ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانا إلى إيمانهم ﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ يدبر أمرها كيفما يريد يسلط بعضها على بعض تارة ويوقع بينهما السلم أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿ وكان الله عليما ﴾ مبالغا فى العلم بجميع الأمور ﴿ حكيما ﴾ فى تقديره وتدبيره وقوله تعالى ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ متعلق بما يدل عليه ما ذكر من كون جنود السموات والأرض له تعالى من معنى التصرف والتدبير أى دبر ما دبر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله فى ذلك ويشكروها فيدخلهم الجنة ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم ﴾ أى يغطيها ولا يظهرها وتقديم الإدخال فى الذكر على التكفير مع أن الترتيب فى الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى ﴿ وكان ذلك ﴾ أى ما ذكر من الإدخال والتكفير ﴿ عند الله فوزا عظيما ﴾ لا يقادر قدره لأنه منتهى ما يمتد إليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضر وعند الله حال من فوزا لأنه صفته فى الأصل فلما قدم عليه صار حالا أى كائنا عند الله أى فى علمه تعالى وقضائه والجملة اعتراض مقرر لما قبله.

﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ عطف على يدخل وفى تقديم المنافقين على المشركين ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحق منهم بالعذاب ﴿ الظانين بالله ظن السوء ﴾ أى ظن الأمر السوء وهو أن لا ينصر رسوله والمؤمنين ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أى ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم وقرىء دائرة السوء بالضم وهما لغتان من ساء

كالكره والكره خلا أن المفتوح غلب فى أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء وأما المضموم فجار [١] مجرى الشر ﴿ وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم ﴾ عطف على ما استحقوه فى الآخرة على ما استوجبوه فى الدنيا والواو فى الأخيرين مع أن حقهما الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للإيذان باستقلال كل منهما فى الوعيد وأصالته من غير اعتبار استتباع بعضها لبعض ﴿ وساءت مصيرا ﴾ أى جهنم ﴿ ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما ﴾ إعادة لما سبق قالوا فائدتها التنبيه على أن لله تعالى جنود الرحمة وجنود العذاب وأن المراد ههنا [٢] جنود العذاب كما ينبيء عنه التعرض لوصف العزة ﴿ إنا أرسلناك شاهدا ﴾ أى على أمتك لقوله تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيدا) ﴿ ومبشرا ﴾ على الطاعة ﴿ ونذيرا ﴾ على المعصية .

﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام ولأمته ﴿ وتعزروه ﴾ وتقووه بتقوية دينه ورسوله ﴿ وتوقروه ﴾ وتعظموه ﴿ وتسبحوه ﴾ وتنزهوه أو تصلوا له من السبحة ﴿ بكرة وأصيلا ﴾ غدوة وعشيا عن ابن عباس رضى الله عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر وقرىء الأفعال الأربعة بالياء التحتانية وقرىء وتعزروه بضم التاء وتخفيف الزاى المكسورة وقرىء بفتح التاء وضم الزاى وكسرها وتعززوه بزاءين وتوقروه من أوقره بمعنى وقره .

﴿ إن الذين يبايعونك ﴾ أى على قتال قريش تحت الشجرة وقوله تعالى ﴿ إنما يبايعون الله ﴾ خبران يعنى أن مبايعتك هى مبايعة الله عز وجل لأن المقصود توثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه وقوله تعالى ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ حال أو استئناف مؤكد له على طريقة التخييل والمعنى أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقرىء إنما يبايعون لله أى لأجله ولوجهه ﴿ فمن نكث فإنما ينكث

(١) فى ١١ : فهو جار .

(٢) فى ١١ : هنا .

على نفسه ﴾ أى فمن نقض عهده فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه وقرىء بكسر الكاف ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله ﴾ بضم الهاء فإنه أبقى بعد حذف الواو توسلا بذلك إلى تفخيم لام الجلالة وقرىء بكسرها أى ومن وفى بعهده ﴿ فسيؤتيه أجراً عظيما ﴾ هو الجنة وقرىء بما عهد وقرىء فسنؤتيه بنون العظمة ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب ﴾ هم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادى ليخرجوا معه عند إرادته المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً حذرا من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت وأحرم عليه الصلاة والسلام وساق معه الهدى ليعلم أنه لا يريد الحرب وتثاقلوا عن الخروج وقالوا نذهب إلى قوم قدغزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم فأوحى الله تعالى إليه عليه الصلاة والسلام بأنهم سيعتلون ويقولون ﴿ شغلتنا أموالنا وأهلونا ﴾ ولم يكن لنا من يخلفنا فيهم ويقوم بمصالحهم ويحميهم من الضياع وقرىء شغلتنا بالتشديد للتكثير ﴿ فاستغفر لنا ﴾ الله تعالى ليغفر لنا تخلفنا عنك حيث لم يكن ذلك باختيار بل عن اضطرار ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ﴾ بدل من سيقول أو استئناف لتكذيبهم فى الاعتذار والاستغفار .

﴿ قل ﴾ رداً لهم عند اعتذارهم إليك بأباطيلهم ﴿ فمن يملك لكم من الله شيئاً ﴾ أى فمن يقدر لأجلكم من مشيئة الله تعالى وقضائه على شىء من النفع ﴿ إن أراد بكم ضرا ﴾ أى ما يضركم من هلاك الأهل والمال وضياعهما حتى تتخلفوا عن الخروج لحفظهما ودفع الضرر عنهما وقرىء ضرا بالضم ﴿ أو أراد بكم نفعاً ﴾ أى ومن يقدر على شىء من الضرر إن أراد بكم ما ينفعكم من حفظ أموالكم وأهليكم فأى حاجة إلى التخلف لأجل القيام بحفظهما وهذا تحقيق للحق ورد لهم بموجب ظاهر مقالتهم الكاذبة وتعميم الضر والنفع لما يتوقع على تقدير الخروج من القتل والهزيمة والظفر والغنيمة يرده قوله تعالى ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيرا ﴾ فإنه إضراب عما قالوا وبيان لكذبه بعد بيان فساده على

تقدير صدقه أى ليس الأمر كما تقولون بل كان الله خبيرا بجميع ما تعملون من الأعمال التى من جملتها تخلفكم وما هو من مباديه وقوله تعالى ﴿ بل ظننتم ﴾ الخ بدل من كان الله الخ مفسر لما فيه من الإبهام أى بل ظننتم ﴿ أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ﴾ بأن يستأصلهم المشركون بالمرة فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة والأهلون جمع أهل وقد يجمع على أهلات كأرضات على تقدير تاء التأنيث وأما الأهالى فاسم جمع كالليالى وقرىء إلى أهلهم .

﴿ وزين ذلك فى قلوبكم ﴾ وقبلتموه واشتغلتم بشأن أنفسكم غير مبالين بهم وقرىء زين على البناء الفاعل بإسناده إلى الله سبحانه أو إلى الشيطان ﴿ وظننتم ظن السوء ﴾ المراد به إما الظن الأول والتكرير لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء أو ما يعمه وغيره من الظنون الفاسدة التى من جملتها الظن بعدم صحة رسالته عليه الصلاة والسلام فإن الجازم بصحتها لا يحوم حول فكره ما ذكر من الاستئصال ﴿ وكنتم قوما بورا ﴾ أى هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه على أنه جمع بائر كعائذ وعوذ أو فاسدين فى أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم وقيل البور من بار كالهلك من هلك بناء ومعنى ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله ﴾ كلام مبتدأ من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن مقرر لبوارهم ومبين لكيفيته أى ومن لم يؤمن بهما كدأب هؤلاء المخلفين ﴿ فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا ﴾ أى لهم وإنما وضع موضع الضمير الكافرون لإيذانا بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر وأنه مستوجب للسعير بكفره وتنكير سعيرا للتهويل أو لأنها نار مخصوصة ﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ وما فيهما يتصرف فى الكل كيف يشاء ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾ أن يغفر له ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ أن يعذبه من غير دخل لأحد فى شىء منهما وجودا وعدما وفيه حسم لأطماعهم الفارغة فى استغفاره عليه الصلاة والسلام لهم ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ مبالغا فى المغفرة والرحمة لمن يشاء ولا يشاء إلا لمن تقتضى الحكمة

مغفرته بمن يؤمن به وبرسوله وأما من عداه من الكافرين فهم بمعزل من ذلك قطعاً ﴿ سيقول المخلفون ﴾ أى المذكورون وقوله تعالى ﴿ إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ﴾ ظرف لما قبله لا شرط لما بعده أى سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر لتحوزوها حسبما وعدكم إياها وخصكم بها عوضا مما فاتكم من غنائم مكة ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾ إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ بأن يشاركوا فى الغنائم التى خصها بأهل الحديبية فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية فى ذى الحجة من سنة ست وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم من سنة سبع ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالا كثيرة فخصها بهم حسبما أمره الله عز وجل وقرىء كلم الله وهو جمع كلمة وأيا ما كان فالمراد ما ذكر من وعده تعالى غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة لا قوله تعالى (لن تخرجوا معى أبدا) فإن ذلك فى غزوة تبوك.

﴿ قل ﴾ إقناطا لهم ﴿ لن تتبعونا ﴾ أى لا تتبعونا فإنه نفى فى معنى النهى للمبالغة ﴿ كذلكم قال الله من قبل ﴾ أى عند الانصراف من الحديبية ﴿ فسيقولون ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهى ﴿ بل تحسدوننا ﴾ أى ليس ذلك النهى حكم الله بل تحسدوننا أن نشارككم فى الغنائم وقرىء تحسدوننا بكسر السين وقوله تعالى ﴿ بل كانوا لا يفقهون ﴾ أى لا يفهمون ﴿ إلا قليلا ﴾ إلا فهما قليلا وهو فطنتهم لأمور الدنيا رد لقولهم الباطل ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد وأطم من الجهل المفرط وسوء الفهم فى أمور الدين ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ﴾ كرر ذكرهم بهذا العنوان مبالغة فى ذمهم ﴿ ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ﴾ هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب أو غيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المشركون لقوله تعالى ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ أى يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أبدا أو الإسلام لا غير كما يفصح عنه قراءة أو يسلموا وأما من عداهم فينتهى قتالهم بالجزية كما ينتهى بالإسلام وفيه دليل على إمامة أبى بكر رضى الله عنه إذ لم تتفق هذه الدعوة لغيره إلا إذا صح أنهم ثقيف وهوازن فإن ذلك كان فى عهد النبوة فيخص دوام

نفى الاتباع بما فى غزوة خيبر كما قاله محيي السنة وقيل هم فارس والروم ومعنى يسلمون ينقادون فإن الروم نصارى وفارس مجوس يقبل منهم الجزية ﴿ فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ﴾ هو الغنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة ﴿ وأن تتولوا ﴾ عن الدعوة ﴿ كما توليتم من قبل ﴾ فى الحديبية ﴿ يعذبكم عذابا أليما ﴾ لتضاعف جرمكم .

﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ أى فى التخلف عن الغزو لما بهم من العذر والعاهة فإن التكليف يدور على الاستطاعة وفى نفى الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ فيما ذكر من الأوامر والنواهى ﴿ يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ وقرىء ندخله بنون العظمة ﴿ ومن يتول ﴾ أى عن الطاعة ﴿ يعذبه ﴾ وقرىء بالنون ﴿ عذابا أليما ﴾ لا يقادر قدره .

بيعة الشجرة

﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين ﴾ هم الذين ذكر شأن مبايعتهم وبهذه الآية سميت بيعة الرضوان وقوله تعالى ﴿ إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ منصوب برضى وصيغة المضارع لاستحضار صورتها وتحت الشجرة متعلق به أو بمحذوف هو حال من مفعوله روى أنه عليه الصلاة والسلام لما نزل الحديبية بعث خراش ابن أمية الخزاعى رسولا إلى أهل مكة فهموا به فمنعه الأحابيش فرجع فبعث عثمان بن عفان رضى الله عنه فأخبرهم أنه عليه الصلاة والسلام لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته فوقروه وقالوا إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل فقال ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه فقال عليه الصلاة والسلام لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة وقيل

سدرة على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا وروى على الموت دونه وأن لا يفروا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم اليوم خير أهل الأرض وكانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين وقيل ألفا وأربعمائة وقيل ألفا وثلثمائة وقوله تعالى ﴿ فعلم ما فى قلوبهم ﴾ عطف على يبايعونك لما عرفت من أنه بمعنى بايعوك لا على رضى فإن رضاه تعالى عنهم مترتب على علمه تعالى بما فى قلوبهم من الصدق والإخلاص عند مبايعتهم له صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى ﴿ فأنزل السكينة عليهم ﴾ عطف على رضى أى فأنزل عليهم الطمأنينة والأمن وسكون النفس بالربط على قلوبهم وقيل بالصلح ﴿ وأثابهم فتحا قريبا ﴾ هو فتح خيبر غب انصرافهم من الحديبية كما مر تفصيله وقرىء وآتاهم ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾ أى مغانم خيبر والالتفات إلى الخطاب على قراءة الأعمش وطلحة ونافع لتشريفهم فى مقام الامتنان ﴿ وكان الله عزيزا ﴾ غالبا ﴿ حكيما ﴾ مراعيا لمقتضى الحكمة فى أحكامه وقضاياه ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة ﴾ هى ما يفيؤه على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿ تأخذونها ﴾ فى أوقاتها المقدرة لكل واحدة منها ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ أى غنائم خيبر ﴿ وكف أيدى الناس عنكم ﴾ أى أيدى أهل خيبر وحلفائهم من بنى أسد وغطفان حيث جاءوا لنصرتهم فقذف الله فى قلوبهم الرعب فنكصوا وقيل أيدى أهل مكة بالصلح ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ أمارة يعرفون بها صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى وعده إياهم عند رجوعه من الحديبية ما ذكر من المغانم وفتح مكة ودخول المسجد الحرام واللام متعلقة إما بمحذوف مؤخر أى ولتكون آية لهم فعل مافعل من التعجيل والكف أو بما تعلق به علة أخرى محذوفة من أحد الفعلين أى فعجل لكم هذه أو كف أيدى الناس لتغتنموها ولتكون الخ فالواو على الأول اعتراضية وعلى الثانى عاطفة ﴿ ويهديكم ﴾ بتلك الآية ﴿ صراطا مستقيما ﴾ هو الثقة بفضل الله تعالى والتوكل عليه فى كل ما تأتون وما تذرون ﴿ وأخرى ﴾ عطف على هذه أى فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى ﴿ لم تقدروا عليها ﴾ وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة قبل

ذلك لزيادة ترغيبهم فيها وقوله تعالى ﴿ قد أحاط الله بها ﴾ صفة أخرى لأخرى مفيدة لسهولة تأتيها بالنسبة إلى قدرته تعالى بعد بيان صعوبة منالها بالنظر إلى قدرتهم أى قد قدر الله عليها واستولى وأظهركم عليها وقيل حفظها لكم ومنعها من غيركم هذا وقد قيل إن أخرى منصوب بمضمر يفسره قد أحاط الله بها أى وقضى الله أخرى ولا ريب فى أن الإخبار بقضاء الله إياها بعد اندراجها فى جملة المغانم الموعودة بقوله تعالى (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) ليس فيه مزيد فائدة وإنما الفائدة فى بيان تعجيلها ﴿ وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ لأن قدرته تعالى ذاتية لا تختص بشىء دون شىء .

﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا ﴾ أى أهل مكة ولم يصالحوكم وقيل حلفاء خيبر ﴿ لولوا الأدبار ﴾ منهزمين ﴿ ثم لا يجدون وليا ﴾ يحرسهم ﴿ ولا نصيرا ﴾ ينصرهم ﴿ سنة الله التى قد خلت من قبل ﴾ أى سن الله غلبة أنبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الأمم ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ أى تغييرا ﴿ وهو الذى كف أيديهم ﴾ أى أيدى كفار مكة ﴿ عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة ﴾ أى فى داخلها ﴿ من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ وذلك أن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائة إلى الحديبية فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد وقيل كان يوم الفتح وبه استشهد أبو حنيفة على أن مكة فتحت عنوة لا صلحا ﴿ وكان الله بما تعملون ﴾ من مقاتلتهم وهزمهم أولا والكف عنهم ثانيا لتعظيم بيته الحرام وقرىء بالياء ﴿ بصيرا ﴾ فيجازيكم بذلك أو يجازيهم ﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى ﴾ بالنصب عطفا على الضمير المنصوب فى صدوكم وقرىء بالجر عطفا على المسجد بحذف المضاف أى ونحر الهدى وبالرفع على وصد الهدى .

وقوله تعالى ﴿ معكوفا ﴾ حال من الهدى أى محبوسا .

وقوله تعالى ﴿ أن يبلغ محله ﴾ بدل اشتمال من الهدى أو منصوب بنزع الخافض أى محبوسا من أن يبلغ مكانه الذى يحل فيه نحره وبه استدل أبو حنيفة رحمه الله تعالى على أن المحصر محل هديه الحرم قالوا بعض الحديبية من الحرم

وروى أن خيامه صلى الله عليه وسلم كانت فى الحل ومصلاه فى الحرم وهناك نحرت هداياه صلى الله عليه وسلم والمراد صدها عن محلها المعهود الذى هو منى.
﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم وهو صفة لرجال ونساء وقوله تعالى ﴿ أن تطؤوهم ﴾ أى توقعوا بهم وتهلكوهم بدل اشتمال منهم أو من الضمير المنصوب فى تعلموهم ﴿ فتصيبكم منهم ﴾ أى من جهتهم ﴿ معرة ﴾ أى مشقة ومكروه كوجوب الدية أو الكفارة بقتلهم والتأسف عليهم وتعيير الكفار وسوء قالتهم والإثم بالتقصير فى البحث عنهم وهى مفعلة من عره إذا عراه ودهاه ما يكرهه ﴿ بغير علم ﴾ متعلق بأن تطؤوهم أى غير عالمين بهم وجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه والمعنى لولا كراهة أن تهلكوا ناسا مؤمنين بين الكافرين غير عالمين بهم فيصيبكم بذلك مكروه لما كف أيديكم عنهم وقوله تعالى ﴿ ليدخل الله فى رحمته ﴾ متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف كأنه قيل عقيبه لكن كفها عنهم ليدخل بذلك الكف المؤدى إلى الفتح بلا محذور فى رحمته الواسعة بقسميها ﴿ من يشاء ﴾ وهم المؤمنون فإنهم كانوا خارجين من الرحمة الدنيوية التى من جملتها الأمن مستضعفين تحت أيدى الكفرة وأما الرحمة الأخروية فهم وإن كانوا غير محرومين منها بالمرة لكنهم كانوا قاصرين فى إقامة مراسم العبادة كما ينبغى فتوفيقهم لإقامتها على الوجه الأتم إدخال لهم فى الرحمة الأخروية وقد جوز أن يكون من يشاء عبارة عمن رغب فى الإسلام من المشركين ويأباه قوله تعالى ﴿ لو تزيلوا ﴾ الخ فإن فرض التنزيل وترتيب التعذيب عليه يقتضى تحقق المباينة بين الفريقين بالإيمان والكفر قبل التزيل حتما أى لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض وقرىء لو تزايلوا ﴿ لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ﴾ بقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿ إذ جعل الذين كفروا ﴾ منصوب باذكر على المفعولية أو بعذبنا على الظرفية وقيل بمضمر هو أحسن الله إليكم وأيا ما كان فوضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز الصلة وتعليل الحكم به والجعل إما بمعنى الإلقاء فقوله تعالى ﴿ فى قلوبهم الحمية ﴾

أى الأنفة والتكبر متعلق به أو بمعنى التصيير فهو متعلق بمحذوف هو مفعول ثان له أى جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم ﴿ حمية الجاهلية ﴾ بدل من الحمية أى حمية الملة الجاهلية أو الحمية الناشئة من الجاهلية وقوله تعالى :

﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ على الأول عطف على جعل والمراد تذكير حسن صنيع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيع الكفرة وعلى الثانى على ما يدل عليه الجملة الامتناعية كأنه قيل لم يتزيلوا فلم نعذب فأنزل إلخ وعلى الثالث على المضمر تفسير له والسكينة الثبات والوقار يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشى وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ابن الأحنف على أن يعرضوا على النبى صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتابا فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا ما نعرف ما هذا اكتب باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة فقالوا لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت وما قاتلناك اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال صلى الله عليه وسلم اكتب ما يريدون فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا وحلموا ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ أى كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم أو محمد رسول الله وقيل كلمة التقوى هى الوفاء بالعهد والثبات عليه وإضافتها إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها أو كلمة أهلها ﴿ وكانوا أحق بها ﴾ متصفين بمزيد استحقاق لها على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقا وقيل أحق بها من الكفار ﴿ وأهلها ﴾ أى المستأهل لها ﴿ وكان الله بكل شىء عليما ﴾ فيعلم حق كل شىء فيسوقه إلى مستحقه .

إرهاص بفتح مكة

﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا ﴾ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل

خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا رؤسهم وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها فى عامهم فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبى وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت أى صدقه صلى الله عليه وسلم فى رؤياه كما فى قولهم صدقنى سن بكره وتحقيقه أراه الرؤيا الصادقة وقوله تعالى ﴿ بالحق ﴾ إما صفة لمصدر مؤكد محذوف أى صدقا ملتبسا بالحق أى بالغرض الصحيح والحكمة البالغة التى هى التمييز بين الراسخ فى الإيمان والمتزلزل فيه أو حال من الرؤيا أى ملتبسة بالحق ليست من قبيل أضغاث الأحلام وقد جوز أن يكون قسما بالحق الذى هو من أسماء الله تعالى أو بنقيض الباطل وقوله تعالى :

﴿ لتدخلن المسجد الحرام ﴾ جوابه وهو على الأولين جواب قسم محذوف أى والله لتدخلن إلخ وقوله تعالى ﴿ إن شاء الله ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد أو للإشعار بأن بعضهم لا يدخلونه لموت أو غيبة أو غير ذلك أو هى حكاية لما قاله ملك الرؤيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لما قاله عليه الصلاة والسلام لأصحابه ﴿ آمنين ﴾ حال من فاعل لتدخلن والشرط معترض وكذا قوله تعالى ﴿ محلقين رؤسكم ومقصرين ﴾ أى محلقا بعضكم ومقصرا آخرون وقيل محلقين حال من ضمير آمنين فتكون متداخلة ﴿ لا تخافون ﴾ حال مؤكدة من فاعل لتدخلن أو آمنين أو محلقين أو مقصرين أو استئناف أى لا تخافون بعد ذلك ﴿ فعلم ما لم تعلموا ﴾ عطف على صدق والمراد بعلمه تعالى العلم الفعلى المتعلق بأمر حادث بعد المعطوف عليه أى فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علما فعليا ﴿ فجعل ﴾ لأجله ﴿ من دون ذلك ﴾ أى من دون تحقق مصداق ما أراه من دخول المسجد الحرام إلخ ﴿ فتحا قريبا ﴾ وهو فتح خيبر والمراد بجعله وعده وإنجازه من غير تسويف ليستدل به على صدق الرؤيا حسبما قال ولتكون آية للمؤمنين وأما جعل ما فى قوله تعالى ما لم تعلموا عبارة عن الحكمة فى تأخير فتح مكة إلى العام

القابل كما جنح إليه الجمهور فتأباه الفاء فإن علمه تعالى بذلك متقدم على إراءة الرؤيا قطعا .

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ﴾ أى ملتبسا به أو بسببه ولأجله ﴿ ودين الحق ﴾ وبدين الإسلام ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ ليعليه على جنس الدين بجميع أفراده التى هى الأديان المختلفة بنسخ ما كان حقاً من بعض الأحكام المتبدلة بتبدل الأعصار وإظهار بطلان ما كان باطلا أو بتسليط المسلمين على أهل سائر الأديان إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون وفيه فضل تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه سبحانه سيفتح لهم من البلاد ويتيح لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة ﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ على أن ما وعده كائن لا محالة أو على نبوته عليه الصلاة والسلام بإظهار المعجزات ﴿ محمد ﴾ خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى ﴿ رسول الله ﴾ بدل أو بيان أو نعت أى ذلك الرسول المرسل بالهدى ودين الحق محمد رسول الله وقيل محمد مبتدأ رسول الله خبره والجملة مبينة للمشهود به وقوله تعالى ﴿ والذين معه ﴾ مبتدأ خبره ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وأشداء جمع شديد ورحماء جمع رحيم والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ولمن وافقهم فى الدين الرحمة والرأفة كقوله تعالى (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) وقرىء أشداء ورحماء بالنصب على المدح أو على الحال من المستكن فى معه لوقوعه صلة فالخبر حينئذ قوله تعالى ﴿ تراهم ركعاً سجدا ﴾ أى تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلوات وهو على الأول خبر آخر أو استئناف وقوله تعالى ﴿ يبتغون فضلا من الله ورضوانا ﴾ أى ثوابا ورضا إما خبر آخر أو حال من ضمير تراهم أو من المستتر فى ركعا سجدا أو استئناف مبنى على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على الركوع والسجود كأنه قيل ماذا يريدون بذلك فقيل يبتغون فضلا من الله إلخ ﴿ سيماهم ﴾ أى سمتهم وقرىء سيمياؤهم بالياء بعد الميم والمد وهما لغتان وفيها لغة ثالثة هى السيماء بالمد وهو مبتدأ خبره ﴿ فى وجوههم ﴾ أى فى جباههم

وقوله تعالى ﴿ من أثر السجود ﴾ حال من المستكن فى الجار أى من التأثير الذى يؤثره كثرة السجود وما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قوله عليه الصلاة والسلام لا تعلبوا صوركم أى لا تسموها إنما هو فيما إذا اعتمد بجبهته على الأرض ليحدث فيها تلك السمة وذلك محض رياء ونفاق والكلام فيما حدث فى جبهة السجاد الذى لا يسجد إلا خالصا لوجه الله عز وجل وكان الإمام زين العابدين وعلى بن عبد الله بن العباس رضى الله عنهما يقال لهما ذو الثفنات لما أحدثت كثرة سجودهما فى مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير قال قائلهم :

ديار على والحسين وجعفر وحمزة والسجاد ذى الثفنات

وقيل صفرة الوجه من خشية الله تعالى وقيل ندى الطهور وتراب الأرض وقيل استنارة وجوههم من طول ما صلوا بالليل قال عليه الصلاة والسلام من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وقرىء من آثار السجود ومن إثر السجود بكسر الهمزة ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نعوتهم الجليلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه وبعد منزلته فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ مثلهم ﴾ أى وصفهم العجيب الشأن الجارى فى الغرابة مجرى الأمثال وقوله تعالى ﴿ فى التوراة ﴾ حال من مثلهم والعامل معنى الإشارة وقوله تعالى ﴿ ومثلهم فى الإنجيل ﴾ عطف على مثلهم الأول كأنه قيل ذلك مثلهم فى التوراة والإنجيل وتكرير مثلهم لتأكيد غرابته وزيادة تقريرها وقوله تعالى ﴿ كزرع أخرج شطأه ﴾ الخ تمثيل مستأنف أى هم كزرع أخرج فراخه وقيل هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمة وقيل خبر لقوله تعالى ومثلهم فى الإنجيل على أن الكلام قد تم عند قوله تعالى مثلهم فى التوراة وقرىء شطأه بفتحات وقرىء شطاه بفتح الطاء وتخفيف الهمزة وشطاءه بالمد وشطه بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى ما قبلها وشطوه بقلبها واوا ﴿ فآزره ﴾ فقواه من المؤازرة بمعنى المعاونة أو من الإيزار وهى الإعانة وقرىء فأزره بالتخفيف وأزره بالتشديد أى شد أزره وقوله تعالى ﴿ فاستغلظ ﴾

فصار غليظا بعد ما كان دقيقا ﴿ فاستوى على سوقه ﴾ فاستقام على قصبه جمع ساق وقرىء سؤقه بالهمزة .

﴿ يعجب الزراع ﴾ بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره وهو مثل ضربه الله عز وجل لأصحابه عليه الصلاة والسلام قلوا فى بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوما فيوما بحيث أعجب الناس وقيل مكتوب فى الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقوله تعالى ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ علة لما يعرب عنه الكلام من تشبيههم بالزرع فى زكائه واستحكامه أو لما بعده من قوله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ فإن الكفار إذا سمعوا بما أعد للمؤمنين فى الآخرة مع مالهم فى الدنيا من العزة غاظهم ذلك أشد غيظ ومنهم للبيان . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة .

* * *

سورة الحجرات

مدنية ، وآيها ثمانى عشرة آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ تصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن مافى حيزه أمر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به ﴿ لاتقدموا ﴾ أى لا تفعلوا التقديم على أن ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل من غير اعتبار تعلقه بأمر من الأمور على طريقة قولهم فلان يعطى ويمنع أى يفعل الإعطاء والمنع أو لا تقدموا أمرا من الأمور على أن حذف المفعول للقصد إلى تعميمه والأول أوفى بحق المقام لإفادته النهى عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق البرهانى وقد جوز أن يكون التقديم بمعنى التقدم ومنه مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة ويعضده قراءة من قرأ لا تقدموا بحذف إحدى التاءين من تتقدموا من القدوم وقوله تعالى ﴿ بين يدى الله ورسوله ﴾ مستعار مما بين الجهتين المسامتتين ليدى الإنسان تهجينا لما نهوا عنه والمعنى لا تقطعوا أمرا قبل أن يحكما به وقيل المراد بين يدى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيمه والإيذان بجلالة محله عنده عز وجل قيل نزل فيما جرى بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما لدى النبى صلى الله عليه وسلم فى تأمير الأقرع بن حابس أو القعقاع بن معبد ﴿ واتقوا الله ﴾ فى كل ما تأتون وما تذرون من الأقوال والأفعال التى من جملتها ما نحن فيه ﴿ إن الله سميع ﴾ لأقوالكم ﴿ عليم ﴾ بأفعالكم فمن حقه أن يتقى ويراقب .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ﴾ شروع فى

النهى عن التجاوز فى كيفية القول عند النبى عليه الصلاة والسلام بعد النهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل وإعادة النداء مع قرب العهد به للمبالغة فى الإيقاظ والتنبيه والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه أى لا تبلغوا بأصواتكم وراء حد يبلغه عليه الصلاة والسلام بصوته وقرىء لا ترفعوا بأصواتكم على أن الباء زائدة ﴿ ولا تجهروا له بالقول ﴾ إذا كلمتموه ﴿ كجهر بعضكم لبعض ﴾ أى جهرا كائنا كالجهر الجارى فيما بينكم بل اجعلوا صوتكم أخفض من صوته عليه الصلاة والسلام وتعهدوا فى مخاطبته اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم وحافظوا على مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وقيل معنى لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض لا تقولوا له يا محمد يا أحمد وخاطبوه بالنبوة قال ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر يا رسول الله والله لا أكلمك إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله تعالى وعن عمر رضى الله عنه أنه كان يكلمه عليه الصلاة والسلام كأخى السرار لا يسمعه حتى يستفهمه وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفود أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى ﴿ أن تحبط أعمالكم ﴾ إما علة للنهى أى لا تجهروا خشية أن تحبط أو كراهة أن تحبط كما فى قوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) أو للمنهى أى لا تجهروا لأجل الحبوط فإن الجهر حيث كان بصدد الأداء إلى الحبوط فكأنه فعل لأجله على طريقة التمثيل كقوله تعالى (ليكون لهم عدوا وحزنا) وليس المراد بما نهى عنه من الرفع والجهر ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة فإن ذلك كفر بل ما يتوهم أن يؤدى إليه مما يجرى بينهم فى أثناء المحاورة من الرفع والجهر حسبما يعرب عنه قوله تعالى (كجهر بعضكم لبعض) خلا أن رفع الصوت فوق صوته عليه الصلاة والسلام لما كان منكرا محضا لم يقيد بشىء ولا ما يقع منهما فى حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو نحو ذلك وعن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس وكان فى أذنه وقر وكان

جهورى الصوت وربما كان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته وعن أنس رضى الله عنه أنه لما نزلت الآية فقد ثابت وتفقده عليه الصلاة والسلام فأخبر بشأنه فدعاه فسأله فقال يا رسول الله لقد أنزلت إليك هذه الآية وإنى رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملى قد حبط فقال له عليه الصلاة والسلام لست هناك إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة وأما ما يروى عن الحسن من أنها نزلت فى بعض المنافقين الذين كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوته عليه الصلاة والسلام فقد قيل محمله أن نهيهم مندرج تحت نهى المؤمنين بدلالة النص ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ حال من فاعل تحبط. أى والحال أنكم لا تشعرون بحبوطها وفيه مزيد تحذير مما نهوا عنه وقوله تعالى :

﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ الخ ترغيب فى الانتهاء عما نهوا عنه بعد الترهيب عن الإخلال به أى يخفضونها مراعاة للأدب أو خشية من مخالفة النهى ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لما مر مرارا من تفخيم شأنه وهو مبتدأ خبره ﴿ الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ أى جربها للتقوى ومرنها عليها أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها فإن الامتحان سبب المعرفة واللام صلة لمحذوف أو للفعل باعتبار الأصل أوضرب قلوبهم بضروب المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى فإنها لا تظهر إلا بالاصطبار عليها أو أخلصها للتقوى من امتحن الذهب إذا أذابه ومبز إبريزه من خبثه وعن عمر رضى الله عنه أذهب عنها الشهوات ﴿ لهم ﴾ فى الآخرة ﴿ مغفرة ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿ وأجر عظيم ﴾ لا يقادر قدره والجملة إما خبر آخر لأن كالجملة المصدرة باسم الإشارة أو استئناف لبيان جزائهم إحمادا لحالهم وتعريضاً بسوء حال من ليس مثلهم ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ أى من خارجها من خلفها أو قدامها ومن ابتدائية دالة على أن المناداة نشأت من جهة الوراء وأن المنادى داخل الحجرة لوجوب اختلاف المبدأ والمنتهى بحسب الجهة بخلاف ما لو قيل ينادونك وراء الحجرات وقرىء الحجرات بفتح الجيم وبسكونها

وثالثها جمع حجرة وهى القطعة من الأرض المحجورة بالحائط. ولذلك يقال لحظيرة الإبل حجرة وهى فعلة من الحجر بمعنى مفعول كالغرفة والقبضة والمراد بها حجرات أمهات المؤمنين ومناداتهم من ورائها إما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه عليه الصلاة والسلام من ورائها أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له عليه الصلاة والسلام فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك فأسند فعل الأبعاض إلى الكل وقد جوز أن يكونوا قد نادوه من وراء الحجرة التى كان عليه الصلاة والسلام فيها ولكنها جمعت إجلالا له عليه الصلاة والسلام وقيل إن الذى ناداه عيينة بن حصن الفزارى والأقرع بن حابس وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا من بنى تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا يا محمد اخرج إلينا وإنما أسند النداء إلى الكل لأنهم رضوا بذلك أو أمروا به أو لأنه وجد فيما بينهم ﴿ أكثرهم لا يعقلون ﴾ إذ لو كان لهم عقل لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ﴾ أى ولو تحقق صبرهم وانتظارهم حتى تخرج إليهم فإن «أن» وإن دلت بما فى حيزها على المصدر لكنها تفيد بنفسها التحقق والثبوت للفرق البين بين قولك بلغنى قيامك وبلغنى أنك قائم وحتى تفيد أن الصبر ينبغى أن يكون مغيا بخروجه عليه الصلاة والسلام فإنها مختصة بما هو غاية للشىء فى نفسه ولذلك تقول أكلت السمكة حتى رأسها ولا تقول حتى نصفها أو ثلثها بخلاف إلى فإنها عامة وفى إليهم إشعار بأنه لو خرج لا لأجلهم ينبغى أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم ﴿ لكان ﴾ أى الصبر المذكور ﴿ خيراً لهم ﴾ من الاستعجال لما فيه من رعاية حسن الأدب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب والاسعاف بالمسؤول إذ روى أنهم وفدوا شافعين فى أسارى بنى العنبر فأطلق النصف وفادى النصف ﴿ والله غفور رحيم ﴾ بليغ المغفرة والرحمة واسعهما فلن يضيق ساحتهما عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ أى فتعرفوا وتفحصوا روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد بن عقبة أخا عثمان رضى الله عنه

لأمه مصدقاً إلى بنى المصطلق وكان بينه و بينهم إحنة فلما سمعوا به استقبلوه فحسب أنهم مقاتلوه فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة فهم عليه الصلاة والسلام بقتالهم فنزلت وقيل بعث إليهم خالدبن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا إليه الصدقات فرجع وفى ترتيب الأمر بالتبين على فسق المخبر إشارة إلى قبول خبر الواحد العدل فى بعض المواد وقرىء فتثبتوا أى توقفوا إلى أن يتبين لكم الحال ﴿ أن تصيبوا ﴾ حذار أن تصيبوا ﴿قوما بجهالة﴾ ملتبسين بجهالة حالهم ﴿فتصبحوا﴾ بعد ظهور براءتهم عما أسند إليهم ﴿على ما فعلتم﴾ فى حقهم ﴿ نادمين ﴾ مغتمين غما لازما متمنين أنه لم يقع فإن تركيب هذه الأحرف الثلاثة يدور مع الدوام .

﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ أن بما فى حيزها ساد مسد مفعولى اعلموا باعتبار ما بعده من قوله تعالى ﴿ لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ﴾ فإنه حال من أحد الضميرين فى فيكم والمعنى أن فيكم رسول الله كائنا على حالة يجب عليكم تغييرها أو كائنين على حالة الخ وهى أنكم تريدون أن يتبع عليه الصلاة والسلام رأيكم فى كثير من الحوادث ولو فعل ذلك لوقعتم فى الجهد والهلاك وفيه إيذان بأن بعضهم زينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الإيقاع ببنى المصطلق تصديقا لقول الوليد وأنه عليه الصلاة والسلام لم يطع أمرهم وأما صيغة المضارع فقد قيل إنها للدلالة على أن امتناع عنتهم لامتناع استمرار طاعته عليه الصلاة والسلام لهم لأن عنتهم إنما يلزم من استمرار الطاعة فيما يعن لهم من الأمور إذ فيه اختلال أمر الايالة وانقلاب الرئيس مرءوسا لا من إطاعته فى بعض ما يرونه نادرا بل فيها استمالتهم بلا معرة وقيل إنها للدلالة على أن امتناع عنتهم لاستمرار امتناع طاعته عليه الصلاة والسلام لهم فى ذلك فإن المضارع المنفى قد يدل على استمرار النفى بحسب المقام كما فى نظائر قوله تعالى ولا هم يحزنون والتحقيق أن الاستمرار الذى تفيده صيغة المضارع يعتبر تارة بالنسبة إلى ما يتعلق بالفعل من الأمور الزمانية المتجددة وذلك بأن يعتبر الاستمرار فى نفس الفعل على الإبهام ثم يعتبر تعلق ما يتعلق به بيانا لما فيه الاستمرار

وأخرى بالنسبة إلى ما يتعلق به من نفس الزمان المتجدد وذلك إذا اعتبر تعلقه بما يتعلق به أولا ثم اعتبر استمراره فيتعين أن يكون ذلك بحسب الزمان فإن أريد باستمرار الطاعة استمرارها وتجددها بحسب تجدد مواقعها الكثيرة التى يفصح عنه قوله تعالى فى كثير من الأمر فالحق هو الأول ضرورة أن مدار امتناع العنت هو امتناع ذلك الاستمرار سواء كان ذلك الامتناع بعدم وقوع الطاعة فى أمر ما من تلك الأمور الكثيرة أصلا أو بعدم وقوعها فى كلها مع وقوعها فى بعض يسير منها حتى لو لم يمتنع ذلك الاستمرار بأحد الوجهين المذكورين بل وقعت الطاعة فيما ذكر من كثير من الأمر فى وقت من الأوقات وقع العنت قطعا وإن أريد به استمرار الطاعة الواقعة فى الكل وتجددها بحسب تجدد الزمان واستمراره فالحق هو الثانى فإن مناط امتناع العنت حينئذ ليس امتناع استمرار الطاعة المذكورة ضرورة أنه موجب لوقوع العنت بل هو الاستمرار الزمانى لامتناع تلك الطاعة الواقعة فى تلك الأمور الكثيرة بأحد الوجهين المذكورين حتى لو لم يستمر امتناعها بأن وقعت تلك الطاعة فى وقت وقت من الأوقات وقع العنت حتما واعلم أن الأحق بالاختيار والأولى بالاعتبار هو الوجه الأول لأنه أوفق بالقياس المقتضى لاعتبار الامتناع واردا على الاستمرار حسب ورود كلمة لو المفيدة للأول على صيغة المضارع المفيدة للثانى على أن اعتبار الاستمرار واردا على النفى على خلاف القياس بمعونة المقام إنما يصار إليه إذا تعذر الجريان على موجب القياس أو لم يكن فيه مزيد مزية كما فى قوله تعالى ولا هم يحزنون حيث حمل على استمرار نفى الحزن عنهم إذ ليس فى استمرار الحزن مزيد فائدة وأما إذا انتظم الكلام مع مراعاة موجب القياس حق الانتظام فالعدول عنه تمحل لا يخفى وقوله تعالى ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان ﴾ الخ تجريد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بطريق الاستدراك بيانا لبراءتهم عن أوصاف الأولين وإحمادا لأفعالهم أى ولكنه تعالى جعل الإيمان محبوبا لديكم ﴿وزينه فى قلوبكم ﴾ حتى رسخ حبه فيها ولذلك أتيتم بما يليق به من الأقوال والأفعال ﴿ وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ ولذلك

اجتنبتم عما يليق بها مما لا خير فيه من آثارها وأحكامها ولما كان فى التحبيب والتكريه معنى إنهاء المحبة والكراهة وإيصالها إليهم استعملا بكلمة إلى وقيل هو استدراك ببيان عذر الأولين كأنه قيل لم يكن ما صدر عنكم فى حق بنى المصطلق من خلل فى عقيدتكم بل من فرط حبكم للإيمان وكراهتكم للكفر والفسوق والعصيان والأول هو الأظهر لقوله تعالى ﴿أولئك هم الراشدون﴾ أى السالكون إلى الطريق السوى الموصل إلى الحق والالتفات إلى الغيبة كالذى فى قوله تعالى (وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون).

﴿ فضلا من الله ونعمة ﴾ أى وإنعاما تعليل لحبب أو كره وما بينهما اعتراض وقيل نصبهما بفعل مضمر أى جرى ذلك فضلا وقيل يبتغون فضلا ﴿والله عليم﴾ مبالغ فى العلم فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حكيم﴾ يفعل كل ما يفعل بموجب الحكمة ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ أى تقاتلوا والجمع باعتبار المعنى ﴿فأصلحوا بينهما﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله تعالى ﴿ فإن بغت ﴾ أى تعدت ﴿ إحداهما على الأخرى ﴾ ولم تتأثر بالنصيحة ﴿ فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء ﴾ أى ترجع ﴿إلى أمر الله﴾ إلى حكمه أو إلى ما أمر به ﴿ فإن فاءت ﴾ إليه وأقلعت عن القتال حذارا من قتالكم ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل ﴾ بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما عسى يكون بينهما قتال فى وقت آخر وتقييد الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة وقد أكد ذلك حيث قيل ﴿ وأقسطوا ﴾ أى واعدلوا فى كل ما تأتون وما تذرون ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ فيجازيهم أحسن الجزاء والآية نزلت فى قتال حدث بين الأوس والخزرج فى عهده عليه الصلاة والسلام بالسعف والنعال وفيها دلالة على أن الباغى لايخرج بالبغى عن الإيمان وأنه إذا أمسك عن الحرب ترك لأنه فىء إلى أمر الله تعالى وأنه يجب معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح والسعى فى المصالحة.

من أخلاق الإيمان

﴿ إنما المؤمنون أخوة ﴾ استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح أى أنهم منتسبون إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية والفاء فى قوله تعالى ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ للإيذان بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح ووضع المظهر مقام المضمر مضافا إلى المأمورين للمبالغة فى تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه وقيل المراد بالأخوين الأوس والخزرج وقرىء بين إخوتكم وإخوانكم ﴿ واتقوا الله ﴾ فى كل ماتأتون وما تذرون من الأمور التى من جملتها ما أمرتم به من الإصلاح ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ راجين أن ترحموا على تقواكم .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم ﴾ أى منكم ﴿ من قوم ﴾ آخرين أيضا منكم وقوله تعالى ﴿ عسى أن يكونوا خيرا منهم ﴾ تعليل للنهى أولموجبه أى عسى أن يكون المسخور منهم خيرا عند الله تعالى من الساخرين والقوم مختص بالرجال لأنهم القوام على النساء وهو فى الأصل إما جمع قائم كصوم وزور فى جمع صائم وزائر أو مصدر نعت به فشاع فى الجمع وأما تعميمه للفريقين فى مثل قوم عاد وقوم فرعون فإما للتغليب أو لأنهن توابع واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية فى المجامع والتنكير إما للتعميم أو للقصد إلى نهى بعضهم عن سخرية بعض لما أنها مما يجرى بين بعض وبعض ﴿ ولا نساء ﴾ أى ولا تسخر نساء من المؤمنات ﴿ من نساء ﴾ منهن ﴿ عسى أن يكن ﴾ أى المسخور منهن ﴿ خيرا منهن ﴾ أى من الساخرات فإن مناط الخيرية فى الفريقين ليس ما يظهر للناس من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التى عليها يدور أمر السخرية غالباً بل إنما هو الأمور الكامنة فى القلوب فلا يجترىء أحد على استحقار أحد فلعله أجمع منه لما نيط به الخيرية عند الله تعالى فيظلم

نفسه بتحقير من وقره الله تعالى والاستهانة بمن عظمه الله تعالى وقرىء عسوا أن يكونوا وعسين أن يكن فعسى حينئذ هي ذات الخبر كما فى قوله تعالى (فهل عسيتم) وأما على الأول فهى التى لا خبر لها ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ أى ولا يعب بعضكم بعضا فإن المؤمنين كنفس واحدة أو لا تفعلوا ما تلمزون به فإن من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمز نفسه واللمز الطعن باللسان وقرىء بضم الميم ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ أى ولا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء فإن النبز مختص به عرفا ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسق بعد دخولهم الإيمان أو اشتهارهم به فإن الاسم ههنا بمعنى الذكر من قولهم طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم والمراد به إما تهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين خصوصا إذروى أن الآية نزلت فى صفية بنت حيي أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن النساء يقلن لى يا يهودية بنت يهوديين فقال عليه الصلاة والسلام هلا قلت إن أبى هرون وعمى موسى وزوجى محمد عليهم السلام أو الدلالة على أن التنابز فسق والجمع بينه وبين الإيمان قبيح ﴿ ومن لم يتب ﴾ عما نهى عنه ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ أى كونوا على جانب منه وإبهام الكثير لإيجاب الاحتياط والتأمل فى كل ظن ظن حتى يعلم أنه من أى قبيل فإن من الظن ما يجب اتباعه كالظن فيما لا قاطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله تعالى ومنه ما يحرم كالظن فى الإلهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين ومنه ما يباح كالظن فى الأمور المعاشية ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ تعليل للأمر بالاجتناب أو لموجبه بطريق الاستئناف التحقيقى والإثم الذنب الذى يستحق العقوبة عليه وهمزته منقلبة من الواو كأنه يثم الأعمال أى يكسرها ﴿ ولا تجسسوا ﴾ أى ولا تبحثوا عن عورات المسلمين تفعل من الجس لما فيه من معنى الطلب كما أن التلمس بمعنى التطلب لما فى اللمس من الطلب وقد جاء بمعنى الطلب فى قوله تعالى ﴿وأنا لمسنا السماء)

وقرىء بالحاء من الحس الذى هو أثر الجس وغايته ولتقاربهما يقال للمشاعر الحواس بالحاء والجيم وفى الحديث لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ أى لا يذكر بعضكم بعضا بالسوء فى غيبته وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال أن تذكر أخاك بما يكره فإن كان فيه فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيبة إدام كلاب الناس ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ﴾ تمثيل وتصوير لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره عنه ومن حيث تعلقه بصاحبه على أفحش وجه وأشنعه طبعا وعقلا وشرعا مع مبالغات من فنون شتى الاستفهام التقريرى وإسناد الفعل إلى أحد إيذانا بأن أحدا من الأحدين لا يفعل ذلك وتعليق المحبة بما هو فى غاية الكراهة وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان وجعل المأكول أخا للآكل وميتا وإخراج تماثلها مخرج أمر بين غنى عن الإخبار به وقرىء ميتا بالتشديد وانتصابه على الحالية من اللحم وقيل من الأخ والفاء فى قوله تعالى ﴿ فكرهتموه ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من التمثيل كأنه قيل وحيث كان الأمر كما ذكر فقد كرهتموه وقرىء كرهتموه أى جبلتم على كراهته ﴿ واتقوا الله ﴾ بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما صدر عنكم من قبل .

﴿ إن الله تواب رحيم ﴾ مبالغ فى قبول التوبة وإفاضة الرحمة حيث يجعل التائب كمن لم يذنب ولا يخص ذلك بتائب دون تائب بل يعم الجميع وإن كثرت ذنوبهم روى أن رجلين من الصحابة رضى الله عنهم بعثا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغى لهما إداماً وكان أسامة على طعامه عليه الصلاة والسلام فقال ما عندى شيء فأخبرهما سلمان فقالا لو بعثنا سليمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها فلما راحا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما فقالا ما تناولنا لحما فقال عليه الصلاة والسلام إنكما قد اغتبتما فنزلت ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ من آدم وحواء أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء فى ذلك فلا وجه

للتفاخر بالنسب وقد جوز أن يكون تأكيدا للنهى السابق بتقرير الأخوة المانعة من الاغتياب ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل ﴾ الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون والبطن يجمع الأفخاذ والفخذ يجمع الفصائل فخزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصى بطن وهاشم فخذ والعباس فصيلة وقيل الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب ﴿ لتعارفوا ﴾ ليعرف بعضكم بعضا بحسب الأنساب فلا يعتزى أحد إلى غير آبائه لا لتتفاخروا بالآباء والقبائل وتدعوا التفاوت والتفاضل فى الأنساب وقرىء تتعارفوا على الأصل ولتعارفوا بالإدغام ولتعرفوا ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ تعليل للنهى عن التفاخر بالأنساب المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف التحقيقى كأنه قيل إن الأكرم عنده تعالى هو الأتقى فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى وقرىء بأن المفتوحة على حذف لام التعليل كأنه قيل لم لا نتفاخر بالأنساب فقيل لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم فإن مدار كمال النفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بالتقوى قال عليه الصلاة والسلام من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله وقال عليه الصلاة والسلام يا أيها الناس إنما الناس رجلان مؤمن تقى كريم على الله تعالى وفاجر شقى هين على الله تعالى وعن ابن عباس رضى الله عنهما كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى ﴿ إن الله عليم ﴾ بكم وبأعمالكم ﴿ خبير ﴾ ببواطن أحوالكم .

﴿ قالت الأعراب آمنا ﴾ نزلت فى نفر من بنى أسد قدموا المدينة فى سنة جدب فأظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون الصدقة ويمنون عليه عليه الصلاة والسلام ما فعلوا ﴿ قل ﴾ ردا لهم ﴿ لم تؤمنوا ﴾ إذ الإيمان هو التصديق المقارن للثقة وطمأنينة القلب ولم يحصل لكم ذلك وإلا لما مننتم على ما ذكرتم كما ينبىء عنه آخر السورة ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ فإن الإسلام انقياد ودخول فى السلم وإظهار الشهادة وترك المحاربة مشعر به وإيثار ما عليه

النظم الكريم على أن يقال لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا أو لم تؤمنوا ولكن أسلمتم للاحتراز من النهى عن التلفظ بالإيمان وللتفادى عن إخراج قولهم مخرج التسليم والاعتداد به مع كونه تقولا محضا ﴿ ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ﴾ حال من ضمير قولوا أى ولكن قولوا أسلمنا حال عدم مواطأة قلوبكم لألسنتكم وما فى لما من معنى التوقع مشعر بأن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ﴿ إن تطيعوا الله ورسوله ﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿ لا يلتكم من أعمالكم ﴾ لا ينقصكم ﴿ شيئاً ﴾ من أجورها من لات يليت ليتا إذا نقص وقرىء لا يألتكم من الألت وهى لغة غطفان أو شيئاً من النقص ﴿ إن الله غفور ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿ رحيم ﴾ بالتفضل عليهم ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ لم يشكوا من ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه فى الشك مع التهمة وفيه إشارة إلى أن فيهم ما يوجب نفى الايمان عنهم وثم للإشعار بأن اشتراط عدم الارتياب فى اعتبار الإيمان ليس فى حال إنشائه فقط بل وفيما يستقبل فهى كما فى قوله تعالى ثم استقاموا ﴿ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾ فى طاعته على تكثر فنونها[1] من العبادات البدنية المحضة والمالية الصرفة والمشتملة عليهما معا كالحج والجهاد ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف الجميلة ﴿ هم الصادقون ﴾ أى الذين صدقوا فى دعوى الإيمان لاغيرهم روى أنه لما نزلت الآية جاءوا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون فنزل لتكذيبهم قوله تعالى ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم ﴾ أى أتخبرونه بذلك بقولكم آمنا والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم ﴿ والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ حال من مفعول تعلمون مؤكدة لتشنيعهم ، وقوله تعالى ﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ تذييل مقرر لما قبله أى مبالغ فى العلم بجميع الأشياء التى من جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان وفيه مزيد تجهيل وتوبيخ لهم ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ أى يعدون إسلامهم منه عليك وهى

---

(١) فى ١١ : على كثرة فنونها

النعمة التى لا يطلب موليها ثوابا ممن أنعم بها عليه من المن بمعنى القطع لأن المقصود بها قطع حاجته وقيل النعمة الثقيلة من المن ﴿قل لا تمنوا على إسلامكم﴾ أى لا تعدوا إسلامكم منة على أو لا تمنوا على بإسلامكم فنصب بنزع الخافض ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ﴾ على ما زعمتم مع أن الهداية لا تستلزم الاهتداء وقرىء إن هداكم وإذ هداكم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى ادعاء الإيمان وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله أى فلله المنة عليكم وفى سياق النظم الكريم من اللطف مالا يخفى فانهم لما سموا ماصدر عنهم إيمانا ومنوا به فنفى كونه إيمانا وسمى إسلاما قيل يمنون عليك بما هو فى الحقيقة إسلام وليس بجدير بالمن بل لو صح ادعاؤهم للإيمان فلله المنة عليهم بالهداية إليه لا لهم ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض ﴾ أى ما غاب فيهما ﴿ والله بصير بما تعملون ﴾ فى سركم وعلانيتكم فكيف يخفى عليه ما فى ضمائركم وقرىء بالياء . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحجرات أعطى من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه .

* * *

سورة ق

مكية ، وهى خمس وأربعون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ أى ذى المجد والشرف على سائر الكتب أو لأنه كلام المجيد أو لأن من علم معانيه وعمل بما فيه مجد عند الله تعالى وعند الناس والكلام فيه كالذى فصل فى مطلع سورة ص وقوله تعالى ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ أى لأن جاءهم منذر من جنسهم لا من جنس الملك أو من جلدتهم إضراب عما ينبىء عنه جواب القسم المحذوف كأنه قيل والقرآن المجيد أنزلناه إليك لتنذر به الناس حسبما ورد فى صدر سورة الأعراف كأنه قيل بعد ذلك لم يؤمنوا به بل جعلوا كلا من المنذر والمنذر به عرضة للنكير والتعجيب مع كونهما أوفق شىء لقضية العقول وأقربه إلى التلقى بالقبول وقيل التقدير والقرآن المجيد إنك لمنذر ثم قيل بعده إنهم شكوا فيه ثم أضرب عنه وقيل بل عجبوا أى لم يكتفوا بالشك والرد بل جزموا بالخلاف حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة وقيل هو إضراب عما يفهم من وصف القرآن بالمجيد كأنه قيل ليس سبب امتناعهم من الإيمان بالقرآن أنه لا مجد له ولكن لجهلهم ﴿ فقال الكافرون هذا شىء عجيب ﴾ تفسير لتعجبهم وبيان لكونه مقارنا لغاية الإنكار مع زيادة تفصيل لمحل التعجب وهذا إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذرا بالقرآن وإضمارهم أولا للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم وإظهارهم ثانيا للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه أو عطف لتعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة على أن هذا إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من الجملة الإنكارية ووضع المظهر موضع المضمر(١) إما لسبق اتصافهم بما يوجب كفرهم وإما للإيذان

(١) فى ١١٠ : الظاهر موضع الضمير

بأن تعجبهم من البعث لدلالته على استقصارهم لقدرة الله سبحانه عنه مع معاينتهم لقدرته تعالى على ما هو أشق منه فى قياس العقل من مصنوعاته البديعة أشنع من الأول وأعرق فى كونه كفرا .

﴿ أئذامتنا وكنا ترابا ﴾ تقرير للتعجب وتأكيد للإنكار والعامل فى إذا مضمر غنى عن البيان لغاية شهرته مع دلالة ما بعده عليه أى أحين نموت ونصير ترابا نرجع كما ينطق به النذير والمنذر به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذ وقرىء إذا متنا على لفظ الخبر أو على حذف أداة الإنكار ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى محل النزاع ﴿ رجع بعيد ﴾ أى عن الأوهام أو العادة أو الإمكان وقيل الرجع بمعنى المرجوع الذى هو الجواب فناصب الظرف حينئذ ما ينبىء عنه المنذر من البعث ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ رد لاستبعادهم وإزاحة له فإن من عم علمه ولطف حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكل من لحومهم وعظامهم كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا عن النبى صلى الله عليه وسلم كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب وقيل ما تنقص الأرض منهم ما يموت فيدفن فى الأرض منهم ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ حافظ لتفاصيل الأشياء كلها أو محفوظ من التغير والمراد إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها بعلم من عنده كتاب محيط يتلقى منه كل شىء أو تأكيد لعلمه تعالى بها بثبوتها فى اللوح المحفوظ عنده ﴿ بل كذبوا بالحق ﴾ إضراب وانتقال من بيان شناعتهم السابقة إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع وهو تكذيبهم للنبوة الثابتة بالمعجزات الباهرة ﴿ لما جاءهم ﴾ من غير تأمل وتفكر وقرىء لما جاءهم بالكسر على أن اللام للتوقيت أى وقت مجيئه إياهم وقيل الحق القرآن أو الإخبار بالبعث ﴿ فهم فى أمر مريج ﴾ أى مضطرب لا قرار له من مرج الخاتم فى أصبعه حيث يقولون تارة إنه شاعر وتارة ساحر وأخرى كاهن ﴿ أفلم ينظروا ﴾ أى أغفلوا أو أعموا فلم ينظروا ﴿ إلى السماء فوقهم ﴾ بحيث يشاهدونها كل وقت ﴿ كيف بنيناها ﴾ أى رفعناها بغير عمد ﴿ وزيناها ﴾ بما فيها من الكواكب المرتبة على نظام بديع ﴿ وما لها من فروج ﴾ من فتوق لملاستها

وسلامتها من كل عيب وخلل ولعل تأخير هذا لمراعاة الفواصل ﴿ والأرض مددناها ﴾ أى بسطناها ﴿ وألقينا فيها رواسى ﴾ جبالا ثوابت من رسا الشيء إذا ثبت والتعبير عنها بهذا الوصف للإيذان بأن إلقاءها بإرساء الأرض بها ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج ﴾ من كل صنف ﴿ بهيج ﴾ حسن .

﴿ تبصرة وذكرى ﴾ علتان للأفعال المذكورة معنى وإن انتصبتا بالفعل الأخير أو لفعل مقدر بطريق الاستئناف أى فعلنا ما فعلنا تبصيرا وتذكيرا ﴿ لكل عبد منيب ﴾ أى راجع إلى ربه متفكر فى بدائع صنائعه وقوله تعالى ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركا ﴾ أى كثير المنافع شروع فى بيان كيفية إنبات ما ذكر من كل زوج بهيج وهو عطف على أنبتنا وما بينهما على الوجه الأخير اعتراض مقرر لما قبله ومنبه على ما بعده ﴿ فأنبتنا به ﴾ أى بذلك الماء ﴿ جنات ﴾ كثيرة أى أشجارا ذوات ثمار ﴿ وحب الحصيد ﴾ أى حب الزرع الذى شأنه أن يحصد من البر والشعير وأمثالها وتخصيص إنبات حبه بالذكر لأنه المقصود بالذات ﴿ والنخل ﴾ عطف على جنات وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فى الجنات لبيان فضلها على سائر الأشجار وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية مع ما فيه من مراعاة الفواصل ﴿ باسقات ﴾ أى طوالا أو حوامل من أبسقت الشاة إذا حملت فيكون من باب أفعل فهو فاعل وقرىء باصقات لأجل القاف ﴿ لها طلع نضيد ﴾ أى منضود بعضه فوق بعض والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر والجملة حال من النخل كباسقات بطريق الترادف أو من ضميرها فى باسقات على التداخل أو الحال هو الجار والمجرور وطلع مرتفع به على الفاعلية وقوله تعالى :

﴿ رزقا للعباد ﴾ أى لنرزقهم علة لقوله تعالى فأنبتنا وفى تعليله بذلك بعد تعليل أنبتنا الأول بالتبصرة والتذكير تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكر والاستبصار أهم وأقدم من تمتعه به من حيث الرزق وقيل رزقا مصدر من معنى أنبتنا لأن الإنبات رزق ﴿ وأحيينا به ﴾ أي بذلك الماء ﴿ بلدة ميتا ﴾ أرضا جدبة لا نماء فيها أصلا بأن جعلناها بحيث

ربت وأنبتت أنواع النبات والأزهار فصارت تهتز بها بعد ما كانت جامدة هامدة وتذكير ميتا لأن البلدة بمعنى البلد والمكان ﴿ كذلك الخروج ﴾ جملة قدم فيها الخبر للقصد إلى القصر وذلك إشارة إلى الحياة المستفادة من الأحياء وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبتها أى مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور لا شيء مخالف لها وفى التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء وعن حياة الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس وقوله تعالى :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ إلخ استئناف وارد لتقرير حقية البعث ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم السلام عليها وتعذيب منكريها ﴿ وأصحاب الرس ﴾ قيل هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام وقيل وقيل كما مر فى سورة الفرقان على التفصيل ﴿ وثمود وعاد وفرعون ﴾ أى هو وقومه ليلائم ما قبله وما بعده ﴿ وإخوان لوط ﴾ قيل كانوا من أصهاره عليه الصلاة والسلام ﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين ﴿ وقوم تبع ﴾ سبق شرح حالهم فى سورة الدخان ﴿ كل كذب الرسل ﴾ أى فيما أرسلوا به من الشرائع التى من جملتها البعث الذى أجمعوا عليه قاطبة أى كل قوم من الأقوام المذكورين كذبوا رسولهم أو كذب جميعهم جميع الرسل بالمعنى المذكور وأفراد الضمير باعتبار لفظ الكل أو كل واحد منهم كذب جميع الرسل لاتفاقهم على الدعوة إلى التوحيد والإنذار بالبعث والحشر فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل وهذا على تقدير رسالة تبع ظاهر وأما على تقدير عدمها وهو الأظهر فمعنى تكذيب قومه الرسل تكذيبهم بمن قبلهم من الرسل المجمعين على التوحيد والبعث وإلى ذلك كان يدعوهم تبع ﴿ فحق وعيد ﴾ أى فوجب وحل عليهم وعيدى وهى كلمة العذاب وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم .

﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ استئناف مقرر لصحة البعث الذى حكيت

أحوال المنكرين له من الأمم المهلكة والعى بالأمر العجز عنه يقال عى بالأمر وعى به إذا لم يهتد لوجه عمله والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ينبىء عنه العى من القصد والمباشرة كأنه قيل أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة ﴿ بل هم فى لبس من خلق جديد ﴾ عطف على مقدر يدل عليه ما قبله كأنه قيل هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول بل هم فى خلط وشبهة فى خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة وتنكير خلق لتفخيم شأنه والإشعار بخروجه عن حدود العادات والإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه ويهتم بمعرفته .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ﴾ أى ما تحدثه به نفسه وهو ما يخطر بالبال والوسوسة الصوت الخفى ومنه وسواس الحلى والضمير لما إن جعلت موصولة والباء كما فى صوت بكذا أو للإنسان إن جعلت مصدرية والباء للتعدية ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ أى أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد عبر عن قرب العلم بقرب الذات تجوزا لأنه موجب له وحبل الوريد مثل فى فرط القرب والحبل العرق وإضافته بيانية والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمها متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه وقيل سمى وريدا لأن الروح ترده ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ منصوب بما فى أقرب من معنى الفعل والمعنى أنه لطيف يتوصل علمه إلى مالاشىء أخفى منه وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى ويتلقن الحفيظان ما يتلفظ به وفيه إيذان بأنه تعالى غنى عن استحفاظهما لإحاطة علمه بما يخفى عليهما وإنما ذلك لما فى كتبتهما وحفظهما لأعمال العبد وعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطته تعالى بتفاصيل أحواله خبرا من زيادة لطف له فى الكف عن السيئات والرغبة فى الحسنات وعنه عليه الصلاة والسلام إن مقعد ملكيك على ثنيتيك ولسانك قلمهما وريقك مدادهما وأنت تجرى فيما لا يعنيك لا تستحى من الله ولا منهما وقد جوز أن يكون تلقى الملكين بيانا للقرب على معنى إنا أقرب إليه مطلعون على أعماله لأن حفظتنا

وكتبتنا موكلون به ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ أي عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد أي مقاعد كالجليس بمعنى المجالس لفظا ومعنى فحذف الأول لدلالة الثانى عليه كما فى قول من قال :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى بريئا ومن أجل الطوى رمانى

وقيل يطلق الفعيل على الواحد والمتعدد كما فى قوله تعالى (والملائكة بعد ذلك ظهير) ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ ما يرمى به من فيه من خير أو شر وقرىء ما يلفظ على البناء للمفعول ﴿ إلا لديه رقيب ﴾ ملك يرقب قوله ويكتبه فإن كان خيرا فهو صاحب اليمين بعينه وإلا فهو صاحب الشمال ووجه تغيير العنوان غنى عن البيان والإفراد مع وقوفهما معاً على ما صدر عنه لما أن كلا منهما رقيب لما فوض إليه لا لما فوض إلى صاحبه كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ عتيد ﴾ أى معد مهيأ لكتابة ما أمر به من الخير أو الشر ومن لم يتنبه له توهم أن معناه رقيبان عتيدان وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم فى الفعل بدلالة النص واختلف فيما يكتبانه فقيل يكتبان كل شىء حتى أنينه فى مرضه وقيل إنما يكتبان ما فيه أجر أو وزر وهو الأظهر كما ينبىء عنه قوله صلى الله عليه وسلم كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر .

﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ بعد ما ذكر استبعادهم للبعث والجزاء وأزيح ذلك بتحقيق قدرته تعالى وعلمه وبين أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم أتبع ذلك ببيان ما يلاقونه لا محالة من الموت والبعث وما يتفرع عليه من الأحوال والأهوال وقد عبر عن وقوع كل منها بصيغة الماضى إيذانا بتحققها وغاية اقترابها وسكرة الموت شدته الذاهبة بالعقل والباء إما للتعدية كما فى قولك جاء الرسول بالخبر والمعنى أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذى نطقت به كتب الله ورسله أو حقيقة الأمر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته وقيل الحق الذى لابد أن يكون لا محالة من الموت أو الجزاء فإن

الإنسان خلق له وأما للملابسة كالتى فى قوله تعالى (تنبت بالدهن) أى ملتبسة بالحق أى بحقيقة الأمر أو بالحكمة والغاية الجميلة وقرىء سكرة الحق بالموت والمعنى أنها السكرة التى كتبت على الإنسان بموجب الحكمة وأنها لشدتها توجب زهوق الروح أو تستعقبه وقيل الباء بمعنى مع وقيل سكرة الحق سكرة الله تعالى على أن الإضافة للتهويل وقرىء سكرات الموت ﴿ذلك﴾ أى الموت ﴿ما كنت منه تحيد﴾ أى تميل وتنفر عنه والخطاب للإنسان فإن النفرة عنه شاملة لكل فرد من أفراده طبعاً ﴿ونفخ فى الصور﴾ هى النفخة الثانية ﴿ذلك﴾ أى وقت ذلك النفخ على حذف المضاف ﴿يوم الوعيد﴾ أى يوم إنجاز الوعيد الواقع فى الدنيا أى يوم وقوع الوعيد على أنه عبارة عن العذاب الموعود وقيل ذلك إشارة إلى الزمان المفهوم من نفخ فإن الفعل كما يدل على الحدث يدل على الزمان وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنه يوم الوعد أيضا لتهويله ولذلك بدىء ببيان حال الكفرة .

﴿وجاءت كل نفس﴾ من النفوس البرة والفاجرة ﴿معها سائق وشهيد﴾ وإن اختلفت كيفية السوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملا أى معها ملكان أحدهما يسوقها إلى المحشر والآخر يشهد بعملها أو ملك جامع بين الوصفين كأنه قيل معها ملك يسوقها ويشهد عليها وقيل السائق كاتب السيئات والشهيد كاتب الحسنات وقيل السائق نفسه أو قرينه والشهيد جوارحه أو أعماله ومحل معها النصب على الحالية من كل لإضافته إلى ما هو فى حكم المعرفة كأنه قيل كل النفوس أو الجر على أنه وصف لنفس أو الرفع على أنه وصف لكل وقوله تعالى :

﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾ محكى بإضمار قول هو إما صفة أخرى لنفس أو حال أخرى منها أو استئناف مبنى على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل فماذا يفعل بها فقيل يقال لقد كنت فى غفلة إلخ وخطاب الكل بذلك لما أنه ما من أحد إلا وله غفلة ما عن الآخرة[1] وقيل الخطاب للكافر وقرىء كنت

---

(١) فى ط : من الآخرة

بكسر التاء على اعتبار تأنيث النفس والتذكير على القراءة المشهورة بتأويل الشخص كما فى قول جبلة بن حريث :

يا نفس إنك باللذات مسرور فاذكر فهل ينفعك اليوم تذكير

﴿ فكشفنا عنك غطاءك ﴾ الغطاء الحجاب المغطى لأمور المعاد وهو الغفلة والانهماك فى المحسوسات والألف بها وقصر النظر عليها ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ نافذ لزوال المانع للإبصار وقرىء بكسر الكاف فى المواضع الثلاثة ﴿ وقال قرينه ﴾ أى الشيطان المقيض له مشيرا إليه ﴿ هذا ما لدى عتيد ﴾ أى هذا ما عندى وفى ملكتى عتيد لجهنم قد هيأته لها باغوائى وإضلالى وقيل قال الملك الموكل به مشيرا إلى ما معه من كتاب عمله هذا مكتوب عندى عتيد مهيأ للعرض وما إن جعلت موصوفة فعتيد صفتها وإن جعلت موصولة فهى بدل منها أو خبر بعد خبر أو خبر لمبتدأ محذوف ﴿ ألقيا فى جهنم كل كفار ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار أو لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره كقول من قال :

فإن تزجرانى يا ابن عفان أنزجر وإن تدعانى أحم عرضا ممنعا

أو على أن الألف بدل من نون التأكيد على إجراء الوصل مجرى الوقف ويؤيده أنه قرىء ألقين بالنون الخفيفة ﴿ عنيد ﴾ معاند للحق ﴿ مناع للخير ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة وقيل المراد بالخير الإسلام فإن الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة لما منع بنى أخيه منه ﴿ معتد ﴾ ظالم متخط للحق ﴿ مريب ﴾ شاك فى الله وفى دينه ﴿ الذى جعل مع الله إلها آخر ﴾ مبتدأ متضمن لمعنى الشرط خبره ﴿ فألقياه فى العذاب الشديد ﴾ أو بدل من كل كفار وقوله تعالى فألقياه تكرير للتوكيد أو مفعول لمضمر يفسره فألقياه ﴿ قال قرينه ﴾ أى الشيطان المقيض له وإنما استؤنف استئناف الجمل الواقعة فى حكاية المقاولة لما أنه جواب لمحذوف دل عليه قوله تعالى ﴿ ربنا ما أطغيته ﴾ فإنه منبىء عن سابقة كلام اعتذر به الكافر كأنه قال هو أطغانى فأجاب قرينه بتكذيبه وإسناد الطغيان إليه بخلاف الجملة الأولى فإنها واجبة العطف على ما قبلها دلالة

على أن الجمع بين مفهوميهما فى الحصول أعنى مجىء كل نفس مع الملكين وقول قرينه ﴿ ولكن كان ﴾ هو بالذات ﴿ فى ضلال بعيد ﴾ من الحق فأعنته عليه بالإغواء والدعوة إليه من غير قسر وإلجاء كما فى قوله تعالى (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) :

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل فماذا قال الله تعالى فقيل قال ﴿ لا تختصموا لدى ﴾ أى فى موقف الحساب والجزاء إذ لا فائدة فى ذلك ﴿ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾ على الطغيان فى دار الكسب فى كتبى وعلى ألسنة رسلى فلا تطمعوا فى الخلاص عنه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة والجملة حال فيها تعليل للنهى على معنى لا تختصموا وقد صح عندكم أنى قدمت إليكم بالوعيد حيث قلت لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) فاتبعتموه معرضين عن الحق فلا وجه للاختصام فى هذا الوقت والباء مزيدة أو معدية على أن قدم بمعنى تقدم وقد جوز أن يكون قدمت واقعاً على قوله تعالى ﴿ ما يبدل القول لدى ﴾ الخ ويكون بالوعيد متعلقاً بمحذوف هو حال من المفعول أو الفاعل أى وقد قدمت إليكم هذا القول ملتبسا بالوعيد مقترنا به أو قدمته إليكم موعدا لكم به فلا تطمعوا أن أبدل وعيدى والعفو عن بعض المذنبين لأسباب داعية إليه ليس بتبديل فإن دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد وقوله تعالى ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ وارد لتحقيق الحق على الوجه الكلى وتبيين أن عدم تبديل القول وتحقيق موجب الوعيد ليس من جهته تعالى من غير استحقاق له منهم بل إنما ذلك بما صدر عنهم من الجنايات الموجبة له حسبما أشير إليه آنفا أى وما أنا بمعذب للعبيد بغير ذنب من قبلهم والتعبير عنه بالظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما مفرطاً لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم وقيل هى لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده على أنها مبالغة كما لا كيفا ﴿ يوم نقول

لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ سؤال وجواب جيء بهما على منهاج التمثيل والتخييل لتهويل أمرها والمعنى أنها مع اتساعها وتباعد أقطارها تطرح فيها من الجنة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلىء أو أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد محل فارغ أو أنها لغيظها على العصاة تطلب زيادتهم وقرىء يقول بالياء والمزيد إما مصدر كالمحيد والمجيد أو مفعول كالمبيع ويوم إما منصوب باذكر أو أنذر أو ظرف لنفخ فيكون ذلك حينئذ إشارة إليه من غير حاجة إلى تقدير مضاف أو لمقدر مؤخر أى يكون من الأحوال والأهوال ما يقصر عنه المقال ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ شروع فى بيان حال المؤمنين بعد النفخ ومجيء النفوس إلى موقف الحساب وقد مر سر تقديم بيان حال الكفرة عليه وهو عطف على نفخ أى قربت للمتقين عن الكفر والمعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم محشورون إليها فائزون بها وقوله تعالى ﴿ غير بعيد ﴾ تأكيد للإزلاف أى مكانا غير بعيد بحيث يشاهدونها أو حال كونها غير بعيد أى شيئاً غير بعيد ويجوز أن يكون التذكير لكونه على زنة المصدر الذى يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث أو لتأويل الجنة بالبستان .

﴿ هذا ما توعدون ﴾ إشارة إلى الجنة والتذكير لما أن المشار إليه هو المسمى من غير أن يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فإنهما من أحكام اللفظ العربى كما مر فى قوله تعالى (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى) وقوله تعالى (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله) ويجوز أن يكون ذلك لتذكير الخبر وقيل هو إشارة إلى الثواب وقيل إلى مصدر أزلفت وقرىء يوعدون والجملة إما اعتراض بين البدل والمبدل منه وإما مقدر بقول هو حال من المتقين أو من الجنة والعامل أزلفت أى مقولا لهم أو مقولا فى حقها هذا ما توعدون ﴿ لكل أواب ﴾ أى رجاع إلى الله تعالى بدل من المتقين بإعادة الجار ﴿ حفيظ ﴾ حافظ لتوبته من النقض وقيل هو الذى يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها وقيل هو الحافظ لأوامر الله تعالى

وقيل لما استودعه الله تعالى من حقوقه ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ بدل بعد بدل أو بدل من موصوف أواب ولا يجوز أن يكون فى حكمه لأن من لا يوصف به ولا يوصف إلا بالذى أو مبتدأ خبره ﴿ ادخلوها ﴾ بتأويل يقال لهم ادخلوها والجمع باعتبار معنى من وقوله تعالى بالغيب متعلق بمحذوف هو حال من فاعل خشى أو مفعوله أو صفة لمصدره أى خشية ملتبسة بالغيب حيث خشى عقابه وهو غائب عنه أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد والتعرض لعنوان الرحمانية للإشارة بأنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته أو بأن علمهم بسعة رحمته تعالى لا يصدهم عن خشيته تعالى وأنهم عاملون بموجب قوله تعالى (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) ووصف القلب بالإنابة لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى ﴿ بسلام ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ادخلوها أى ملتبسين بسلامة من العذاب وزوال النعم أو بسلام من جهة الله تعالى وملائكته ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الزمان الممتد الذى وقع فى بعض منه ما ذكر من الأمور ﴿ يوم الخلود ﴾ إذ لا انتهاء له أبدا .

﴿ لهم ما يشاءون ﴾ من فنون المطالب كائنا ما كان ﴿ فيها ﴾ متعلق بيشاءون وقيل بمحذوف هو حال من الموصول أو من عائده المحذوف من صلته ﴿ ولدينا مزيد ﴾ هو ما لا يخطر ببالهم ولا يندرج تحت مشيئتهم من معالى الكرامات التى لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقيل إن السحاب تمر بأهل الجنة فتمطرهم الحور فتقول نحن المزيد الذى قال تعالى ولدينا مزيد ﴿ وكم أهلكنا قبلهم ﴾ أى قبل قومك ﴿ من قرن هم أشد منهم بطشا ﴾ أى قوة كعاد وأضرابها ﴿ فنقبوا فى البلاد ﴾ أى خرقوا فيها ودوخوا وتصرفوا فى أقطارها أو جالوا فى أكناف الأرض كل مجال حذار الموت وأصل التنقيب والنقب التنقير عن الأمر والبحث والطلب والفاء للدلالة على أن شدة بطشهم أقدرتهم على التنقيب قيل هى عاطفة فى المعنى كأنه قيل اشتد بطشهم فنقبوا الخ

وقرىء بالتخفيف ﴿ هل من محيص ﴾ أى هل لهم من مخلص من أمر الله تعالى والجملة إما على إضمار قول هو حال من واو نقبوا أى فنقبوا فى البلاد قائلين هل من محيص أو على إجراء التنقيب لما فيه من معنى التتبع والتفتيش مجرى القول أو هو كلام مستأنف وارد لنفى أن يكون لهم محيص وقيل ضمير نقبوا لأهل مكة أى ساروا فى مسايرهم وأسفارهم فى بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصا حتى يؤملوا مثله لأنفسهم ويعضده القراءة على صيغة الأمر وقرىء فنقبوا بكسر القاف من النقب وهو أن ينتقب خف البعير أى أكثروا السير حتى نقبت أقدامهم أو أخفاف إبلهم ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فيما ذكر من قصتهم وقيل فيما ذكر من قصتهم وقيل فيما ذكر فى السورة ﴿ لذكرى ﴾ لتذكرة وعظة ﴿ لمن كان له قلب ﴾ أى قلب سليم يدرك به كنه ما يشاهده من الأمور ويتفكر فيها كما ينبغى فإن من كان له ذلك يعلم أن مدار دمارهم هو الكفر فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير ﴿ أو ألقى السمع ﴾ أى إلى ما يتلى عليه من الوحى الناطق بما جرى عليهم فإن من فعله يقف على جلية الأمر فينزجر عما يؤدى إليه من الكفر فكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع فإن إلقاء السمع لا يجدى بدون سلامة القلب كما يلوح به قوله تعالى ﴿ وهو شهيد ﴾ أى حاضر بفطنته لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب وتجريد القلب عما ذكر من الصفات للإيذان بأن من عرى قلبه عنها كمن لا قلب له أصلا .

﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما ﴾ من أصناف المخلوقات ﴿ فى ستة أيام وما مسنا ﴾ بذلك مع كونه مما لا يفى به القوى والقدر ﴿ من لغوب ﴾ من إعياء ما ولا تعب فى الجملة وهذا رد على جهلة اليهود فى زعمهم أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أى ما يقوله المشركون فى شأن البعث من الأباطيل المبنية على الإنكار والاستبعاد فإن من فعل هذه الأفاعيل بلافتور قادر على بعثهم والانتقام منهم أو ما يقوله اليهود من مقالات الكفر والتشبيه ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾

أي نزهه تعالى عن العجز عما يمكن وعن وقوع الخلف فى أخباره التى من جملتها الإخبار بوقوع البعث وعن وصفه تعالى بما يوجب التشبيه حامداً له تعالى على ما أنعم به عليك من إصابة الحق وغيرها ﴿قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ هما وقت الفجر والعصر وفضيلتهما مشهورة ﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ وسبحه بعض الليل ﴿ وأدبار السجود ﴾ وأعقاب الصلوات جمع دبر وقرىء بالكسر من أدبرت الصلاة إذا انقضت وتمت ومعناه وقت انقضاء السجود وقيل المراد بالتسبيح الصلوات فالمراد بما قبل الطلوع صلاة الفجر وبما قبل الغروب الظهر والعصر وبما من الليل العشاءان والتهجد وما يصلى بأدبار السجود النوافل بعد المكتوبات ﴿ واستمع ﴾ أى لما يوحى إليك من أحوال القيامة وفيه تهويل وتفظيع للمخبر به ﴿ يوم ينادى المنادى ﴾ أى إسرافيل أو جبريل عليهما السلام فيقول أيتها العظام البالية واللحوم المتمزقة[1] والشعور المتفرقة[2] إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى بالحشر ﴿ من مكان قريب ﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء وقيل من صخرة بيت المقدس وقيل من تحت أقدامهم وقيل من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة ولعل ذلك فى الإعادة مثل كن فى البدء .

﴿ يوم يسمعون الصيحة ﴾ بدل من يوم ينادى الخ وهى النفخة الثانية ﴿ بالحق ﴾ متعلق بالصيحة والعامل فى الظرف ما يدل عليه قوله تعالى ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ أى يوم يسمعون الصيحة ملتبسة بالحق الذى هو البعث يخرجون من القبور ﴿ إنا نحن نحيي ونميت ﴾ فى الدنيا من غير أن يشاركنا فى ذلك أحد ﴿ وإلينا المصير ﴾ للجزاء فى الآخرة لا إلى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم ﴾ بحذف إحدى التاءين من تتشقق وقرىء بتشديد الشين وتشقق على البناء للمفعول من التفعيل وتنشق ﴿ سراعا ﴾ مسرعين ﴿ ذلك حشر ﴾ بعث وجمع وسوق ﴿ علينا يسير ﴾ أى هين وتقديم الجار والمجرور

(١) فى ١١ : الممزقة . (٢) في ١٠١ المفرقة

لتخصيص اليسر به تعالى ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ من نفى البعث وتكذيب الآيات الناطقة به وغير ذلك مما لا خير فيه ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ بمتسلط تقسرهم على الإيمان أو تفعل بهم ما تريد وإنما أنت مذكر ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ وأما من عداهم فنحن نفعل بهم ما توجبه أقوالهم وتستدعيه أعمالهم من ألوان العقاب وفنون العذاب . عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة ق هون الله عليه تارات الموت وسكراته .

* * *

سورة الذاريات

مكية ، وآيها ستون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والذاريات ذروا ﴾ أى الرياح التى تذرو التراب وغيره وقرىء بإدغام التاء فى الذال ﴿ فالحاملات وقرا ﴾ أى السحب الحاملة للمطر أو الرياح الحاملة للسحاب وقرىء وقرا على تسمية المحمول بالمصدر ﴿ فالجاريات يسرا ﴾ أى السفن الجارية فى البحر أو الرياح الجارية فى مهابها أو السحب الجارية فى الجو بسوق الرياح أو الكواكب الجارية فى مجاريها ومنازلها ويسرا صفة لمصدر محذوف أى جريا ذا يسر ﴿ فالمقسمات أمرا ﴾ أى الملائكة التى تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها أو السحب التى يقسم الله تعالى بها أرزاق العباد وقد جوز أن يراد بالكل الرياح تنزيلا لاختلاف العنوان منزلة اختلاف الذات فإنها كما تذرو ما تذروه تثير السحاب وتحمله وتجرى فى الجو جريا سهلا وتقسم الأمطار بتصريف السحاب فى الأقطار فإن حملت الأمور المقسم بها على ذوات مختلفة فالفاء لترتيب الإقسام باعتبار ما بينها من التفاوت فى الدلالة على كمال القدرة وإلا فهى لترتيب ما صدر عن الريح من الأفاعيل فإنها تذرو الأبخرة إلى الجو حتى تنعقد سحابا فتجرى به باسطة له إلى ما أمرت به فتقسم المطر وقوله

تعالى ﴿ إن ما توعدون لصادق وإن الدين لواقع ﴾ جواب للقسم وفى تخصيص الأمور المذكورة بالإقسام بها رمز إلى شهادتها بتحقق مضمون الجملة المقسم عليها من حيث أنها أمور بديعة مخالفة لمقتضى الطبيعة فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود وما موصولة أو مصدرية ووصف الوعد بالصدق كوصف العيشة بالرضا والدين الجزاء ووقوعه حصوله ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ قال ابن عباس وقتادة وعكرمة ذات الخلق المستوى وقال سعيد بن جبير ذات الزينة وقال مجاهد هى المتقنة البنيان وقال مقاتل والكلبى والضحاك ذات الطرائق والمراد إما الطرائق المحسوسة التى هى مسير الكواكب أو المعقولة التى يسلكها النظار أو النجوم فإن لها طرائق وعن الحسن حبكها نجومها حيث تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشى وهى إما جمع حباك أو حبيكة كمثال ومثل وطريقة وطرق وقرىء الحبك بوزن القفل والحبك بوزن السلك والحبك كالجبل والحبك كالبرق والحبك كالنعم والحبك كالإبل .

﴿ إنكم لفى قول مختلف ﴾ أى متخالف متناقض وهو قولهم فى حقه عليه الصلاة والسلام تارة شاعر وأخرى ساحر وأخرى مجنون وفى شأن القرآن الكريم تارة شعر وأخرى سحر وأخرى أساطير وفى هذا الجواب تأييد لكون الحبك عبارة عن الاستواء كما يلوح به ما نقل عن الضحاك من أن قول الكفرة لا يكون مستويا إنما هو متناقض مختلف وقيل النكتة فى هذا القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها وتنافى أغراضها بطرائق السموات فى تباعدها واختلاف غاياتها وليس بذاك ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ أى يصرف عن القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام من صرف إذ لا صرف أفظع منه وأشد وقيل يصرف عنه من صرف فى علم الله تعالى وقضائه ويجوز أن يكون الضمير للقول المختلف على معنى يصدر إفك من أفك عن ذلك القول وقرىء من أفك أى من أفك الناس وهم قريش حيث كانوا يصدون الناس عن الإيمان ﴿ قتل الخراصون ﴾ دعاء عليهم كقوله تعالى (قتل الإنسان ما أكفره) وأصله الدعاء بالقتل والهلاك ثم جرى مجرى اللعن والخراصون الكذابون المقدرون مالا صحة له وهم أصحاب القول

المختلف كأنه قيل قتل هؤلاء الخراصون وقرىء قتل الخراصين أى قتل الله ﴿ الذين هم فى غمرة ﴾ من الجهل والضلال ﴿ ساهون ﴾ غافلون عما أمروا به ﴿ يسألون أيان يوم الدين ﴾ أى متى وقوع يوم الجزاء لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة بل بطريق الاستعجال استهزاء وقرىء إيان بكسر الهمزة ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ جواب للسؤال أى يقع يوم هم على النار يحرقون ويعذبون ويجوز أن يكون يوم خبرا لمبتدأ محذوف أى هو يوم هم الخ والفتح لإضافته إلى غير متمكن ويؤيده أنه قرىء بالرفع ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ أى مقولا لهم هذا القول وقوله تعالى ﴿ هذا الذى كنتم به تستعجلون ﴾ جملة من مبتدأ وخبر داخلة تحت القول المضمر أى هذا ما كنتم تستعجلون به بطريق الاستهزاء ويجوز أن يكون هذا بدلا من فتنتكم بتأويل العذاب والذى صفته .

المتقون وجزاؤهم

﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ﴾ لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ أى قابلين لما أعطاهم راضين به على معنى أن كل ما آتاهم حسن مرضى يتلقى بحسن القبول ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك ﴾ فى الدنيا ﴿ محسنين ﴾ أى لأعمالهم الصالحة آتين بها على ما ينبغى فلذلك نالوا ما نالوا من الفوز العظيم ومعنى الإحسان بالإجمال ما أشار إليه عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وقد فسر بقوله تعالى .

﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴾ أى كانوا يهجعون فى طائفة قليلة من الليل على أن قليلا ظرف أو كانوا يهجعون هجوعا قليلا على أنه صفة المصدر وما مزيدة فى الوجهين ويجوز أن تكون مصدرية أو موصولة مرتفعة بقليلا على الفاعلية أى كانوا قليلا من الليل هجوعهم أو ما يهجعون فيه ، وفيه مبالغات فى تقليل نومهم واستراحتهم ذكر القليل والليل الذى هو وقت الراحة والهجوع الذى هو الغرار من النوم وزيادة ما ولا مساغ لجعل ما نافية على معنى أنهم لا يهجعون من الليل قليلا بل يحيونه كله لما أن ما النافية لا يعمل

ما بعدها فيما قبلها ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ أى هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار فى الأسحار كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم وفى بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه .

﴿ وفى أموالهم حق ﴾ أى نصيب وافر يستوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله تعالى وإشفاقا على الناس ﴿ للسائل والمحروم ﴾ للمستجدى والمتعفف الذى يحسبه الناس غنيا فيحرم الصدقة ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ أى دلائل واضحة على شئونه تعالى على التفصيل من حيث أنها مدحوة كالبساط الممهد وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين فى أقطارها والسالكين فى مناكبها وفيها سهل وجبل وبر وبحر وقطع متجاورات وعيون متفجرة ومعادن مفتنة وأنها تلقح بألوان النبات وأنواع الأشجار وأصناف الثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح وفيها دواب منبثة قد رتب كلها ودبر لمنافع ساكنيها ومصالحهم فى صحتهم واعتلالهم ﴿ وفى أنفسكم ﴾ أى وفى أنفسكم آيات إذ ليس فى العالم شىء إلا وفى الأنفس له نظير يدل دلالته على ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الأفعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة ﴿ أفلا تبصرون ﴾ ألا تنظرون فلا تبصرون بعين البصيرة .

﴿ وفى السماء رزقكم ﴾ أى أسباب رزقكم أو تقديره وقيل المراد بالسماء السحب وبالرزق المطر فإنه سبب الأقوات ﴿ وما توعدون ﴾ من الثواب لأن الجنة فى السماء السابعة أو لأن الأعمال وثوابها مكتوبة مقدرة فى السماء وقيل إنه مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾ على أن الضمير لما وأما على الأول فإما له وإما لما ذكر من أمر الآيات والرزق على أنه مستعار لاسم الإشارة ﴿ مثل ما أنكم تنطقون ﴾ أى كما أنه لا شك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى أن لا تشكوا فى حقيته ونصبه على الحالية من المستكن فى لحق أو على أنه وصف لمصدر محذوف أى إنه لحق حقا مثل نطقكم وقيل إنه مبنى

على الفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو ما إن كانت عبارة عن شيء وأن بما في حيزها إن جعلت زائدة ومحله الرفع على أنه صفة لحق ويؤيده القراءة بالرفع .

﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم ﴾ تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير طريق الوحي والضيف في الأصل مصدر ضافه ولذلك يطلق على الواحد والجماعة كالزور والصوم وكانوا اثني عشر ملكا وقيل تسعة عاشرهم جبريل وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وملك آخر معهما عليهم السلام وتسميتهم ضيفا لأنهم كانوا في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم عليه السلام أو لأنهم كانوا في حسابه كذلك ﴿ المكرمين ﴾ أي المكرمين عند الله تعالى أو عند إبراهيم حيث خدمهم بنفسه وبزوجته ﴿ إذ دخلوا عليه ﴾ ظرف للحديث أو لما في الضيف من معنى الفعل أو المكرمين إن فسر بإكرام إبراهيم ﴿ فقالوا سلاما ﴾ أي نسلم عليك سلاما ﴿ قال ﴾ أي إبراهيم ﴿ سلام ﴾ أي عليكم سلام عدل به إلى الرفع بالابتداء للقصد إلى الثبات والدوام حتى تكون تحيته عليه الصلاة والسلام أحسن من تحيتهم وقرئا مرفوعين وقرىء سلم وقرىء منصوبا والمعنى واحد ﴿ قوم منكرون ﴾ أنكرهم عليه الصلاة والسلام للسلام الذي هو علم الإسلام أو لأنهم ليسوا ممن عهدهم من الناس أو لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس ولعله عليه الصلاة والسلام إنما قاله في نفسه من غير أن يشعرهم بذلك لا أنه خاطبهم به جهرا أو سألهم أن يعرفوه أنفسهم كما قيل وإلا لكشفوا أحوالهم عند ذلك ولم يتصد عليه الصلاة والسلام لمقدمات الضيافة ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ أي ذهب إليهم على خفية من ضيفه فإن من أدب المضيف أن يبادره بالقرى ويبادر به حذارا من يكفه ويعذره أو يصير منتظرا والفاء في قوله تعالى ﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذانا بكمال سرعة المجيء بالطعام في قوله تعالى (فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق) أي فذبح عجلا فحنذه فجاء به ﴿ فقربه إليهم ﴾ بأن وضعه لديهم حسبما هو المعتاد ﴿ قال

ألا تأكلون ﴾ إنكارا لعدم تعرضهم للأكل ﴿ فأوجس منهم ﴾ أضمر فى نفسه ﴿ خيفة ﴾ لتوهم أنهم جاءوا للشر وقيل وقع فى قلبه أنهم ملائكة جاؤا للعذاب ﴿ قالوا لا تخف ﴾ قيل مسح جبريل عليه السلام العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فعرفهم وأمن منهم ﴿ وبشروه ﴾ وفى سورة الصافات وبشرناه أى بواسطتهم ﴿ بغلام ﴾ هو إسحق عليه السلام ﴿ عليم ﴾ عنه بلوغه واستوائه ﴿ فأقبلت امرأته ﴾ سارة لما سمعت بشارتهم إلى بيتها وكانت فى زاوية تنظر إليهم ﴿ فى صرة ﴾ فى صيحة من الصرير ومحله النصب على الحالية أو المفعولية إن جعل أقبلت بمعنى أخذت كما يقال أقبل يشتمنى ﴿ فصكت وجهها ﴾ أى لطمته من الحياء لما أنها وجدت حرارة دم الطمث وقيل ضربت بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجب ﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ أى أنا عجوز عاقر فكيف ألد .

﴿ قالوا كذلك ﴾ مثل ذلك القول الكريم ﴿ قال ربك ﴾ وإنما نحن معبرون نخبرك به عنه تعالى لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا ﴿ إنه هو الحكيم العليم ﴾ فيكون قوله حقا وفعله متقنا لا محالة . روى أن جبريل عليه السلام قال لها انظرى إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط بل مع إبراهيم عليه السلام أيضاً حسبما شرح فى سورة الحجر وإنما لم يذكر ههنا اكتفاء بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هناك سارة اكتفاء بما ذكر ههنا وفى سورة هود ﴿ قال ﴾ أى إبراهيم عليه السلام لما علم أنهم ملائكة أرسلوا لأمر ﴿ فما خطبكم ﴾ أى شأنكم الخطير الذى لأجله أرسلتم سوى البشارة ﴿ أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط ﴿ لنرسل عليهم ﴾ أى بعد ما قلبنا قراهم وجعلنا عاليها سافلها حسبما فصل فى سائر السور الكريمة ﴿ حجارة من طين ﴾ أى طين متحجر هو السجيل ﴿ مسومة ﴾ مرسلة من أسمت الماشية أى أرسلتها أو معلمة من السومة وهى العلامة وقد مر تفصيله فى سورة هود ﴿ عند ربك للمسرفين ﴾ المجاوزين الحد فى الفجور وقوله تعالى : ﴿ فأخرجنا ﴾ الخ حكاية من جهته

تعالى لما جرى على قوم لوط عليه السلام بطريق الإجمال بعد حكاية ما جرى بين الملائكة وبين ابراهيم عليه السلام من الكلام والفاء فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بذكرها فى مواضع أخر كأنه قيل فباشروا ما أمروا به فأخرجنا بقولنا فأسر بأهلك الخ ﴿ من كان فيها ﴾ أى فى قرى قوم لوط وإضمارها بغير ذكر لشهرتها ﴿ من المؤمنين ﴾ ممن آمن بلوط ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت ﴾ أى غير أهل بيت ﴿ من المسلمين ﴾ قيل هم لوط وابنتاه وقيل كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر ﴿ وتركنا فيها ﴾ أى فى القرية ﴿ آية ﴾ أى علامة دالة على ما أصابهم من العذاب قيل هى تلك الأحجار أو صخر منضود فيها أو ماء منتن ﴿ للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ أى من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوى القلوب القاسية فإنهم لا يعتدون بها ولا يعدونها آية ﴿ وفى موسى ﴾ عطف على قوله تعالى وفى الأرض أو على قوله تعالى وتركنا فيها آية على معنى وجعلنا فى موسى آية كقول من قال « علفتها تبنا وماء باردا » ﴿ إذ أرسلناه ﴾ قيل هو منصوب بآية وقيل بمحذوف أى كائنة وقت إرسالنا وقيل بتركنا ﴿ إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ هو ما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة ﴿ فتولى بركنه ﴾ أى فأعرض عن الإيمان به وازور كقوله تعالى (ونأى بجانبه) وقيل فتولى بما يتقوى به من ملكه وعساكره فإن الركن اسم لما يركن إليه الشىء وقرىء بركنه بضم الكاف ﴿ وقال ساحر ﴾ أى هو ساحر ﴿ أو مجنون ﴾ كأنه نسب ما ظهر على يديه عليه الصلاة والسلام من الخوارق العجيبة إلى الجن وتردد فى أنه حصل باختياره وسعيه أو بغيرهما.

﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ﴾ وفيه من الدلالة على غاية عظم شأن القدرة الربانية ونهاية قماءة فرعون وقومه مالا يخفى ﴿ وهو مليم ﴾ أى آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان والجملة حال من الضمير فى فأخذناه ﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ وصفت بالعقم لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم أو لأنها لم تتضمن خيرا ما من إنشاء مطر أو إلقاح شجر وهى النكباء

أو الدبور أو الجنوب ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه ﴾ أي جرت عليه ﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ هو كل مارم وبلى وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك ﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ وهو قوله تعالى تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام قيل قال لهم صالح عليه السلام تصبح وجوهكم غدا مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب ﴿ فعتوا عن أمر ربهم ﴾ أى فاستكبروا عن الامتثال به ﴿ فأخذتهم الصاعقة ﴾ قيل لما رأوا العلامات التى بينها صالح عليه السلام من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا إلى قتله عليه السلام فنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم الصيحة فهلكوا وقرىء الصعقة وهى المرة من الصعق ﴿ وهم ينظرون ﴾ إليها ويعاينونها ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ كقوله تعالى (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ بغيرهم كما لم يمتنعوا بأنفسهم .

﴿ وقوم نوح ﴾ أى وأهلكنا قوم نوح فإن ما قبله يدل عليه أو واذكر ويجوز أن يكون معطوفا على محل فى عاد ويؤيده القراءة بالجر وقيل هو معطوف على مفعول فأخذناه ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل هؤلاء المهلكين ، ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصى ﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ أى بقوة ﴿ وإنا لموسعون ﴾ لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة والموسع القادر على الإنفاق أو لموسعون السماء أوما بينها وبين الأرض أو الرزق ﴿ والأرض فرشناها ﴾ مهدناها وبسطناها ليستقروا عليها ﴿ فنعم الماهدون ﴾ أى نحن ﴿ ومن كل شىء ﴾ أى من الأجناس ﴿ خلقنا زوجين ﴾ أى نوعين ذكرا وأنثى وقيل متقابلين السماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر ونحو ذلك ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى فعلنا ذلك كله كى تتذكروا فتعرفوا أنه خالق الكل ورازقه وأنه المستحق للعبادة وأنه قادر على إعادة الجميع فتعملوا بمقتضاه وقوله تعالى : ﴿ ففروا إلى الله ﴾ مقدر بالقول خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين والفاء

إما لترتيب الأمر على ماحكى من إثار غضبه الموجبة للفرار منها ومن أحكام رحمته المستدعية للفرار إليها كأنه قيل قل لهم إذا كان الأمر كذلك فاهربوا إلى الله الذى هذه شئونه بالإيمان والطاعة كى تنجوا من عقابه وتفوزوا بثوابه وإما للعطف على جملة مقدرة مترتبة على قوله تعالى لعلكم تذكرون كأنه قيل قل لهم فتذكروا ففروا إلى الله الخ ، وقوله تعالى ﴿ إنى لكم منه نذير مبين ﴾ تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى أو لوجوب الامتثال به فإن كونه عليه الصلاة والسلام منذرا منه تعالى موجب عليه عليه الصلاة والسلام أن يأمرهم بالفرار إليه وعليهم أن يمتثلوا به أى إنى لكم من جهته تعالى منذر بين كونه منذرا منه تعالى أو مظهر لما يجب إظهاره من العذاب المنذر به وفى أمره تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يأمرهم بالهرب إليه تعالى من عقابه وتعليله بأنه عليه الصلاة والسلام ينذرهم من جهته تعالى لا من تلقاء نفسه وعد كريم بنجاتهم من المهروب وفوزهم بالمطلوب وقوله تعالى ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ﴾ نهى موجب للفرار من سبب العقاب بعد الأمر بالفرار من نفسه كما يشعر به قوله تعالى ﴿ إنى لكم منه ﴾ أى من الجعل المنهى عنه ﴿ نذير مبين ﴾ فإن تعلق كلمة من بالإنذار مع كون صلته الباء بتضمينه معنى الإفرار يقال فر منه أى هرب وأفره غيره كأنه قيل وفروا من أن تجعلوا معه تعالى اعتقادا أو قولا إلها آخر وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى لكن لا بطريق التكرير كما قيل بل بالنهى عن سببه وإيجاب الفرار منه .

﴿ كذلك ﴾ أى الأمر مثل ما ذكر من تكذيبهم الرسول وتسميتهم له ساحرا أو مجنونا ، وقوله تعالى ﴿ ما أتى الذين من قبلهم ﴾ الخ تفسير له أى ما أتاهم ﴿ من رسول ﴾ من رسل الله ﴿ إلا قالوا ﴾ فى حقه ﴿ ساحر أو مجنون ﴾ ولا سبيل إلى انتصاب الكاف بأتى لامتناع عمل ما بعدما النافية فيما قبلها ﴿ أتواصوا به ﴾ إنكار وتعجيب من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التى لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء فضلا عن التفوه بها أى أأوصى بهذا القول بعضهم بعضا حتى اتفقوا عليه وقوله تعالى ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾

إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر تواصيهم بذلك وإثبات لكونه أمرا أقبح من التواصي وأشنع منه من الطغيان الشامل للكل الدال على أن صدور تلك الكلمة الشنيعة عن كل واحد منهم بمقتضى جبلته الخبيثة لا بموجب وصية من قبلهم بذلك من غير أن يكون ذلك مقتضى طباعهم ﴿فتول عنهم﴾ فأعرض عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة فأبوا إلا الإباء ﴿فما أنت بملوم﴾ على التولي بعد ما بذلت المجهود وجاوزت في الإبلاغ كل حد معهود .

﴿وذكر﴾ أي افعل التذكير والموعظة ولا تدعهما بالمرة أو فذكرهم وقد حذف الضمير لظهور الأمر ﴿فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ أي الذين قدر الله تعالى إيمانهم أو الذين آمنوا بالفعل فإنها تزيدهم بصيرة وقوة في اليقين ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ استئناف مؤكد للأمر مقرر لمضمون تعليله فإن كون خلقهم مغيا بعبادته تعالى مما يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكر والاتعاظ ولعل تقديم خلق الجن في الذكر لتقدمه على خلق الإنس في الوجود ومعنى خلقهم لعبادته تعالى خلقهم مستعدين لها ومتمكنين منها أتم استعداد وأكمل تمكن مع كونها مطلوبة منهم بتنزيل ترتب الغاية على ما هي ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له فإن استتباع أفعاله تعالى لغايات جليلة مما لا نزاع فيه قطعا كيف لا وهي رحمة منه تعالى وتفضل على عباده وإنما الذي لا يليق بجنابه عز وجل تعليلها بالغرض بمعنى الباعث على الفعل بحيث لولاه لم يفعله لإفضائه إلى استكماله بفعله وهو الكامل بالفعل من كل وجه وأما بمعنى نهاية كمالية يفضي إليها فعل الفاعل الحق فغير منفي من أفعاله تعالى بل كلها جارية على ذلك المنهاج وعلى هذا الاعتبار يدور وصفه تعالى بالحكمة ويكفي في تحقق معنى التعليل على ما يقوله الفقهاء ويتعارفه أهل اللغة هذا المقدار وبه يتحقق مدلول اللام وأما إرادة الفاعل لها فليست من مقتضيات اللام حتى يلزم من عدم صدور العبادة عن البعض تخلف المراد عن الإرادة فإن تعوق البعض عن الوصول إلى الغاية مع تعاضد المبادي وتآخذ المقدمات الموصلة إليها لا يمنع كونها غاية كما في قوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك

لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) ونظائره وقيل المعنى إلا ليؤمروا بعبادتى كما فى قوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا) وقيل المراد سعداء الجنسين كما أن المراد بقوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس) أشقياؤهما ويعضده قراءة من قرأ وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين وقال مجاهد واختاره البغوى معناه إلا ليعرفون ومداره قوله صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن رب العزة كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف ولعل السر فى التعبير عن المعرفة بالعبادة على طريق إطلاق اسم السبب على المسبب التنبيه على أن المعتبر هى المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ بيان لكون شأنه تعالى مع عباده متعاليا عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم حيث يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم أى ما أريد أن أصرفهم فى تحصيل رزقى ولا رزقهم بل أتفضل عليهم برزقهم وبما يصلحهم ويعيشهم[1] من عندى فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى ﴿إن الله هو الرزاق﴾ الذى يرزق كل ما يفتقر إلى الرزق وفيه تلويح بأنه غنى عنه وقرىء إنى أنا الرزاق ﴿ ذو القوة المتين ﴾ بالرفع على أنه نعت للرزاق أو لذو أو خبر بعد خبر أو خبر لمضمر وقرىء بالجر على أنه وصف للقوة على تأويل الاقتدار أو الأيد .

﴿ فإن للذين ظلموا ﴾ أى ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو وضعوا مكان التصديق تكذيبا وهم أهل مكة ﴿ ذنوبا ﴾ أى نصيبا وافرا من العذاب ﴿مثل ذنوب أصحابهم﴾ مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحكية وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب وهو الدلو العظيم المملوء ﴿ فلا يستعجلون ﴾ أى لا يطلبوا منى أن أعجل فى المجىء به يقال استعجله أى حثه على العجلة وأمره بها ويقال استعجله

(١) فى ١١ : وبما يصلح معاشهم

أى حثه على العجلة وأمره بها ويقال استعجله أى طلب وقوعه بالعجلة ومنه قوله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وهو جواب لقولهم (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) ﴿فويل للذين كفروا﴾ وضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر وإشعارا بعلة الحكم والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أن لهم عذابا عظيما كما أن الفاء الأولى لترتيب النهى عن الاستعجال على ذلك ومن فى قوله تعالى: ﴿من يومهم الذى يوعدون﴾ للتعليل أى يوعدونه من يوم بدر وقيل يوم القيامة وهو الأنسب بما[١] فى صدر فى السورة الكريمة الآتية والأول هو الأوفق لما قبله من حيث أنهما من العذاب الدنيوى . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ والذاريات أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت فى الدنيا .

* * *

(١) فى ١١ : وهو الأنسب لما

سورة الطور

مكية ، وآيها تسع أو ثمان وأربعون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والطور ﴾ الطور بالسريانية الجبل والمراد به طور سينين وهو جبل بمدين سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى ﴿ وكتاب مسطور ﴾ مكتوب على وجه الانتظام فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة والمراد به القرآن أو ألواح موسى عليه السلام وهو الأنسب بالطور أوما يكتب فى اللوح أوما يكتبه الحفظة ﴿ فى رق منشور ﴾ الرق الجلد الذى يكتب فيه استعير لما يكتب فيه الكتاب من الصحيفة وتنكيرهما للتفخيم أوللإشعار بأنهما ليسا مما يتعارفه الناس ﴿ والبيت المعمور ﴾ أى الكعبة وعمارتها بالحجاج والعمار والمجاورين أو الضراح وهو فى السماء الرابعة وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة ﴿ والسقف المرفوع ﴾ أى السماء ولايخفى حسن موقع العنوان المذكور ﴿ والبحر المسجور ﴾ أى المملوء وهو البحر المحيط أو الموقد من قوله تعالى (وإذا البحار سجرت) فالمراد به الجنس روى أن الله تعالى يجعل البحار يوم القيامة نارا يسجر بها نار جهنم .

﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ أى لنازل حتما جواب للقسم وقوله تعالى ﴿ ماله من دافع ﴾ إما خبر ثان لأن أو صفة لواقع ومن دافع إما مبتدأ للظرف أو مرتفع به على الفاعلية ومن مزيدة للتأكيد وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها لما أنها أمور عظام تنبىء عن عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته الدالة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد وضبطها الشاهدة بصدق أخباره التى من جملتها الجملة المقسم عليها وقوله تعالى ﴿ يوم تمور السماء مورا ﴾ ظرف لواقع مبين لكيفية الوقوع منبىء عن كمال هوله وفظاعته والمور الاضطراب والتردد فى المجىء والذهاب وقيل هو تحرك فى تموج قيل تدور السماء كما تدور الرحا

وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة وقيل تختلف أجزاؤها ﴿ وتسير الجبال سيرا ﴾ أي تزول عن وجه الأرض فتصير هباء وتأكيد الفعلين بمصدريهما للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة أي مورا عجيبا وسيرا بديعا لا يدرك كنههما .

عاقبة المكذبين

﴿ فويل يومئذ للمكذبين ﴾ أي إذا وقع ذلك أو إذا كان الأمر كما ذكر فويل يوم إذ يقع ذلك لهم ﴿ الذين هم فى خوض ﴾ أى اندفاع عجيب فى الأباطيل والأكاذيب ﴿ يلعبون ﴾ يلهون ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴾ أي يدفعون إليها دفعا عنيفا شديدا بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعوا إلى النار وقرىء يدعون من الدعاء فيكون دعا حالا بمعنى مدعوعين ويوم إما بدل من يوم تمور أو ظرف لقول مقدر قبل قوله تعالى ﴿ هذه النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ أى يقال لهم ذلك ومعنى التكذيب بها تكذيبهم بالوحى الناطق بها وقوله تعالى ﴿ أفسحر هذا ﴾ توبيخ وتقريع لهم حيث كانوا يسمونه سحرا كأنه قيل كنتم تقولون للقرآن الناطق بهذا سحر فهذا أيضاً سحر وتقديم الخبر لأنه محط الإنكار ومدار التوبيخ ﴿ أم أنتم لا تبصرون ﴾ أى أم أنتم عمى عن المخبر عنه كما كنتم عميا عن الخبر أو أم سدت أبصاركم كما سدت فى الدنيا على زعمكم حيث كنتم تقولون (إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) ﴿ أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا ﴾ أى ادخلوها وقاسوا شدائدها فافعلوا ما شئتم من الصبر وعدمه ﴿ سواء عليكم ﴾ أى الأمران فى عدم النفع لا بدفع العذاب ولا بتخفيفه وقوله تعالى ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ تعليل للاستواء فإن الجزاء حيث كان واجب الوقوع حتما كان الصبر وعدمه سواء فى عدم النفع .

عاقبة المتقين

﴿ إن المتقين فى جنات ونعيم ﴾ أى فى أية جنات وأى نعيم على أن التنوين للتفخيم أو فى جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين على أنه للتنويع ﴿ فاكهين ﴾ ناعمين متلذذين ﴿ بما آتاهم ربهم ﴾ وقرىء فكهين وفاكهون على أنه الخبر والظرف لغو متعلق بالخبر أو خبر آخر ﴿ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾ عطف على آتاهم على أن ما مصدرية أو على خبر إن أو حال بإضمار قد إما من المستكن فى الخبر أو فى الحال وإما من فاعل أتى أو من مفعوله أو منهما وإظهار الرب فى موقع الإضمار مضافا إلى ضميرهم للتشريف والتعليل ﴿ كلوا واشربوا ﴾ أى يقال لهم كلوا واشربوا أكلا وشربا ﴿ هنيئاً ﴾ أو طعاما وشرابا هنيئاً وهو الذى لاتنغيص فيه ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ بسببه أو بمقابلته وقيل الباء زائدة وما فاعل هنيئاً أى هنا كم ما كنتم تعملون أى جزاؤه ﴿ متكئين على سرر مصفوفة ﴾ مصطفة ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ وقرىء بحور عين على إضافة الموصوف إلى صفته بالتأويل المشهور وقرىء بعين عين والباء مع أن التزويج مما يتعدى إلى مفعولين لما فيه من معنى الوصل والإلصاق أو للسببية إذ [أن][1] المعنى صيرناهم أزواجا بسببهن فإن الزوجية لاتتحقق بدون انضمامهن إليهم وقوله تعالى ﴿ والذين آمنوا ﴾ إلخ كلام مستأنف مسوق لبيان حال طائفة من أهل الجنة إثر بيان حال الكل وهم الذين شاركتهم ذريتهم فى الإيمان وهو مبتدأ خبره ألحقنا بهم وقوله تعالى ﴿ واتبعتهم ذريتهم ﴾ عطف على آمنوا وقيل اعتراض وقوله تعالى ﴿ بإيمان ﴾ متعلق بالاتباع أى اتبعتهم ذريتهم بإيمان فى الجملة قاصر عن رتبة إيمان الآباء واعتبار هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم فى الإيمان الكامل أصالة لا إلحاقا وقرىء ذرياتهم للمبالغة فى الكثرة وذرياتهم بكسر الذال وقرىء وأتبعناهم ذرياتهم أى جعلناهم تابعين لهم فى الإيمان

---

(١) سقطت من ط .

وقرىء أتبعتهم ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ أى فى الدرجة كما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال إنه تعالى يرفع ذرية المؤمن فى درجته وإن كانوا دونه لتقر بهم عينه ثم تلا هذه الآية ﴿ وما ألتناهم ﴾ وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق ﴿ من عملهم ﴾ من ثواب عملهم ﴿ من شىء ﴾ بأن أعطينا بعض مثوباتهم أبناءهم فتنقص مثوبتهم وتنحط درجتهم وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضل والإحسان وقرىء ألتناهم بكسر اللام من ألت يألت كعلم يعلم والأول كضرب يضرب ولتناهم من لات يليت وآلتناهم من آلت يؤلت وولتناهم من ولت يلت والكل بمعنى واحد هذا وقد قيل الموصول معطوف على حور والمعنى قرناهم بالحور وبالذين آمنوا أى بالرفقاء والجلساء منهم فيتمتعون تارة بملاعبة الحور وأخرى بمؤانسة الإخوان المؤمنين وقوله تعالى واتبعتهم عطف على زوجناهم وقوله تعالى بإيمان متعلق بما بعده أى بسبب إيمان عظيم رفيع المحل وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلا عليهم وعلى آبائهم ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم أو بسبب إيمان دانى المنزلة وهو إيمان الذرية كأنه قيل بشىء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ قيل هو فعيل بمعنى مفعول والمعنى كل امرىء مرهون عند الله تعالى بالعمل الصالح فإن عمله فكه وإلا أهلكه وقيل بمعنى الفاعل والمعنى كل امرىء بما كسب راهن أى دائم ثابت وهـــذا أنسب بالمقام فإن الدوام يقتضى عدم المفارقة بين المرء وعمله ومن ضرورته أن لا ينقص من ثواب الآباء شىء فالجملة تعليل لما قبلها .

﴿ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ﴾ وزدناهم على ما كان لهم من مبادى التنعم وقتاً فوقتاً مايشتهون من فنون النعماء[1] وألوان الآلاء ﴿ يتنازعون فيها ﴾ أى يتعاطون فيها هم وجلساؤهم بكمال رغبة واشتياق كما ينبىء عنه التعبير عن ذلك بالتنازع ﴿ كأسا ﴾ أى خمرا تسمية لها باسم محلها ﴿ لا لغو فيها ﴾

(١) فى ١١ : من فنون النعم

أى فى شربها حيث لا يتكلمون فى أثناء الشرب بلغو الحديث وسقط الكلام ﴿ ولا تأثيم ﴾ ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله أى ينسب إلى الإثم لو فعله فى دار التكليف كما هو ديدن المنادمين فى الدنيا وإنما يتكلمون بالحكم وأحاسن الكلام ويفعلون ما يفعله الكرام وقرىء لا لغو فيها ولا تأثيم بالفتح ﴿ ويطوف عليهم ﴾ أى بالكأس ﴿ غلمان لهم ﴾ أى مماليك مخصوصون بهم وقيل هم أولادهم الذين سبقوهم ﴿ كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ مصون فى الصدف من بياضهم وصفائهم أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالى القيمة قيل لقتادة هذا الخادم فكيف المخدوم؟ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده أن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب[1] وعنه عليه الصلاة والسلام إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه لبيك لبيك[2] ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ أى يسأل كل بعض منهم بعضا آخر عن أحواله وأعماله فيكون كل بعض سائلا ومسؤلا لا أنه يسأل بعض معين منهم بعضاً آخر معينا ﴿ قالوا ﴾ أى المسؤلون وهم كل واحد منهم فى الحقيقة ﴿ إنا كنا قبل ﴾ أى فى الدنيا ﴿ فى أهلنا مشفقين ﴾ أرقاء القلوب خائفين من عصيان الله تعالى معتنين بطاعته أو وجلين من العاقبة ﴿ فمن الله علينا ﴾ بالرحمة أو التوفيق للحق ﴿ ووقانا عذاب السموم ﴾ عذاب النار النافذة فى المسام نفوذ السموم وقرىء ووقانا بالتشديد ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه ﴾ أى نعبده أو نسأله الوقاية ﴿ إنه هو البر ﴾ المحسن ﴿ الرحيم ﴾ الكثير الرحمة الذى إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب وقرىء أنه بالفتح بمعنى لأنه ﴿ فذكر ﴾ فاثبت على ما أنت عليه من التذكير بما أنزل إليك من الآيات والذكر الحكيم ولا تكترث بما يقولون مما لا خير فيه من الأباطيل .

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند عن قتاده .

(٢) أخرجه السيوطى فى البدور السافرة باب نعيم أهل الجنة .

رد أباطيل الكفار

﴿ فما أنت بنعمة ربك ﴾ بحمده وإنعامه بصدق النبوة ورجاحة العقل ﴿ بكاهن ولا مجنون ﴾ كما يقولون قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ وهو ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر وقيل المنون الموت وهو فى الأصل فعول من منه إذا قطعه لأن الموت قطوع أى بل أيقولون ننتظر به نوائب الدهر ﴿ قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكى وفيه عدة كريمة بإهلاكهم ﴿ أم تأمرهم أحلامهم ﴾ أى عقولهم ﴿ بهذا ﴾ أى بهذا التناقض فى المقال فإن الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر فى الأمور والمجنون مغطى عقله مختل فكره والشاعر ذو كلام موزون متسق مخيل فكيف يجتمع أوصاف هؤلاء فى واحد وأمر الأحلام بذلك مجاز عن أدائها إليه ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ مجاوزون الحدود فى المكابرة والعناد لا يحومون حول الرشد والسداد ولذلك يقولون ما يقولون من الأكاذيب الخارجة عن دائرة العقول والظنون وقرىء بل هم ﴿ أم يقولون تقوله ﴾ أى اختلقه من تلقاء نفسه ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه الأباطيل التى لا يخفى على أحد بطلانها كيف لا وما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا واحد من العرب فكيف أتى بما عجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم .

﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ مثل القرآن فى النعوت التى استقل بها من حيث النظم ومن حيث المعنى ﴿ إن كانوا صادقين ﴾ فيما زعموا فإن صدقهم فى ذلك يستدعى قدرتهم على الإتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه الصلاة والسلام فى البشرية والعربية مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ولا ريب فى أن القدرة على الشىء من موجبات الإتيان به ودواعى الأمر بذلك ﴿ أم خلقوا من غير شىء ﴾ أى أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير محدث ومقدر وقيل أم خلقوا من أجل لا شىء من عبادة وجزاء ﴿ أم هم الخالقون ﴾ لأنفسهم

فلذلك لا يعبدون الله سبحانه ﴿ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾ أى إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض قالوا الله وهم غير موقنين بما قالوا وإلا لما أعرضوا عن عبادته ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ أى خزائن رزقه ورحمته حتى يرزقوا النبوة من شاءوا ويمسكوها عمن شاءوا أو أعندهم خزائن علمه وحكمته حتى يختاروا لها من اقتضت الحكمة اختياره ﴿ أم هم المسيطرون ﴾ أى الغالبون على الأمور يدبرونها كيفما شاءوا حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم وقرىء المصيطرون بالصاد لمكان الطاء ﴿ أم لهم سلم ﴾ منصوب إلى السماء ﴿ يستمعون فيه ﴾ صاعدين إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من الأمور التى يتقولون فيها رجما بالغيب ويعلقون بها أطماعهم الفارغة ﴿ فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴾ بحجة واضحة تصدق استماعه .

﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ تسفيه لهم وتركيك لعقولهم وإيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء فضلا عن الترقى إلى عالم الملكوت والتطلع على الأسرار الغيبية والالتفات إلى الخطاب لتشديد ما فى أم المنقطعة من الإنكار والتوبيخ .

﴿ أم تسألهم أجرا ﴾ رجوع إلى خطابه عليه الصلاة والسلام وإعراض عنهم أى بل أتسألهم أجرا على تبليغ الرسالة ﴿ فهم ﴾ لذلك ﴿ من مغرم ﴾ من التزام غرامة فادحة ﴿ مثقلون ﴾ محملون الثقل فلذلك لا يتبعونك ﴿ أم عندهم الغيب ﴾ أى اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿ فهم يكتبون ﴾ ما فيه حتى يتكلموا فى ذلك بنفى أو إثبات ﴿ أم يريدون كيدا ﴾ هو كيدهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة ﴿ فالذين كفروا ﴾ هم المذكورون ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر وتعليل الحكم به أو جميع الكفرة وهم داخلون فيهم دخولا أوليا ﴿ هم المكيدون ﴾ أى هم الذين يحيق بهم كيدهم أو يعود عليهم وباله لا من أرادوا أن يكيدوه وهو ما أصابهم يوم بدر أو هم المغلوبون فى

الكيد من كايدته فكدته ﴿ أم لهم إله غير الله ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ أى عن إشراكهم أو عن شركة مايشركونه ﴿ وإن يروا كسفا ﴾ قطعة ﴿ من السماء ساقطا ﴾ لتعذيبهم ﴿ يقولوا ﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم ﴿ سحاب مركوم ﴾ أى هم فى الطغيان بحيث لو أسقطناه عليهم حسبما قالوا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا لقالوا هذا سحاب تراكم بعضه على بعض يمطرنا ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب ﴿ فذرهم حتى يلاقوا ﴾ وقرىء حتى يلقوا ﴿ يومهم الذى فيه يصعقون ﴾ على البناء للمفعول من صعقته الصاعقة أو من أصعقته وقرىء يصعقون بفتح الياء والعين وهو يوم يصيبهم الصعقة بالقتل يوم بدر لا النفخة الأولى كما قيل إذ لا يصعق بها إلا من كان حيا حينئذ ولأن قوله تعالى :

﴿ يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئاً ﴾ أى شيئاً من الإغناء بدل من يومهم ولا يخفى أن التعرض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعى استعمالهم له طمعا فى الانتفاع به وليس ذلك إلا ما دبروه فى أمره صلى الله عليه وسلم من الكيد الذى من جملته مناصبتهم يوم بدر وأما النفخة الأولى فليست مما يجرى فى مدافعته الكيد والحيل وقيل هو يوم موتهم وفيه ما فيه مع ما تأباه الإضافة المنبئة عن اختصاصه بهم ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم ﴿ وإن للذين ظلموا ﴾ أى لهم ووضع الموصول موضع الضمير لما ذكر من قبل أى وإن لهؤلاء الظلمة ﴿ عذابا ﴾ آخر ﴿ دون ذلك ﴾ دون ما لا قوه من القتل أى قبله وهو القحط الذى أصابهم سبع سنين أو وراءه كما فى قوله :

* تريك القذى من دونها *

وهو عذاب القبر وما بعده من فنون عذاب الآخرة وقرىء دون ذلك قريبا ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن الأمر كما ذكرنا وفيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك وإنما يصر على الكفر عنادا أو لا يعلمون شيئاً أصلا .

﴿ واصبر لحكم ربك ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود وإبقائك فيما بينهم مع مقاساة الأحزان ومعاناة الهموم ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ أى فى حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك ونكلؤك وجمع العين لجمع الضمير والإيذان بغاية الاعتناء بالحفظ ﴿ وسبح ﴾ أى نزهه تعالى عما لا يليق به ملتبسا ﴿ بحمد ربك ﴾ على نعمائه الفائتة للحصر ﴿ حين تقوم ﴾ من أى مكان قمت قال سعيد بن جبير وعطاء أى قل حين تقوم من مجلسك سبحانك اللهم وبحمدك وقال ابن عباس رضي الله عنهما معناه صل لله حين تقوم من منامك وقال الضحاك والربيع إذا قمت إلى الصلاة فقل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك وقوله تعالى :

﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ إفراد لبعض الليل بالتسبيح لما أن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد عن الرياء كما يلوح به تقديمه على الفعل ﴿ وإدبار النجوم ﴾ أى وقت إدبارها من آخر الليل أى غيبتها بضوء الصباح وقيل التسبيح من الليل صلاة العشاءين وإدبار النجوم صلاة الفجر وقرى أدبار النجوم بالفتح أى فى أعقابها إذا غربت أو خفيت. عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة والطور كان حقا على الله تعالى أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه فى جنته .

* * *

سورة والنجم

مكية ، وآيها إحدى أو اثنتان وستون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والنجم إذا هوى ﴾ المراد بالنجم إما الثريا فإنه اسم غالب له أو جنس النجوم وبهويه غروبه وقيل طلوعه يقال هوى هويا بوزن قبول إذا غرب وهويا بوزن دخول إذا علا وصعد وأما النجم من نجوم القرآن فهويه نزوله والعامل فى إذا فعل القسم فإنه بمعنى مطلق الوقت منسلخ من معنى الاستقبال كما فى قولك آتيك إذا احمر البسر وفى الإقسام بذلك على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبه الضلال والغواية من البراعة البديعة وحسن الموقع ما لاغاية وراءه أما على الأولين فلأن النجم شأنه أن يهتدى به السارى إلى مسالك الدنيا كأنه قيل والنجم الذى يهتدى به السابلة إلى سواء السبيل

دفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ ما ضل صاحبكم ﴾ أى ما عدل عن طريق الحق الذى هو مسلك الآخرة ﴿ وما غوى ﴾ أى وما اعتقد باطلا قط أى هو فى غاية الهدى والرشد وليس مما تتوهمونه من الضلال والغواية فى شىء أصلا وأما على الثالث فلأنه تنويه بشأن القرآن كما أشير إليه فى مطلع سورة يس وسورة الزخرف وتنبيه على مناط اهتدائه عليه الصلاة والسلام ومدار رشاده كأنه قيل والقرآن الذى هو علم فى الهداية إلى مناهج الدين ومسالك الحق ماضل عنها محمد عليه الصلاة والسلام وما غوى والخطاب لقريش وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان صاحبيته لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خبرا ببراءته عليه الصلاة والسلام مما نفى عنه بالكلية وباتصافه عليه الصلاة والسلام بغاية الهدى والرشاد فإن طول صحبتهم له عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شئونه العظيمة مقتضية لذلك حتما وتقييد القسم بوقت الهوى على الوجه الأخير ظاهر

وأما على الأولين فلأن النجم لا يهتدى به السارى عند كونه فى وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب وإنما يهتدى به عند هبوطه أو صعوده مع ما فيه من كمال المناسبة لما سيحكى من تدلى جبريل من الأفق الأعلى ودنوه منه عليهما السلام هذا هو اللائق بشأن التنزيل الجليل وأما حمل هويه على انتثاره يوم القيامة أو على انقضاض النجم الذى يرجم به أو حمل النجم على النبات وحمل هويه على سقوطه على الأرض أو على ظهوره منها فمما لا يناسب المقام .

﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ أى وما يصدر نطقه بالقرآن عن هواه ورأيه أصلا فإن المراد استمرار نفى النطق عن الهوى لا نفى استمرار النطق عنه كما مر مرارا .

﴿ إن هو ﴾ أى ما الذى ينطق به من القرآن ﴿ إلا وحى ﴾ من الله تعالى وقوله تعالى ﴿ يوحى ﴾ صفة مؤكدة لوحى رافعة لاحتمال المجاز مفيدة للاستمرار التجددى ﴿ علمه شديد القوى ﴾ أى ملك شديد قواه وهو جبريل عليه السلام فإنه الواسطة فى إبداء الخوارق وناهيك دليلا على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذى هو تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها وصاح بثمود صيحة فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده فى أسرع من رجعة الطرف ﴿ ذو مرة ﴾ أى حصافة فى عقله ورأيه ومتانة فى دينه ﴿ فاستوى ﴾ عطف على علمه بطريق التفسير فإنه إلى قوله تعالى ما أوحى بيان لكيفية التعليم أى فاستقام على صورته التى كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب أن يراه فى صورته التى جبل عليها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء فطلع له جبريل عليه السلام من المشرق فسد الأرض من المغرب وملأ الأفق فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام فى صورة الآدميين فضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه[1] قيل ما رآه أحد من الأنبياء فى صورته غير النبى عليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه الدارقطنى والطبرانى فى الأوسط عن جابر وأبى هريرة

والسلام فإنه رآه فيها مرتين مرة فى الأرض ومرة فى السماء وقيل استوى بقوته على ما جعل له من الأمر وقوله تعالى ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ أى أفق الشمس حال من فاعل استوى ﴿ ثم دنا ﴾ أى أراد الدنو من النبى عليهما الصلاة والسلام ﴿ فتدلى ﴾ أى استرسل من الأفق الأعلى مع تعلق به فدنا من النبى يقال تدلت الثمرة ودلى رجليه من السرير وأدلى دلوه والدوالى الثمر المعلق ﴿ فكان ﴾ أى مقدار امتداد ما بينهما ﴿ قاب قوسين ﴾ أى مقدارهما فإن القاب والقيب والقاد والقيد والقيس المقدار وقيل فكان جبريل عليه السلام كما فى قولك هو منى معقد الإزار ﴿ أو أدنى ﴾ أى على تقديركم كما فى قوله تعالى أو يزيدون والمراد تمثيل ملكة الاتصال وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بنفى البعد الملبس .

﴿ فأوحى ﴾ أى جبريل عليه السلام ﴿ إلى عبده ﴾ عبد الله تعالى وإضماره قبل الذكر لغاية ظهوره كما فى قوله تعالى (ما ترك على ظهرها) ﴿ ما أوحى ﴾ أى من الأمور العظيمة التى لا تفى بها العبارة أو فأوحى الله تعالى حينئذ بواسطة جبريل ما أوحى قيل أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك ﴿ ما كذب الفؤاد ﴾ أى فؤاد محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ ما رأى ﴾ أى ما رآه ببصره من صورة جبريل عليهما السلام أى ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذبا لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره وقرىء ما كذب أى صدقه ولم يشك أنه جبريل بصورته ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ أى أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة أو أبعد ما ذكر من أحواله المنافية للمماراة تمارونه من المراء وهو الملاحاة والمجادلة واشتقاقه من مرى الناقة كأن كلا من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه وقرىء أفتمرونه أى أفتغلبونه فى المراء من ماريته فمريته ولما فيه من معنى الغلبة عدى بعلى كما يقال غلبته على كذا وقيل أفتمرونه أفتجحدونه من مراه حقه إذا جحده ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ أى وبالله لقد رأى جبريل فى صورته مرة أخرى من النزول نصبت النزلة نصب الظرف الذى هو مرة لأن الفعلة اسم للمرة من الفعل

فكانت فى حكمها وقيل تقديره ولقد رآه نازلا نزلة أخرى فنصبها على المصدر ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ هى شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هجر وورقها كآذان الفيول تنبع من أصلها الأنهار التى ذكرها الله تعالى فى كتابه يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها والمنتهى موضع الانتهاء أو الانتهاء كأنها فى منتهى الجنة وقيل إليها ينتهى علم الخلائق وأعمالهم ولا يعلم أحد ما وراءها(١) وقيل ينتهى إليها أرواح الشهداء وقيل ينتهى إليها ما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها قيل إضافة السدرة إلى المنتهى إما إضافة الشىء إلى مكانه كقولك أشجار البستان أو إضافة المحل إلى الحال كقولك كتاب الفقه والتقدير سدرة عندها منتهى علوم الخلائق أو إضافة الملك إلى المالك على حذف الجار والمجرور أى سدرة المنتهى إليه وهو الله عز وجل قال تعالى إلى ربك المنتهى ﴿ عندها جنة المأوى ﴾ أى الجنة التى يأوى إليها المتقون أو أرواح الشهداء والجملة حالية وقيل الأحسن أن يكون الحال هو الظرف وجنة المأوى مرتفع به على الفاعلية وقوله تعالى ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ ظرف زمان لرآه لا لما بعده من الجملة المنفية كما قيل فإن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها والغشيان بمعنى التغطية والستر ومنه الغواشى أو بمعنى الإتيان يقال فلان يغشانى كل حين أى يأتينى والأول هو الأليق بالمقام وفى إبهام ما يغشى من التفخيم ما لا يخفى وتأخيره عن المفعول للتشويق إليه أى ولقد رآه عند السدرة وقت ما غشيها ما غشيها مما لا يكتنهه الوصف ولا يفى به البيان كيفا ولا كما وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورتها البديعة وللإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد وقيل يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى عندها وقيل يزورونها متبركين بها كما يزور الناس الكعبة وقيل يغشاها سبحات أنوار الله عز وجل حين يتجلى لها كما تجلى للجبل لكنها كانت أقوى من الجبل وأثبت حيث لم يصبها ما أصابه من الدك وقيل

---

(١) أبو الشيخ فى العظمة عن أبى هريرة .

يغشاها فراش أو جراد من ذهب وهو قول ابن عباس وابن مسعود والضحاك وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة ملكا قائما يسبح الله تعالى وعنه عليه الصلاة والسلام يغشاها رفرف من طير خضر[1] ﴿ ما زاغ البصر ﴾ أى ما مال بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما رآه ﴿ وما طغى ﴾ وما تجاوزه مع ما شاهد هناك من الأمور العجيبة المذهلة ما لا يحصى بل أثبته إثباتا صحيحا متيقنا أو ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومكن منها وما جاوزها .

﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ أى والله لقد رأى الآيات التى هى كبراها وعظمها حين عرج به إلى السماء فأرى من عجائب الملك والملكوت مالا يحيط به نطاق العبارة ويجوز أن تكون الكبرى صفة للآيات والمفعول محذوف أى شيئا عظيما من آيات ربه وأن تكون من مزيدة .

توبيخ الكفار

﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ هى أصنام كانت لهم فاللات كانت لثقيف بالطائف وقيل لقريش بنخلة وهى فعلة من لوى لأنهم كانوا يلوون عليها ويطوفون بها وقرىء بتشديد التاء على أنه اسم فاعل اشتهر به رجل كان يلت السمن بالزيت ويطعمه الحاج وقيل كان يلت السويق بالطائف ويطعمه الحاج فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه وقيل كان يجلس على حجر فلما مات سمى الحجر باسمه وعبد من دون الله وقيل كان الحجر على صورته والعزى تأنيث الأعز كانت لغطفان وهى سمرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها واضعة يدها على رأسها وهى تولول فجعل خالد يضربها بالسيف حتى قتلها

---

(١) انظر الدر المنثور للسيوطى .

فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تلك العزى ولن تعبد أبدا [1]. ومناة صخرة لهذيل وخزاعة وقيل لثقيف وكأنها سميت مناة لأن دماء النسائك تمنى عندها أى تراق وقرىء ومناءة وهى مفعلة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركا بها والأخرى صفة ذم لها وهى المتأخرة الوضيعة المقدار وقد جوز أن تكون الأولية والتقدم عندهم للات والعزى ثم أنهم كانوا مع ما ذكر من عبادتهم لها يقولون إن الملائكة وتلك الأصنام بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فقيل لهم توبيخا وتبكيتا أفرأيتم الخ والهمزة للإنكار والفاء لتوجيهه إلى ترتيب الرؤية على ما ذكر من شئون الله تعالى المنافية لها غاية المنافاة وهى قلبية ومفعولها الثانى محذوف لدلالة الحال عليه فالمعنى أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمة الله عز وجل فى ملكه وملكوته وجلاله وجبروته وأحكام قدرته ونفاذ أمره فى الملأ الأعلى وما تحت الثرى وما بينهما رأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها وقماءتها بنات له تعالى وقيل المعنى أفرأيتم هذه الأصنام مع حقارتها وذلتها شركاء الله تعالى مع ما تقدم من عظمته وقيل أخبرونى عن آلهتكم هل لها شىء من القدرة والعظمة التى وصف بها رب العزة فى الآى السابقة وقيل المعنى أظننتم أن هذه الأصنام التى تعبدونها تنفعكم وقيل أظننتم أنها تشفع لكم فى الآخرة وقيل أفرأيتم إلى هذه الأصنام إن عبدتموها لا تنفعكم وإن تركتموها لا تضركم والأول هو الحق كما يشهد به قوله تعالى :

﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ شهادة بينة فإنه توبيخ مبنى على التوبيخ الأول وحيث كان مداره تفصيل جانب أنفسهم على جنابه تعالى بنسبتهم إليه تعالى الإناث مع اختيارهم لأنفسهم الذكور وجب أن يكون مناط الأول نفس تلك النسبة حتى يتسنى بناء التوبيخ الثانى عليه وظاهر أن ليس فى شىء من التقديرات المذكورة من تلك النسبة عين ولا أثر وأما ما قيل من أن هذه الجملة مفعول ثان للرؤية وخلوها عن العائد إلى المفعول الأول لما أن الأصل أخبرونى أن اللات والعزى ومناة ألكم

---

(١) انظر السيوطى فى الدر المنثور .

الذكر وله هن أى تلك الأصنام فوضع موضعها الأنثى لمراعاة الفواصل وتحقيق مناط التوبيخ فمع ما فيه من التمحلات التى ينبغى تنزيه (ساحة)(١) التنزيل عن أمثالها يقتضى اقتصار التوبيخ على ترجيح جانبهم الحقير على جناب الله العزيز الجليل من غير تعرض للتوبيخ على نسبة الولد إليه سبحانه .

﴿ تلك ﴾ إشارة إلى القسمة المنفهمة من الجملة الاستفهامية ﴿ إذاً قسمة ضيزى ﴾ أى جائرة حيث جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه وهى فعلى من الضيز وهو الجور لكنه كسر فاؤه لتسلم الياء كما فعل فى بيض فان فعلى بالكسر لم يأت فى الوصف وقرىء ضئزى بالهمزة من ضأزه إذا ظلمه على أنه مصدر نعت وقرىء ضيزى إما على أنه مصدر وصف به كدعوى أو على أنه صفة كسكرى وعطشى ﴿ إن هى ﴾ الضمير للأصنام أى ما الأصنام باعتبار الألوهية التى يدعونها ﴿ إلا أسماء ﴾ محضة ليس تحتها مما تنبىء هى عنه من معنى الألوهية شىء ما أصلا وقوله تعالى ﴿ سميتموها ﴾ صفة لأسماء وضميرها لها لا للأصنام والمعنى جعلتموها أسماء لا جعلتم لها أسماء فإن التسمية نسبة بين الاسم والمسمى فإذا قيست إلى الإسم فمعناها جعله إسما للمسمى وإن قيست إلى المسمى فمعناها جعله مسمى للإسم وإنما اختير ههنا المعنى الأول من غير تعرض للمسمى لتحقيق أن تلك الأصنام التى يسمونها آلهة أسماء مجردة ليس لها مسميات قطعا كما فى قوله تعالى ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها ﴾ الآية لا أن هناك مسميات لكنها لا تستحق التسمية وقيل هى للأسماء الثلاثة المذكورة حيث كانوا يطلقونها على تلك الأصنام لاعتقادهم أنها تستحق العكوف على عبادتها والإعزاز والتقرب إليها بالقربين وأنت خبير بأنه لو سلم دلالة الأسماء المذكورة على ثبوت تلك المعانى الخاصة للأصنام فليس فى سلبها عنها مزيد فائدة بل إنما هى فى سلب الألوهية عنها كما هو زعمهم (٢) المشهور فى حق جميع الأصنام على وجه برهانى فإن انتفاء الموصوف يقتضى انتفاء الوصف بطريق الأولوية أى ما هى إلا أسماء

---

(١) سقط من ط .

(٢) فى ١١ على زعمهم للشهور .

خالية عن المسميات وضعتموها ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ برهان تتعلقون به ﴿ أى يتبعون ﴾ التفات إلى الغيبة للإيذان بأن تعداد قبائحهم اقتضى الإعراض عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم أى ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها ﴿ إلا الظن ﴾ إلا توهم أن ما هم عليه حق توهما باطلا ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ أى تشتهيه أنفسهم الأمارة بالسوء ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ قيل هى حال من فاعل يتبعون أو اعتراض وأيا ما كان ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن وهو النفس وزيادة تقبيح لحالهم فإن اتباعهما من أى شخص كان قبيح وممن هداه الله تعالى بإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم وإنزال الكتاب أقبح .

﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ أم منقطعة وما فيها من بل للانتقال من بيان أن ما هم عليه غير مستند إلا إلى توهمهم وهوى أنفسهم إلى بيان أن ذلك مما لا يجدى نفعا أصلا والهمزة للإنكار والنفى أى ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه من الأمور التى من جملتها أطماعهم الفارغة فى شفاعة الآلهة ونظائرها التى لا تكاد تدخل تحت الوجود ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما يتمناه حتما فإن اختصاص أمور الآخرة والأولى جميعا به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون له أمر من الأمور وقوله تعالى ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا ﴾ إقناط لهم عما علقوا به أطماعهم من شفاعة الملائكة لهم موجب لإقناطهم من شفاعة الأصنام بطريق الأولوية وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها الرفع على الابتداء والخبر هى الجملة المنفية وجمع الضمير فى شفاعتهم مع إفراد الملك باعتبار المعنى أى وكثير من الملائكة لا تغنى شفاعتهم عند الله تعالى شيئا من الإغناء فى وقت من الأوقات ﴿ إلا من بعد أن يأذن الله ﴾ لهم فى الشفاعة ﴿ لمن يشاء ﴾ أن يشفعوا له ﴿ ويرضى ﴾ ويراه أهلا للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل من الشفاعة بألف منزل فإذا كان حال الملائكة فى باب الشفاعة كما ذكر فما ظنهم بحال الأصنام ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾

وبما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصى ﴿ليسمون الملائكة﴾ المنزهين عن سمات النقصان على الإطلاق أى يسمون كل واحد منهم ﴿تسمية الأنثى﴾ فإن قولهم الملائكة بنات الله قول منهم بأن كلا منهم بنته[1] سبحانه وهى التسمية بالأنثى وفى تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنها فى الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة فى الآخرة بحيث لا يجترىء عليها إلا من لا يؤمن بها رأسا وقوله تعالى ﴿وما لهم به من علم﴾ حال من فاعل يسمون أى يسمونهم والحال أنه لا علم لهم بما يقولون أصلا وقرىء بها أى بالملائكة أو بالتسمية ﴿إن يتبعون﴾ فى ذلك ﴿إلا الظن﴾ الفاسد ﴿وإن الظن﴾ أى جنس الظن كما يلوح به الإظهار فى موقع الإضمار ﴿لا يغنى من الحق شيئاً﴾ من الإغناء فإن الحق الذى هو عبارة عن حقيقة الشىء لا يدرك إلا بالعلم والظن لا اعتداد به فى شأن المعارف الحقيقية وإنما يعتد به فى العمليات وما يؤدى إليها ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا﴾ أى عنهم ووضع الموصول موضع ضميرهم للتوسل به أى وصفهم بما فى حيز صلته من الأوصاف القبيحة وتعليل الحكم بها أى فأعرض عمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم اليقينى وهو القرآن المنطوى على علوم الأولين والآخرين المذكر لأمور الآخرة أو عن ذكرنا كما ينبغى فإن ذلك مستتبع لذكر الآخرة وما فيها من الأمور المرغوب فيها والمرهوب عنها ﴿ولم يرد إلا الحياة الدنيا﴾ راضيا بها قاصرا نظره عليها والمراد النهى عن دعوته والاعتناء بشأنه فإن من أعرض عما ذكر وانهمك فى الدنيا بحيث كانت هى منتهى همته وقصارى سعيه لا تزيده الدعوة إلى خلافها إلا عناداً وإصرارا على الباطل ﴿ذلك﴾ أى ما أداهم فيه من التولى وقصر الإرادة على الحياة الدنيا ﴿مبلغهم من العلم﴾ لا يكادون يجاوزونه إلى غيره حتى تجديهم الدعوة والإرشاد وجمع الضمير فى مبلغهم باعتبار معنى من كما أن إفراده فيما سبق باعتبار لفظها

(١) فى ١١ : بناته .

والمراد بالعلم مطلق الإدراك المنتظم للظن الفاسد والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا وقوله تعالى ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ تعليل للأمر بالإعراض وتكرير قوله تعالى هو أعلم لزيادة التقرير والإيذان بكمال تباين المعلومين والمراد بمن ضل من أصر عليه ولم يرجع إلى الهدى أصلا وبمن اهتدى من شأنه الاهتداء فى الجملة أى هو المبالغ فى العلم بمن لا يرعوى عن الضلال أبداً وبمن يقبل الاهتداء فى الجملة لا غيره فلا تتعب نفسك فى دعوتهم فإنهم من القبيل الأول وفى تعليل الأمر بإعراضه عليه السلام عن الاعتناء بأمرهم باقتصار العلم بأحوال الفريقين عليه تعالى رمز الى أنه تعالى يعاملهم بموجب علمه بهم فيجزى كلا منهم بما يليق به من الجزاء ففيه وعيد ووعد ضمنا كما سيأتى صريحاً .

﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى خلقا وملكا لا لغيره أصلا لا استقلالا ولا اشتراكا وقوله تعالى ﴿ ليجزى ﴾ الخ متعلق بما دل عليه أعلم الخ وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله فإن كون الكل مخلوقا له تعالى مما يقرر علمه تعالى بأحوالهم ألا يعلم من خلق كأنه قيل فيعلم ضلال من ضل واهتداء من اهتدى ويحفظهما ليجزى ﴿ الذين أساءوا بما عملوا ﴾ أى بعقاب ما عملوا من الضلال الذى عبر عنه بالإساءة بيانا لحاله أو بسبب ما عملوا .

﴿ ويجزى الذين أحسنوا ﴾ أى اهتدوا ﴿ بالحسنى ﴾ أى بالمثوبة الحسنى التى هى الجنة أو بسبب أعمالهم الحسنى وقيل متعلق بما دل عليه قوله تعالى (ولله ما فى السموات وما فى الأرض) كأنه قيل خلق ما فيهما ليجزى الخ ، وقيل: متعلق بضل واهتدى على أن اللام للعاقبة أى هو أعلم بمن ضل ليؤول أمره إلى أن يجزيه الله تعالى بعمله وبمن اهتدى ليؤول أمره إلى أن يجزيه بالحسنى وفيه من البعد ما لا يخفى وتكرير الفعل لإبراز كمال الاعتناء بأمر الجزاء والتنبيه على تباين الجزاءين ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم ﴾ بدل من الموصول الثانى وصيغة الاستقبال فى صلته للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره أو بيان أو نعت أو منصوب على المدح وكبائر الإثم ما يكبر عقابه من الذنوب وهو مارتب

عليه الوعيد بخصوصه وقرىء كبير الإثم على إرادة الجنس أو الشرك ﴿ والفواحش ﴾ وما فحش من الكبائر خصوصا ﴿ إلا اللمم ﴾ أى إلا ما قل وصغر فإنه مغفور ممن يجتنب(١) الكبائر قيل هى النظرة والغمزة والقبلة وقيل هى الخطرة من الذنب وقيل كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا ولا عذابا وقيل عادة النفس الحين بعد الحين والاستثناء منقطع ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر فالجملة تعليل لاستثناء اللمم وتنبيه على أن إخراجه عن حكم المؤاخذة به ليس لخلوه عن الذنب فى نفسه بل لسعة المغفرة الربانية وقيل المعنى له أن يغفر لمن يشاء من المؤمنين ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ولعل تعقيب وعيد المسيئين ووعد المحسنين بذلك حينئذ لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته تعالى ولا يتوهم وجوب العقاب عليه تعالى(٢) .

﴿ هو أعلم بكم ﴾ أى بأحوالكم يعلمها ﴿ إذ أنشأكم ﴾ فى ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام ﴿ من الأرض ﴾ إنشاء إجماليا حسبما مر تقريره مرارا ﴿ وإذ أنتم أجنة ﴾ أى ووقت كونكم أجنة ﴿ فى بطون أمهاتكم ﴾ على أطوار مختلفة مترتبة لا يخفى عليه حال من أحوالكم وعمل من أعمالكم التى من جملتها اللمم الذى لولا المغفرة الواسعة لأصابكم وباله فالجملة استئناف مقرر لما قبلها والفاء فى قوله تعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ لترتيب النهى عن تزكية النفس على ما سبق من أن عدم المؤاخذة باللمم ليس لعدم كونه من قبيل الذنوب بل لمحض مغفرته تعالى مع علمه بصدوره عنكم أى إذا كان الأمر كذلك فلا تثنوا عليها بالطهارة عن المعاصى بالكلية أو بما يستلزمها من زكاء العمل ونماء الخير بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته ﴿ هو أعلم بمن اتقى ﴾ المعاصى جميعا وهو استئناف مقرر للنهى ومشعر بأن فيهم من يتقيها بأسرها وقيل كان ناس يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت وهذا إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء فأما من اعتقد أن ما عمله من الأعمال الصالحة من الله تعالى وبتوفيقه

---

(١) فى ١١ : لمن يجتنب . (٢) فى ١١ : منه تعالى وهو أوضح .

وتأييده ولم يقصد به التمدح لم يكن من المزكين أنفسهم فإن المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر .

﴿ أفرأيت الذى تولى ﴾ أى عن اتباع الحق والثبات عليه ﴿ وأعطى قليلا ﴾ أى شيئاً قليلا أو إعطاء قليلا ﴿ وأكدى ﴾ أى قطع العطاء من قولهم أكدى الحافر إذا بلغ الكدية أى الصلابة كالصخرة فلا يمكنه أن يحفر قالوا نزلت فى الوليد بن المغيرة كان يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بعض المشركين وقال له تركت دين الأشياخ وضللتهم فقال أخشى عذاب الله فضمن أن يتحمل عنه العذاب إن أعطاه بعض ماله فارتد وأعطاه بعض المشروط وبخل بالباقى وقيل نزلت فى العاص بن وائل السهمى لما أنه كان يوافق النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الأمور وقيل فى أبى جهل كان ربما يوافق الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض الأمور وكان يقول والله ما يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق وذلك قوله تعالى (وأعطى قليلا وأكدى) والأول هو الأشهر المناسب لما بعده من قوله تعالى ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ الخ أى أعنده علم بالأمور الغيبية التى من جملتها تحمل صاحبه عنه يوم القيامة ﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ﴾ أى وفر وأتم ما ابتلى به من الكلمات أو أمر به أو بالغ فى الوفاء بما عاهد الله وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمرود حتى أنه أتاه جبريل عليه السلام حين يلقى فى النار فقال ألك حاجة فقال أما إليك فلا وعلى ذبح الولد ويروى أنه كان يمشى كل يوم فرسخا يرتاد ضيفا فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم وتقديم موسى لما أن صحفه التى هى التوراة أشهر عندهم وأكثر ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أى أنه لا تحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى على أن « أن » هى المخففة من الثقيلة وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف والجملة المنفية خبرها ومحل الجملة الجر على أنها بدل مما فى صحف موسى أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل ما فى صحفهما فقيل هو أن لا تزر الخ والمعنى أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ليتخلص الثانى عن عقابه ولا يقدح فى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام من

سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة فإن ذلك وزر الإضلال الذى هو وزره وقوله تعالى :

مسئولية الإنسان

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ﴾ بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره من حيث جلب النفع إليه إثر بيان عدم انتفاعه به من حيث دفع الضرر عنه وأما شفاعة الأنبياء عليهم السلام واستغفار الملائكة عليهم السلام ودعاء الأحياء للأموات وصدقتهم عنهم وغير ذلك مما لا يكاد يحصى من الأمور النافعة للإنسان مع أنها ليست من عمله قطعا فحيث كان مناط منفعة كل منها عمله الذى هو الإيمان والصلاح ولم يكن لشىء منها نفع ما بدونه جعل النافع نفس عمله وإن كان بانضمام عمل غيره إليه وأن مخففة كأختها معطوفة عليها وكذا قوله تعالى :

﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ أى يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة فى صحيفته وميزانه من أريته الشىء ﴿ ثم يجزاه ﴾ أى يجزى الإنسان سعيه يقال جزاه الله بعمله وجزاه على عمله بحذف الجار وإيصال الفعل ويجوز أن يجعل الضمير للجزاء ثم يفسر بقوله تعالى ﴿ الجزاء الأوفى ﴾ أو يبدل هو عنه كما فى قوله تعالى (وأسروا النجوى الذين ظلموا) ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ أى انتهاء الخلق ورجوعهم إليه تعالى لا إلى غيره استقلالا ولا اشتراكا وقرىء بكسر إن على الابتداء ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ أى هو خلق قوتى الضحك والبكاء ﴿ وأنه هو أمات وأحيى ﴾ لا يقدر على الإماتة والإحياء غيره فإن أثر القاتل نقض البنية وتفريق الاتصال وإنما يحصل الموت عنده بفعل الله تعالى على العادة ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ﴾ تدفق فى الرحم أو تخلق أو يقدر منها الولد من منى بمعنى قدر ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ أى الإحياء بعد الموت وفاء بوعده وقرىء النشاءة بالمد وهى أيضا مصدر نشأه ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ وأعطى القنية وهى ما يتأثل من الأموال وأفردها بالذكر لأنها أشرف الأموال أو أرضى وتحقيقه جعل الرضا له قنية ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ أى رب معبودهم وهى العبور وهى أشد ضياء من الغميصاء

وكانت خزاعة تعبدها سن لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشرافهم وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبو كبشة تشبيها له عليه الصلاة والسلام به لمخالفته إياهم فى دينهم .

﴿ وأنه أهلك عادا الأولى ﴾ هى قوم هود عليه السلام وعاد الأخرى إرم. وقيل الأولى القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح وقرىء عاد الاولى بحذف الهمزة ونقل ضمتها إلى اللام وعاد لولى بإدغام التنوين فى اللام وطرح همزة أولى ونقل حركتها إلى لام التعريف ﴿ وثمود ﴾ عطف على عاداً لأن ما بعده لا يعمل فيـــه وقرىء وثموداً بالتنوين ﴿ فما أبقى ﴾ أى أحدا من الفريقين ﴿ وقوم نوح ﴾ عطف عليه أيضا ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل إهلاك عاد وثمود ﴿ إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ من الفريقين حيث كانوا يؤذونه وينفرون الناس عنه وكانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه وكانوا يضربونه عليه الصلاة والسلام حتى لا يكون به حراك وما أثر فيهم دعاؤه قريبا من ألف سنة ﴿ والمؤتفكة ﴾ هى قرى قوم لوط ائتفكت بأهلها أى انقلبت بهم. ﴿ أهوى ﴾ أى أسقطها إلى الأرض بعد أن رفعها على جناح جبريل عليه السلام إلى السماء ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ من فنون العذاب وفيه من التهويل والتفظيع ما لا غاية وراءه ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾ تتشكك والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام على طريقة قوله تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) أو لكل أحد وإسناد فعل التمارى إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه فإن صيغة التفاعل وإن كانت موضوعة لإفادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يكون كل من ذلك فاعلا ومفعولا معاً لكنها قد تجرد عن المعنى الثانى فيراد بها المعنى الأول فقط كما فى يتداعونهم أى يدعونهم وقد تجرد عنهم أيضاً فيكتفى بتعدد الفعل بتعدد متعلقه كما فيما نحن فيه فإن المراء متعدد بتعدد الآلاء فتدبر وتسمية الأمور المعدودة آلاء مع أن بعضها نقم لما أنها أيضاً نعم من حيث أنها نصرة للأنبياء والمؤمنين وانتقام لهم وفيها عظات وعبر للمعتبرين .

﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ هذا إما إشارة إلى القرآن والنذير مصدر أو إلى الرسول عليه الصلاة والسلام والنذير بمعنى المنذر وأياً ما كان فالتنوين للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف هو نعت لنذير مقرر له ومتضمن للوعيد أى هذا القرآن الذى تشاهدونه نذير من قبيل الانذارات المتقدمة التى سمعتم عاقبتها أو هذا الرسول منذر من جنس المنذرين الأولين والأولى على تأويل الجماعة(١) لمراعاة الفواصل وقد علمتم أحوال قومهم المنذرين وفى تعقيبه بقوله تعالى ﴿ أزفت الآزفة ﴾ إشعار بأن تعذيبهم مؤخر إلى يوم القيامة أى دنت الساعة الموصوفة بالدنو فى نحو قوله تعالى(اقتربت الساعة) ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ أى ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها إلا الله تعالى لكنه لا يكشفها أو ليس لها الآن نفس كاشفة بتأخيرها إلا الله تعالى فإنه المؤخر لها أو ليس لها كاشفة لوقتها إلا الله تعالى كقوله تعالى (لا يجليها لوقتها إلا هو) أو ليس لها من غير الله تعالى كشف على أن كاشفة مصدر كالعافية ﴿ أفمن هذا الحديث ﴾ أى القرآن ﴿ تعجبون ﴾ إنكارا ﴿ وتضحكون ﴾ استهزاء مع كونه أبعد شىء من ذلك ﴿ ولا تبكون ﴾ حزنا على ما فرطتم فى شأنه وخوفا من أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة ﴿ وأنتم سامدون ﴾ أى لاهون أو مستكبرون من سمد البعير إذا رفع رأسه أو مغنون لتشغلوا الناس عن استماعه من السمود بمعنى الغناء على لغة حمير أو خاشعون جامدون من السمود بمعنى الجمود والخشوع كما فى قول من قال :

رمى الحدثان نسوة آل سعد ... بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا ... ورد وجوههن البيض سودا

والجملة حال من فاعل لا تبكون خلا أن مضمونها على الوجه الأخير قيد

(١) فى ١١ : على تأويل الجمع .

للنفى والإنكار وارد على نفى البكاء والسمود معا وعلى الوجوه الأول قيد للنفى والإنكار متوجه إلى نفى البكاء ووجود السمود والأول أوفى بحق المقام فتدبر والفاء فى قوله تعالى ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ لترتيب الأمر أو موجبه على ما تقرر من بطلان مقابلة القرآن بالإنكار والاستهزاء ووجوب تلقيه بالإيمان مع كمال الخضوع والخشوع أى وإذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله الذى أنزله واعبدوه . عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة والنجم أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة شرفها الله تعالى .

* * *

سورة القمر

مكية ، وآيها خمس وخمسون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ روى أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر قال ابن عباس رضى الله عنهما انفلق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت وقال ابن مسعود رأيت حراء بين فلقتى القمر وعن عثمان بن عطاء عن أبيه أن معناه سينشق يوم القيامة ويرده قوله تعالى ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ فإنه ناطق بأنه قد وقع وأنهم قد شاهدوه بعد مشاهدة نظائره وقرىء وقد انشق القمر أى اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق ومعنى الاستمرار الاطراد أو الاستحكام أى وإن يروا آية من آيات الله يعرضوا عن التأمل فيها ليقفوا على حقيتها وعلو طبقتها ويقولوا سحر مطرد دائم يأتى به محمد على مر الزمان لايكاد يختلف بحال كسائر أنواع السحر أو قوي مستحكم لا يمكن إزالته وقيل

مستمر ذاهب يزول ولا يبقى تمنية لأنفسهم وتعليلا وهو الأنسب بغلوهم فى العناد والمكابرة ويؤيده ما سيأتى لرده وقرىء وإن يروا على البناء للمفعول من الإراءة ﴿ وكذبوا ﴾ أى بالنبى صلى الله عليه وسلم وما عاينوه مما أظهره الله تعالى على يده من المعجزات ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ التى زينها الشيطان لهم أو كذبوا الآية التى هى انشقاق القمر واتبعوا أهواءهم وقالوا سحر القمر أو سحر أعيننا والقمر بحاله وصيغة الماضى للدلالة على التحقق وقوله تعالى ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ استئناف مسوق لإقناطهم عما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا سحر مستمر ببيان ثباته ورسوخه أى وكل أمر من الأمور مستقر أى منته إلى غاية يستقر عليها لامحالة ومن جملتها أمر النبى صلى الله عليه وسلم فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه وإبهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور الحال وعدم الحاجة إلى التصريح به وقيل المعنى كل أمر من أمرهم وأمره عليه الصلاة والسلام مستقر أى سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة فى الدنيا وشقاوة أو سعادة فى الآخرة وقرىء بالفتح على أنه مصدر أو اسم مكان أو اسم زمان أى ذو استقرار أو ذو موضع استقرار أو ذو زمان استقرار وبالكسر والجر على أنه صفة أمر وكل عطف على الساعة أى اقتربت الساعة وكل أمر مستقر ، ﴿ ولقد جاءهم ﴾ أى فى القرآن وقوله تعالى ﴿ من الأنباء ﴾ أى أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة متعلق بمحذوف هو حال مما بعده أى وبالله لقد جاءهم كائنا من الأنباء ﴿ ما فيه مزدجر ﴾ أى ازدجار من تعذيب أو وعيد أو موضع ازدجار على أن فى تجريدية والمعنى أنه فى نفسه موضع ازدجار وتاء الافتعال تقلب دالا مع الدال والذال والزاى للتناسب وقرىء مزجر بقلبها زاء وإدغامها ﴿ حكمة بالغة ﴾ غايتها لا خلل فيها وهى بدل من ما أو خبر لمحذوف وقرىء بالنصب حالا منها فإنها موصولة أو موصوفة تخصصت بصفتها فساغ نصب الحال عنها ﴿ فما تغنى النذر ﴾ نفى للإغناء أو إنكار له والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجىء الحكمة البالغة مع كونه مظنة للإغناء وصيغة المضارع للدلالة

على تجدد عدم الإغناء واستمراره حسب تجدد مجىء الزواجر واستمراره وما على الوجه الثانى منصوبة أى فأى إغناء تغنى النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر أو مصدر بمعنى الإنذار .

من أهوال البعث ونظائره فى الدنيا

﴿ فتول عنهم ﴾ لعلمك بأن الإنذار لا يؤثر فيهم البتة ﴿يوم يدع الداع﴾ منصوب بيخرجون أو باذكر والداعى إسرافيل عليه السلام ويجوز أن يكون الدعاء فيه كالأمر فى قوله تعالى (كن فيكون) وإسقاط الياء للاكتفاء بالكسر تخفيفا ﴿ إلى شىء نكر ﴾ أى منكر فظيع تنكره النفوس لعدم العهد بمثله وهو هول القيامة وقرىء نكر بالتخفيف ونكر بمعنى أنكر ﴿خشعا أبصارهم﴾ حال من فاعل ﴿ يخرجون ﴾ والتقديم لأن العامل متصرف أى يخرجون ﴿ من الأجداث ﴾ أذلة أبصارهم من شدة الهول وقرىء خاشعا والإفراد والتذكير لأن فاعله ظاهر غير حقيقى التأنيث وقرىء خاشعة على الأصل وقرىء خشع أبصارهم على الابتداء والخبر على أن الجملة حال ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ فى الكثرة والتموج والتفرق فى الأقطار ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ مسرعين مادى أعناقهم إليه أو ناظرين إليه ﴿ يقول الكافرون ﴾ استئناف وقع جوابا عما نشأ من وصف اليوم بالأهوال وأهله بسوء الحال كأنه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقول الكافرون ﴿ هذا يوم عسر ﴾ أى صعب شديد وفى إسناد القول المذكور إلى الكفار تلويح بأن المؤمنين ليسوا فى تلك المرتبة من الشدة ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ شروع فى تعداد بعض ما ذكر من الأنباء الموجبة للازدجار ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تأثرهم بها تقريراً لفحوى قوله تعالى (فما تغنى النذر) أى فعل التكذيب قبل تكذيب قومك قوم نوح وقوله تعالى ﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ تفسير لذلك التكذيب المبهم كما فى قوله تعالى (ونادى نوح ربه فقال رب) الخ ، وفيه مزيد تقرير وتحقيق للتكذيب وقيل معناه كذبوه تكذيبا إثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب جاء عقيبه قرن آخر مكذب مثله .

وقيل: كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا لأنه من جملتهم وفى ذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه الصلاة والسلام ورفع لمحله وزيادة تشنيع لمكذبيه ﴿ وقالوا مجنون ﴾ أى لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون ﴿ وازدجر ﴾ عطف على قالوا أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية وقيل هو من جملة ماقالوه أى هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته ﴿ فدعا ربه أنى ﴾ أى بأنى وقرىء بالكسر على إرادة القول ﴿ مغلوب ﴾ أى من جهة قومى مالى قدرة على الانتقام منهم ﴿ فانتصر ﴾ أى فانتقم لى منهم وذلك بعد تقرر يأسه منهم بعد اللتيا والتى فقد روى أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشيا عليه ويقول اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ منصب وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها وقرىء ففتحنا بالتشديد لكثرة الأبواب ﴿ وفجرنا الأرض عيونا ﴾ أى جعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة وأصله وفجرنا عيون الأرض فغير قضاء لحق المقام ﴿ فالتقى الماء ﴾ أى ماء السماء وماء الأرض والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة والتقارب بل بطريق الاختلاط والاتحاد وقرىء الماءان لاختلاف النوعين والماوان بقلب الهمزة واوا ﴿ على أمر قد قدر ﴾ أى كائنا على حال قد قدرها الله تعالى من غير تفاوت أو على حال قدرت وسويت وهو أن قدر ما أنزل على قدر ما أخرج أو على أمر قدره الله تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ﴿ وحملناه ﴾ أى نوحا عليه السلام ﴿ على ذات ألواح ﴾ أى أخشاب عريضة ﴿ ودسر ﴾ ومسامير جمع دسار من الدسر وهو الدفع وهى صفة للسفينة أقيمت مقامها من حيث إنها كالشرح لها تؤدى مؤداها ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ بمرأى منا أى محفوظة بحفظنا ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ أى فعلنا ذلك جزاء لنوح عليه السلام لأنه كان نعمة كفروها فإن كل نبى نعمة من الله تعالى على أمته ورحمة وأى نعمة ورحمة وقد جوز أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل

إلى الضمير واستتاره فى الفعل بعد انقلابه مرفوعا وقرىء لمن كفر أى للكافرين .

﴿ ولقد تركناها ﴾ أى السفينة أو الفعلة ﴿ آية ﴾ يعتبر بها من يقف على خبرها وقال قتادة أبقاها الله تعالى بأرض الجزيرة وقيل على الجودى دهرا طويلا حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة ﴿ فهل من مدكر ﴾ أى معتبر بتلك الآية الحقيقة بالاعتبار وقرىء مذتكر على الأصل ومذكر بقلب التاء ذالا والإدغام فيها ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ استفهام تعظيم وتعجيب أى كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف والنذر جمع نذير بمعنى الإنذار ﴿ ولقد يسرنا القرآن ﴾ الخ جملة قسمية وردت فى أواخر القصص الأربع تقريرا لمضمون ما سبق من قوله تعالى (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر) وتنبيها على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادكار كافية فى الازدجار ومع ذلك لم تقع واحدة فى حيز الاعتبار أى وبالله لقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحناه بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد والوعد ﴿ للذكر ﴾ أى للتذكر والاتعاظ ﴿ فهل من مدكر ﴾ إنكار ونفى للمتعظ على أبلغ وجه وآكده حيث يدل على أنه لا يقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم وحمل تيسيره على تسهيل حفظه بجزالة نظمه وعذوبة ألفاظه وعباراته مما لا يساعده المقام ﴿ كذبت عاد ﴾ أى هودا عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له روما للاختصار ومسارعة إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب وقوله تعالى ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ لتوجيه قلوب السامعين نحو الاصغاء إلى ما يلقى إليهم قبل ذكره لا لتهويله وتعظيمه وتعجيبهم من حالة بعد بيانه كما قبله وما بعده كأنه قيل كذبت عاد فهل سمعتم أو فاسمعوا كيف كان عذابى وإنذاراتى لهم وقوله تعالى ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا ﴾ استئناف ببيان ما أجمل أو لا أى أرسلنا عليهم ريحا باردة أو شديدة الصوت ﴿ فى يوم نحس ﴾ شؤم ﴿ مستمر ﴾ أى شؤمه أو مستمر عليهم إلى أن أهلكهم أو شامل لجميعهم كبيرهم وصغيرهم أو مشتد مرارته وكان يوم الأربعاء

آخر الشهر ﴿ تنزع الناس ﴾ تقلعهم روى أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ أى منقلع عن مغارسه قيل شبهوا بأعجاز النخل وهى أصولها بلا فروع لأن الريح كانت تقلع رؤسهم فتبقى أجسادا وجثثا بلا رؤس وتذكير صفة نخل للنظر إلى اللفظ كما أن تأنيثها فى قوله تعالى (أعجاز نخل خاوية) للنظر إلى المعنى وقوله تعالى :

﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ تهويل لهما وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما فليس فيه شائبة تكرار وما قيل من أن الأول لما حاق بهم فى الدنيا والثانى لما يحيق بهم فى الآخرة يرده ترتيب الثانى على العذاب الدنيوى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ الكلام فيه كالذى مر فيما سبق ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ أى الإنذارات والمواعظ التى سمعوها من صالح أو بالرسل عليهم السلام فإن تكذيب أحدهم تكذيب للكل لاتفاقهم على أصول الشرائع ﴿ فقالوا أبشرا منا ﴾ أى كائنا من جنسنا وانتصابه بفعل يفسره ما بعده ﴿ واحدا ﴾ أى منفردا لاتبع له أو واحدا من آحادهم لا من أشرافهم وهو صفة أخرى لبشرا وتأخيره عن الصفة المؤولة للتنبيه على أن كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع ولو قدم عليها لفاتت هذه النكتة وقرىء أبشر منا واحد على الابتداء وقوله تعالى ﴿ نتبعه ﴾ خبره والأول أوجه للاستفهام ﴿ إنا إذاً ﴾ أى على تقدير اتباعنا له وهو منفرد ونحن أمة جمة ﴿ لفى ضلال ﴾ عن الصواب ﴿ وسعر ﴾ أى جنون فإن ذلك بمعزل من مقتضى العقل وقيل كان يقول لهم إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر أى نيران جمع سعير فعكسوا عليه عليه السلام لغاية عتوهم فقالوا إن اتبعناك كنا إذن كما تقول ﴿ أألقى الذكر ﴾ أى الكتاب والوحى ﴿ عليه من بيننا ﴾ وفينا من هو أحق منه بذلك ﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ أى ليس الأمر كذلك بل هو كذا وكذا حمله بطره على الترفع علينا بما ادعاه وقوله تعالى ﴿ سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ﴾ حكاية لما قاله تعالى لصالح عليه السلام وعدا له ووعيدا لقومه والسين لتقريب.

مضمون الجملة وتأكيده والمراد بالغد وقت نزول العذاب أى سيعلمون البتة عن قريب من الكذاب الأشر الذى حمله أشره وبطره على الترفع أصالح هو أم من كذبه وقرىء ستعلمون على الالتفات لتشديد التوبيخ أو على حكاية ما أجابهم به صالح وقرىء الأشر كقولهم حذر فى حذر وقرىء الأشر أى الأبلغ فى الشرارة وهو أصل مرفوض كالأخير وقيل المراد بالغد يوم القيامة ويأباه قوله تعالى :

﴿ إنا مرسلو الناقة ﴾ الخ فإنه استئناف مسوق لبيان مبادى الموعود حتما أى مخرجوها من الهضبة حسبما سألوا ﴿ فتنة لهم ﴾ أى امتحانا ﴿ فارتقبهم ﴾ أى فانتظرهم وتبصر ما يصنعون ﴿ واصطبر ﴾ على أذيتهم ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ﴾ مقسوم لها يوم ولهم يوم وبينهم لتغليب العقلاء ﴿ كل شرب محتضر ﴾ يحضره صاحبه فى نوبته ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ هو قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿ فتعاطى فعقر ﴾ فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له فأحدث العقر بالناقة وقيل فتعاطى الناقة فعقرها أو فتعاطى السيف فقتلها والتعاطى تناول الشىء بتكلف ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ الكلام فيه كالذى مر فى صدر قصة عاد ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ﴾ هى صيحة جبريل عليه السلام ﴿ فكانوا ﴾ أى فصاروا ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ أى كالشجر اليابس الذى يتخذه من يعمل الحظيرة لأجلها أو كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء وقرىء بفتح الظاء أى كهشيم الحظيرة أو الشجر المتخذ لها ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت قوم لوط بالنذر إنا أرسلنا عليهم حاصبا ﴾ أى ريحا تحصبهم أى ترميهم بالحصباء ﴿ إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ فى سحر وهو آخر الليل وقيل هو السدس الأخير منه أى ملتبسين بسحر ﴿ نعمة من عندنا ﴾ أى إنعاما منا وهو علة لنجينا ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿ نجزى من شكر ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة ﴿ ولقد أنذرهم ﴾ لوط عليه السلام ﴿ بطشتنا ﴾ أى أخذتنا الشديدة بالعذاب ﴿ فتماروا ﴾ فكذبوا ﴿ بالنذر ﴾ متشاكين ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾ قصدوا الفجور

بهم ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾ فمسحناها وسويناها كسائر الوجه روى أنهم لما دخلوا داره عنوة صفقهم جبريل عليه السلام صفقة فتركهم يترددون لا يهتدون الى الباب حتى أخرجهم لوط عليه السلام ﴿ فذوقوا عذابى ونذر ﴾ أى فقلنا لهم ذوقوا على ألسنة الملائكة أو ظاهر الحال والمراد به الطمس فإنه من جملة ما أنذروه من العذاب ﴿ ولقد صبحهم بكرة ﴾ وقرىء بكرة غير مصروفة على أن المراد بها أول نهار مخصوص ﴿ عذاب مستقر ﴾ لا يفارقهم حتى يسلمهم إلى النار وفى وصفه بالاستقرار إيماء إلى أن ماقبله من عذاب الطمس ينتهى اليه ﴿ فذوقوا عذابى ونذر ﴾ حكاية لما قيل لهم حينئذ من جهته تعالى تشديدا للعذاب ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ من ما فيه من الكلام .

﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ﴾ صدرت قصتهم بالتوكيد القسمى لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها وهول مالاقوه من العذاب وقوة إيجابها للاتعاظ[1] والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك أى وبالله لقد جاءهم الإنذارات وقوله تعالى ﴿ كذبوا بآياتنا كلها ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مجيء النذر كأنه قيل فماذا فعلوا حينئذ فقيل كذبوا بجميع آياتنا وهى الآيات التسع ﴿ فأخذناهم أخذ عزيز ﴾ لا يغالب ﴿ مقتدر ﴾ لا يعجزه شيء .

﴿ أكفاركم ﴾ يامعشر العرب ﴿ خير ﴾ قوة وشدة وعدة وعدة أو مكانة ﴿ من أولئكم ﴾ الكفار المعدودين والمعنى أنه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خيريتهم منكم فيما ذكر من الأمور فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك وأنتم شر منهم مكانا وأسوأ حالا وقوله تعالى ﴿ أم لكم براءة فى الزبر ﴾ إضراب وانتقال من التبكيت بما ذكر إلى التبكيت بوجه آخر أى بل ألكم براءة وأمن من تبعات ما تعملون من الكفر والمعاصى وغوائلهما فى الكتب السماوية فلذلك تصرون على ما أنتم عليه وقوله تعالى ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾

---

(١) فى ١١ : إيجابها بالاتعاظ

إضراب من التبكيت المذكور إلى وجه آخر من التبكيت والالتفات للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية قبائحهم لغيرهم أى بل أيقولون واثقين بشوكتهم نحن أولو حزم ورأى أمرنا مجتمع لا نرام ولا نضام أو منتصر من الأعداء لا نغلب أو متناصر ينصر بعضنا بعضا والإفراد باعتبار لفظ الجميع وقوله تعالى ﴿ سيهزم الجمع ﴾ رد وإبطال لذلك والسين للتأكيد أى يهزم جمعهم البتة ﴿ ويولون الدبر ﴾ أى الأدبار وقد قرىء كذلك والتوحيد لإرادة الجنس أو إرادة أن كل واحد منهم يولى دبره وقد كان كذلك يوم بدر قال سعيد بن المسيب سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر كنت لا أدرى أى جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر فعرفت تأويلها وقرىء سيهزم (١) الجمع أى الله عز وعلا ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ أى ليس هذا تمام عقوبتهم بل الساعة موعد أصل عذابهم وهذا من طلائعه ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ أى فى أقصى غاية من الفظاعة والمرارة والداهية الأمر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص عنه وإظهار الساعة فى موقع إضمارها لتربية تهويلها .

﴿ إن المجرمين ﴾ من الأولين والآخرين ﴿ فى ضلال وسعر ﴾ أى فى هلاك ونيران مسعرة وقيل فى ضلال عن الحق فى الدنيا ونيران فى الآخرة وقوله تعالى ﴿ يوم يسحبون ﴾ الخ منصوب إما بما يفهم من قوله تعالى فى ضلال أى كائنون فى ضلال وسعر يوم يجرون ﴿ فى النار على وجوههم ﴾ وإما بقول مقدر بعده أى يوم يسحبون يقال لهم ﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ أى قاسوا حرها وألمها وسقر علم جهنم ولذلك لم يصرف من سقرته النار وصقرته إذا لوحته والقول المقدر على الوجه الأول حال من ضمير يسحبون ﴿ إنا كل شىء ﴾ من الأشياء ﴿ خلقناه بقدر ﴾ أى ملتبسا بقدر معين اقتضته الحكمة التى عليها

---

(١) أى بالبناء للفاعل .

يدور أمر التكوين أو مقدرا مكتوبا فى اللوح قبل وقوعه وكل شىء منصوب بفعل يفسره ما بعده وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ وخلقناه خبره ﴿ وما أمرنا إلا واحدة ﴾ أى كلمة واحدة سريعة التكوين وهو قوله تعالى كن أو إلا فعلة واحدة هو الإيجاد بلا معالجة ﴿ كلمح بالبصر ﴾ فى اليسر والسرعة وقيل معناه قوله تعالى وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم ﴾ أى أشباهكم فى الكفر من الأمم وقيل أتباعكم ﴿ فهل من مدكر ﴾ يتعظ بذلك ﴿ وكل شىء فعلوه ﴾ من الكفر والمعاصى مكتوب على التفصيل ﴿ فى الزبر ﴾ أى فى ديوان الحفظة ﴿ وكل صغير وكبير ﴾ من الأعمال ﴿ مستطر ﴾ مسطور فى اللوح المحفوظ بتفاصيله ولما كان بيان سوء حال الكفرة بقوله تعالى ﴿ إن المجرمين ﴾ الخ مما يستدعى بيان حسن حال المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب بين ماالهم من حسن الحال بطريق الإجمال فقيل ﴿ إن المتقين ﴾ [بالإيمان] (١) أى من الكفر والمعاصى ﴿ فى جنات ﴾ عظيمة الشأن ﴿ ونهر ﴾ أى أنهار كذلك والإفراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل وقرىء نهر جمع نهر كأسد وأسد ﴿ فى مقعد صدق ﴾ فى مكان مرضى وقرىء فى مقاعد صدق ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ أى مقربين عند مليك لا يقادر قدر ملكه وسلطانه فلا شىء إلا وهو تحت ملكوته سبحانه ما أعظم شأنه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القمر فى كل غب بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر .

* * *

(١) سقطت من ط .

سورة الرحمن

مكية ، أو مدنية أو متبعضة وآيها ست وسبعون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

لما عدد فى السورة السابقة ما نزل بالأمم السالفة من ضروب نقم الله عز وجل وبين عقيب كل ضرب منها أن القرآن قد يسر لحمل الناس على التذكر والاتعاظ ونعى عليهم إعراضهم عن ذلك عدد فى هذه السورة الكريمة ما أفاض على كافة الأنام من فنون نعمه الدينية والدنيوية الأنفسية والآفاقية وأنكر عليهم أثر كل فن منها إخلالهم بمواجب شكرها وبدىء بتعليم القرآن فقيل ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ لأنه أعظم النعم شأنا وأرفعها مكانا كيف لا وهو مدار للسعادة الدينية والدنيوية عيار على سائر الكتب السماوية ما من مرصد يرنو إليه أحداق الأمم إلا وهو منشؤه ومناطه ولا مقصد يمتد إليه أعناق الهمم إلا وهو منهجه وصراطه وإسناد تعليمه إلى اسم الرحمن للايذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها وقد اقتصر على ذكره تنبيها على أصالته وجلالة قدره ثم قيل ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ تعيينا للمعلم وتبيينا لكيفية التعليم والمراد بخلق الإنسان إنشاؤه على ما هو عليه من القوى الظاهرة والباطنة والبيان هو التعبير عما فى الضمير وليس المراد بتعليمه مجرد تمكين الإنسان من بيان نفسه بل منه ومن فهم بيان غيره أيضا إذ هو الذى يدور عليه تعليم القرآن والجمل الثلاث أخبار مترادفة للرحمن وإخلاء الأخيرتين عن العاطف لورودها على منهاج التعديد ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ أى يجريان بحساب مقدر فى بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السلفية وتختلف الفصول والأوقات وتعلم السنون والحساب .

﴿ والنجم ﴾ أى النبات الذى ينجم أى يطلع من الأرض ولا ساق له ﴿ والشجر ﴾ أى الذى له ساق ﴿ يسجدان ﴾ أى ينقادان له تعالى فيما يريد

بهما طبعا انقياد الساجدين من المكلفين طوعا والجملتان خبران آخران للرحمن جردتا عن الرابط اللفظى تعويلا على كمال قوة الارتباط المعنوى إذ لايتوهم ذهاب الوهم إلى كون حال الشمس والقمر بتسخير غيره تعالى ولا إلى كون سجود النجم والشجر لما سواه تعالى كأنه قيل الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له وإخلاء الجملة الأولى عن العاطف لما ذكر من قبل وتوسيط العاطف بينها وبين الثانية لتناسبهما من حيث التقابل لما أن الشمس والقمر علويان والنجم والشجر سفليان ومن حيث أن كلا من حال العلويين وحال السفليين من باب الانقياد لأمر الله عز وجل .

﴿ والسماء رفعها ﴾ أى خلقها مرفوعة محلا ورتبة حيث جعلها منشأ أحكامه وقضاياه ومتنزل أوامره ومحل ملائكته وفيه من التنبيه على كبرياء شأنه وعظم ملكه وسلطانه ما لا يخفى وقرىء بالرفع على الابتداء ﴿ ووضع الميزان ﴾ أى شرع العدل وأمر به بأن وفر كل مستحق ما استحقه ووفى كل ذى حق حقه حتى انتظم به أمر العالم واستقام كما قال عليه الصلاة والسلام بالعدل قامت السموات والأرض قيل فعلى هذا الميزان القرآن وهو قول الحسين بن الفضل كما فى قوله تعالى (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) وقيل هو ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوهما وهو قول الحسن وقتادة والضحاك[1] فالمعنى خلقه موضوعا مخفوضا على الأرض حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم وما تعبدهم به من التسوية والتعديل فى أخذهم وإعطائهم ﴿ أن لاتطغوا فى الميزان ﴾ أى لئلا تطغوا فيه على أن «أن» ناصبة ولا نافية ولام العلة مقدرة متعلقة بقوله تعالى ووضع الميزان أو أى لا تطغوا على أنها مفسرة لما فى الشرع من معنى القول ولا ناهية أى لا تعتدوا ولا تتجاوزوا الإنصاف وقرىء لاتطغوا على إرادة القول ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ قوموا وزنكم بالعدل وقيل أقيموا لسان

(١) وهو كذلك قول الشعبى والثورى . انظر الدر المنثور للسيوطى .

الميزان بالقسط والعدل وقيل الإقامة باليد والقسط بالقلب ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ أي لا تنقصوه أمر أولا بالتسوية ثم نهى عن الطغيان الذى هو اعتداء وزيادة ثم الخسران الذى هو تطفيف ونقصان وكرر لفظ الميزان تشديدا التوصية به وتأكيدا للأمر باستعماله والحث عليه وقرىء ولا تخسروا بفتح التاء وضم السين وكسرها يقال خسر الميزان يخسره وبفتح السين أيضا على أن الأصل ولا تخسروا فى الميزان فحذف الجار وأوصل الفعل .

﴿ والأرض وضعها ﴾ أى خفضها مدحوة على الماء ﴿ للأنام ﴾ أى الخلق قيل المراد به كل ذى روح وقيل كل ما على ظهر الأرض من دابة وقيل الثقلان وقوله تعالى ﴿ فيها فاكهة ﴾ الخ استئناف مسوق لتقرير ما أفاده الجملة السابقة من كون الأرض موضوعة لمنافع الأنام وتفصيل المنافع العائدة إلى البشر وقيل حال مقدرة من الأرض فالأحسن حينئذ أن يكون الحال هو الجار والمجرور وفاكهة رفع على الفاعلية أى فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به ﴿ والنخل ذات الأكمام ﴾ هى أوعية الثمر جمع كم أو كل ما يكم أى يغطى من ليف وسعف وكفرى فإنه مما ينتفع به كالمكموم من ثمره وجماره وجذوعه ﴿ والحب ﴾ هو ما يتغذى به كالحنطة والشعير ﴿ ذو العصف ﴾ هو ورق الزرع وقيل التبن ﴿ والريحان ﴾ قيل هو الرزق أريد به اللب أى فيها ما يتلذذ به من الفواكه والجامع بين التلذذ والتغذى وهو ثمر النخل وما يتغذى به وهو الحب الذى له عصف هو علف الأنعام وريحان هو مطعم الناس وقرىء والحب ذا العصف والريحان أى خلق الحب والريحان أو أخص ويجوز أن يراد وذا الريحان فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه والريحان إما فيعلان من روح فقلبت واوه ياء وأدغم ثم خفف أو فعلان قلبت واوه ياء للتخفيف أو للفرق بينه وبين الروحان وهو ما له روح قاله القرطبى ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى للأنام وسينطق به قوله تعالى أيها الثقلان والفاء لترتيب الإنكار والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتما والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن

المالكية الكلية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى كفرهم بها إما بإنكار كونه نعمة فى نفسه كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية وإما بإنكار كونه من الله تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة فى نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالا أو اشتراكا صريحا أو دلالة فإن إشراكهم لآلهتهم به تعالى فى العبادة من دواعى إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر شهادة منها بذلك فكفرهم بها تكذيب بها لا محالة أى فإذا كان الأمر كما فصل فبأى فرد من أفراد آلاء مالككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان مع أن كلا منها ناطق بالحق شاهد بالصدق .

﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب(١) شكر النعمة المتعلقة بذوات(٢) كل واحد من الثقلين والصلصال الطين اليابس الذى له صلصلة والفخار الخزف وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طينا ثم حمأ مسنونا ثم صلصالا فلا تنافى بين الآية الناطقة بأحدها وبين ما نطق بأحد الآخرين ﴿ وخلق الجان ﴾ أى الجن أو أبا الجن ﴿ من مارج ﴾ من لهب صاف ﴿ من نار ﴾ بيان لمارج فإنه فى الأصل للمضطرب من مرج إذا اضطرب ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ مما أفاض عليكما فى تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ بالرفع على خبرته مبتدأ محذوف أى الذى فعل ما ذكر من الأفاعيل البديعة رب مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما ومن قضيته أن يكون رب ما بينهما من الموجودات قاطبة وقيل على الابتداء والخبر قوله تعالى مرج الخ وقرىء بالجر على أنه بدل من ربكما ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ مما فى ذلك من فوائد

(١) فى ١١ : بموجب
(٢) فى الأصل : بذاتى

لا تحصى من اعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل في وقته إلى غير ذلك ﴿ مرج البحرين ﴾ أى أرسلهما من مرجت الدابة إذا أرسلتها والمعنى أرسل البحر الملح والبحر العذب ﴿ يلتقيان ﴾ أى يتجاوران ويتماس سطوحهما لافصل بينهما فى مرأى العين وقيل أرسل بحرى فارس والروم يلتقيان فى المحيط لأنهما خليجان يتشعبان منه ﴿ بينهما برزخ ﴾ أى حاجز من قدرة الله عز وجل أو من الأرض ﴿ لا يبغيان ﴾ أى لا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية أو لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وليس منهما شىء يقبل التكذيب ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ ﴾ الدر ﴿ والمرجان ﴾ الخرز الأحمر المشهور وقيل اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره فنسبة خروجهما حينئذ إلى البحرين مع أنهما إنما يخرجان من الملح على ما قالوا لما قيل أنهما لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب أو لأنهما لما التقيا وصارا كالشىء الواحد ساغ أن يقال يخرجان منهما كما يقال يخرجان من البحر مع أنهما لايخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه وهو الأظهر وقرىء يخرج مبنيا المفعول من الإخراج ومبنيا للفاعل بنصب اللؤلؤ والمرجان وبنون العظمة ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان وله الجوار ﴾ أى السفن جمع جارية وقرىء برفع الراء وبحذف الياء كقول من قال :

لها ثنايا أربع حسان وأربع فكلها ثمان

﴿ المنشآت ﴾ المرفوعات الشرع أو المصنوعات وقرىء بكسر الشين أى الرافعات الشرع أو اللاتى ينشئن الأمواج بجريهن ﴿ فى البحر كالأعلام ﴾ كالجبال الشاهقة جمع علم وهو الجبل الطويل ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ من خلق مواد السفن والإرشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها فى البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه ﴿ كل من عليها ﴾ أى على الأرض من الحيوانات أو المركبات ومن للتغليب أو من الثقلين ﴿ فان ﴾ هالك لامحالة ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ أى ذاته عز وجل ﴿ ذو الجلال والإكرام ﴾

أى ذو الاستغناء المطلق والفضل التام وقيل الذى عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده وهذه من عظائم صفاته تعالى ولقد قال صلى الله عليه وسلم ألظوا بياذا الجلال والإكرام وعنه عليه الصلاة والسلام أنه مر برجل وهو يصلى ويقول ياذا الجلال والإكرام فقال قد استجيب لك وقرىء ذى الجلال والإكرام على أنه صفة ربك وأياً ما كان ففى وصفه تعالى بذلك بعد ذكر فناء الخلق وبقائه تعالى يفيض عليهم بعد فنائهم أيضا آثار لطفه وكرمه حسبما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن إحياءهم بالحياة الأبدية وإثابتهم بالنعيم المقيم أجل النعماء[1] وأعظم الآلاء ﴿ يسأله من فى السموات والأرض ﴾ قاطبة ما يحتاجون إليه فى ذواتهم ووجوداتهم حدوثا وبقاء وسائر أحوالهم سؤالا مستمرا بلسان المقال أو بلسان الحال فإنهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل من استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من الكمالات بالمرة بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الإلهية من العلاقة لم يشموا رائحة الوجود أصلا فهم فى كل آن مستمرون على الاستدعاء والسؤال وقد مر فى تفسير قوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) من سورة إبراهيم عليه السلام ﴿ كل يوم ﴾ أى كل وقت من الأوقات.

﴿ هو فى شأن ﴾ من الشئون التى من جملتها إعطاء ما سألوا فإنه تعالى لايزال ينشىء أشخاصا ويفنى آخرين ويأتى بأحوال ويذهب بأحوال حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة وفى الحديث من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين قيل وفيه رد على اليهود حيث يقولون إن الله لايقضى يوم السبت شيئاً ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ مع مشاهدتكم لما ذكر من إحسانه.

﴿ سنفرغ لكم ﴾ أى سنتجرد لحسابكم وجزائكم وذلك يوم القيامة عند

(١) فى ١١ : أجل النعم .

انتهاء شئون الخلق المشار إليها بقوله تعالى (كل يوم هو فى شأن) فلا يبقى حينئذ إلا شأن واحد هو الجزاء فعبر عنه بالفراغ لهم بطريق التمثيل وقيل هو مستعار من قول المتهدد[1] لصاحبه سأفرغ لك أى سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى عنه والمراد التوفر على النكاية فيه والانتقام منه وقرىء سيفرغ مبنيا للفاعل وللمفعول وقرىء سنفرغ إليكم أى سنقصد إليكم ﴿ أيها الثقلان ﴾ هما الإنس والجن سميا بذلك لثقلهما على الأرض أو لرزانة آرائهما أو لأنهما مثقلان بالتكليف ﴿ فبأى آلاء ربكما ﴾ التى من جملتها التنبيه على ما سيلقونه يوم القيامة للتحذير عما يؤدى إلى سوء الحساب ﴿ تكذبان ﴾ بأقوالكما وأعمالكما.

﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ هما الثقلان خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة فخوطبوا بما ينبىء عن ذلك لبيان أن قدرتهم لاتفى بما كلفوه ﴿ إن استطعتم ﴾ إن قدرتم على ﴿ أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ﴾ أى أن تهربوا من قضائى وتخرجوا من ملكوتى ومن أقطار سمواتى وأرضى ﴿ فانفذوا ﴾ منها وخلصوا أنفسكم من عقابى ﴿ لاتنفذون ﴾ لاتقدرون على النفوذ ﴿ إلا بسلطان ﴾ أى بقوة وقهر وأنتم من ذلك بمعزل بعيد روى أن الملائكة تنزل فتحيط بجميع الخلائق فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون وجها إلا وجدوا الملائكة أحاطت به ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة على العقوبة ﴿ يرسل عليكما شواظ ﴾ قيل هو اللهب الخالص وقيل المختلط بالدخان وقيل اللهب الأخضر المنقطع من النار وقيل هو الدخان الخارج من اللهب وقيل هو النار والدخان جميعاً وقرىء شواظ بكسر الشين ﴿ من نار ﴾ متعلق بيرسل أو بمضمر هو صفة لشواظ أى كائن من نار والتنوين للتفخيم ﴿ ونحاس ﴾ أى دخان وقيل صفر مذاب يصب على رؤوسهم

(١) فى ١١ المهدد

وقرىء بكسر النون وقرىء بالجر عطفا على نار وقرىء نرسل بنون العظمة ونصب شواظا ونحاسا وقرىء نحس جمع نحاس مثل لحاف ولحف وقرىء ونحس أى نقتل بالعذاب ﴿ فلا تنتصران ﴾ أى لا تمتنعان ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن بيان عاقبة ما هم عليه من الكفر والمعاصى لطف وأى لطف ونعمة وأى نعمة ﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ أى انصدعت[1] يوم القيامة ﴿ فكانت وردة ﴾ كوردة حمراء وقرىء وردة بالرفع على أن كان تامة أى حصلت سماء وردة فيكون من باب التجريد كقول من قال :

ولئن بقيت لأرحلن بغزوة تحوى الغنائم أو يموت كريم

﴿ كالدهان ﴾ خبر ثان لكانت أو نعت لوردة أو حال من اسم كانت أى كدهن الزيت وهو إما جمع دهن أو اسم لما يدهن به كالحزام والأدام وقيل هو الأديم الأحمر وجواب إذا محذوف أى يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ مع عظم شأنها ﴿ فيومئذ ﴾ أى يوم إذ تنشق السماء حسبما ذكر ﴿ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم وذلك أول ما يخرجون من القبور ويحشرون إلى الموقف ذودا ذودا على اختلاف مراتبهم وأما قوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين) ونحوه ففى موقف المناقشة والحساب وضمير ذنبه للإنس لتقدمه رتبة وإفراده لما أن المراد فرد من الإنس كأنه قيل لا يسأل عن ذنبه إنسى ولا جنى ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ مع كثرة منافعها فإن الإخبار بما ذكر مما يزجركم عن الشر المؤدى إليه وأما ما قيل مما أنعم الله على عباده المؤمنين فى هذا اليوم فلا تعلق له بالمقام وقوله تعالى :

﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ استئناف يجرى مجرى التعليل لعدم السؤال قيل يعرفون بسواد الوجوه وزرقة العيون وقيل بما يعلوهم من الكآبة والحزن

---

(١) فى ١١ : تصدعت .

﴿ فيؤخذ بالنواصى والأقدام ﴾ الجار والمجرور هو القائم مقام الفاعل يقال أخذه إذا كان المأخوذ مقصودا بالأخذ ومنه قوله تعالى (خذوا حذركم) ونحوه وأخذ به إذا كان المأخوذ شيئاً من ملابسات المقصود بالأخذ ومنه قوله تعالى ﴿ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) وقول المستغيث خذ بيدى أخذ الله بيدك أى يجمع بين نواصيهم وأقدامهم فى سلسلة من وراء ظهورهم وقيل تسحبهم الملائكة تارة تأخذ بالنواصى وتارة تأخذ بالأقدام ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وقوله تعالى :

﴿هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون﴾ على إرادة القول أى يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ على أن الجملة إما استئناف وقع جوابا عن سؤال ناشىء من حكاية الأخذ بالنواصى والأقدام كأنه قيل فماذا يفعل بهم عند ذلك فقيل يقال إلخ أو حال من أصحاب النواصى والأقدام لأن الألف واللام عوض عن المضاف إليه وما بينهما اعتراض ﴿ يطوفون بينها ﴾ أى بين النار يحرقون بها ﴿ وبين حميم آن ﴾ ماء بالغ من الحرارة أقصاها يصب عليهم أو يسقون منه وقيل إذا استغاثوا من النار أغيثوا بالحميم ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وقد أشير إلى سر كون بيان أمثال هذه الأمور من قبيل الآلاء مرارا .

﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ شروع فى تعداد الآلاء الفائضة عليهم فى الآخرة بعد تعداد ما وصل إليهم فى الدنيا من الآلاء الدينية والدنيوية واعلم أن ماعدد فيما بين هذه الآية وبين خاتمة السورة الكريمة من فنون الكرامات كما أن أنفسها آلاء جليلة واصلة إليهم فى الآخرة كذلك حكاياتها الواصلة إليهم فى الدنيا آلاء عظيمة لكونها داعية لهم إلى السعى فى تحصيل ما يؤدى إلى نيلها من الإيمان والطاعة وأن مافصل من فاتحة السورة الكريمة إلى قوله تعالى (كل يوم هو فى شأن) من النعم الدينية والدنيوية والأنفسية والآفاقية آلاء جليلة واصلة إليهم فى الدنيا وكذلك حكاياتها من حيث إيجابها للشكر والمثابرة على ما يؤدى إلى استدامتها وأما ما عدد فيما بين قوله تعالى سنفرغ لكم وبين هذه الآية من الأحوال الهائلة التى ستقع فى الآخرة فليست هى من قبيل الآلاء وإنما الآلاء

حكاياتها الموجبة للانزجار عما يؤدى إلى الابتلاء بها من الكفر والمعاصى كما أشير إليه فى تضاعيف تعدادها ومقامه تعالى موقفه الذى يقف فيه العباد للحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين أو قيامه تعالى على أحواله من قام عليه إذا راقبه أو مقام الخائف عند ربه للحساب بأحد المعنيين وإضافته إلى الرب للتفخيم والتهويل أو هو مقحم للتعظيم .

﴿ جنتان ﴾ جنة للخائف الإنسى وجنة للخائف الجنى فإن الخطاب للفريقين فالمعنى لكل خائفين منكما أو لكل واحد جنة لعقيدته وأخرى لعمله أو جنة لفعل الطاعات وأخرى لترك المعاصى أو جنة يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه أو روحانية وجسمانية وكذا ما جاء مثنى بعد ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وقوله تعالى :

﴿ ذواتا أفنان ﴾ صفة لجنتان وما بينهما اعتراض وسط بينهما تنبيها على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة موجب للإنكار والتوبيخ والأفنان إما جمع فن أى ذواتا أنواع من الأشجار والثمار أو جمع فنن أى ذواتا أغصان متشعبة من فروع الشجر وتخصيصها بالذكر لأنها التى تورق وتثمر وتمد الظل ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وليس فيها شىء يقبل التكذيب .

﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ صفة أخرى لجنتان أى فى كل واحدة منهما عين تجرى كيف يشاء صاحبها فى الأعالى والأسافل وقيل تجريان من جبل من مسك وعن ابن عباس والحسن تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل وقيل إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين قال أبو بكر الوراق فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه فى الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل[1] ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وقوله تعالى ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ أى صنفان معروف وغريب أو رطب ويابس صفة أخرى لجنتان وتوسيط الاعتراض بين الصفات لما مر آنفا

---

(١) انظر تفاصيل أكثر فى الدر المنثور.

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وقوله تعالى ﴿ متكئين ﴾ حال من الخائفين لأن من خاف فى معنى الجمع أو نصب على المدح ﴿ على فرش بطائنها من إستبرق ﴾ من ديباج ثخين وحيث كانت بطائنها كذلك فما ظنك بظهائرها وقيل ظهائرها من سندس وقيل من نور ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ أى ما يجتنى من أشجارها من الثمار قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع قال ابن عباس رضى الله عنهما تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولى الله إن شاء قائما وإن شاء قاعدا وإن شاء مضطجعا وقرىء جنى بكسر الجيم ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وقوله تعالى :

﴿ فيهن ﴾ أى فى الجنان المدلول عليها بقوله تعالى (جنتان) لما عرفت أنهما لكل خائفين من الثقلين أو لكل خائف حسب تعدد عمله وقد اعتبر الجمعية فى قوله تعالى متكئين وقيل فيما فيهما من الأماكن والقصور وقيل فى هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش ﴿ قاصرات الطرف ﴾ نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ أى لم يمس الإنسيات أحد من الإنس ولا الجنيات أحد من الجن قبل أزواجهن المدلول عليهم بقاصرات الطرف وقيل بقوله تعالى متكئين وفيه دليل على أن الجن يطمثون وقرىء يطمثهن بضم الميم والجملة صفة لقاصرات الطرف لأن إضافتها لفظية أو حال منها لتخصصها بالإضافة ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وقوله تعالى :

﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ إما صفة لقاصرات الطرف أو حال منها كالتى قبلها أى مشبهات بالياقوت فى حمرة الوجنة والمرجان أى صغار الدر فى بياض البشرة وصفائها فان صغار الدر أنصع بياضا من كباره قيل إن الحوراء تلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وقوله تعالى ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما فصل قبله أى ما جزاء الإحسان فى العمل إلا الإحسان فى الثواب ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وقوله تعالى

﴿ومن دونهما جنتان﴾ مبتدأ وخبر أى ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين جنتان أخريان لمن دونهم من أصحاب اليمين ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ وقوله تعالى ﴿مدهامتان﴾ صفة لجنتان وسط بينهما الاعتراض لما ذكر من التنبيه على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة حقيق بالإنكار والتوبيخ أى خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض وعلى الأوليين الأشجار والفواكه ﴿فبأى آلاى ربكما تكذبان فيهما عينان نضاختان﴾ أى فوارتان بالماء والنضخ أكثر من النضح بالحاء المهملة وهو الرش ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ عطف الأخيران على الفاكهة عطف جبريل وميكال على الملائكة بيانا لفضلهما فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء والرمان فاكهة ودواء وعن هذا قال أبو حنيفة رحمه الله من حلف لا يأكل فاكهة فأكل رمانا أو رطبا لم يحنث(١) ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ وقوله تعالى ﴿فيهن خيرات﴾ صفة أخرى لجنتان كالجملة التى قبلها والكلام فى جميع الضمير كالذى مر فيما مر وخيرات مخففة من خيرات لأن خيراً الذى بمعنى أخير لا يجمع وقد قرىء على الأصل ﴿حسان﴾ أى حسان الخلق والخلق ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ وقوله تعالى:

﴿حور﴾ بدل من خيرات ﴿مقصورات فى الخيام﴾ قصرن فى خدورهن يقال امرأة قصيرة وقصورة أى مخدرة أو مقصورات الطرف على أزواجهن وقيل إن الخيمة من خيامهن درة مجوفة ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ وقوله تعالى ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ كالذى مر فى نظيره من جميع الوجوه ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان متكئين﴾ نصب على الاختصاص ﴿على رفرف خضر﴾ الرفرف إما اسم جنس أو اسم جمع واحده رفرفة قيل هو ما تدلى

(١) انظر المغنى لابن قدامة ٨/٧٠

من الأسرة من أعالى الثياب وقيل هو ضرب[1] من البسط. أو البسط. وقيل الوسائد وقيل النمارق وقيل كل ثوب عريض رفرف ويقال لأطراف البسط. وفضول الفسطاط رفارف ورفرف السحاب هيدبه ﴿وعبقرى حسان﴾ العبقرى منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب والمراد به الجنس ولذلك وصف بالجمع حملا على المعنى كما فى رفرف على أحد الوجهين وقرىء على رفارف خضر بضمتين وعباقرى كمدائنى نسبة إلى عباقر فى اسم البلد (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى ﴿تبارك اسم ربك﴾ تنزيه وتقديس له تعالى فيه تقرير لما ذكر فى السورة الكريمة من آلائه الفائضة على الأنام أى تعالى اسمه الجليل الذى من جملته ما صدرت به السورة من اسم الرحمن المنبىء عن إفاضته الآلاء المفصلة وارتفع عما لا يليق بشأنه من الأمور التى من جملتها جحود نعمائه وتكذيبها وإذا كان حال اسمه بملابسة دلالته عليه فما ظنك بذاته الأقدس الأعلى وقيل الاسم بمعنى الصفة وقيل مقحم كما فى قول من قال :

* إلى الحول ثم اسم السلام عليكما *

﴿ذى الجلال والإكرام﴾ وصف به الرب تكميلا لما ذكر من التنزيه والتقرير وقرىء ذو الجلال على أنه نعت للاسم . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرحمن أدى شكر ما أنعم الله عليه .

---

(١) فى ١١ : نوع من البسط .

سورة الواقعة

مكية ، وهى سبع وتسعون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ أى إذا قامت القيامة وذلك عند النفخة الثانية والتعبير عنها بالواقعة للإيذان بتحقق وقوعها لا محالة كأنها واقعة فى نفسها مع قطع النظر عن الوقوع الواقع فى حيز الشرط كأنه قيل كانت الكائنة وحدثت الحادثة وانتصاب إذا بمضمر ينبىء عن الهول والفظاعة كأنه قيل إذا وقعت الواقعة يكون من الأهوال ما لا يفى به المقال وقيل بالنفى المفهوم من قوله تعالى ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ أى لا يكون عند وقوعها نفس تكذب على الله تعالى أو تكذب فى نفيها كما تكذب اليوم واللام كهى فى قوله تعالى (ياليتنى قدمت لحياتى) وهذه الجملة على الوجه الأول اعتراض مقرر لمضمون الشرط على أن الكاذبة مصدر كالعافية أى ليس لأجل وقعتها وفى حقها كذب أصلا بل كل ما ورد فى شأنها من الأخبار حق صادق لا ريب فيه وقوله تعالى ﴿ خافضة رافعة ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هى خافضة لأقوام رافعة لآخرين وهو تقرير لعظمتها وتهويل لأمرها فإن الوقائع العظام شأنها كذلك أو بيان لما يكون يومئذ من حط الأشقياء إلى الدركات ورفع السعداء إلى الدرجات ومن زلزلة الأشياء وإزالة الأجرام عن مقارها بنثر الكواكب وإسقاط السماء كسفا وتسيير الجبال فى الجو كالسحاب وتقديم الخفض على الرفع للتشديد فى التهويل وقرىء خافضة رافعة بالنصب على الحال من الواقعة وقوله تعالى ﴿ إذا رجت الأرض رجا ﴾ أى زلزلت زلزالا شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل متعلق بخافضة رافعة أى تخفض وترفع وقت رج الأرض إذ عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض أو بدل من إذا وقعت ﴿ وبست الجبال بسا ﴾ أى فتتت حتى صارت مثل السويق الملتوت من بس السويق إذا لته أو سيقت

وسيرت من أماكنها من بس الغنم إذا ساقها كقوله تعالى وسيرت الجبال وقرىء رجت وبست أى ارتجت وذهبت ﴿ فكانت ﴾ أى فصارت بسبب ذلك ﴿ هباء ﴾ غبارا ﴿ منبثا ﴾ منتشراً ﴿ وكنتم ﴾ إما خطاب للأمة الحاضرة والأمم السالفة تغليبا أو للحاضرة فقط ﴿ أزواجا ﴾ أى أصنافا ﴿ ثلاثة ﴾ فكل صنف يكون مع صنف آخر فى الوجود أو فى الذكر فهو زوج وقوله تعالى :

﴿فأصحاب الميمنة ماأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ماأصحاب المشأمة﴾ تقسيم وتنويع للأزواج الثلاثة مع الإشارة الإجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها فقوله تعالى فأصحاب الميمنة مبتدأ وقوله ماأصحاب الميمنة خبره على أن ما الاستفهامية مبتدأ ثان ما بعده خبره والجلة خبر الأول والأصل ماهم أى أى شىء هم فى حالهم وصفتهم فإن ما وإن شاعت فى طلب مفهوم الاسم والحقيقة لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول مازيد فيقال عالم أوطبيب فوضع الظاهر موضع الضمير لكونه أدخل فى التفخيم وكذا الكلام فى قوله تعالى (وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين فى الفخامة والفظاعة كأنه قيل فأصحاب الميمنة فى غاية حسن الحال وأصحاب المشأمة فى نهاية سوء الحال وتكلموا فى الفريقين فقيل أصحاب الميمنة أصحاب المنزلة السنية وأصحاب المشأمة أصحاب المنزلة الدنية أخذا من تيمنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل وقيل الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم والذين يؤتونها بشمائلهم وقيل الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة والذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار وقيل أصحاب اليمن وأصحاب الشؤم فإن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعاتهم والأشقياء مشائيم عليها بمعاصيهم وقوله تعالى ﴿ والسابقون السابقون ﴾ هو القسم الثالث من الأزواج الثلاثة ولعل تأخير ذكرهم مع كونهم أسبق الاقسام وأقدمهم فى الفضل ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم عن أن إيرادهم بعنوان السبق مطلقاً معرب عن إحرازهم لقصب السبق من جميع الوجوه وتكلموا فيهم أيضا فقيل هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم

وتوان وقيل الذين سبقوا فى حيازة الفضائل والكمالات وقيل هم الذين صلوا إلى القبلتين كما قال تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) وقيل هم السابقون إلى الصلوات الخمس وقيل المسارعون فى الخيرات وأياً ما كان فالجملة مبتدأ وخبر والمعنى والسابقون هم الذين اشتهرت أحوالهم وعرفت محاسنهم كقول أبى النجم :

* أنا أبو النجم وشعرى شعرى *

وفيه من تفخيم شأنهم والإيذان بشيوع فضلهم واستغنائهم عن الوصف بالجميل ما لا يخفى وقيل والسابقون إلى طاعة الله تعالى السابقون إلى رحمته أو السابقون إلى الخير السابقون إلى الجنة وقوله تعالى ﴿أولئك﴾ إشارة إلى السابقين ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل ومحله الرفع على الابتداء خبره ما بعده أى أولئك الموصوفون بذلك النعت الجليل ﴿المقربون﴾ أى الذين قربت إلى العرش العظيم درجاتهم وأعليت مراتبهم ورقيت إلى حظائر القدس نفوسهم الزكية هذا أظهر ما ذكر فى إعراب هذه الجمل وأشهره والذى تقتضيه جزالة التنزيل أن قوله تعالى (فأصحاب الميمنة) خبر مبتدأ محذوف وكذا قوله تعالى (وأصحاب المشأمة) وقوله تعالى (والسابقون) فإن المترقب عند بيان انقسام الناس إلى الأقسام الثلاثة بيان أنفس الأقسام الثلاثة وأما أوصافها وأحوالها فحقها أن تبين بعد ذلك بإسنادها إليها والتقدير فأحدها أصحاب الميمنة والآخر أصحاب المشأمة والثالث السابقون خلا أنه لما أخر بيان أحوال القسمين الأولين عقب كل منهما بجملة معترضة بين القسمين منبئة عن ترامى[1] أحوالهما فى الخير والشر إنباء إجماليا مشعراً بأن لأحوال كل منهما تفصيلا مترقبا لكن لا على أن ما الاستفهامية مبتدأ وما بعدها خبر على ما رآه سيبويه فى أمثاله بل على أنها خبر لما بعدها فإن مناط الإفادة بيان أن أصحاب الميمنة أمر بديع كما يفيده كون ما خبراً لا بيان أن أمراً بديعا

(١) فى ١١ : تناهى .

أصحاب الميمنة كما يفيده كونها مبتدأ وكذا الحال فى ما أصحاب المشأمة وأما القسم الأخير فحيث قرن بيان محاسن أحواله بذكره لم يحتج فيه إلى تقديم الأنموذج فقوله تعالى السابقون مبتدأ والإظهار فى مقام الإضمار للتفخيم وأولئك مبتدأ ثان أو بدل من الأول وما بعده خبر له أو للثانى والجملة خبر للأول وقوله تعالى ﴿ فى جنات النعيم ﴾ متعلق بالمقربون أو بمضمر هو حال من ضميره أى كائنين فى جنات النعيم وقيل خبر ثان لاسم الإشارة وفيه أن الإخبار بكونهم فيها بعد الإخبار بكونهم مقربين ليس فيه مزيد مزية وقرىء فى جنة النعيم .

نعيم المتقين

وقوله تعالى ﴿ ثلة من الأولين ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هم أمة جمة من الأولين وهم الأمم السالفة من لدن آدم إلى نبينا عليهما الصلاة والسلام وعلى من بينهما من الأنبياء العظام ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ أى من هذه الأمة ولا يخالفه قوله عليه الصلاة والسلام إن أمتى يكثرون سائر الأمم فإن أكثرية سابقى الأمم السالفة من سابقى هذه الأمة لا تمنع أكثرية تابعى هؤلاء من تابعى أولئك ولا يرده قوله تعالى فى أصحاب اليمين (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) لأن كثرة كل من الفريقين فى أنفسهما لا تنافى أكثرية أحدهما من الآخر وسيأتى أن الثلثين من هذه الأمة وقد روى مرفوعا أن الأولين والآخرين ههنا أيضا متقدمو هذه الأمة ومتأخروهم واشتقاق الثلة من الثل وهو الكسر ﴿ على سرر موضونة ﴾ حال أخرى من المقربين أو من ضميرهم فى الحال الأولى وقيل خبر آخر للضمير والموضونة المنسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت أو المتواصلة من الوضن وهو النسج ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ حالان من الضمير المستكن فيما تعلق به على سرر أى مستقرين على سرر متكئين عليها متقابلين لا ينظر بعضهم من أقفاء بعض وهو وصف لهم بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب ﴿ يطوف عليهم ﴾ حال أخرى أو استئناف أى يدور حولهم للخدمة ﴿ ولدان مخلدون ﴾ أى مبقون أبدا على شكل الولدان وطراوتهم لا يتحولون عنها وقيل

مقرطون والخلد القرط قيل هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها روى ذلك عن علي رضي الله عنه وعن الحسن رحمه الله وفي الحديث أولاد الكفار خدام أهل الجنة ﴿ بأكواب ﴾ بآنية لاعرى لها ولا خراطيم ﴿وأباريق﴾ أي آنية ذات عرى وخراطيم ﴿وكأس من معين ﴾ أي خمر جارية من العيون قيل إنما أفرد الكأس لأنها لا تسمى كأسا إلا إذا كانت مملوءة ﴿ لا يصدعون عنها ﴾ أي بسببها وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها وقرىء لا يصدعون أي لا يتصدعون ولا يتفرقون كقوله تعالى (يومئذ يصدعون) وقرىء لا يصدعون أي لا يفرق بعضهم بعضا ﴿ولا ينزفون﴾ أي لا يسكرون من أنزف الشارب إذا نفد عقله أو شرابه ﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾ أي يختارونه ويأخذون خيره وأفضله .

﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ أي يتمنون وقرىء ولحوم طير ﴿وحور عين﴾ بالرفع عطف على ولدان أو مبتدأ محذوف الخبر أي وفيها أو لهم حور وقرىء بالجر عطفا على جنات النعيم كأنه قيل هم في جنات وفاكهة ولحم ومصاحبة حور أو على أكواب لأن معنى يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب ينعمون بأكواب وبالنصب أي ويؤتون حورا ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ صفة لحور أو حال ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ مفعول له أي يفعل بهم ذلك كله جزاء بأعمالهم أو مصدر مؤكد أي يجزون جزاء ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ﴾ أي باطلا ﴿ ولا تأثيما ﴾ أي ولا نسبة إلى الإثم أي لا لغو فيها ولا تأثيم ولا سماع كقوله :

* ولا ترى الضب بها ينجحر *

﴿ إلا قيلا ﴾ أي قولا ﴿ سلاما سلاما ﴾ بدل من قيلا كقوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما) أو صفته أو مفعوله بمعنى لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاما سلاما والمعنى أنهم يفشون السلام فيسلمون سلاما بعد سلام أو لا يسمع كل من المسلم والمسلم عليه إلا سلام الآخر بدءا أو ردا وقرىء سلام سلام على الحكاية وقوله تعالى :

﴿ وأصحاب اليمين ﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل عند التقسيم من شئونهم الفاضلة إثر تفصيل شئون السابقين وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ما أصحاب اليمين﴾ جملة استفهامية مسوقة لتفخيمهم والتعجيب من حالهم وقد عرفت كيفية سبكها محلها إما الرفع على أنها خبر للمبتدأ أو معترضة لا محل لها والخبر قوله تعالى ﴿ فى سدر مخضود ﴾ وهو على الأول خبر ثان للمبتدأ أو خبر لمبتدأ محذوف والجملة استئناف لبيان ما أبهم فى قوله تعالى (ما أصحاب اليمين) من علو الشأن أى هم فى سدر غير ذى شوك لا كسدر الدنيا وهو شجر النبق كأنه خضد شوكه أى قطع وقيل مخضود أى مثنى أغصانه لكثرة حمله من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب ﴿ وطلح منضود ﴾ قد نضد حمله من أسفله الى أعلاه ليست له ساق بارزة وهو شجر الموز أو أم غيلان وله أنوار كثيرة منتظمة طيبة الرائحة وعن السدى شجر يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل وعن على رضى الله عنه أنه قرأ وطلع وما شأن الطلح وقرأ قوله تعالى ﴿ لها طلع نضيد ﴾ فقيل أو نحولها قال آى القرآن لا تهاج ولا تحول [1] وعن بن عباس نحوه ﴿ وظل ممدود ﴾ ممتد منبسط لا يتقلص ولا يتفاوت كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ﴿ وماء مسكوب ﴾ يسكب لهم أينما شاءوا وكيفما أرادوا بلا تعب أو مصبوب سائل يجرى على الأرض فى غير أخدود كأنه مثل حال السابقين بأقصى ما يتصور لأهل المدن وحال أصحاب اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادى إيذانا بالتفاوت [2] بين الحالين ﴿وفاكهة كثيرة﴾ بحسب الأنواع والأجناس ﴿لا مقطوعة﴾ فى وقت من الأوقات كفواكه الدنيا ﴿ولا ممنوعة﴾ عن متناوليها بوجه من الوجوه لا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا وقرىء فاكهة كثيرة بالرفع على وهناك فاكهة الخ كقوله تعالى وحور عين ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ أى رفيعة القدر أو منضدة مرتفعة أو مرفوعة على الأسرة وقيل الفرش النساء حيث

---

(١) أى لا تحمل ألفاظها غير معانيها .

(٢) فى ١١ بيانا للتفاوت .

يكنى بالفراش عن المرأة وارتفاعها كونهن على الأرائك قال تعالى (هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) ويدل عليه قوله تعالى ﴿إنا أنشأناهن إنشاء﴾ وعلى التفسير الأول أضمر لهن لدلالة ذكر الفرش التى هى المضاجع عليهن دلالة بينة والمعنى ابتدأنا خلقهن ابتداء جديدا أو أبدعناهن من غير ولاد إبداء أو إعادة وفى الحديث هن اللواتى قبضن فى دار الدنيا عجائز شمطا رمصا جعلهن الله تعالى بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد فى الاستواء كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا وذلك قوله تعالى ﴿فجعلناهن أبكارا﴾ وقوله تعالى ﴿عربا﴾ جمع عروب وهى المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل وقرىء عربا بسكون الراء ﴿أترابا﴾ مستويات فى السن بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهن واللام فى قوله تعالى ﴿لأصحاب اليمين﴾ متعلقة بأنشأنا أو جعلنا أو بأترابا كقولك هذا ترب لهذا أى مساو له فى السن وقيل بمحذوف هو صفة لأبكارا أى كائنات لأصحاب اليمين أو خبر مبتدا محذوف أى هن لأصحاب اليمين وقيل خبر لقوله تعالى :

﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾ وهو بعيد بل هو خبر مبتدا محذوف ختمت به قصة أصحاب اليمين أى هم أمة من الأولين وأمة من الآخرين وقد مر الكلام فيهما وعن أبى العالية ومجاهد وعطاء والضحاك ثلة من الأولين أى من سابقى هذه الأمة وثلة من الآخرين من هذه الأمة فى آخر الزمان وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم جميعا من أمتى .

عقاب الكافرين

﴿وأصحاب الشمال﴾ شروع فى تفصيل أحوالهم التى أشير عند التنويع إلى هولها وفظاعتها بعد تفصيل حسن حال أصحاب اليمين والكلام فى قوله تعالى ﴿ما أصحاب الشمال﴾ عين ما فصل فى نظيره وكذا فى قوله تعالى ﴿فى سموم وحميم﴾ والسموم حر نار ينفذ فى المسام والحميم الماء المتناهى فى الحرارة

﴿ وظل من يحموم ﴾ من دخان أسود بهيم ﴿ لا بارد ﴾ كسائر الظلال ﴿ ولا كريم ﴾ فيه خير ما فى الجملة سمى ذلك ظلا ثم نفى عنه وصفاه البرد والكرم الذى عبر به عن دفع أذى الحر لتحقيق أنه ليس بظل وقرىء لا بارد ولا كريم بالرفع أى لا هو بارد ولا كريم وقوله تعالى ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ﴾ تعليل لابتلائهم بما ذكر من العذاب أى إنهم كانوا قبل ماذكر من سوء العذاب[1] فى الدنيا منعمين بأنواع النعم من المآكل والمشارب والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة منهمكين فى الشهوات فلا جرم عذبوا بنقائضها ﴿ وكانوا يصرون على الحنث العظيم ﴾ أى الذنب العظيم الذى هو الشرك ومنه قولهم بلغ الغلام الحنث أى الحلم وقت المؤاخذة بالذنب ﴿ وكانوا يقولون ﴾ لغاية عتوهم وعنادهم ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما ﴾ أى كان بعض أجزائنا من اللحم والجلد ترابا وبعضها عظاما نخرة وتقديم التراب لعراقته فى الاستبعاد وانقلابه من الأجزاء البادية وإذا متمحضة للظرفية والعامل فيها مادل عليه قوله تعالى ﴿ أئنا لمبعوثون ﴾ لا نفسه لأن ما بعد أن واللام والهمزة لا يعمل فيما قبلها وهو نبعث وهو المرجع للإنكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيص إنكاره به فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله بل لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إليه فى حالة منافية له بالكلية وتكرير الهمزة لتأكيد النكير وتحلية الجملة بأن لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله تعالى (أفلا تعقلون) على رأى الجمهور فإن المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا إنكار التعقيب كما هو المشهور وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين فى المبعوثية بالفعل فى حال كونهم ترابا وعظاما بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم ومرجعه الى إنكار البعث بعد تلك الحالة وفيه من الدلالة على غلوهم فى الكفر وتماديهم فى الضلال ما لا مزيد عليه وتكرير الهمزة فى قوله تعالى :

﴿ أوآباؤنا الأولون ﴾ لتأكيد النكير والواو للعطف على المستكن فى

(١) فى ١١ من شدة العذاب .

لمبعوثون وحسن ذلك الفصل بالهمزة يعنون أن بعث آبائهم الأولين أبعد من الوقوع وقرىء أو آباؤنا ﴿قل﴾ ردا لإنكارهم وتحقيقا للحق ﴿إن الأولين والآخرين﴾ من الأمم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم وفى تقديم الأولين مبالغة فى الرد حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد من إنكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودى ﴿لمجموعون﴾ بعد البعث وقرىء لمجمعون ﴿إلى ميقات يوم معلوم﴾ إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم والإضافة بمعنى من كخاتم فضة ﴿ثم إنكم أيها الضالون﴾ عطف على أن الأولين داخل تحت القول وثم للتراخى زمانا أو رتبة ﴿المكذبون﴾ أى بالبعث والخطاب لأهل مكة وأضرابهم ﴿لآكلون﴾ بعد البعث والجمع ودخول جهنم ﴿من شجر من زقوم﴾ من الأولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر وتفسيره أى مبتدئون الأكل من شجر هو زقوم وقيل من الثانية متعلقة بمضمر هو وصف لشجر أى كائن من زقوم ﴿فمالئون منها البطون﴾ أى بطونكم من شدة الجوع ﴿فشاربون عليه﴾ عقيب ذلك بلا ريث ﴿من الحميم﴾ أى الماء الحار فى الغاية وتأنيث ضمير الشجر أولا وتذكيره ثانيا باعتبار المعنى واللفظ وقرىء من شجرة فضمير عليه حينئذ للزقوم وقيل للأكل وقوله تعالى ﴿فشاربون شرب الهيم﴾ كالتفسير لما قبله على طريقة قوله تعالى (فكذبوا عبدنا) أى لا يكون شربكم شربا معتادا بل يكون مثل شرب الهيم وهى الإبل التى بها الهيام وهو داء يصيبها فتشرب ولا تروى جمع أهيم وهيماء وقيل الهيم الرمال على أنه جمع الهيام بفتح الهاء وهو الرمل الذى لا يتماسك جمع على فعل كسحاب وسحب ثم خفف وفعل به مافعل بجمع أبيض والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع والتهاب النار فى أحشائهم ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذى هو كالمهل فإذا ملأوا منه بطونهم وهو فى غاية الحرارة والمرارة سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذى يقطع أمعاءهم فيشربونه شرب الهيم وقرىء شرب الهيم بالفتح وهو أيضا مصدر وقرىء بالكسر على أنه اسم المشروب ﴿هذا﴾ الذى ذكر من أنواع العذاب ﴿نزلهم يوم الدين﴾ أى يوم الجزاء فإذا كان ذلك نزلهم وهو ما يعد للنازل مما حضر

فما ظنك بما لهم بعد ما استقر لهم القرار واطمأنت بهم الدار في النار وفيه من التهكم بهم ما لا يخفى وقرىء نزلهم بسكون الزاى تخفيفا والجملة مسوقة من جهته تعالى بطريق الفذلكة مقررة لمضمون الكلام الملقن غير داخلة تحت القول وقوله تعالى ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الكفرة بطريق الإلزام والتبكيت والفاء لترتيب التحضيض على ما قبلها أى فهلا تصدقون بالخلق فإن ما لا يحققه العمل ولا يساعده بل ينبىء عن خلافه ليس من التصديق في شيء وقيل بالبعث استدلالا عليه بالإنشاء فإن من قدر عليه قدر على الإعادة حتما والأول هو الوجه كما ستحيط به خبرا .

حجة الله على الكفار

﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ أى تقذفون في الأرحام من النطف وقرىء بفتح التاء من منى النطفة بمعنى أمناها ﴿ أأنتم تخلقونه ﴾ أى تقدرونه وتصورونه بشرا سويا ﴿ أم نحن الخالقون ﴾ له من غير دخل شيء فيه وأم قيل منقطعة لأن ما بعدها جملة فالمعنى بل أنحن الخالقون على أن الاستفهام للتقرير وقيل متصلة ومجيء الخالقون بعد نحن بطريق التأكيد لا بطريق الخبرية أصالة ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ أى قسمناه عليكم ووقتنا موت كل أحد بوقت معين حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة وقرىء قدرنا مخففا ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أى إنا قادرون ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ لا يغلبنا أحد على أن نذهبكم ونأتى مكانكم بأشباهكم[1] من الخلق ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ من الخلق والأطوار ولا تعهدون بمثلها قال الحسن رحمه الله أى نجعلكم قردة وخنازير وقيل المعنى وننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا فمن هذا شأنه كيف يعجز عن إعادتكم وقيل المعنى وما يسبقنا أحد فيهرب من الموت أو يغير وقته وعلى أن نبدل إلخ إما حال من فاعل قدرنا أو علة للتقدير وعلى بمعنى اللام وبينهما اعتراض .

---

(١) في الأصل شياهكم .

﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ هي خلقهم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة وقيل هي فطرة آدم عليه السلام من التراب ﴿ فلولا تذكرون ﴾ فهلا تتذكرون أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى حتما فإنه أقل صنعا لحصول المواد وتخصيص الأجزاء وسبق المثال وفيه دليل على صحة القياس وقرىء فلولا تذكرون من الثلاثى وفى الخبر عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى وعجباً للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور .

﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ أى تبذرون حبه وتعملون فى أرضه ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ تنبتونه وتردونه نباتا يرف ﴿ أم نحن الزارعون ﴾ أى المنبتون لا أنتم والكلام فى أم كما مر آنفا ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاما ﴾ هشيما متكسرا متفتتا بعد ما أنبتناه وصار بحيث طمعتم فى حيازة غلاله ﴿ فظلتم ﴾ بسبب ذلك ﴿ تفكهون ﴾ تتعجبون من سوء حاله إثر ما شاهدتموه على أحسن ما يكون من الحال أو تندمون على ما تعبتم فيه وأنفقتم عليه أو على اقترفتم لأجله من المعاصى فتتحدثون فيه والتفكه التنقل بصنوف الفاكهة وقد استعير للتنقل بالحديث وقرىء تفكنون أن تتندمون وقرىء فظلتم بالكسر وفظللتم على الأصل ﴿ إنا لمغرمون ﴾ أى لملزمون غرامة ما أنفقنا أو مهلكون بهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك وقرىء أئنا على الاستفهام والجملة على القراءتين مقدرة بقول هو فى حيز النصب على الحالية من فاعل تفكهون أى قائلين أو تقولون إنا لمغرمون ﴿ بل نحن محرومون ﴾ حرمنا رزقنا أو محارفون محدودون لا حظ لنا ولا بخت لا مجدودون .

﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون ﴾ عذبا فراتا وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به ﴿ أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾ أى من السحاب واحده مزنة وقيل هو السحاب الأبيض وماؤه أعذب ﴿ أم نحن المنزلون ﴾ له بقدرتنا ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجا ﴾ ملحا زعاقا لا يمكن شربه وحذف اللام ههنا مع إثباتها فى الشرطية الأولى للتعويل على علم السامع أو الفرق بين المطعوم والمشروب فى الأهمية وصعوبة الفقد والشرطيتان

مستأنفتان مسوقتان لبيان أن عصمته تعالى للزرع والماء عما يخل بالتمتع بهما نعمة أخرى بعد نعمة الإنبات والإنزال مستوجبة للشكر فقوله تعالى ﴿ فلولا تشكرون ﴾ تحضيض على شكر الكل ﴿ أفرأيتم النار التى تورون ﴾ أى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ﴿ أأنتم أنشأتم شجرتها ﴾ التى منها الزناد وهى المرخ والعفار ﴿ أم نحن المنشئون ﴾ لها بقدرتنا والتعبير عن خلقها بالإنشاء المنبىء عن بديع الصنع المعرب عن كمال القدرة والحكمة لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر التى لا تخلو عن النار حتى قيل فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار[1] كما أن التعبير عن نفخ الروح بالإنشاء فى قوله تعالى (ثم أنشأناه خلقاً آخر لذلك) وقوله تعالى :

﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ استئناف مبين لمنافعها أى جعلناها تذكيرا لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ويذكروا ما أوعدوا به من نار جهنم أو تذكرة وأنموذجا من نار جهنم لما روى عن النبى عليه الصلاة والسلام ناركم هذه التى يوقدها بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم وقيل تبصرة فى أمر البعث فإنه ليس بأبدع من إخراج النار من الشىء الرطب ﴿ ومتاعا ﴾ ومنفعة ﴿ للمقوين ﴾ للذين ينزلون القواء وهى القفر وتخصيصهم بذلك لأنهم أحوج إليها فإن المقيمين أو النازلين بقرب منهم ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزناد وقد جوز أن يراد بالمقوين الذين خلت بطونهم ومزاودهم من الطعام وهو بعيد لعدم انحصار ما يهمهم ويسد خللهم فيما لا يؤكل إلا بالطبخ وتأخير هذه المنفعة للتنبيه على أن الأهم هو النفع الأخروى والفاء فى قوله تعالى ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ لترتيب ما بعدها على عدد من بدائع صنعه تعالى وروائع نعمه الموجبة لتسبيحه تعالى إما تنزيها له تعالى عما يقوله الجاحدون بوحدانيته الكافرون بنعمته مع عظمها وكثرتها أو تعجبا من أمرهم فى غمط تلك النعم الباهرة مع جلالة قدرها وظهور أمرها أو شكرا على تلك

---

(١) سبق تفسيرها فى سورة يس

النعم السابقة أى فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى أو بذكره فإن إطلاق الاسم للشيء ذكر له والعظيم صفة للاسم أو الرب ﴿ فلا أقسم ﴾ أى فأقسم ولا مزيدة للتأكيد كما فى قوله تعالى لئلا يعلم أو فلأنا أقسم فحذف المبتدأ وأشبع فتحة لام الابتداء ويعضده قراءة من قرأ فلأقسم أو فلا رد لكلام يخالف المقسم عليه وأما ما قيل من أن المعنى فلا أقسم إذا لأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم فيأباه تعيين المقسم به وتفخيم شأن القسم به ﴿ بمواقع النجوم ﴾ أى بمساقطها وهى مغاربها وتخصيصها بالقسم لما فى غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير أو لأن ذلك وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إليه تعالى وأوان نزول الرحمة والرضوان عليهم أو بمنازلها ومجاريها فإن له تعالى فى ذلك من الدليل على عظم قدرته وكمال حكمته ما لا يحيط به البيان وقيل النجوم نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها وقوله تعالى ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ اعتراض فى اعتراض قصد به المبالغة فى تحقيق مضمون الجملة القسمية وتأكيده حيث اعترض بقوله وإنه لقسم بين القسم وجوابه الذى هو قوله تعالى :

﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ أى كثير النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة فى صلاح المعاش والمعاد أو حسن مرضى أو كريم عند الله تعالى وبقوله تعالى لو تعلمون بين الموصوف وصفته وجواب لو أما متروك أريد به نفى علمهم أو محذوف ثقة بظهوره أى لعظمتموه أو لعملتم بموجبه ﴿ فى كتاب مكنون ﴾ أى مصون من غير المقربين من الملائكة لا يطلع عليه من سواهم وهو اللوح ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ إما صفة أخرى لكتاب فالمراد بالمطهرين الملائكة المنزهون عن الكدورات الجسمانية وأوضار الأوزار أو للقرآن فالمراد بهم المطهرون من الأحداث فيكون نفيا بمعنى النهى أى لا ينبغى أن يمسه إلا من كان على طهارة من الناس على طريقة قوله عليه الصلاة والسلام : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه »[1] أى لا ينبغى له أن يظلمه أو يسلمه إلى من يظلمه

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

وقيل لا يطلبه إلا المطهرون من الكفر وقرىء المتطهرون والمطهرون بالإدغام والمطهرون من أطهره بمعنى طهره والمطهرون أى أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار أو غيره ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ صفة أخرى للقرآن وهو مصدر نعت به حتى جرى مجرى اسمه وقرىء تنزيلا ﴿ أفبهذا الحديث ﴾ الذى ذكرت نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه وإجلاله وهو القرآن الكريم ﴿ أنتم مدهنون ﴾ أى متهاونون به كمن يدهن فى الأمر أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ أى شكر رزقكم ﴿ أنكم تكذبون ﴾ أى تضعون التكذيب موضع الشكر وقرىء وتجعلون شكركم أنكم تكذبون أى تجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به وقيل الرزق المطر والمعنى وتجعلون شكر ما يرزقكم الله تعالى من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله تعالى حيث تنسبونه إلى الأنواء والأول هو الأوفق لسباق النظم الكريم وسياقه فإن قوله عز وجل :

﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ إلخ تبكيت مبنى على تكذيبهم بالقرآن فيما نطق به قوله تعالى نحن خلقناكم إلى هنا من القوارع الدالة على كونهم تحت ملكوته تعالى من حيث ذواتهم ومن حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معايشهم كما ستقف عليه ولولا للتحضيض لإظهار عجزهم واذا ظرفية أى فهلا إذا بلغت النفس أى الروح وقيل نفس أحدكم الحلقوم وتداعت إلى الخروج ﴿ وأنتم حينئذ ﴾ أيها الحاضرون حول صاحبها ﴿ تنظرون ﴾ إلى ما هو فيه من الغمرات ﴿ ونحن أقرب إليه ﴾ علما وقدرة وتصرفا ﴿ منكم ﴾ حيث لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدة من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها وأسبابها ولا أن تقدروا على دفع أدنى شىء منها ونحن المتولون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا أو بملائكة الموت ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ لا تدركون ذلك لجهلكم بشئوننا وقوله :

﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ أى غير مربوبين من دان السلطان رعيته إذا ساسهم واستعبدهم ناظر إلى قوله تعالى نحن خلقناكم فلولا تصدقون فإن

التحضيض يستدعي عدم المحضض عليه حتما وقوله تعالى ﴿ ترجعونها ﴾ أى النفس إلى مقرها هو العامل فى إذا والمحضض عليه بلولا الأولى والثانية مكررة للتأكيد وهى مع ما فى حيزها دليل جواب الشرط والمعنى إن كنتم غير مربوبين كما ينبىء عنه عدم تصديقكم بخلقنا إياكم فهلا ترجعون النفس إلى مقرها عند بلوغها الحلقوم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى اعتقادكم فإن عدم تصديقهم بخالقيته تعالى لهم عبارة عن تصديقهم بعدم خالقيته تعالى بموجب مذهبهم وقوله تعالى :

﴿ فأما إن كان من المقربين ﴾ إلخ شروع فى بيان حال المتوفى بعد الممات إثر بيان حاله عند الوفاة أى فأما إن كان الذى بين حاله من السابقين من الأزواج الثلاثة عبر عنهم بأجل أوصافهم ﴿ فروح ﴾ أى فله استراحة وقرىء فروح بضم الراء وفسر بالرحمة لأنها سبب لحياة المرحوم وبالحياة الدائمة ﴿ وريحان ﴾ ورزق ﴿ وجنة نعيم ﴾ أى ذات تنعم ﴿ وأما إن كان من أصحاب اليمين ﴾ عبر عنهم بالعنوان السابق إذ لم يذكر لهم فيما سبق وصف واحد ينبىء عن شأنهم سواه كما ذكر للفريقين الآخرين .

وقوله تعالى ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض كما يفصح عنه اللام لا حكاية إنشاء سلام بعضهم على بعض وإلا لقيل عليك والالتفات إلى خطاب كل واحد منهم للتشريف ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين ﴾ وهم أصحاب الشمال عبر عنهم بذلك حسبما وصفوا به عند بيان أحوالهم بقوله تعالى (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) ذماً لهم بذلك وإشعارا بسبب ما ابتلوا به من العذاب ﴿ فنزل ﴾ أى فله نزل كائن ﴿ من حميم ﴾ يشرب بعد أكل الزقوم كما فصل فيما قبل ﴿ وتصلية جحيم ﴾ أى إدخال فى النار وقيل إقامة فيها ومقاساة لألوان عذابها وقيل ذلك ما يجده فى القبر من سموم النار ودخانها ﴿ إن هذا ﴾ أى الذى ذكر فى السورة الكريمة ﴿ لهو حق اليقين ﴾ أى حق الخبر اليقين وقيل الحق الثابت من اليقين والفاء فى قوله تعالى ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ لترتيب التسبيح أو الأمر به على

ما قبلها فإن حقية ما فصل فى تضاعيف[1] السورة الكريمة مما يوجب تنزيهه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل من الأمور التى من جملتها الإشراك به والتكذيب بآياته الناطقة بالحق . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا .

* * *

سورة الحديد

مكية ، وقيل مدنية ، وآيها تسع وعشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض ﴾ التسبيح تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولا وعملا عما لا يليق بجنابه سبحانه من سبح فى الأرض والماء إذا ذهب وأبعد فيهما وحيث أسند ههنا إلى غير العقلاء أيضاً فإن ما فى السموات والأرض يعم جميع ما فيهما سواء كان مستقرا فيهما أو جزءاً منهما كما مر فى آية الكرسى أريد به معنى عام مجازى شامل لما نطق به لسان المقال كتسبيح غيرهم فإن كل فرد من أفراد الموجودات يدل بإمكانه وحدوثه على الصانع القديم الواجب الوجود المتصف بالكمال المنزه عن النقصان وهو المراد بقوله تعالى (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) وهو متعد بنفسه كما فى قوله تعالى وسبحوه واللام إما مزيدة للتأكيد كما فى نصحت له وشكرت له أو للتعليل أى فعل التسبيح لأجل الله تعالى وخالصا لوجهه ومجيئه فى بعض الفواتح ماضيا وفى البعض مضارعا للإيذان بتحققه فى جميع الأوقات وفيه تنبيه على أن حق من شأنه التسبيح الاختيارى أن يسبحه تعالى فى جميع أوقاته كما عليه الملأ الأعلى حيث يسبحون

---

(١) فى ١١ : أضعاف .

الليل والنهار لا يفترون ﴿ وهو العزيز ﴾ القادر الغالب الذى لا يمانعه ولا ينازعه شىء ﴿ الحكيم ﴾ الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله مشعر بعلة الحكم وكذا قوله تعالى ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ أى التصرف الكلى فيهما وفيما فيهما من الموجودات من حيث الإيجاد والإعدام وسائر التصرفات مما نعلمه وما لا نعلمه وقوله تعالى :

﴿ يحيي ويميت ﴾ استئناف مبين لبعض أحكام الملك والتصرف وجعله حالا من ضمير له ليس كما ينبغى ﴿ وهو على كل شىء ﴾ من الأشياء التى من من جملتها ما ذكر من الإحياء والإماتة ﴿ قدير ﴾ مبالغ فى القدرة ﴿ هو الأول ﴾ السابق على سائر الموجودات لما أنه مبدئها ومبدعها ﴿ والآخر ﴾ الباقى بعد فنائها حقيقة أو نظرا إلى ذاتها مع قطع النظر عن مبقيها فإن جميع الموجودات الممكنة إذا قطع النظر عن علتها فهى فانية ﴿ والظاهر ﴾ وجوداً لكثرة دلائله الواضحة ﴿ والباطن ﴾ حقيقة فلا تحوم حوله العقول والواو الأولى والأخيرة للجمع بين الوصفين المكتنفين بهما والوسطى للجمع بين المجموعين فهو متصف باستمرار الوجود فى جميع الأوقات والظهور والخفاء ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ لا يعزب عن علمه شىء من الظاهر والخفى ﴿ هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ بيان لبعض أحكام ملكهما وقد مر تفسيره مرارا ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ مر بيانه فى سورة سبأ ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ تمثيل لإحاطة علمه تعالى بهم وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما داروا وقوله تعالى ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ عبارة عن إحاطته بأعمالهم فتأخيره عن الخلق لما أن المراد به ما يدور عليه الجزاء من العلم التابع للمعلوم لا لما قيل من أنه دليل عليه وقوله تعالى :

﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لقوله تعالى ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أى إليه وحده لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكا ترجع

جميع الأمور على البناء للمفعول من رجع رجعا وقرىء على البناء للفاعل من رجع رجوعا ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ مر تفسيره مرارا وقوله تعالى :

﴿ وهو عليم ﴾ أى مبالغ فى العلم(١) ﴿ بذات الصدور ﴾ أى بمكنوناتها اللازمة لها بيان لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه من نياتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم التى يظهرونها .

﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ أى جعلكم خلفاء فى التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة عبر عما بأيديهم من الأموال والأرزاق بذلك تحقيقا للحق وترغيبا لهم فى الإنفاق فإن من علم أنها لله عز وجل وإنما هو بمنزلة الوكيل يصرفها إلى ما عينه الله تعالى من المصارف هان عليه الإنفاق أو جعلكم خلفاء عمن قبلكم فيما كان بأيديهم بتوريثه إياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينتقل منكم إلى من بعدكم فلا تبخلوا به ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا ﴾ حسبما أمروا به ﴿ لهم ﴾ بسبب ذلك ﴿ أجر كبير ﴾ وفيه من المبالغات ما لا يخفى حيث جعل الجملة اسمية وأعيد ذكر الإيمان والإنفاق وكرر الإسناد وفخم الأجر بالتنكير ووصف بالكبير وقوله عز وجل ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله ﴾ استئناف مسوق لتوبيخهم على ترك الإيمان حسبما أمروا به بإنكار أن يكون لهم فى ذلك عذر ما فى الجملة على أن لا تؤمنون حال من الضمير فى لكم والعامل ما فيه من معنى الاستقرار أى أى شىء حصل لكم غير مؤمنين على توجيه الإنكار والنفى إلى السبب فقط مع تحقق المسبب لا إلى السبب والمسبب جميعا كما فى قوله تعالى (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) فإن همزة الاستفهام كما تكون تارة لإنكار الواقع كما فى أتضرب أباك وأخرى لإنكار الوقوع كما فى أأضرب أبى كذلك ما الاستفهامية قد تكون لإنكار سبب الواقع ونفيه فقط كما فيما نحن فيه وفى قوله تعالى (مالكم لا ترجون لله

---

(١) فى ١١ أى بليغ فى العلم .

وقارا فيكون مضمون الجملة الحالية محققا فإن كلا من عدم الإيمان وعدم الرجاء أمر محقق قد أنكر ونفى سببه وقد تكون لإنكار سبب الوقوع ونفيه فيسريان إلى المسبب أيضا كما فى قوله تعالى (ومالى لا أعبد) إلى آخره فيكون مضمون الجملة الحالية مفروضا قطعاً فإن عدم العبادة أمر مفروض حتما قدأنكر ونفى سببه فانتفى نفسه أيضا وقوله تعالى :

﴿ والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ﴾ حال من ضمير لا تؤمنون مفيدة لتوبيخهم على الكفر مع تحقق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم مايوجبه أى وأى عذر فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه وقوله تعالى ﴿ وقد أخذ ميثاقكم ﴾ حال من مفعول يدعوكم أى وقد أخذ الله تعالى ميثاقكم بالإيمان من قبل وذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر وقرىء وقد أخذ مبنيا للمفعول برفع ميثاقكم ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ لموجب مافإن هذا موجب لا موجب وراءه ﴿ هو الذى ينزل على عبده ﴾ حسبما يعن لكم من المصالح ﴿ آيات بينات ﴾ واضحات ﴿ ليخرجكم ﴾ أى الله تعالى أو العبد بها ﴿ من الظلمات إلى النور ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿ وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ حيث يهديكم إلى سعادة الدارين بإرسال الرسول وتنزيل الآيات بعد نصب الحجج العقلية .

دعوة إلى الإنفاق

وقوله تعالى ﴿ ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ﴾ توبيخ لهم على ترك الإنفاق المأمور به بعد توبيخهم على ترك الإيمان بإنكار أن يكون لهم فى ذلك أيضا عذر من الأعذار وحذف المفعول لظهور أنه الذى بين حاله فيما سبق وتعيين المنفق فيه لتشديد التوبيخ أى وأى شىء لكم فى أن لا تنفقوا فيما هو قربة إلى الله تعالى ما هو له فى الحقيقة وإنما أنتم خلفاؤه فى صرفه إلى ماعينه من المصارف وقوله ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ حال من فاعل لا تنفقوا ومفعوله مؤكدة للتوبيخ فان ترك الإنفاق بغير سبب قبيح منكر ومع تحقق ما يوجب الإنفاق

أشد في القبح وأدخل في الإنكار فإن بيان بقاء جميع ما في السموات والأرض من الأموال بالآخرة لله عز وجل من غير أن يبقى من أصحابها أحد أقوى في إيجاب الإنفاق عليهم من بيان أنها لله تعالى في الحقيقة وهم خلفاؤه في التصرف فيها كأنه قيل وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله والحال أنه لا يبقى لكم منها شيء بل تبقى كلها لله تعالى وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لزيادة التقرير وتربية المهابة وقوله تعالى ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ بيان لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق بعد بيان أن لهم أجرا كبيرا على الإطلاق حثاً لهم على تحرى الأفضل وعطف القتال على الإنفاق للإيذان بأنه من أهم مواد الإنفاق مع كونه في نفسه من أفضل العبادات وأنه لا يخلو من الإنفاق أصلا وقسيم من أنفق محذوف لظهوره ودلالة ما بعده عليه وقرىء قبل الفتح بغير من والفتح فتح مكة ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى من أنفق والجمع بالنظر إلى معنى من كما أن أفراد الضميرين السابقين بالنظر إلى لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببعد منزلتهم وعلو طبقاتهم في الفضل ومحله الرفع على الابتداء أي أولئك المنعوتون بذينك النعتين الجميلين ﴿ أعظم درجة ﴾ وأرفع منزلة ﴿ من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴾ لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا من الإنفاق والقتال قبل عزة الإسلام وقوة أهله عند كمال الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وهؤلاء فعلوا ما فعلوا بعد ظهور الدين ودخول الناس فيه أفواجا وقلة الحاجة إلى الإنفاق والقتال ﴿ وكلا ﴾ أي وكل واحد من الفريقين ﴿ وعد الله الحسنى ﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة لا الأولين فقط وقرىء وكل بالرفع على الابتداء أي وكل وعده الله تعالى ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ بظواهره وبواطنه فيجازيكم بحسبه[1] وقيل نزلت الآية في أبي بكر رضي الله تعالى عنه فإنه أول من آمن وأول من أنفق في سبيل الله وخاصم الكفار حتى ضرب ضربا أشرف به على الهلاك وقوله تعالى :

---

(١) في ا ا : يجازيكم به .

﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾ ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق فى سبيله بعد الأمر به والتوبيخ على تركه وبيان درجات المنفقين أى من ذا الذى ينفق ماله فى سبيله تعالى رجاء أن يعوضه فإنه كمن يقرضه وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه وتحرى أكرم المال وأفضل الجهات ﴿ فيضاعفه له ﴾ بالنصب على جواب الاستفهام باعتبار المعنى كأنه قيل أيقرض الله أحد فيضاعفه له أى فيعطيه أجره أضعافا ﴿ وله أجر كريم ﴾ أى وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم فى نفسه حقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون وإن لم يضاعف فكيف وقد ضوعف أضعافا كثيرة وقرىء بالرفع عطفا على يقرض أو حملا على تقدير مبتدأ أى فهو يضاعفه وقرىء يضعفه بالرفع والنصب ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ﴾ ظرف لقوله تعالى وله أجر كريم أو لقوله تعالى فيضاعفه أو منصوب بإضمار اذكر تفخيما لذلك اليوم وقوله تعالى ﴿ يسعى نورهم ﴾ حال من مفعول ترى قيل نورهم الضياء الذى يرى ﴿ بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ وقيل هو هداهم وبأيمانهم كتبهم أى يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم وفى أيمانهم كتب أعمالهم وقيل هو القرآن وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى كالرجل القائم وأدناهم نورا من نوره على إبهام رجله ينطفىء تارة ويلمع أخرى قال الحسن يستضيئون به على الصراط وقال مقاتل يكون لهم دليلا إلى الجنة ﴿ بشراكم اليوم جنات ﴾ مقدر بقول هو حال أو استئناف أى يقال لهم بشراكم أى ماتبشرون به جنات أو بشراكم دخول جنات ﴿ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك ﴾ أى ما ذكر من النور والبشرى بالجنات المخلدة ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ الذى لا غاية وراءه وقرىء ذلك الفوز العظيم .

بين المؤمنين والكافرين

﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴾ بدل من يوم ترى ﴿ للذين آمنوا انظرونا ﴾ أى انتظرونا يقولون ذلك لما أن المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة كالبرق

الخاطف على ركاب تزف بهم وهؤلاء مشاة أو انظروا إلينا فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بالنور الذى بين أيديهم وقرىء أنظرونا من النظرة وهى الإمهال جعل اتئادهم فى المضى إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم ﴿ نقتبس من نوركم ﴾ أى نستضىء منه وأصله اتخاذ القبس ﴿ قيل ﴾ طرداً لهم وتهكما بهم من جهة المؤمنين أو من جهة الملائكة ﴿ ارجعوا وراءكم ﴾ أى إلى الموقف ﴿ فالتمسوا نورا ﴾ فإنه من ثم يقتبس أو إلى الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل مباديه من الإيمان والأعمال الصالحة أو ارجعوا خائبين خاسئين فالتمسوا نورا آخر وقد علموا أن لا نور وراءهم وإنما قالوه تخييبا لهم أو أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة الكثيفة تهكما بهم ﴿ فضرب بينهم ﴾ بين الفريقين ﴿ بسور ﴾ أى حائط والباء زائدة ﴿ له باب باطنه ﴾ أى باطن السور أو الباب وهو الجانب الذى يلى الجنة ﴿ فيه الرحمة وظاهره ﴾ وهو الطرف الذى يلى النار ﴿ من قبله ﴾ من جهته ﴿ العذاب ﴾ وقرىء فضرب على البناء للفاعل ﴿ ينادونهم ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا يفعلون بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب فقيل ينادونهم ﴿ ألم نكن ﴾ فى الدنيا ﴿ معكم ﴾ يريدون به موافقتهم لهم فى الظاهر ﴿ قالوا بلى ﴾ كنتم معنا بحسب الظاهر ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿ وتربصتم ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿ وارتبتم ﴾ فى أمر الدين ﴿ وغرتكم الأمانى ﴾ الفارغة التى من جملتها الطمع فى انتكاس أمر الإسلام ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ أى الموت ﴿ وغركم بالله ﴾ الكريم ﴿ الغرور ﴾ أى غركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم وقرىء الغرور بالضم ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾ فداء وقرىء تؤخذ بالتاء ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ أى ظاهرا وباطنا ﴿ مأواكم النار ﴾ لا تبرحونها أبدا ﴿ هى مولاكم ﴾ أى أولى بكم وحقيقته مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم كما يقال هو مئنة الكرم أى مكان لقول القائل إنه لكريم أو مكانكم عن قريب من الولى وهو القرب أو ناصركم على طريقة قوله :

* تحية بينهم ضرب وجيع *

أو متوليكم تتولاكم كما توليتم موجباتها ﴿ وبئس المصير ﴾ أى النار .

تقويم المؤمنين

﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ استئناف ناع عليهم تثاقلهم فى أمور الدين ورخاوة عقدهم فيها واستبطاء لانتدابهم لما ندبوا إليه بالترغيب والترهيب وروى أن المؤمنين كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة وفتروا عما كانوا عليه فنزلت وعن ابن مسعود رضى الله عنه ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن(١) أى ألم يجىء وقت أن تخشع قلوبهم لذكره تعالى وتطمئن به ويسارعوا إلى طاعته بالامتثال بأوامره والانتهاء عما نهوا عنه من غير توان ولا فتور من أنى الأمر إذا جاء أناه أى وقته وقرىء ألم يئن من آن يئين بمعنى أنى وقرىء ألما يأن وفيه دلالة على أن المنفى متوقع ﴿ وما نزل من الحق ﴾ أى القرآن وهو عطف على ذكر الله فإن كان هو المراد به أيضا فالعطف لتغاير العنوانين فإنه ذكر وموعظة كما أنه حق نازل من السماء وإلا فالعطف كما فى قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) ومعنى الخشوع له الانقياد التام لأوامره ونواهيه والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام التى من جملتها ما سبق وما لحق من الإنفاق فى سبيل الله تعالى وقرىء نزل من التنزيل مبنيا للفاعل وأنزل ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ﴾ عطف على تخشع وقرىء بالتاء على الالتفات للاعتناء بالتحذير وقيل هو نهى عن مماثلة أهل الكتاب فى قسوة القلوب بعد أن وبخوا وذلك أن بنى إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم ﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ أى الأجل وقرىء الأمد بتشديد الدال أى الوقت الأطول وغلبهم الجفاء وزالت عنهم

---

(١) انظر الدر المنثور وابن كثير .

الروعة التى كانت تأتيهم من الكتابين ﴿ فقست قلوبهم ﴾ فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أى خارجون عن حدود دينهم رافضون لما فى كتابهم بالكلية .

﴿ اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها ﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث للترغيب فى الخشوع والتحذير عن القساوة ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ التى من جملتها هذه الآيات ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ كى تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارين ﴿ إن المصدقين والمصدقات ﴾ أى المتصدقين والمتصدقات وقد قرىء كذلك وقرىء بتخفيف الصاد من التصديق أى الذين صدقوا الله ورسوله ﴿ وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾ قيل هو عطف على ما فى المصدقين من معنى الفعل فإنه فى حكم الذين اصدقوا أو صدقوا على القراءتين وعقب بأن فيه فصلا بين أجزاء الصلة بأجنبي وهو المصدقات وأجيب بأن المعنى أن الناس الذين تصدقوا وتصدقن وأقرضوا فهو عطف على الصلة من حيث المعنى من غير فصل وقيل إن المصدقات ليس بعطف على المصدقين بل هو منصوب على الاختصاص كأنه قيل إن المصدقين على العموم تغليبا وأخص المصدقات من بينهم كما تقول إن الذين آمنوا ولا سيما العلماء منهم وعملوا الصالحات لهم كذا لكن لا على أن مدار التخصيص مزيد استحقاقهن لمضاعفة الأجر كما فى المثال المذكور بل زيادة احتياجهن إلى التصدق الداعية إلى الاعتناء بحثهن على التصدق لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال يامعشر النساء تصدقن فإنى أريتكن أكثر أهل النار[1] وقيل هو صلة لموصول محذوف معطوف على المصدقين كأنه قيل والذين أقرضوا والقرض الحسن عبارة عن التصدق من الطيب عن طيبة النفس وخلوص النية على المستحق للصدقة ﴿ يضاعف لهم ﴾ على البناء للمفعول مسندا إلى ما بعده من الجار والمجرور وقيل إلى مصدر ما فى حيز الصلة على حذف مضاف أى ثواب التصدق وقرىء على البناء للفاعل أى يضاعف الله تعالى وقرىء يضعف بتشديد العين وفتحها

(١) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول والأجهورى فى إرشاد الرحمن من طرق .

﴿ ولهم أجر كريم ﴾ مر ما فيه من الكلام ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ﴾ كافة وقد مر بيان كيفية الإيمان بهم فى خاتمة سورة البقرة .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول الذى هو مبتدأ وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه قد مر سره مرارا وهو مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿ هم ﴾ مبتدأ ثالث خبره ﴿ الصديقون والشهداء ﴾ وهو مع خبره خبر للثانى وهو مع خبره خبر للأول أو هم ضمير الفصل وما بعده خبر لأولئك والجملة خبر للموصول أى أولئك ﴿ عند ربهم ﴾ بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الرتبة ورفعة المحل وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا فى سبيل الله تعالى أو هم المبالغون فى الصدق حيث آمنوا وصدقوا جميع أخباره تعالى ورسله والقائمون بالشهادة لله تعالى بالوحدانية ولهم بالإيمان أو على الأمم يوم القيامة وقوله تعالى ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ بيان لثمرات ماوصفوا به من نعوت الكمال على أنه جملة من مبتدأ وخبر محلها الرفع على أنه خبر ثان للموصول أو الخبر هو الجار وما بعده مرتفع به على الفاعلية والضمير الأول على الوجه الأول للموصول والأخيران للصديقين والشهداء أى لهم مثل أجرهم ونورهم المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال وقد حذف أداة التشبيه تنبيها على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد كما فعل ذلك حيث قيل هم الصديقون والشهداء وليست المماثلة بين ما للفريق الأول من الأجر والنور وبين تمام ما للفريقين الأخيرين بل بين تمام ما للأول من الأصل والأضعاف وبين ما للآخرين من الأصل بدون الأضعاف وأما على الوجه الثانى فرجع الكل واحد والمعنى لهم الأجر والنور الموعودان لهم هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم وقد قيل والشهداء مبتدأ وعند ربهم خبره وقيل الخبر لهم أجرهم الخ ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفة القبيحة ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ بحيث لا يفارقونها أبدا .

تزهيد فى الدنيا

﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد﴾ بعد ما بين حال الفريقين فى الآخرة شرح حال الحياة الدنيا التى اطمأن بها الفريق الثانى وأشير إلى أنها من محقرات الأمور التى لا يركن إليها العقلاء فضلا عن الاطمئنان بها وأنها مع ذلك سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال حيث قيل ﴿كمثل غيث أعجب الكفار﴾ أى الحراث ﴿نباته﴾ أى النبات الحاصل به ﴿ثم يهيج﴾ أى يجف بعد خضرته ونضارته ﴿فتراه مصفرا﴾ بعد ما رأيته ناضرا مونقا وقرىء مصفارا وإنما لم يقل فيصفر إيذانا بأن اصفراره مقارن لجفافه وإنما المترتب عليه رؤيته كذلك ﴿ثم يكون حطاما﴾ هشيما متكسرا ومحل الكاف قيل النصب على الحالية من الضمير فى لعب لأنه فى معنى الوصف وقيل الرفع على أنه خبر للحياة الدنيا بتقدير المضاف أى مثل الحياة الدنيا كمثل الخ وبعد ما بين حقارة أمر الدنيا تزهيدا فيها وتنفيرا عن العكوف عليها أشير إلى فخامة شأن الآخرة وعظم ما فيها من اللذات والآلام ترغيبا فى تحصيل نعيمها المقيم وتحذيرا من عذابها الأليم وقدم ذكر العذاب فقيل ﴿وفى الآخرة عذاب شديد﴾ لأنه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الدنيا ﴿ومغفرة﴾ عظيمة ﴿من الله ورضوان﴾ عظيم لا يقادر قدره ﴿وما الحيوة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أى لمن اطمأن بها ولم يجعلها ذريعة إلى الآخرة عن سعيد بن جبير الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى فنعم المتاع ونعم الوسيلة ﴿سابقوا﴾ أى سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم فى المضمار ﴿إلى مغفرة﴾ عظيمة كائنة ﴿من ربكم﴾ أى إلى موجباتها من الأعمال الصالحة ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ أى كعرضهما جميعا وإذا كان عرضها كذلك فما ظنك بطولها وقيل المراد بالعرض البسطة وتقديم المغفرة على الجنة لتقدم التخلية على التحلية ﴿أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾ فيه دليل على أن الجنة مخلوقة بالفعل وأن الإيمان وحده كاف فى استحقاقها ﴿ذلك﴾ الذى وعد من المغفرة والجنة

﴿ فضل الله ﴾ عطاؤه ﴿ يؤتيه ﴾ تفضلا وإحسانا ﴿ من يشاء ﴾ إيتاءه إياه من غير إيجاب ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ ولذلك يؤتى من يشاء مثل ذلك الفضل الذى لا غاية وراءه .

﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ﴾ كجدب وعاهة فى الزرع والثمار ﴿ ولا فى أنفسكم ﴾ كمرض وآفة ﴿ إلا فى كتاب ﴾ أى إلا مكتوبة مثبتة فى علم الله تعالى أو فى اللوح ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ أى نخلق الأنفس أو المصائب أو الأرض ﴿ إن ذلك ﴾ أى إثباتها فى كتاب ﴿ على الله يسير ﴾ لاستغنائه فيه عن العدة والمدة ﴿ لكيلا تأسوا ﴾ أى أخبرناكم بذلك لئلا تحزنوا ﴿ على ما فاتكم ﴾ من نعم الدنيا ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ أى أعطاكم الله تعالى منها فإن من علم أن الكل مقدر يفوت ما قدر فواته ويأتى ما قدر إتيانه لا محالة لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هو آت وقرىء بما أتاكم من الإتيان وفى القراءة الأولى إشعار بأن فوات النعم يلحقها إذا خليت وطباعها وأما حصولها وبقاؤها فلابد لها من سبب يوجدها ويبقيها وقرىء بما أوتيتم والمراد به نفى الأسى المانع عن التسليم لأمر الله تعالى والفرح الموجب للبطر والاختيال ولذلك عقب بقوله تعالى ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ فإن من فرح بالحظوظ الدنيوية وعظمت فى نفسه اختال وافتخر بها لا محالة وفى تخصيص التذييل بالنهى عن الفرح المذكور إيذان بأنه أقبح من الأسى ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ بدل من كل مختال فإن المختال بالمال يضن به غالبا ويأمر غيره به أو مبتدأ خبره محذوف يدل عليه قوله تعالى ﴿ ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ فإن معناه ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غنى عنه وعن إنفاقه محمود فى ذاته لا يضره الإعراض عن شكره بالتقرب إليه بشىء من نعمه وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق وقرىء فإن الله الغنى .

﴿ لقد أرسلنا رسلنا ﴾ أى الملائكة إلى الأنبياء أو الأنبياء إلى الأمم وهو الأظهر ﴿ بالبينات ﴾ أى الحجج والمعجزات ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ أى جنس الكتاب الشامل للكل ﴿ والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ أى بالعدل روى

أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال مر قومك يزنوا به وقيل أريد به العدل ليقام به السياسة ويدفع به العدوان ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ قيل نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد السندار والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة وروى ومعه المر والمسحات وعن الحسن وأنزلنا الحديد خلقناه كقوله تعالى وأنزل لكم من الأنعام وذلك أن أوامره تعالى وقضاياه وأحكامه تنزل من السماء وقوله تعالى ﴿ فيه بأس شديد ﴾ لأن آلات الحروب إنما تتخذ منه ﴿ ومنافع للناس ﴾ إذ ما من صنعة إلا والحديد أو ما يعمل بالحديد آلتها والجملة حال من الحديد وقوله تعالى ﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله ﴾ عطف على محذوف يدل عليه ما قبله فإنه حال متضمنة للتعليل كأنه قيل ليستعملوه وليعلم الله علما يتعلق به الجزاء من ينصره ورسله باستعمال السيوف والرماح وسائر الأسلحة فى مجاهدة أعدائه أو متعلق بمحذوف مؤخر والواو اعتراضية أى وليعلم الله من ينصره ورسله أنزله وقيل عطف على قوله تعالى ليقوم الناس بالقسط وقوله تعالى ﴿ بالغيب ﴾ حال من فاعل ينصر أو مفعوله أى غائبا عنهم أو غائبين عنه وقوله تعالى ﴿ إن الله قوى عزيز ﴾ اعتراض تذييلى جىء به تحقيقا للحق وتنبيها على أن تكليفهم الجهاد وتعريضهم للقتال ليس لحاجته فى إعلاء كلمته وإظهار دينه إلى نصرتهم بل إنما هو لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب وإلا فهو غنى بقدرته وعزته عنهم فى كل ما يريده .

﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ﴾ نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى لقد أرسلنا رسلنا إلخ وتكرير القسم لإظهار مزيد الاعتناء بالأمر أى وبالله لقد أرسلناهما ﴿ وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب وقيل المراد بالكتاب الخط بالقلم ﴿ فمنهم ﴾ أى من الذرية أو من المرسل إليهم المدلول عليهم بذكر الإرسال والمرسلين ﴿ مهتد ﴾ إلى الحق ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم والعدول عن سنن المقابلة للمبالغة فى الذم والإيذان بغلبة الضلال وكثرتهم ﴿ ثم قفينا على آثارهم

برسلنا ﴾ أى ثم أرسلنا بعدهم رسلنا ﴿ وقفينا بعيسى ابن مريم ﴾ أى أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام والضمير لنوح وإبراهيم ومن أرسلا إليهم أو من عاصرهما من الرسل لا للذرية فإن الرسل المقفى بهم من الذرية ﴿ وآتيناه الإنجيل ﴾ وقرىء بفتح الهمزة فإنه أعجمى لايلزم فيه مراعاة أبنية العرب ﴿ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ﴾ وقرىء رآفة على فعالة ﴿ ورحمة ﴾ أى وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم ونحوه فى شأن أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام رحماء بينهم ﴿ ورهبانية ﴾ منصوب إما بفعل مضمر يفسره الظاهر أى وابتدعوا رهبانية ﴿ ابتدعوها ﴾ وإما بالعطف على ما قبلها وابتدعوها صفة لها أى وجعلنا فى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم أى وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحداثها وهى المبالغة فى العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف فعلان من رهب كخشيان من خشى وقرىء بضم الراء كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان وسبب ابتداعهم إياها أن الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى عليه السلام فقاتلوهم ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا قليل فخافوا أن يفتتنوا فى دينهم فاختاروا الرهبانية فى قلال الجبال فارين بدينهم مخلصين أنفسهم للعبادة وقوله تعالى ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ جملة مستأنفة وقيل صفة أخرى لرهبانية والنفى على الوجه الأول متوجه إلى أصل الفعل وقوله تعالى ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ استثناء منقطع أى ما فرضناها نحن عليهم رأسا ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله فذمهم حينئذ بقوله تعالى ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ من حيث أن النذر عهد مع الله لا يحل نكثه لا سيما إذا قصد به رضاه تعالى وعلى الوجه الثانى متوجه إلى قيده لا إلى نفسه والاستثناء متصل من أعم العلل أى ما كتبناها عليهم بأن وفقناهم لابتداعها لشىء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها ويراعوها حق رعايتها فما رعاها كلهم بل بعضهم ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم ﴾ إيمانا صحيحا وهو الإيمان برسول الله

صلى الله عليه وسلم بعد رعاية رهبانيتهم لا لمجرد رعايتها فإنها بعد البعثة لغو محض وكفر بحت وأنى لها استتباع الأجر ﴿ أجرهم ﴾ أى ما يخص بهم من الأجر ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ خارجون عن حد الاتباع وحمل الفريقين على من مضى من المراعين لحقوق الرهبانية [من][1] قبل النسخ والمخلين بها إذ ذاك بالتثليث والقول بالاتحاد وقصد السمعة من غير تعرض لإيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وكفرهم به مما لا يساعده المقام.

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أى بالرسل المتقدمة ﴿ اتقوا الله ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿ وآمنوا برسوله ﴾ أى بمحمد عليه الصلاة والسلام وفى إطلاقه إيذان بأنه علم فرد فى الرسالة لا يذهب الوهم إلى غيره ﴿ يؤتكم كفلين ﴾ نصيبين ﴿ من رحمته ﴾ لإيمانكم بالرسول وبمن قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام لكن لا على معنى أن شريعتهم باقية بعد البعثة بل على أنها كانت حقة قبل النسخ ﴿ ويجعل لكم نورا تمشون به ﴾ يوم القيامة حسبما نطق به قوله تعالى (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) ﴿ ويغفر لكم ﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصى ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أى مبالغ فى المغفرة والرحمة وقوله تعالى ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب متعلق بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط إذ التقدير إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم كذا وكذا لئلا يعلم الذين لم يسلموا من أهل الكتاب ﴾ أى ليعلموا ولا مزيدة كما ينبىء عنه قراءة ليعلم ولكى يعلم ولأن يعلم بادغام النون فى الياء وأن فى قوله تعالى ﴿ أن لا يقدرون على شىء من فضل الله ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف والجملة فى حيز النصب على أنها مفعول يعلم أى ليعلموا أنه لا ينالون[2] شيئاً مما ذكر من فضله من الكفلين والنور والمغفرة ولا يتمكنون من نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذى هو الإيمان برسوله وقوله تعالى ﴿ وأن الفضل بيد الله ﴾ عطف على أن لا يقدرون وقوله

---

(١) سقطت من ط .

(٢) فى ١١ : أنهم لا ينالون .

تعالى ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ خبر ثان لأن وقيل هو الخبر والجار حال لازمة وقوله تعالى ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله وقد جوز أن يكون الأمر بالتقوى والإيمان لغير أهل الكتاب فالمعنى اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين فى قوله تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) ولا ينقصكم من مثل أجرهم لأنكم مثلهم فى الإيمانين لا تفرقون بين أحد من رسله وروى أن مؤمنى أهل الكتاب افتخروا على سائر المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت وقرىء ليلا بقلب الهمزة ياء لانفتاحها بعد كسرة وقرىء بسكون الياء وفتح اللام كاسم المرأة وبكسر اللام مع سكون الياء وقرىء أن لا يقدروا هذا وقد قيل لا غير مزيدة وضمير لا يقدرون للنبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه والمعنى لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنون به على شىء من فضل الله الذى هو عبارة عما أوتوه من سعادة الدارين على أن عدم علمهم بعدم قدرتهم على ذلك كناية عن علمهم بقدرتهم عليه فيكون قوله تعالى وأن الفضل بيد الله إلخ عطفا على أن لا يعلم . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسله

* * *

سورة المجادلة

مدنية، وقيل العشر الأول مكى والباقى مدنى، وآيها ثنتان وعشرون.

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ قد سمع الله ﴾ بإظهار الدال وقرىء بإدغامها فى السين ﴿ قول التى تجادلك فى زوجها ﴾ أى تراجعك الكلام فى شأنه وفيما صدر عنه فى حقها من الظهار وقرىء تحاورك وتحاولك أى تسائلك ﴿ وتشتكى إلى الله ﴾ عطف على تجادلك أى تتضرع إليه تعالى وقيل حال من فاعله أى تجادلك وهى متضرعة إليه تعالى وهى خولة بنت ثعلبة بن مالك بن خزامة الخزرجية ظاهر عنها زوجها أوس بن الصامت أخو عبادة ثم ندم على ما قال فقال لها ما أظنك إلا قد حرمت على فشق عليها ذلك فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حرمت عليه فقالت يا رسول الله ما ذكر طلاقا فقال حرمت عليه وفى رواية ما أراك إلا قد حرمت عليه فى المرار كلها فقالت أشكو إلى الله فاقتى ووجدى وجعلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلما قال عليه الصلاة والسلام حرمت عليه هتفت وشكت إلى الله تعالى فنزلت[1] وفى كلمة قد إشعار بأن الرسول عليه الصلاة والسلام والمجادلة كانا يتوقعان أن ينزل الله تعالى حكم الحادثة ويفرج عنها كربها كما يلوح به ما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لها عند استفتائها ما عندى فى أمرك شىء وأنها كانت ترفع رأسها إلى السماء وتقول اللهم إنى أشكو إليك فأنزل على لسان نبيك ومعنى سمعه تعالى لقولها إجابة دعائها لا مجرد علمه تعالى بذلك كما هو المعنى بقوله تعالى ﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾ أى يعلم تراجعكما الكلام وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدده وفى نظمها فى سلك

---

(١) أخرجه الواحدى والأجهورى فى أسباب النزول وإرشاد الرحمن .

الخطاب تغليبا تشريف لها من جهتين والجملة استئناف جار مجرى التعليل لما قبله فإن إلحافها فى المسألة ومبالغتها فى التضرع إلى الله تعالى ومدافعته عليه الصلاة والسلام إياها بجواب منبىء عن التوقف وترقب الوحى وعلمه تعالى بحالها من دواعى الإجابة وقيل هى حال وهو بعيد وقوله عز وجل: ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ تعليل لما قبله بطريق التحقيق أى مبالغ فى العلم بالمسموعات والمبصرات ومن قضيته أن يسمع تحاورهما ويرى ما يقارنه من الهيئات التى من جملتها رفع رأسها إلى السماء وسائر آثار التضرع وإظهار الاسم الجليل فى الموقعين لتربية المهابة وتعليل الحكم بوصف الألوهية وتأكيد استقلال الجملتين.

حكم الظهار

وقوله تعالى ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ شروع فى بيان شأن الظهار فى نفسه حكمه المترتب عليه شرعا بطريق الاستئناف والظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت على كظهر أمى مشتق من الظهر وقد مر تفصيله فى الأحزاب وألحق به الفقهاء تشبيهها بجزء محرم وفى منكم مزيد توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم فيه فإنه كان من أيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم وقرىء يظاهرون من إظاهر ويظاهرون ويظهرون وقوله تعالى ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ خبر للموصول أى ما نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة فهو كذب بحت وقرىء أمهاتهم بالرفع على لغة تميم وبأمهاتهم ﴿ إن أمهاتهم ﴾ أى ماهن ﴿ إلا اللائى ولدنهم ﴾ فلا تشبه بهن فى الحرمة إلا من ألحقها الشرع بهن من المرضعات وأزواج النبى عليه الصلاة والسلام فدخلن بذلك فى حكم الأمهات وأما الزوجات فأبعد شىء من الأمومة ﴿ وإنهم ليقولون ﴾ بقولهم ذلك ﴿ منكرا من القول ﴾ على أن مناط التأكيد ليس صدور القول عنهم فإنه أمر محقق بل كونه منكرا أى عند الشرع وعند العقل والطبع أيضا كما يشعر به تنكيره ونظيره قوله تعالى إنكم لتقولون قولا عظيما ﴿ وزورا ﴾ أى محرفا عن الحق ﴿ وإن الله لعفو

غفور ﴾ أى مبالغ فى العفو والمغفرة فيغفر لما سلف منه على الإطلاق أو بالمتاب عنه وقوله تعالى ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ﴾ تفصيل لحكم الظهار بعد بيان كونه أمرا منكرا بطريق التشريع الكلى المنتظم لحكم الحادثة انتظاما أوليا أى والذين يقولون ذلك القول المنكر ثم يعودون لما قالوا أى إلى ما قالوا بالتدارك والتلافى لا بالتقرير والتكرير كما فى قوله تعالى (أن تعودوا لمثله أبدا) فإن اللام وإلى تتعاقبان كثيرا كما فى قوله تعالى (هدانا لهذا) وقوله تعالى (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) وقوله تعالى (بأن ربك أوحى لها) وقوله تعالى (وأوحى إلى نوح) .

﴿ فتحرير رقبة ﴾ أى فتداركه أو فعليه أو فالواجب إعتاق رقبة أى رقبة كانت وعند الشافعى رحمه الله تعالى يشترط الإيمان والفاء للسببية ومن فوائدها الدلالة على تكرر وجوب التحرير بتكرر الظهار وقيل ما قالوا عبارة عما حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلا للقول منزلة المقول فيه كما ذكر فى قوله تعالى (ونرثه ما يقول) أى المقول فيه من المال والولد فالمعنى ثم يريدون العود للاستمتاع فتحرير رقبة ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ أى من قبل أن يستمتع كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر جماعا ولمسا ونظرا إلى الفرج بشهوة وإن وقع شىء من ذلك قبل التكفير يجب عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفر وإن أعتق بعض الرقبة ثم مس عليه أن يستأنف عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى الحكم المذكور وهو مبتدأ خبره ﴿ توعظون به ﴾ أى تزجرون به عن ارتكاب المنكر المذكور فإن الغرامات مزاجر عن تعاطى الجنايات والمراد بذكره بيان أن المقصود من شرع هذا الحكم ليس تعريضكم للثواب بمباشرتكم لتحرير الرقبة الذى هو علم فى استتباع الثواب العظيم بل هو ردعكم وزجركم عن مباشرة ما يوجبه ﴿ والله بما تعملون ﴾ من الأعمال التى من جملتها التكفير وما يوجبه من جناية الظهار ﴿ خبير ﴾ أى عالم بظواهرها وبواطنها ومجازيكم بها فحافظوا على حدود ما شرع لكم ولا تخلوا بشىء منها ﴿ فمن لم يجد ﴾ أى الرقبة ﴿ فصيام شهرين ﴾ أى فعليه صيام شهرين ﴿ متتابعين ﴾

من قبل أن يتماسا ﴾ ليلا أو نهارا عمدا أو خطأ ﴿ فمن لم يستطع ﴾ أى الصيام لسبب من الأسباب ﴿ فإطعام ستين مسكينا ﴾ لكل مسكين نصف صاع من بر أو صاع من غيره ويجب تقديمه على المسيس لكن لا يستأنف إن مس فى خلال الإطعام ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما مر من البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها وما فيه من معنى البعد قد مر سره مرارا ومحله إما الرفع على الابتداء أو النصب بمضمر معلل بما بعده أى ذلك واقع أو فعلنا ذلك ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ وتعملوا بشرائعه التى شرعها لكم وترفضوا ما كنتم عليه فى جاهليتكم ﴿ وتلك ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة وما فيه من معنى البعد لتعظيمها كما مر غير مرة ﴿ حدود الله ﴾ التى لا يجوز تعديها ﴿ وللكافرين ﴾ أى الذين لا يعملون بها ﴿ عذاب أليم ﴾ عبر عنه بذلك للتغليظ على طريقة قوله تعالى (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) .

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ أى يعادونهما ويشاقونهما فإن كلا من المتعاديين كما أنه يكون فى عدوة وشق غير عدوة الآخر وشقه كذلك يكون فى حد غير حد الآخر غير أن[1] لورود المحادة فى أثناء ذكر حدود الله دون المعاداة والمشاقة من حسن الموقع ما لا غاية وراءه ﴿ كبتوا ﴾ أى أخزوا وقيل خذلوا وقيل أذلوا وقيل أهلكوا وقيل لعنوا وقيل غيظوا وهو ما وقع يوم الخندق قالوا معنى كبتوا سيكبتون على طريقة قوله تعالى (أتى أمر الله) وقيل أصل الكبت الكب ﴿ كما كبت الذين من قبلهم ﴾ من كفار الأمم الماضية المعادين للرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ وقد أنزلنا آيات بينات ﴾ حال من واو كبتوا أى كبتوا لمحادتهم والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حاد الله ورسوله ممن قبلهم من الأمم وفيما فعلنا بهم وقيل آيات تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به ﴿ وللكافرين ﴾ أى بتلك الآيات أو بكل ما يجب الإيمان به فيدخل فيه تلك الآيات دخولا أوليا ﴿ عذاب مهين ﴾ يذهب

---

(١) فى ١١ : غير أنه

بعزهم وكبرهم ﴿ يوم يبعثهم الله ﴾ منصوب بما تعلق به اللام من الاستقرار أو بمهين أو بإضمار اذكر تعظيما لليوم وتهويلا له ﴿ جميعا ﴾ أى كلهم بحيث لا يبقى منهم أحد غير مبعوث أو مجتمعين فى حالة واحدة ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ من القبائح ببيان صدورها عنهم أو بتصويرها فى تلك النشأة بما يليق بها من الصور الهائلة على رؤس الإشهاد تخجيلالهم وتشهيرا بحالهم وتشديداً لعذابهم وقوله تعالى ﴿ أحصاه الله ﴾ استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله من السؤال إما عن كيفية التنبئة أو عن سببها كأنه قيل كيف ينبئهم بأعمالهم وهى أعراض متقضية[1] متلاشية فقيل أحصاه الله عددا لم يفته منه شىء فقوله تعالى : ﴿ ونسوه ﴾ حينئذ حال من مفعول أحصى بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور أو قيل لم ينبئهم بذلك فقيل أحصاه الله ونسوه فينبئهم به ليعرفوا أن ما عاينوه من العذاب إنما حاق بهم لأجله فيه مزيد توبيخ وتنديم لهم غير التخجيل والتشهير ﴿ والله على كل شىء شهيد ﴾ لا يغيب عنه أمر من الأمور قط. والجملة اعتراض تذييلى مقرر لإحصائه تعالى وقوله تعالى :

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ استشهاد على شمول شهادته تعالى كما فى قوله تعالى(ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) وفى قوله تعالى (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) أى ألم تعلم علما يقينيا متاخما للمشاهدة بأنه تعالى يعلم ما فيهما من الموجودات سواء كان ذلك بالاستقرار فيهما أو بالجزئية منهما وقوله تعالى ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ الخ استئناف مقرر لما قبله من سعة علمه تعالى ومبين لكيفيته ويكون من كان التامة وقرىء تكون بالتاء اعتباراً لتأنيث النجوى وإن كان غير حقيقى أى ما يقع من تناجى ثلاثة نفر أى من مسارتهم على أن نجوى مضافة إلى ثلاثة أو على أنها موصوفة بها إما بتقدير مضاف أى من أهل نجوى ثلاثة أو بجعلهم نجوى فى أنفسهم مبالغة ﴿ إلا هو ﴾ أى الله عز وجل ﴿ رابعهم ﴾ أى جاعلهم أربعة من حيث أنه

---

(١) فى ط : منقضية وما أثبتناه أوضح

أنه تعالى يشاركهم فى الاطلاع عليها وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال ﴿ ولا خمسة ﴾ ولا نجوى خمسة ﴿ إلا هو سادسهم ﴾ وتخصيص العددين بالذكر إما لخصوص الواقعة فإن الآية نزلت فى تناجى المنافقين وإما لبناء الكلام على أغلب عادات المتناجين وقد عمم الحكم بعد ذلك فقيل ﴿ ولا أدنى من ذلك ﴾ أى مما ذكر كالواحد والاثنين ﴿ ولا أكثر ﴾ كالستة وما فوقها ﴿ إلا هو معهم ﴾ يعلم ما يجرى بينهم وقرىء ولا أكثر بالرفع عطفاً على محل من نجوى أو محل ولا أدنى بأن جعل لا لنفى الجنس ﴿ أينما كانوا ﴾ من الأماكن ولو كانوا تحت الأرض فإن علمه تعالى بالأشياء ليس لقرب مكانى حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة قربا وبعداً ﴿ ثم ينبئهم ﴾ وقرىء ينبئهم بالتخفيف ﴿ بما عملوا يوم القيامة ﴾ تفضيحا لهم وإظهارا لما يوجب عذابهم ﴿ إن الله بكل شىء عليم ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للعلم إلى الكل سواء .

﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ﴾ نزلت فى اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عادوا لمثل فعلهم والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والهمزة للتعجيب من حالهم وصيغة المضارع للدلالة على تكرر عودهم وتجدده واستحضار صورته العجيبة وقوله تعالى ﴿ ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ عطف عليه داخل فى حكمه أى بما هو إثم فى نفسه وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول عليه الصلاة والسلام وذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين إليه عليه الصلاة والسلام لزيادة تشنيعهم واستعظام معصيتهم وقرىء وينتجون بالإثم والعدوان بكسر العين ومعصيات الرسول ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ فيقولون السام عليكم أو أنعم صباحا والله سبحانه يقول (وسلام على المرسلين) ﴿ ويقولون فى أنفسهم ﴾ أى فيما بينهم ﴿ لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ أى هلا يعذبنا الله بذلك لو كان محمد نبيا ﴿ حسبهم جهنم ﴾ عذابا ﴿ يصلونها ﴾ يدخلونها ﴿ فبئس المصير ﴾ أى جهنم ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم ﴾ فى أنديتكم

وفى خلواتكم ﴿ فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ كما يفعله المنافقون. وقرىء فلا تنتجوا وفلا تناجوا بحذف إحدى التاءين ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ أى بما يتضمن خير المؤمنين والاتقاء عن معصية الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿ واتقوا الله الذى إليه تحشرون ﴾ وحده لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازيكم بكل ما تأتون وتذرون ﴿ إنما النجوى ﴾ المعهودة التى هى التناجى بالإثم والعدوان ﴿ من الشيطان ﴾ لا من غيره فإنه المزين لها والحامل عليها وقوله تعالى ﴿ ليحزن الذين آمنوا ﴾ خبر آخر أى إنما هى ليحزن المؤمنين بتوهمهم أنها فى نكبة أصابتهم ﴿ وليس بضارهم ﴾ أى الشيطان أو التناجى بضار المؤمنين ﴿ شيئا ﴾ من الأشياء أو شيئا من الضرر ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أى بمشيئته ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ولا يبالوا بنجواهم فإنه تعالى يعصمهم من شره وضره.

من آداب الإسلام

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا ﴾ أى توسعوا وليفسح بعضكم عن بعض ولا تتضاموا من قولهم أفسح عنى أى تنح وقرىء تفاسحوا وقوله تعالى ﴿ فى المجالس ﴾ متعلق بقيل وقرىء فى المجلس على أن المراد به الجنس وقيل مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا يتضامون تنافسا فى القرب منه عليه الصلاة والسلام حرصا على استماع كلامه وقيل هو المجلس من مجالس القتال وهى مراكز الغزاة كقوله تعالى مقاعد للقتال قيل كان الرجل يأتى الصف ويقول تفسحوا فيأبون لحرصهم على الشهادة وقرىء فى المجلس بفتح اللام فهو متعلق بتفسحوا قطعا أى توسعوا فى جلوسكم ولا تتضايقوا فيه ﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ أى فى كل ما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغيرها ﴿ وإذا قيل انشزوا ﴾ أى انهضوا للتوسعة على المقبلين أو لما أمرتم به من صلاة أو جهاد أو غيرهما من أعمال الخير ﴿ فانشزوا ﴾ فانهضوا ولا تتثبطوا ولا تفرطوا وقرىء بكسر الشين ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا والإيواء إلى غرف الجنان فى الآخرة ﴿ والذين

أوتوا العلم ﴾ منهم خصوصا ﴿ درجات ﴾ عالية بما جمعوا من أثرتى العلم والعمل فإن العلم مع علو رتبته يقتضى العمل المقرون به مزيد رفعة لا يدرك شأوه العمل العارى عنه وإن كان فى غاية الصلاح ولذلك يقتدى بالعالم فى أفعاله ولا يقتدى بغيره وفى الحديث «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[١] ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ تهديد لمن لم يمتثل بالأمر وقرىء يعملون بالياء التحتانية .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ﴾ فى بعض شؤنكم المهمة الداعية إلى مناجاته عليه الصلاة والسلام ﴿ فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ﴾ أى فتصدقوا قبلها مستعار ممن له يدان وفى هذا الأمر تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وإنفاع الفقراء والزجر عن الإفراط فى السؤال والتمييز بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا واختلف فى أنه للندب أو للوجوب لكنه نسخ بقوله تعالى أأشفقتم وهو وإن كان متصلا به تلاوة لكنه متراخ عنه نزولا وعن على رضى الله عنه أن فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد غيرى كان لى دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته عليه الصلاة والسلام تصدقت بدرهم وهو على القول بالوجوب محمول على أنه لم يتفق للأغنياء مناجاة فى مدة بقائه إذ روى أنه لم يبق إلا عشرا وقيل إلا ساعة ﴿ ذلك ﴾ أى التصدق ﴿ خير لكم وأطهر ﴾ أى لأنفسكم من الريبة وحب المال وهذا يشعر بالندب لكن قوله تعالى ﴿ فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴾ منبىء عن الوجوب لأنه ترخيص لمن لم يجد فى المناجاة بلا تصدق ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ﴾ أى أخفتم الفقر من تقديم الصدقات أو أخفتم التقديم لما يعدكم الشيطان عليه من الفقر وجمع صدقات لجمع المخاطبين ﴿ فإذا لم تفعلوا ﴾ ما أمرتم به وشق عليكم ذلك ﴿ وتاب الله عليكم ﴾ بأن رخص لكم أن لا تفعلوه وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأى منهم من الانفعال ما قام مقام توبتهم وإذ على بابها من المضى وقيل بمعنى إذا كما فى قوله تعالى (إذ الأغلال فى أعناقهم) وقيل

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة .

بمعنى إن ﴿ فأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة ﴾ اى فإذ فرطتم فيما أمرتم به من تقديم الصدقات فتداركوه بالمثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ فى سائر الأوامر فإن القيام بها كالجابر لما وقع فى ذلك من التفريط ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ ظاهرا وباطنا ﴿ ألم تر ﴾ تعجيب من حال المنافقين الذين كانوا يتخذون اليهود أولياء ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين أى ألم تنظر ﴿ إلى الذين تولوا ﴾ أى والوا ﴿ قوما غضب الله عليهم ﴾ وهم اليهود كما أنبأ عنه قوله تعالى من لعنه الله وغضب عليه ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك والجملة مستأنفة أو حال من فاعل تولوا ﴿ ويحلفون على الكذب ﴾ أى يقولون والله إنا لمسلمون وهو عطف على تولوا داخل فى حكم التعجيب وصيغة المضارع للدلالة على تكرر(١) الحلف وتجدده حسب تكرر ما يقتضيه وقوله تعالى ﴿ وهم يعلمون ﴾ حال من فاعل يحلفون مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا فإن الحلف على ما يعلم أنه كذب فى غاية القبح وفيه دلالة على أن الكذب يعم ما يعلم المخبر عدم مطابقته للواقع وما لا يعلمه روى أنه عليه الصلاة والسلام كان فى حجرة من حجراته فقال يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان فدخل عبد الله بن نبتل المنافق وكان أزرق فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم علام تشتمنى أنت وأصحابك فحلف بالله ما فعل فقال عليه الصلاة والسلام فعلت فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت .

﴿ أعد الله لهم ﴾ بسبب ذلك ﴿ عذابا شديدا ﴾ نوعا من العذاب متفاقما ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ فيما مضى من الزمان المتطاول فتمرنوا على سوء العمل وضروا به وأصروا عليه ﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ الفاجرة التى يحلفون بها عند الحاجة وقرىء بكسر الهمزة أى إيمانهم الذى أظهروه لأهل الإسلام ﴿ جنة ﴾ وقاية وسترة دون دمائهم وأموالهم فالاتخاذ على هذه القراءة عبارة عن التستر بما أظهروه بالفعل وأما على القراءة الأولى فهو عبارة عن إعدادهم

(١) فى ١١ على تكرار .

لأيمانهم الكاذبة وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة لا عن استعمالها بالفعل فإن ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية والخيانة واتخاذ الجنة[1] لا بد أن يكون قبل المؤاخذة وعن سببها أيضا كما يعرب عنه الفاء فى قوله تعالى ﴿ فصدوا ﴾ أى الناس ﴿ عن سبيل الله ﴾ فى خلال أمنهم بتثبيط من لقوا عن الدخول فى الإسلام وتضعيف أمر المسلمين عندهم ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم وقيل الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة ﴿ لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله ﴾ أى من عذابه تعالى ﴿ شيئا ﴾ من الإغناء روى أن رجلا منهم قال لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات القبيحة ﴿ أصحاب النار ﴾ أى ملازموها ومقارنوها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ لا يخرجون منها أبدا ﴿ يوم يبعثهم الله جميعا ﴾ قيل هو ظرف لقوله تعالى لهم عذاب مهين ﴿ فيحلفون له ﴾ أى لله تعالى يومئذ على أنهم مسلمون ﴿ كما يحلفون لكم ﴾ فى الدنيا ﴿ ويحسبون ﴾ فى الآخرة ﴿ أنهم ﴾ بتلك الإيمان الفاجرة ﴿ على شىء ﴾ من جلب منفعة أو دفع مضرة كما كانوا عليه فى الدنيا حيث كانوا يدفعون بها عن أرواحهم[2] وأموالهم ويستجرون بها فوائد دنيوية ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ البالغون فى الكذب إلى غاية لا مطمح وراءها حيث تجاسروا على الكذب بين يدى علام الغيوب وزعموا أن أيمانهم الفاجرة تروج الكذب لديه كما تروجه عند الغافلين .

﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ أى استولى عليهم من حذت الإبل إذا استوليت عليها وجمعتها وهو مما جاء على الأصل كاستصوب واستنوق أى ملكهم ﴿ فأنساهم ذكر الله ﴾ بحيث لم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبائح حزب الشيطان أى جنوده وأتباعه ﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ أى الموصوفون بالخسران الذى لا غاية وراءه حيث فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم وأخذوا بدله العذاب الأليم وفى تصدير

(١) بضم الجيم . (٢) فى ١١ عن أنفسهم .

الجملة بحرفى التنبيه والتحقيق وإظهار المضافين معاً فى موقع الإضمار بأحد الوجهين وتوسيط ضمير الفصل من فنون التأكيد ما لا يخفى ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ استئناف مسوق لتعليل ما قبله من خسران حزب الشيطان عبر عنهم بالموصول للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن موادة من حاد الله ورسوله محادة لهما والإشعار بعلة الحكم ﴿ أولئك ﴾ بما فعلوا من التولى والموادة ﴿ فى الأذلين ﴾ أى فى جملة من هو أذل خلق الله من الأولين والآخرين لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر وحيث كانت عزة الله عز وجل غير متناهية كانت ذلة من يحاده كذلك .

﴿ كتب الله ﴾ استئناف وارد لتعليل كونهم فى الأذلين أى قضى وأثبت فى اللوح وحيث جرى ذلك مجرى القسم أجيب بما يجاب به فقيل ﴿ لأغلبن أنا ورسلى ﴾ أى بالحجة والسيف وما يجرى مجراه أو بأحدهما ونظيره قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) وقرىء ورسلى بفتح الياء ﴿ إن الله قوى ﴾ على نصر أنبيائه ﴿ عزيز ﴾ لا يغلب عليه فى مراده .

﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد وتجد إما متعد إلى اثنين فقوله تعالى ﴿ يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ مفعوله الثانى أو إلى واحد فهو حال من مفعوله لتخصصه بالصفة وقيل صفة أخرى له أى قوما جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر وبين موادة أعداء الله ورسوله والمراد بنفى الوجدان نفى الموادة على معنى أنه لا ينبغى أن يتحقق ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال وإن جد فى طلبه كل أحد ﴿ ولو كانوا ﴾ أى من حاد الله ورسوله والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد فيما قبله باعتبار لفظها ﴿ آباءهم ﴾ آباء الموادين ﴿ أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ فإن قضية الإيمان بالله تعالى أن يهجر الجميع بالمرة والكلام فى لو قد مر على التفصيل مرارا ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الذين لا يوادونهم وإن

كانوا أقرب الناس إليهم وأمس رحما وما فيه من معنى البعد لرفعة درجتهم فى الفضل وهو مبتدأ خبره ﴿ كتب فى قلوبهم الإيمان ﴾ أى أثبته فيها وفيه دلالة على خروج العمل من مفهوم الإيمان فإن جزء الثابت فى القلب ثابت فيه قطعا ولا شىء من أعمال الجوارح يثبت فيه ﴿ وأيدهم ﴾ أى قواهم ﴿ بروح منه ﴾ أى من عند الله تعالى وهو نور القلب أو القرآن أو النصر على العدو وقيل الضمير للإيمان لحياة القلوب به ففى تجريدية وقوله تعالى :

﴿ ويدخلهم ﴾ إلخ بيان لآثار رحمته الأخروية إثر بيان ألطافه الدنيوية أى ويدخلهم فى الآخرة ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أبد الآبدين وقوله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما أفاض عليهم من آثار رحمته العاجلة والآجلة وقوله تعالى ﴿ ورضوا عنه ﴾ بيان لابتهاجهم بما أوتوه عاجلا وآجلا وقوله تعالى ﴿ أولئك حزب الله ﴾ تشريف لهم ببيان اختصاصهم به عز وجل وقوله تعالى ﴿ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة الدارين والفوز بسعادة النشأتين والكلام فى تحلية الجملة بفنون التأكيد كما مر فى مثلها .

عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة .

* * *

سورة الحشر

مدنية ، وآيها أربع وعشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ مر مافيه من الكلام فى صدر سورة الحديد وقد كرر الموصول ههنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسبيح روى أنه عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة صالح بنى النضير وهم رهط من اليهود من ذرية هرون عليه السلام نزلوا المدينة فى فتن بنى إسرائيل انتظاراً لبعثه عليه الصلاة والسلام وعاهدهم أن لا يكونوا له ولا عليه فلما ظهر عليه الصلاة والسلام يوم بدر قالوا هو النبى الذى نعته فى التوراة لا ترد له راية فلما كان يوم أحد ما كان ارتابوا ونكثوا فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكبا إلى مكة فحالفوا قريشا عند الكعبة على قتاله عليه الصلاة والسلام فأمر عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة الأنصارى فقتل كعبا غيلة وكان أخاه من الرضاعة ثم صبحهم بالكتائب فقال لهم أخرجوا من المدينة فاستمهلوه عليه الصلاة والسلام عشرة أيام ليتجهزوا للخروج فدس عبد الله بن أبى المنافق وأصحابه إليهم لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لانخذلكم ولئن خرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الأزقة وحصنوها فحاصرهم النبى عليه الصلاة والسلام إحدى وعشرين ليلة فلما قذف الله فى قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم فجلوا إلى الشأم إلى أريحا وأذرعات إلا أهل بيتين منهم آل أبى الحقيق وآل حيى بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة منهم بالحيرة فأنزل الله تعالى (سبح لله ما فى السموات) إلى قوله (والله على كل شىء قدير) وقوله تعالى :

طرد اليهود من المدينة

﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ﴾ بيان لبعض آثار عزته تعالى وأحكام حكمته إثر وصفه تعالى بالعزة القاهرة والحكمة الباهرة على الإطلاق والضمير راجع إليه تعالى بذلك العنوان إما بناء على كمال ظهور اتصافه تعالى بهما مع مساعدة تامة من المقام أو على جعله مستعارا لاسم الإشارة كما فى قوله تعالى (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به) أى بذلك وعليه قول رؤبة بن العجاج :

* كأنه فى الجلد توليع البهق *

كما هو المشهور كأنه قيل ذلك المنعوت بالعزة والحكمة الذى أخرج إلخ. ففيه إشعار بأن فى الإخراج حكمة باهرة وقوله تعالى ﴿ لأول الحشر ﴾ أى فى أول حشرهم إلى الشأم وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط. وهم أول من أخرج من جزيرة العرب إلى الشام أو هذا أول حشرهم وآخر حشرهم إجلاء عمر رضى الله عنه إياهم من خيبر إلى الشام وقيل آخر حشرهم حشر يوم القيامة لأن المحشر يكون بالشام .

﴿ ماظننتم ﴾ أيها المسلمون ﴿ أن يخرجوا ﴾ من ديارهم بهذا الذل والهوان لشدة بأسهم وقوة منعتهم ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾ أى ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم من بأس الله تعالى وتغيير النظم بتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على كمال وثوقهم بحصانة حصونهم واعتقادهم فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع فى معازتهم ويجوز أن يكون مانعتهم خبرا لأن وحصونهم مرتفعا على الفاعلية ﴿ فأتاهم الله ﴾ أى أمر الله تعالى وقدره المقدور لهم ﴿ من حيث لم يحتسبوا ﴾ ولم يخطر ببالهم وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف فإنه مما أضعف قوتهم وفل شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة وقيل الضمير فى أتاهم ولم يحتسبوا

للمؤمنين أى فأتاهم نصر الله وقرىء فآتاهم أى فآتاهم الله العذاب أو النصر ﴿ وقذف فى قلوبهم الرعب ﴾ أى أثبت فيها الخوف الذى يرعبها أى يملؤها ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم ﴾ ليسدوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواه الأزقة ولئلا يبقى بعد جلائهم مساكن للمسلمين ولينقلوا معهم بعض آلاتها المرغوب فيها مما يقبل النقل ﴿ وأيدى المؤمنين ﴾ حيث كانوا يخربونها إزالة لمتحصنهم ومتمنعهم وتوسيعا لمجال القتال ونكاية لهم وإسناد هذا إليهم لما أنهم السبب فيه فكأنهم كلفوهم إياه وأمروهم به قيل الجملة حال أو تفسير للرعب وقرىء يخربون بالتشديد للتكثير وقيل الإخراب التعطيل أو ترك الشىء خرابا والتخريب النقض والهدم ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ فاتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجه لا يكاد تهتدى إليه الأفكار واتقوا مباشرة ما أداهم إليه من الكفر والمعاصى أو انتقلوا من حال الفريقين إلى حال أنفسكم فلا تعولوا على تعاضد الأسباب بل توكلوا على الله عز وجل وقد استدل به على حجية القياس كما فصل فى موقعه .

﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ﴾ أى الخروج عن أوطانهم على ذلك الوجه الفظيع ﴿ لعذبهم فى الدنيا ﴾ بالقتل والسبى كما فعل ببنى قريظة ﴿ ولهم فى الآخرة عذاب النار ﴾ استئناف غير متعلق بجواب لولا جىء به لبيان أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا بكتابة الجلاء لا نجاة لهم من عذاب الآخرة ﴿ ذلك ﴾ أى ما حاق بهم وما سيحيق ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم ﴿ شاقوا الله ورسوله ﴾ وفعلوا ما فعلوا مما حكى عنهم من القبائح ﴿ ومن يشاق الله ﴾ وقرىء يشاقق الله كما فى الأنفال والاقتصار على ذكر مشاقته تعالى لتضمنها لمشاقته عليه الصلاة والسلام وليوافق قوله تعالى ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ وهو إما نفس الجزاء قد حذف منه العائد إلى من عند من يلتزمه أى شديد العقاب له أو تعليل للجزاء المحذوف أى يعاقبه الله فإن الله شديد العقاب وأياما كان فالشرطية تكملة لما قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهانى كأنه قيل ذلك الذى حاق بهم من العقاب العاجل والآجل بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من

يشاق الله كائنا من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فإذن لهم عقاب شديد ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ أى أى شىء قطعتم من نخلة وهى فعلة من اللون وياؤها مقلوبة من واو لكسرة ما قبلها كديمة وتجمع على ألوان وقيل من اللين وتجمع على لين وهى النخلة الكريمة ﴿ أو تركتموها ﴾ الضمير لما وتأنيثه لتفسيره باللينة كما فى قوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) ﴿ قائمة على أصولها ﴾ كما كانت من غير أن تتعرضوا لها بشىء ما وقرىء على أصلها إما على الاكتفاء من الواو بالضم أو على أنه جمع كرهن وقرىء قائما على أصوله ذهابا إلى لفظ ما ﴿ فبإذن الله ﴾ فذاك أى قطعها وتركها بأمر الله تعالى ﴿ وليخزى الفاسقين ﴾ أى وليذل اليهود ويغيظهم إذن فى قطعها وتركها لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون فى أموالهم كيف أحبوا ويتصرفون فيها حسبما شاؤا من القطع والترك يزدادون غيظا ويتضاعفون حسرة واستدل به على جواز هدم ديار الكفرة وقطع أشجارهم وإحراق زروعهم زيادة لغيظهم وتخصيص اللينة بالقطع إن كانت من الألوان لاستبقاء العجوة والبرنية اللتين هما كرام النخيل وإن كانت هى الكرام ليكون غيظهم أشد وقوله تعالى :

﴿ وما أفاء الله على رسوله ﴾ شروع فى بيان حال ما أخذ من أموالهم بعد بيان ما حل بأنفسهم من العذاب العاجل والآجل وما فعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع أى ما أعاده إليه من مالهم وفيه إشعار بأنه كان حقيقا بأن يكون له عليه الصلاة والسلام وإنما وقع فى أيديهم بغير حق فرجعه الله تعالى إلى مستحقه لأنه تعالى خلق الناس لعبادته وخلق ما خلق ليتوسلوا به إلى طاعته فهو جدير بأن يكون للمطيعين ﴿ منهم ﴾ أى من بنى النضير ﴿ فما أوجفتم عليه ﴾ أى فما أجريتم على تحصيله وتغنمه من الوجيف وهو سرعة السير ﴿ من خيل ولا ركاب ﴾ هى ما يركب من الإبل خاصة كما أن الراكب عندهم راكبها لا غير وأما راكب الفرس فإنما يسمونه فارسا ولا واحد لها من لفظها وإنما الواحدة منها راحلة والمعنى ما قطعتم لها شقة بعيدة ولا لقيتم مشقة شديدة ولا قتالا شديدا وذلك لأنه كانت قراهم على ميلين من المدينة فمشوا إليها مشيا

وما كان فيهم راكب إلا النبي عليه الصلاة والسلام فافتتحها صلحا من غير أن يجرى بينهم مسايفة كأنه قيل وما أفاء الله على رسوله منهم فما حصلتموه بكد اليمين وعرق الجبين ﴿ ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ﴾ أى سنته تعالى جارية على أن يسلطهم على من يشاء من أعدائهم تسليطا خاصا وقد سلط النبي عليه الصلاة والسلام على هؤلاء تسليطا غير معتاد من غير أن تقتحموا مضايق الخطوب وتقاسوا شدائد الحروب فلا حق لكم فى أموالهم ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء تارة على الوجوه المعهودة وأخرى على غيرها وقوله تعالى .

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ بيان لمصارف الفىء بعد بيان إفاءته عليه عليه الصلاة والسلام من غير أن يكون للمقاتلة فيه حق وإعادة عين العبارة الأولى لزيادة التقرير ووضع أهل القرى موضع ضميرهم للإشعار بشمول ما لعقاراتهم أيضا ﴿ فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ اختلف فى قسمة الفىء فقيل يسدس لظاهر الآية ويصرف سهم الله إلى عمارة الكعبة وسائر المساجد وقيل يخمس لأن ذكر الله للتعظيم ويصرف الآن سهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الإمام على قول وإلى العساكر والثغور على قول وإلى مصالح المسلمين على قول وقيل يخمس خمسة كالغنيمة[١] فإنه عليه الصلاة والسلام كان يقسم الخمس كذلك ويصرف الأخماس الأربعة كما يشاء والآن على الخلاف المذكور ﴿ كيلا يكون ﴾ أى الفىء الذى حقه أن يكون للفقراء يعيشون به ﴿ دولة ﴾ بضم الدال وقرىء بفتحها وهى ما يدول للإنسان أى يدور من الغنى والجد والغلبة وقيل الدولة بالفتح من الملك بالضم وبالضم من الملك بكسرها أو بالضم فى المال وبالفتح فى النصرة أى كيلا يكون جدا .

﴿ بين الأغنياء منكم ﴾ يتكاثرون به أو كيلا يكون دولة جاهلية بينكم

---

(١) انظر باب الخمس من الخراج ليحى بن آدم .

فإن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون من عز بز وقيل الدولة بالضم ما يتداول كالغرفة اسم ما يغترف فالمعنى كيلا يكون الفيء شيئاً يتداوله الأغنياء ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء والدولة بالفتح بمعنى التداول فالمعنى كيلا يكون ذا تداول بينهم أو كيلا يكون إمساكه تداولا بينهم لا يخرجونه إلى الفقراء وقرىء دولة بالرفع على أن كان تامة أي كيلا يقع دولة على ما فصل من المعانى ﴿ وما آتاكم الرسول ﴾ أى ما أعطاكموه من الفيء أو من الأمر ﴿ فخذوه ﴾ فإنه حقكم أو فتمسكوا به فإنه واجب عليكم ﴿ وما نهاكم عنه ﴾ عن أخذه أو عن تعاطيه ﴿ فانتهوا ﴾ عنه ﴿ واتقوا الله ﴾ فى مخالفته عليه الصلاة والسلام ﴿ إن الله شديد العقاب ﴾ فيعاقب من يخالف أمره ونهيه .

﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ بدل من لذى القربى وما عطف عليه فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يسمى فقيراً ومن أعطى أغنياء ذوى القربى خص الأبدال بما بعده وأما تخصيص اعتبار الفقر بفيء بنى النضير فتعسف ظاهر ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ حيث اضطرهم كفار مكة وأحوجوهم إلى الخروج وكانوا مائة رجل فخرجوا منها ﴿ يبتغون فضلا من الله ورضوانا ﴾ من الديار والأموال وقيد ذلك ثانيا بما يوجب تفخيم شأنهم ويؤكده ﴿ وينصرون الله ورسوله ﴾ عطف على يبتغون فهى حال مقدرة أى ناوين لنصرة الله تعالى ورسوله أو مقارنة فإن خروجهم من بين الكفار مراغمين[1] لهم مهاجرين إلى المدينة نصرة وأى نصرة ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما فصل من الصفات الحميدة ﴿ هم الصادقون ﴾ الراسخون فى الصدق حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهورا بينا ﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان ﴾ كلام مستأنف مسوق لمدح الأنصار بخصال حميدة من جملتها محبتهم للمهاجرين ورضاهم باختصاص الفيء بهم أحسن رضا وأكمله ومعنى تبوئهم الدار أنهم اتخذوا المدينة والإيمان

---

(١) فى ١١ : راغمين لهم

مباءة وتمكنوا فيهما أشد تمكن على تنزيل الحال منزلة المكان وقيل ضمن التبوؤ معنى اللزوم وقيل تبوؤا الدار وأخلصوا الإيمان كقول من قال :

* علفتها تبنا وماء باردا *

وقيل المعنى تبوؤا دار الهجرة ودار الإيمان فحذف المضاف من الثانى والمضاف إليه من الأول وعوض منه اللام وقيل سمى المدينة بالإيمان لكونها مظهره ومنشأه ﴿ من قبلهم ﴾ أى من قبل هجرة المهاجرين على المعانى الأول ومن قبل تبوؤ المهاجرين على الأخيرين ويجوز أن يجعل اتخاذ الإيمان مباءة ولزومه وإخلاصه على المعانى الأول عبارة عن إقامة كافة حقوقه التى من جملتها إظهار عامة شعائره وأحكامه ولا ريب فى تقدم الأنصار فى ذلك على المهاجرين لظهور عجزهم عن إظهار بعضها لا عن إخلاصه قلبا واعتقادا إذ لا يتصور تقدمهم عليهم فى ذلك .

﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ خبر للموصول أى يحبونهم من حيث مهاجرتهم إليهم لمحبتهم الإيمان ﴿ ولا يجدون فى صدورهم ﴾ أى فى نفوسهم ﴿ حاجة ﴾ أى شيئا محتاجا إليه يقال خذ منه حاجتك أى ما تحتاج إليه وقيل إثر حاجة كالطلب والحزازة والحسد والغيظ. ﴿ مما أوتوا ﴾ أى مما أوتى المهاجرون من الفيء وغيره ﴿ ويؤثرون ﴾ أى يقدمون المهاجرين ﴿ على أنفسهم ﴾ فى كل شيء من أسباب المعاش حتى أن من كان عنده امرأتان كان ينزل عن إحداهما ويزوجها واحدا منهم ﴿ ولو كان بهم خصاصة ﴾ أى حاجة وخلة وأصلها خصاص البيت وهى فرجه والجملة فى حيز الحال وقد عرفت وجهه مرارا وكان النبى عليه الصلاة والسلام قسم أموال بنى النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين أبا دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحرث بن الصمة وقال لهم إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة فقالت الأنصار بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم

بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت[١] وهذا صريح فى أن قوله تعالى والذين تبوؤا الخ مستأنف غير معطوف على الفقراء أو المهاجرين نعم يجوز عطفه على أولئك فإن ذلك إنما يستدعى شركة الأنصار للمهاجرين فى الصدق دون الفىء فيكون قوله تعالى يحبون وما عطف عليه استئنافا مقررا لصدقهم أوحالا من ضمير تبوؤا ﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ الشح بالضم والكسر وقد قرىء به أيضاً اللؤم وإضافته الى النفس لأنه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذى هو البخل أى ومن يوق بتوفيق الله تعالى شحها حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من باعتبار معناها العام المنتظم للمذكورين انتظاما أوليا ﴿ هم المفلحون ﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون عن كل مكروه والجملة اعتراض وارد لمدح الأنصار والثناء عليهم وقرىء يوق بالتشديد .

﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ هم الذين هاجروا بعد ما قوى الإسلام أو التابعون بإحسان وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ولذلك قيل إن الآية قد استوعبت جميع المؤمنين وأيا ما كان فالموصول مبتدأ خبره ﴿ يقولون ﴾ الخ والجملة مسوقة لمدحهم بمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين ومراعاتهم لحقوق الأخوة فى الدين والسبق بالايمان كما أن ماعطفت عليه من الجملة السابقة لمدح الأنصار أى يدعون لهم ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا ﴾ أى فى الدين الذى هو أعز وأشرف عندهم من النسب ﴿ الذين سبقونا بالايمان ﴾ وصفوهم بذلك اعترافا بفضلهم ﴿ ولا تجعل فى قلوبنا غلا ﴾ وقرىء غمرا وهما الحقد ﴿ للذين آمنوا ﴾ على الاطلاق ﴿ ربنا إنك رؤف رحيم ﴾ أى مبالغ فى الرأفة[٢] والرحمة فحقيق بأن تجيب دعاءنا ﴿ ألم تر

(١) انظر الواحدى فى أسباب النزول والأجهورى فى إرشاد الرحمن أخرجاه من طرق .

(٢) فى ١١ : أى بليغ فى الرأفة .

إلى الذين نافقوا ﴾ حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة وتعجيب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين وأقوالهم على اختلاف طبقاتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب وقوله تعالى ﴿ يقولون ﴾ الخ استئناف لبيان المتعجب منه وصيغة المضارع للدلالة على استمرار قولهم أو لاستحضار صورته واللام فى قوله تعالى ﴿ لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ للتبليغ والمراد بأخوتهم إما توافقهم فى الكفر أو صداقتهم وموالاتهم واللام فى قوله تعالى :

من خلائق النفاق

﴿ لئن أخرجتم ﴾ أى من دياركم قسرا موطئة للقسم وقوله تعالى ﴿ لنخرجن معكم ﴾ جواب القسم أى والله لئن أخرجتم لنخرجن معكم البتة ونذهبن فى صحبتكم أينما ذهبتم ﴿ ولا نطيع فيكم ﴾ أى فى شأنكم ﴿ أحدا ﴾ يمنعنا من الخروج معكم ﴿ أبدا ﴾ وإن طال الزمان وقيل لا نطيع فى قتالكم أو خذلانكم وليس بذاك لأن تقدير القتال مترقب بعد ولأن وعدهم لهم على ذلك التقدير ليس مجرد عدم طاعتهم لمن يدعوهم إلى قتالهم بل نصرتهم عليه كما ينطق به قوله تعالى ﴿ وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ أى لنعاوننكم على عدوكم على أن دعوتهم إلى خذلان اليهود مما لا يمكن صدوره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين حتى يدعوا عدم طاعتهم فيها ضرورة أنها لو كانت لكانت عند استعدادهم لنصرتهم وإظهار كفرهم ولا ريب فى أن مايفعله عليه الصلاة والسلام عند ذلك قتلهم لا دعوتهم إلى ترك نصرتهم وأما الخروج معهم فليس بهذه المرتبة من إظهار الكفر لجواز أن يدعوا أن خروجهم معهم لما بينهم من الصداقة الدنيوية لا للموافقة فى الدين ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ فى مواعيدهم المؤكدة بالأيمان الفاجرة وقوله تعالى :

﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ﴾ الخ تكذيب لهم فى كل واحد من

أقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم فى الكل على الإجمال ﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ وكان الأمر كذلك فإن ابن أبى وأصحابه أرسلوا إلى بنى النضير ذلك سرا ثم أخلفوهم وفيه حجة بينة لصحة[1] النبوة وإعجاز القرآن .

﴿ ولئن نصروهم ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ ليولن الأدبار ﴾ فرارا ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ أى المنافقون بعد ذلك أى يهلكهم الله ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم أو ليهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين ﴿ لأنتم أشد رهبة ﴾ أى أشد مرهوبية على أنها مصدر من المبنى للمفعول ﴿ فى صدورهم من الله ﴾ أى رهبتهم منكم فى السر أشد مما يظهرونه لكم من رهبة الله فإنهم كانوا يدعون عندهم رهبة عظيمة من الله تعالى ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من كون رهبتهم منكم أشد من رهبة الله ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم ﴿ قوم لا يفقهون ﴾ أى شيئاً حتى يعلموا عظمة الله تعالى فيخشوه حق خشيته ﴿ لا يقاتلونكم ﴾ أى اليهود والمنافقون بمعنى لا يقدرون على قتالكم ﴿ جميعاً ﴾ أى مجتمعين متفقين فى موطن من المواطن ﴿ إلا فى قرى محصنة ﴾ بالدروب والخنادق ﴿ أو من وراء جدر ﴾ دون أن يصحروا لكم ويبارزوكم لفرط رهبتهم وقرىء جدر بالتخفيف وقرىء جدار وبإمالة فتحة الدال وجدر وجدر وهما الجدار ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ استئناف سيق لبيان أن ما ذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم فى أنفسهم فإن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد وإنما ضعفهم وجبنهم بالنسبة إليكم بما قذف الله تعالى قلوبهم من الرعب ﴿ تحسبهم جميعاً ﴾ مجتمعين متفقين ﴿ وقلوبهم شتى ﴾ متفرقة لا ألفة بينها ﴿ ذلك بأنهم ﴾ أى ما ذكر من تشتت قلوبهم بسبب أنهم ﴿ قوم لا يعقلون ﴾ أى لا يعقلون شيئا حتى يعرفوا الحق ويتبعوه وتطمئن به قلوبهم وتتحد كلمتهم ويرموا عن قوس واحدة فيقعون فى تيه الضلال وتشتت قلوبهم حسب تشتت طرقه وتفرق فنونه وأما ما قيل من

---

(١) فى ١١ : على صحة

أن المعنى لا يعقلون أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم فبمعزل من السداد وقوله تعالى:

﴿ كمثل الذين من قبلهم ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره مثلهم أى مثل المذكورين من اليهود والمنافقين كمثل أهل بدر أو بنى قينقاع على ماقيل[من](١) أنهم أخرجوا قبل بنى النضير ﴿ قريبا ﴾ فى زمان قريب وانتصابه بمثل إذ التقدير كوقوع مثل إلخ ﴿ ذاقوا وبال أمرهم ﴾ أى سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا ﴿ ولهم ﴾ فى الآخرة ﴿ عذاب أليم ﴾ لا يقادر قدره والمعنى أن حال هؤلاء كحال أولئك فى الدنيا والآخرة لكن لا على أن حال كلهم كحالهم بل حال بعضهم الذين هم اليهود كذلك وأما حال المنافقين فهى ما نطق به قوله تعالى ﴿ كمثل الشيطان ﴾ فإنه خبر ثان للمبتدأ المقدر مبين لحالهم متضمن لحال أخرى لليهود وهى اغترارهم بمقالة المنافقين أولا وخيبتهم آخراً وقد أجمل فى النظم الكريم حيث أسند كل من الخبرين إلى المقدر المضاف إلى ضمير الفريقين من غير تعيين ما أسند إليه بخصوصه ثقة بأن السامع يرد كلا من المثلين إلى ما يماثله كأنه قيل مثل اليهود فى حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم إلخ ومثل المنافقين فى إغرائهم إياهم على القتال حسبما نقل عنهم كمثل الشيطان ﴿ إذ قال للإنسان أكفر ﴾ أى أغراه على الكفر إغراء الآمر المأمور على المأمور به ﴿ فلما كفر قال إنى برىء منك ﴾ وقرىء أنا برىء منك إن أريد بالإنسان الجنس فهذا التبرؤ من الشيطان يكون يوم القيامة كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ إنى أخاف الله رب العالمين ﴾ وإن أريد به أبو جهل فقوله تعالى أكفر عبارة عن قول إبليس يوم بدر لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم وتبرؤه قوله يومئذ (إنى برىء منكم أنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله) الآية ﴿ فكان عاقبتهما ﴾ بالنصب على أنه خبر كان واسمها ﴿ أنهما فى النار ﴾ وقرىء

(١) سقطت من ط .

بالعكس وقد مر أنه أوضح ﴿ خالدين فيها ﴾ وقرىء خالدان فيها على أنه خبر أن وفى النار لغو ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾ أى الخلود فى النار جزاء الظالمين على الإطلاق دون هؤلاء خاصة .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أى فى كل ما تأتون وما تذرون ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ أى أى شىء قدمت من الأعمال ليوم القيامة عبر عنه بذلك لدنوه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة [هى][1] غده وتنكيره لتفخيمه وتهويله كأنه قيل لغد لا يعرف كنهه لغاية عظمه وأما تنكير نفس فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمن لذلك اليوم الهائل كأنه قيل ولتنظر نفس واحدة فى ذلك .

﴿ واتقوا الله ﴾ تكرير للتأكيد أو الأول فى أداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل وهذا فى ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله تعالى ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أى من المعاصى ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله ﴾ أى نسوا حقوقه تعالى وما قدروه حق قدره ولم يراعوا مواجب أوامره ونواهيه حق رعايتها ﴿ فأنساهم ﴾ بسبب ذلك ﴿ أنفسهم ﴾ أى جعلهم ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها أو أراهم يوم القيامة من الأهوال ما أنساهم أنفسهم ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ الكاملون فى الفسوق ﴿ لا يستوى أصحاب النار ﴾ الذين نسوا الله تعالى فاستحقوا الخلود فى النار .

﴿ وأصحاب الجنة ﴾ الذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود فى الجنة ولعل تقديم أصحاب النار فى الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذى ينبىء عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وإن جاز اعتباره بحسب

---

(١) سقطت من ط

زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص وعليه قوله تعالى (هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور)إلى غيرذلك من المواقع وأما قوله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فلعل تقديم الفاضل فيه لأن صلته ملكة لصلة المفضول والأعدام مسبوقة بملكاتها ولا دلالة فى الآية الكريمة على أن المسلم لا يقتص بالكافر وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر لأن المراد عدم الاستواء فى الأحوال الأخروية كما ينبىء عنه التعبير عن الفريقين بصاحبية النار وصاحبية الجنة وكذا قوله تعالى ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ فإنه استئناف مبين لكيفية عدم الاستواء بين الفريقين أى هم الفائزون بكل مطلوب الناجون عن كل مكروه .

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن ﴾ العظيم الشأن المنطوى على فنون القوارع ﴿ على جبل ﴾ من الجبال ﴿ لرأيته ﴾ مع كونه علما فى القسوة وعدم التأثر مما يصادمه ﴿ خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾ أى متشققا منها وقرىء مصدعا بالإدغام وهذا تمثيل وتخييل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ كما ينطق به قوله تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ أريد به توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وعدم تخشعه عند تلاوته وقلة تدبره فيه ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ وحده ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أى ما غاب عن الحس من الجواهر القدسية وأحوالها وما حضر له من الأجرام وأعراضها وتقديم الغيب على الشهادة لتقدمه فى الوجود وتعلق العلم القديم به أو المعدوم والموجود أو السر والعلانية ﴿ هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ كرر لإبراز الاعتناء بأمر التوحيد ﴿ الملك القدوس ﴾ البليغ فى النزاهة عما يوجب نقصانا ما وقرىء بالفتح وهى لغة فيه ﴿ السلام ﴾ ذو السلامة من كل نقص وآفة مصدر وصف به للمبالغة ﴿ المؤمن ﴾ واهب الأمن وقرىء بالفتح بمعنى المؤمن به على حذف الجار ﴿ المهيمن ﴾ الرقيب الحافظ لكل شىء مفيعل من

إلا من يقلب همزته هاء ﴿ العزيز ﴾ الغالب ﴿ الجبار ﴾ الذى جبر خلقه على ما أراد أو جبر أحوالهم أى أصلحها ﴿المتكبر﴾ الذى تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصانا أو البليغ الكبرياء والعظمة ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ تنزيه له تعالى عما يشركونه به تعالى[1] أو عن إشراكهم به تعالى إثر تعداد صفاته التى لا يمكن أن يشاركه تعالى فى شىء منها شىء ما أصلا ﴿هو الله الخالق﴾ المقدر للأشياء على مقتضى حكمته ﴿ البارىء ﴾ الموجد لها بريئا من التفاوت وقيل المميز بعضها من بعض بالأشكال المختلفة ﴿ المصور ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ لدلالتها على المعانى الحسنة ﴿ يسبح له ما فى السموات والأرض ﴾ ينطق بتنزهه تعالى عن جميع النقائص تنزها ظاهرا ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ الجامع للكمالات كافة فإنها مع تكثرها وتشعبها راجعة إلى الكمال فى القدرة والعلم ، عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الحشر غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر .

***

(١) فى ١١ : سبحانه

سورة الممتحنة

مدنية ، وآيها ثلاث عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ نزلت فى حاطب ابن أبى بلتعة وذلك أنه لما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزوة الفتح كتب إلى أهل مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم وأرسله مع سارة مولاة بنى المطلب فنزل جبريل عليه السلام بالخبر فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وعمارا وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها فإن أبت فاضربوا عنقها فأدركوها ثمة فجحدت فسل على سيفه فأخرجته من عقاصها فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا وقال ما حملك على هذا فقال يارسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولكنى كنت امرأ ملصقا فى قريش وليس لى فيهم من يحمى أهلى فأردت أن آخذ عندهم يدا وقد علمت أن كتابى لن يغنى عنهم شيئاً فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل عذره[1] ﴿ تلقون إليهم بالمودة ﴾ أى توصلون إليهم المودة على أن الباء زائدة كما فى قوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أو تلقون إليهم أخبار النبى عليه الصلاة والسلام بسبب المودة التى بينكم وبينهم والجملة إما حال من فاعل لا تتخذوا أو صفة لأولياء وإبراز الضمير فى الصفات الجارية على غير من هى له إنما يشترط فى الاسم دون الفعل أو استئناف ﴿ وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾ حال من فاعل تلقون وقيل من فاعل لا تتخذوا وقرىء لما جاءكم أى كفروا لأجل ما جاءكم بمعنى جعل ما هو سبب الإيمان سببا للكفر ﴿ يخرجون الرسول وإياكم ﴾ أى من مكة وهو إما حال من فاعل كفروا أو استئناف

(١) انظره في أسد الغابة ١/٣٥٢ .

مبين لكفرهم وصيغة المضارع لاستحضار الصورة وقوله تعالى ﴿ أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ تعليل للإخراج وفيه تغليب المخاطب على الغائب والتفات من التكلم إلى الغيبة للإشعار بما يوجب الإيمان من الألوهية والربوبية ﴿ إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ﴾ متعلق بلا تتخذوا كأنه قيل لا تتولوا أعدائى إن كنتم أوليائى وقوله تعالى ﴿ تسرون إليهم بالمودة ﴾ استئناف وارد على نهج العتاب والتوبيخ أى تسرون إليهم المودة أو الأخبار بسبب المودة ﴿ وأنا أعلم ﴾ أى والحال أنى أعلم منكم ﴿ بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ ومطلع رسولى على ما تسرون فأى طائل لكم فى الإسرار وقيل أعلم مضارع والباء مزيدة وما موصولة أو مصدرية وتقديم الإخفاء على الإعلان قد مر وجهه فى قوله تعالى (يعلم ما يسرون وما يعلنون) ﴿ ومن يفعله منكم ﴾ أى الاتخاذ ﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ فقد أخطأ الحق والصواب .

﴿ إن يثقفوكم ﴾ أى إن يظفروا بكم ﴿ يكونوا لكم أعداء ﴾ أى يظهروا ما فى قلوبهم من العداوة ويرتبوا عليها أحكامها ﴿ ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴾ بما يسوؤكم من القتل والأسر والشتم ﴿ وودوا لو تكفرون ﴾ أى تمنوا ارتدادكم وصيغة الماضى للإيذان بتحقق ودادتهم قبل أن يثقفوهم أيضا ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ﴾ قراباتكم ﴿ ولا أولادكم ﴾ الذين توالون المشركين لأجلهم وتتقربون إليهم محاماة عليهم ﴿ يوم القيامة ﴾ بجلب نفع أو دفع ضر ﴿ يفصل بينكم ﴾ استئناف لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد يومئذ أى يفرق الله بينكم بما اعتراكم من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر حسبما نطق به قوله تعالى (يوم يفر المرء من أخيه) الآية فما لكم ترفضون حق الله تعالى لمراعاة حق من هذا شأنه وقرىء يفصل ويفصل مبنيا للمفعول ويفصل ويفصل مبنياً للفاعل وهو الله تعالى ونفصل ونفصل بالنون ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ فيجازيكم به ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة ﴾ أى خصلة حميدة حقيقة بأن يؤتسى ويقتدى بها وقوله تعالى ﴿ فى إبراهيم والذين معه ﴾ أى من أصحابه[1]

(١) فى ١١ : أى فى أصحابه .

المؤمنين صفة ثانية لأسوة أو خبر لكان ولكم للبيان أو حال من المستكن فى حسنة أو صلة لها لا لأسوة عند من لا يجوز العمل بعد الوصف ﴿إذقالوا﴾ ظرف لخبر كان ﴿لقومهم إنا برآء منكم﴾ جمع برىء كظريف وظرفاء وقرىء براء كظراف وبراء كرخال وبراء على الوصف بالمصدر مبالغة ﴿ومما تعبدون من دون الله﴾ من الأصنام ﴿كفرنا بكم﴾ أى بدينكم أو بمعبودكم أو بكم وبه فلا نعتد بشأنكم وبآلهتكم ﴿وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا﴾ أى هذا دأبنا معكم لا نتركه ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك فتنقلب العداوة حينئذ ولاية والبغضاء محبة .

﴿إلا قول إبرهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾ استثناء من قوله تعالى أسوة حسنة فإن استغفاره عليه الصلاة والسلام لأبيه الكافر وإن كان جائزا عقلا وشرعا لوقوعه قبل تبين أنه من أصحاب الجحيم كما نطق به النص لكنه ليس مما ينبغى أن يؤتسى به أصلا إذ المراد به ما يجب الائتساء به حتما لورود الوعيد على الإعراض عنه بما سيأتى من قوله تعالى (ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) فاستثناؤه من الأسوة إنما يفيد عدم وجوب استدعاء الإيمان والمغفرة للكافر المرجو إيمانه وذلك مما لا يرتاب فيه عاقل وأما عدم جوازه فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا هذا وأما تعليل عدم كون استغفاره عليه الصلاة والسلام لأبيه الكافر مما ينبغى أن يؤتسى به بأنه كان قبل النهى أو لموعدة وعدها إياه فبمعزل من السداد بالكلية لابتنائه على تناول النهى لاستغفاره عليه الصلاة والسلام له وإنبائه عن كونه مؤتسى به لو لم ينه عنه وكلاهما بين البطلان لما أن مورد النهى هو الاستغفار للكافر بعد تبين أمره وقد عرفت أن استغفاره عليه الصلاة والسلام لأبيه كان قبل ذلك قطعا وأن ما يؤتسى به ما يجب الائتساء به[1] به لا ما يجوز فعله فى الجملة وتجويز أن يكون استغفاره عليه الصلاة والسلام له بعد النهى كما هو المفهوم من ظاهر قوله أو لموعدة وعدها إياه مما لا مساغ له وتوجيه

---

(١) ف ١١ : التأسي به .

الاستثناء إلى العدة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار بقوله واغفر لأبى الآية لأنها كانت هى الحاملة له عليه الصلاة والسلام على الاستغفار وتخصيص هذه العدة بالذكر دون ما وقع فى سورة مريم من قوله تعالى (سأستغفر لك ربى) لورودها على طريق التوكيد القسمى وأما جعل الاستغفار دائرا عليها وترتيب التبرؤ على تبين الأمر فقد مر تحقيقه فى سورة التوبة وقوله تعالى ﴿ وما أملك لك من الله من شىء ﴾ من تمام القول المستثنى محله النصب على أنه حال من فاعل لأستغفرن لك أى أستغفر لك وليس فى طاقتى إلا الاستغفار فمورد الاستثناء نفس الاستغفار لا قيده الذى هو فى نفسه من خصال الخير لكونه إظهارا للعجز وتفويضا للأمر إلى الله تعالى وقوله تعالى ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ الخ من تمام ما نقل عن إبراهيم عليه السلام ومن معه من الأسوة الحسنة وتقديم الجار والمجرور لقصر التوكل والإنابة والمصير على الله تعالى قالوه بعد المجاهرة وقشر العصا التجاء إلى الله تعالى فى جميع أمورهم لا سيما فى مدافعة الكفرة وكفاية شرورهم كما ينطق به قوله تعالى:

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نطيقه ﴿ واغفر لنا ﴾ ما فرط منا من الذنوب ﴿ ربنا إنك أنت العزيز ﴾ الغالب الذى لا يذل من التجأ إليه ولا يخيب رجاء من توكل عليه ﴿ الحكيم ﴾ الذى لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة وتكرير النداء للمبالغة فى التضرع والجؤار هذا وأما جعل الآيتين تلقينا للمؤمنين من جهته تعالى وأمراً لهم بأن يتوكلوا عليه وينيبوا إليه ويستعيذوا به من فتنة الكفرة ويستغفروا مما فرط منهم تكملة لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفرة فلا يساعده النظم الكريم ﴿ لقد كان لكم فيهم ﴾ أى فى إبراهيم ومن معه ﴿ أسوة حسنة ﴾ تكرير للمبالغة فى الحث على الائتساء به عليه الصلاة والسلام ولذلك صدر بالقسم وقوله تعالى ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ بدل من لكم فائدته الإيذان بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم وأن تركه من

مخايل عدم الإيمان بهما كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ فإنه مما يوعد بأمثاله الكفرة .

﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم ﴾ أى من أقاربكم المشركين ﴿ مودة ﴾ بأن يوافقوكم فى الدين وعدهم الله تعالى بذلك لما رأى منهم من التصلب فى الدين والتشدد لله فى معاداة آبائهم وأبنائهم وسائر أقربائهم ومقاطعتهم إياهم بالكلية تطييبا لقلوبهم ولقد أنجز وعده الكريم حين أتاح لهم الفتح فأسلم قومهم فتم بينهم من التحاب والتصافى ما تم ﴿ والله قدير ﴾ أى مبالغ فى القدرة فيقدر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ فيغفر لمن أسلم من المشركين ويرحمهم وقيل غفور لما فرط منكم فى موالاتهم من قبل ولما بقى فى قلوبكم من ميل الرحم ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ﴾ أى لا ينهاكم عن البر بهؤلاء فإن قوله تعالى ﴿ أن تبروهم ﴾ بدل من الموصول ﴿ وتقسطوا إليهم ﴾ أى تفضلوا إليهم بالقسط أى العدل ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ أى العادلين . روى أن قتيلة بنت عبد العزى قدمت مشركة على بنتها أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول فنزلت فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها(١) وقيل المراد بهم خزاعة وكانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه ﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم ﴾ وهم عتاة أهل مكة ﴿ وظاهروا على إخراجكم ﴾ وهم سائر أهلها ﴿ أن تولوهم ﴾ بدل اشتمال من الموصول أى إنما ينهاكم عن أن تتولوهم ﴿ ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ لوضعهم الولاية فى موضع العداوة أو هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب .

﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ بيان لحكم من يظهر الإيمان بعد بيان حكم فريق

---

(١) انظر تفاصيل القصة في سير السلف للأصبهانى ترجمة أسماء .

الكافرين ﴿إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات﴾ من بين الكفار ﴿ فامتحنوهن﴾ فاختبروهن بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهن للسانهن فى الإيمان . يروى أن رسول الله كان يقول للتى يمتحنها بالله الذى لا إله إلا هو ما خرجت من بغض زوج بالله ماخرجت رغبة عن أرض إلى أرض بالله ماخرجت التماس دنيا بالله ماخرجت إلا حبا لله ورسوله ﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ لأنه المطلع على ما فى قلوبهن والجملة اعتراض ﴿ فإن علمتموهن ﴾ بعد الامتحان ﴿ مؤمنات ﴾ علما يمكنكم تحصيله وتبلغه طاقتكم بعد اللتيا والتى من الاستدلال بالعلائم والدلائل والاستشهاد بالأمارات والمخايل وهو الظن الغالب وتسميته علما للإيذان بأنه جار مجرى العلم فى وجوب العمل به ﴿ فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ أى إلى أزواجهن الكفرة لقوله تعالى ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ فإنه تعليل للنهى عن رجعهن إليهم والتكرير إما لتأكيد الحرمة أو لأن الأول لبيان زوال النكاح الأول والثانى لبيان امتناع النكاح الجديد ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ أى وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور وذلك أن صلح الحديبية كان على أن من جاءنا منكم رددناه فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية مسلمة والنبى عليه الصلاة والسلام بالحديبية فأقبل زوجها مسافر المخزومى وقيل صيفى بن الراهب فقال يامحمد اردد على امرأتى فإنك قد شرطت أن ترد علينا من أتاك منا فنزلت لبيان أن الشرط إنما كان فى الرجال دون النساء فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلفت فأعطى زوجها ما أنفق وتزوجها عمر رضى الله عنه .

﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن ﴾ فإن إسلامهن حال بينهن وبين أزواجهن الكفار ﴿ إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ شرط إيتاء المهر فى نكاحهن إيذانا بأن ما أعطى أزواجهن لا يقوم مقام المهر ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ جمع عصمة وهى ما يعتصم به من عقد وسبب أى لا يكن بينكم وبين المشركات عصمة ولا علقة زوجية قال ابن عباس رضى الله عنهما من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدن بها من نسائه لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه وعن النخعى رحمه الله هى المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر وعن مجاهد أمرهم بطلاق

الباقيات مع الكفار ومفارقتهن وقرىء ولا تمسكوا بالتشديد ولا تمسكوا بحذف إحدى التاءين من تتمسكوا ﴿ واسألوا ما أنفقتم ﴾ من مهور نسائكم اللاحقات بالكفار ﴿ وليسألوا ما أنفقوا ﴾ من مهور أزواجهن المهاجرات ﴿ ذلكم ﴾ الذي ذكر ﴿ حكم الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ يحكم بينكم ﴾ كلام مستأنف أو حال من حكم الله على حذف الضمير أي يحكمه الله أو جعل الحكم حاكما على المبالغة ﴿ والله عليم حكيم ﴾ يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة. روى أنه لما نزلت الآية أدى المؤمنون ما أمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن المشركين وأبى المشركون أن يؤدوا شيئاً من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين فنزل قوله تعالى ﴿ وإن فاتكم ﴾ أي سبقكم وانفلت منكم ﴿ شيء من أزواجكم إلى الكفار ﴾ أي أحد من أزواجكم وقد قرىء كذلك وإيقاع شيء موقعه للتحقير والإشباع في التعميم أو شيء من مهور أزواجكم ﴿ فعاقبتم ﴾ أي فجاءت عقبتكم أي نوبتكم من أداء المهر شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء مهور نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ من مهر المهاجرة التي تزوجتموها ولا تؤتوه زوجها الكافر وقيل معناه إن فاتكم فأصبتم من الكفار عقبى هي الغنيمة فآتوا بدل الفائت من الغنيمة وقرىء فأعقبتم وفعقبتم بالتشديد وفعقبتم بالتخفيف وفتح القاف وبكسرها قيل جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة أم الحكم بنت أبي سفيان وفاطمة بنت أمية وبروع بنت عقبة وعبدة بنت عبد العزى وهند بنت أبي جهل وكلثوم بنت جرول ﴿ واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾ فإن الإيمان به تعالى يقتضي التقوى منه تعالى .

﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ أي مبايعات لك أي قاصدات للمبايعة نزلت يوم الفتح فإنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بيعة الرجال شرع في بيعة النساء ﴿ على أن لا يشركن بالله شيئا ﴾ أي شيئاً من الأشياء أو شيئاً من الإشراك ﴿ ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ﴾ أريد به وأد

البنات وقرىء ولا يقتلن بالتشديد ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدى منك كنى عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها لأن بطنها الذى تحمله فيه بين يديها ومخرجه بين رجليها .

﴿ ولا يعصينك فى معروف ﴾ أى فيما تأمرهن به من معروف وتنهاهن عنه من منكر والتقييد بالمعروف مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا به التنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر فى حقهن لكثرة وقوعها فيما بينهن مع اختصاص بعضها بهن ﴿ فبايعهن ﴾ أى على ما ذكر وما لم يذكر لوضوح أمره وظهور أصالته فى المبايعة من الصلاة والزكاة وسائر أركان الدين وشعائر الإسلام وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن على المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهن إليها ﴿ واستغفر لهن الله ﴾ زيادة على ما فى ضمن المبايعة فإنها عبارة عن ضمان الثواب من قبله عليه الصلاة والسلام بمقابلة الوفاء بالأمور المذكورة من قبلهن ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أى مبالغ فى المغفرة والرحمة فيغفر لهن ويرحمهن إذا وفين بما بايعن عليه واختلف فى كيفية مبايعته عليه الصلاة والسلام لهن يومئذ فروى أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بيعة الرجال جلس على الصفا ومعه عمر رضى الله تعالى عنه أسفل منه فجعل عليه الصلاة والسلام يشترط عليهن البيعة وعمر يصافحهن وروى أنه كلف امرأة وقفت على الصفا فبايعتهن وقيل دعا بقدح من ماء فغمس فيه يده ثم غمسن أيديهن وروى أنه عليه الصلاة والسلام بايعهن وبين يديه وأيديهن ثوب قطرى والأظهر الأشهر ما قالت عائشة رضى الله عنها والله ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء قط إلا بما أمر الله تعالى وما مست كف رسول الله صلى الله عليه وسلم كف امرأة قط (١) وكان يقول إذا أخذ عليهن قد بايعتكن كلاما وكان المؤمنات إذا هاجرن إلى

---

(١) انظر شمائل الترمذى ٩٥ والقول للنظم الرحمانى وجه ١٧٠

رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتحنهن بقول الله عز وجل (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات) إلى آخر الآية فإذا أقررن بذلك من قولهن قال لهن انطلقن فقد بايعتكن ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم ﴾ هم عامة الكفرة وقيل اليهود لما روى أنها نزلت في بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم .

﴿ قد يئسوا من الآخرة ﴾ لكفرهم بها أو لعلمهم بأنه لاخلاق لهم فيها لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة المؤيد بالآيات ﴿ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ أى كما يئس منها الذين ماتوا منهم لأنهم وقفوا على حقيقة الحال وشاهدوا حرمانهم من نعيمها المقيم وابتلاءهم بعذابها الأليم والمراد وصفهم بكمال اليأس منها وقيل المعنى كما يئسوا من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا إلى الدنيا أحياء والإظهار في موقع الإضمار للإشعار بعلة يأسهم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة .

* * *

سورة الصف

مدنية ، وقيل مكية ، وآيها أربع عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ الكلام فيه كالذى مر فى نظيره ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ روى أن المسلمين قالوا لو علمنا أحب الأعمال الى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فلما نزل الجهاد كرهوه فنزلت وما قيل من أن النازل قوله تعالى إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا بين الاحتلال وروى أنهم قالوا يارسول الله لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لسارعنا اليه فنزلت (هل أدلكم على تجارة) إلى قوله تعالى (وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) فولوا يوم أحد وفيه التزام أن ترتيب الآيات الكريمة ليس على ترتيب النزول وقيل لما أخبر الله تعالى بثواب شهداء بدر قالت الصحابة اللهم اشهد لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا ففروا يوم أحد فنزلت وقيل إنها نزلت فيمن يتمدح كاذبا حيث كان الرجل يقول قتلت ولم يقتل وطعنت ولم يطعن وهكذا وقيل كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر ونكى فيهم فقتله صهيب وانتحل قتله آخر فنزلت فى المنتحل وقيل نزلت فى المنافقين ونداؤهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم وليس بذاك كما ستعرفه ولم مركبة من اللام الجارة وما الاستفهامية قد حذفت ألفها تخفيفا لكثرة استعمالهما معا كما فى عم وفيم ونظائرهما معناها لأى شىء تقولون نفعل مالا تفعلون من الخير والمعروف على أن مدار التعبير والتوبيخ فى الحقيقة عدم فعلهم وإنما وجها إلى قولهم تنبيها على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط بل الوعد به أيضاً وقد كانوا يحسبونه معروفا ولو قيل لم لا تفعلون ماتقولون لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ بيان لغاية قبح ما فعلوه وفرط سماحته وكبر من باب نعم وبئس فيه ضمير مبهم مفسر بالنكرة بعده وأن تقولوا هو المخصوص بالذم وقيل قصد

فيه التعجب من غير لفظه وأسند إلى أن تقولوا ونصب مقتا على تفسيره دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه كبر عند من يحقر دونه كل عظيم وقوله تعالى :

دعوة إلى الجهاد

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ﴾ بيان لما هو مرضى عنده تعالى بعد بيان ما هو ممقوت عنده وهذا صريح فى أن ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال لا عما تقوله المتمدح أو انتحله المنتحل أوادعاه المنافق وأن مناط التعبير والتوبيخ هو إخلافهم لا وعدهم كما أشير اليه وقرىء يقاتلون بفتح التاء ويقتلون وصفا مصدر وقع موقع الفاعل أو المفعول ونصبه على الحالية من فاعل يقاتلون أى صافين أنفسهم أو مصفوفين وقوله تعالى ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ حال من المستكن فى الحال الأولى أى مشبهين فى تراصهم من غير فرجة وخلل ببنيان رص بعضه إلى بعض ورصف حتى صار شيئا واحدا وقوله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ كلام مستأنف مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال وإذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين أى واذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى لبنى إسرائيل حين ندبهم الى قتال الجبابرة بقوله (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) فلم يمتثلوا بأمره وعصوه أشد عصيان حيث قالوا (يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) إلى قوله تعالى (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) وأصروا على ذلك وآذوه عليه الصلاة والسلام كل الأذية ﴿ يا قوم لم تؤذوننى ﴾ أى بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به وقوله تعالى ﴿ وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ﴾ جملة حالية مؤكدة لإنكار الإيذاء ونفى سببه وقد لتحقيق العلم وصيغة المضارع للدلالة على استمراره أى والحال أنكم تعلمون علما قطعيا مستمرا بمشاهدة ما ظهر بيدى من المعجزات القاهرة التى معظمها إهلاك عدوكم

وإنجاؤكم من ملكته (١) أنى رسول الله إليكم لأرشدكم إلى خير الدنيا والآخرة ومن قضية علمكم بذلك أن تبالغوا فى تعظيمى وتسارعوا إلى طاعتى .

﴿ فلما زاغوا ﴾ أى أصروا على الزيغ عن الحق الذى جاء به موسى عليه السلام واستمروا عليه ﴿ أزاغ الله قلوبهم ﴾ أى صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب لصرف اختيارهم نحو الغى والضلال وقوله تعالى ﴿ والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله من الإزاغة ومؤذن بعلته أى لا يهدى القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المصرين على الغواية هداية موصلة إلى البغية لا هداية موصلة إلى ما يوصل اليها فإنها شاملة للكل والمراد بهم إما المذكورون خاصة والاظهار فى موقع الإضمار لذمهم بالفسق وتعليل عدم الهداية به أو جنس الفاسقين وهم داخلون فى حكمه دخولا أوليا أياً ما كان فوصفهم بالفسق ناظر إلى ما فى قوله تعالى (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) وقوله تعالى (فلا تأس على القوم الفاسقين) هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم ويرتضيه الذوق السليم . وأما ما قيل بصدد بيان أسباب الأذية من أنهم كانوا يؤذونه عليه الصلاة والسلام بأنواع الأذى من انتقاصه وعيبه فى نفسه وجحود آياته وعصيانه فيما تعود اليهم منافعه وعبادتهم البقر وطلبهم رؤية الله جهرة والتكذيب الذى هو تضييع حق الله وحقه فمما لاتعلق له بالمقام وقوله تعالى :

التشهير بمحمد

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم ﴾ إما معطوف على إذ الأولى معمول لعاملها وإما معمول لمضمر معطوف على عاملها ﴿ يا بنى إسرائيل ﴾ ناداهم بذلك استمالة لقلوبهم إلى تصديقه فى قوله تعالى ﴿ إنى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ﴾ فإن تصديقه عليه الصلاة والسلام إياها من أقوى الدواعى

---

(١) فى ١١ : من مملكته .

إلى تصديقهم إياه وقوله تعالى ﴿ ومبشراً برسول يأتى من بعدى ﴾ معطوف على مصدقا داع إلى تصديقه عليه الصلاة والسلام مثله من حيث أن البشارة به واقعة فى التوراة والعامل فيهما ما فى الرسول من معنى الإرسال لا الجار فإنه صلة للرسول والصلات بمعزل من تضمن معنى الفعل وعليه يدور العمل أى أرسلت اليكم حال كونى مصدقا لما تقدمنى من التوراة ومبشراً بمن يأتى من بعدى من رسول ﴿ اسمه أحمد ﴾ أى محمد صلى الله عليه وسلم يريد أن دينى التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعا ممن تقدم وتأخروقرىء من بعدى بفتح الياء ﴿ فلما جاءهم بالبينات ﴾ أى بالمعجزات الظاهرة ﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾ مشيرين إلى ما جاء به أو إليه عليه الصلاة والسلام وتسميته سحرا للمبالغة ويؤيده قراءة من قرأ هذا ساحر ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الكذب وهو يدعى الى الإسلام ﴾ أى أى الناس أشد ظلماً ممن يدعى إلى الإسلام الذى يوصله إلى سعادة الدارين فيضع موضع الإجابة الافتراء على الله عز وجل بقوله لكلامه الذى هو دعاء عباده إلى الحق هذا سحر أى هو أظلم من كل ظالم وإن لم يتعرض ظاهر الكلام لنفى المساوى وقد مر بيانه غير مرة وقرىء يدعى يقال دعاه وادعاه مثل لمسه والتمسه ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ أى لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم لعدم توجههم إليه ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ أى يريدون أن يطفئوا دينه أو كتابه أو حجته النيرة واللام مزيدة لما فيها من معنى الإرادة تأكيدا لها كما زيدت لما فيها من معنى الإضافة تأكيداً لها فى لا أبالك أو يريدون الافتراء ليطفئوا نور الله ﴿ بأفواههم ﴾ بطعنهم فيه مثلت حالهم بحال من ينفخ فى نور الشمس بفيه ليطفئه ﴿ والله متم نوره ﴾ أى مبلغه إلى غايته بنشره فى الآفاق وإعلائه وقرىء متم نوره بلا إضافة ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ أى إرغاما لهم والجملة فى حيز الحال على ما بين مراراً .

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ﴾ بالقرآن أو المعجزة ﴿ ودين الحق ﴾

---

(١) فى ١١ : عز وجل .

والملة الحنيفية ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ ليعليه على جميع الأديان المخالفة له ولقد أنجز الله عز وعلا وعده حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام ﴿ ولو كره المشركون ﴾ ذلك وقرىء هو الذى أرسل نبيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ وقرىء تنجيكم بالتشديد وقوله تعالى ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله كأنهم قالوا كيف نعمل أو ماذا نصنع فقيل تؤمنون بالله الخ وهو خبر فى معنى الأمر جىء به للإيذان بوجوب الامتثال فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه ويؤيده قراءة من قرأ ﴿ آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا ﴾ وقرىء تؤمنوا وتجاهدوا على إضمار لام الأمر ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الإيمان والجهاد بقسميه وما فيه من معنى البعد لما مر غير مرة ﴿ خير لكم ﴾ على الإطلاق أو من أموالكم وأنفسكم ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى إن كنتم من أهل العلم فان الجهلة لا يعتد بأفعالهم أو إن كنتم تعلمون أنه خيرا لكم حينئذ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم فتخلصون وتفلحون ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر أو لشرط أو استفهام دل عليه الكلام تقديره أن تؤمنوا وتجاهدوا أو هل تقبلون أن أدلكم يغفر لكم وجعله جوابا لهل أدلكم بعيد لأن مجرد الدلالة لا يوجب المغفرة ﴿ ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك ﴾ أى ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنات الموصوفة بما ذكر من الأوصاف الجليلة ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذى لا فوز وراءه ﴿ وأخرى ﴾ ولكم إلى هذه النعم العظيمة نعمة أخرى عاجلة ﴿ تحبونها ﴾ وترغبون فيها وفيه تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل وقيل أخرى منصوبة بإضمار يعطكم أو تحبون أو مبتدأ خبره ﴿ نصر من الله ﴾ وهو على الأول بدل أو بيان وعلى تقدير النصب خبر مبتدأ محذوف ﴿ وفتح قريب ﴾ أى عاجل عطف على نصر على الوجوه المذكورة وقرىء نصرا وفتحا قريبا على الاختصاص

أو على المصدر أى تنصرون نصرا ويفتح لكم فتحاً أو على البدلية من أخرى على تقدير نصبها أى يعطكم نعمة أخرى نصرا وفتحا ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ عطف على محذوف مثل قل يا أيها الذين آمنوا وبشر أو على تؤمنون فإنه فى معنى آمنوا كأنه قيل آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون وبشرهم يا أيها الرسول بما وعدتهم على ذلك عاجلا وآجلا ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾ وقرىء أنصار الله بلا إضافة لأن المعنى كونوا بعض أنصار الله وقرىء كونوا أنتم أنصار الله ﴿ كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ﴾ أى من جندى متوجها إلى نصرة الله كما يقتضيه قوله تعالى ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ والإضافة الأولى إضافة أحد المتشاركين إلى الآخر لما بينهما من الاختصاص والثانية إضافة الفاعل إلى المفعول والتشبيه باعتبار المعنى أى كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصاره حين قال لهم عيسى من أنصارى إلى الله أو قل لهم كونوا كما قال عيسى للحواريين والحواريون أصفياؤه وهم أول من آمن به وكانوا أثنى عشر رجلا ﴿ فآمنت طائفة من بنى إسرائيل ﴾ أى بعيسى وأطاعوه فيما أمرهم به من نصرة الدين ﴿ وكفرت طائفة ﴾ أخرى به وقاتلوهم ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ﴾ أى قويناهم بالحجة أو بالسيف وذلك بعد رفع عيسى عليه السلام ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ غالبين . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الصف كان عيسى مصليا عليه مستغفرا له ما دام فى الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه .

* * *

سورة الجمعة

مدنية ، وآيها إحدى عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ تسبيحا مستمرا ﴿ الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ وقد قرىء الصفات الأربع بالرفع على المدح ﴿ هو الذى بعث فى الأميين ﴾ أى فى العرب لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرءون قيل بدئت الكتابة بالطائف أخذوها من أهل الحيرة وهم من أهل الأنبار ﴿ رسولا منهم ﴾ أى كائنا من جملتهم أميا مثلهم ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ مع كونه أميا مثلهم لم يعهد منه قراءة ولا تعلم ﴿ ويزكيهم ﴾ صفة أخرى لرسولا معطوفة على يتلو أى يحملهم على ما يصيرون به أزكياء من خبائث العقائد والأعمال ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ صفة أخرى لرسولا مترتبة فى الوجود على التلاوة وإنما وسط بينهما التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب قوتها العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل (١) بالتعليم المترتب على التلاوة للايذان بأن كلا من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود لتبادر إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة كما مر فى سورة البقرة وهو السر فى التعبير عن القرآن تارة بالآيات وأخرى بالكتاب والحكمة رمزا إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح فيه شمول الحكمة لما فى تضاعيف الأحاديث النبوية من الأحكام والشرائع ﴿ وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ من الشرك وخبث الجاهلية وهو بيان لشدة افتقارهم إلى من يرشدهم وإزاحة لما عسى يتوهم من تعلمه عليه الصلاة والسلام من الغير وإن هى المخففة واللام هى الفارقة ﴿ وآخرين منهم ﴾

---

(١) فى ١١ : الحاصلة بالتعليم

عطف على الأميين أو على المنصوب فى يعلمهم أى يعلمهم ويعلم آخرين منهم أى من الأميين وهم الذين جاءوا بعد الصحابة إلى يوم الدين فإن دعوته عليه الصلاة والسلام وتعليمه يعم الجميع ﴿ لما يلحقوا بهم ﴾ صفة لآخرين أى لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ المبالغ فى العزة والحكمة ولذلك مكن رجلا أميا من ذلك الأمر العظيم واصطفاه من بين كافة البشر ﴿ ذلك ﴾ الذى امتاز به من بين سائر الأفراد ﴿ فضل الله ﴾ وإحسانه ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ تفضلا وعطية ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ الذى يستحقر دونه نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ﴾ أى علموها وكلفوا العمل بها ﴿ ثم لم يحملوها ﴾ أى لم يعملوا بما فى تضاعيفها من الآيات التى من جملتها الآيات الناطقة بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ أى كتبا من العلم يتعب بحملها ولا ينتفع بها ويحمل إما حال والعامل فيها معنى المثل أو صفة للحمار إذ ليس المراد به معينا فهو فى حكم النكرة كما فى قول من قال:

* ولقد أمر على اللئيم يسبنى *

﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴾ أى بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله على أن التمييز محذوف والفاعل المفسر به مستتر ومثل القوم هو المخصوص بالذم والموصول صفة للقوم أو بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا إلخ على أن مثل القوم فاعل بئس والمخصوص بالذم الموصول بحذف المضاف أو بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء على أن الموصول صفة القوم والمخصوص بالذم محذوف وهم اليهود الذين كذبوا بما فى التوراة من الآيات الشاهدة بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ الواضعين للتكذيب فى موضع التصديق أو الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد .

دحض مزاعم اليهود

﴿ قل يا أيها الذين هادوا ﴾ أى تهودوا ﴿ إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس ﴾ كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ويدعون أن الدار الآخرة لهم عند الله خالصة ويقولون لن يدخل الجنة إلا من كان هودا فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يقول لهم إظهارا لكذبهم إن زعمتم ذلك ﴿ فتمنوا الموت ﴾ أى فتمنوا من الله أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى دار الكرامة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه أى إن كنتم صادقين فى زعمكم واثقين بأنه حق فتمنوا الموت فإن من أيقن بأنه من أهل الجنة أحب أن يتخلص إليها من هذه الدار التى هى قرارة الأكدار ﴿ ولا يتمنونه أبدا ﴾ أخبار بما سيكون منهم والباء فى قوله تعالى ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ متعلقة بما يدل عليه النفى أى يأبون التمنى بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصى الموجبة لدخول النار ولما كانت اليد من بين جوارح الإنسان مناط عامة أفاعيله عبر بها تارة عن النفس وأخرى عن القدرة ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ أى بهم وإيثار الإظهار على الإضمار لذمهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون فى كل ما يأتون وما يذرون من الأمور التى من جملتها إدعاء ما هم عنه بمعزل والجملة تذييل لما قبلها مقررة لمضمونه أى عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصى المفضية إلى أفانين العذاب وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدى إلى ذلك فوقع الأمر كما ذكر فلم يتمن منهم موته أحد كما يعرب عنه قوله تعالى .

﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه ﴾ فإن ذلك إنما يقال لهم بعد ظهور فرارهم من التمنى وقد قال عليه الصلاة والسلام « لو تمنوا لماتوا من ساعتهم »(١) وهذه إحدى المعجزات أى أن الموت الذى تفرون منه ولا تجسرون على أن تتمنوه مخافة أن تؤخذوا بوبال كفركم ﴿ فإنه ملاقيكم ﴾ البتة من غير صارف

(١) انظر ابن جرير لمعرفة طرق الحديث ١٧/ ٧٨ .

يلويه ولا عاطف يثنيه والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف وقرىء بدونها وقرىء تفرون منه ملاقيكم ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ الذى لا تخفى عليه خافية ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ من الكفر والمعاصى بأن يجازيكم بها .

آداب الجمعة

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة ﴾ أى فعل النداء لها أى أذن لها ﴿ من يوم الجمعة ﴾ بيان لاذا وتفسير لها وقيل من بمعنى فى كما فى قوله تعالى (أرونى ماذا خلقوا من الأرض) أى فى الأرض وإنما سمى جمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة وقيل أول من سماها جمعة كعب بن لؤى وكانت العرب تسميه العروبة وقيل إن الأنصار قالوا قبل الهجرة للهود يوم يجتمعون فيه بكل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك فهلموا نجعل لنا يوما نجتمع فيه فنذكر الله فيه ونصلى فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه فأنزل الله آية الجمعة فهى أول جمعة كانت فى الإسلام . وأما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباء على بنى عمرو بن عوف وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة عامدا المدينة فأدركته صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف فى بطن واد لهم فخطب وصلى الجمعة ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ أى أمشوا واقصدوا إلى الخطبة والصلاة ﴿ وذروا البيع ﴾ واتركوا المعاملة ﴿ ذلكم ﴾ أى السعى إلى ذكر الله وترك البيع ﴿ خير لكم ﴾ من مباشرته فإن نفع الآخرة أجل وأبقى ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى الخير والشر الحقيقيين أو إن كنتم أهل العلم .

﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ أى أديت وفرغ منها ﴿ فانتشروا فى الأرض ﴾

لإقامة مصالحكم ﴿ وابتغوا من فضل الله ﴾ أى الربح فالأمر للإطلاق بعد الحظر وعن ابن عباس رضى الله عنهما لم يؤمروا بطلب شىء من الدنيا إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة أخ فى الله وعن الحسن وسعيد بن المسيب طلب العلم وقيل صلاة التطوع ﴿ واذكروا الله كثيرا ﴾ ذكراً كثيرا أو زمانا كثيرا ولا تخصوا ذكره تعالى بالصلاة ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ كى تفوزوا بخير الدارين ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾ روى أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت الشام والنبى عليه الصلاة والسلام يخطب يوم الجمعة فقاموا إليه خشية أن يسبقوا إليه فما بقى معه عليه الصلاة والسلام إلا ثمانية وقيل أحد عشر وقيل اثنا عشر وقيل أربعون فقال عليه الصلاة والسلام والذى نفس محمد بيده لو خرجوا جميعا لأضرم الله عليهم الوادى نارا وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق وهو المراد باللهو وتخصيص التجارة برجع الضمير لأنها المقصودة أو لأن الانفضاض للتجارة مع الحاجة إليها والانتفاع بها إذا كان مذموما فما ظنك بالانفضاض (بالكلية) إلى اللهو وهو مذموم فى نفسه وقيل تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليه لحذف الثانى لدلالة الأول عليه وقرىء إليهما ﴿ وتركوك قائما ﴾ أى على المنبر ﴿ قل ما عند الله ﴾ من الثواب ﴿ خير من اللهو ومن التجارة ﴾ فإن ذلك نفع محقق مخلد بخلاف ما فيهما من النفع المتوهم ﴿ والله خير الرازقين ﴾ فإليه اسعوا ومنه اطلبوا الرزق . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الجمعة أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة ومن لم يأتها فى أمصار المسلمين .

* * *

سورة المنافقون

مدنية ، وآيها إحدى عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ أى حضروا مجلسك ﴿ قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ مؤكدين كلامهم بأن واللام للايذان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وخلوص اعتقادهم ووفور رغبتهم ونشاطهم وقوله تعالى ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ اعتراض مقرر لمنطوق كلامهم وسط بينه وبين قوله تعالى ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ تحقيقا وتعيينا لما نيط به التكذيب من أنهم قالوه عن اعتقاد كما أشير إليه وإماطة من أول الأمر لما عسى يتوهم من توجه التكذيب إلى منطوق كلامهم أى والله يشهد إنهم لكاذبون فيما ضمنوا مقالتهم من أنها صادرة عن اعتقاد وطمأنينة قلب والإظهار فى موقع الإضمار لذمهم والإشعار بعلة الحكم .

من سمات النفاق

﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ الفاجرة التى من جملتها ما حكى عنهم ﴿ جنة ﴾ أى وقاية عما يتوجه إليهم من المؤاخذة بالقتل والسبي أو غير ذلك واتخاذها جنة عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلصوا عن المؤاخذة لا عن استعمالها بالفعل فان ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية واتخاذ الجنة لا بد أن يكون قبل المؤاخذة وعن سببها أيضا كما يفصح عنه الفاء فى قوله تعالى ﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ أى فصدوا من أراد الدخول فى الإسلام بأنه عليه الصلاة والسلام ليس برسول ومن أراد الإنفاق فى سبيل الله بالنهى عنه كما سيحكى عنهم ولا ريب فى أن هذا الصد منهم متقدم على حلفهم بالفعل وقرىء إيمانهم أي ما أظهروه على ألسنتهم فاتخاذه جنة عبارة عن

استعماله بالفعل فانه وقاية دون دمائهم وأموالهم فمعنى قوله تعالى فصدوا حينئذ فاستمروا على ما كانوا عليه من الصد والإعراض عن سبيله تعالى ﴿ انهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ من النفاق والصد وفى ساء معنى التعجب وتعظيم أمرهم عند السامعين ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من القول الناعى عليهم إنهم أسوأ الناس أعمالا أو إلى ما وصف من حالهم فى النفاق والكذب والاستتار بالإيمان الصورى وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لما مر مرارا من الإشعار ببعد منزلته فى الشر ﴿ بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ آمنوا ﴾ أى نطقوا بكلمة الشهادة كسائر من يدخل فى الإسلام ﴿ ثم كفروا ﴾ أى ظهر كفرهم بما شوهد منهم من شواهد الكفر ودلائله أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم ﴿ فطبع على قلوبهم ﴾ حتى تمرنوا على الكفر واطمأنوا به وقرىء على البناء للفاعل وقرىء فطبع الله ﴿ فهم لا يفقهون ﴾ حقيقة الإيمان ولا يعرفون حقيته أصلا .

﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ﴾ لضخامتها ويروقك منظرهم لصباحة وجوههم ﴿ وان يقولوا تسمع لقولهم ﴾ لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامهم وكان ابن أبى جسيما فصيحا يحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أمثاله وهم رؤساء المدينة وكان عليه الصلاة والسلام ومن معه يعجبون بهيا كلهم ويسمعون إلى كلامهم وقيل الخطاب لكل أحد ممن يصلح للخطاب ويؤيده قراءة يسمع على البناء للمفعول وقوله تعالى ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ فى حيز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو كلام مستأنف لا محل له شبهوا فى جلوسهم فى مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستندين فيها بخشب منصوبة مسندة إلى الحائط فى كونهم أشباحا خالية عن العلم (١) والخير وقرىء خشب على أنه جمع خشبة كبدن جمع بدنة وقيل هو جمع خشباء وهى الخشبة التى دعر جوفها أى فسد شبهوا بها فى نفاقهم وفساد بواطنهم وقرىء خشب كمدرة ومدر

(١) فى ١١ : من العلم .

﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ أى واقعة عيبهم ضارة لهم لجبنهم واستقرار الرعب فى قلوبهم وقيل كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم ﴿ هم العدو ﴾ أى هم الكاملون فى العداوة والراسخون فيها فان أعدى الأعادى العدو المكاشر الذى يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوى والجملة مستأنفة وجعلها مفعولا ثانيا للحسبان مما لا يساعده النظم الكريم أصلا فان الفاء فى قوله تعالى ﴿ فاحذرهم ﴾ لترتيب الأمر بالحذر على كونهم أعدى الأعداء ﴿ قاتلهم الله ﴾ دعاء عليهم وطلب من ذاته تعالى أن يلعنهم ويخزيهم أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك وقوله تعالى ﴿ أنى يؤفكون ﴾ تعجيب من حالهم أى كيف يصرفون عن الحق إلى ما هم عليه من الكفر والضلال .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ عند ظهور جناياتهم بطريق النصيحة ﴿ تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ﴾ أى عطفوها استكبارا ﴿ ورأيتهم يصدون ﴾ يعرضون عن القائل أو عن الاستغفار ﴿ وهم مستكبرون ﴾ عن ذلك ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم ﴾ كما إذا جاءوك معتذرين من جناياتهم وقرىء استغفرت بحذف حرف الاستفهام ثقة بدلالة أم عليه وقرىء آستغفرت باشباع همزة الاستفهام لا بقلب همزة الوصل ألفا ﴿ أم لم تستغفر لهم ﴾ كما إذا أصروا على قبائحهم واستكبروا عن الإعتذار والإستغفار ﴿ لن يغفر الله لهم ﴾ أبدا لإصرارهم على الفسق ورسوخهم فى الكفر ﴿ إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ الكاملين فى الفسق الخارجين عن دائرة الاستصلاح المنهمكين فى الكفر والنفاق والمراد إما هم بأعيانهم والإظهار فى موقع الإضمار لبيان غلوهم فى الفسق أو الجنس وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا وقوله تعالى ﴿ هم الذين يقولون ﴾ أى للأنصار ﴿ لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ صلى الله عليه وسلم ﴿ حتى ينفضوا ﴾ يعنون فقراء المهاجرين استئناف جار مجرى التعليل لفسقهم أو لعدم مغفرته تعالى لهم وقرىء حتى ينفضوا من انفض القوم إذا فنيت أزوادهم وحقيقته حان لهم أن ينفضوا مزاودهم وقوله تعالى

﴿ ولله خزائن السموات والأرض ﴾ رد وإبطال لما زعموا من أن عدم إنفاقهم يؤدى إلى انفضاض الفقراء من حوله عليه الصلاة والسلام ببيان أن خزائن الأرزاق بيد الله تعالى خاصة يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ ذلك لجهلهم بالله تعالى وبشئونه ولذلك يقولون من مقالات الكفر ما يقولون .

﴿ ويقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ روى أن جهجاه بن سعيد أجير عمر رضى الله عنه نازع سنانا الجهنى حليف ابن أبى واقتتلا فصرخ جهجاه يا للمهاجرين وسنان يا للانصار فأعان جهجاها جعال من فقراء المهاجرين ولطم سنانا فاشتكى إلى ابن أبى فقال للأنصار لا تنفقوا الخ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل عنى بالأعز نفسه وبالأذل جانب المؤمنين وإسناد القول المذكور إلى المنافقين لرضاهم به فرد عليهم ذلك بقوله تعالى ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ أى ولله الغلبة والقوة ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين لا لغيرهم ﴿ ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم فيهذون ما يهذون . روى أن عبد الله بن أبى لما أراد أن يدخل المدينة اعترضه ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبى وكان مخلصا وقال لئن لم تقر لله ولرسوله بالعز لأضربن عنقك فلما رأى منه الجد قال أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال النبى عليه الصلاة والسلام لابنه جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا .

توجيه للمؤمنين

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ أى لا يشغلكم الإهتمام بتدبير أمورها والإعتناء بمصالحها والتمتع بها عن الاشتغال بذكره عز وجل من الصلاة وسائر العبادات المذكرة للمعبود والمراد نهيهم عن التلهى بها وتوجيه النهى إليها للمبالغة كما فى قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم) الخ ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أى التلهى بالدنيا من الدين ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾

أي الكاملون في الخسران حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ أي بعض ما أعطيناكم تفضلا من غير أن يكون حصوله من جهتكم ادخارا للآخرة ﴿ من قبل أن يأتي أحدكم الموت ﴾ بأن يشاهد دلائله ويعاين أماراته ومخايله وتقديم المفعول على الفاعل لما مر مراراً من الاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر ﴿ فيقول ﴾ عند تيقنه بحلوله ﴿ رب لولا أخرتني ﴾ أي أمهلتني ﴿ إلى أجل قريب ﴾ أي أمد قصير ﴿ فأصدق ﴾ بالنصب على جواب التمني وقرىء فأتصدق ﴿ وأكن من الصالحين ﴾ بالجزم عطفا على محل فأصدق كأنه قيل إن أخرتني أصدق وأكن وقرىء وأكون بالنصب عطفا على لفظه وقرىء وأكون بالرفع أي وأنا أكون عدة منه بالصلاح ﴿ ولن يؤخر الله نفسا ﴾ أي ولن يمهلها ﴿ إذا جاء أجلها ﴾ أي آخر عمرها أو انتهى ان أريد بالأجل الزمان الممتد من أول العمر إلى آخره ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ فيجازيكم عليه إن خيرا فخير وإن شراً فشر فسارعوا في الخيرات واستعدوا لما هو آت وقرىء يعملون بالياء التحتانية . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرىء سورة المنافقين برىء من النفاق .

* * *

سورة التغابن

مختلف فيها ، وآيها ثمانى عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى ينزهه سبحانه جميع ما فيهما من المخلوقات عما لا يليق بجناب كبريائه تنزيها مستمراً ﴿ له الملك وله الحمد ﴾ لا لغيره إذ هو المبدىء لكل شىء وهو القائم به والمهيمن عليه وهو المولى لأصول النعم وفروعها وأما ملك غيره فاسترعاء من جنابه وحمد غيره اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكل سواء ﴿ هو الذى خلقكم ﴾ خلقا بديعاً حاويا لجميع مبادى الكمالات العلمية والعملية ومع ذلك ﴿ فمنكم كافر ﴾ أى فبعضكم أو فبعض منكم مختار للكفر كاسب له على خلاف ما تستدعيه خلقته ﴿ ومنكم مؤمن ﴾ مختار للإيمان كاسب له حسبما تقتضيه خلقته وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتفرع عليها من سائر النعم فما فعلتم ذلك مع تمام تمكنكم منه بل تشعبتم شعبا وتفرقتم فرقا وتقديم الكفر لأنه الأغلب فيما بينهم والأنسب بمقام التوبيخ وحمله على معنى فمنكم كافر مقدر كفره موجه إليه ما يحمله عليه ومنكم مؤمن مقدر إيمانه موفق لما يدعوه إليه مما لا يلائم المقام ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ فيجازيكم بذلك فاختاروا منه ما يجديكم من الإيمان والطاعة وإياكم وما يرديكم من الكفر والعصيان ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ بالحكمة البالغة المتضمنة للمصالح الدينية والدنيوية ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ حيث برأكم فى أحسن تقويم وأودع فيكم من القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة ما نيط بها جميع الكمالات البارزة والكامنة وزينكم بصفوة صفات مصنوعاته وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته وجعلكم أنموذج جميع مخلوقاته فى هذه النشأة ﴿ وإليه المصير ﴾

فى النشأة الآخرى لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكا فأحسنوا سرائركم باستعمال تلك القوى والمشاعر فيما خلقن له .

﴿ يعلم ما فى السموات والأرض ﴾ من الأمور الكلية والجزئية والأحوال الجلية والخفية ﴿ ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ أى ما تسرونه فيما بينكم وما تظهرونه من الأمور والتصريح به مع اندراجه فيما قبله لأنه الذى يدور عليه الجزاء ففيه تأكيد للوعد والوعيد وتشديد لهما وقوله تعالى ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من شمول علمه تعالى لسرهم وعلنهم أى هو محيط بجميع المضمرات المستكنة فى صدور الناس بحيث لا تفارقها أصلا فكيف يخفى عليه ما يسرونه وما يعلنونه وإظهار الجلالة للإشعار بعلة(١) الحكم وتأكيد استقلال الجملة قيل وتقديم تقرير القدرة على تقرير العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرته بالذات وعلى علمه بما فيها من الإتقان والاختصاص ببعض الأنحاء ﴿ ألم يأتكم ﴾ أيها الكفرة ﴿ نبأ الذين كفروا من قبل ﴾ كقوم نوح ومن بعدهم من الأمم المصرة على الكفر ﴿ فذاقوا وبال أمرهم ﴾ عطف على كفروا والوبال الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور وأمرهم كفرهم عبر عنه بذلك للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة أى ألم يأتكم خبر الذين كفروا من قبل فذاقوا من غير مهلة ما يستتبعه كفرهم فى الدنيا ﴿ ولهم ﴾ فى الآخرة ﴿ عذاب أليم ﴾ لا يقادر قدره ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من العذاب الذى ذاقوه فى الدنيا وما سيذوقونه فى الآخرة ﴿ بأنه ﴾ بسبب أن الشأن ﴿ كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أى بالمعجزات الظاهرة ﴿ فقالوا ﴾ عطف على كانت ﴿ أبشر يهدوننا ﴾ أى قال كل قوم من المذكورين فى حق رسولهم الذى أتاهم بالمعجزات منكرين لكون الرسول من جنس البشر متعجبين من ذلك أبشر يهدينا كما قالت ثمود (أبشرا منا واحدا نتبعه) وقد أجمل فى الحكاية فأسند القول إلى جميع الأقوام وأريد بالبشر الجنس فوصف بالجمع كما أجمل

---

(١) فى ١١ : تسبب الحكم .

الخطاب والأمر فى قوله تعالى (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) ﴿ فكفروا ﴾ أى بالرسل ﴿ وتولوا ﴾ عن التدبر فيما أتوا به من البينات وعن الإيمان بهم ﴿ واستغنى الله ﴾ أى أظهر استغناءه عن إيمانهم وطاعتهم حيث أهلكهم وقطع دابرهم ولولا غناه تعالى عنهما لما فعل ذلك ﴿ والله غنى ﴾ عن العالمين فضلا عن إيمانهم وطاعتهم ﴿ حميد ﴾ يحمده كل مخلوق بلسان الحال أو مستحق للحمد بذاته وإن لم يحمده حامد .

﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ﴾ الزعم ادعاء العلم يتعدى إلى مفعولين وقد قام مقامهما أن المخففة مع ما فى حيزها والمراد بالموصول كفار مكة أى زعموا أن الشأن لن يبعثوا بعد موتهم أبدا ﴿ قل ﴾ ردا عليهم وإبطالا لزعمهم بإثبات ما نفوه ﴿ بلى ﴾ أى تبعثون وقوله ﴿ وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ أى لتحاسبن ولتجزون بأعمالكم جملة مستقلة داخلة تحت الأمر واردة لتأكيد ما أفاده كلمة بلى من إثبات البعث وبيان تحقيق أمر آخر متفرع عليه منوط به ففيه تأكيد لتحقق البعث بوجهين ﴿ وذلك ﴾ أى ما ذكر من البعث والجزاء ﴿ على الله يسير ﴾ لتحقق القدرة التامة وقبول المادة والفاء فى قوله تعالى ﴿ فآمنوا ﴾ فصيحة مفصحة عن شرط قد حذف ثقة بغاية ظهوره أى إذا كان الأمر كذلك فآمنوا ﴿ بالله ورسوله ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والنور الذى أنزلنا ﴾ وهو القرآن فإنه بإعجازه بين بنفسه مبين لغيره كما أن النور كذلك والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال ﴿ والله بما تعملون ﴾ من الامتثال بالأمر وعدمه ﴿ خبير ﴾ فمجازيكم عليه والجملة اعتراض تذييلى مقرر لماقبله من الأمر موجب للامتثال به بالوعد والوعيد والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتأكيد استقلال الجملة ﴿ يوم يجمعكم ﴾ ظرف لتنبؤن وقيل لخبير لما فيه من معنى الوعيد كأنه قيل والله يجازيكم ومعاقبكم يوم يجمعكم أو مفعول لاذكر وقرىء نجمعكم بنون العظمة ﴿ ليوم الجمع ﴾ ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون أى لأجل ما فيه من الحساب والجزاء ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ أى يوم غبن بعض الناس بعضا بنزول السعداء منازل الأشقياء الو كانو سعداء

وبالعكس وفى الحديث : «ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعدة من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة» وتخصيص التغابن بذلك اليوم للإيذان بأن التغابن فى الحقيقة هو الذى يقع فيه لا ما يقع فى أمور الدنيا .

﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا ﴾ أى عملا صالحا ﴿ يكفر ﴾ أى الله عز وجل وقرىء بنون العظمة ﴿ عنه سيئاته ﴾ يوم القيامة ﴿ ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ﴾ وقرىء ندخله بالنون ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من تكفير السيئات وإدخال الجنات ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذى لا فوز وراءه لانطوائه على النجاة من أعظم الهلكات والظفر بأجل الطلبات ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ﴾ أى النار كأن هاتين الآيتين الكريمتين بيان لكيفية التغابن ﴿ ما أصاب من مصيبة ﴾ من المصائب الدنيوية ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أى بتقديره وإرادته كأنها بذاتها متوجهة إلى الإنسان متوقفة على إذنه تعالى ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ عند إصابتها للثبات والاسترجاع وقيل يهد قلبه حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وقيل يهد قلبه أى يلطف به ويشرحه لازدياد الطاعة(١) والخير وقرىء يهد قلبه على البناء للمفعول ورفع قلبه وقرىء بنصبه على نهج سفه نفسه وقرىء بالهمزة أى يسكن ﴿ والله بكل شىء ﴾ من الأشياء التى من جملتها القلوب وأحوالها ﴿ عليم ﴾ فيعلم إيمان المؤمن ويهدى قلبه إلى ما ذكر ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ كرر الأمر للتأكيد والإيذان بالفرق بين الطاعتين فى الكيفية وتوضيح مورد التولى فى قوله تعالى ﴿ فإن توليتم ﴾ أى عن إطاعة الرسول وقوله تعالى ﴿ فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ تعليل للجواب المحذوف أى فلا بأس عليه إذ ما عليه إلا التبليغ المبين وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه وإظهار الرسول مضافا إلى نون العظمة فى مقام إضماره لتشريفه

---

(١) فى ١١ : للازدياد من الطاعة .

عليه الصلاة والسلام والإشعار بمدار الحكم الذى هو كون وظيفته عليه الصلاة والسلام محض البلاغ ولزيادة تشنيع التولى عنه ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ جملة من مبتدأ وخبر أى هو المستحق للمعبودية لا غيره وفى إضمار خبر لا مثل فى الوجود أو يصح أن يوجد خلاف للنحاة معروف ﴿ وعلى الله ﴾ أى عليه تعالى خاصة دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكا ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ وإظهار الجلالة فى موقع الإضمار للإشعار بعلة التوكل والأمر به فإن الألوهية مقتضية للتبتل إليه تعالى بالكلية وقطع التعلق عما سواه بالمرة .

من توجيهات القرآن

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ﴾ يشغلونكم عن اطاعة الله تعالى أو يخاصمونكم فى أمور الدين أو الدنيا ﴿ فاحذروهم ﴾ الضمير للعدو فإنه يطلق على الجمع نحو قوله تعالى فإنهم عدو لى أو للأزواج والأولاد جميعاً فالمأمور به على الأول الحذر عن الكل وعلى الثانى إما الحذر عن البعض لأن منهم من ليس بعدو وإما الحذر عن مجموع الفريقين لاشتمالهم على العدو ﴿ وإن تعفوا ﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا أو بأمور الدين لكن مقارنة للتوبة ﴿ وتصفحوا ﴾ بترك التثريب والتعيير ﴿ وتغفروا ﴾ بإخفائها وتمهيد عذرها ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم وقيل إن ناسا من المؤمنين أرادوا الهجرة عن مكة فثبطهم أزواجهم وأولادهم وقالوا تنطلقون وتضيعوننا فرقوا لهم ووقفوا فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا المهاجرين الأولين قدفقهوا فى الدين أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم فزين لهم العفو وقيل قالوا لهم أين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم فغضبوا عليهم وقالوا لئن جمعنا الله فى دار الهجرة لم نصبكم بخير فلما هاجروا منعوهم الخير فحثوا على أن يعفوا عنهم ويردوا إليهم البر والصلة ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ بلاء ومحنة يوقعونكم فى الإثم من حيث لا تحتسبون ﴿ والله عنده أجر عظيم ﴾ لمن آثر محبة الله تعالى وطاعته على

محبة الأموال والأولاد والسعى فى تدبير مصالحهم ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ أى ابذلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم ﴿ واسمعوا ﴾ مواعظه ﴿ وأطيعوا ﴾ أوامره ﴿ وأنفقوا ﴾ مما رزقكم فى الوجوه التى أمركم بالإنفاق فيها خالصا لوجهه ﴿ خيراً لأنفسكم ﴾ أى ائتوا خيرا لأنفسكم وافعلوا ما هو خير لها وأنفع وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر وبيان لكون الأمور المذكورة خيرا لأنفسهم ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أو إنفاقا خيرا أو خبرا لكان مقدرا جوابا للأوامر أى يكن خيراً لأنفسكم ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بكل مرام.

﴿ إن تقرضوا الله ﴾ بصرف أموالكم إلى المصارف التى عينها ﴿ قرضاً حسنا ﴾ مقرونا بالإخلاص وطيب النفس ﴿ يضاعفه لكم ﴾ بالواحد عشرة إلى سبعمائة وأكثر وقرىء يضعفه لكم ﴿ ويغفر لكم ﴾ ببركة الإنفاق ما فرط منكم من بعض الذنوب ﴿ والله شكور ﴾ يعطى الجزيل بمقابلة النزر القليل ﴿ حليم ﴾ لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ لا يخفى عليه خافية ﴿ العزيز الحكيم ﴾ المبالغ فى القدرة والحكمة.

عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التغابن دفع عنه موت الفجأة.

* * *

سورة الطلاق

مدنية ، وآياتها إحدى عشرة أو إثنتا عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ تخصيص النداء به عليه الصلاة والسلام مع عموم الخطاب لأمته أيضاً لتشريفه عليه الصلاة والسلام وإظهار جلالة منصبه وتحقيق أنه المخاطب حقيقة ودخولهم في الخطاب بطريق استتباعه عليه الصلاة والسلام إياهم وتغليبه عليهم لا لأن نداءه كندائهم فان ذلك الاعتبار لو كان في حيز الرعاية لكان الخطاب هو الأحق به لشمول حكمه للكل قطعا والمعنى إذا أردتم تطليقهن وعزمتم عليه كما في قوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة) ﴿فطلقوهن لعدتهن ﴾ أي مستقبلات لها كقولك أتيته لليلة خلت من شهر كذا فان المرأة إذا طلقت في طهر يعقبه القرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبلة لعدتها والمراد أن يطلقن في طهر لم يقع فيه جماع ثم يخلين حتى تنقضي عدتهن وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة ﴿ وأحصوا العدة ﴾ واضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء كوامل ﴿ واتقوا الله ربكم ﴾ في تطويل العدة عليهن والإضرار بهن وفي وصفه تعالى بربوبيته لهم تأكيد للأمر ومبالغة في إيجاب الاتقاء ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ من مساكنهن عند الفراق الى أن تنقضي عدتهن وإضافتها إليهن وهي لأزواجهن لتأكيد النهي ببيان كمال استحقاقهن لسكناها كأنها أملاكهن ﴿ ولا يخرجن ﴾ ولو بإذن منكم فإن الإذن بالخروج في حكم الإخراج وقيل المعنى لا يخرجن باستبداد منهن أما إذا اتفقا على الخروج جاز إذ الحق لا يعدوهما ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ استثناء من الأول قيل هي الزنا فيخرجن لإقامة الحد عليهن وقيل إلا أن يبذون على الأزواج فيحل حينئذ إخراجهن ويؤيده قراءة إلا أن يفحشن عليكم أو من الثاني للمبالغة في النهي عن الخروج ببيان أن خروجها فاحشة ﴿ وتلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام وما في اسم الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو

درجتها وبعد منزلتها ﴿ حدود الله ﴾ التى عينها لعباده ﴿ ومن يتعد حدود الله ﴾ أى حدوده المذكورة بأن أخل بشىء منها على أن الإظهار فى حيز الإضمار لتهويل أمر التعدى والإشعار بعلة الحكم فى قوله تعالى ﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ أى أضر بها وتفسير الظلم بتعريضها للعقاب يأباه قوله تعالى :

﴿ لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ فإنه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية وقد قالوا إن الأمر الذى يحدثه الله تعالى أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدى إلى خلافه فلا بد أن يكون الظلم عبارة عن ضرر دنيوى يلحقه بسبب تعديه ولا يمكن تداركه أوعن مطلق الضرر الشامل للدنيوى والأخروى ويخص التعليل بالدنيوى لكون احتراز الناس منه أشد واهتمامهم بدفعه أقوى وقوله تعالى لا تدرى خطاب للمتعدى بطريق الالتفات لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدى لا للنبى عليه الصلاة والسلام كما توهم فالمعنى ومن يتعد حدود الله فقد أضر بنفسه فإنك لا تدرى أيها المتعدى عاقبة الأمر لعل الله يحدث فى قلبك بعد ذلك الذى فعلت من التعدى أمرا يقتضى خلاف مافعلته فيبدل ببغضها محبة وبالإعراض عنها إقبالا إليها ويتسنى تلافيه رجعة أو استئناف نكاح ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ شارفن آخر عدتهن ﴿ فأمسكوهن ﴾ فراجعوهن ﴿ بمعروف ﴾ بحسن معاشرة وإنفاق لائق ﴿ أو فارقوهن بمعروف ﴾ بإيفاء الحق واتقاء الضرر بأن يراجعها ثم يطلقها تطويلا للعدة ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾ عند الرجعة والفرقة قطعا للتنازع وهذا أمر ندب كما فى قوله تعالى وأشهدوا إذا تبايعتم ويروى عن الشافعى أنه للوجوب فى الرجعة ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ أيها الشهود عند الحاجة خالصا لوجهه تعالى ﴿ ذلكم ﴾ إشارة الى الحث على الإشهاد والإقامة أو على جميع ما فى الآية .

﴿ يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ إذ هو المنتفع به والمقصود تذكيره وقوله تعالى ﴿ ومن يتق الله ﴾ الخ جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من وجوب مراعاة حدود الله تعالى بالوعد على الاتقاء عن تعديها كما أن ما تقدم من قوله تعالى ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه مؤكد له بالوعيد على تعديها

فالمعنى ومن يتق الله فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فى الإشهاد وغيره من الأمور ﴿ يجعل له مخرجا ﴾ مما عسى يقع فى شأن الأزواج من الغموم والوقوع فى المضايق ويفرج عنه ما يعتريه من الكروب ﴿ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ أى من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه ويجوز أن يكون كلاما جىء به على نهج الاستطراد عند ذكر قوله تعالى (ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله) إلى آخره فالمعنى ومن يتق الله فى كل ما يأتى وما يذر يجعل له مخرجا ومخلصا من غموم الدنيا والآخرة فيندرج فيه ما نحن فيه اندراجا أوليا عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قرأها فقال مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة وقال عليه الصلاة والسلام انى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ومن يتق الله فمازال يقرؤها ويعيدها . وروى أن عوف به مالك الأشجعى أسر المشركون ابنه سالما فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أسر ابنى وشكا إليه الفاقة فقال عليه الصلاة والسلام اتق الله وأكثر قول لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ففعل فبينما هو فى بيته اذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الابل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت .

﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ أى كافيه فى جميع أموره ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ بالإضافة أى منفذ أمره وقرىء بتنوين بالغ ونصب أمره أى يبلغ مايريده لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب وقرىء برفع أمره على أنه مبتدأ وبالغ خبر مقدم والجملة خبر إن وأمره مرتفع به على الفاعلية أى نافذ أمره وقرىء بالغا أمره على أنه حال وخبر إن قوله تعالى ﴿ قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ أى تقديرا وتوقيتا أو مقدارا وهو بيان لوجوب التوكل عليه تعالى وتفويض الأمر اليه لأنه اذا علم أن كل شىء من الرزق وغيره لا يكون الا بتقديره تعالى لا يبقى الا التسليم للقدر والتوكل على الله تعالى ﴿ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ﴾ لكبرهن وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين ﴿ إن ارتبتم ﴾ أى شككتم وجهلتم كيف عدتهن ﴿ فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن ﴾ بعد لصغرهن أى فعدتهن أيضاً كذلك فحذف ثقة بدلالة ما قبله

﴿ عليه وأولات الأحمال أجلهن ﴾ أى منتهى عدتهن ﴿ أن يضعن حملهن ﴾ سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن وقد نسخ به عموم قوله تعالى (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) لتراخى نزوله عن ذلك لما هو المشهور من قول ابن مسعود رضى الله عنه من شاء باهلته ان سوره النساء القصرى نزلت بعد التى فى سورة البقرة وقد صح أن سبيعة بنت الحرث الأسلمية ولدت بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها قد حللت فتزوجى ﴿ ومن يتق الله ﴾ فى شأن أحكامه ومراعاة حقوقها ﴿ يجعل له من أمره يسرا ﴾ أى يسهل عليه أمره ويوفقه للخير .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته فى الفضل وإفراد الكاف مع أن الخطاب للجمع كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ أمر الله أنزله إليكم ﴾ لما أنها لمجرد الفرق بين الحاضر والمنقضى لا لتعيين خصوصية المخاطبين وقد مر فى قوله تعالى (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله) من سورة البقرة ﴿ ومن يتق الله ﴾ بالمحافظة على أحكامه ﴿ يكفر عنه سيئاته ﴾ فان الحسنات يذهبن السيئات ﴿ ويعظم له أجرا ﴾ بالمضاعفة وقوله تعالى ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ مما قبله من الحث على التقوى كأنه قيل كيف نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات فقيل أسكنوهن مسكنا من حيث سكنتم أى بعض مكان سكنا كم وقوله تعالى ﴿ من وجدكم ﴾ أى من وسعكم أى مما تطيقونه عطف بيان لقوله من حيث سكنتم وتفسير له .

﴿ ولا تضاروهن ﴾ أى فى السكنى ﴿ لتضيقوا عليهن ﴾ وتلجئوهن إلى الخروج ﴿ وإن كن ﴾ أى المطلقات ﴿ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾ فيخرجن من العدة أما المتوفى عنهن أزواجهن فلا نفقة لهن ﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ بعد ذلك ﴿ فآتوهن أجورهن ﴾ على الأرضاع ﴿ وائتمروا بينكم بمعروف ﴾ أى تشاوروا وحقيقته ليأمر بعضكم بعضا بجميل فى الإرضاع

والأجر ولا يكن من الأب مماكسة ولا من الأم معاسرة ﴿ وإن تعاسرتم ﴾ أى تضايقتم ﴿ فسترضع له أخرى ﴾ أى فستوجد ولا تعوز مرضعة أخرى وفيه معاتبة للأم على المعاسرة ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾ وإن قل أى لينفق كل واحد من الموسر والمعسر ما يبلغه وسعه ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ﴾ جل أو قل فإنه تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها وفيه تطييب لقلب المعسر وترغيب له فى بذل مجهوده وقد أكد ذلك بالوعد حيث قيل ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسرا ﴾ أى عاجلا أو آجلا ﴿ وكأى من قرية ﴾ أى كثير من أهل قرية ﴿ عتت ﴾ أى أعرضت ﴿ عن أمر ربها ورسله ﴾ بالعتو والتمرد والعناد ﴿ فحاسبناها حسابا شديدا ﴾ بالاستقصاء والتنقير والمناقشة فى كل نقير وقطمير ﴿ وعذبناها عذابا نكرا ﴾ أى منكرا عظيما وقرىء نكرا والمراد حساب الآخرة وعذابها والتعبير عنهما بلفظ الماضى للدلالة على تحققهما كما فى قوله تعالى (ونادى أصحاب الجنة) ﴿ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾ هائلا لا خسر وراءه ﴿ أعد الله لهم عذابا شديدا ﴾ تكرير للوعيد وبيان لكونه مترقبا كأنه قيل أعد الله لهم هذا العذاب ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب ﴾ ويجوز أن يراد بالحساب استقصاء ذنوبهم وإثباتها فى صحائف الحفظة وبالعذاب ما أصابهم عاجلا وقد جوز أن يكون عتت وما عطف عليه صفة للقرية وأعد لهم جوابا لقوله تعالى كأى ﴿ الذين آمنوا ﴾ منصوب بإضمار أعنى بيانا للمنادى أو عطف بيان له أو نعت وفى إبداله منه ضعف لتعذر حلوله محله .

﴿ قد أنزل الله إليكم ذكرا ﴾ هو جبريل عليه السلام سمى به لكثرة ذكره أو لنزوله بالذكر الذى هو القرآن كما ينبىء عنه أبدال قوله تعالى ﴿ رسولا ﴾ منه أو لأنه مذكور فى السموات وفى الأمم أو أريد بالذكر الشرف كما فى قوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) كأنه فى نفسه شرف إما لأنه شرف للمنزل عليه وإما لأنه هو مجد وشرف عند الله تعالى كقوله تعالى (عند ذى العرش مكين) أو هو النبى عليه الصلاة والسلام وعليه الأكثر عبر عنه بالذكر لمواظبته على

تلاوة القرآن أو تبليغه والتذكير به وعبر عن إرساله بالإنزال بطريق الترشيح أو لأنه مسبب عن إنزال الوحى إليه وأبدل منه رسولا للبيان أو هو القرآن ورسولا منصوب بمقدر مثل أرسل أو يذكرا على إعمال المصدر المنون أو بدل منه على أنه بمعنى الرسالة وقوله تعالى ﴿ يتلو عليكم آيات الله مبينات ﴾ نعت لرسولا وآيات الله القرآن ومبينات حال منها أى حال كونها مبينات لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام وقرىء مبينات أى بينها الله تعالى لقوله تعالى (قد بينا لكم) الآيات واللام فى قوله تعالى :

﴿ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ متعلقة بيتلو أو بأنزل وفاعل يخرج على الأول ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام أو ضمير الجلالة والموصول عبارة عن المؤمنين بعد إنزاله أى ليحصل لهم الرسول أو الله عز وعلا ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح أو ليخرج من علم أو قدر أنه سيؤمن ﴿ من الظلمات إلى النور ﴾ من الضلالة إلى الهدى ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا ﴾ حسبما بين فى تضاعيف ما أنزل من الآيات المبينات ﴿ يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ وقرىء ندخله بالنون وقوله تعالى ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ حال من مفعول يدخله والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد فى الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها وقوله تعالى ﴿ قد أحسن الله له رزقا ﴾ حال أخرى منه أو من الضمير فى خالدين بطريق التداخل وإفراد ضمير له قد مر وجهه وفيه معنى التعجب والتعظيم لما رزقه الله المؤمنين من الثواب ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ أى خلق من الأرض مثلهن فى العدد وقرىء مثلهن بالرفع على أنه مبتدأ ومن الأرض خبره واختلف فى كيفية طبقات الأرض فالجمهور على أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض وفى كل أرض سكان من خلق الله تعالى وقال الضحاك مطبقة بعضها فوق بعض من غير فتوق بخلاف السموات قال القرطبى والأول أصح لأن الأخبار دالة عليه كما روى البخارى وغيره من أن كعبا حلف

بالذى فلق البحر لموسى أن صهيبا حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر من فيها وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق قال نعم قال فما الخلق قال إما ملائكة أو جن قال الماوردى وعلى هذا تختص دعوة الإسلام بأهل الأرض العليا دون من عداهم وإن كان فيهن من يعقل من خلق وفى مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان أحدهما أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ويستمدون الضياء منها والثانى أنهم لا يشاهدون السماء وأن الله تعالى خلق لهم ضياء يشاهدونه وحكى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها سبع أرضين متفرقة بالبحار وتظل الجميع السماء ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ أى يجرى أمره وقضاؤه بينهن وينفذ ملكه فيهن وعن قتادة فى كل سماء وفى كل أرض خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه وقيل هو ما يدبر فيهن من عجائب تدبيره وقرىء ينزل الأمر ﴿ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ﴾ متعلق بخلق أو بيتنزل أو بمضمر يعمهما أى فعل ذلك لتعلموا أن من قدر على ما ذكر قادر على كل شيء ﴿ وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ لاستحالة صدور الأفاعيل المذكورة ممن ليس كذلك ويجوز أن يكون العامل فى اللام بيان ما ذكر من الخلق وتنزل الأمر أى أوحى ذلك وبينه لتعلموا بما ذكر من الأمور التى تشاهدونها والتى تتلقونها من الوحى من عجائب المصنوعات أنه لا يخرج عن قدرته وعلمه شيء ما أصلا وقرىء ليعلموا عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

سورة التحريم

مدنية ، وآيها ثنتا عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ روى أن النبي عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها اكتمى على فقد حرمت مارية على نفسي وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدى أمر أمتى فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين وقيل خلا بها في يوم حفصة فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم فطلقها واعتزل نساءه فنزل جبريل عليه السلام فقال راجعها فإنها صوامة قوامة وإنها لمن نسائك في الجنة وروى أنه عليه الصلاة والسلام شرب عسلا في بيت زينب جحش فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا نشم منك ريح المغافير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره التفل فحرم العسل فنزلت فمعناه لم تحرم ما أحل الله لك من ملك اليمين أو من العسل ﴿ تبتغى مرضاة أزواجك ﴾ إما تفسير لتحرم أو حال من فاعله أو استئناف ببيان ما دعاه إليه مؤذن بعدم صلاحيته لذلك ﴿ والله غفور ﴾ مبالغ في الغفران قد غفر لك هذه الزلة ﴿ رحيم ﴾ قد رحمك ولم يؤاخذك به وإنما عاتبك محاماة على عصمتك ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ أى شرع لكم تحليلها وهو حل ما عقده بالكفارة أو بالاستثناء متصلا حتى لا يحنث والأول هو المراد ههنا ﴿ والله مولاكم ﴾ سيدكم ومتولى أموركم ﴿ وهو العليم ﴾ بما يصلحكم فيشرعه لكم ﴿ الحكيم ﴾ المتقن في أفعاله وأحكامه فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه ﴾ وهى حفصة ﴿ حديثا ﴾ أى حديث تحريم مارية أو العسل أو أمر الخلافة ﴿ فلما نبأت به ﴾ أى أخبرت حفصة عائشة بالحديث وأفشته إليها وقرىء أنبأت به ﴿ وأظهره الله عليه ﴾ أى أطلع الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام على إفشاء حفصة ﴿ عرف ﴾

أى النبى عليه الصلاة والسلام حفصة ﴿ بعضه ﴾ بعض الحديث الذى أفشته قيل هو حديث الإمامة روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لها ألم أقل لك اكتمى على قالت والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى فرحا بالكرامة التى خص الله تعالى بها أباها ﴿ وأعرض عن بعض ﴾ أى عن تعريف بعض تكرما قيل هو حديث مارية ﴿ فلما نبأها به ﴾ أى أخبر النبى عليه الصلاة والسلام حفصة بما عرفه من الحديث ﴿ قالت من أنبأك هذا ﴾ أى إفشاءها للحديث ﴿ قال نبأنى العليم الخبير ﴾ الذى لا تخفى عليه خافية .

﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ خطاب لحفصة وعائشة على الالتفات للمبالغة فى العتاب ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ الفاء للتعليل كما فى قولك اعبد ربك فالعبادة حق أى فقد وجد منكما ما يوجب التوبة من ميل قلوبكما عما يجب عليكما من مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه وقرىء فقد زاغت ﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ باسقاط إحدى التاءين وقرىء على الأصل وبتشديد الظاء وتظهرا أى تتعاونا عليه بما يسوؤه من الإفراط فى الغيرة وإفشاء سره ﴿ فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ﴾ أى فلن يعدم من يظاهره فإن الله هو ناصره وجبريل رئيس الكروبيين قرينه ومن صلح من المؤمنين أتباعه وأعوانه قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمر رضى الله عنهما وقد روى ذلك مرفوعا إلى النبى عليه الصلاة والسلام وبه قال عكرمة ومقاتل وهو اللائق بتوسيطه بين جبريل والملائكة عليهم السلام فإنه جمع بين الظهير المعنوى والظهير الصورى كيف لا وإن جبريل ظهير له عليهما السلام يؤيده بالتأييدات الإلهية وهما وزيراه وظهيراه فى تدبير أمور الرسالة وتمشية أحكامها الظاهرة ولأن بيان مظاهرتهما له عليه الصلاة والسلام أشد تأثيرا فى قلوب بنتيهما وتوهينا لأمرهما فكان حقيقا بالتقديم بخلاف ما إذا أريد به جنس الصالحين كما هو المشهور ﴿ والملائكة ﴾ مع تكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم ﴿ بعد ذلك ﴾ قيل أى بعد نصرة الله عز وجل وناموسه الأعظم وصالح المؤمنين ﴿ ظهير ﴾ أى فوج

مظاهر له كأنهم يد واحدة على من يعاديه فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه وما ينبىء عنه قوله تعالى بعد ذلك من فضل نصرتهم على نصرة غيرهم من حيث أن نصرة الكل نصرة الله تعالى وإن نصرته تعالى بهم وبمظاهرتهم أفضل من سائر وجوه نصرته هذا ما قالوه ولعل الأنسب أن يحمل ذلك إشارة إلى مظاهرة صالح المؤمنين خاصة ويكون بيان بعديةمظاهرة الملائكة تداركا لما يوهمه الترتيب الذكرى من أفضلية المقدم فكأنه قيل بعد ذكر مظاهرة صالح المؤمنين وسائر الملائكة بعد ذلك ظهير له عليه الصلاة والسلام إيذانا بعلو رتبة مظاهرتهم وبعد منزلتها وخبرا لفضلها عن مظاهرة جبريل عليه السلام.

﴿ عسى ربه أن طلقكن أن يبدله ﴾ أى يعطيه عليه السلام بدلكن ﴿ أزواجا خير منكن ﴾ على التغليب أو تعميم الخطاب وليس فيه ما يدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يطلق حفصه وان فى النساء خيرا منهن فإن تعليق طلاق الكل لا ينافى تطليق واحدة وما علق بما لم يقع لا يجب وقوعه وقرىء أن يبدله بالتشديد ﴿ مسلمات مؤمنات ﴾ مقرات مخلصات أو منقادات مصدقات ﴿ قانتات ﴾ مصليات أو مواظبات على الطاعة ﴿ تائبات ﴾ من الذنوب ﴿ عابدات ﴾ متعبدات أو متذللات لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ سائحات ﴾ صائمات سمى الصائم سائحا لأنه يسيح فى النهار بلا زاد أو مهاجرات وقرىء سيحات ﴿ ثيبات وأبكارا ﴾ وسط بينهما العاطف لتنافيهما .

﴿ ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم ﴾ بترك المعاصى وفعل الطاعات ﴿ وأهليكم ﴾ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم وقرىء أهلوكم عطفا على واو قوا فيكون أنفسكم عبارة عن أنفس الكل على تغليب المخاطبين أى قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم ﴿ نارا وقودها الناس والحجارة ﴾ أى نارا تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب وأمر المؤمنين باتقاء هذه النار المعدة للكافرين كما نص عليه فى سورة البقرة المبالغة فى التحذير ﴿ عليها ملائكة ﴾ أى تلى أمرها وتعذيب أهلها وهم الزبانية ﴿ غلاظ

شداد ﴾ غلاظ الأقوال شداد الأفعال أو غلاظ الخلق شداد الخلق أقوياء على الأفعال الشديدة ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ﴾ أى أمره على أنه بدل اشتمال من الله أو فيما أمرهم به على نزع الخافض أى لا يمتنعون من قبول الأمر ويلتزمونه ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أى ويؤدون ما يؤمرون به من غير تثاقل ولا توان وقوله تعالى ﴿ يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ﴾ مقول لقول قد حذف ثقة بدلالة الحال عليه أى يقال لهم ذلك عند إدخال الملائكة إياهم النار حسبما أمروا به ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا من الكفر والمعاصى بعد ما نهيتم عنهما أشد النهى وأمرتم بالإيمان والطاعة فلا عذر لكم قطعا .

دعوة إلى التوبة

﴿ يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ﴾ أى بالغة فى النصح وصفت التوبة بذلك على الإسناد المجازى وهو وصف التائبين وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقتها وذلك أن يتوبوا عن القبائح لقبحها نادمين عليها مغتمين أشد الاغتمام لارتكابها عازمين على أنهم لا يعودون فى قبيح من القبائح موطنين أنفسهم على ذلك بحيث لا يلويهم عنه صارف أصلا عن على رضى الله عنه أن التوبة يجمعها ستة أشياء على الماضى من الذنوب الندامة وللفرائض الإعادة ورد المظالم واستحلال الخصوم وأن تعزم على أن لا تعود وأن تذيب نفسك فى طاعة الله كما ربيتها فى المعصية وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية وعن شهر بن حوشب أن لا يعود ولو حز بالسيف وأحرق بالنار وقيل نصوحا من نصاحة الثوب أى توبة ترفو خروقك فى دينك وترم خللك وقيل خالصة من قولهم عسل ناصح إذا خلص من الشمع ويجوز أن يراد توبة تنصح الناس أى تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها فى صاحبها واستعماله الجد والعزيمة فى العمل بمقتضياتها وقرىء توبا نصوحا وقرىء نصوحا وهو مصدر نصح فإن النصح والنصوح كالشكر والشكور أى ذات نصوح أو تنصح نصوحا أو توبوا النصح أنفسكم على أنه مفعول له ﴿ عسى ربكم أن يكفر عنكم

سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ وورود صيغة الأطماع للجرى على سنن الكبرياء والإشعار بأنه تفضل والتوبة غير موجبة له وأن العبد ينبغى أن يكون بين خوف ورجاء وإن بالغ فى إقامة وظائف العبادة .

﴿ يوم لا يخزى الله النبى ﴾ ظرف ليدخلكم ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ عطف على النبى وفيه تعريض بمن أخزاهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق واستحماد إلى المؤمنين على أن عصمهم من مثل حالهم وقيل هو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ أى على الصراط وهو على الأول استئناف أو حال وهذا قوله تعالى ﴿ يقولون ﴾ إلخ وعلى الثانى خبر آخر للموصول أى يقولون إذا طفىء نور المنافقين ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾ وقيل يدعون تقربا إلى الله مع تمام نورهم وقيل تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم فيسألون إتمامه تفضلا وقيل السابقون إلى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح وبعضهم حبوا وزحفا وأولئك الذين يقولون ربنا أتمم لنا نورنا .

دعوة إلى الجهاد

﴿ يأيها النبى جاهد الكفار ﴾ بالسيف ﴿ والمنافقين ﴾ بالحجة ﴿ واغلظ عليهم ﴾ واستعمل الخشونة على الفريقين فيما تجاهدهما من القتال والمحاجة ﴿ ومأواهم جهنم ﴾ سيرون فيها عذابا غليظا ﴿ وبئس المصير ﴾ أى جهنم أو مصيرهم ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا ﴾ ضرب المثل فى أمثال هذه المواقع عبارة عن إيراد حالة غريبة ليعرف بها حالة أخرى مشاكلة لها فى الغرابة أى جعل الله مثلا لحال هؤلاء الكفرة حالا ومآلا على أن مثلا مفعول ثان لضرب واللام متعلقة به وقوله تعالى :

﴿ امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ أى حالهما مفعوله الأول أخر عنه ليتصل به ما هو شرح وتفصيل لحالهما ويتضح بذلك حال هؤلاء فقوله تعالى ﴿ كانتا تحت

عبدين من عبادنا صالحين ﴾ بيان لحالهما الداعية لهما إلى الخير والصلاح أى كانتا فى عصمة نبيين عظيمى الشأن متمكنتين من تحصيل خيرى الدنيا والآخرة وحيازة سعادتيهما وقوله تعالى ﴿ فخانتاهما ﴾ بيان لما صدر عنهما من الجناية العظيمة مع تحقق ما ينفيها من صحبة النبى أى خانتاهما بالكفر والنفاق وهذا تصوير لحالهما المحاكية لحال هؤلاء الكفرة فى خيانتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالكفر والعصيان مع تمكنهم التام من الإيمان والطاعة وقوله تعالى ﴿ فلم يغنيا ﴾ إلخ بيان لما أدى إليه خيانتهما أى فلم يغن النبيان ﴿ عنهما ﴾ بحق الزواج ﴿ من الله ﴾ أى من عذابه تعالى ﴿ شيئا ﴾ أى شيئاً من الإغناء ﴿ وقيل ﴾ لهما عند موتهما أو يوم القيامة ﴿ ادخلا النار مع الداخلين ﴾ أى مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام .

﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ أى جعل حالها مثلا لحال المؤمنين فى أن وصلة الكفرة لا تضرهم حيث كانت فى الدنيا تحت أعدى أعداء الله وهى فى أعلى غرف الجنة وقوله تعالى ﴿ إذ قالت ﴾ ظرف لمحذوف أشير إليه أى ضرب الله مثلا للمؤمنين حالها إذ قالت ﴿ رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ﴾ قريبا من رحمتك أو فى أعلى درجات المقربين . روى أنها لما قالت ذلك أريت بيتها فى الجنة من درة وانتزع روحها ﴿ ونجنى من فرعون وعمله ﴾ أى من نفسه الخبيثة وعمله السيء ﴿ ونجنى من القوم الظالمين ﴾ من القبط التابعين له فى الظلم ﴿ ومريم ابنة عمران ﴾ عطف على امرأة فرعون تسلية للأرامل أى وضرب الله مثلا للذين آمنوا حالها وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع كون قومها كفارا ﴿ التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه ﴾ وقرىء فيها أى مريم ﴿ من روحنا ﴾ من روح خلقناه بلا توسط أصلا ﴿ وصدقت بكلمات ربها ﴾ بصحفه المنزلة أو بما أوحى إلى أنبيائه ﴿ وكتبه ﴾ بجميع كتبه المنزلة وقرىء بكلمة الله وكتابه أى بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل ﴿ وكانت من القانتين ﴾ أى من عداد

المواظبين على الطاعة والتذكير للتغليب والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعات الرجال حتى عدت من جملتهم أو من نسلهم لأنها من أعقاب هارون أخي موسى عليهما السلام .

وعن النبي عليه الصلاه والسلام : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلوات الله عليه وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » وعن النبي صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصاحا » .

* * *

سورة الملك

مكية ، وتسمى الواقية والمنجية لأنها تقي وتنجي قارئها من عذاب القبر وآيها ثلاثون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾ البركة والنماء والزيادة حسية كانت أو عقلية وكثرة الخير ودوامه أيضا ونسبتها إلى الله عز وجل على المعنى الأول وهو الأليق بالمقام باعتبار تعاليه عما سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله وصيغة التفاعل للمبالغة فى ذلك فإن ما لا يتصور نسبته إليه تعالى من الصيغ كالتكبر ونحوه إنما تنسب إليه سبحانه باعتبار غاياتها وعلى الثانى باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته من فنون الخيرات والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وازديادها شيئاً فشيئاً وآناً فآناً بحسب حدوثها أو حدوث متعلقاتها ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال وإنبائها عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها فى حق غيره سبحانه ولا استعمال غيرها من الصيغ فى حقه تبارك وتعالى

وإسنادها إلى الموصول للاستشهاد بما فى حيز الصلة على تحقق مضمونها واليد مجاز عن القدرة التامة والاستيلاء الكامل أى تعالى وتعاظم بالذات عن كل ماسواه ذاتا وصفة وفعلا الذى بقبضة قدرته التصرف الكلى فى كل الأمور ﴿ وهو على كل شىء ﴾ من الأشياء ﴿ قدير ﴾ مبالغ فى القدرة عليه يتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة والجملة معطوفة على الصلة مقررة لمضمونها مفيدة لجريان أحكام ملكه تعالى فى جلائل الأمور ودقائقها وقوله تعالى .

﴿ الذى خلق الموت والحياة ﴾ شروع فى تفصيل بعض أحكام الملك وآثار القدرة وبيان ابتنائهما على قوانين الحكم والمصالح واستتباعهما لغايات جليلة والموصول بدل من الموصول الأول داخل معه فى حكم الشهادة بتعاليه تعالى والموت عند أصحابنا صفة وجودية مضادة للحياة وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه تعالى خلق الموت فى صورة كبش أملح لا يمر بشىء ولا يجد رائحته شىء إلا مات وخلق الحياة فى صورة فرس بلقاء لا تمر بشىء ولا يجد رائحتها شىء إلا حي فكلام وارد على منهاج التمثيل والتصوير وقيل هو عدم الحياة فمعنى خلقه حينئذ تقديره أو إزالة الحياة وأياً ما كان فالأقرب أن المراد به الموت الطارىء وبالحياة ما قبله وما بعده لظهور مداريتهما لما ينطق به قوله تعالى :

﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ فإن استدعاء ملاحظتهما لإحسان العمل مما لا ريب فيه مع أن نفس العمل لا يتحقق بدون الحياة الدنيوية وتقديم الموت لكونه أدعى إلى إحسان العمل واللام متعلقة بخلق أى خلق موتكم وحياتكم على أن الألف واللام عوض عن المضاف إليه ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملا فيجازيكم على مراتب متفاوتة حسب تفاوت طبقات علومكم وأعمالكم فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فإن لكل من القلب والقالب عملا خاصا به فكما أن الأول أشرف من الثانى كذلك الحال

فى عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد أثر ذى أثير وإنما طريقها النظرى التفكر فى بدائع صنع الله تعالى والتدبر فى آياته المنصوبة فى الأنفس والآفاق وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « لا تفضلونى على يونس بن متى فإنه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض » قالوا وإنما كان ذلك التفكر فى أمر الله عز وجل الذى هو عمل القلب ضرورة أن أحدا لا يقدر على أن يعمل بجوارحه كل يوم مثل عمل أهل الأرض وتعليق فعل البلوى أى تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور الذى يقتضى عدم إيراد المفعول أصلا مع اختصاصه بأفعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل وقيل بطريق الاستعارة التبعية وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لهم باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح أيضا لا إلى الحسن والأحسن فقط للإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصلى من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين مع تحقق أصل الإيمان والطاعة فى الباقين أيضاً لكمال تعاضد الموجبات له وأما الإعراض عن ذلك فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلا عن الانتظام فى سلك الغاية للأفعال الإلهية وإنما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب وفيه من الترغيب فى الترقى إلى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها ما لا يخفى ﴿ وهو العزيز ﴾ الغالب الذى لا يفوته من أساء العمل ﴿ الغفور ﴾ لمن تاب منهم .

﴿ الذى خلق سبع سموات ﴾ قيل هو نعت للعزيز الغفور أو بيان أو بدل والأوجه أنه نصب أو رفع على المدح متعلق بالموصولين السابقين معنى وإن كان منقطعا عنهما إعرابا كما مر تفصيله فى قوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب) من سورة البقرة منتظم معهما فى سلك الشهادة بتعاليه سبحانه ومع الموصول الثانى فى كونه مدارا للبلوى كما نطق به قوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وقوله تعالى :

﴿ طباقا ﴾ صفة لسبع سموات أى مطابقة على أنه مصدر طابقت النعل إذا خصفتها وصف به المفعول أو مصدر مؤكد لمحذوف هو صفتها أى طوبقت طباقا وقوله تعالى ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾ صفة أخرى لسبع سموات وضع فيها خلق الرحمن موضع الضمير للتعظيم والإشعار بعلة الحكم وبأنه تعالى خلقها بقدرته القاهرة رحمة وتفضلا وبأن فى إبداعها نعما جليلة أو استئناف والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب ومن لتأكيد النفى أى ما ترى فيه من شىء من تفاوت أى اختلاف وعدم تناسب من الفوت فإن كلا من المتفاوتين يفوت منه بعض ما فى الآخر وقرىء من تفوت ومعناهما واحد وقوله تعالى ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ متعلق به على معنى التسبيب حيث أخبر أولا بأنه لاتفاوت فى خلقهن ثم قيل فارجع البصر حتى يتضح لك ذلك بالمعاينة ولا يبقى عندك شبهة ما والفطور الشقوق والصدوع جمع فطر وهو الشق يقال فطره فانفطر .

﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ أى رجعتين أخريين فى ارتياد الخلل والمراد بالتثنية التكرير والتكثير كما فى لبيك وسعديك أى رجعة بعد رجعة وإن كثرت ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئا ﴾ أى بعيدا محروما من إصابة ما التمسه من العيب والخلل كأنه يطرد عن ذلك طردا بالصغار والقماءة ﴿ وهو حسير ﴾ أى كليل لطول المعاودة وكثرة المراجعة وقوله تعالى :

﴿ ولقد زينا السماء الدنيا ﴾ بيان لكون خلق السموات فى غاية الحسن والبهاء إثر بيان خلوها عن شائبة القصور وتصدير الجملة بالقسم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها أى وبالله لقد زينا أقرب السموات إلى الأرض ﴿ بمصابيح ﴾ أى بكواكب مضيئة بالليل إضاءة السرج من السيارات والثوابت تتراءى كأن كلها مركوزة فيها مع أن بعضها فى سائر السموات وما ذاك إلا لأن كل واحدة منها مخلوقة على نمط رائق تحار فى فهمه الأفكار وطراز فائق تهيم فى دركه الأنظار ﴿ وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ وجعلنا لها فائدة أخرى هى رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المقتبسة من نار الكواكب وقيل معناه وجعلناها

ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجمون ولا يساعده المقام والرجوم جمع رجم بالفتح وهو ما يرجم به ﴿ وأعتدنا لهم ﴾ في الآخرة ﴿ عذاب السعير ﴾ بعد الاحتراق في الدنيا بالشهب ﴿ وللذين كفروا بربهم ﴾ من الشياطين وغيرهم ﴿ عذاب جهنم ﴾ وقرىء بالنصب على أنه عطف على عذاب السعير وللذين على لهم ﴿ وبئس المصير ﴾ أي جهنم ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها ﴾ أي لجهنم وهو متعلق بمحذوف وقع حالا من قوله تعالى ﴿ شهيقا ﴾ لأنه في الأصل صفته فلما قدمت صارت حالا أي سمعوا كائنا لها شهيقا أي صوتا كصوت الحمير وهو حسيسها المنكر الفظيع قالوا الشهيق في الصدر والزفير في الحلق ﴿ وهي تفور ﴾ أي والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل بما فيه وجعل الشهيق لأهلها منهم وممن طرح فيها قبلهم كما في قوله تعالى (لهم فيها زفير وشهيق) يرده قوله تعالى:

﴿ تكاد تميز ﴾ أي تتميز وتتفرق ﴿ من الغيظ ﴾ أي من شدة الغضب عليهم فإنه صريح في أنه من آثار الغضب عليهم كما في قوله تعالى (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) فأين هو من شهيقهم الناشيء من شدة ما يقاسونه من العذاب الأليم والجملة إما حال من فاعل تفور أو خبر آخر وقوله تعالى ﴿ كلما ألقى فيها فوج ﴾ استئناف مسوق لبيان حال أهلها بعد بيان حال نفسها وقيل حال من ضميرها أي كلما ألقى فيها جماعة من الكفرة.

﴿ سألهم خزنتها ﴾ بطريق التوبيخ والتقريع ليزدادوا عذابا فوق عذاب وحسرة على حسرة ﴿ ألم يأتكم نذير ﴾ يتلو عليكم آيات ربكم وينذركم لقاء يومكم هذا كما وقع في سورة الزمر ويعرب عنه جوابهم أيضا ﴿ قالوا ﴾ اعترافا بأنه تعالى قد أزاح عللهم بالكلية ﴿ بلى قد جاءنا نذير ﴾ جامعين بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها مبالغة في الاعتراف بمجيء النذير وتحسرا على مافاتهم من السعادة في تصديقهم وتمهيدا لبيان ماوقع منهم من التفريط تندما واغتماما على ذلك أي قال كل فوج من تلك الأفواج قد جاءنا نذير أي واحد حقيقة أو حكما كأنبياء بني إسرائيل فإنهم في حكم نذير واحد فأنذرنا وتلا علينا ما نزل الله تعالى من آياته.

﴿ فكذبنا ﴾ ذلك النذير فى كونه نذيرا من جهته تعالى ﴿ وقلنا ﴾ فى حق ما تلاه من الآيات إفراطا فى التكذيب وتماديا فى النكير ﴿ ما نزل الله ﴾ على أحد ﴿ من شىء ﴾ من الأشياء فضلا عن تنزيل الآيات عليكم ﴿ إن أنتم ﴾ أى ما أنتم فى ادعاء أنه تعالى نزل عليكم آيات تنذروننا بما فيها ﴿ إلا فى ضلال كبير ﴾ بعيد عن الحق والصواب وجمع ضمير الخطاب مع أن مخاطب كل فوج نذيره لتغليبه على أمثاله مبالغة فى التكذيب وتماديا فى التضليل كما ينبىء عنه تعميم المنزل مع ترك ذكر المنزل عليه فإنه ملوح بعمومه حتما وأما إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل فأمر تحقيق يصار إليه لتهويل ما ارتكبوا من الجنايات لا مساغ لاعتباره من جهتهم ولا لإدراجه تحت عبارتهم كيف لا وهو منوط بملاحظة إجماع النذر على ما لا يختلف من الشرائع والأحكام باختلاف العصور والأعوام وأين هم من ذلك وقد حال الجريض دون القريض هذا إذا جعل ما ذكر حكاية عن كل واحد من الأفواج وأما إذا جعل حكاية عن الكل فالنذير إما بمعنى الجمع لأنه فعيل أو مصدر مقدر بمضاف عام أى أهل نذير أو منعوت به فيتفق كلا طرفى الخطاب فى الجمعية ومن اعتبر الجمعية بأحد الوجوه الثلاثة على التقدير الأول ولم يخص اعتبارها بالتقدير الأخير فقد اشتبه عليه الشئون واختلط(١) به الظنون وقد جوز أن يكون الخطاب من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول على أن مرادهم بالضلال ما كانوا عليه فى الدنيا أو هلاكهم أو عقاب ضلالهم تسمية له باسم سببه وأن يكون من كلام الرسل للكفرة وقد حكوه للخزنة فتأمل وكن على الحق المبين .

﴿ وقالوا ﴾ أيضا معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمع أو يعقل ﴿ لو كنا نسمع ﴾ كلاما ﴿ أو نعقل ﴾ شيئا ﴿ ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ أى فى عدادهم ومن أتباعهم وهم الشياطين لقوله تعالى (وأعتدنا لهم عذاب السعير كأن الخزنة قالوا لهم فى تضاعيف التوبيخ ألم تسمعوا آيات ربكم ولم تعقلوا معانيها حتى

---

(١) فى ١٢ : اشتبهت واختلطت .

لا تكذبوا بها فأجابوا بذلك ﴿ فاعترفوا بذنبهم ﴾ الذى هو كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ورسوله ﴿ فسحقا ﴾ بسكون الحاء وقرىء بضمها مصدر مؤكد إما لفعل متعد من المزيد بحذف الزوائد كما فى قعدك الله أى فأسحقهم الله أى أبعدهم من رحمته سحقا أى إسحاقا أو لفعل مترتب على ذلك الفعل أى فاسحقهم الله فسحقوا أى بعدوا سحقاً أى بعدا كما فى قول من قال :

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال إلا مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق إلا مسحت الخ وعلى هذين الوجهين قوله تعالى وأنبتها نباتا حسنا واللام فى قوله تعالى ﴿ لأصحاب السعير ﴾ للبيان كما فى هيت لك ونحوه والمراد بهم الشياطين والداخلون فى عدادهم بطريق التغليب ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ أى يخافون عذابه غائبا عنهم أو غائبين عنه أو عن أعين الناس أو بما خفى منهم وهو قلوبهم ﴿ لهم مغفرة ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ لا يقادر قدره .

﴿ وأسروا قولكم أو جهروا به ﴾ بيان لتساوي السر والجهر بالنسبة إلى علمه تعالى كما فى قوله (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى المشركين كانوا ينالون من النبى عليه الصلاة والسلام فيوحى إليه عليه الصلاة والسلام فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم كيلا يسمع رب محمد فقيل لهم أسروا ذلك أو اجهروا به فإن الله يعلمه وتقديم السر على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغة فى بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدر منه بما يجهرون به مع كونهما فى الحقيقة على السوية فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شىء فى نفسه علم بالنسبة إليه تعالى أو لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر إذ ما من شىء يجهر به إلا وهو أو مباديه مضمر فى القلب يتعلق به الأسرار غالبا فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية وقوله تعالى ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تعليل لما قبله وتقرير له وفى صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق ووصف الضمائر

بصاحبيتها من الجزالة مالاغاية وراءه كأنه قيل إنه مبالغ فى الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة فى صدورهم بحيث لاتكاد تفارقها أصلا فكيف يخفى عليه ما تسرونه وتجهرون به ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب التى فى الصدر والمعنى أنه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها وقوله تعالى :

﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ إنكار ونفى لعدم إحاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر أى ألا يعلم السر والجهر من أوجد بموجب حكمته جميع الأشياء التى هما من جملتها وقوله تعالى ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ حال من فاعل يعلم مؤكدة للإنكار والنفى أى ألا يعلم ذلك والحال أنه المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن ويجوز أن يكون من خلق منصوبا والمعنى ألا يعلم الله من خلقه والحال أنه بهذه المثابة من شمول العلم ولا مساغ لإخلاء العلم عن المفعول بإجرائه مجرى يعطى ويمنع على معنى ألا يكون عالما من خلق لأن الخلق لا يتأتى بدون العلم لخلو الحال حينئذ من الإفادة لأن نظم الكلام حينئذ ألا يكون عالما وهو مبالغ فى العلم ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ﴾ لينة يسهل عليكم السلوك فيها وتقديم لكم على مفعولى الجعل مع أن حقه التأخر عنهما للاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر لا سيما عند كون المقدم مما يدل على كون المؤخر من منافع المخاطبين تبقى النفس مترقبة لوروده فيتمكن لديها عند ذكره فضل تمكن والفاء فى قوله تعالى ﴿ فامشوا فى مناكبها ﴾ لترتيب الأمر على الجعل المذكور أى فاسلكوا فى جوانبها أو جبالها وهو مثل لفرط التذليل فإن منكب البعير أرق أعضائه وأنباها عن أن يطأه الراكب بقدمه فإذا جعل الأرض فى الذل بحيث يتأتى المشى فى مناكبها لم يبق منها شىء لم يتذلل ﴿ وكلوا من رزقه ﴾ والتمسوا من نعم الله تعالى ﴿ وإليه النشور ﴾ أى المرجع بعد البعث لا إلى غيره فبالغوا فى شكر نعمه وآلائه .

﴿ أأمنتم من فى السماء ﴾ أى الملائكة الموكلين بتدبير هذا العالم أو الله سبحانه على تأويل من فى السماء أمره وقضاؤه أو على زعم العرب حيث كانوا

يزعمون أنه تعالى فى السماء أى أأمنتم من تزعمون أنه فى السماء وهو متعال عن المكان ﴿ أن يخسف بكم الأرض ﴾ بعد ما جعلها لكم ذلولا تمشون فى مناكبها وتأكلون من رزقه لكفرانكم تلك النعمة أى يقلبها ملتبسة بكم فيغيبكم فيها كما فعل بقارون وهو بدل اشتمال من من وقيل هو على حذف الجار أى من أن يخسف ﴿ فإذا هى تمور ﴾ أى تضطرب ذهابا ومجيئا على خلاف ما كانت عليه من الذل والاطمئنان ﴿ أم أمنتم من فى السماء ﴾ إضراب عن التهديد بما ذكر وانتقال إلى التهديد بوجه آخر أى بل أأمنتم من فى السماء ﴿ أن يرسل عليكم حاصبا ﴾ أى حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل وقيل ريحا فيها حجارة وحصباء كأنها تقلع[1] الحصباء لشدتها وقوتها وقيل هى سحاب فيها حجارة ﴿ فستعلمون ﴾ عن قريب البتة ﴿ كيف نذير ﴾ أى إنذارى عند مشاهدتكم للمنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ وقرىء فسيعلمون بالياء ﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم ﴾ أى من قبل كفار مكة من كفار الأمم السالفة كقوم نوح وعاد وأضرابهم والالتفات إلى الغيبة لإبراز الإعراض عنهم ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أى إنكارى عليهم بإنزال العذاب أى كان على غاية الهول والفظاعة وهذا هو مورد التأكيد القسمى لا تكذيبهم فقط وفيه من المبالغة فى تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشديد التهديد لقومه ما لا يخفى .

﴿ أو لم يروا ﴾ أغفلوا ولم ينظروا ﴿ إلى الطير فوقهم صافات ﴾ باسطات أجنحتهن[2] فى الجو عند طيرانها فإنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفا ﴿ ويقبضن ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن حينا فحينا للاستظهار به على التحرك وهو السر فى إيثار يقبضن الدال على تجدد القبض تارة بعد تارة على قابضات ﴿ ما يمسكهن ﴾ فى الجو عند الصف والقبض على خلاف مقتضى الطبع ﴿ إلا الرحمن ﴾ الواسع رحمته كل شىء بأن برأهن على أشكال وخصائص

(١) فى ا ا : كانت تقلع . (٢) فى ا ا : أجنحتها .

ويأهن للجرى فى الهواء والجملة مستأنفة أو حال من الضمير فى يقبضن ﴿ إنه بكل شىء بصير ﴾ يعلم كيفية إبداع المبدعات وتدبير المصنوعات وقوله تعالى .

﴿ أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ﴾ تبكيت لهم بنفى أن يكون لهم ناصر غير الله تعالى كما يلوح به التعرض لعنوان الرحمانية ويعضده قوله تعالى (ما يمسكهن إلا الرحمن) أو ناصر من عذابه تعالى كما هو الأنسب بما سيأتى من قوله تعالى إن أمسك رزقه كقوله تعالى (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) فى المعنيين معا خلا أن الاستفهام هناك متوجه إلى نفس المانع وتحققه وههنا إلى تعيين الناصر لتبكيتهم بإظهار عجزهم عن تعيينه وأم منقطعة مقدرة ببل المفيدة للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن تعاجيب آثار قدرة الله عز وجل إلى التبكيت بما ذكر والالتفات للتشديد فى ذلك ولا سبيل إلى تقدير الهمزة معها لأن ما بعدها من الاستفهامية وهى مبتدأ وهذا خبره والموصول مع صلته صفته كما فى قوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده وإيثار هذا لتحقير المشار إليه وينصركم صفة لجند باعتبار لفظه ومن دون الرحمن على الوجه الأول إما حال من فاعل ينصركم أو نعت لمصدره وعلى الثانى متعلق بينصركم كما فى قوله تعالى من ينصرنى من الله فالمعنى بل من هذا الحقير الذى هو فى زعمكم جند لكم ينصركم متجاوزا نصر الرحمن أو ينصركم نصراً كائنا من دون نصره تعالى أو ينصركم من عذاب كائن من عند الله عز وجل وتوهم أن أم معادلة لقوله تعالى أو لم يروا الخ مع القول بأن من استفهامية مما لا تقريب له أصلا وقوله تعالى ﴿ إن الكافرون إلا فى غرور ﴾ اعتراض مقرر لما قبله ناع(١) عليهم ما هم فيه من غاية الضلال أى ما هم فى زعمهم أنهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم لا بحفظه تعالى فقط أو أن آلهتهم تحفظهم من بأس الله إلا فى غرور عظيم وضلال فاحش من جهة الشيطان ليس لهم فى ذلك شىء يعتد به فى الجملة والالتفات إلى الغيبة

---

(١) فى ١٦ : ينعى عليهم .

للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وبيان قبائحهم لغيرهم والإظهار فى موقع الإضمار لذمهم بالكفر وتعليل غرورهم به والكلام فى قوله تعالى :

﴿ أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك ﴾ أى الله عز وجل ﴿ رزقه ﴾ بإمساك المطر وسائر مباديه كالذى مر تفصيله خلا أن قوله تعالى ﴿ بل لجوا فى عتو ونفور ﴾ منبىء عن مقدر يستدعيه المقام كأنه قيل إثر تمام التبكيت والتعجيز لم يتأثروا بذلك ولم يذعنوا للحق بل لجوا وتمادوا فى عتو أى عناد واستكبار وطغيان ونفور أى شراد عن الحق وقوله تعالى ﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ﴾ الخ مثل ضرب للمشرك والموحد توضيحا لحالهما وتحقيقا لشأن مذهبيهما والفاء لترتيب ذلك على ما ظهر من سوء حالهم وخرورهم فى مهاوى الغرور وركوبهم متن عشواء العتو والنفور وعدم اهتدائهم فى مسلك المحاجة إلى جهة يتوهم فيها رشد فى الجملة فإن تقدم الهمزة عليها صورة إنما هو لاقتضائها الصدارة وأما بحسب المعنى فالأمر بالعكس كما هو المشهور حتى لو كان مكان الهمزة هل لقيل فهل من يمشى مكباً إلخ والمكب الساقط على وجهه يقال أكب خر على وجهه وحقيقته صار ذا كب ودخل فى الكب كأقشع الغمام أى صار ذا قشع والمعنى أفمن يمشى وهو يعثر فى كل ساعة ويخر على وجهه فى كل خطوة لتوعر طريقه واختلال قواه أهدى إلى المقصد الذى يؤمه .

﴿ أم من يمشى سويا ﴾ أى قائما سالما من الخبط والعثار ﴿ على صراط مستقيم ﴾ مستوى الأجزاء لا عوج فيه ولا انحراف قيل خبر من الثانية محذوف لدلالة خبر الأولى عليه ولا حاجة إلى ذلك فإن الثانية معطوفة على الأولى عطف المفرد كقولك أزيد أفضل أم عمرو وقيل أريد بالمكب الأعمى وبالسوى البصير وقيل من يمشى مكبا هو الذى يحشر على وجهه إلى النار ومن يمشى سويا الذى يحشر على قدميه إلى الجنة ﴿ قل هو الذى أنشأكم ﴾ إنشاء بديعا ﴿ وجعل لكم السمع ﴾ لتسمعوا آيات الله وتمتثلوا بما فيها من الأوامر والنواهى وتتعظوا بمواعظها ﴿ والأبصار ﴾ لتنظروا بها إلى الآيات التكوينية

الشاهدة بشئون الله عز وجل ﴿ والأفئدة ﴾ لتتفكروا بها فيما تسمعونه وتشاهدونه من الآيات التنزيلية والتكوينية وترتقوا فى معارج الإيمان والطاعة ﴿ قليلا ما تشكرون ﴾ أى باستعمالها فيما خلقت لأجله من الأمور المذكورة وقليلا نعت لمحذوف وما مزيدة لتأكيد القلة أى شكرا قليلا أو زمانا قليلا تشكرون وقيل القلة عبارة عن العدم ﴿ قل هو الذى ذرأكم فى الأرض ﴾ أى خلقكم وكثركم فيها لا غيره ﴿ وإليه تحشرون ﴾ للجزاء لا إلى غيره اشتراكا أو استقلالا فابنوا أموركم على ذلك ﴿ ويقولون ﴾ من فرط عتوهم وعنادهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ أى الحشر الموعود كما ينبىء عنه قوله تعالى وإليه تحشرون ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ يخاطبون به النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حيث كانوا مشاركين له عليه الصلاة والسلام فى الوعد وتلاوة الآيات المتضمنة له وجواب الشرط محذوف أى إن كنتم صادقين فيما تخبرونه من مجىء الساعة والحشر فبينوا وقته ﴿ قل إنما العلم ﴾ أى العلم بوقته ﴿ عند الله ﴾ عز وجل لا يطلع عليه غيره كقوله تعالى (قل إنما علمها عند ربى) ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ أنذركم وقوع الموعود لا محالة وأما العلم بوقت وقوعه فليس من وظائف الإنذار والفاء فى قوله تعالى :

﴿ فلما رأوه ﴾ فصيحة معربة عن تقدير جملتين وترتيب الشرطية عليهما كأنه قيل وقد أتاهم الموعود فرأوه فلما رأوه إلى آخره كما مر تحقيقه فى قوله تعالى فلما رآه مستقرا عنده إلا أن المقدر هناك أمر واقع مرتب على ما قبله بالفاء وههنا أمر منزل منزلة الواقع وارد على طريقة الاستئناف وقوله تعالى ﴿ زلفة ﴾ حال من مفعول رأوا إما بتقدير المضاف أى ذا زلفة وقرب أو على أنه مصدر بمعنى الفاعل أى مزدلفا أو على أنه مصدر نعت به مبالغة أو ظرف أى رأوه فى مكان ذى زلفة ﴿ سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ بأن غشيتها الكآبة ورهقها القتر والذلة ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بالكفر وتعليل المساءة به ﴿ وقيل ﴾ توبيخا لهم وتشديدا لعذابهم ﴿ هذا الذى كنتم به تدعون ﴾ أى تطلبونه فى الدنيا وتستعجلونه إنكارا واستهزاء

على أنه تفتعلون من الدعاء وقيل هو من الدعوى أى تدعون أن لا بعث ولا حشر وقرىء تدعون هذا وقد روى عن مجاهد أن الموعود عذاب يوم بدر وهو بعيد .

﴿ قل أرأيتم ﴾ أى أخبرونى ﴿ إن أهلكنى الله ﴾ أى أماتنى والتعبير عنه بالإهلاك لما كانوا يدعون عليه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك ﴿ ومن معى ﴾ من المؤمنين ﴿ أو رحمنا ﴾ بتأخير آجالنا فنحن فى جوار رحمته متربصون لإحدى(١) الحسنيين ﴿ فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾ أى لا ينجيكم منه أحد متنا أو بقينا ووضع الكافرين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر وتعليل نفى الإنجاء به ﴿ قل هو الرحمن ﴾ أى الذى أدعوكم إلى عبادته مولى النعم كلها ﴿ آمنا به ﴾ وحده لما علمنا أن كل ما سواه إما نعمة أو منعم عليه ﴿ وعليه توكلنا ﴾ لا على غيره أصلا لعلمنا بأن ما عداه كائنا ما كان بمعزل من النفع والضر ﴿ فستعلمون ﴾ عن قريب البتة ﴿ من هو فى ضلال مبين ﴾ منا ومنكم وقرىء فسيعلمون بالياء التحتانية ﴿ قل أرأيتم ﴾ أى أخبرونى ﴿ إن أصبح ماؤكم غورا ﴾ أى غائرا فى الأرض بالكلية وقيل بحيث لا تناله الدلاء وهو مصدر وصف به ﴿ فمن يأتيكم بماء معين ﴾ جار أو ظاهر سهل المأخذ .

عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الملك فكأنما أحيا ليلة القدر .

* * *

(١) فى ١١ : بإحدى الحسنيين .

سورة ن

مكية ، وآيها ثنتان وخمسون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ن ﴾ بالسكون على الوقف وقرىء بالكسر وبالفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن يكون الفتح بإضمار حرف القسم فى موضع الجر كقولهم الله لأفعلن بالجر وأن يكون ذلك نصبا بإضمار أذكر لا فتحا كما سبق فى فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث على أنه علم للسورة ثم إن جعل اسما للحرف مسرودا على نمط التعديد للتحدى بأحد الطريقين المذكورين فى موقعه أو اسما للسورة منصوبا على الوجه المذكور أو مرفوعا على أنه خبر لمبتدأ محذوف فالواو فى قوله تعالى ﴿ والقلم ﴾ للقسم وإن جعل مقسما به فهى للعطف عليه وأيا ما كان فإن أريد به قلم اللوح والكرام الكاتبين فاستحقاقه للإعظام بالإقسام به ظاهر وإن أريد به الجنس فاستحقاق ما فى أيدى الناس لذلك لكثرة منافعه ولو لم يكن له مزية سوى كونه آلة لتحرير كتب الله عز قائلا لكفى به فضلا موجبا لتعظيمه وقرىء بإدغام النون فى الواو ﴿ وما يسطرون ﴾ الضمير لأصحاب القلم المدلول عليهم بذكره وقيل للقلم على أن المراد به أصحابه كأنه قيل وأصحاب القلم ومسطوراتهم على أن ما موصولة أو وسطرهم على أنها مصدرية وقيل للقلم نفسه بإسناد الفعل إلى الآلة وإجرائه مجرى العقلاء لإقامته مقامهم وقيل المراد بالقلم ما خط اللوح خاصة والجمع للتعظيم وقوله تعالى ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ جواب القسم والباء متعلقة بمضمر هو حال من الضمير فى خبرها والعامل فيها معنى النفى كأنه قيل أنت برىء من الجنون ملتبسا بنعمة الله التى هى النبوة والرياسة العامة والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى معارج الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام والإيذان بأنه تعالى يتم نعمته عليه ويبلغه من العلو إلى غاية لا غاية وراءها

والمراد تنزيهه عليه الصلاة والسلام عما كانوا ينسبونه عليه الصلاة والسلام إليه من الجنون حسداً وعداوة ومكابرة مع جزمهم بأنه عليه الصلاة والسلام فى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية من حصانة العقل ورزانة الرأى ﴿ وإن لك ﴾ بمقابلة مقاساتك ألوان الشدائد من جهتهم وتحملك لأعباء الرسالة ﴿ لأجرا ﴾ لثوابا عظيما لايقادر قدره ﴿ غير ممنون ﴾ مع عظمه كقوله تعالى (عطاء غير مجذوذ) أو غير ممنون عليك من جهة الناس فإنه عطاؤه تعالى بلا توسط ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ لا يدرك شأوه أحد من الخلق ولذلك تحتمل من جهتهم ما لا يكاد يحتمله البشر وسئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه عليه الصلاة والسلام فقالت كان خلقه القرآن ألست تقرأ القرآن (قد أفلح المؤمنون) والجملتان معطوفتان على جواب القسم ﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما فستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل وقيل فستبصر ويبصرون فى الدنيا بظهور عاقبة أمركم بغلبة الإسلام واستيلائك عليهم بالقتل والنهب وصيرورتك مهيبا معظما فى قلوب العالمين وكونهم أذلة صاغرين قال مقاتل هذا وعيد بعذاب يوم بدر ﴿ بأيكم المفتون ﴾ أى أيكم الذى فتن بالجنون والباء مزيدة أو بأيكم الجنون على أن المفتون مصدر كالمعقول والمجلود أو بأى الفريقين منكم المجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين أى فى أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم وهو تعريض بأبى جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأضرابهما كقوله تعالى (سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) وقوله تعالى ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ تعليل لما ينبىء عنه ما قبله من ظهور جنونهم بحيث لا يخفى على أحد وتأكيد لما فيه من الوعد والوعيد أى هو أعلم بمن ضل عن سبيله تعالى المؤدى إلى سعادة الدارين وهام فى تيه الضلال متوجها إلى ما يفضيه إلى الشقاوة الأبدية وهذا هو المجنون الذى لا يفرق بين النفع والضرر بل يحسب الضرر نفعاً فيؤثره والنفع ضرراً فيهجره ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ إلى سبيله الفائزين بكل مطلوب الناجين عن كل محذور وهم العقلاء المراجيح فيجزى كلا من الفريقين حسبما يستحقه من العقاب والثواب وإعادة هو أعلم لزيادة التقرير والفاء فى قوله تعالى ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾

لترتيب النهى على ما ينبىء عنه ما قبله من اهتدائه عليه الصلاة والسلام وضلالهم أو على جميع ما فصل من أول السورة وهذا تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم أى دم على ما أنت عليه من عدم طاعتهم وتصلب فى ذلك أو نهى عن مداهنتهم ومداراتهم بإظهار خلاف ما فى ضميره عليه الصلاة والسلام استجلابا لقلوبهم لا عن طاعتهم حقيقة كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ ودوا لو تدهن ﴾ فإنه تعليل للنهى أو للانتهاء وإنما عبر عنها بالطاعة للمبالغة فى الزجر والتنفير أى أحبوا لو تلاينهم وتسامحهم فى بعض الأمور ﴿ فيدهنون ﴾ أى فهم يدهنون حينئذ أو فهم الآن يدهنون طمعاً فى ادهانك وقيل هو معطوف على تدهن داخل فى حيز لو والمعنى ودوا لو يدهنون عقيب ادهانك ويأباه ما سيأتى من بدئهم بالإدهان على أن إدهانهم أمر محقق لا يناسب إدخاله تحت التمنى وأيا ما كان فالمعتبر فى جانبهم حقيقة الإدهان الذى هو إظهار الملاينة وإضمار خلافها وأما فى جانبه عليه الصلاة والسلام فالمعتبر بالنسبة إلى ودادتهم هو إظهار الملاينة فقط وأما إضمار خلافها فليس فى حيز الاعتبار بل هم فى غاية الكراهة له وإنما اعتباره بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام وفى بعض المصاحف فيدهنوا على أنه جواب التمنى المفهوم من ودوا أو أن ما بعده حكاية لودادتهم وقيل على أنه عطف على تدهن بناء على أن لو بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولا لودوا كأنه قيل ودوا أن تدهن فيدهنوا وقيل لو على حقيقتها وجوابها وكذا مفعول ودوا أى ودوا ادهانك لو تدهن فيدهنوا لسروا بذلك .

﴿ ولا تطع كل حلاف ﴾ كثير الحلف فى الحق والباطل تقديم هذا الوصف على سائر الأوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه أدخل فى الزجر ﴿ مهين ﴾ حقير الرأى والتدبير ﴿ هماز ﴾ عياب طعان ﴿ مشاء بنميم ﴾ مضرب نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعادة والإفساد بينهم فإن النميم والنميمة السعاية ﴿ مناع للخير ﴾ أى بخيل أو مناع للناس من الخير الذى هو الإيمان والطاعة والإنفاق ﴿ معتد ﴾ متجاوز فى الظلم ﴿ أثيم ﴾ كثير الآثام ﴿ عتل ﴾

جاف غليظ من عتله إذا قاده بعنف وغلظة ﴿ بعد ذلك ﴾ بعد ماعد من مثالبه ﴿ زنيم ﴾ دعى مأخوذ من الزنمة وهى الهنة من جلد الماعز تقطع فتخلى متدلية فى حلقها وفى قوله تعالى بعد ذلك دلالة على أن دعوته أشد معايبه وأقبح قبائحه قيل هو الوليد بن المغيرة فإنه كان دعيافى قريش وليس من سنخهم[1] ادعاه المغيرة بعد ثمانى عشرة من مولده وقيل هو الأخنس بن شريق أصله من ثقيف وعداده فى زهرة ﴿ أن كان ذا مال وبنين ﴾ متعلق بقوله تعالى لا تطع أى لا تطع من هذه مثالبه لأن كان متمولا مستظهراً بالبنين وقوله تعالى ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ استئناف جار مجرى التعليل للنهى وقيل متعلق بما دل عليه الجملة الشرطية من معنى الجحود والتكذيب لا بجواب الشرط لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله كأن قيل لكونه مستظهرا بالمال والبنين كذب بآياتنا وفيه أنه يدل على معنى أن مدار تكذيبه كونه ذا مال وبنين من غير أن يكون لسائر قبائحه دخل فى ذلك وقرىء أأن كان على معنى ألأن كان ذا مال كذب بها أو أتطيعه لأن كان ذا مال وقرىء إن كان بالكسر والشرط للمخاطب أى لا تطع كل حلاف شارطا[2] يساره لأن إطاعة الكافر لغناه بمنزلة اشتراط غناه فى الطاعة ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ بالكى على أكرم مواضعه لغاية إهانته وإذلاله قيل أصاب أنف الوليد جراحة يوم بدر فبقيت علامتها وقيل معناه سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يعلم بها عن سائر الكفرة ﴿ إنا بلوناهم ﴾ أى أهل مكة بالقحط بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ وهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين فكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدق بالباقى وكان ينادى الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما أخطأه المنجل وما فى أسفل الأكداس وما أخطأه القطاف من العنب وما بقى على البساط الذى يبسط تحت النخلة إذا صرمت فكان يجتمع لهم شىء كثير فلما مات أبوهم قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر فحلفوا فيما بينهم وذلك قوله تعالى :

---

(١) فى ١١ : أى ليس من أصلهم . (٢) فى ١١ : مشترط وهما بمعنى .

﴿إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين﴾ ليقطعنها داخلين فى الصباح ﴿ولا يستثنون﴾ أى لا يقولون إن شاء الله وتسميته استثناء مع أنه شرط من حيث أن مؤداه مؤدى الاستثناء فإن قولك لأخرجن إن شاء الله ولا أخرج إلا أن يشاء الله بمعنى واحد أو ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يفعله أبوهم والجملة مستأنفة ﴿فطاف عليها﴾ أى على الجنة ﴿طائف﴾ بلاء طائف وقرىء طيف ﴿من ربك﴾ مبتدأ من جهته تعالى ﴿وهم نائمون﴾ غافلون عما جرت به المقادير ﴿فأصبحت كالصريم﴾ كالبستان الذى صرمت ثماره بحيث لم يبق منها شىء فعيل بمعنى مفعول وقيل كالليل أى احترقت فاسودت وقيل كالنهار أى يبست وابيضت سميا بذلك لأن كلا منهما ينصرم عن صاحبه وقيل الصريم الرمال ﴿فتنادوا﴾ أى نادى بعضهم بعضاً ﴿مصبحين﴾ داخلين فى الصباح ﴿أن اغدوا﴾ أى اغدوا على أن أن مفسرة أو بأن اغدوا على أنها مصدرية أى اخرجوا غدوة ﴿على حرثكم﴾ بستانكم وضيعتكم وتعدية الغدو بعلى لتضمينه معنى الإقبال أو الاستيلاء ﴿إن كنتم صارمين﴾ قاصدين للصرم ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾ أى يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة وخفى وخفت وخفد ثلاثتها فى معنى الكتم ومنه الخفدود للخفاش ﴿أن لا يدخلنها﴾ أى الجنة ﴿اليوم عليكم مسكين﴾ أن مفسرة لما فى التخافت من معنى القول وقرىء بطرحها على إضمار القول والمراد بنهى المسكين عن الدخول المبالغة فى النهى عن تمكينه من الدخول كقولهم لا أرينك ههنا ﴿وغدوا على حرد قادرين﴾ أى على نكد لا غير من حاردت السنة إذا لم يكن فيها مطر وحاردت الإبل إذا منعت درها والمعنى أنهم أرادوا أن يتنكدوا على المساكين ويحرموهم وهم قادرون على نفعهم فغدوا بحال لا يقدرون فيها إلا على النكد والحرمان وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان والمسكنة أو وغدوا على محاردة جنتهم وذهاب خيرها قادرين بدل كونهم قادرين على إصابة خيرها ومنافعها أى غدوا حاصلين على النكد والحرمان مكان كونهم قادرين على الانتفاع وقيل الحرد الحرد وقد قرىء بذلك أى لم يقدروا إلا على حنق بعضهم لبعض لقوله تعالى يتلاومون

وقيل الحرد القصد والسرعة أى غدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صرامها وقيل هو علم للجنة .

﴿ فلما رأوها قالوا ﴾ فى بديهة رؤيتهم ﴿ إنا لضالون ﴾ أى طريق جنتنا وما هى بها ﴿ بل نحن محرومون ﴾ قالوه بعد ما تأملوا ووقفوا على حقيقة الأمر مضربين عن قولهم الأول أى لسنا ضالين بل نحن محرومون حرمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا ﴿ قال أوسطهم ﴾ أى رأيا أوسنا ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ لولا تذكرون الله تعالى وتتوبون إليه من خبث نيتكم[1] وقد كان قال لهم حين عزموا على ذلك اذكروا الله وتوبوا إليه عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة فعصوه فعيرهم كما ينبي عنه قوله تعالى ﴿ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ وقيل المراد بالتسبيح الاستثناء لاشتراكهما فى التعظيم أو لأنه تنزيه له تعالى عن أن يجرى فى ملكه ما لا يشاؤه ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أى يلوم بعضهم بعضا فإن منهم من أشار بذلك ومنهم من استصوبه ومنهم من سكت راضيا به ومنهم من أنكره ﴿ قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين ﴾ متجاوزين حدود الله ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا ﴾ وقرىء بالتشديد أى يعطينا بدلا منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة ﴿ خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾ راجون العفو طالبون الخير وإلى لانتهاء الرغبة أو لتضمنها معنى الرجوع عن مجاهد تابوا فأبدلوا خيراً منها وروى أنهم تعاقدوا وقالوا إن أبدلنا الله خيرا منها لنصنعن كما صنع أبونا فدعوا الله تعالى وتضرعوا إليه فأبدلهم الله تعالى من ليلتهم ما هو خير منها قالوا إن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزغر من أرض الشام ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه إن القوم لما أخلصوا وعرف الله منهم الصدق أبدلهم جنة يقال لها الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقودا وقال أبو خالد اليمانى دخلت تلك

---

(١) فى ١١ : نياتكم .

الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم وسئل قتادة عن أصحاب الجنة أهم من أهل الجنة أم من أهل النار فقال لقد كلفتني تعبا وعن الحسن رحمه الله تعالى قول أصحاب الجنة إنا إلى ربنا راغبون لا أدرى إيمانا كان ذلك منهم أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة فتوقف فى أمرهم والأكثرون على أنهم تابوا وأخلصوا حكاه القشيرى ﴿ كذلك العذاب ﴾ جملة من مبتدأ وخبر مقدم لإفادة القصر والألف واللام للعهد أى مثل الذى بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ أعظم وأشد ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أنه أكبر لاحترزوا عما يؤديهم إليه ﴿ إن للمتقين ﴾ أى من الكفر والمعاصى ﴿ عند ربهم ﴾ أى فى الآخرة أو فى جوار القدس ﴿ جنات النعيم ﴾ جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص عن شائبة ما ينغصه من الكدورات وخوف الزوال كما عليه نعيم الدنيا وقوله تعالى :

﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ تقرير لما قبله من فوز المتقين بجنات النعيم ورد لما يقوله الكفرة عند سماعهم بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين فيها فإنهم كانوا يقولون إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هى فى الدنيا وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يساوونا والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أنحيف فى الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين ثم قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الرد وتشديده ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ تعجيبا من حكمهم واستبعاداً له وإيذانا بأنه لا يصدر عن عاقل ﴿ أم لكم كتاب ﴾ نازل من السماء ﴿ فيه تدرسون ﴾ أى تقرءون ﴿ إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ أى ما تتخيرونه وتشتهونه وأصله أن لكم بالفتح لأنه مدروس فلما جيء باللام كسرت ويجوز أن يكون حكاية للمدروس كما هو كقوله تعالى وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين وتخير الشيء واختياره أخذ خيره ﴿ أم لكم أيمان علينا ﴾ أى عهود مؤكدة بالأيمان ﴿ بالغة ﴾ متناهية فى التوكيد وقرئت[1] بالنصب على الحال

(١) فى ١١ : وقرىء .

والعامل فيها أحد الظرفين ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ متعلق بالمقدر فى لكم أى ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا نخرج عن عهدتها حتى نحكمكم يومئذ ونعطيكم ما تحكمون أو ببالغة أى أيمان تبلغ ذلك اليوم وتنتهى إليه وافرة لم تبطل منها يمين .

﴿ إن لكم لما تحكمون ﴾ جواب القسم لأن معنى أم لكم علينا أيمان أم أقسمنا لكم ﴿ سلهم ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاطهم عن رتبة الخطاب أى سلهم مبكتا لهم ﴿ أيهم بذلك ﴾ الحكم الخارج عن العقول ﴿ زعيم ﴾ أى قائم يتصدى لتصحيحه ﴿ أم لهم شركاء ﴾ يشاركونهم فى هذا القول ويذهبون مذهبهم ﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ فى دعواهم إذ لا أقل من التقليد وقد نبه فى هذه الآيات الكريمة على أن ليس لهم شىء يتوهم أن يتشبثوا به حتى التقليد الذى لا يفلح من تشبث بذيله وقيل المعنى أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين فى الآخرة ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ أى يوم يشتد الأمر ويصعب الخطب وكشف الساق مثل فى ذلك وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن فى الهرب قال حاتم :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها
وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقيل ساق الشىء أصله الذى به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان أى يوم يكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصولها بحيث تصير عيانا وتنكيره للتهويل أو التعظيم وقرىء تكشف بالتاء على البناء للفاعل والمفعول والفعل للساعة أو الحال وقرىء تكشف بالنون وتكشف بالتاء المضمومة وكسر الشين من أكشف الأمر أى دخل فى الكشف وناصب الظرف فليأتوا أو مضمر مقدم أى اذكر يوم الخ أو مؤخر أى يوم يكشف عن ساق الخ يكون من الأهوال وعظائم الأحوال ما لا يبلغه الوصف ﴿ ويدعون إلى السجود ﴾ توبيخا وتعنيفاً على تركهم إياه فى الدنيا وتحسيراً لهم على تفريطهم فى ذلك ﴿ فلا يستطيعون ﴾ لزوال القدرة عليه وفيه دلالة على أنهم يقصدون

السجود فلا يتأتى منهم ذلك عن ابن مسعود رضى الله عنه تعقم أصلابهم أى ترد عظاما بلا تفاصل لا تنثنى عند الرفع والخفض وفى الحديث وتبقى أصلابهم طبقاً واحداً أى فقارة واحدة ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ حال من مرفوع يدعون على أن أبصارهم مرتفع به على الفاعلية ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها ﴿ ترهقهم ﴾ تلحقهم وتغشاهم ﴿ ذلة ﴾ شديدة ﴿ وكانوا يدعون إلى السجود ﴾ فى الدنيا والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التقرير أو لأن المراد به الصلاة أو ما فيها من السجود والدعوة دعوة التكليف ﴿ وهم سالمون ﴾ متمكنون منه أقوى تمكن أى فلا يجيبون إليه ويأبونه وإنما ترك ذكره ثقة بظهوره .

﴿ فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ أى كله إلى فإنى أكفيك أمره أى أى حسبك فى الإيقاع به والانتقام منه أن تكل أمره إلى وتخلى بينى وبينه فإنى عالم بما يستحقه من العذاب ومطيق له والفاء لترتيب الأمر على ما قبلها من أحوالهم المحكية أى وإذا كان حالهم فى الآخرة كذلك فذرنى ومن يكذب بهذا القرآن وتوكل على فى الانتقام منه وقوله تعالى : ﴿ سنستدرجهم ﴾ استئناف مسوق لبيان كيفية التعذيب المستفاد من الأمر السابق إجمالا والضمير لمن والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فى يكذب باعتبار لفظها أى سنستنزلهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإحسان وإدامة الصحة وازدياد النعمة ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ أنه استدراج وهو الإنعام عليهم بل يزعمون أنه إيثار لهم وتفضيل على المؤمنين مع أنه سبب لهلاكهم ﴿ وأملى لهم ﴾ وأمهلهم ليزدادوا إثما وهم يزعمون أن ذلك لإرادة الخير بهم ﴿ إن كيدى متين ﴾ لا يوقف عليه ولا يدفع بشىء وتسمية ذلك كيداً لكونه فى صورة الكيد ﴿ أم تسألهم ﴾ على الإبلاغ والإرشاد ﴿ أجراً ﴾ دنيويا ﴿ فهم ﴾ لأجل ذلك ﴿ من مغرم ﴾ أى غرامة مالية ﴿ مثقلون ﴾ مكلفون حملا ثقيلا فيعرضون عنك ﴿ أم عندهم الغيب ﴾ أى اللوح أو المغيبات ﴿ فهم يكتبون ﴾ منه ما يحكمون ويستغنون به عن علمك ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم

﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ أي يونس عليه السلام ﴿ إذ نادى ﴾ فى بطن الحوت ﴿ وهو مكظوم ﴾ مملوء غيظا والجملة حال من ضمير نادى وعليها يدور النهى لا على النداء فإنه أمر مستحسن ولذلك لم يذكر المنادى وإذ منصوب بمضاف محذوف أى لا يكن حالك كحاله وقت ندائه أى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائه .

﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه ﴾ وقرىء رحمة وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه وحسن تذكير الفعل للفصل بالضمير وقرىء تداركته وتداركه أى أى تتداركه على حكاية الحال الماضية بمعنى لولا أن كان يقال فيه تتداركه ﴿ لنبذ بالعراء ﴾ بالأرض الخالية من الأشجار ﴿ وهو مذموم ﴾ مليم مطرود من الرحمة والكرامة وهو حال من مرفوع نبذ عليها يعتمد جواب لولا لأنها هى المنفية لا النبذ بالعراء كما مر فى الحال الأولى والجملة الشرطية استئناف وإن لبيان كون المنهى عنه أمرا محذورا مستتبعا للغائلة وقوله تعالى : ﴿ فاجتباه ربه ﴾ عطف على مقدر أى فتداركته نعمة من ربه فاجتباه بأن رد إليه الوحى وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون وقيل استنبأه إن صح أنه لم يكن نبيا قبل هذه الواقعة ﴿ فجعله من الصالحين ﴾ من الكاملين فى الصلاح بأن عصمه من أن يفعل فعلا يكون تركه أولى . روى أنها نزلت بأحد حين هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو على المنهزمين من المؤمنين وقيل حين أراد أن يدعو على ثقيف ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ وقرىء ليزلقونك بفتح الياء من زلقه بمعنى أزلقه ويزهقونك وإن هى المخففة واللام دليلها والمعنى أنهم من شدة عداوتهم لك ينظرون إليك شزرا بحيث يكادون يزلون قدمك فيرمونك من قولهم نظرا يكاد يصرعنى أى لو أمكنه بنظره الصرع لفعله أو أنهم يكادون يصيبونك بالعين إذ قد روى أنه كان فى بنى أسد عيانون فأراد بعضهم أن يعين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وفى الحديث إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر ولعله من خصائص بعض النفوس وعن الحسن دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية ﴿ لما سمعوا الذكر ﴾

أى وقت سماعهم بالقرآن على أن لما ظرفية منصوبة بيزلقونك وذلك لاشتداد بغضهم وحسدهم عند سماعه ﴿ ويقولون ﴾ لغاية حيرتهم فى أمره عليه الصلاة والسلام ونهاية جهلهم بما فى تضاعيف القرآن من تعاجيب الحكم وبدائع العلوم المحجوبة عن العقول المنغمسة بأحكام الطبائع ولتنفير الناس عنه ﴿ إنه لمجنون ﴾ وحيث كان مدار حكمهم الباطل ماسمعوه منه عليه الصلاة والسلام رد ذلك ببيان علو شأنه وسطوع برهانه فقيل ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ على أنه حال من فاعل يقولون مفيدة لغاية بطلان قولهم وتعجيب السامعين من جرأتهم على تفوه تلك العظيمة أى يقولون ذلك والحال أنه ذكر للعالمين أى تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم فأين من أنزل عليه ذلك وهو مطلع على أسراره طرا ومحيط بجميع حقائقه خبرا بما قالوا وقيل معناه شرف وفضل لقوله تعالى وإنه لذكر لك ولقومك وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكونه مذكرا وشرفا للعالمين لا ريب فيه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن الله أخلاقهم .

* * *

سورة الحاقة

مكية ، وآيها إحدى وخمسون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الحاقة ﴾ أى الساعة أو الحالة الثابتة الوقوع الواجبة المجىء لا محالة أو التى يحق فيها الأمور الحقة من لحساب والثواب والعقاب أو التى تحق فيها الأمور أى تعرف على الحقيقة من حقه يحقه إذا عرف حقيقته جعل الفعل لها مجازا وهو لما فيها من الأمور أو لمن فيها من أولى العلم وأياما كان فحذف الموصوف للايذان بكمال ظهور اتصافه بهذه الصفة وجريانها مجرى الإسم وارتفاعها على الابتداء خبرها ﴿ ما الحاقة ﴾ على أن ما مبتدأ ثان والحاقة خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول والأصل ما هى أى أى شىء هى فى حالها وصفتها فإن ما قد يطلب بها الصفة والحال فوضع الظاهر موضع المضمر تأكيدا لهو لها هذا ما ذكروه فى إعراب هذه الجملة ونظائرها وقد سبق فى سورة الواقعة أن مقتضى التحقيق أن تكون ما الاستفهامية خبرا لما بعدها فإن مناط الإفادة بيان أن الحاقة أمر بديع[1] وخطب فظيع كما يفيده كون ما خبرا لا بيان أن أمرا بديعا الحاقة كما يفيده كونها مبتدأ وكون الحاقة خبرا وقوله تعالى : ﴿ وما أدرك ﴾ أى وأى شىء أعلمك ﴿ ما الحاقة ﴾ تأكيد لهولها وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات على معنى أن عظم شأنها ومدى هولها وشدتها بحيث لا تكاد تبلغه دراية أحد ولا وهمه وكيفما قدرت حالها فهى أعظم من ذلك وأعظم فلا يتسنى الإعلام وما فى حيز الرفع على الابتداء وأدراك خبره ولا مساغ ههنا للعكس وما الحاقة جملة من مبتدأ وخبر على الوجه الذى عرفته محلها النصب على إسقاط الخافض لأن أدرى يتعدى إلى

(١) أى غاية فى الابداع والاختراع .

المفعول الثانى بالباء كما فى قوله تعالى (ولا أدراكم به) فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت فى موضع المفعول الثانى والجملة الكبيرة معطوفة على ماقبلها من الجملة الواقعة خبرا لقوله تعالى الحاقة مؤكدة لهولها كما مر ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ أى بالحالة التى تقرع الناس بفنون الأفزاع والأهوال والسماء بالانشقاق والانفطار والأرض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار ووضعها موضع ضمير الحاقة للدلالة على معنى القرع فيها تشديدا لهولها والجملة استئناف مسوق لإعلام بعض أحوال الحاقة له عليه الصلاة والسلام إثر تقرير أنه ما أداره عليه الصلاة والسلام بها أحد كما فى قوله تعالى (وماأدراك ما هيه نار حامية) ونظائره خلا أن المبين هناك نفس المسئول عنها وههنا حال من أحوالها كما فى قوله تعالى (وما أدراك ماليم القدر ليلة القدر خير من ألف شهر) فكما أن المبين هناك ليس نفس ليلة القدر بل فضلها وشرفها كذلك المبين ههنا هول الحاقة وعظم شأنها وكونها بحيث يحق إهلاك من يكذب بها كأنه قيل وما أدراك ماالحاقة كذبت بها ثمود وعاد فأهلكوا ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ أى بالواقعة المجاوزة للحد وهى الصيحة أو الراجفة ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر ﴾ أى شديدة الصوت لها صرصرة أوشديدة البرد تحرق ببردها ﴿ عاتية ﴾ شديدة العصف كأنها عتت على خزانها فلم يتمكنوا من ضبطها أو على عاد فلم يقدروا على ردها وقوله تعالى ﴿ سخرها عليهم ﴾ الخ استئناف جىء به بيانا لكيفية إهلاكهم بالريح أى سلطها الله عليهم بقدرته القاهرة ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾ أى متتابعات جمع حاسم كشهود جمع شاهد من حسمت الدابة إذا تابعت بين كيها أو نحسات حسمت كل خير واستأصلته أوقاطعات قطعت دابرهم ويجوز أن يكون مصدرا منتصبا على العلة بمعنى قطعاً أوعلى المصدر لفعله المقدر حالا أى تحسمهم حسوما ويؤيده القراءة بالفتح وهى كانت أيام العجوز من صبيحة أربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر وإنما سميت عجوزا لأن عجوزاً من عاد توارت فى سرب فانتزعتها الريح فى اليوم الثامن فأهلكتها وقيل هى أيام العجز وهى آخر الشتاء وأسماؤها الصن

والصنبر والوبر والآمر والمؤتمر والمعلل ومطفىء الجمر وقيل ومكفىء الظعن ﴿ فترى القوم ﴾ إن كنت حاضرا حينئذ ﴿ فيها ﴾ فى مهابها أو فى تلك الليالى والأيام ﴿ صرعى ﴾ موتى جمع صريع ﴿ كأنهم أعجاز نخل ﴾ أى أصول نخل ﴿ خاوية ﴾ متآكلة الأجواف .

﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ أى بقية أو نفس باقية أو بقاء على أنها مصدر كالكاذبة والطاغية ﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ أى ومن تقدمه وقرىء ومن قبله أى ومن عنده من أتباعه ويؤيده أنه قرىء ومن معه ﴿ والمؤتفكات ﴾ أى قرى قوم لوط أى أهلها ﴿ بالخاطئة ﴾ بالخطأ أو بالفعلة أو الأفعال ذات الخطأ التى من جملتها تكذيب البعث والقيامة ﴿فعصوا رسول ربهم﴾ أى فعصى كل أمة رسولها حين نهوهم عما كانوا يتعاطونه من القبائح ﴿ فأخذهم ﴾ أى الله عز وجل ﴿ أخذة رابية ﴾ أى زائدة فى الشدة كما زادت قبائحهم فى القبح من ربا الشىء إذا زاد ﴿ إنا لما طغا الماء ﴾ بسبب إصرار قوم نوح على فنون الكفر والمعاصى ومبالغتهم فى تكذيبه عليه الصلاة[1] والسلام فيما أوحى إليه من الأحكام التى من جملتها أحوال القيامة ﴿ حملناكم ﴾ أى فى أصلاب آبائكم ﴿ فى الجارية ﴾ فى سفينة نوح عليه السلام والمراد بحملهم فيها رفعهم فوق الماء إلى انقضاء أيام الطوفان لا مجرد رفعهم إلى السفينة كما يعرب عنه كلمة فى فإنها ليست بصلة للحمل بل متعلقة بمحذوف هو حال من مفعوله أى رفعناكم فوق الماء وحفظناكم حال كونكم فى السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا وفيه تنبيه على أن مدار نجاتهم محض عصمته تعالى إنما السفينة سبب صورى ﴿ لنجعلها ﴾ أى لنجعل الفعلة التى هى عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين ﴿ لكم تذكرة ﴾ عبرة ودلالة على كمال قدرة الصانع وحكمته وقوة قهره وسعة رحمته ﴿ وتعيها ﴾ أى تحفظها والوعى أن تحفظ الشىء فى نفسك والإيعاء أن تحفظه فى غير نفسك من وعاء وقرىء تعيها بسكون العين تشبيها له بكتف ﴿ أذن

(١) من ١١ : سقطت .

واعية ﴾ أى أذن من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه بتذكره وإشاعته والتفكر فيه ولا تضيعه بترك العمل به والتنكير للدلالة على قلتها وأن من هذا شأنه مع قلته يتسبب لنجاة الجم الغفير وإدامة نسلهم وقرىء أذن بالتخفيف ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ﴾ شروع فى بيان نفس الحاقة وكيفية وقوعها إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها وإنما حسن إسناد الفعل إلى المصدر لتقييده وحسن تذكيره للفصل وقرىء نفخة واحدة بالنصب على إسناد الفعل إلى الجار والمجرور والمراد بها النفخة الأولى التى عندها خراب العالم ﴿ وحملت الأرض والجبال ﴾ أى وقلعت ورفعت من أماكنها بمجرد القدرة الإلهية أو بتوسط الزلزلة أو الريح العاصفة ﴿ فدكتا دكة واحدة ﴾ أى فضربت الجملتان إثر رفعهما بعضها ببعض ضربة واحدة حتى تندق وترجع كثيبا مهيلا وهباء منبثا وقيل فبسطتا بسطة واحدة فصارتا قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا من قولهم اندك السنام إذا تفرش وبعير أدك وناقة دكاء ومنه الدكان ﴿ فيومئذ ﴾ فحينئذ ﴿ وقعت الواقعة ﴾ أى قامت القيامة ﴿ وانشقت السماء ﴾ لنزول الملائكة ﴿ فهى ﴾ أى السماء ﴿ يومئذ واهية ﴾ ضعيفة مسترخية بعد ما كانت محكمة ﴿ والملك ﴾ أى الخلق المعروف بالملك ﴿ على أرجائها ﴾ أى جوانبها جمع رجا بالقصر أى تنشق السماء التى هى مساكنهم فيلجأون إلى أكنافها وحافاتها .

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم ﴾ فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء أو فوق الثمانية ﴿ يومئذ ثمانية ﴾ من الملائكة عن النبي عليه الصلاة والسلام هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرين فيكونون ثمانية وروى ثمانية أملاك أرجلهم فى تخوم الأرض السابعة والعرش فوق رؤسهم وهم مطرقون مسبحون وقيل بعضهم على صورة الإنسان وبعضهم على صورة الثور وبعضهم على صورة النسر وروى ثمانية أملاك فى خلق الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاما وعن شهر بن حوشب أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك وأربعة يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك وعن الحسن الله أعلم أثمانية أم ثمانية

آلاف وعن الضحاك ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ويجوز أن يكون الثمانية من الروح أو من خلق آخر وقيل هو تمثيل لعظمته تعالى بما يشاهد من أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العام لكونها أقصى ما يتصور من العظمة والجلال وإلا فشئونه سبحانه أجل من كل ما يحيط به فلك العبارة والإشارة ﴿ يومئذ تعرضون ﴾ أى تسألون وتحاسبون عبر عنه بذلك تشبيها له بعرض السلطان العسكر لتعرف أحوالهم . روى أن فى يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ وأما الثالثة ففيها تنشر الكتب فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك بشماله وهذا وإن كان بعد النفخة الثانية لكن لما كان اليوم اسما لزمان متسع يقع فيه النفختان والصعقة والنشور والحساب وإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار صح جعله ظرفا للكل ﴿ لا تخفى منكم خافية ﴾ حال من مرفوع تعرضون أى تعرضون غير خاف عليه تعالى سر من أسراركم قبل ذلك أيضا وإنما العرض لإفشاء الحال والمبالغة فى العدل أو غير خاف يومئذ على الناس كقوله تعالى يوم تبلى السرائر وقرىء يخفى بالياء التحتانية ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه ﴾ تفصيل لأحكام العرض ﴿ فيقول ﴾ تبجحا وابتهاجا .

﴿ هاؤم اقرؤا كتابيه ﴾ ها اسم لخذ وفيه ثلاث لغات أجودهن هاء يارجل وهاء ياامرأة وهاؤما يارجلان أو امرأتان وهاؤون يارجال وهاؤن يانسوة ومفعوله محذوف وكتابيه مفعول اقرؤا لأنه أقرب العاملين ولأنه لو كان مفعول هاؤم لقيل اقرؤه إذ الأولى إضماره حيث أمكن والهاء فيه وفى حسابيه وماليه وسلطانيه للسكت تثبت فى الوقف وتسقط فى الوصل واستحب إثباتها لثباتها فى الإمام ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ﴾ أى علمت ولعل التعبير عنه بالظن للإشعار بأنه لا يقدح فى الاعتقاد ما يهجس فى النفس من الخطرات التى لا ينفك عنها العلوم النظرية غالبا ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾ ذات رضا على النسبة بالصيغة كما يقال دارع فى النسبة بالحرف أو جعل لها مجازا وهو لصاحبها وذلك لكونها صافية عن الشوائب دائمة مقرونة بالتعظيم ﴿ فى جنة عالية ﴾

مرتفعة المكان لأنها فى السماء أو الدرجات او الأبنية والأشجار ﴿ قطوفها ﴾ جمع قطف وهو ما يجتنى بسرعة والقطف بالفتح مصدر ﴿ دانية ﴾ يتناولها القاعد ﴿ كلوا واشربوا ﴾ بإضمار القول والجمع باعتبار المعنى ﴿ هنيئا ﴾ أكلا وشربا هنيئا أو هنئتم هنيئا ﴿ بما أسلفتم ﴾ بمقابلة ما قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿ فى الأيام الخالية ﴾ أى الماضية فى الدنيا وعن مجاهد أيام الصيام وروى يقول الله تعالى « يا أوليائى طالما نظرت إليكم فى الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة وغارت أعينكم وخمصت بطونكم فكونوا اليوم فى نعيمكم وكلوا واشربوا » الآية ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله ﴾ ورأى ما فيه من قبائح الأعمال ﴿ فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ﴾ لما شاهد من سوء العاقبة ﴿ ياليتها ﴾ ياليت الموتة التى متها ﴿ كانت القاضية ﴾ أى القاطعة لأمرى ولم أبعث بعدها ولم ألق ما ألق فضمير ليتها للموتة ويجوز أن يكون لما شاهده من الحالة أى ياليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضت على لما أنه وجدها أمر من الموت فتمناه عندها وقد جوز أن يكون للحياة الدنيا أى ياليت الحياة الدنيا كانت الموتة ولم أخلق حيا ﴿ ما أغنى عنى ماليه ﴾ مالى من المال والأتباع على أن ما نافية والمفعول محذوف أو استفهامية للإنكار أى أى شىء أغنى عنى ما كان لى من اليسار ﴿ هلك عنى سلطانيه ﴾ أى ملكى وتسلطى على الناس أو حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا أو تسلطى على القوى والآلات فعجزت على استعمالها فى العبادات ﴿ خذوه ﴾ حكاية لما يقوله الله تعالى يومئذ لخزنة النار ﴿ فغلوه ﴾ أى شدوه بالأغلال .

﴿ ثم الجحيم صلوه ﴾ أى لاتصلوه إلا الجحيم وهى النار العظيمة ليكون الجزاء على وفق المعصية حيث كان يتعاظم على الناس ﴿ ثم فى سلسلة ذرعها ﴾ أى طولها ﴿ سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾ فأدخلوه فيها بأن تلفوها على جسده فهو فيما بينها مرهق لا يستطيع حرا كاما وتقديم السلسلة كتقديم الجحيم للدلالة على الاختصاص والاهتمام بذكر ألوان ما يعذب به وثم لتفاوت ما بين الغل

والتصلية وما بينهما وبين السلك فى السلسلة فى الشدة ﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ﴾ تعليل بطريق الاستئناف التحقيق ووصفه تعالى بالعظم للإيذان بأنه المستحق للعظمة فحسب فمن نسبها إلى نفسه استحق أعظم العقوبات ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ ولا يحث على بذل طعامه أو على إطعامه فضلا أن يبذل من ماله وقيل ذكر الحض للتنبيه على أن تارك الحض بهذه المنزلة فما ظنك بتارك الفعل وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع فى حق المؤاخذة قالوا تخصيص الأمرين بالذكر لما أن أقبح العقائد الكفر وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب ﴿ فليس له اليوم ههنا حميم ﴾ أى قريب يحميه ويدفع عنه ويحزن[1] عليه لأن أولياءه يتحامونه ويفرون منه ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ أى من غسالة أهل النار وصديدهم فعلين من الغسل ﴿ لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ أصحاب الخطايا من خطىء الرجل إذا تعمد الذنب لا من الخطأ المقابل للصواب دون المقابل للعمد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم المشركون وقرىء الخاطيون بإبدال الهمزة ياء وقرىء بطرحها[2] وقد جوز أن يراد بهم الذين يتخطون الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله .

﴿ فلا أقسم ﴾ أى فأقسم على أن لا مزيدة للتأكيد وأما حمله على معنى نفى الإقسام لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق فيرده تعيين المقسم به بقوله تعالى ﴿ بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ كما مر فى سورة الواقعة أى أقسم بالمشاهدات والمغيبات وقيل بالدنيا والآخرة وقيل بالأجسام والأرواح والإنس والجن والخلق والخالق والنعم الظاهرة والباطنة والأول منتظم للكل ﴿ إنه ﴾ أى القرآن ﴿ لقول رسول ﴾ يبلغه عن الله تعالى فإن الرسول لا يقول عن نفسه ﴿ كريم ﴾ على الله تعالى وهو النبى أو جبريل عليهما السلام ﴿ وما هو بقول شاعر ﴾ كما تزعمون تارة ﴿ قليلا ما تؤمنون ﴾ إيمانا قليلا تؤمنون ﴿ ولا بقول كاهن ﴾ كما تدعون ذلك تارة أخرى ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ أى تذكرا

---

(١) فى الأصل يجزن بالجيم . (٢) أى الخاطون .

قليلا أو زمانا قليلا تتذكرون على أن القلة بمعنى النفى أى لا تؤمنون ولا تتذكرون أصلا قيل ذكر الإيمان مع نفى الشاعرية والتذكر مع نفى الكاهنية لما أن عدم مشابهة القرآن الشعر أمر بين لا ينكره إلا معاند بخلاف مباينته للكهانة فإنها تتوقف على تذكر أحواله عليه الصلاة والسلام ومعانى القرآن المنافية لطريقة الكهنة ومعانى أقوالهم وأنت خبير بأن ذلك أيضاً مما لا يتوقف على تأمل قطعا وقرىء بالياء فيهما ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ نزله على لسان جبريل عليه السلام ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ﴾ سمى الإفتراء تقولا لأنه قول متكلف والأقوال المفتراة أقاويل تحقيرا لها كأنها جمع أفعولة من القول كالأضاحيك [جمع أضحوكة][1] ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أى بيمينه ﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ أى نياط قلبه بضرب عنقه وهو تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه وهو أن يأخذ القتال بيمينه ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه وقيل اليمين بمعنى القوة قال قائلهم :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

﴿ فما منكم ﴾ أيها الناس ﴿ من أحد عنه ﴾ عن القتل أو المقتول ﴿ حاجزين ﴾ دافعين وصف لأحد فإنه عام ﴿ وإنه ﴾ أى وإن القرآن ﴿ لتذكرة للمتقين ﴾ لأنهم المنتفعون به ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ فنجازيهم على تكذيبهم ﴿ وإنه لحسرة على الكافرين ﴾ عند مشاهداتهم لثواب المؤمنين ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ الذى لا يحوم حوله ريب ما ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أى فسبح بذكر اسمه العظيم تنزيها له عن الرضا بالتقول عليه وشكرا على ما أوحى إليك . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله حسابا يسيرا .

---

(١) ما بين الحاصرين سقط من الأصل

سورة المعارج
مكية ، وآيها أربع وأربعون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ سأل سائل ﴾ أى دعا داع ﴿ بعذاب واقع ﴾ أى استدعاه وطلبه وهو النضر بن الحرث حيث قال إنكارا واستهزاء إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم وقيل أبو جهل حيث قال أسقط علينا كسفا من السماء وقيل هو الحرث بن النعمان الفهرى وذلك أنه لما بلغه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى على رضى الله عنه من كنت مولاه فعلى مولاه قال اللهم إن كان ما يقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء فما لبث حتى رماه الله تعالى بحجر فوقع على دماغه فخرج من أسفله فهلك من ساعته وقيل هو الرسول عليه الصلاة والسلام استعجل عذابهم وقرىء سال وهو إما من السؤال على لغة قريش فالمعنى ما مر أو من السيلان ويؤيده أنه قرىء سال سيل أى اندفع واد بعذاب واقع وصيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه إما فى الدنيا وهو عذاب يوم بدر فإن النضر قتل يومئذ صبرا وقد مر حال الفهرى وإما فى الآخرة فهو عذاب النار والله أعلم ﴿ للكافرين ﴾ صفة أخرى لعذاب أى كائن للكافرين أوصلة لواقع أو متعلق بسأل أى دعا للكافرين بعذاب واقع وقوله تعالى ﴿ ليس له دافع ﴾ صفة أخرى لعذاب أو حال منه لتخصصه بالصفة أو بالعمل أو من الضمير فى للكافرين على تقدير كونه صفة لعذاب أو استئناف ﴿ من الله ﴾ متعلق بواقع أو بدافع أى ليس له دافع من جهته تعالى ﴿ ذى المعارج ﴾ ذى المصاعد التى يصعد فيها الملائكة بالأوامر والنواهى أو هى عبارة عن السموات المترتبة بعضها فوق بعض ﴿ تعرج الملائكة والروح ﴾ أى جبريل عليه السلام أفرد بالذكر لتميزه وفضله وقيل الروح خلق هم حفظة على الملائكة كما أن الملائكة حفظة على الناس ﴿ إليه ﴾ إلى عرشه تعالى وإلى حيث تهبط منه أوامره تعالى وقيل هو من قبيل قول ابراهيم عليه السلام إنى ذاهب إلى ربى أى إلى حيث أمرنى به .

﴿ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ مما يعده الناس وهو بيان لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها على منهاج التمثيل والتخييل والمعنى أنها من الارتفاع بحيث لو قدر قطعها فى زمان لكان ذلك الزمان مقدار خمسين ألف سنة من سنى الدنيا وقيل معناه تعرج الملائكة والروح إلى عرشه تعالى فى يوم كان مقداره كمقدار خمسين ألف سنة أى يقطعون فى يوم ما يقطعه الإنسان فى خمسين ألف سنة لو فرض ذلك وقيل فى يوم متعلق بواقع وقيل بسال على تقدير كونه من السيلان فالمراد به يوم القيامة واستطالته إما لأنه كذلك فى الحقيقة أو لشدته على الكفار أو لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات وأيا ما كان فذلك فى حق الكافر وأما فى حق المؤمن فلا لما روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أطول هذا اليوم فقال عليه الصلاة والسلام « والذى نفسى بيده انه ليخف على المؤمن حتى أنه يكون أخف من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » وقوله تعالى :

﴿ فاصبر صبرا جميلا ﴾ متعلق بسأل لأن السؤال كان عن استهزاء وتعنت وتكذيب بالوحى وذلك مما يضجره عليه الصلاة والسلام أو كان عن تضجر واستبطاء للنصر أو بسأل سائل أو سال سيل فمعناه جاء العذاب لقرب وقوعه فقد شارفت الإنتقام ﴿ إنهم يرونه ﴾ أى العذاب الواقع أو يوم القيامة على تقدير تعلق فى يوم بواقع ﴿ بعيدا ﴾ أى يستبعدونه بطريق الإحالة فلذلك يسألون به ﴿ ونراه قريبا ﴾ هينا فى قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر على أن البعد والقرب معتبران بالنسبة إلى الإمكان والجملة تعليل للأمر بالصبر وقوله تعالى ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ متعلق بقريبا أى يمكن ولا يتعذر فى ذلك اليوم أو بمضمر دل عليه واقع أو بمضمر مؤخر أى يوم تكون السماء كالمهل الخ يكون من الأحوال والأهوال ما لا يوصف أو بدل من فى يوم على تقدير تعلقه بواقع هذا ما قالوا ولعل الأقرب أن قوله تعالى سأل سائل حكاية لسؤالهم المعهود على طريقة قوله تعالى (يسألونك عن الساعة) وقوله تعالى (ويقولون متى هذا الوعد) ونحوهما إذ هو المعهود بالوقوع على الكافرين لا مادعا به النضر

أو أبو جهل أو الفهرى فالسؤال بمعناه والباء بمعنى عن كما فى قوله تعالى (فاسأل به خبيرا) وقوله تعالى (ليس له دافع) الخ استئناف مسوق لبيان وقوع المسؤل عنه لا محالة وقوله تعالى (فاصبر صبرا جميلا) مترتب عليه وقوله تعالى (انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) تعليل للأمر بالصبر كما ذكر وقوله تعالى (يوم تكون) الخ متعلق بليس له دافع أو بما يدل هو عليه أى يقع يوم تكون السماء كالمهل وهو ما أذيب على مهل من الفلزات وقيل دردى الزيت (١) ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ كالصوف المصبوغ ألوانا لاختلاف ألوان الجبال منها (جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) فاذا بست وطيرت فى الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿ ولا يسأل حميم حميما ﴾ أى لا يسأل قريب قريبا عن أحواله ولا يكلمه لابتلاء كل منهم بما يشغله عن ذلك وقرىء على البناء للمفعول أى لا يطلب من حميم حميم أو لا يسأل منه حالة ﴿ يبصرونهم ﴾ أى يبصر الأحماء الأحماء فلا يخفون عليهم وما يمنعهم من التساؤل إلا تشاغلهم بحال أنفسهم وقيل ما يغنى عنه من مشاهدة الحال كبياض الوجه وسواده والأول أدخل فى التهويل وجمع الضميرين لعموم الحميم وقرىء يبصرونهم والجملة استئناف ﴿ يود المجرم ﴾ أى يتمنى الكافر وقيل كل مذنب وقوله تعالى ﴿ لو يفتدى من عذاب يومئذ ﴾ أى العذاب الذى ابتلوا به يومئذ ﴿ ببنيه وصاحبته وأخيه ﴾ حكاية لودادتهم ولو فى معنى التمنى وقيل هى بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولا ليود والتقدير يود افتداءه ببنيه الخ والجملة استئناف لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حيث يتمنى أن يفتدى بأقرب الناس إليه وأعلقهم بقلبه فضلا أن يهتم بحاله ويسأل عنها وقرىء يومئذ بالفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكن وبتنوين عذاب ونصب يومئذ وانتصابه بعذاب لأنه فى معنى تعذيب .

---

(١) وقيل : الصديد ومنه حديث أبى بكر رضى الله عنه حينما أوصى أن يدفن فى ثوب قديم قال : « إنما ذاك للمهل » رواه أحمد فى الزهد .

﴿وفصيلته﴾ أى عشيرته التى فصل عنهم ﴿التى تؤويه﴾ أى تضمنه فى النسب أو عند الشدائد ﴿ومن فى الأرض جميعا﴾ من الثقلين والخلائق ومن للتغليب ﴿ثم ينجيه﴾ عطف على يفتدى أى يود لو يفتدى ثم لو ينجيه الافتداء وثم لاستبعاد الإنجاء يعنى يتمنى لو كان هؤلاء جميعا تحت يده وبذلهم فى فداء نفسه ثم ينجيه ذلك وهيهات ﴿كلا﴾ ردع للمجرم عن الودادة وتصريح بامتناع انجاء الافتداء وضمير « إنها » إما للنار المدلول عليها بذكر العذاب أو هو مبهم ترجم عنه الخبر الذى هو قوله تعالى ﴿لظى﴾ وهى علم للنار منقول من اللظى بمعنى اللهب ﴿نزاعة للشوى﴾ نصب على الاختصاص أو حال مؤكدة والشوى الأطراف أو جمع شواة وهى جلدة الرأس وقرىء نزاعة بالرفع على أنه خبر ثان لأن أو هو الخبر ولظى بدل من الضمير أو الضمير للقصة ولظى مبتدأ ونزاعة خبره ﴿تدعو﴾ أى تجذب وتحضر وقيل تدعو وتقول لهم إلى إلى يا كافر يا منافق وقيل تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح ثم تلتقطهم التقاط الحب وقيل تدعو تهلك وقيل تدعو زبانيتها ﴿من أدبر﴾ أى عن الحق ﴿وتولى﴾ أعرض عن الطاعة ﴿وجمع فأوعى﴾ أى جمع المال فجعله فى وعاء وكنزه ولم يؤد زكاته وحقوقه وتشاغل به عن الدين وزهى باقتنائه حرصا وتأميلا ﴿إن الإنسان خلق هلوعا﴾ الهلع سرعة الجزع عند مس المكروه وسرعة المنع عند مس الخير وقد فسره أحسن تفسير قوله تعالى ﴿إذا مسه الشر﴾ أى الفقر والمرض ونحوهما ﴿جزوعا﴾ أى مبالغا فى الجزع مكثرا منه ﴿وإذا مسه الخير﴾ أى السعة والصحة ﴿منوعا﴾ مبالغا فى المنع والإمساك والأوصاف الثلاثة أحوال مقدرة أو محققة لأنها طبائع جبل الإنسان عليها وإذا الأولى ظرف لجزوعا والثانية لمنوعا ﴿إلا المصلين﴾ استثناء للمتصفين بالنعوت الجليلة الآتية من المطبوعين على القبائح الماضية لأنباء نعوتهم عن الاستغراق فى طاعة الحق والإشفاق على الخلق والإيمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وإيثار الآجل على العاجل على خلاف القبائح المذكورة الناشئة من الانهماك فى حب العاجلة وقصر النظر عليه .

﴿ الذين هم على صلوتهم دائمون ﴾ لا يشغلهم عنها شاغل ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم ﴾ أى نصيب معين يستوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله تعالى وإشفاقا على الناس من الزكاة المفروضة والصدقات الموظفة ﴿ للسائل ﴾ للذى يسأله ﴿ والمحروم ﴾ الذى لا يسأله فيظن أنه غنى فيحرم ﴿ والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ أى بأعمالهم حيث يتعبون أنفسهم فى الطاعات البدنية والماليه طمعا فى المثوبة الأخروية بحيث يستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ خائفون على أنفسهم مع ما لهم من الأعمال الفاضلة استقصارا لها واستعظاما لجنابه عز وجل كقوله تعالى (والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) وقوله تعالى ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ اعتراض مؤذن بأنه لا ينبغى لأحد أن يأمن عذابه تعالى وإن بالغ فى الطاعة ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ سلف تفسيره فى سورة المؤمنين ﴿ فمن ابتغى ﴾ أى طلب لنفسه ﴿ وراء ذلك ﴾ وراء ما ذكر من الأزواج والمملوكات ﴿ فأولئك ﴾ المبتغون ﴿ هم العادون ﴾ المتعدون لحدود الله تعالى ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ لا يخلون بشىء من حقوقها ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ أى مقيمون لها بالعدل إحياء لحقوق الناس وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فى الأمانات لإبانة فضلها وقرىء لأمانتهم وبشهادتهم على إرادة الجنس ﴿ والذين هم على صلوتهم يحافظون ﴾ أى يراعون شرائطها ويكملون فرائضها وسننها ومستحباتها وآدابها وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولا وآخرا باعتبارين للدلالة على فضلها وإنافتها على سائر الطاعات وتكرير الموصولات لتنزيل اختلاف الصفات منزلة اختلاف الذوات كما فى قول من قال :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب فى المزدحم

إيذانا بأن كل واحد من الأوصاف المذكورة نعت جليل على حياله له شأن

خطير مستتبع لأحكام جمة حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شيء منها تتمة للآخر ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصوفين بما ذكر من الصفات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليهم للإيذان بعلو شأنهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ خبره ﴿ فى جنات ﴾ أى مستقرون فى جنات لا يقادر قدرها ولا يدرك كنهها وقوله تعالى ﴿ مكرمون ﴾ خبر آخر أو هو الخبر وفى جنات متعلق به قدم عليه لمراعاة الفواصل أو بمضمر هو حال من الضمير فى الخبر أى مكرمون كائنين فى جنات .

﴿فما للذين كفروا قبلك﴾ حولك ﴿مهطعين﴾ مسرعين نحوك مادى أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ أى فرقا شتى جمع عزة وأصلها عزوة من العز وكأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى كان المشركون يحلقون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حلقا حلقا وفرقا فرقا ويستهزئون بكلامه عليه الصلاة والسلام ويقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزلت(١) ﴿ أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ بلا إيمان ﴿ كلا﴾ ردع لهم عن ذلك الطمع الفارغ ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ قيل هو تعليل للردع والمعنى إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون كما فى قول الأعشى :

أأزمعت من آل ليلى ابتكارا   وشطت على ذى هوى أن تزارا

وهو تكميل النفس بالإيمان والطاعة فمن لم يستكملها بذلك فهو بمعزل من أن يبوأ مبوأ الكاملين فمن أين لهم أن يطمعوا فى دخول الجنة وهم مكبون على الكفر والفسوق وإنكار البعث وقيل معناه إنا خلقناهم مما يعلمون من نطفة مذرة فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم ويقولون لندخلن الجنة قبلهم وقيل إنهم مخلوقون من نطفة قذرة لا تناسب عالم القدس فمتى لم تستكمل الإيمان والطاعة ولم تتخلق بالأخلاق الملكية لم تستعد لدخولها ولا يخفى ما فى الكل

---

(١) انظر إرشاد الرحمن الأجهورى لمعرفة روايات أخرى.

من التمحل والأقرب أنه كلام مستأنف قد سيق تمهيدا لما بعده من بيان قدرته تعالى على أن يهلكهم لكفرهم بالبعث والجزاء واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما نزل عليه من الوحى وادعائهم دخول الجنة بطريق السخرية وينشىء بدلهم قوما آخرين فإن قدرته تعالى على ما يعلمون من النشأة الأولى حجة بينة على قدرته تعالى على ذلك كما يفصح عنه الفاء الفصيحة فى قوله تعالى ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ والمعنى إذا كان الأمر كما ذكر من أنا خلقناهم مما يعلمون فأقسم برب المشارق والمغارب ﴿ إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم ﴾ أى نهلكهم بالمرة حسبما تقتضيه جناياتهم ونأتى بدلهم بخلق آخرين ليسوا على صفتهم ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ بمغلوبين إن أردنا ذلك لكن مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة اقتضت تأخير عقوباتهم ﴿ فذرهم ﴾ نخلهم وشأنهم ﴿ يخوضوا ﴾ فى باطلهم الذى من جملته ما حكى عنهم ﴿ ويلعبوا ﴾ فى دنياهم ﴿ حتى يلاقو يومهم الذى يوعدون ﴾ وهو يوم البعث عند النفخة الثانية لا يوم النفخة الأولى كما توهم فإن قوله تعالى ﴿ يوم يخرجون من الأجداث ﴾ بدل من يومهم وقرىء يخرجون على البناء للمفعول من الإخراج ﴿ سراعا ﴾ حال من مرفوع يخرجون أى مسرعين ﴿ كأنهم إلى نصب ﴾ وهو كل ما نصب فعبد من دون الله تعالى وقرىء بسكون الصاد وبفتح النون وسكون الصاد أيضا ﴿ يوفضون ﴾ يسرعون ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ وصفت أبصارهم بالخشوع مع أنه وصف الكل لغاية ظهور آثاره فيها ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ تغشاهم ذلة شديدة ﴿ ذلك ﴾ الذى ذكر ما سيقع فيه من الأحوال الهائلة ﴿ اليوم الذى كانوا يوعدون ﴾ فى الدنيا . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة سأل سائل أعطاه الله ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون .

* * *

سورة نوح عليه السلام

مكية ، وآيها تسع أو ثمان وعشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك ﴾ أى بأن أنذرهم على أن أن مصدرية حذف منها الجار وأوصل إليها الفعل فإن حذفه مع أن وإن مطرد وجعلت صلتها أمرا كما فى قوله تعالى (وأن أقم وجهك) لأن مدار وصلها بصيغ الأفعال دلالتها على المصدر وذلك لا يختلف بالخبرية والإنشائية ووجوب كون الصلة خبرية فى الموصول الاسمى إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجمل وهى لا توصف إلا بالجمل الخبرية وليس الموصول الحرفى كذلك وحيث استوى الخبر والإنشاء فى الدلالة على المصدر استويا فى صحة الوصل بهما فيتجرد عند ذلك كل منهما عن المعنى الخاص بصيغته فيبقى الحدث المجرد عن معنى الأمر والنهى والمضى والاستقبال كأنه قيل أرسلناه بالإنذار وقيل المعنى أرسلناه بأن قلنا له أنذر أى أرسلناه بالأمر بالإنذار ويجوز أن تكون أن مفسرة لما فى الإرسال من معنى القول فلا يكون للجملة محل من الإعراب وعلى الأول محلها النصب عند سيبويه والفراء والجر عند الخليل والكسائى كما هو المعروف وقرىء أنذر بغير أن على إرادة القول ﴿ من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ﴾ عاجل أو آجل لئلا يبقى لهم عذر ما أصلا ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية إرساله عليه الصلاة والسلام بالوجه المذكور كأنه قيل ما فعل عليه الصلاة والسلام فقيل قال لهم ﴿ ياقوم إنى لكم نذير مبين ﴾ منذر موضح لحقيقة الأمر ، وقوله تعالى ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ متعلق بنذير على الوجهين المذكورين ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أى بعض ذنوبكم وهو ما سلف فى الجاهلية فإن الإسلام يجبه ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ هو الأمد الأقصى الذى قدره الله تعالى لهم بشرط الإيمان والطاعة وراءماقدره

لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان فإن وصف الأجل بالمسمى وتعليق تأخيرهم إليه بالإيمان والطاعة صريح فى أن لهم أجلا آخر لا يجاوزونه إن لم يؤمنوا وهو المراد بقوله تعالى ﴿ إن أجل الله ﴾ أى ما قدر لكم على تقدير بقائكم على الكفر ﴿ إذا جاء ﴾ وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿ لا يؤخر ﴾ فبادروا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتى لا يتحقق شرطه الذى هو بقاؤكم على الكفر فلا يجيء ويتحقق شرط التأخير إلى الأجل المسمى فتؤخروا إليه ويجوز أن يراد به وقت إتيان العذاب المذكور فى قوله تعالى (من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) فإنه أجل موقت له حتما وحمله على الأجل الأطول مما لا يساعده المقام كيف لا والجملة تعليل للأمر بالعبادة المستتبعة للمغفرة والتأخير إلى الأجل المسمى فلا بد أن يكون المنفى عند مجيء الأجل هو التأخير الموعود فكيف يتصور أن يكون ما فرض مجيئه هو الأجل المسمى ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ أى لو كنتم تعلمون شيئاً لسارعتم إلى ما أمرتكم به .

﴿ قال ﴾ أى نوح عليه الصلاة والسلام مناجيا ربه وحاكيا له تعالى وهو أعلم بحاله ما جرى بينه وبين قومه من القيل والقال فى تلك المدد الطوال بعد ما بذل فى الدعوة غاية المجهود وجاوز فى الإنذار كل حد معهود وضاقت عليه الحيل وعيت به العلل ﴿ رب إنى دعوت قومى ﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿ ليلا ونهارا ﴾ أى دائما من غير فتور ولا توان ﴿ فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ﴾ مما دعوتهم إليه وإسناد الزيادة إلى الدعاء لسببيته لها كما فى قوله تعالى (زادتهم إيمانا) ﴿ وإنى كلما دعوتهم ﴾ أى إلى الإيمان ﴿ لتغفر لهم ﴾ بسببه ﴿ جعلوا أصابعهم فى آذانهم ﴾ أى سدوا مسامعهم من استماع الدعوة ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ أى بالغوا فى التغطى بها كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إليه أو لئلا يعرفهم فيدعوهم ﴿ وأصروا ﴾ أى أكبوا على الكفر والمعاصى مستعار من أصر الحمار على العانة إذا أصر أذنيه وأقبل عليها ﴿ واستكبروا ﴾ عن اتباعى وطاعتى ﴿ استكبارا ﴾ شديدا ﴿ ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ﴾ أى دعوتهم تارة جهرا ومرة غب

مرة على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة وثم لتفاوت الوجوه فإن الجهار أشد من الإسرار والجمع بينهما أغلظ من الإفراد أو لتراخى بعضها عن بعض وجهارا منصوب بدعوتهم على المصدر لأنه أحد نوعى الدعاء أو أريد بدعوتهم جاهرتهم أو هو صفة لمصدر اى دعوتهم دعاء جهارا أى مجاهرا به أو مصدر فى موقع الحال أى مجاهرا .

﴿ فقلت استغفروا ربكم ﴾ بالتوبة عن الكفر والمعاصى ﴿ إنه كان غفارا ﴾ للتائبين كأنهم تعللوا وقالوا إن كنا على الحق فكيف نتركه وإن كنا على الباطل فكيف يقبلنا بعد ما عكفنا عليه دهرا طويلا فأمرهم بما يمحق ما سلف منهم من المعاصى ويجلب إليهم المنافع ولذلك وعدهم بما هو أوقع فى قلوبهم وأحب إليهم من الفوائد العاجلة وقيل لما كذبوه بعد تكرير الدعوة حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة وقيل سبعين سنة فوعدهم أنهم إن آمنوا أن يرزقهم الله تعالى الخصب ويدفع عنهم ما كانوا فيه ﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ أى كثير الدرور والمراد بالسماء المظلة أو السحاب ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ﴾ بساتين ﴿ ويجعل لكم ﴾ فيها ﴿ أنهارا ﴾ جارية ﴿ مالكم لا ترجون لله وقارا ﴾ إنكار لأن يكون لهم سبب ما فى عدم رجائهم لله تعالى وقارا على أن الرجاء بمعنى الاعتقاد ولا ترجون حال من ضمير المخاطبين والعامل فيها معنى الاستقرار فى لكم على أن الإنكار متوجه إلى السبب فقط مع تحقق مضمون الجملة الحالية لا إليهما معا كما فى قوله تعالى (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) ولله متعلق بمضمر وقع حالا من وقارا ولو تأخر لكان صفة له أى أى سبب حصل لكم حال حال كونكم غير معتقدين لله تعالى عظمة موجبة لتعظيمه بالإيمان به والطاعة له ﴿ وقد خلقكم أطوارا ﴾ أى والحال أنكم على حال منافية لما أنتم عليه بالكلية وهى أنكم تعلمون أنه تعالى خلقكم تارات عناصر ثم أغذية ثم أخلاطا ثم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ولحوما ثم أنشأكم خلقا آخر فإن التقصير فى توقير من هذه شئونه فى القدرة القاهرة والإحسان التام مع العلم بها مما

لا يكاد يصدر عن العاقل هذا وقد قيل الرجاء بمعنى الأمل أى مالكم لا تؤملون له تعالى توقيرا أى تعظيما لمن عبده وأطاعه ولا تكونون على حال تؤملون فيها تعظيم الله تعالى إياكم فى دار الثواب ولله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار والأول هو الذى تستدعيه الجزالة التنزيلية(١) فإن اللائق بحال الكفرة استبعاد أن لا يعتقدوا وقارا لله تعالى وعظمته مع مشاهدتهم لآثارها وأحكامها الموجبة للاعتقاد حتما وأما عدم رجائهم لتعظيم الله إياهم فى دار الثواب فليس فى حيز الاستبعاد والإنكار مع أن فى جعل الوقار بمعنى التوقير من التعسف وفى قوله ولله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار من التناقض ما لا يخفى فإن كونه بيانا للموقر يقتضى أن يكون التوقير صادرا عنه تعالى والوقار وصفا للمخاطبين وكونه صلة للوقار يوجب كون الوقار وصفا له تعالى وقيل مالكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أخذكم بالعقوبة أى أى عذر لكم فى ترك الخوف منه تعالى وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مالكم لا تخشون لله عقابا ولا ترجون منه ثوابا وعن مجاهد والضحاك مالكم لا تبالون لله عظمة قال قطرب هى لغة حجازية يقولون لم أرج أى لم أبال وقوله تعالى :

﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ﴾ أى متطابقة بعضها فوق بعض ﴿ وجعل القمر فيهن نورا ﴾ أى منورا لوجه الأرض فى ظلمة الليل ونسبته إلى الكل مع أنه فى السماء الدنيا لما أنها محاطة بسائر السموات فما فيها يكون فى الكل أو لأن كل واحدة منها شفافة لا تحجب ما وراءها فيرى الكل كأنها سماء واحدة ومن ضرورة ذلك أن يكون ما فى واحدة منها كأنه فى الكل ﴿ وجعل الشمس سراجا ﴾ يزيل ظلمة الليل ويبصر أهل الدنيا فى ضوئها وجه الأرض ويشاهدون الآفاق كما يبصر أهل البيت فى ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره وليس القمر بهذه المثابة إنما هو نور فى الجملة ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ﴾ أى أنشأكم منها فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث

---

(١) فى ١١ جزالة التنزيل .

والتسكون من الأرض ونباتا إما مصدر مؤكد لأنبتكم بحذف الزوائد ويسمى اسم مصدر أو لما يترتب عليه من فعله أى أنبتكم من الأرض فنبتم نباتا ويجوز أن يكون الأصل أنبتكم من الأرض إنباتا فنبتم نباتا فيحذف من الجملة الأولى المصدر ومن الثانية الفعل اكتفاء فى كل منهما بما ذكر فى الأخرى كما مر فى قوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى) وقوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) ﴿ثم يعيدكم فيها﴾ بالدفن عند موتكم ﴿ ويخرجكم ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿ إخراجا ﴾ محققاً لا ريب فيه ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطا﴾ تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم فى بيوتكم وتوسيط لكم بين الجعل ومفعوليه مع أن حقه التأخير لما مر مرارا من الاهتمام ببيان كون المجعول من منافعهم والتشويق إلى المؤخر فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لا سيما عند كون المقدم ملوحا بكونه من المنافع تبقى مترقبة له فيتمكن عند وروده لها فضل تمكن ﴿ لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ أى طرقا واسعة جمع فج وهو الطريق الواسع وقيل هو المسلك بين الجبلين ومن متعلقة بما قبلها لما فيه من معنى الاتخاذ أو بمضمر هو حال من سبلا أى كائنة من الأرض ولو تأخر لكان صفة لها .

﴿ قال نوح ﴾ أعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربه أى قال مناجيا له تعالى ﴿ رب إنهم عصونى ﴾ أى تموا على عصيانى فيما أمرتهم به مع ما بالغت فى إرشادهم بالعظة والتذكير ﴿ واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا﴾ أى واستمروا على اتباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرتهم أولادهم وصار ذلك سببا لزيادة خسارهم فى الآخرة فصاروا أسوة لهم فى الخسار وفى وصفهم بذلك إشعار بأنهم إنما اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد لما شاهدوا فيهم من شبهة مصححة للإتباع فى الجملة وقرىء وولده بالضم والسكون على أنه لغة كالحزن أو جمع كالأسد ﴿ومكروا﴾ عطف على صلة من والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فى الضمائر الأول باعتبار لفظها ﴿ مكراً كباراً ﴾ أى كبيرا فى الغاية وقرىء بالتخفيف والأول أبلغ منه وهو

أبلغ من الكبير وذلك احتيالهم فى الدين وصدهم للناس عنه وتحريشهم على أذية نوح عليه السلام ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ﴾ أى لا تتركوا عبادتها على الإطلاق إلى عبادة رب نوح ﴿ ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ أى ولا تذرن عبادة هؤلاء خصوها بالذكر مع اندراجها فيما سبق لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها قدرا[1] عندهم وقد انتقلت هذه الأصنام عنهم إلى العرب فكان ود لكلب وسواع لهمدان ويغوث لمذحج ويعوق لمراد ونسر لحمير وقيل هى أسماء رجال صالحين وكانوا بين آدم ونوح وقيل من أولاد آدم عليه السلام ماتوا فقال إبليس لمن بعدهم لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم وتتبركون بهم ففعلوا فلما مات أولئك قال لمن بعدهم إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم وقيل كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر وقرىء ودا بضم الواو ويغوثا ويعوقا للتناسب ومنع صرفهما للعجمة والعلمية ﴿ وقد أضلوا ﴾ أى الرؤساء ﴿ كثيرا ﴾ خلقا كثيرا أو الأصنام كقوله تعالى (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) .

﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾ عطف على قوله تعالى رب إنهم عصونى على حكاية كلام نوح بعد قال وبعد الواو النائبة عنه أى قال رب إنهم عصونى وقال لا تزد الظالمين إلا ضلالا ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المفرط وتعليل الدعاء عليهم به والمطلوب هو الضلال فى تمشية مكرهم ومصالح دنياهم أو الضياع والهلاك كما فى قوله تعالى (إن المجرمين فى ضلال وسعر) ويؤيده ما سيأتى من دعائه عليه الصلاة والسلام ﴿ مما خطيئاتهم ﴾ أى من أجل خطيئاتهم وما مزيدة بين الجار والمجرور للتوكيد والتفخيم ومن لم يرزيادتها جعلها نكرة وجعل خطيئاتهم بدلا منها وقرىء مما خطاياهم ومما خطياتهم أى بسبب خطيئاتهم المعدودة وغيرها من خطاياهم ﴿ أغرقوا ﴾ بالطوفان

---

(١) سقطت من الأصل .

لا بسبب آخر ﴿ فأدخلوا نارا ﴾ المراد إما عذاب القبر فهو عقيب الإغراق وإن كانوا فى الماء عن الضحاك أنهم كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب او عذاب جهنم والتعقيب لتنزيله منزلة المتعقب لإغراقهم لاقترابه وتحققه لا محالة وتنكير النار إما لتعظيمها وتهويلها أو لأنه تعالى أعد لهم على حسب خطيئاتهم نوعا من النار ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾ أى لم يجد أحد منهم واحدا من الأنصار وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى وبأنها غير قادرة على نصرهم وتهكم بهم ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ عطف على نظيره السابق وقوله تعالى مما خطيئاتهم الخ اعتراض وسط بين دعائه عليه الصلاة والسلام للإيذان من اول الأمر بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطيئاتهم التى عددها نوح عليه السلام وأشار إلى استحقاقهم للإهلاك لأجلها لا أنها حكاية لنفس الإغراق والإحراق على طريقة حكاية ما جرى بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم من الأحوال والأقوال وإلا لأخر عن حكاية دعائه هذا وديارا من الأسماء المستعملة فى النفى العام يقال ما بالدار ديار أو ديور كقيام وقيوم أى أحد وهو فيعال من الدور أو من الدار أصله ديوار قد فعل به ما فعل بأصل سيد لافعال وإلا لكان دوارا .

﴿ إنك إن تذرهم ﴾ عليها كلا أو بعضا ﴿ يضلوا عبادك ﴾ عن طريق الحق ﴿ ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ أى إلا من سيفجر ويكفر فوصفهم بما يصيرون إليه وكأنه اعتذار مما عسى يرد عليه من أن الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن منكر وإنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم بعد ما جربهم واستقرأ أحوالهم قريبا من ألف سنة ﴿ رب اغفر لى ولوالدى ﴾ أبوه لمك بن متوشلخ[1] وأمه شمخا بنت أنوش كانا

---

(١) فى ١١ : متوشالح انظر دائرة المعارف الإسلامية لفريد وجدى .

مؤمنين وقيل هما آدم وحواء وقرىء ولولدى يريد ساما وحاما ﴿ ولمن دخل بيتى ﴾ أى منزلى وقيل مسجدى وقيل سفينتى ﴿ مؤمنا ﴾ بهذا القيد خرجت امرأته وابنه كنعان ولكن لم يجزم عليه الصلاة والسلام بخروجه إلا بعدما قيل له إنه ليس من أهلك وقد مر تفصيله فى سورة هود ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ عمهم بالدعاء إثر ما خص به من يتصل به نسبا ودينا ﴿ ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾ أى هلاكا قيل غرق معهم صبيانهم أيضا لكن لا على وجه العقاب لهم بل لتشديد عذاب آبائهم وأمهاتهم بإراءة هلاك أطفالهم الذين كانوا أعز عليهم من أنفسهم قال عليه الصلاة والسلام يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى وعن الحسن أنه سئل عن ذلك فقال علم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب وقيل أعقم الله تعالى أرحام نسائهم وأيبس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنة فلم يكن معهم صبى حين غرقوا .

عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام .

* * *

سورة الجن

مكية ، وآيها ثمان وعشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ قل أوحى إلى ﴾ وقرىء أحى إلى أصله وحى وقد قرىء كذلك من وحى إليه فقلبت الواو المضمومة همزة كاعد وأزن فى وعد ووزن ﴿ أنه ﴾ بالفتح لأنه فاعل أوحى والضمير للشأن ﴿ استمع ﴾ أى القرآن كما ذكر فى الأحقاف وقد حذف لدلالة ما بعده عليه ﴿ نفر من الجن ﴾ النفر ما بين الثلاثة العشرة والجن أجسام عاقلة خفية يغلب عليهم النارية أو الهوائية وقيل نوع من الأرواح المجردة وقيل هى النفوس البشرية المفارقة عن أبدانها وفيه دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يشعر بهم وباستماعهم ولم يقرأ عليهم وإنما اتفق حضورهم فى بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبره الله تعالى بذلك وقد مر ما فيه من التفصيل فى الأحقاف ﴿ فقالوا ﴾ لقومهم عند رجوعهم إليهم ﴿ إنا سمعنا قرآنا ﴾ كتابا مقروءا ﴿ عجبا ﴾ بديعاً مباينا لكلام الناس فى حسن النظم ودقة المعنى وهو مصدر وصف به للمبالغة ﴿ يهدى إلى الرشد ﴾ إلى الحق والصواب ﴿ فآمنا به ﴾ أى بذلك القرآن ﴿ ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ حسبما نطق به ما فيه من دلائل التوحيد ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ بالفتح قالوا هو وما بعده من الجمل المصدرة بأن فى أحد عشر موضعا عطف على محل الجار والمجرور فى فآمنا به كأنه قيل فصدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا أى ارتفع عظمته من جد فلان فى عينى إى عظم تمكنه أو سلطانه أوغناه على أنه مستعار من الجد الذى هو البخت والمعنى وصفه بالاستغناء عن الصاحبة والولد لعظمته أو لسلطانه أو لغناه وقرىء بالكسر وكذا الجمل المذكورة عطفا على المحكى بعد القول وهو الأظهر لوضوح اندراج كلها تحت القول وأما اندراج الجمل الآتية تحت الإيمان والتصديق كما يقتضيه العطف على محل الجار والمجرور ففيه

إشكال كما ستحيط به خبرا وقوله تعالى ﴿ ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ﴾ بيان لحكم تعالى جده وقرىء جدا ربنا على التمييز وجد ربنا بالكسر أى صدق ربوبيته وحق إلهية عن اتخاذ الصاحبة والولد وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووفقوا للتوحيد والإيمان تنبهوا للخطأ فيما اعتقده كفرة الجن من تشبيه الله تعالى بخلقه فى اتخاذ الصاحبة والولد فاستعظموه ونزهوه تعالى عنه .

﴿ وأنه كان يقول سفيهنا ﴾ أى إبليس أو مردة الجن ﴿ على الله شططا ﴾ أى قولا ذا شطط أى بعد عن القصد ومجاوزة للحد أو هو شطط فى نفسه لفرط بعده عن الحق وهو نسبة الصاحبة والولد إليه تعالى وتعلق الإيمان والتصديق بهذا القول ليس باعتبار نفسه فانهم كانوا عالمين بقول سفهائهم من قبل أيضاً بل باعتبار كونه شططا كأنه قيل وصدقنا أن ما كان يقوله سفيهنا فى حقه تعالى كان شططا وأما تعلقهما بقوله تعالى ﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ﴾ فغير ظاهر وهو اعتذار منهم عن تقليدهم لسفيههم أى كنا نظن أنه لن يكذب على الله تعالى أحد أبدا ولذلك اتبعنا قوله وكذبا مصدر مؤكد لتقول لأنه نوع من القول أو وصف لمصدره المحذوف اى قولا كذبا أى مكذوبا فيه وقرىء لن تقول بحذف احدى التاءين فكذبا مصدر مؤكد له لأن الكذب هو التقول ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾ كان الرجل من العرب اذا أمسى فى واد قفر وخاف على نفسه يقول أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه يريد الجن وكبيرهم فاذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا سدنا الإنس والجن وذلك قوله تعالى ﴿ فزادوهم ﴾ أى زاد الرجال العائذون الجن ﴿ رهقا ﴾ أى تكبرا وعتوا أو فزاد الجن العائذين غيا بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم ﴿ وأنهم ظنوا ﴾ أى الإنس ﴿ كما ظننتم ﴾ أيها الجن على أنه كلام بعضهم لبعض ﴿ أن لن يبعث الله أحدا ﴾ وقيل المعنى أن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الكفرة الخ فتكون هذه الآية وما قبلها من جملة الكلام الموحى به والأقرب أنهما كذلك على كل تقدير عطفا على أنه استمع اذ لا معنى لإدراجهما تحت ما ذكر من الايمان والتصديق وكذا قوله تعالى :

﴿ وأنا لمسنا السماء ﴾ وما بعده من الجمل المصدرة بأنا ينبغى أن تكون معطوفة على ذلك على أن الموحى عين عبارة الجن بطريق الحكاية كأنه قيل قل أوحى إلى كيت وكيت وهذه العبارات أى طلبنا بلوغ السماء أو خبرها واللمس مستعار من المس للطلب كالجس يقال لمسه والتمسه وتلمسه كطلبه واطلبه[1] وتطلبه ﴿ فوجدناها ملئت حرسا ﴾ أى حراسا اسم جمع كخدم مفرد اللفظ ولذلك قيل ﴿ شديداً ﴾ قوياوهم الملائكة يمنعونهم عنها ﴿ وشهبا ﴾ جمع شهاب وهى الشعلة المقتبسة من نار الكواكب ﴿ وأنا كنا نقعد ﴾ قبل هذا ﴿ منها ﴾ من السماء ﴿ مقاعد للسمع ﴾ خالية عن الحرس والشهب أو صالحة للترصد والاستماع وللسمع متعلق بنقعد أى لأجل السمع أو بمضمر هو صفة لمقاعد كائنة للسمع ﴿ فمن يستمع الآن ﴾ فى مقعدمن المقاعد ﴿ يجد له شهابارصدا ﴾ أى شهابا راصدا له ولأجله يصده عن الاستماع بالرجم أو ذوى شهاب راصدين له على أنه اسم مفرد فى معنى الجمع كالحرس قيل حدث هذا عند مبعث النبى عليه الصلاة والسلام والصحيح أنه كان قبل البعث أيضا لكنه كثر الرجم بعد البعثة وزاد زيادة حتى تنبه لها الإنس والجن ومنع الاستراق أصلا فقالوا ماهذا إلا لأمر أراده الله تعالى بأهل الأرض وذلك قولهم ﴿ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض ﴾ بحراسة السماء ﴿ أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ أى خيرا ونسبة الخير إلى الله تعالى دون الشر من الآداب الشريفة القرآنية كما فى قوله تعالى(وإذا مرضت فهو يشفين) ونظائره ﴿ وأنا منا الصالحون ﴾ أى الموصوفون بصلاح الحال فى شأن أنفسهم وفى معاملتهم مع غيرهم المائلون إلى الخير والصلاح حسبما تقتضيه الفطرة السليمة لا إلى الشر والفساد كما هو مقتضى النفوس الشريرة ﴿ ومنا دون ذلك ﴾ أى قوم دون ذلك فحذف الموصوف وهم المقتصدون فى صلاح الحال على الوجه المذكور لا فى الإيمان والتقوى كما توهم فان هذا بيان لحالهم قبل استماع القرآن كما يعرب عن قوله تعالى ﴿ كنا طرائق قددا ﴾

---

(١) بتشديد الطاء .

وأما حالهم بعد استماعه فسيحكى بقوله تعالى ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى ﴾ إلى قوله تعالى (أنا منا المسلمون) أى كنا قبل هذا ذوى طرائق أى مذاهب أو مثل طرائق فى اختلاف الأحوال أو كانت طرائقنا طرائق قددا أى متفرقة مختلفة جمع قدة من قد كالقطعة من قطع ﴿ وأنا ظننا ﴾ أى علمنا الآن ﴿ أن لن نعجز الله ﴾ أى أن الشأن لن نعجز الله كائنين ﴿ فى الأرض ﴾ أينما كنا من أقطارها ﴿ ولن نعجزه هربا ﴾ هاربين منها إلى السماء أو لن نعجزه فى الأرض إن أراد بنا أمرا ولن نعجزه هربا إن طلبنا ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى ﴾ أى القرآن الذى هو الهدى بعينه ﴿ آمنا به ﴾ من غير تلعثم وتردد ﴿ فمن يؤمن بربه ﴾ وبما أنزله ﴿ فلا يخاف ﴾ فهو لا يخاف ﴿ بخسا ﴾ أى نقصا فى الجزاء ﴿ ولا رهقا ﴾ ولا أن ترهقه ذلة أو جزاء بخس ولا رهق إذا لم يبخس أحدا حقا ولا رهق ظلم أحد فلا يخاف جزاءهما وفيه دلالة على أن من حق من آمن بالله تعالى أن يجتنب المظالم وقرىء فلا يخف والأول أدل على تحقيق نجاة المؤمن واختصاصها به ﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ﴾ الجائرون عن طريق الحق الذى هو الإيمان والطاعة ﴿ فمن أسلم فأولئك ﴾ إشارة إلى من أسلم والجمع باعتبار المعنى ﴿ تحروا ﴾ توخوا ﴿ رشدا ﴾ عظيما يبلغهم إلى دار الثواب ﴿ وأما القاسطون ﴾ الجائرون عن سنن الإسلام ﴿ فكانوا لجهنم حطبا ﴾ توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ أن مخففة من الثقيلة والجملة معطوفة قطعا على أنه استمع والمعنى وأوحى إلى أن الشأن لو استقام الجن والإنس أو كلاهما ﴿ على الطريقة ﴾ التى هى ملة الإسلام ﴿ لأسقيناهم ماء غدقا ﴾ أى لوسعنا عليهم الرزق وتخصيص الماء الغدق وهو الكثير بالذكر لأنه أصل المعاش والسعة ولعزة وجوده بين العرب وقيل لو استقام الجن على الطريقة المثلى أى لو ثبت أبوهم الجان على ما كان عليه من عبادة الله تعالى وطاعته ولم يتكبر عن السجود لآدم عليه السلام ولم يكفر وتبعه ولده فى الإسلام لأنعمنا عليهم ووسعنا رزقهم ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ لنختبرهم كيف يشكرونه وقيل معناه انه لو استقام الجن على طريقتهم القديمة ولم يسلموا باستماع القرآن لوسعنا عليهم الرزق استدراجا

لنوقعهم فى الفتنة ونعذبهم فى كفران النعمة ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه ﴾ عن عبادته أو عن موعظته أو وحيه ﴿ يسلكه ﴾ يدخله ﴿ عذابا صعداً ﴾ أى شاقا صعبا يعلو المعذب ويغلبه على أنه مصدر وصف به مبالغة ﴿ وأن المساجد لله ﴾ عطف على قوله تعالى أنه استمع أى وأوحى إلى أن المساجد مختصة بالله تعالى وقيل معناه ولأن المساجد لله ﴿ فلا تدعوا ﴾ أى لا تعبدوا فيها ﴿ مع الله أحداً ﴾ غيره وقيل المراد بالمساجد المسجد الحرام والجمع لأن كل ناحية منه مسجد له قبلة مخصوصة أو لأنه قبلة المساجد وقيل الأرض كلها لأنها جعلت مسجدا للنبى عليه الصلاة والسلام وقيل مواضع السجود على أن المراد نهى السجود لغير الله تعالى وقيل أعضاء السجود السبعة وقيل السجدات على أنه جمع المصدر الميمى ﴿ وأنه ﴾ من جملة الموحى أى وأوحى إلى أن الشأن ﴿ لما قام عبد الله ﴾ أى النبى عليه الصلاة والسلام وإيراده بلفظ العبد للإشعار بما هو المقتضى لقيامه وعبادته للتواضع لأنه واقع موقع كلامه عن نفسه ﴿ يدعوه ﴾ حال من فاعل قام أى يعبده وذلك قيامه لصلاة الفجر بنخلة كما مر تفصيله فى فى سورة الأحقاف ﴿ كادوا ﴾ أى الجن ﴿ يكونون عليه لبدا ﴾ متراكمين من ازدحامهم عليه تعجبا مما شاهدوا من عبادته وسمعوا من قراءته واقتداء أصحابه به قياما وركوعا وسجودا لأنهم رأوا ما لم يروا مثله وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره وقيل معناه لما قام عليه الصلاة والسلام يعبدالله وحده مخالفاً للمشركين كاد المشركون يزدحمون عليه متراكمين واللبد جمع لبدة وهى ما تلبد بعضه على بعض ومنها لبدة الأسد وقرىء لبدا جمع لبدة وهى بمعنى اللبدة ولبدا جمع لابد كساجد وسجد ولبدا بضمتين جمع لبود كصبور وصبر وعن قتادة تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله ألا أن يظهره على من ناوأه.

﴿ قل إنما أدعو ﴾ أى أعبد ﴿ ربى ولا أشرك به ﴾ بربى فى العبادة ﴿ أحداً ﴾ فليس ذلك ببدع ولا مستنكر يوجب التعجب أو الإطباق على عدواتى وقرىء قال على أنه حكاية لقوله عليه الصلاة والسلام للمتراكمين عليه والأول هو

الأظهر والأوفق لقوله تعالى ﴿ قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ﴾ كأنه أريد لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ولا غيا ولا رشدا فترك من كلا المتقابلين ما ذكر فى الآخر ﴿ قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ﴾ إن أرادنى بسوء ﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ ملتجأ ومعدلا هذا بيان لعجزه عليه الصلاة والسلام عن شئون نفسه بعد بيان عجزه عليه الصلاة والسلام عن شئون غيره وقوله تعالى :

﴿ إلا بلاغا من الله ﴾ استثناء من قوله لا أملك فإن التبليغ إرشاد ونفع وما بينهما اعتراض مؤكد لنفى الاستطاعة أو من ملتحدا أى لن أجد من دونه منجا إلا أن أبلغ عنه ما أرسلنى به وقيل إلا مركبة من إن الشرطية ولا النافية ومعناه أن لا أبلغ بلاغا من الله والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿ ورسالاته ﴾ عطف على بلاغا ومن الله صفته لاصلته أى لا أملك لكم إلا تبليغا كائنا منه تعالى ورسالاته التى أرسلنى بها ﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ فى الأمر بالتوحيد إذ الكلام فيه ﴿ فإن له نار جهنم ﴾ وقرىء بفتح الهمزة على فحقه أو فجزاؤه أن له نار جهنم ﴿ خالدين فيها ﴾ فى النار أو فى جهنم والجمع باعتبار المعنى ﴿ أبدا ﴾ بلا نهاية وقوله تعالى :

﴿ حتى إذا رأوا مايوعدون ﴾ غاية لمحذوف يدل عليه الحال من استضعاف الكفار لأنصاره عليه الصلاة والسلام واستقلالهم لعدده كأنه قيل لا يزالون على ما هم عليه حتى إذا رأوا ما يوعدون من فنون العذاب فى الآخرة ﴿ فسيعلمون ﴾ حينئذ ﴿ من أضعف ناصراً وأقل عددا ﴾ وحمل ما يوعدون على ما رأوه يوم بدر يأباه قوله تعالى ﴿ قل إن أدرى ﴾ أى ما أدرى ﴿ أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا ﴾ فإنه رد لما قاله المشركون عند سماعهم ذلك متى يكون ذلك الموعود إنكارا له واستهزاء به فقيل قل إنه كائن لا محالة وأما وقته فما أدرى متى يكون ﴿ عالم الغيب ﴾ بالرفع قيل هو بدل من ربى أو عطف بيان له ويأباه الفاء فى قوله تعالى ﴿ فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾

إذ يكون النظم حينئذ أم يجعل له عالم الغيب أمدا فلا يظهر عليه أحداً وفيه من الاختلال ما لا يخفى فهو خبر مبتدأ محذوف أى هو عالم الغيب والجملة استئناف مقرر لما قبله من عدم الدراية والفاء لترتيب عدم الإظهار على تفرده تعالى بعلم الغيب على الإطلاق أى فلا يطلع على غيبه إطلاعا كاملا ينكشف به جلية الحال انكشافا تاما موجبا لعين اليقين أحداً من خلقه ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ أى إلا رسولا ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالته كما يعرب عنه بيان من ارتضى بالرسول تعلقا تاما إما لكونه من مبادىء رسالته بأن يكون معجزة دالة على صحتها وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية التى امر بها المكلفون وكيفيات أعمالهم وأجزيتها المترتبة عليها فى الآخرة وما تتوقف هى عليه من أحوال الآخرة التى من جملتها قيام الساعة والبعث وغير ذلك من الأمور الغيبية التى بيانها من وظائف الرسالة وأما ما لا يتعلق بها على أحد الوجهين من الغيوب التى من جملتها وقت قيام الساعة فلا يظهر عليه أحدا أبدا على أن بيان وقته مخل بالحكمة التشريعية التى عليها يدور فلك الرسالة وليس فيه ما يدل على نفى كرامات الأولياء المتعلقة بالكشف فان اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسل لا يستلزم عدم حصول مرتبة ما من تلك المراتب لغيرهم أصلا ولا يدعى أحد لأحد من الأولياء ما فى رتبة الرسل عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحى الصريح وقوله تعالى ﴿فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا﴾ تقرير وتحقيق للإظهار المستفاد من الاستثناء وبيان لكيفيته أى فإنه يسلك من جميع جوانب الرسول عليه السلام عند إظهاره على غيبه حرسا من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين لما أظهره عليه من الغيوب المتعلقة برسالته وقوله تعالى :

﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ متعلق بيسلك غاية له من حيث أنه مترتب على الإبلاغ المترتب عليه إذ المراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل وأن مخففة من الثقيلة واسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف والجملة خبرها ورسالات ربهم عبارة عن الغيب الذى أريد إظهار المرتضى عليه والجمع باعتبار

تعدد أفراده وضمير أبلغوا إما للرصد فالمعنى أنه تعالى يسلكهم من جميع جوانب المرتضى ليعلم أن الشأن قد أبلغوه رسالات ربهم سالمة عن الاختطاف والتخليط علما مستتبعا للجزاء وهو أن يعلمه موجودا حاصلا بالفعل كما فى قوله تعالى (حتى نعلم المجاهدين) والغاية فى الحقيقة هو الإبلاغ والجهاد وإيراد علمه تعالى لإبراز اعتنائه تعالى بأمرهما والإشعار بترتيب الجزاء عليهما والمبالغة فى الحث عليهما والتحذير عن التفريط فيهما وإما لمن ارتضى والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد فى الضميرين السابقين باعتبار لفظهما فالمعنى ليعلم أنه قد أبلغ الرسل الموحى إليهم رسالات ربهم إلى أممهم كما هى من غير اختطاف ولا تخليط بعد ما أبلغها الرصد إليهم كذلك وقوله تعالى :

﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ أى بما عند الرصد أو الرسل عليهم السلام حال من فاعل يسلك بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور جىء بها لتحقيق استغنائه تعالى فى العلم بالإبلاغ عما ذكر من سلك الرصد على الوجه المذكور أى يسلكهم بين يديه ومن خلفه يترتب عليه علمه تعالى بما ذكر والحال أنه تعالى قد أحاط بما لديهم من الأحوال جميعا .

﴿ وأحصى كل شىء ﴾ مما كان وما سيكون ﴿ عددا ﴾ أى فردا فردا وهو تمييز منقول من المفعول به كقوله تعالى (وفجرنا الأرض عيونا) والأصل أحصى عدد كل شىء وقيل هو حال أى معدودا محصورا أو مصدر بمعنى إحصاء وأيا ما كان ففائدته بيان أن علمه تعالى بالأشياء ليس على وجه كلى إجمالى بل على وجه جزئى تفصيلى فإن الإحصاء قد يراد به الإحاطة الإجمالية كما فى قوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أى لا تقدروا على حصرها إجمالا فضلا عن التفصيل وذلك لأن أصل الإحصاء أن الحاسب إذا بلغ عقدا معينا من عقود الأعداد كالعشرة والمائة والألف وضع حصاة ليحفظ بها كمية ذلك العقد فيبنى على ذلك حسابه هذا وأما ما قيل من أن قوله تعالى (وأحاط بما لديهم) الخ معطوف على مقدر يدل عليه قوله تعالى ليعلم كأنه قيل قد علم ذلك وأحاط بما لديهم الخ فبمعزل من السداد . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جنى صدق محمدا وكذب به عتق رقبة .

سورة المزمل

مكية ، وآيها تسع عشرة أو عشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يا أيها المزمل ﴾ أى المتزمل من تزمل بثيابه إذا تلفف بها فأدغم التاء في الزاى وقد قرىء على الأصل وقرىء المزمل من زمله مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل قيل خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام تهجينا لما كان عليه من الحالة حيث كان عليه الصلاة والسلام متلففا بقطيفة مستعدا للنوم كما يفعله من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن فأمر بأن يترك التزمل إلى التشمر للعبادة والهجود إلى التهجد وقيل دخل عليه الصلاة والسلام على خديجة وقد جئث فرقا أول ما أتاه جبريل عليهما السلام وبوادره ترعد فقال زملونى زملونى لحسب أنه عرض له فبينا هو على ذلك إذ ناداه جبريل فقال يا أيها المزمل فيكون تخصيص وصف التزمل بالخطاب للملاطفة والتأنيس كما فى قوله عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه حين غاضب فاطمة رضى الله عنها فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب قم يا أبا تراب ملاطفة له وإشعاراً بأنه غير عاتب عليه وقيل المعنى يا أيها الذى زمل أمراً عظيما هو أمر النبوة أى حمله والزمل الحمل وازدمله أى احتمله فالتعرض للوصف حينئذ للاشعار بعليته للقيام أو للأمر به فإن تحميله عليه الصلاة والسلام لأعباء النبوة مما يوجب الاجتهاد فى العبادة ﴿ قم الليل ﴾ أى قم إلى الصلاة وانتصاب الليل على الظرفية وقيل القيام مستعار للصلاة ومعنى قم صل وقرىء بضم الميم وبفتحها ﴿ إلا قليلا ﴾ استثناء من الليل وقوله تعالى ﴿ نصفه ﴾ بدل من الليل الباقى بعد الثنيا بدل الكل أى قم نصفه والتعبير عن النصف المخرج بالقليل لإظهار كمال الاعتداد بشأن الجزء المقارن للقيام والإيذان بفضله وكون القيام فيه بمنزلة القيام فى أكثره فى كثرة الثواب واعتبار قلته بالنسبة إلى الكل مع عرائه عن الفائدة خلاف الظاهر ﴿ أو

انقص منه ﴾ أى أنقص القيام من النصف المقارن له فى الصورة الأولى ﴿ قليلا ﴾ أى نقصا قليلا أو مقدارا قليلا بحيث لا ينحط إلى نصف النصف ﴿ أو زد عليه ﴾ أى زد القيام على النصف المقارن له فالمعنى تخييره عليه الصلاة والسلام بين أن يقوم نصفه أو أقل منه أو أكثر وقيل قوله تعالى نصفه بدل من قليلا والتخيير بحاله وليس بسديد أما أولا فلأن الحقيق بالاعتناء الذى ينبىء عنه الإبدال هو الجزء الباقى بعد الثنيا المقارن للقيام لا الجزء المخرج العارى عنه وأما ثانيا فلأن نقص القيام وزيادته إنما يعتبران بالقياس إلى معياره الذى هو النصف المقارن له فلو جعل نصفه بدلا من قليلا لزم اعتبار نقص القيام وزيادته بالقياس إلى ما هو عارعنه بالكلية والاعتذار بتساوى النصفين مع كونه تمحلا ظاهرا اعتراف بأن الحق هو الأول وقيل نصفه بدل من الليل وإلا قليلا استثناء من النصف والضمير فى منه وعليه للنصف والمعنى التخيير بين أمرين بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البتات[1] وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه وقيل الضميران للأقل من النصف كأنه قيل قم أقل من نصفه أو قم أنقص من ذلك الأقل أو أزيد منه قليلا وقيل وقيل والذى يليق بجزالة التنزيل هو الأول والله أعلم بما فى كتابه الجليل ﴿ ورتل القرآن ﴾ فى أثناء ما ذكر من القيام أى اقرأه على تؤدة وتبيين حروف ﴿ ترتيلا ﴾ بليغا بحيث يتمكن السامع من عدها من قولهم ثغر رتل ورتل إذا كان مفلجا .

﴿ إنا سنلقى عليك ﴾ أى سنوحى إليك وإيثار الإلقاء عليه لقوله تعالى ﴿ قولا ثقيلا ﴾ وهو القرآن العظيم المنطوى على تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين لا سيما على الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه عليه الصلاة والسلام مأمور بتحملها وتحميلها للأمة والجملة اعتراض بين الأمر وتعليله لتسهيل ما كلفه عليه الصلاة والسلام من القيام وقيل معنى كونه ثقيلا أنه رصين لرزانة

---

(١) أى على الدوام .

لفظه ومتانة معناه أو ثقيل على المتأمل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفية للسر وتجريد للنظر أو ثقيل فى الميزان أو على الكفار والفجار أو ثقيل تلقيه عن ابن عباس رضى الله عنهما كان إذا نزل عليه الوحى ثقل عليه وتربد له جلده وعن عائشة رضى الله تعالى عنها رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقا ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ أى إن النفس التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة أى تنهض من نشأ من مكانه إذا نهض أو إن قيام الليل على أن الناشئة مصدر من نشأ كالعافية أو أن العبادة التى تنشأ بالليل أى تحدث أوان ساعات الليل فإنها تحدث واحدة بعد واحدة أو ساعاتها الأول من نشأ إذا ابتدأ ﴿ هى أشد وطأ ﴾ أى هى خاصة أشد ثبات قدم أو كلفة فلا بد من الاعتناء بالقيام وقرىء وطاء أى أشد مواطأة يواطىء قلبها لسانها إن أريد بها النفس أو يواطىء فيها قلب القائم لسانه أن أريد بها القيام أو العبادة أو الساعات أو أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص ﴿ وأقوم قيلا ﴾ وأسد مقالا وأثبت قراءة لحضور القلب وهدوء الأصوات ﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا ﴾ أى تقلبا وتصرفا فى مهماتك واشتغالا بشواغلك فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة فعليك بها فى الليل وهذا بيان للداعى الخارجى إلى قيام الليل بعد بيان ما فى نفسه من الداعى وقرىء سبخا أى تفرق قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نفشه ونشر أجزائه ﴿ واذكر اسم ربك ﴾ ودم على ذكره تعالى ليلا ونهارا على أى وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم ﴿ وتبتل إليه ﴾ أى وانقطع إليه بمجامع الهمة واستغراق العزيمة فى مراقبته وحيث لم يكن ذلك إلا بتجريد نفسه عليه الصلاة والسلام عن العوائق الصادة عن مراقبة الله تعالى وقطع العلائق عما سواه قيل ﴿ تبتيلا ﴾ مكان تبتلا مع ما فيه من رعاية الفواصل .

﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ مرفوع على المدح وقيل على الابتداء خبره ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وقرىء بالجر على أنه بدل من ربك وقيل على إضمار حرف القسم جوابه لا إله إلا هو والفاء فى قوله تعالى ﴿ فاتخذه وكيلا ﴾ لترتيب

الأمر وموجبه على اختصاص الألوهية والربوبية به تعالى ﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ مما لا خير فيه من الخرافات ﴿ واهجرهم هجرا جميلا ﴾ بأن تجانبهم وتداريهم ولا تكافئهم وتكل أمورهم إلى ربهم كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ وذرنى والمكذبين ﴾ أى دعنى وإياهم وكل أمرهم إلى فإنى أكفيكهم ﴿ أولى النعمة ﴾ أرباب التنعم وهم صناديد قريش ﴿ ومهلهم قليلا ﴾ زمانا قليلا ﴿ إن لدينا أنكالا ﴾ جمع نكل وهو القيد الثقيل والجملة تعليل للأمر أى إن لدينا أمورا مضادة لتنعمهم[1] ﴿ وجحيما وطعاما ذا غصة ﴾ ينشب فى الحلوق ولا يكاد يساغ كالضريع والزقوم ﴿ وعذابا أليما ﴾ ونوعا آخر من العذاب مؤلما لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه كل ذلك معد لهم ومرصد وقوله تعالى ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ أى تضطرب وتتزلزل ظرف للاستقرار الذى تعلق به لدينا وقيل متعلق بمضمر هو صفة لعذابا أى عذابا واقعا يوم ترجف ﴿ وكانت الجبال ﴾ مع صلابتها وارتفاعها ﴿ كثيبا ﴾ رملا مجتمعا من كثب الشيء إذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول ﴿ مهيلا ﴾ منثورا من هيل هيلا إذا نثر وأسيل .

﴿ إنا أرسلنا إليكم ﴾ يا أهل مكة ﴿ رسولا شاهدا عليكم ﴾ يشهد يوم القيامة بما صدر عنكم من الكفر والعصيان ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ﴾ هو موسى عليه السلام وعدم تعيينه لعدم دخله فى التشبيه ﴿ فعصى فرعون الرسول ﴾ الذى أرسلناه إليه ومحل الكاف النصب على أنها صفة لمصدر محذوف أى إنا أرسلنا إليكم رسولا فعصيتموه كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ شاهدا عليكم ﴾ إرسالا كائنا كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه وقوله تعالى ﴿ فأخذناه أخذا وبيلا ﴾ خارج من التشبيه جيء به للتنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك لامحالة والوبيل الثقيل الغليظ من قولهم كلأ وبيل أى وخيم لا يستمرأ[2] لثقله والوبيل العصا الضخمة ﴿ فكيف تتقون ﴾ أى كيف تقون أنفسكم

---

(١) فى ١١ : نعيمهم . (٢) فى ١١ : لا تستمرئه النعم .

﴿ إن كفرتم ﴾ أى بقيتم على الكفر ﴿ يوما ﴾ أى عذاب يوم ﴿ يجعل الولدان ﴾ من شدة هوله وفظاعة ما فيه من الدواهى ﴿ شيبا ﴾ شيوخا جمع أشيب إما حقيقة أو تمثيلا وأصله أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على المرء ضعفت قواه وأسرع فيه الشيب وقد جوز أن يكون ذلك وصفا لليوم بالطول وليس بذاك .

﴿ السماء منفطر ﴾ أى منشق وقرىء متفطر أى متشقق والتذكير لإجرائه على موصوف مذكر أى شيء منفطر عبر عنها بذلك للتنبيه على أنه تبدلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء وقيل لتأويل السماء بالسقف وقيل هو من باب النسب أى ذات انفطار والباء فى قوله تعالى ﴿ به ﴾ مثلها فى فطرت العود بالقدوم ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ الضمير لله عز وجل والمصدر مضاف إلى فاعله أو لليوم وهو مضاف إلى مفعوله ﴿ إن هذه ﴾ إشارة إلى الآيات المنطوية على القوارع المذكورة ﴿ تذكرة ﴾ موعظة ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ بالتقرب إليه بالإيمان والطاعة فإنه المنهاج الموصل إلى مرضاته ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ﴾ أى أقل منهما استعير له الأدنى لما أن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز ﴿ ونصفه وثلثه ﴾ بالنصب عطفا على أدنى وقرئا بالجر عطفا على ثلثى الليل ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ أى ويقوم معك طائفة من أصحابك ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ وحده لا يقدر على تقديرهما أحد أصلا فإن تقديم الاسم الجليل مبتدأ وبناء يقدر عليه موجب للاختصاص قطعا كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ أى علم أن الشأن لن يقدروا على تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات أبداً ﴿ فتاب عليكم ﴾ بالترخيص فى ترك القيام المقدور ورفع التبعة عنكم فى تركه .

﴿ فاقرؤا ما تيسر من القرآن ﴾ فصلوا إما تيسر لكم من صلاة الليل عبر عن الصلاة بالقراءة كما عبر عنها بسائر أركانها قيل كان التهجد واجبا على التخيير المذكور فعسر عليهم القيام به فنسخ به ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس وقيل

هى قراءة القرآن بعينها قالوا من قرأ مائة آية من القرآن فى ليلة لم يحاجه وقيل من قرأ مائة آية كتب من القانتين[1] وقيل خمسين آية ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ استئناف مبين لحكمة أخرى داعية إلى الترخيص والتخفيف .

﴿ وآخرون يضربون فى الأرض ﴾ يسافرون فيها للتجارة يبتغون من فضل الله ﴾ وهو الربح وقد عمم ابتغاء الفضل لتحصيل العلم ﴿ وآخرين يقاتلون فى سبيل الله ﴾ وإذا كان الأمر كما ذكر وتعاضدت الدواعى إلى الترخيص ﴿ فاقرؤا ما تيسر منه ﴾ من غير تحمل المشاق ﴿ وأقيموا الصلوة ﴾ أى المفروضة ﴿ وآتوا الزكوة ﴾ الواجبة وقيل هى زكاة الفطر إذ لم يكن بمكة زكاة ومن فسرها بالزكاة المفروضة جعل آخر السورة مدنيا ﴿ وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾ أريد به الإنفاقات فى سبل الخيرات أو أداء الزكاة على أحسن الوجوه وأنفعها للفقراء ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير كان مما ذكر وما لم يذكر ﴿ تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا ﴾ من الذى تؤخرونه إلى الوصية عند الموت وخيرا ثانى مفعولى تجدوا وهو تأكيد أو فصل وإن لم يقع بين معرفتين فإن أفعل من فى حكم المعرفة ولذلك يمتنع من حرف التعريف وقرىء هو خير على الابتداء والخبر ﴿ واستغفروا الله ﴾ فى كافة أحوالكم فإن الإنسان قلما يخلو من تفريط ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ .

عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المزمل دفع الله عنه العسر فى الدنيا والآخرة .

---

(١) أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة من طرق

سورة المدثر
(مكية وآيها ست وخمسون)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿يا أيها المدثر﴾ أى المتدثر وهو لابس الدثار وهو ما يلبس فوق الشعار الذى يلى الجسد قيل هى أول سورة نزلت . روى عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كنت على جبل حراء فنوديت يا محمد إنك رسول الله فنظرت عن يمينى ويسارى فلم أر شيء فنظرت فوقى فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض يعنى الملك الذى ناداه فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت دثرونى دثرونى فنزل جبريل وقال يا أيها المدثر وعن الزهرى أن أول ما نزل سورة اقرأ إلى قوله تعالى ما لم يعلم فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يعلو شواهق الجبال فأتاه جبريل عليه السلام وقال إنك نبى الله فرجع إلى خديجة فقال دثرونى وصبوا على ماء بارداً فنزل جبريل فقال يا أيها المدثر وقيل سمع من قريش ما كرهه فاغتم فتغطى بثوبه متفكرا كما يفعل المغموم فأمر أن لا يدع انذارهم وإن أسمعوه وآذوه وقيل كان نائما متدثرا وقيل المراد المتدثر بلباس النبوة والمعارف الإلهية وقرىء المدثر على صيغة اسم المفعول من دثره أى الذى دثر هذا الأمر العظيم وعصب به وفى حرف أبى المتدثر يا أيها المتدثر على الأصل ﴿ قم ﴾ أى من مضجعك أو قم قيام عزم وتصميم ﴿ فأنذر ﴾ أى افعل الإنذار وأحدثه وقيل أنذر قومك كقوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) أو جميع الناس حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا) ﴿وربك فكبر﴾ واختص ربك بالتكبير وهو وصفه تعالى بالكبرياء اعتقادا وقولا ويروى أنه لما نزل قال رسول الله الله أكبر فكبرت خديجة وفرحت وأيقنت أنه الوحى وقد يحمل على تكبير الصلاة والفاء لمعنى الشرط كأنه قيل ما كان أى أى شيء حدث فلا تدع تكبيره

أو للدلالة على أن المقصود الأولى من الأمر بالقيام أن يكبر ربه وينزهه من الشرك فإن أول ما يجب معرفة الصانع جل جلاله ثم تنزيهه عما لا يليق بجنابه.

﴿ وثيابك فطهر ﴾ مما ليس بطاهر فإنه واجب فى الصلاة وأولى وأحب فى غيرها وذلك بصيانتها وحفظها عن النجاسات وغسلها بعد تلطخها وبتقصيرها أيضاً فإن طولها يؤدى إلى جر الذيول على القاذورات وهو أول ما أمر به عليه الصلاة والسلام من رفض العادات المذمومة وقيل هو أمر بتطهير النفس عما يستقذر من الأفعال ويستهجن من الأحوال يقال فلان طاهر الذيل والأردان إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق ﴿ والرجز فاهجر ﴾ أى واهجر العذاب بالثبات على هجر ما يؤدى إليه من المآثم وقرىء بكسر الراء وهما لغتان كالذكر والذكر ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ ولا تعط مستكثرا أى رائيا لما تعطيه كثيرا أو طالبا للكثير على أنه نهى عن الاستغزار وهو أن يهب شيأ وهو يطمع أن يتعوض من الموهوب له أكثر مما أعطاه وهو جائز ومنه الحديث المستغزر يثاب من هبته فالنهى إما للتحريم وهو خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى اختار له أشرف الأخلاق وأحسن الآداب أو للتنزيه للكل وقرىء تستكثر بالسكون اعتبارا بحال الوقف أو إبدالا من تمنن كأنه قيل ولا تمنن ولا تستكثر على أنه من المن الذى فى قوله تعالى منا ولا أذى لأن من يمن بما يعطى يستكثره ويعتد به وقرىء بالنصب بإضمار أن مع إبقاء عملها كقول من قال :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى

وقد قرىء بإثباتها ويجوز فى قراءة الرفع أن يحذف أن ويبطل عملها كما يروى أحضر الوغى بالرفع ﴿ ولربك ﴾ أى لوجهه تعالى أو لأمره ﴿ فاصبر ﴾ فاستعمل الصبر وقيل على أذية المشركين وقيل على أداء الفرائض .

﴿ فإذا نقر فى الناقور ﴾ أى نفخ فى الصور وهو فاعل من النقر بمعنى التصويت وأصله القرع الذى هو سبب الصوت والفاء للسببية كأنه قيل اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى عاقبة صبرك عليه

والعامل فى إذا مادل عليه قوله تعالى : ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين ﴾ فإن معناه عسر الأمر على الكافرين وذلك إشارة إلى وقت النقر وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للايذان ببعد منزلته فى الهول والفظاعة ومحله الرفع على الابتداء ويومئذ بدل منه مبنى على الفتح لإضافته إلى غير متمكن والخبر يوم عسير وقيل يومئذ ظرف للخبر إذ التقدير وذلك الوقت وقوع يوم عسير وعلى متعلقة بعسير وقيل بمحذوف هو صفة لعسير أو حال من المستكن فيه وقوله تعالى : ﴿ غير يسير ﴾ تأكيد لعسره عليهم مشعر بيسره على المؤمنين واختلف فى أن المراد به يوم النفخة الأولى أو الثانية ، والحق أنها الثانية ، إذ هى التى يختص عسرها بالكافرين وأما النفخة الأولى فحكمها الذى هو الاصعاق يعم البر والفاجر على أنها مختصة بمن كان حيا عند وقوعها وقد جاء فى الأخبار أن فى الصور ثقبا بعدد الأرواح كلها وأنها تجمع فى تلك الثقوب فى النفخة الثانية فتخرج عند النفخ من كل ثقبة روح إلى الجسد الذى نزعت منه فيعود الجسد حيا بإذن الله تعالى .

تهديد الطغاة

﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا ﴾ حال إما من الياء أى ذرنى وحدى معه فإنى أكفيكه فى الانتقام منه أو من التاء أى خلقته وحدى لم يشركنى فى خلقه أحد أو من العائد المحذوف أى ومن خلقته وحيدا فريدا لا مال له ولا ولد وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة المخزومى وكان يلقب فى قومه الوحيد فهو تهكم به وبلقبه وصرف له عن الغرض الذى يؤمونه من مدحه إلى جهة ذمه بكونه وحيدا من المال والولد أو وحيدا من أبيه لأنه كان زنيما كما مر أو وحيدا فى الشرارة ﴿ وجعلت له مالا ممدودا ﴾ مبسوطا كثيرا أو ممدا بالنماء من مد النهر ومده نهر آخر قيل كان له الضرع والزرع والتجارة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الأموال وقيل كان له بالطائف بستان لا ينقطع ثماره صيفا وشتاء وقال ابن عباس

ومجاهد وسعيد بن جبير كان له ألف دينار وقال قتادة ستة آلاف دينار وقال سفيان الثورى أربعة آلاف دينار ، وقال الثورى أيآ ألف ألف دينار .

﴿ وبنين شهودا ﴾ حضورا معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم لا يفارقونه للتصرف فى عمل أو تجارة لكونهم مكفيين لوفور نعمهم وكثرة خدمهم أو حضورا فى الأندية والمحافل لوجاهتهم واعتبارهم قيل كان له عشرة بنين وقيل ثلاثة عشر وقيل سبعة كلهم رجال الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص والقيس وعبد شمس أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام وعمارة ﴿ ومهدت له تمهيدا ﴾ وبسطت له الرياسة والجاه العريض حتى لقب ريحانة قريش ﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ على ما أوتيه وهو استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه إما لأنه لا مزيد على ما أوتى سعة وكثرة أو لأنه مناف لما هو عليه من كفران النعم ومعاندة المنعم وقيل إنه كان يقول إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى ﴿ كلا ﴾ ردع وزجر له عن طمعه الفارغ وقطع لرجائه الخائب وقوله تعالى ﴿ إنه كان لآياتنا عنيدا ﴾ تعليل لذلك على وجه الاستئناف التحقيق فإن معاندة آيات المنعم مع وضوحها وكفران نعمته مع سبوغها مما يوجب حرمانه بالكلية وإنما أوتى ما أوتى استدراجا قيل ما زال بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله حتى هلك ﴿ سأرهقه صعودا ﴾ سأغشيه بدل ما يطمعه من الزيادة أو الجنة عقبة[1] شاقة المصعد وهو مثل لما يلقى من العذاب الصعب الذى لا يطاق وعن النبى صلى الله عليه وسلم يكلف أن يصعد عقبه فى النار كلما وضع يده عليها ذابت فإذا رفعها عادت وإذا وضع رجله ذابت فإذا رفعها عادت وعنه عليه الصلاة والسلام الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى فيه كذلك أبدا ﴿ إنه فكر وقدر ﴾ تعليل للوعيد واستحقاقه له أو بيان لعناده لآياته تعالى أى فكر ماذا يقول فى شأن القرآن وقدر فى

(١) فى ١١: عقبات .

نفسه ما يقوله ﴿ فقتل كيف قدر ﴾ تعجيب من تقديره وإصابته فيه الغرض الذى كان ينتحيه[1] قريش قاتلهم الله أو ثناء عليه بطريق الاستهزاء أو حكاية لما كرروه من قولهم قتل كيف قدر تهكما بهم وبإعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله ومعنى قولهم قتله الله ما أشجعه أو أخزاه الله ما أشعره الإشعار بأنه قد بلغ من الشجاعة والشعر مبلغا حقيقيا بأن يدعو عليه حاسده بذلك . روى أن الوليد قال لبنى مخزوم والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو وما يعلى فقالت قريش صبأ والله الوليد والله لتصبأن قريش كلهم فقال ابن أخيه أبو جهل أنا أكفيكموه فقعد عنده حزينا وكلمه بما أحماه فقام فأتاهم فقال تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيأ من الكذب فقالوا فى كل ذلك اللهم لا ثم قالوا فما هو ففكر فقال ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه وما الذى يقوله إلا سحر يأثره عن أهل بابل فارتج النادى فرحا وتفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه ﴿ ثم قتل كيف قدر ﴾ تكرير للمبالغة وثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى وفيما بعد على أصلها من التراخى الزمانى .

﴿ ثم نظر ﴾ أى فى القرآن مرة بعد مرة ﴿ ثم عبس ﴾ قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعنا ولم يدر ماذا يقول وقيل نظر فى وجوه الناس ثم قطب وجهه وقيل نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قطب فى وجهه ﴿ وبسر ﴾ اتباع لعبس ﴿ ثم أدبر ﴾ عن الحق أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ واستكبر ﴾ عن اتباعه ﴿ فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أى يروى ويتعلم والفاء للدلالة على أن هذه الكلمة لما خطرت بباله تفوه بها من غير تلعثم

(١) فى ١١ الذى كانت تنتحيه .

وتلبث وقوله تعالى ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ تأكيد لما قبله ولذلك أخلى عن العاطف ﴿سأصليه سقر﴾ بدل من سأرهقه صعودا ﴿وما أدراك ما سقر﴾ أى أى شيء أعلمك ما سقر على أن ما الأولى مبتدأ وأدراك خبره وما الثانية خبر لأنها المفيدة لما قصد إفادته من التهويل والتفظيع وسقر مبتدأ أى أى شيء هى فى وصفها لما مر مرارا من أن ماقد يطلب بها الوصف وإن كان الغالب أن يطلب بها الاسم والحقيقة وقوله تعالى ﴿ لاتبقى ولاتذر ﴾ بيان لوصفها وحالها وإنجاز للوعد الضمنى الذى يلوح به وما أدراك ماسقر وقيل حال من من سقر وليس بذاك أى لاتبقى شيئا يلقى فيها إلا أهلكته وإذا هلك لم تذره هالكا حتى يعاد أو لاتبقى على شيء ولاتدعه من الهلاك بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة ﴿ لواحة للبشر ﴾ مغيرة لأعالى الجلد مسودة لها قيل تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سوادا من الليل وقيل تلوح للناس كقوله تعالى ثم لترونها عين اليقين وقرىء لواحة بالنصب على الاختصاص للتهويل ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ أى ملكا أو صنفا أوصفا أو نقيبا من الملائكة يلون أمرها ويتسلطون على أهلها وقرىء بسكون عين عشر حذرا من توالى الحركات فيما هو فى حكم اسم واحد وقرىء تسعة أعشر جمع عشير مثل يمين وأيمن .

﴿ وما جعلنا أصحاب النار ﴾ أى المدبرين لأمرها القائمين بتعذيب أهلها ﴿ إلا ملائكة ﴾ ليخالفوا جنس المعذبين فلا يرقوا لهم ولا يستروحوا إليهم ولأنهم أقوى الخلق وأقومهم بحق الله عز وجل وبالغضب له تعالى وأشدهم بأسا عن النبى صلى الله عليه وسلم لأحدهم مثل قوة الثقلين يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرمى بهم فى النار ويرمى بالجبل عليهم وروى أنه لما نزل عليها تسعة عشر قال أبو جهل لقريش أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم فقال أبو الاشد بن أسيد بن كلدة الجمحى وكان شديد البطش أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفونى أنتم اثنين فنزلت أى ما جعلناهم رجالا من جنسكم ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ أى ما جعلنا عددهم إلا العدد الذى تسبب لافتتانهم وهو التسعة عشر فعبر بالأثر عن المؤثر تنبيها على التلازم بينهما

وليس المراد بمجرد جعل عددهم ذلك العدد المعين فى نفس الأمر بل جعله فى القرآن أيضاً كذلك وهو الحكم بأن عليها تسعة عشر إذا بذلك يتحقق افتتانهم باستقلالهم له واستبعادهم لتولى هذا العدد القليل لتعذيب أكثر الثقلين واستهزائهم به حسبما ذكر وعليه يدور ما سيأتى من استيقان أهل الكتاب وازدياد المؤمنين إيمانا قالوا المخصص لهذا العدد أن اختلاف النفوس البشرية فى النظر والعمل بسبب القوى الحيوانية الاثنى عشرة والطبيعية السبع أو أن جهنم سبع دركات ست منها لأصناف الكفرة كل صنف يعذب بترك الاعتقاد والاقرار والعمل أنواعا من العذاب يناسبها وعلى كل نوع ملك أو صنف أو صف يتولاه وواحدة لعصاة الأمة يعذبون فيها بترك العمل نوعا يناسبه ويتولاه واحد أو أن الساعات أربع وعشرون خمسة منها مصروفة للصلوات الخمس فيبقى تسعة عشر قد تصرف إلى ما يؤاخذ به بأنواع العذاب يتولاها الزبانية ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ متعلق بالجعل على المعنى المذكور أى ليكتسبوا اليقين بنبوته عليه الصلاة والسلام وصدق القرآن لما شاهدوا ما فيه موافقا لما فى كتابهم ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيمانا ﴾ أى يزداد إيمانهم كيفية بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك أو كمية بانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أنزل ﴿ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾ تأكيد لما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان ونفى لما قد يعترى المستيقن من شبهة ما وإنما لم ينظم المؤمنون فى سلك أهل الكتاب فى نفى الارتياب[1] حيث لم يقل ولا يرتابوا للتنبيه على تباين النفيين حالا فان انتفاء الارتياب من أهل الكتاب مقارن لما ينافيه من الجحود ومن المؤمنين مقارن لما يقتضيه من الإيمان وكم بينهما والتعبير عنهم باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المنبئة عن الحدوث للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخهم فى ذلك ﴿ وليقول الذين فى قلوبهم مرض ﴾ شك أو نفاق فيكون إخباراً بما

(١) فى ١١ : الريبة .

سيكون فى المدينة بعد الهجرة ﴿ والكافرون ﴾ المصرون على التكذيب ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ أى أى شىء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل وقيل لما استبعدوه حسبوا أنه مثل مضروب وإفراد قولهم هذا بالتعليل مع كونه من باب فنفتهم للإشعار باستقلاله فى الشناعة ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ﴾ ذلك إشارة إلى ما قبله من معنى الاضلال والهداية ومحل الكاف فى الأصل النصب على أنها صفة لمصدر محذوف وأصل التقدير يضل الله من يشاء ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ إضلالا وهداية كائنين مثل ماذكر من الإضلال والهداية فحذف المصدر وأقيم وصفه مقامه ثم قدم على الفعل لإفادة القصر فصار النظم مثل ذلك الإضلال وتلك الهداية يضل الله من يشاء إضلاله لصرف اختياره إلى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله الناطقة بالحق ويهدى من يشاء هدايته لصرف اختياره عند مشاهدة تلك الآيات إلى جانب الهدى لا إضلالا وهداية أدنى منهما .

﴿ وما يعلم جنود ربك ﴾ أى جموع خلقه التى من جملتها الملائكة المذكورون ﴿ إلا هو ﴾ إذ لاسبيل لأحد إلى حصر الممكنات والوقوف على حقائقها وصفاتها ولو إجمالا فضلا عن الاطلاع على تفاصيل أحوالها من كم وكيف[1] ونسبه ﴿ وما هى ﴾ أى سقر أو عدة خزنتها والآيات الناطقة بأحوالها ﴿ إلا ذكرى للبشر ﴾ إلا تذكرة لهم .

﴿ كلا ﴾ ردع لمن أنكرها أو أنكار ونفى لان يكون لهم تذكر ﴿ والقمر والليل إذا أدبر ﴾ وقرىء إذ دبر بمعنى أدبر كقبل بمعنى أقبل ومنه قولهم صاروا كأمس الدابر لقيل هو من دبر الليل النها إذا خلفه ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ أى أضاء وانكشف ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ جواب للقسم أو تعليل لكلا والقسم معترض للتوكيد والكبر جمع الكبرى جعلت ألف التأنيث كتائها فكما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها ونظيرها القواصع فى جمع

---

(١) الكم المقدار والكيف الماهية : أنظر مادتهما من تعريفات الجرجانى .

القاصعاء كأنها جمع قاصعة أى لإحدى البلايا أو لإحدى الدواهى الكبر على معنى أن البلايا الكبر أو الدواهى الكبر كثيرة وهذه واحدة فى العظم لا نظيرة لها ﴿ نذيراً للبشر ﴾ تمييز أى لإحدى الكبر إنذارا أو حال مما دلت عليه الجملة أى كبرت منذرة وقرىء نذير بالرفع على أنه خبر بعد خبر لأن أو لمبتدأ محذوف ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ بدل من للبشر أى نذيرا لمن شاء منكم أن يسبق إلى الخير فيهديه الله تعالى أو لم يشأ ذلك فيضله وقيل لمن شاء خبر وأن يتقدم أو يتأخر مبتدأ فيكون فى معنى قوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ مرهونة عند الله تعالى بكسبها والرهينة اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم لا صفة وإلا لقيل رهين لأن فعيلا بمعنى مفعول لا يدخله التاء ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ فإنهم فاكون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم كما يفك الراهن رهنه بأداء الدين وقيل هم الملائكة وقيل الأطفال وقيل هم الذين سبقت لهم من الله تعالى الحسنى وقيل الذين كانوا عن يمين آدم عليه السلام يوم الميثاق وقيل الذين يعطون كتبهم بأيمانهم ﴿ فى جنات ﴾ لا يكتنه كنهها ولا يدرك وصفها وهو خبر لمبتدأ محذوف والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ مما قبله من استثناء أصحاب اليمين كأنه قيل ما بالهم فقيل هم فى جنات وقيل حال من أصحاب اليمين وقيل من ضميرهم فى قوله تعالى ﴿ يتساءلون ﴾ وقيل ظرف للتساؤل وليس المراد بتساؤلهم أن يسأل بعضهم بعضا على أن يكون كل واحد منهم سائلا ومسؤلا معا بل صدور السؤال عنهم مجردا عن وقوعه عليهم فإن صيغة التفاعل وإن وضعت فى الأصل للدلالة على صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه معا بحيث يصير كل واحد من ذلك فاعلا ومفعولا معا كما فى قولك تراءى القوم أى رأى كل واحد منهم الآخر لكنها قد تجرد عن المعنى الثانى ويقصد بها الدلالة على الأول فقط فيذكر للفعل حينئذ مفعول كما فى قولك تراءوا الهلال فمعنى يتساءلون ﴿ عن المجرمين ﴾ يسألونهم عن أحوالهم وقد حذف المسؤل لكونه عين المسؤل عنه وقوله تعالى ﴿ ما سلككم فى سقر ﴾ مقدر بقول هو حال من فاعل يتساءلون أى

يسألونهم قائلين أى شىء أدخلكم فيها فتأمل ودع عنك ما تكلف فيه المتكلفون .

﴿ قالوا ﴾ أى المجرمون مجيبين للسائلين ﴿ لم نك من المصلين ﴾ للصلوات الواجبة ﴿ ولم نك نطعم المسكين ﴾ على معنى استمرار نفى الإطعام لا على نفى استمرار الإطعام كما مر مرارا وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع فى حق المؤاخذة ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أى نشرع فى الباطل مع الشارعين فيه ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ أى بيوم الجزاء أضافوه إلى الجزاء مع أن فيه من الدواهى والأهوال ما لا غاية له لأنه أدهاها وأهولها وأنهم ملابسوه وقد مضت بقية الدواهى وتأخير جنايتهم هذه مع كونها أعظم من الكل لتفخيمها كأنهم قالوا وكنا بعد ذلك كله مكذبين بيوم الدين ولبيان كون تكذيبهم به مقارنا لسائر جناياتهم المعدودة[1] مستمرا إلى آخر عمرهم حسبما نطق به قولهم ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ أى الموت ومقدماته ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ لو شفعوا لهم جميعا والفاء فى قوله تعالى ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ لترتيب إنكار إعراضهم عن القرآن بغير سبب على ما قبلها من موجبات الإقبال عليه والاتعاظ به من سوء حال المكذبين ومعرضين حال من الضمير فى الجار الواقع خبرا لما الاستفهامية وعن متعلقة به أى فإذا كان حال المكذبين به على ما ذكر فأى شىء حصل لهم معرضين عن القرآن مع تعاضد موجبات الأقبال عليه وتآخذ الدواعى إلى الإيمان به وقوله تعالى .

﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ حال من المستكن فى معرضين بطريق التداخل أى مشبهين بحمر نافرة ﴿ فرت من قسورة ﴾ أى من أسد فعولة من القسر وهو القهر والغلبة وقيل هى جماعة الرماة الذين يتصيدونها شبهوا فى إعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ وشرادهم عنه بحمر جدت فى نفارها مما أفزعها وفيه من ذمهم وتهجين حالهم ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ بل يريد كل

---

(١) فى ا المعلومة .

امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل لا يكتفون بتلك التذكرة ولا يرضون بها بل يريد كل واحد منهم أن يؤتى قراطيس تنشر وتقرأ وذلك أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لن نتبعك حتى تأتى كل واحد منا بكتاب(١) من السماء عنوانه(٢) من رب العالمين إلى فلان بن فلان نؤمر فيها باتباعك كما قالوا لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه وقرىء صحفا منشرة بسكون الحاء والنون ﴿ كلا ﴾ ردع لهم عن تلك الجراءة ﴿ بل لايخافون الآخرة ﴾ فلذلك يعرضون عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف ﴿ كلا ﴾ ردع عن إعراضهم ﴿ إنه ﴾ أى القرآن ﴿ تذكرة ﴾ وأى تذكرة ﴿ فمن شاء ﴾ أن يذكره ﴿ ذكره ﴾ وحاز بسببه سعادة الدارين ﴿ وما يذكرون ﴾ بمجرد مشيئتهم للذكر كما هو المفهوم من ظاهر قوله تعالى فمن شاء ذكره إذ لا تأثير لمشيئة العبد وإرادته فى أفعاله وقوله تعالى ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أو من أعم الأحوال أى وما يذكرون بعلة من العلل أو فى حال من الأحوال إلا بأن يشاء الله أو حال أن يشاء الله ذلك وهو تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله عز وجل وقرىء تذكرون على الخطاب التفاتا وقرىء بهما مشددا ﴿ هو أهل التقوى ﴾ أى حقيق بأن يتقى عقابه ويؤمن به ويطاع ﴿ وأهل المغفرة ﴾ حقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه .

عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المدثر أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد صلى الله عليه وسلم وكذب به بمكة .

* * *

(١) فى الأصل : بكتبه . (٢) فى ، ١١ عنوانها .

سورة القيامة

مكية ، وآياتها تسع وثلاثون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ إدخال لا النافية على فعل القسم شائع وفائدتها توكيد القسم قالوا إنها صلة مثلها فى قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب وقيل هى للنفى لكن لا لنفى نفس الإقسام بل لنفى ما ينبىء هو عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه كأن معنى لا أقسم بكذا لا أعظمه بإقسامى به حق إعظامه فإنه حقيق بأكثر من ذلك وأكثر وأما ما قيل من أن المعنى نفى الإقسام لوضوح الأمر فقد عرفت ما فيه فى قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم) وقيل إن لا نفى ورد لكلام معهود قبل القسم كأنهم أنكروا البعث فقيل لا أى ليس الأمر كذلك ثم قيل أقسم بيوم القيامة كقولك لا والله إن البعث حق وأيا ما كان ففى الإقسام على تحقق البعث بيوم القيامة من الجزالة ما لا مزيد عليه وقد مر تفصيله فى سورة يس وسورة الزخرف ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ أى بالنفس المتقية التى تلوم النفوس يومئذ على تقصيرهن فى التقوى ففيه طرف من البراعة التى فى القسم السابق أو بالنفس التى لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت فى الطاعات أو بالنفس المطمئنة اللائمة للنفس الأمارة وقيل بالجنس لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة إن عملت خيرا قالت كيف لم أزدد وإن عملت شرا قالت ليتنى كنت قصرت ولا يخفى ضعفه فإن هذا القدر من اللوم لا يكون مدارا للإعظام بالإقسام وإن صدر عن النفس المؤمنة المسيئة فكيف من الكافرة المندرجة تحت الجنس وقيل بنفس آدم عليه السلام فإنها لا تزال تتلوم[1] على فعلها الذى خرجت به من الجنة وجواب القسم ما دل عليه قوله تعالى .

---

(١) فى ١١ : تتلاوم .

﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ وهو لبيمثن والمراد بالإنسان الجنس والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وأن مخففة من الثقيلة وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف أى أيحسب أن الشأن لن نجمع عظامه فإن ذلك حسبان باطل فإنا نجمعها بعد تشتتها ورجوعها رميا ورفاتا مختلطا بالتراب وبعد ماسفتها الرياح وطيرتها فى أقطار الأرض وألقتها فى البحار وقيل إن عدى بن أبى ربيعة ختن الأخنس بن شريق وهما اللذان كان النبى عليه الصلاة والسلام يقول فيهما اللهم اكفنى جارى السوء قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يامحمد حدثنى عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره فأخبره رسول الله صلى الله عايه وسلم فقال لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك أو يجمع الله هذه العظام ﴿ بلى ﴾ أى نجمعها حال كوننا ﴿ قادرين على أى نسوى بنانه ﴾ أى نجمع سلامياته ونضم بعضها إلى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها فكيف بكبار العظام أو على أن نسوى أصابعه التى هى أطرافه وآخر ما يتم به خلقه وقرىء قادرون ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ عطف على أيحسب إما على أنه استفهام مثله أضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا أو على أنه إيجاب انتقل إليه عن الاستفهام أى بل يريد ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وما يستقبله من الزمان لا يرعوى عنه ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ أى متى يكون استبعادا أواستهزاء.

﴿ فإذا برق البصر ﴾ أى تحير فزعا من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره وقرىء بفتح الراء وهى لغة أو من البريق بمعنى لمع من شدة شخوصه وقرىء باق أى انفتح وانفرج ﴿ وخسف القمر ﴾ أى ذهب ضوؤه وقرىء على البناء للمفعول ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ بأن يطلعهما الله تعالى من المغرب وقيل جمعا فى ذهاب الضوء وقيل يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران فى النار وتذكير الفعل لتقدمه وتغليب المعطوف ﴿ يقول الإنسان يومئذ ﴾ أى يوم إذ تقع هذه الأمور ﴿ أين المفر ﴾ أى الفرار يأسا منه وقرىء بالكسر أى موضع الفرار وقد جوز أن يكون هو أيضا مصدرا كالمرجع .

﴿ كلا ﴾ ردع من طلب المفر وتمنيه ﴿ لا وزر ﴾ لا ملجأ مستعار من

الجبل وقيل كل ما التجأت إليه وتخلصت به فهو وزرك ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ أى إليه وحده استقرار العباد أو إلى حكمه استقرار أمرهم أو إلى مشيئته موضع قرارهم يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ ﴾ أى يخبر كل امرىء براً كان أو فاجرا عند وزن الأعمال ﴿ بما قدم ﴾ أى عمل من عمل خيرا كان أو شرا فيثاب بالأول ويعاقب بالثانى ﴿ وأخر ﴾ أى لم يعمل خيرا كان أو شرا فيعاقب بالأول ويثاب بالثانى أو بما قدم من حسنة أو سيئة وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده أو بما قدم من مال تصدق به فى حياته وبما أخر فخلفه أو وقفه أو أوصى به أو بأول عمله وآخره ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ أى حجة بينة على نفسه شاهدة بما صدر عنه من الأعمال السيئة كما يعرب عنه كلمة على وما سيأتى من الجملة الحالية وصفت بالبصارة مجازا كما وصفت الآيات بالأبصار فى قوله تعالى (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) أو عين بصيرة أو التاء للمبالغة ومعنى بل الترقى أى ينبأ الإنسان بأعماله بل هو يومئذ عالم بتفاصيل أحواله شاهد على نفسه لأن جوارحه تنطق بذلك وقوله تعالى ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ أى ولو جاء بكل معذرة يمكن أن يعتذر بها عن نفسه حال من المستكن فى بصيرة أو من مرفوع ينبأ أى هو بصيرة على نفسه تشهد عليه جوارحه وتقبل شهادتها ولو اعتذر بكل معذرة أو ينبأ بأعماله ولو اعتذر الخ والمعاذير اسم جمع للمعذرة كالمناكير اسم جمع للمنكر وقيل هو جمع معذار وهو الستر أى ولو أرخى ستوره . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقن الوحى نازع جبريل عليه السلام القراءة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ وخوفا من أن ينفلت منه فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يستنصت[1] له ملقيا إليه قلبه وسمعه حتى يقضى إليه الوحى ثم يقفيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه[2] ﴿ لا تحرك به ﴾ أى بالقرآن ﴿ لسانك ﴾ عند القاء الوحى ﴿ لتعجل به ﴾ أى لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك .

(١) فى ١١ أن ينصت .

(٢) انظر الدراسة الملحقة بكتاب إعجاز البيان للقنوى ط القاهرة .

﴿ إن علينا جمعه ﴾ فى صدرك بحيث لا يذهب عليك شىء من معانيه ﴿ وقرآنه ﴾ أى إثبات قراءته فى لسانك ﴿ فإذا قرأناه ﴾ أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام وإسناد القراءة إلى نون العظمة للمبالغة فى إيجاب التأنى ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ فكن مقفيا له ولا تراسله ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ أى بيان ما أشكل عليك من معانيه وأحكامه ﴿ كلا ﴾ ردع له عليه الصلاة والسلام عن عادة العجلة وترغيب له فى الأناة وأكد ذلك بقوله تعالى ﴿ بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ﴾ على تعميم الخطاب للكل أى بل أنتم يا بنى آدم لما خلقتم من عجل وجبلتم عليه تعجلون فى كل شىء ولذلك تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقيل كلا ردع للإنسان عن الاغترار بالعاجل فيكون جمع الضمير فى الفعلين باعتبار معنى الجنس ويؤيده قراءة الفعلين على صيغة الغيبة ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ أى وجوه كثيرة وهى وجوه المؤمنين المخلصين يوم إذ تقوم القيامة بهية متهللة يشاهد عليها نضرة النعيم على أن وجوه مبتدأ وناضرة خبره ويومئذ منصوب بناضرة وناظرة فى قوله تعالى ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ خبر ثان للمبتدأ أو نعت لناضرة وإلى ربها متعلق بناظرة وصحة وقوع النكرة مبتدأ لأن المقام مقام تفصيل لا على أن ناضرة صفة لوجوه والخبر ناظرة كما قيل لما هو المشهور من أن حق الصفة أن تكون معلومة الإنتساب إلى الموصوف عند السامع وحيث لم يكن ثبوت النضرة للوجوه كذلك فحقه أن يخبر به ومعنى كونها ناظرة إلى ربها أنها تراه تعالى مستغرقة فى مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه وتشاهده تعالى بلا كيف ولا على جهة وليس هذا فى جميع الأحوال حتى ينافيه نظرها إلى غيره وقيل منتظرة إنعامه ورد بأن الإنتظار لا يسند إلى الوجه وتفسيره بالجملة خلاف الظاهر وأن المستعمل بمعناه لا يعدى بإلى ﴿ ووجوه يومئذ باسرة ﴾ شديدة العبوس وهى وجوه الكفرة ﴿ تظن ﴾ يتوقع أربابها ﴿ أن يفعل بها فاقرة ﴾ داهية عظيمة تقصم فقار الظهر .

﴿ كلا ﴾ ردع عن إيثار العاجلة على الآخرة أى ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت الذى ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة من العلاقة

﴿ إذا بلغت التراقى ﴾ أى بلغت النفس أعالى الصدر وهى العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ﴿ وقيل من راق ﴾ أى قال من حضر صاحبها من يرقيه وينجيه مما هو فيه من الرقية وقيل هو من كلام ملائكة الموت أيكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب من الرقى ﴿ وظن أنه الفراق ﴾ وأيقن المحتضر أن ما نزل به للفراق من الدنيا ونعيمها ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ والتفت ساقه بساقه والتوت عليها عند حلول الموت وقيل هما شدة فراق الدنيا وشدة إقبال الآخرة وقيل هما ساقاه حين تلفان فى أكفانه ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ أى إلى الله وإلى حكمه يساق لا إلى غيره ﴿ فلا صدق ﴾ ما يجب تصديقه من الرسول عليه الصلاة والسلام والقرآن الذى نزل عليه أو فلا صدق ماله ولا زكاه ﴿ ولا صلى ﴾ ما فرض عليه والضمير فيهما للانسان المذكور فى قوله تعالى (أيحسب الإنسان) وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع فى حق المؤاخذة [(١)] كما مر ﴿ ولكن كذب ﴾ ما ذكر من الرسول والقرآن ﴿ وتولى ﴾ عن الطاعة ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ يتبختر افتخارا بذلك من المط فان المتبختر يمد خطاه فيكون أصله يتمطط أو من المطا وهو الظهر فانه يلوذ به ﴿ أولى لك فأولى ﴾ أى ويل لك وأصله أولاك الله ما تكرهه واللام مزيدة كما فى (ردف لكم) أو أولى لك الهلاك وقيل هو أفعل من الويل بعد القلب كأدنى من دون أو فعلى من آل يؤول بمعنى عقباك النار ﴿ ثم أولى لك فأولى ﴾ أى يتكرر عليه ذلك مرة بعد أخرى .

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ أى يخلى مهملا فلا يكلف ولا يجزى وقيل أن يترك فى قبره ولا يبعث وقوله تعالى ﴿ ألم يك نطفة من منى يمنى ﴾ الخ استئناف وارد لإبطال الحسبان المذكور فان مداره لما كان استبعادهم للاعادة استدل على تحققها ببدء الخلق ﴿ ثم كان علقة ﴾ أى بقدرة الله تعالى لقوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة ﴿ فخلق ﴾ أى فقدر بأن جعلها مضغة مخلقة ﴿ فسوى ﴾

---

(١) انظر تفصيل هذه الأحكام فى باب الجهاد من المغنى لابن قدامة .

فعدل وكمل نشأته ﴿ فجعل منه ﴾ من الانسان ﴿ الزوجين ﴾ أى الصنفين ﴿ الذكر والأنثى ﴾ بدل الزوجين ﴿ أليس ذلك ﴾ العظيم الشأن الذى أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿ بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ وهو أهون من البدء فى قياس العقل . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأها قال سبحانك بلى وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أنه كان مؤمنا بيوم القيامة .

* * *

سورة الإنسان

مكية ، وآيها إحدى وثلاثون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ هل أتى ﴾ استفهام تقرير وتقريب فإن هل بمعنى قد والأصل أهل أتى ﴿ على الإنسان ﴾ قبل زمان قريب ﴿ حين من الدهر ﴾ أى طائفة محدودة كائنة من الزمن الممتد ﴿ لم يكن شيئا مذكورا ﴾ بل كان شيئاً منسيا غير مذكور بالإنسانية أصلا كالعنصر والنطفة وغير ذلك والجملة المنفية حال من الانسان أى غير مذكور أو صفة أخرى لحين على حذف العائد إلى الموصوف أى لم يكن فيه شيئاً مذكورا والمراد بالإنسان الجنس فالإظهار فى قوله تعالى ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة ﴾ لزيادة التقرير أو آدم عليه السلام وهو المروى عن ابن عباس وقتادة والثورى وعكرمة والشعبى قال ابن عباس فى رواية أبى صالح عنه مرت به أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملق بين مكة والطائف وفى رواية الضحاك عنه أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة ثم من حمأ مسنون فأقام أربعين سنة ثم من صلصال فأقام أربعين سنة فتم خلقه بعد

مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح ، وحكى الماوردى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الحين المذكور هىهنا هو الزمن الطويل الممتد الذى لا يعرف مقداره فيكون الأول إشارة إلى خلقه عليه الصلاة والسلام وهذا بيانا لخلق بنيه ﴿ أمشاج ﴾ أخلاط جمع مشج أو مشيج من مشجت الشيء إذا خلطته وصف النطفة به لما أن المراد بها مجموع الماءين ولكل منهما أوصاف مختلفة من اللون والرقة والغلظ وخواص متباينة فإن ماء الرجل أبيض غليظ فيه قوة العقد وماء المرأة أصفر رقيق فيه قوة الانعقاد يخلق منهما الولد فما كان من عصب وعظم وقوة فمن ماء الرجل وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة قال القرطبي وقد روى هذا مرفوعا وقيل مفرد كأعشار وأكياش وقيل أمشاج ألوان وأطوار فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة إلى تمام الخلقة وقوله تعالى ﴿ نبتليه ﴾ حال من فاعل خلقنا أى مريدين ابتلاءه بالتكليف فيما سيأتى أو ناقلين له من حال إلى حال على طريقة الاستعارة كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما نصرفه فى بطن أمه نطفة ثم علقة إلى آخره ﴿ فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ ليتمكن من استماع الآيات التنزيلية ومشاهدة الآيات التكوينية فهو كالمسبب عن الابتلاء فلذلك عطف على الخلق المقيد به بالفاء ورتب عليه قوله تعالى .

﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ بإنزال الآيات ونصب الدلائل ﴿ إما شاكرا وإما كفورا ﴾ حالان من مفعول هدينا أى مكناه وأقدرناه على سلوك الطريق الموصل إلى البغية فى حالتيه جميعا وإما للتفصيل أو التقسيم أى هديناه إلى ما يوصل إليها فى حاليه جميعا أو مقسوما إليهما بعضهم شاكر بالاهتداء والأخذ فيه وبعضهم كفور بالأعراض عنه وقيل من السبيل أى عرفناه السبيل إما سبيلا شاكرا أو كفورا على وصف السبيل بوصف سالكه مجازا وقرىء أما بالفتح على حذف الجواب أى أما شاكرا فبتوفيقنا وأما كفورا فبسوء اختياره لا بمجرد إجبارنا من غير اختيار من قبله وإيراد الكفور لمراعاة الفواصل والإشعار بأن الإنسان قلما يخلو من كفران ما وإنما المؤاخذ عليه الكفر المفرط ﴿ إنا أعتدنا للكافرين ﴾ من أفراد الإنسان الذى هديناه

السبيل ﴿ سلاسل ﴾ بها يقادون ﴿ وأغلالا ﴾ بها يقيدون ﴿ وسعيرا ﴾ بها يحرقون وتقديم وعيدهم مع تأخرهم للجمع بينهما فى الذكر كما فى قوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم) الآية ولأن الانذار أهم وأنفع وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن على أن فى وصفهم تفصيلا ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقرىء سلاسلا للتناسب ﴿ إن الأبرار ﴾ شروع فى بيان حسن حال الشاكرين إثر بيان سوء حال الكافرين وإيرادهم بعنوان البر للإشعار بما استحقوا به ما نالوه من الكرامة السنية والأبرار جمع بر أو بار كرب وأرباب وشاهد وأشهاد قيل هو من يبر خالقه أى يطيعه وقيل من يمتثل بأمره تعالى وقيل من يؤدى حق الله تعالى ويوفى بالنذر وعن الحسن البر من لا يؤذى الذر ﴿ يشربون من كأس ﴾ هى الزجاجة إذا كانت فيها خمر وتطلق على نفس الخمر أيضا فمن على الأول ابتدائية وعلى الثانى تبعيضية أو بيانية ﴿ كان مزاجها ﴾ أى ما تمزج به ﴿ كافورا ﴾ أى ماء كافور وهو اسم عين فى الجنة ماؤها فى بياض الكافور ورائحته وبردة والجملة صفة كأس وقوله تعالى ﴿ عينا ﴾ بدل من كافورا وعن قتادة تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك وقيل تخلق فيها رائحة الكافور وبياضه وبرده فكأنها مزجت بالكافور فعينا على هذين القولين بدل من محل من كأس على تقدير مضاف أى يشربون خمراً خمر عين أو نصب على الاختصاص وقوله تعالى ﴿ يشرب بها عباد الله ﴾ صفة عينا أى يشربون بها الخمر لكونها ممزوجة بها وقيل ضمن يشرب معنى يلتذ وقيل الباء بمعنى من وقيل زائدة ويعضده قراءة ابن أبى عبلة يشربها عباد الله وقال الضمير للكأس والمعنى يشربون العين بتلك الكأس ﴿ يفجرونها تفجيرا ﴾ أى يجرونها حيثما شاءوا من منازلهم إجراء سهلا لا يمتنع عليهم بل يجرى جريا بقوة واندفاع والجملة صفة أخرى لعينا وقوله تعالى :

﴿ يوفون بالنذر ﴾ استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر من النعيم مشتمل على نوع تفصيل لما ينبىء عنه اسم الأبرار إجمالا كأنه قيل ماذا

يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية فقبل يوفون بما أوجبوه على أنفسهم فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم ﴿ ويخافون يوما كان شره ﴾ عذابه ﴿ مستطيرا ﴾ فاشيا منتشراً فى الأقطار غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر وهو أبلغ من طار بمنزلة استنفر من نفر ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ أى كائنين على حب الطعام والحاجة إليه كما فى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون أو على حب الاطعام بأن يكون ذلك بطيب النفس أو كائنين على حب الله تعالى أو إطعاما كائنا على حبه تعالى وهو الأنسب لما سيأتى من قوله تعالى لوجه الله ﴿ مسكينا ويتيما وأسيرا ﴾ أى أسير فإنه كان عليه الصلاة والسلام يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه أو أسيرا مؤمنا فيدخل فيه المملوك والمسجون وقد سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الغريم أسيرا فقال : «غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك» ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ على إرادة قول هو فى موقع الحال من فاعل يطعمون أى قائلين ذلك بلسان الحال[1] أو بلسان المقال إزاحة لتوهم المن المبطل للصدقة وتوقع المكافأة المنقصة للأجر وعن الصديقة رضى الله تعالى عنها أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل الرسول ما قالوا فإذا ذكر دعاءهم دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله تعالى ﴿ لانريد منكم جزاء ولاشكورا ﴾ وهو تقرير وتأكيد لما قبله .

﴿ إنا نخاف من ربنا يوما ﴾ أى عذاب يوم ﴿عبوسا﴾ يعبس فيه الوجوه أو يشبه الأسد العبوس فى الشدة والضراوة ﴿ قمطريرا ﴾ شديد العبوس فلذلك نفعل بكم ما نفعل رجاء أن يقينا ربنا بذلك شره وقيل هو تعليل لعدم إرادة الجزاء والشكور أى إنا نخاف عقاب الله تعالى إن أردناهما ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ﴾ بسبب خوفهم وتحفظهم عنه ﴿ولقاهم نضرة وسرورا﴾ أى أعطاهم

(١) فى ١١ : بلسان حالهم .

بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة فى الوجوه وسرورا فى القلوب ﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ بصبرهم على مشاق الطاعات ومهاجرة هوى النفس فى اجتناب المحرمات وإيثار الأموال ﴿ جنة ﴾ بستانا يأكلون منه ما شاؤا ﴿ وحريرا ﴾ يلبسونه ويتزينون به وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما مرضا فعادهما النبى صلى الله عليه وسلم فى ناس معه فقالوا لعلى رضى الله عنه لو نذرت على [شفاء][1] ولدك فنذر على وفاطمة رضى الله تعالى عنهما وفضة جارية لهما إن برئا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شيء فاستقرض على رضى الله عنه من شمعون الخيبرى ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة رضى الله تعالى عنها صاعا واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعمونى أطعمكم الله تعالى من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياما فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه ثم وقف عليهم فى الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ على بيد الحسن والحسين رضى الله عنهم فأقبلوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال عليه الصلاة والسلام ما أشد ما يسوؤنى ما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة فى محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل عليه السلام وقال خذها يا محمد هنأك الله تعالى فى أهل بيتك فأقرأه السورة ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ حال من هم فى جزاهم والعامل فيها جزى وقيل صفة لجنة من غير إبراز الضمير والأرائك هى السرر فى الحجال وقوله تعالى :

﴿ لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ﴾ إما حال ثانية من الضمير أو المستكن فى متكئين والمعنى أنه يمر عليهم هواء معتدل لا حار محم ولا بارد مؤذ وقيل

---

(١) سقطت من الأصل .

الزمهرير القمر فى لغة طيء والمعنى أن هواءها مضيء بذاته لايحتاج إلى شمس ولا قمر ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ عطف على ما قبلها حال مثلها أو صفة لمحذوف معطوف على جنة أى وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها على أنهم وعدوا جنتين كما فى قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقرىء دانية بالرفع على أنه خبر لظلالها والجملة فى حيز الحال والمعنى لايرون فيها شمسا ولا زمهريراً والحال أن ظلالها دانية قالوا معناه أن ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار مظلة عليهم زيادة فى نعيمهم على معنى أنه لو كان هناك شمس مؤذية لكانت أشجارها مظلة عليهم مع أنه لاشمس ثمة ولا قمر ﴿وذللت قطوفها تذليلا﴾ أى سخرت ثمارها لمتناوليها وسهل أخذها من الذل وهو ضد الصعوبة والجملة حال من دانية أى تدنو ظلالها عليهم مذللة لهم قطوفها أو معطوفة على دانية أى دانية عليهم ظلالها ومذللة قطوفها وعلى تقدير رفع دانية فهى جملة فعلية معطوفة على جملة أسمية ﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب﴾ الكوب الكوز العظيم الذى لا أذن له ولا عروة ﴿كانت قواريرا قوارير من فضة﴾ أى تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها[1] ولين الفضة وبياضها والجملة صفة الأكواب وقرىء بتنوين قوارير الثانى أيضاً وقرئا بغير تنوين وقرىء الثانى بالرفع على هى قوارير ﴿قدروها تقديرا﴾ صفة لقوارير ومعنى تقديرهم لها أنهم قدروها فى أنفسهم وأرادوا أن تكون على مقادير وأشكال معينة موافقة لشهواتهم فجاءت حسبما قدروها أو قدروها بأعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها وقيل الضمير للطائفين بها المدلول عليهم بقوله تعالى (ويطاف عليهم) فالمعنى قدروا شرابها على قدر اشتهائهم وقرىء قدروها على البناء للمفعول أى جعلوا قادرين لها كما شاؤا من قدر منقولا من قدرت الشيء .

﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا﴾ أى ما يشبه الزنجبيل فى الطعم وكان الشراب الممزوج به أطيب ما تستطيبه العرب وألذ ما تستلذ به ﴿عينا﴾

---

(١) فى ١١ : وشفها .

بدل من زنجبيلا وقيل تمزج كأسهم بالزنجبيل بعينه أو يخلق الله تعالى طعمه فيها فعينا حينئذ بدل من كأسا كأنه قيل ويسقون فيها كأسا كأس عين أو نصب على الاختصاص ﴿ فيها تسمى سلسبيلا ﴾ لسلاسة انحدارها فى الحلق وسهولة مساغها يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل ولذلك حكم بزيادة الباء والمراد بيان أنها فى طعم الزنجبيل وليس فيها لذعة بل نقيض اللذع هو السلاسة ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ أى دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء ﴿ إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ﴾ لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانبثاثهم فى مجالسهم ومنازلهم وانعكاس أشعة بعضهم إلى[1] بعض ﴿ وإذا رأيت ثم ﴾ ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر ولا منوى بل معناه أن بصرك أينما وقع فى الجنة ﴿ رأيت نعيما وملكا كبيراً ﴾ أى هنيئا واسعا وفى الحديث أدنى أهل الجنة منزلة ينظر فى ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه وقيل لا زوال له وقيل إذا أرادوا شيئاً كان وقيل يسلم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم ﴿ عاليهم ثياب سندس خضر ﴾ قيل عاليهم ظرف على أنه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر والجملة صفة أخرى لولدان كأنه قيل يطوف عليهم ولدان فوقهم ثياب الخ وقيل حال من ضمير عليهم أو حسبتهم أى يطوف عليهم ولدان عاليا للمطوف عليهم ثياب الخ أو حسبتهم لؤلؤا منثورا عاليا لهم ثياب الخ وقرىء عاليهم بالرفع على أنه مبتدأ خبره ثياب أى ما يعلوه من لباسهم ثياب سندس وقرىء خضر بالجر حملا على سندس بالمعنى لكونه اسم جنس ﴿ وإستبرق ﴾ بالرفع عطفاً على ثياب وقرىء برفع الأول وجر الثانى وقرىء بالعكس وقرىء بجرهما وقرىء واستبرق بوصل الهمزة والفتح على أنه استفعل من البريق جعل علما لهذا النوع من الثياب .

﴿ وحلو أساور من فضة ﴾ عطف على يطوف عليهم ولا ينافيه قوله تعالى أساور من ذهب لإمكان الجمع والمعاقبة والتبعيض فإن حلى أهل الجنة يختلف

---

(١) فى ١١ : على بعض .

حسب اختلاف أعمالهم فلعله تعالى يفيض عليهم جزاء لما عملوه بأيديهم حليا وأنوارا تتفاوت تفاوت الذهب والفضة أو حال من ضمير عاليهم بإضمار قد وعلى هذا يجوز أن يكون هذا للخدم وذاك[1] للمخدومين .

﴿ وسقاهم ربهم شرابا طهورا ﴾ هو نوع آخر يفوق النوعين السالفين كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى رب العالمين ووصفه بالطهورية فإنه يطهر شاربه عن دنس الميل إلى الملاذ الحسية والركون إلى ما سوى الحق فيتجرد لمطالعة جماله ملتذا بلقائه باقيا ببقائه وهى الغاية القاصية من منازل الصديقين ولذلك ختم بها مقالة ثواب الأبرار ﴿ إن هذا ﴾ على إضمار القول أى يقال لهم إن هذا الذى ذكر من فنون الكرامات ﴿ كان لكم جزاء ﴾ بمقابلة أعمالكم الحسنة ﴿ وكان سعيكم مشكورا ﴾ مرضيا مقبولا مقابلا بالثواب ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ﴾ أى مفرقا منجما لحكم بالغة مقتضية له لا غيرنا كما يعرب عنه تكرير الضمير مع إن ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ بتأخير نصرك على الكفار فان له عاقبة حميدة ﴿ ولا تطع منهم آثما أو كفورا ﴾ أى كل واحد من مرتكب الإثم الداعى لك إليه ومن الغالى فى الكفر الداعى إليه وأو للدلالة على أنهما سيان فى استحقاق العصيان والاستقلال به والتقسيم باعتبار ما يدعونه إليه فإن ترتب النهى على الوصفين مشعر بعليتهما له فلا بد أن يكون النهى عن الإطاعة فى الإثم والكفر فيما ليس بإثم ولا كفر وقيل الآثم عتبة فانه كان ركابا للمآثم متعاطيا لأنواع الفسوق والكفور الوليد فانه كان غاليا فى الكفر شديد الشكيمة فى العتو ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ﴾ وداوم على ذكره فى جميع الأوقات أو دم على صلاة الفجر والظهر والعصر فان الأصيل ينتظمهما ﴿ ومن الليل فاسجد له ﴾ وبعض الليل فصل له ولعله صلاة المغرب والعشاء وتقديم الظرف لما فى صلاة الليل من مزيد كلفة وخلوص ﴿ وسبحه ليلا طويلا ﴾ وتهجد له قطعا من الليل طويلا .

---

(١) فى ١١ : ذلك .

﴿ إن هؤلاء ﴾ الكفرة ﴿ يحبون العاجلة ﴾ وينهمكون في لذاتها الفانية ﴿ ويذرون وراءهم ﴾ أي أمامهم لا يستعدون أو ينبذون وراء ظهورهم ﴿ يوما ثقيلا ﴾ لا يعبأون به ووصفه بالثقل لتشبيه شدته وهوله بثقل شيء فادح باهظ لحامله بطريق الاستعارة وهو كالتعليل لما أمر به ونهى عنه ﴿ نحن خلقناهم ﴾ لا غيرنا ﴿ وشددنا أسرهم ﴾ أي أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب ﴿ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم ﴾ بعد إهلاكهم ﴿ تبديلا ﴾ بديعا لا ريب فيه هو البعث كما ينبيء عنه كلمة إذا أو بدلنا غيرهم ممن يطيع كقوله تعالى (يستبدل قوما غيركم) وإذا للدلالة على تحقق القدرة وقوة الداعية ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ إشارة إلى السورة أو الآيات القريبة ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ أي فمن شاء أن يتخذ إليه تعالى سبيلا أي وسيلة توصله إلى ثوابه اتخذه أي تقرب إليه بالعمل بما في تضاعيفها وقوله تعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن شاء الله ﴾ تحقيق للحق ببيان أن مجرد مشيئتهم غير كافية في اتخاذ السبيل كما هو المفهوم من ظاهر الشرطية أي وما تشاؤن اتخاذ السبيل ولا تقدرون على تحصيله في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى تحصيله لكم إذ لا دخل لمشيئة العبد إلا في الكسب وإنما التأثير والخلق لمشيئة الله عز وجل وقريء يشاؤون بالياء وقريء إلا ما يشاء الله وقوله تعالى ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ بيان لكون مشيئته تعالى مبنية على أساس العلم والحكمة والمعنى أنه تعالى مبالغ في العلم والحكمة فيعلم ما يستأهله كل أحد فلا يشاء لهم إلا ما يستدعيه علمه وتقتضيه حكمته وقوله تعالى ﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾ بيان لأحكام مشيئته المترتبة على علمه وحكمته أي يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها وهو الذي يصرف مشيئته نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى حيث يوفقه لما يؤدي إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة ﴿ والظالمين ﴾ وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ما ذكر ﴿ أعد لهم عذابا أليما ﴾ أي متناهيا في الإيلام قال الزجاج نصب الظالمين لأن ما قبله منصوب أي يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين ويكون أعد لهم تفسيرا

لهذا المضمر وقرىء بالرفع على الابتداء . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله تعالى جنة وحريرا .

• • •

سورة والمرسلات

مكية ، وآيها خمسون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا ﴾ إقسام من الله عز وجل بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن فى مضيهن عصف الرياح مسارعة فى الإمتثال بالأمر وبطوائف أخرى نشرن أجنحتهن فى الجو عند انحطاطهن بالوحى أو نشرن الشرائع فى الأقطار أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين ففرقن بين الحق والباطل فألقين ذكرا إلى الأنبياء ﴿ عذرا ﴾ للمحقين ﴿ أو نذرا ﴾ للمبطلين ولعل تقديم نشر الشرائع ونشر النفوس والفرق على الالقاء للايذان بكونها غاية للالقاء حقيقة بالاعتناء بها أو للاشعار بأن كلا من الأوصاف المذكورة مستقل بالدلالة على استحقاق الطوائف الموصوفة بها للتفخيم والإجلال بالإقسام بهن ولو جىء بها على ترتيب الوقوع لربما فهم أن مجموع الالقاء والنشر والفرق هو الموجب لما ذكر من الاستحقاق أو إقسام برياح عذاب أرسلهن فعصفن وبرياح رحمة نشرن السحاب فى الجو ففرقن بينه كقوله تعالى ويجعله كسفا أو بسحائب نشرن الموات ففرقن كل صنف منها عن سائر الأصناف بالشكل واللون وسائر الخواص أو فرقن بين من يشكر الله تعالى وبين من يكفر به فألقين ذكرا أما عذرا للمعتذرين إلى الله تعالى بتوبتهم واستغفارهم عند مشاهدتهم لآثار رحمته تعالى فى الغيث ويشكرونها وإما إنذار للذين يكفرونها وينسبونها

إلى الأنواء وإسناد إلقاء الذكر إليهن لكونهن سببا فى حصوله إذا شكرت النعمة فيهن أو كفرت أو اقسام بآيات القرآن المرسلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعصفن سائر الكتب بالنسخ ونشرن آثار الهدى من مشارق الأرض ومغاربها وفرقن بين الحق والباطل فألقين ذكر الحق فى أكناف العالمين والعرف إما نقيض النكر وانتصابه على العلة(١) أى أرسلنا للاحسان والمعروف فإن إرسال ملائكة العذاب معروف للأنبياء عليهم السلام والمؤمنين أو بمعنى المتابعة من عرف الفرس وانتصابه على الحالية والعذر والنذر مصدران من عذر إذا محا الإساءة ومن أنذر إذا خوف وانتصابهما على البدلية من ذكرا أو على العلية وقرئا بالتثقيل .

﴿ إن ماتوعدون لواقع ﴾ جواب للقسم أى إن الذى توعدونه من مجىء القيامة كائن لا محالة ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ محيت ومحقت أو ذهب بنورها ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ صدعت وفتحت فكانت أبوابا ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ جعلت كالحب الذى ينسف بالمنسف ونحوه (وبست الجبال) بسا وقيل أخذت من مقارها بسرعة من انتسفت الشىء إذا اختطفته وقرىء طمست وفرجت ونسفت مشددة ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ أى عين لهم الوقت الذى يحضرون فيه للشهادة على أممهم وذلك عند مجيئه وحضوره إذ لا يتعين لهم قبله أو بلغوا الميقات الذى كانوا ينتظرونه وقرىء وقتت على الأصل وبالتخفيف فيهما ﴿ لأى يوم أجلت ﴾ مقدر بقول هو جواب لإذا فى قوله تعالى (وإذا الرسل أقتت) أو حال من مرفوع أقتت أى يقال لأى يوم أخرت الأمور المتعلقة بالرسل والمراد تعظيم ذلك اليوم والتعجيب من هوله وقوله تعالى ﴿ ليوم الفصل ﴾ بيان ليوم التأجيل وهو اليوم الذى يفصل فيه بين الخلائق ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ ما مبتدأ أدراك خبره أى أى شىء جعلك داريا ما هو فوضع موضع الضمير يوم الفصل لزيادة تفظيع وتهويل على أن

---

(١) فى ١١ : على العلية .

ما خبر ويوم الفصل مبتدأ لا بالعكس كما اختاره سيبويه لأن محط الفائدة بيان كون يوم الفصل أمراً بديعاً هائلا لا يقادر (١) قدره ولا يكتنه كنهه كما يفيده خبرية ما لا بيان كون أمر بديع من الأمور يوم الفصل كما يفيده عكسه ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى فى ذلك اليوم الهائل وويل فى الأصل مصدر منصوب ساد مسد فعله لكن عدل به إلى الرفع للدلالة على ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ويومئذ ظرفه أو صفته .

﴿ألم نهلك الأولين﴾ كقوم نوح وعاد وثمود لتكذيبهم به وقرىء نهلك بفتح النون من هلكه بمعنى أهلكه ﴿ ثم نتبعهم الآخرين ﴾ بالرفع على ثم نحن نتبعهم الآخرين من نظرائهم السالكين لمسلكهم فى الكفر والتكذيب وهو وعيد لكفار مكة وقرىء ثم سنتبعهم وقرىء نتبعهم بالجزم عطفاً على نهلك فيكون المراد بالآخرين المتأخرين هلاكا من المذكورين كقوم لوط وشعيب وموسى عليهم السلام ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الفعل الفظيع ﴿ نفعل بالمجرمين ﴾ أى سنتنا جارية على ذلك ﴿ ويل يومئذ ﴾ أى يوم إذ أهلكناهم ﴿ للمكذبين ﴾ بآيات الله تعالى وأنبيائه وليس فيه تكرير لما أن الويل الأول لعذاب الآخرة وهذا لعذاب الدنيا ﴿ ألم نخلقكم ﴾ أى ألم نقدركم ﴿ من ماء مهين ﴾ أى من نطفة قذرة مهينة ﴿ فجعلناه فى قرار مكين ﴾ هو الرحم ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ إلى مقدار معلوم من الوقت قدره الله تعالى للولادة تسعة أشهر أو أقل منها أو أكثر ﴿ فقدرنا ﴾ أى فقدرناه وقد قرىء مشددا أو فقدرنا على ذلك على أن المراد بالقدرة ما يقارن وجود المقدور بالفعل ﴿ فنعم القادرون ﴾ أى نحن ﴿ ويل يوم للمكذبين ﴾ بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة ﴿ألم نجعل الأرض كفاتا﴾ الكفات اسم ما يكفت أى يضم ويجمع من كفت الشىء إذا ضمه وجمعه كالضمام والجماع لما يضم ويجمع أى ألم نجعلها كفاتا تكفت ﴿أحياء﴾ كثيرة على ظهرها ﴿وأمواتا ﴾ غير محصورة فى بطنها وقيل هو مصدر نعت به للمبالغة

(١) فى ١١ : لا يقدر .

وقيل جمع كافت كصائم وصيام أو كفت وهو الوعاء أجرى على الأرض باعتبار بقاعها وقيل تنكير أحياء وأمواتا لأن أحياء الإنس وأمواتهم بعض الأحياء والأموات وقيل انتصابهما على الحالية من محذوف أى كفاتا تكفتكم أحياء وأمواتا ﴿وجعلنا فيها رواسى﴾ أى ثوابت ﴿شامخات﴾ طوالا شواهق ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث فى غير العقلاء مطرد كداجن ودواجن وأشهر معلومات وتنكيرها للتفخيم أو للإشعار بأن فيها ما لم يعرف ﴿وأسقيناكم ماء فراتا﴾ بأن خلقنا فيها أنهارا ومنابع .

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بأمثال هذه النعم العظيمة ﴿انطلقوا﴾ أى يقال لهم يومئذ للتوبيخ والتقريع انطلقوا ﴿إلى ما كنتم به تكذبون﴾ فى الدنيا من العذاب ﴿انطلقوا﴾ خصوصاً ﴿إلى ظل﴾ أى ظل دخان جهنم كقوله تعالى وظل من يحموم وقرىء انطلقوا على لفظ الماضى اخبارا بعد الأمر عن عملهم بموجبه لاضطرارهم إليه طوعا أو كرها ﴿ذى ثلاث شعب﴾ يتشعب لعظمه ثلاث شعب كما هو شأن الدخان العظيم تراه يتفرق ذوائب وقيل يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسرادق ويتشعب من دخانها ثلاث شعب فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم والمؤمنون فى ظل العرش قيل خصوصية الثلاث إما لأن حجاب النفس عن أنوار القدس الحس والخيال والوهم أو لأن المؤدى إلى هذا العذاب هو القوة الوهمية الشيطانية الحالة فى الدماغ والقوة الغضبية السبعية التى عن يمين القلب والقوة الشهوية البهيمية التى عن يساره ولذلك قيل تقف شعبة فوق الكافر وشعبة عن يمينه وشعبة عن يساره ﴿لا ظليل﴾ تهكم بهم أو رد لما أوهمه لفظ الظل .

﴿ولا يغنى من اللهب﴾ أى غير مغن لهم من حر اللهب شيئاً ﴿إنها ترمى بشرر كالقصر﴾ أى كل شررة كالقصر من القصور فى عظمها وقيل هو الغليظ من الشجر الواحدة قصرة نحو جمر وجمرة وقرىء كالقصر بفتحتين وهى أعناق الإبل أو أعناق النخل نحو شجرة وشجر وقرى كالقصر بمعنى القصور كرهن ورهن وقرىء كالقصر جمع قصرة ﴿كأنه جمالة﴾ قيل هو جمع جمل والتاء

لتأنيث الجمع يقال جمل وجمال وجمالة وقيل اسم جمع كالحجارة ﴿ صفر ﴾ فإن الشرار لما فيه من النارية يكون أصفر وقيل سود لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة والأول تشبيه فى العظم وهذا فى اللون والكثرة والتتابع والاختلاط والحركة وقرىء جمالات جمع جمال أو جمالة وقرىء جمالات جمع جمالة وقد قرىء بها وهى الحبل العظيم من حبال السفن وقلوس الجسور والتشبيه فى امتداده والتفافه .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم لا ينطقون ﴾ إشارة إلى وقت دخولهم النار أى هذا يوم لا ينطقون فيه بشىء لما أن السؤال والجواب والحساب قد انقضت قبل ذلك ويوم القيامة طويل له مواطن ومواقيت ينطقون فى وقت دون وقت فعبر عن وقت بيوم أو لا ينطقون بشىء ينفعهم فإن ذلك كلا نطق وقرىء بنصب اليوم أى هذا الذى فصل واقع يوم لا ينطقون ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ عطف على يؤذن منتظم فى سلك النفى أى لا يكون لهم إذن واعتذار متعقب له من غير أن يجعل الاعتذار مسببا عن الإذن كما لو نصب ﴿ ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل ﴾ بين الحق والباطل والمحق والمبطل ﴿ جمعناكم ﴾ خطاب لأمة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ والأولين ﴾ من الأمم وهذا تقرير وبيان للفصل ﴿ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ فإن جميع من كنتم تقلدونهم وتقتدون بهم حاضرون وهذا تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين فى الدنيا وإظهار لعجزهم ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ حيث ظهر أن لا حيلة لهم فى الخلاص من العذاب ﴿ إن المتقين ﴾ من الكفر والتكذيب ﴿ فى ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون ﴾ أى مستقرون فى فنون الترفه وأنواع التنعم ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ مقدر بقول هو حال من ضمير المتقين فى الخبر أى مقولا [1] لهم كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملونه فى الدنيا من الأعمال الصالحة ﴿ إنا كذلك ﴾ الجزاء العظيم ﴿ نجزى المحسنين ﴾ أى فى عقائدهم وأعمالهم لا جزاء أدنى منه ﴿ ويل يومئذ

(١) فى ١١ : أى يقال لهم .

للمكذبين ﴾ حيث نال أعداؤهم هذا الثواب الجزيل وهم بقوا فى العذاب المخلد الوبيل ﴿ كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون ﴾ مقدر بقول هو حال من المكذبين أى الويل ثابت لهم مقولا لهم ذلك تذكيراً لهم بحالهم فى الدنيا وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع الفانى عن قريب على النعيم الخالد وعلل ذلك بإجرامهم دلالة على أن كل مجرم مآله هذا وقيل هو كلام مستأنف خوطب به المكذبون فى الدنيا بعد بيان مآل حالهم وقرر ذلك بقوله تعالى :

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ لزيادة التوبيخ والتقريع ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا ﴾ أى أطيعوا الله واخشعوا وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه وارفضوا هذا الاستكبار والنخوة ﴿ لا يركعون ﴾ لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ويصرون على ما هم عليه من الاستكبار وقيل إذا أمروا بالصلاة أو الركوع لا يفعلون إذ روى أنه نزل حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقيفاً بالصلاة فقالوا لا نجبى فإنها مسبة علينا فقال عليه الصلاة والسلام لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود وقيل هو يوم القيامة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع فى حق المؤاخذة ﴿ فبأى حديث بعده ﴾ أى بعد القرآن الناطق بأحاديث الدارين وأخبار النشأتين على نمط بديع معجز مؤسس على حجج قاطعة وبراهين ساطعة ﴿ يؤمنون ﴾ إذا لم يؤمنوا به وقرىء تؤمنون على الخطاب . عن رسول الله صلى الله عليه من قرأ سورة والمرسلات كتب له أنه ليس من المشركين .

***

سورة النبأ

مكية ، وآيها أربعون أو إحدى وأربعون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ عم ﴾ أصله عما لحذف منه الألف إما فرقا بين ما الاستفهامية وغيرها أو قصدا للخفة لكثرة استعمالها وقد قرىء على الأصل وما فيها من الإيهام للإيذان بفخامة شأن المسئول عنه وهوله وخروجه عن حدود الأجناس المعهوده أى عن أى شيء عظيم الشأن ﴿ يتساءلون ﴾ أى أهل مكة وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم ويخوضون فيه إنكارا واستهزاء لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومسماه بل عن وقوعه الذى هو حال من أحواله ووصف من أوصافه فإن ما وإن وضعت لطلب حقائق الأشياء ومسميات أسمائها كما فى قولك ماالملك وما الروح لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول مازيد فيقال عالم أوطبيب وقيل كانوا يسألون عنه الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين استهزاء كقولهم يتداعونهم أو يدعونهم وتحقيقه أن صيغة التفاعل فى الأفعال المتعدية موضوعة لإفادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يصير كل واحد من ذلك فاعلا ومفعولا معا لكنه يرفع باسناد الفعل اليه ترجيحا لجانب فاعليته ويحال بمفعوليته على دلالة العقل كما فى قولك تراءى القوم أى رأى كل واحد منهم الآخر وقد تجرد عن المعنى الثانى فيراد بها مجرد صدور الفعل عن المتعدد عاريا عن اعتبار وقوعه عليه فيذكر للفعل حينئذ مفعول متعدد كما فى المثال المذكور أو واحد كما فى قولك تراءوا الهلال وقد يحذف لظهوره كما فيما نحن فيه فالمعنى عن أى شيء يسأل هؤلاء القوم الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وربما تجرد عن صدور الفعل عن المتعدد أيضا فيراد بها تعدده باعتبار تعدد متعلقه مع وحدة الفاعل كما فى قوله تعالى (فبأى آلاء ربك تتمارى) وقوله تعالى ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ بيان لشأن المسؤول عنه إثر تفخيمه بإبهام أمره وتوجيه أذهان السامعين نحوه وتنزيلهم منزلة المستفهمين

فإن إيراده عن طريقة الاستفهام من علام الغيوب للتنبيه على أنه لانقطاع قرينه وانعدام نظيره خارج عن دائرة علوم الخلق خليق بأن يعتنى بمعرفته ويسأل عنه كأنه قيل عن أى شىء يتساءلون هل أخبركم به ثم قيل بطريق الجواب عن النبأ العظيم على منهاج قوله تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) فعن متعلقة بما يدل عليه المذكور من مضمر حقه أن يقدر بعدها مسارعة إلى البيان ومراعاة لترتيب السؤال هذا هو الحقيق بالجزالة التنزيلية[1] وقد قيل هى متعلقة بالمذكور وعم متعلق بمضمر مفسر به وأيد ذلك بأنه قرىء عمه والأظهر أنه مبنى على إجراء الوصل مجرى الوقف وقيل عن الأولى للتعليل كأنه قيل لم يتساءلون أعن النبأ العظيم وقيل قبل عن الثانية استفهام مضمر كأنه قيل عم يتساءلون عن النبأ العظيم والنبأ الخبر الذى له شأن وخطر وقد وصف بقوله تعالى ﴿ الذى هم فيه مختلفون ﴾ بعد وصفه بالعظيم تأكيدا لخطره إثر تأكيد وإشعارا بمدار التساؤل عنه وفيه متعلق بمختلفون قدم عليه اهتماما به ورعاية للفواصل وجعل الصلة جملة اسمية للدلالة على الثبات أى هم راسخون فى الاختلاف فيه فمن جازم باستحالته يقول إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما نحن بمبعوثين وشاك يقول ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين وقيل منهم من ينكر المعادين معا كهؤلاء ومنهم من ينكر المعاد الجسمانى فقط كجمهور النصارى وقد حمل الاختلاف على الاختلاف فى كيفية الإنكار فمنهم من ينكره لإنكاره الصانع المختار ومنهم من ينكره بناء على استحالة المعدوم بعينه وحمله على الاختلاف بالنفى والإثبات بناء على تعميم التساؤل لفريقى المسلمين والكافرين على أن سؤال الأولين ليزدادوا خشية واستعدادا وسؤال الآخرين ليزدادوا كفرا وعنادا يرده قوله تعالى:

﴿ كلا سيعلمون ﴾ الخ فإنه صريح فى أن المراد اختلاف الجاهلين به المنكرين له إذ عليه يدور الردع والوعيد لا على خلاف المؤمنين لهم

---

(١) فى ١١ بجزالة التنزيل .

وتخصيصهما بالكفرة بناء على تخصيص ضمير سيعلمون بهم مع عموم الضميرين السابقين للكل مما ينبغى تنزيه التنزيل عن أمثاله هذا ما أدى إليه جليل النظر والذى يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الدقيق أن يحمل اختلافهم على مخالفتهم للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يعتبر فى الاختلاف محض صدور الفعل عن المتعدد حسبما ذكر فى التساؤل فإن الافتعال والتفاعل صيغتان متآخيتان كالاستباق والتسابق والانتضال والتناضل إلى غير ذلك يجرى فى كل منها ما يجرى فى الأخرى لا على مخالفة بعضهم لبعض من الجانبين لأن الكل وإن استحق الردع والوعيد لكن استحقاق كل جانب لهما ليس لمخالفته للجانب الاخر إذ لا حقية فى شىء منهما حتى يستحق من يخالفه المؤاخذة بل لمخالفته له عليه الصلاة والسلام فكلا ردع لهم عن التساؤل والاختلاف بالمعنيين المذكورين وسيعلمون وعيد لهم بطريق الاستئناف وتعليل للردع والسين للتقريب والتأكيد وليس مفعوله ما ينبىء عنه المقام من وقوع ما يتساءلون عنه ووقوع ما يختلفون فيه كما فى قوله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) إلى قوله تعالى (ليبين لهم الذين يختلفون فيه) الآية فإن ذلك عار عن صريح الوعيد بل هو عبارة عما يلاقونه من فنون الدواهى والعقوبات والتعبير عن لقائها بالعلم لوقوعه فى معرض التساؤل والاختلاف والمعنى ليرتدعوا عما هم عليه فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال إذا حل بهم العذاب والنكال وقوله تعالى :

﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ تكرير للردع والوعيد للمبالغة فى التأكيد والتشديد وثم للدلالة على أن الوعيد الثانى أبلغ وأشد وقيل الأول عند النزع والثانى فى القيامة وقيل الأول للبعث والثانى للجزاء وقرىء (ستعلمون) بالتاء على نهج الالتفات إلى الخطاب الموافق لما بعده من الخطابات تشديد للردع والوعيد لا على تقدير قل لهم كما توهم فان فيه من الإخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا ﴾ الخ استئناف مسوق لتحقيق النبأ المتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقيته إثر ما نبه عليها بما ذكر من الردع والوعيد ومن ههنا اتضح أن المتساءل عنه هو البعث

لا القرآن أو نبوة النبي عليه الصلاة والسلام كما قيل والهمزة للتقرير والالتفات إلى الخطاب على القراءة المشهورة للمبالغة فى الإلزام والتبكيت والمهاد البساط والفراش وقرىء مهدا على تشبيهها بمهد الصبي وهو ما يمهد له فينوم عليه تسمية للممهود بالمصدر وجعل الجبال أوتادا لها إرساؤها بها كما يرسى البيت بالأوتاد ﴿ وخلقناكم ﴾ عطف على المضارع المنفى بلم داخل فى حكمه فإنه فى قوة أما جعلنا الخ أو على ما يقتضيه الإنكار التقريرى فانه فى قوة أن يقال قد جعلنا الخ ﴿ أزواجا ﴾ أصنافا ذكرا أو أنثى ليسكن كل من الصنفين إلى الآخر وينتظم أمر المعاشرة والمعاش ويتسنى التناسل . .

﴿ وجعلنا نومكم سباتا ﴾ أى موتا لأنه أحد التوفيين لما بينهما من المشاركة التامة فى انقطاع أحكام الحياة وعليه قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) وقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) وقيل قطعا عن الإحساس والحركة لإراحة القوى الحيوانية وإزاحة كلالها والأول هو اللائق بالمقام كما ستعرفه ﴿ وجعلنا الليل ﴾ الذى فيه يقع النوم غالبا ﴿ لباسا ﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ولعل المراد به ما يستتر به عند النوم من اللحاف ونحوه فان شبه الليل به أكمل واعتباره فى تحقيق المقصد أدخل فهو جعل الليل محلا للنوم الذى جعل موتا كما جعل النهار محلا لليقظة المعبر عنها بالحياة فى قوله تعالى ﴿ وجعلنا النهار معاشا ﴾ أى وقت حياة تبعثون فيه من نومكم الذى هو أخو الموت كما فى قوله تعالى (وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا) وجعل كون الليل لباسا عبارة عن ستره عن العيون لمن أراد هربا من عدو أو بياتا له أو نحو ذلك مما لا مناسبة له بالمقام وكذا جعل النهار وقت التقلب فى تحصيل المعايش والحوايج ﴿ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ﴾ أى سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء لا يؤثر فيها مر الدهور وكر العصور والتعبير عن خلقها بالبناء مبنى على تنزيلها منزلة القباب المضروبة على الخلق وتقديم الظرف على المفعول ليس لمراعاة الفواصل فقط بل للتشويق إليه فان ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة له فإذا ورد عليها تمكن عندها فضل

تمكن ﴿ وجعلنا سراجا وهاجا ﴾ هذا الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخلق خلا أنه مختص بالإنشاء التكويني وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما فى الآية الكريمة وللتشريعى أيضا كما فى قوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة) الخ وقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) وأياً ما كان ففيه إنباء عن ملابسة مفعوله بشىء آخر بأن يكون فيه أوله أو منه أو نحو ذلك ملابسة مصححة لأن يتوسط بينهما شىء من الظروف لغوا كان أو مستقرا لكن لا على أن يكون عمدة فى الكلام بل قيدا فيه كما فى قوله تعالى (وجعل بينهما برزخا) وقوله تعالى (وجعل فيها رواسى) وقوله تعالى (واجعل لنا من لدنك وليا) الآية فان كل واحد من هذه الظروف إما متعلق بنفس الجعل أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله تقدمت عليه لكونه نكرة وأياً ما كان فهو قيد فى الكلام حتى إذا اقتضى الحال وقوعه عمدة فيه يكون الجعل متعديا إلى اثنين هو ثانيهما كما فى قوله تعالى (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) وربما يشتبه الأمر فيظن أنه عمدة فيه وهو فى الحقيقة قيد بأحد الوجهين كما سلف فى قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ والوهاج الوقاد المتلألىء من وهجت النار إذا أضاءت أو البالغ فى الحرارة من الوهج والمراد به الشمس والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير[1] عن خلق السموات بالبناء .

﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ هى السحائب إذا أعصرت أى شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر كما فى أحصد الزرع إذا حان له أن يحصد ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض أو الرياح التى حان لها أن تعصر السحاب وقرىء بالمعصرات ووجه ذلك أن الإنزال حيث كان من المعصرات سواء أريد بها السحائب أو الرياح فقد كان بها كما يقال أعطاه من يده وبيده وقد فسرت المعصرات بالرياح ذوات الأعاصير ووجهه أن الرياح هى التى تنشىء السحاب وتدر أخلافه فصلحت أن تجعل مبتدأ للإنزال ﴿ ماء ثجاجا ﴾ أى منصبا بكثرة

(١) فى ١١ : من مترادف التعبير .

يقال ثج الماء أى سال بكثرة وثجه أى أساله ومنه قوله عليه الصلاة والسلام أفضل الحج العج والثج أى رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى وقرىء ثجاجا بالحاء بعد الجيم قالوا مثاجح الماء مصابه ﴿ لنخرج به ﴾ بذلك الماء ﴿ حبا ﴾ يقتات كالحنطة والشعير ونحوهما ﴿ ونباتا ﴾ يعتلف كالتبن والحشيش وتقديم الحب مع تأخره عن النبات فى الإخراج لأصالته وشرفه لأن غالبه غذاء الإنسان ﴿ وجنات ﴾ الجنة فى الأصل هى المرة من مصدر جنه إذا ستره تطلق على النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه قال زهير بن أبى سلمى :

كأن عينى فى غربى مقتلة من النواضح تسقى جنة سحقا

وعلى الأرض ذات الشجر قال الفراء الجنة ما فيه النخيل والفردوس مافيه الكرم والأول هو المراد وقوله تعالى ﴿ ألفافا ﴾ أى ملتفة تداخل بعضها فى بعض قالوا لا واحد له كالأوزاع والأخياف وقيل الواحد لف ككن وأكنان أو لفيف كشريف وأشراف وقيل هو جمع لف جمع لفاء كخضر وخضراء وقيل جمع ملتفة بحذف الزوائد واعلم أن فيما ذكر من أن أفعاله عز وجل دلالة على صحة البعث وحقيته من وجوه ثلاثة الأول باعتبار قدرته تعالى فان من قدر على إنشاء هذه الأفعال البديعة من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه كان على الإعادة أقدر وأقوى ، الثانى باعتبار علمه وحكمته فان من أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات جليلة ومنافع جميلة عائدة إلى الخلق يستحيل أن يفنيها بالكلية ولا يجعل لها عاقبة باقية ، والثالث باعتبار نفس الفعل فان اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث بعد الموت يشاهدونها كل يوم وكذا إخراج الحب والنبات من الأرض الميتة يعاينونه كل حين كأنه قيل ألم نفعل هذه الأفعال الآفاقية والأنفسية الدالة بفنون الدلالات على حقية البعث الموجبة للإيمان به فما لكم تخوضون فيه إنكارا وتتساءلون عنه استهزاء وقوله تعالى ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتا ﴾ شروع فى بيان سر تأخير ما يتساءلون عنه ويستعجلون به قائلين متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ونوع تفصيل لكيفية

وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب حسبما جرى به الوعيد إجمالا أى إن يوم فصل الله عز وجل بين الخلائق كان فى علمه وتقديره ميقاتا وميعادا لبعث الأولين والآخرين وما يترتب عليه من الجزاء ثوابا وعقابا لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتأخر وقيل حدا توقت به الدنيا وتنتهى عنده أو حدا للخلائق ينتهون إليه ولا ريب فى أنهما بمعزل من التقريب الذى أشير إليه على أن الدنيا تنتهى عند النفخة الأولى وقوله تعالى :

﴿ يوم ينفخ فى الصور ﴾ أى نفخة ثانية بدل من يوم الفصل أو عطف بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله ولا ضير فى تأخر الفصل عن النفخ فإنه زمان ممتد يقع فى مبدئه النفخة وفى بقيته الفصل ومباديه وآثاره والصور هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش متى يؤمر بالنفخ فيه فيؤمر به فينفخ فيه نفخة لا يبقى عندها فى الحياة غير من شاء الله وذلك قوله تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) ثم يؤمر بأخرى فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت إلا بعث وقام (١) وذلك قوله تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) والفاء فى قوله تعالى ﴿ فتأتون ﴾ فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذانا بغاية سرعة الإتيان كما فى قوله تعالى (فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق) أى فتبعثون من قبوركم فتأتون إلى الموقف عقيب ذلك من غير لبث أصلا ﴿ أفواجا ﴾ أمما كل أمة مع إمامها كما فى قوله تعالى (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) أو زمرا وجماعات مختلفة الأحوال متباينة الأوضاع حسب اختلاف أعمالهم وتباينها . عن معاذ رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه

---

(١) انظر طرق هذا الحديث ورواياته فى باب النفخ فى الصور من البدور السافرة للسيوطى من ورقة ١١ — ٢٧ مخطوط دار الكتب المصرية .

وسلم فقال عليه الصلاة والسلام يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الأمور ثم أرسل عينيه وقال تحشر عشرة أصناف من أمتي بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها وبعضهم عمى وبعضهم صم وبكم وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهى مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من نار وبعضهم أشد نتنا من الجيف وبعضهم يلبسون جبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا وأما العمى فالذين يجورون فى الحكم وأما الصم والبكم فالمعجبون بأعمالهم وأما الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء الذين خالفت أقوالهم أعمالهم وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون جيرانهم وأما المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان وأما الذين هم أشد نتنا من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله تعالى فى أموالهم وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء ﴿ وفتحت السماء ﴾ عطف على ينفخ وصيغة الماضى للدلالة على التحقق وقرىء فتحت بالتشديد وهو الأنسب بقوله تعالى ﴿ فكانت أبوابا ﴾ أى كثرت أبوابها المفتحة لنزول الملائكة نزولا غير معتاد حتى صارت كأنها ليست إلا أبوابا مفتحة كقوله تعالى (وفجرنا الأرض عيونا) كأن كلها عيون متفجرة وهو المراد بقوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام) وهو الغمام والذى ذكر فى قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) أى أمره وبأسه فى ظل من الغمام والملائكة وقيل الأبواب الطرق والمسالك أى تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقا لا يسدها شىء ﴿ وسيرت الجبال ﴾ أى فى الجو على هيآتها بعد قلعها من مقارها كما يعرب عنه قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) أى تراها رأى العين ساكنة فى أماكنها والحال أنها تمر مر السحاب الذى يسيره الرياح سيرا حثيثا وذلك أن الأجرام العظام إذا تحركت نحوا من الأنحاء لا تكاد يتبين

حركتها وإن كانت فى غاية السرعة لا سيما من بعيد وعليه قول من قال :

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم ... وقوف لحاج والركاب تهملج

وقد أدمج فى هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب فى تخلخل الأجزاء وانتفاشها كما ينطق به قوله تعالى (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) يبدل الله تعالى الأرض ويغير هيأتها ويسير الجبال على تلك الهيئة الهائلة عند حشر الخلائق بعد النفخة الثانية ليشاهدوها ثم يفرقها فى الهواء وذلك قوله تعالى ﴿ فكانت سرابا ﴾ أى فصارت بعد تسييرها مثل السراب كقوله تعالى (وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا) أى غبارا منتشرا وهى وإن اندكت وانصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً يومئذ يتبعون الداعى) وقوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) فإن اتباع الداعى الذى هو إسرافيل عليه السلام وبروزا لخلق الله تعالى لا يكون إلا بعد النفخة الثانية .

﴿ إن جهنم كانت مرصادا ﴾ شروع فى تفصيل أحكام الفصل الذى أضيف إليه اليوم إثر بيان هوله ووجه تقديم بيان حال الكفار غنى عن البيان والمرصاد اسم للمكان الذى يرصد فيه كالمضمار الذى هو اسم للمكان الذى يضمر فيه الخيل والمنهاج اسم للمكان الذى ينهج فيه أى أنها كانت فى حكم الله تعالى وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها ﴿ للطاغين ﴾ متعلق بمضمر هو إما نعت لمرصادا أى كائنا للطاغين وقوله تعالى ﴿ مآبا ﴾ بدل منه أى مرجعا يرجعون إليه لا محالة وإما حال من مآبا قدمت عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت صفة له وقد جوز(١) أن يتعلق بنفس مآبا على أنها مرصاد للفريقين مآب للكافرين خاصة ولا يخفى بعده فإن المتبادر

(١) فى ١١ : وقد جاز .

من كونها مرصادا لطائفة كونهم معذبين بها وقد قيل إنها مرصاد لأهل الجنة يرصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها لأن مجازهم عليها وهى مآب للطاغين وقيل المرصاد صيغة مبالغة من الرصد والمعنى أنها مجدة فى ترصد الكفار لئلا يشذ منهم أحد وقرىء أن بالفتح على تعليل قيام الساعة بأنها مرصاد للطاغين ﴿ لابثين فيها ﴾ حال مقدرة من المستكن فى للطاغين وقرىء لبثين وقوله تعالى ﴿ أحقابا ﴾ ظرف للبثهم أى دهورا متتابعة كلما مضى حقب تبعه حقب آخر إلى غير نهاية فإن الحقب لا يكاد يستعمل إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها فليس فيه ما يدل على تناهى تلك الأحقاب ولو أريد بالحقب ثمانون سنة أو سبعون ألف سنة وقوله تعالى ﴿ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميا وغساقا ﴾ جملة مبتدأة أخبر عنهم بأنهم لا يذوقون فيها شيئاً ما من برد وروح ينفس عنهم حر النار ولا من شراب يسكن من عطشهم ولكن يذوقون فيها حميا وغساقا وقيل البرد النوم وقرىء غساقا بالتخفيف وكلاهما ما يسيل من صديدهم ﴿ جزاء ﴾ أى جوزوا بذلك جزاء ﴿ وفاقا ﴾ ذا وفاق لأعمالهم أو نفس الوفاق مبالغة أو وافقها وفاقا وقرىء وفاقا على أنه فعال من وفقه كذا أى لاقه ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا ﴾ تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور أى كانوا لا يخافون أن يحاسبوا بأعمالهم ﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ الناطقة بذلك ﴿ كذابا ﴾ أى تكذيبا مفرطا ولذلك كانوا مصرين على الكفر وفنون المعاصى وفعال من باب فعل شائع فيما بين الفصحاء وقرىء بالتخفيف وهو مصدر كذب قال :

فصدقتها وكذبتها والمرء ينفعه كذابه

وانتصابه إما بفعله المدلول عليه بكذبوا أى وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا وأما بنفس كذبوا لتضمنه معنى كذبوا فإن كل من يكذب بالحق فهو كاذب وقرىء كذابا وهو جمع كاذب فانتصابه على الحالية أى كذبوا بآياتنا كاذبين وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ فى الكذب فيجعل صفة لمصدر كذبوا

أى تكذيبا كذابا مفرطا كذبه ﴿ وكل شىء ﴾ من الأشياء التى من جملتها أعمالهم وانتصابه بمضمر يفسره ﴿ أحصيناه ﴾ أى حفظناه وضبطناه وقرىء بالرفع على الابتداء ﴿ كتابا ﴾ مصدر مؤكد لأحصيناه لما أن الإحصاء والكتبة من واد واحد أو لفعله المقدر أو حال بمعنى مكتوبا فى اللوح أو فى صحف الحفظة والجملة اعتراض وقوله تعالى ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات وفى الالتفات المنبىء عن التشديد فى التهديد وإيراد لن المفيدة لكون ترك الزيادة من قبيل ما لا يدخل تحت الصحة من الدلالة على تبالغ الغضب ما لا يخفى وقد روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أن هذه الآية أشد ما فى القرآن على أهل النار ﴿ إن للمتقين مفازا ﴾ شروع فى بيان محاسن أحوال المؤمنين إثر بيان سوء أحوال الكفرة أى إن للذين يتقون الكفر وسائر قبائح أعمال الكفرة فوزا وظفرا بمباغيهم أو موضع فوز وقيل نجاة مما فيه أولئك أو موضع نجاة وقوله تعالى ﴿ حدائق وأعنابا ﴾ أى بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة وكروما بدل من مفازا .

﴿ وكواعب ﴾ أى نساء فلكت ثديهن وهن النواهد ﴿ أترابا ﴾ أى لدات ﴿ وكأسا دهاقا ﴾ أى مترعة يقال أدهق الحوض أى ملأه ﴿ لا يسمعون فيها ﴾ أى فى الجنة وقيل فى الكأس ﴿ لغوا ولا كذابا ﴾ أى لا ينطقون بلغو ولا يكذب بعضهم بعضا وقرىء كذابا بالتخفيف أى لا يكذبه أو لا يكاذبه ﴿ جزاء من ربك ﴾ مصدر مؤكد منصوب بمعنى ان للمتقين مفازا فانه فى قوة أن يقال جازى المتقين بمفاز جزاء كائنا من ربك والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام مزيد تشريف له صلى الله عليه وسلم ﴿ عطاء ﴾ أى تفضلا وإحسانا منه تعالى إذ لا يجب عليه شىء وهو بدل من جزاء ﴿ حسابا ﴾ صفة لعطاء بمعنى كافيا على أنه مصدر أقيم مقام [1] الوصف أو بولغ فيه من أحسبه الشىء اذا كفاه حتى

(١) فى ١١ : قام مقام الوصف .

حتى قال حسبى وقيل على حسب أعمالهم وقرىء حسابا بالتشديد على أنه بمعنى المحسب كالدارك بمعنى المدرك .

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ بدل من ربك وقوله تعالى ﴿ الرحمن ﴾ صفة له وقيل صفة للأول وأياً كان ففى ذكر ربوبيته تعالى للكل ورحمته الواسعة إشعار بمدار الجزاء المذكور وقوله تعالى ﴿ لا يملكون منه خطابا ﴾ استئناف مقرر لما أفاده الربوبية العامة من غاية العظمة والكبرياء واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء من غير أن يكون لأحد قدرة عليه وقرىء برفعهما فقيل على أنهما خبران لمبتدأ مضمر وقيل الثانى نعت للأول وقيل الأول مبتدأ والثانى خبره ولا يملكون خبر آخر أو هو الخبر والرحمن صفة للأول وقيل لا يملكون حال لازمة وقيل الأول مبتدأ والرحمن مبتدأ ثان ولا يملكون خبره والجملة خبر للأول وحصل الربط بتكرير المبتدأ بمعناه على رأى من يقول به والأوجه أن يكون كلاهما مرفوعا على المدح أو يكون الثانى نعتاً للأول ولا يملكون استئنافا على حاله ففيه ما ذكر من الإشعار بمدار الجزاء والعطاء كما فى البدلية لما أن المرفوع أو المنصوب مدحا تابع لما قبله معنى وان كان منقطعاً عنه إعراباً كما فصل فى قوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب) من سورة البقرة وقرىء بجر الأول على البدلية ورفع الثانى على الابتداء والخبر ما بعده أو على أنه خبر لمبتدأ مضمر وما بعده استئناف أو خبر ثان أو حال وضمير لا يملكون لأهل السموات والأرض أى لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم كما ينبىء عنه لفظ الملك خطابا ما فى شىء ما والمراد نفى قدرتهم على أن يخاطبوه تعالى بشىء من نقص العذاب أو زيادة الثواب من غير إذنه على أبلغ وجه وآكده وقيل ليس فى أيديهم مما يخاطب الله به ويأمر به فى أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ قيل الروح خلق أعظم من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين وقيل هو ملك ما خلق الله عز وجل بعد العرش خلقا أعظم منه عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه إذا كان

يوم القيامة قام هو وحده صفا والملائكة كلهم صفا وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الروح جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة لهم رؤس وأيد وأرجل يأكلون الطعام ثم قرأ يوم يقوم الروح الآية وهذا قول أبى صالح ومجاهد قالوا ما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم نقله البغوى وقيل هم أشراف الملائكة وقيل هم حفظة على الملائكة وقيل جبريل عليه السلام وصفا حال أى مصطفين قيل هما صفان الروح صف واحد أو متعدد والملائكة صف وقيل صفوف وهو الأوفق لقوله تعالى (والملك صفا صفا) وقيل يقوم الكل صفا واحدا ويوم ظرف لقوله تعالى ﴿ لا يتكلمون ﴾ وقوله تعالى :

﴿ إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ بدل من ضمير لا يتكلمون العائد إلى أهل السموات والأرض الذين من جملتهم الروح والملائكة وذكر قيامهم واصطفافهم لتحقيق عظمة سلطانه وكبرياء ربوبيته وتهويل يوم البعث الذى عليه مدار الكلام من مطلع السورة الكريمة إلى مقطعها والجملة استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لا يملكون الخ ومؤكد له على معنى أن أهل السموات والأرض إذا لم يقدروا يومئذ على أن يتكلموا بشيء من جنس الكلام إلا من أذن الله تعالى له منهم فى التكلم وقال ذلك المأذون له قولا صوابا أى حقاً فكيف يملكون خطاب رب العزة مع كونه أخص من مطلق الكلام وأعز منه مراما لا على معنى أن الروح والملائكة مع كونهم أفضل الخلائق وأقربهم من الله تعالى اذا لم يقدروا أن يتكلموا بما هو صواب من الشفاعة لمن ارتضى إلا باذنه فكيف يملكه غيرهم كما قيل فانه مؤسس على قاعدة الاعتزال فمن سلكه مع تجويزه أن يكون يوم ظرفا للايملكون (١) فقد اشتبه عليه الشئون واختلط به الظنون وقيل إلا من أذن الخ منصوب على أصل الاستثناء والمعنى لايتكلمون إلا فى حق شخص أذن له الرحمن وقال ذلك الشخص صواباً أى حقا هو

(١) ١١ : فى قوله لا يملكون .

التوحيد وإظهار الرحمن فى موضع الإضمار للإيذان بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة لا أن أحدا يستحقه عليه سبحانه وتعالى :

﴿ ذلك ﴾ إشارة الى يوم قيامهم على الوجه المذكور وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للإيذان بعلو درجته وبعد منزلته فى الهول والفخامة ومحله الرفع على الابتداء خبره ما بعده أى ذلك اليوم العظيم الذى يقوم فيه الروح والملائكة مصطفين غير قادرين هم وغيرهم على التكلم من الهيبة والجلال ﴿ اليوم الحق ﴾ أى الثابت المتحقق لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه والفاء فى قوله تعالى ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا ﴾ فصيحة تفصح عن شرط محذوف ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وانتفاء الغرابة فى تعلقه بها حسب القاعدة المستمرة وإلى ربه متعلق بمآبا قدم عليه اهتماما به ورعاية للفواصل كأنه قيل واذا كان الأمر كما ذكر من تحقق اليوم المذكور لا محالة فمن شاء أن يتخذ مرجعا إلى ثواب ربه الذى ذكر شأنه العظيم فعل ذلك بالإيمان والطاعة وقال قتادة مآبا أى سبيلا وتعلق الجار به لما فيه من معنى الإفضاء والإيصال كما مر فى قوله تعالى (من استطاع اليه سبيلا) .

﴿ إنا أنذرناكم ﴾ أى بما ذكر فى السورة من الآيات الناطقة بالبعث وبما بعده من الدواهى أو بها وبسائر القوارع الواردة فى القرآن ﴿ عذابا قريبا ﴾ هو عذاب الآخرة وقربه لتحقق إتيانه حتما ولأنه قريب بالنسبة إليه تعالى وإن رأوه بعيدا وسيرونه قريبا لقوله تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وعن قتادة هو عقوبة الدنيا لأنه أقرب العذابين وعن مقاتل هو قتل قريش يوم بدر ويأباه قوله تعالى ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ فإنه إما بدل من عذابا أو ظرف لمضمر هو صفة له أى عذابا كائنا يوم ينظر المرء أى يشاهد ما قدمه من خير أو شر على أن ما موصولة منصوبة بينظر والعائد محذوف أو ينظر أى شىء قدمت يداه على أنها استفهامية منصوبة بقدمت وقيل المرء عبارة عن الكافر وما فى قوله تعالى ﴿ ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ﴾

ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم قيل معنى تمنيه ليتني كنت ترابا فى الدنيا فلم أخلق ولم أكلف أو ليتني كنت ترابا فى هذا اليوم فلم أبعث وقيل يحشر الله تعالى الحيوان فيقتص للجماء من القرناء ثم يرده ترابا فيود الكافر حاله وقيل الكافر إبليس يرى آدم وولده وثوابهم فيتمنى أن يكون الشيء الذى احتقره حين قال خلقتني من نار وخلقته من طين.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة عم يتساءلون سقاه الله تعالى برد الشراب يوم القيامة والحمد لله وحده .

* * *

سورة والنازعات

مكية ، وآيها خمس أو ست وأربعون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا ﴾ إقسام من الله عز وجل بطوائف الملائكة الذين ينزعون الأرواح من الأجساد على الإطلاق كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد أو أرواح الكفرة كما قاله على رضى الله عنه وابن مسعود وسعيد بن جبير ومسروق وينشطونها اى يخرجونها من الأجساد من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها ويسبحون فى إخراجها سبح الغواص الذى يخرج من البحر ما يخرج فيسبقون بأرواح الكفرة إلى النار وبأرواح المؤمنين إلى الجنة فيدبرون أمر عقابها وثوابها بأن يهيئوها لإدراك ما أعدلها من الآلام واللذات والعطف مع اتحاد الكل بتنزيل التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب فى المزدحم

للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المعدودة من معظمات الأمور حقيق بأن يكون على حياله مناطا لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الأخر إليه والفاء فى الآخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما بغير مهلة كما فى قوله :

يالهف زيابة للحرث الـــصابح فالغانم فالآئب

وغرقا مصدر مؤكد بحذف الزوائد أى إغراقا فى النزع حيث تنزعها من أقاصى الأجساد قال ابن مسعود رضى الله عنه تنزع روح الكافر من جسده من تحت كل شعرة ومن تحت الأظافير وأصول القدمين ثم تغرقها فى جسده ثم تنزعها حتى إذا كادت تخرج تردها فى جسده فهذا عملها بالكفار وقيل يرى الكافر نفسه فى وقت النزع كأنها تغرق وانتصاب نشطاً وسبحا وسبقا أيضا على المصدرية وأما أمرا فمفعول للمدبرات وتنكيره للتهويل والتفخيم ويجوز أن يراد بالسابحات وما بعدها طوائف من الملائكة يسبحون فى مضيهم أى يسرعون فيه فيسبقون إلى ما أمروا به من الأمور الدنيوية والأخروية والمقسم عليه محذوف تعويلا على إشارة ما قبله من المقسم به إليه ودلالة ما بعده من أحوال القيامة عليه وهو لتبعثن فإن الإقسام بمن يتولى نزع الأرواح ويقوم بتدبير أمورها يلوح بكون المقسم عليه من قبيل تلك الأمور لا محالة وفيه من الجزالة ما لا يخفى وقد جوز أن يكون إقساما بالنجوم التى تنزع من المشرق إلى المغرب غرقا فى النزع بأن تقطع الفلك حتى تنحط فى أقصى الغرب وتنشط من برج إلى برج أى تخرج من نشط الثور إذا خرج من بلد إلى بلد وتسبح فى الفلك فيسبق بعضها بعضا فتدبر أمرا نيط بها كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وتبين مواقيت العبادات وحيث كانت حركاتها من المشرق إلى المغرب قسرية وحركاتها من برج إلى برج ملائمة عبر عن الأولى بالنزع وعن الثانية بالنشط أو بأنفس الغزاة أو أيديهم التى تنزع القسى بإغراق السهام وينشطون بالسهم للرمى ويسبحون فى البر والبحر فيسبقون إلى حرب العدو فيدبرون أمرها أو بخيلهم التى تنزع فى أعنتها نزعا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب وتخرج من

دار الإسلام إلى دار الحرب وتسبح فى جريها لتسبق إلى الغاية فتدبر أمر الظفر والغلبة وإسناد التدبير إليها لأنها من أسبابه هذا والذى يليق بشأن التنزيل هو الأول وقوله تعالى :

﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ منصوب بالجواب المضمر والمراد بالراجفة الواقعة التى ترجف عندها الأجرام الساكنة أى تتحرك حركة شديدة وتتزلزل زلزلة عظيمة كالأرض والجبال وهى النفخة الأولى وقيل الراجفة الأرض والجبال لقوله تعالى(يوم ترجف الأرض والجبال) وقوله تعالى ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ أى الواقعة التى تردف الأولى وهى النفخة الثانية حال من الراجفة مصححة لوقوع اليوم ظرفا للبعث أى لتبعثن يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها لاقبل ذلك فإنه عبارة عن الزمان الممتد الذى يقع فيه النفختان وبينهما أربعون سنة واعتبار امتداده مع أن البعث لا يكون إلا عند النفخة الثانية لتهويل اليوم ببيان كونه موقعا لداهيتين عظيمتين لا يبقى عند وقوع الأولى حى إلامات ولا عند وقوع الثانية ميت إلا بعث وقام ووجه إضافته إلى الأولى ظاهر وقيل يوم ترجف منصوب باذكر فتكون الجملة استئنافا مقررا لمضمون الجواب المضمر كأنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذكر لهم يوم النفختين فإنه وقت بعثهم وقيل هو منصوب بما دل عليه قوله تعالى ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ أى يوم ترجف وجفت القلوب قيل قلوب مبتدأ ويومئذ متعلق بواجفة وهى صفة القلوب مسوغة لوقوعه مبتدأ وقوله تعالى ﴿ أبصارها ﴾ أى أبصارها أصحابها ﴿ خاشعة ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا لقلوب وقد مر أن حق الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع حتى قالوا إن الصفات قبل العلم بها أخبار والأخبار بعد العلم بها صفات فحيث كان ثبوت الوجيف للقلوب وثبوت الخشوع لأبصار أصحابها سواء فى المعرفة والجهالة كان جعل الأول عنوانا للموضوع مسلم الثبوت مفروغا عنه[1] وجعل

---

(١) فى ١١ : مفروغا منه .

الثانى مخبرا به مقصود الإفادة تحكما بحتا على أن الوجيف الذى هو عبارة عن شدة اضطراب القلب وقلقه من الخوف والوجل أشد من خشوع البصر وأهول فجعل أهون الشرين عمدة وأشدهما فضلة مما لا عهد له فى الكلام وأيضا فتخصيص الخشوع بقلوب موصوفة بصفة معينة غير مشعرة بالعموم والشمول تهوين للخطب فى موقع التهويل فالوجه أن يقال تنكير قلوب يقوم مقام الوصف المختص سواء حمل على التنويع كما قيل وإن لم يذكر النوع المقابل فإن المعنى منسحب عليه أو على التكثير كما فى شر أهر ذا ناب فإن التفخيم كما يكون بالكيفية يكون بالكمية أيضا كأنه قيل قلوب كثيرة يوم إذ يقع النفختان واجفة أى شديدة الاضطراب قال ابن عباس رضى الله عنهما خائفة وجلة وقال السدى زائلة عن أماكنها كما فى قوله تعالى (إذ القلوب لدى الحناجر) وقوله تعالى :

﴿ يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة ﴾ حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به إثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمى[1] وذكر مقدماته الهائلة وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار أى يقولون إذا قيل لهم إنكم تبعثون منكرين له متعجبين منه أئنا لمردودون بعد موتنا فى الحافرة أى فى الحالة الأولى يعنون الحياة من قولهم رجع فلان فى حافرته أى فى طريقته التى جاء فيها فحفرها أى أثر فيها بمشيه وتسميتها حافرة مع أنها محفورة كقوله تعالى (فى عيشة راضية) أى منسوبة إلى الحفر والرضا أو كقولهم نهاره صائم على تشبيه القابل بالفاعل وقرىء فى الحفرة وهى بمعنى المحفورة وقوله تعالى ﴿ أئذا كنا عظاما نخرة ﴾ تأكيد لإنكار الرد ونفيه بنسبته إلى حالة منافية له والعامل فى إذا مضمر يدل عليه مردودون أى أئذا كنا عظاما بالية نرد ونبعث مع كونها أبعد شىء من الحياة وقرىء إذا كنا على الخبر أو إسقاط حرف الإنكار وناخرة

---

(١) فى ١١ : بمعنى القسم .

من نخر العظم فهو نخر وناخر وهو البالى الأجوف الذى يمر به الريح فيسمع له نخير ﴿ قالوا ﴾ حكاية لكفر آخر لهم متفرع على كفرهم السابق ولعل توسيط قالوا بينهما للإيذان بأن صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الإطراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنهم فى كافة أوقاتهم حسبما ينبىء عنه حكايته بصيغة المضارع أى قالوا بطريق الاستهزاء مشيرين إلى ما أنكروه من الردة فى الحافرة مشعرين بغاية بعدها من الوقوع ﴿ تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ أى ذات خسران أو خاسرة أصحابها أى إن صحت فنحن إذن خاسرون لتكذيبنا بها وقوله تعالى ﴿ فانما هى زجرة واحدة ﴾ تعليل لمقدر يقتضيه إنكارهم لإحياء العظام النخرة التى عبروا عنها بالكرة فان مداره لما كان استصعابهم إياها رد عليهم ذلك فقيل لا تستصعبوها فانما هى صيحة واحدة أى حاصلة بصيحة واحدة وهى النفخة الثانية عبر عنها بها تنبيها على كمال اتصالها بها كأنها عينها وقيل هى راجع إلى الرادفة فقوله تعالى :

﴿ فاذا هم بالساهرة ﴾ حينئذ بيان لترتب الكرة على الزجرة مكافأة أى فاذ هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتا فى جوفها وعلى الأول بيان لحضورهم الموقف عقيب الكرة التى عبر عنها بالزجرة والساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لأن السراب يجرى فيها من قولهم عين ساهرة جارية الماء وفى ضدها نائمة وقيل لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة وقيل اسم لجهنم وقال الراغب هى وجه الأرض وقيل هى أرض القيامة وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الساهرة أرض من فضة لم يعص الله تعالى عليها قط خلقها حينئذ وقيل هى أرض يجددها الله عز وجل يوم القيامة وقيل هى اسم الأرض السابعة يأتى بها الله تعالى فيحاسب الخلائق عليها وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض وقال الثورى : الساهرة أرض الشام وقال وهب بن منبه جبل بيت المقدس وقيل الساهرة بمعنى الصحراء على شفير جهنم [1]

---

(١) انظر باب تبديل الأرض من البدور للسيوطى من ورقة ٧٠ — ٩٥ مخطوط.

وقوله تعالى ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ كلام مستأنف وارد لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه بأنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان أقوى منهم وأعظم ومعنى هل أتاك إن اعتبر هذا أول ما أتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام ترغيب له عليه الصلاة والسلام فى استماع حديثه كأنه قيل هل أتاك حديثه أنا أخبرك به وإن اعتبر إتيانه قبل هذا وهو المتبادر من الإيجاز فى الاقتصاص حمله عليه الصلاة والسلام على أن يقر بأمر يعرفه قبل ذلك كأنه قيل أليس قد أتاك حديثه وقوله تعالى ﴿ إذ ناداه ربه بالواد المقدس ﴾ ظرف للحديث لا للإتيان لاختلاف وقتيهما ﴿طوى﴾ بضم الطاء غير منون وقرىء منونا وقرىء بالكسر منونا وغير منون فمن نونه أوله بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى مصدر لنادى أو المقدس أى ناداه ندائين أو المقدس مرة بعد أخرى .

﴿ إذهب إلى فرعون ﴾ على إرادة القول وقيل هو تفسير للنداء أى ناداه إذهب وقيل هو على حذف أن المفسرة ويدل عليه قراءة عبد الله أن اذهب لأن فى النداء معنى القول ﴿ إنه طغى ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به ﴿ فقل ﴾ بعد ما أتيته ﴿ هل لك ﴾ رغبة وتوجه ﴿ إلى أن تزكى ﴾ بحذف إحدى التاءين من تتزكى أى تتطهر من دنس الكفر والطغيان وقرىء تزكى بالتشديد ﴿ وأهديك إلى ربك ﴾ وأرشدك إلى معرفته عز وجل فتعرفه ﴿ فتخشى ﴾ إذ الخشية لا تكون إلا بعد معرفته تعالى قال عز وجل (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وجعل الخشية غاية للهداية لأنها ملاك الأمر من خشى الله تعالى أتى منه كل خير ومن أمن اجترأ على كل شر أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبه بالاستفهام الذى معناه العرض ليستدعيه بالتلطف فى القول ويستنزله بالمداراة من عتوه وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) والفاء فى قوله تعالى ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ فصيحة تفصح عن جمل قد طويت تعويلا على تفصيلها فى السور الأخرى فإنه عليه الصلاة والسلام ما أراه إياها عقيب هذا الأمر بل بعد ما جرى بينه وبين

الله تعالى ما جرى من الاستدعاء والإجابة وغيرهما من المراجعات وبعد ما جرى بينه وبين فرعون ما جرى من المحاورات إلى أن قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين والإراءة إما بمعنى التبصير أو التعريف فإن اللعين حين أبصرها عرفها وادعاء سحريتها إنما كان إراءة منه وإظهارا للتجلد ونسبتها إليه عليه الصلاة والسلام بالنظر إلى الظاهر كما أن نسبتها إلى نون العظمة فى قوله تعالى (ولقد أريناه آياتنا) بالنظر إلى الحقيقة والمراد بالآية الكبرى قلب العصا حية وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فإنها كانت المقدمة والأصل والأخرى كالتبع لها أو هما جميعاً وهو قول مجاهد فإنهما كالآية الواحدة وقد عبر عنهما بصيغة الجمع حيث قال (اذهب أنت وأخوك بآياتى) باعتبار ما فى تضاعيفهما من بدائع الأمور التى كل منها آية بينة لقوم يعقلون كما مر تفصيله فى سورة طه ولا مساغ لحملها على مجموع معجزاته فإن ماعدا هاتين الآيتين من الآيات التسع إنما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب (على)[1] السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما مر فى سورة الأعراف ولا ريب فى أن هذا مطلع القصة وأمر السحرة مترقب بعد ﴿ فكذب ﴾ بموسى عليه السلام وسمى معجزاته سحرا ﴿ وعصى ﴾ الله عز وجل بالتمرد بعد ما علم صحة الأمر ووجوب الطاعة أشد عصيان وأقبحه حيث اجترأ على إنكار وجود رب العالمين رأساً وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته عز وجل وترك العظيمة التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية لا بإرسال بنى إسرائيل من الأسر والقسر فقط .

﴿ ثم أدبر ﴾ أى تولى عن الطاعة أو انصرف عن المجلس ﴿ يسعى ﴾ أى يجتهد فى معارضة الآية أو أريد ثم أقبل أى أنشأ يسعى فوضع موضعه أدبر تحاشيا عن وصفه بالإقبال وقيل أدبر هاربا من الثعبان فإنه روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ألقى العصا انقلبت ثعبانا أشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون

(١) سقطت من ط

ذراعا وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر فتوجه نحو فرعون فهرب وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه وقيل إنها حين انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول ياموسى مرنى بما شئت ويقول فرعون أنشدك بالذى أرسلك إلا أخذته فأخذه فعاد عصا(١) ويأباه أن ذلك كان قبل الإصرار على التكذيب والعصيان والتصدى للمعارضة كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ فحشر ﴾ أى فجمع السحرة لقوله فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين وقوله تعالى (فتولى فرعون فجمع كيده) أى مايكاد به من السحرة وآلاتهم وقيل جنوده ويجوز أن يراد جميع الناس ﴿ فنادى ﴾ فى المجمع بنفسه أو بواسطة المنادى ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ قيل قام فيهم خطيبا فقال تلك العظيمة .

﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ النكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم وهو التعذيب الذى ينكل من رآه أو سمعه ويمنعه من تعاطى ما يفضى إليه ومحله النصب على أنه مصدر مؤكد كوعد الله وصبغة الله كأنه قيل نكل الله به نكال الآخرة والأولى وهو الإحراق فى الآخرة والإغراق فى الدنيا وقيل مصدر لأخذ أى أخذه الله أخذ نكال الآخرة الخ وقيل مفعول له أى أخذه لأجل نكال الخ وقيل نصب على نزع الخافض أى أخذه بنكال الآخرة والأولى وإضافته إلى الدارين باعتبار وقوع نفس الأخذ فيهما لا باعتبار أن ما فيه من معنى المنع يكون فيهما فان ذلك لا يتصور فى الآخرة بل فى الدنيا فان العقوبة الأخروية تنكل من سمعها وتمنعه من تعاطى ما يؤدى إليها لا محالة وقيل المراد بالآخرة والأولى قوله أنا ربكم الأعلى وقوله ماعلمت لكم من إله غيرى قيل كان بين الكلمتين أربعون سنة فالإضافة إضافة المسبب إلى السبب ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل وما فعل به ﴿ لعبرة ﴾ عظيمة ﴿ لمن يخشى ﴾ أى لمن من شأنه أن يخشى وهو من من شأنه المعرفة وقوله تعالى ﴿ أأنتم أشد خلقا ﴾ خطاب لأهل مكة المنكرين للبعث

(١) انظر تفصيل الموضوع فى الزهد للامام أحمد ص ١٤٥

بناء على صعوبته فى زعمهم بطريق التوبيخ والتبكيت بعد ما بين كمال سهولته بالنسبة إلى قدرة الله تعالى بقوله تعالى (فإنما هى زجرة واحدة) أى أخلقكم بعد موتكم أشد أى أشق وأصعب فى تقديركم ﴿ أم السماء ﴾ أى أم خلق السماء على عظمها وانطوائها على تعاجيب البدائع التى تحار العقول عن ملاحظة أدناها كقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وقوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وقوله تعالى ﴿ بناها ﴾ الخ بيان وتفصيل لكيفية خلقها المستفاد من قوله أم السماء وفى عدم ذكر الفاعل فيه وفيما عطف عليه من الأفعال من التنبيه على تعينه وتفخيم شأنه عز وجل مالا يخفى وقوله تعالى ﴿ رفع سمكها ﴾ بيان للبناء أى جعل مقدار ارتفاعها من الأرض وذهابها إلى سمت العلو مديدا رفيعا مسيرة خمسمائة عام ﴿ فسواها ﴾ فعدلها مستوية ملساء ليس فيها تفاوت ولا فطور أوفتممها بما علم أنها تتم به من الكواكب والتداوير وغيرها مما لا يعلمه إلا الخلاق العليم من قولهم سوى أمر فلان إذا أصلحه ﴿ وأغطش ليلها ﴾ أى جعله مظلما يقال غطش الليل وأغطشه الله تعالى كما يقال ظلم وأظلمه وقد مر هذا فى قوله تعالى (وإذا أظلم عليهم قاموا) ويقال أيضاً أغطش الليل كما يقال أظلم . ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ أى أبرز نهارها عبر عنه بالضحى لأنه أشرف أوقاته وأطيبها فكان أحق بالذكر فى مقام الامتنان وهو السر فى تأخير ذكر الليل وفى التعبير عن إحداثه بالاخراج فإن إفاضة النور بعد الظلمة أتم فى الإنعام وأكمل فى الإحسان وإضافة الليل والضحى إلى السماء لدوران حدوثهما على حركتها ويجوز أن تكون إضافة الضحى إليها بواسطة الشمس أى أبرز ضوء شمسها والتعبير عنه بالضحى لأنه وقت قيام سلطانها وكمال إشراقها .

﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ أى بسطها ومهدها لسكنى أهلها وتقلبهم فى أقطارها وانتصاب الأرض بمضمر يفسره دحاها ﴿ أخرج منها ماءها ﴾ بأن فجر منها عيونا وأجرى أنهاراً ﴿ ومرعاها ﴾ أى رعيها وهو فى الأصل موضع الرعى وقيل هو مصدر ميمى بمعنى المفعول وتجريد الجملة عن العاطف إما لأنها

بيان وتفسير لدحاها وتكملة له فإن السكنى لا تتأتى بمجرد البسط والتمهيد بل لابد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب حتما وأما لأنها حال من فاعله بإضمار قد عند الجمهور أو بدونه عند الكوفيين والأخفش كما فى قوله تعالى (أو جاؤكم حصرت صدورهم ﴿ والجبال ﴾ منصوب بمضمر يفسره ﴿ أرساها ﴾ أى أثبتها وأثبت بها الأرض أن تميد بأهلها وهذا تحقيق للحق وتنبيه على أن الرسو المنسوب إليها فى مواضع كثيرة من التنزيل بالتعبير عنها بالرواسى ليس من مقتضيات ذواتها بل هو بإرسائه عز وجل ولولاه لما ثبتت فى أنفسها فضلا عن إثباتها للأرض وقرىء والأرض والجبال بالرفع على الابتداء ولعل تقديم إخراج الماء والمرعى ذكرا مع تقدم الإرساء عليه وجودا وشدة تعلقه بالدحو لإبراز كمال الاعتناء بأمر المأكل والمشرب مع ما فيه من دفع توهم رجوع ضميرى الماء والمرعى إلى الجبال وهذا كما ترى يدل بظاهره على تأخر دحو الأرض عن خلق السماء وما فيها كما يروى عن الحسن من أنه تعالى خلق الأرض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى (كانتا رتقا ففتقناهما) الآية وقد مر فى سورة حم السجدة أن قوله تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) إلى قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) الآية إن حمل ما فيه من الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة لا على تقديرها فهو وما فى سورة البقرة من قوله تعالى (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) يدلان على تقدم خلق الأرض وما فيها على خلق السماء وما فيها وعليه إطباق أكثر أهل التفسير وقد روى أن العرش كان قبل خلق السموات والأرض على الماء ثم إنه تعالى أحدث فى الماء اضطرابا فأزبد فارتفع منه دخان فأما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات وروى أنه تعالى خلق جرم الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين ودحاها وخلق مافيها يوم الثلاثاء

ويوم الأربعاء وخلق السموات وما فيهن يوم الخميس ويوم الجمعة وخلق آدم عليه السلام فى آخر ساعة منه وهى الساعة التى تقوم فيها القيامة فالأقرب كما قيل تأويل هذه الآية بأن يجعل ذلك إشارة إلى ذكر ما ذكر من بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وغيرها لا إلى أنفسها ويحمل بعدية الدحو عنها على البعدية فى الذكر كما هو المعهود فى ألسنة العرب والعجم لا فى الوجود لما عرفت من أن انتصاب الأرض بمضمر مقدم قد حذف على شريطة التفسير لا بما ذكر بعده ليفيد القصر وتتعين البعدية فى الوجود وفائدة تأخيره فى الذكر إما التنبيه على أنه قاصر فى الدلالة على القدرة القاهرة بالنسبة إلى أحوال السماء وإما الإشعار بأنه أدخل فى الإلزام لما أن المنافع المنوطة بما فى الأرض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر وإحاطتهم بتفاصيل أحواله أكمل وليس ماروى عن الحسن نصا فى تأخر دحو الأرض عن خلق السماء فإن بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلق السماء بالواو التى هى بمعزل من الدلالة على الترتيب هذا على تقدير حمل ما ذكر فى آيات سورة السجدة من الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة وأما إذا حملت على تقديرها فلا دلالة فيها إلا على تقدم تقدير الأرض وما فيها على إيجاد السماء كما لا دلالة على الترتيب أصلا إذا حملت كلمة ثم فيها وفيما فى سورة البقرة على التراخى فى الرتبة وقد سلف تفصيل الكلام فى السورة المذكورة وقوله تعالى :

﴿ متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ إما مفعول له أى فعل ذلك تمتيعا لكم ولأنعامكم لأن فائدة ما ذكر من البسط والتمهيد وإخراج الماء والمرعى واصلة إليهم وإلى أنعامهم فإن المراد بالمرعى ما يعم ما يأكله الإنسان وغيره بناء على استعارة الرعى لتناول المأكول على الإطلاق كاستعارة المرسن للأنف وقيل مصدر مؤكد لفعله المضمر أى متعكم بذلك متاعا أو مصدر من غير لفظه فان قوله تعالى (أخرج منها ماءها ومرعاها) فى معنى متع بذلك وقوله تعالى ﴿ فاذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ أى الداهية العظمى التى تطم على سائر الطامات أى تعلوها

وتغليبا وهى القيامة أو النفخة الثانية وقيل هى الساعة التى يساق فيها الخلائق إلى محشرهم وقيل التى يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار شروع فى بيان أحوال معادهم إثر بيان أحوال معاشهم[1] بقوله تعالى (متاعا لكم الخ) والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها عما قليل كما ينبىء منه لفظ المتاع ﴿ يوم يتذكر الإنسان ماسعى ﴾ قيل هو بدل من إذا جاءت والأظهر أنه منصوب بأعنى كما قيل تفسيرا للطامة الكبرى فإن الإبدال منها بالظرف المحض مما يوهن تعلقها بالجواب ويجوز أن يكون بدلا من الطامة الكبرى مفتوحا لإضافته إلى الفعل على رأى الكوفيين أى يتذكر فيه كل أحد ما عمله من خير أو شر بأن يشاهده مدونا فى صحيفة أعماله وقد كان نسيه من فرط الغفلة وطول الأمد كقوله تعالى (أحصاه الله ونسوه) ويجوز أن تكون ما مصدرية .

﴿ وبرزت الجحيم ﴾ عطف على جاءت أى أظهرت إظهارا بينا لايخفى على أحد ﴿ لمن يرى ﴾ كائنا من كان يروى أنه يكشف عنها فتتلظى فيراها كل ذى بصر وقرىء وبرزت بالتخفيف ولمن رأى ولمن ترى على أن فيه ضمير الجحيم كما فى قوله تعالى (إذا رأتهم من مكان بعيد) وعلى أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى لمن تراه من الكفار وقوله تعالى ﴿ فأما من طغى ﴾ الخ جواب فإذا جاءت على طريقة قوله تعالى (فإما يأتينكم منى هدى) الآية وقيل هو تفصيل للجواب المحذوف تقديره انقسم الراؤون قسمين فأما من الخ والذى تستدعيه فخامة التنزيل ويقتضيه مقام التهويل أن الجواب المحذوف كان من عظائم الشئون ما لم تشاهده العيون كما مر فى قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل) أى فأما من عتا وتمرد عن الطاعة وجاوز الحد فى العصيان ﴿ وآثر الحيوة الدنيا ﴾ الفانية التى هى على جناح الفوات فانهمك فيما متع به فيهما ولم يستعد للحياة الأخروية الأبدية بالإيمان والطاعة ﴿ فإن الجحيم ﴾ التى ذكر شأنها ﴿ هى

---

(١) سقطت من ط .

المـأوى ﴾ أى هى مأواه، واللام سادة مسد الإضافة للعلم بأن صاحب المـأوى هو الطاغى كما فى قولك غض الطرف ودخول اللام فى المـأوى والطرف للتعريف لأنهما معروفان وهى إما ضمير فصل أو مبتدأ قيل نزلت الآية فى النضر وأبيه الحرث المشهورين بالغلو فى الكفر والطغيان ﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ أى مقامه بين يدى مالك أمره يوم الطامة الكبرى يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ عن الميل إليه بحكم الجبلة البشرية ولم يعتد بمتاع الحياة الدنيا وزهرتها ولم يغتر بزخارفها وزينتها علما منه بوخامة عاقبتها .

﴿ فإن الجنة هى المـأوى ﴾ له لا غيرها وقيل نزلت الآيتان فى أبى عزيز ابن عمير ومصعب بن عمير وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أحد ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد رضى الله عنه هذا وقد قيل جواب إذا ما يدل عليه قوله تعالى (يوم يتذكر) الخ أى فإذا جاءت الطامة الكبرى يتذكر الإنسان ما سعى على طريقة قوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت) وقوله تعالى (علمت نفس ما قدمت وأخرت) فيكون قوله تعالى وبرزت الجحيم عطفا عليه وصيغة المـاضى للدلالة على التحقق أو حالا من الإنسان بإضمار قد أو بدونه على اختلاف الرأيين ولمن يرى مغن عن العائد وقوله تعالى (فأما من طغى) الخ تفصيلا لحالى الإنسان الذى يتذكر ما سعى وتقسيما له بحسب أعماله إلى القسمين المذكورين ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ متى إرساؤها أى إقامتها يريدون متى يقيمها الله تعالى ويثبتها ويكونها وقيل أيان منتهاها ومستقرها كما أن مرسى السفينة حيث تنتهى إليه وتستقر فيه وقوله تعالى ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ إنكار ورد لسؤال المشركين عنها أى فى أى شىء أنت من أن تذكر لهم وقتها وتعلمهم به حتى يسألونك بيانها كقوله تعالى (يسألونك كأنك حفى عنها) أى ما أنت من ذكراها لهم وتبيين وقتها فى شىء لأن ذلك فرع علمك به وأنى لك ذلك وهو مما استأثر بعلمه علام الغيوب ومن قال بصدد التعليل فإن ذكرها لا يزيدهم إلا غيا فقد نأى عن الحق وقيل فيم إنكار لسؤالهم وما بعده من الاستئناف تعليل للإنكار وبيان لبطلان السؤال أى فيم هذا السؤال ثم

ابتدىء فقيل أنت من ذكراها أى إرسالك وأنت خاتم الأنبياء المبعوث فى نسيم الساعة علامة من علاماتها ودليل يدلهم على العلم بوقوعها عن قريب فحسبهم هذه المرتبة من العلم فمعنى قوله تعالى ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ على هذا الوجه إليه تعالى يرجع منتهى علمها أى علمها بكنهها وتفاصيل أمرها وقت وقوعها لا إلى أحد غيره وإنما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها ومشارفتها وقد حصل لهم ذلك بمبعثك فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك وأما على الوجه الأول فمعناه إليه تعالى انتهاء علمها ليس لأحد منه شىء ما كائنا من كان فلأى شىء يسألونك عنها .

وقوله تعالى ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ على الوجه الأول تقرير لما قبله من قوله تعالى (فيم أنت من ذكراها) وتحقيق لما هو المراد منه وبيان لوظيفته عليه الصلاة والسلام فى ذلك الشأن فإن إنكار كونه عليه الصلاة والسلام فى شىء من ذكراها مما يوهم بظاهره أن ليس له عليه الصلاة والسلام أن يذكرها بوجه من الوجوه فأزيح ذلك ببيان أن المنفى عنه عليه الصلاة والسلام ذكرها لهم بتعيين وقتها حسبما كانوا يسألونه عليه الصلاة والسلام عنها فالمعنى إنما أنت منذر من يخشاها وظيفتك الامتثال بما أمرت به من بيان اقترابها وتفصيل مافيها من فنون الأهوال كما تحيط به خبرا لا تعيين وقتها الذى لم يفوض إليك فما لهم يسألونك عما ليس من وظائفك بيانه وعلى الوجه الثانى هو تقرير لقوله تعالى (أنت من ذكراها) ببيان أن إرساله عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء عليهم السلام منذر بمجىء الساعة كما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام بعثت أنا والساعة كهاتين إن كادت لتسبقنى وقرىء منذر بالتنوين وهو الأصل والإضافة تخفيف صالح للحال والاستقبال فإذا أريد الماضى تعينت الإضافة وتخصيص الإنذار بمن يخشى مع عموم الدعوة لأنه المنتفع به وقوله تعالى ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها ﴾ إما تقرير وتأكيد لما ينبىء عنه الإنذار من سرعة مجىء المنذر به لا سيما على الوجه الثانى أى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الإنذار بها إلا عشية يوم واحد أو ضحاه فلما ترك اليوم أضيف ضحاه إلى عشيته وإما رد لما أدمجوه فى سؤالهم فإنهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء

مستعجلين بها وأن كان على نهج الاستهزاء بها (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) فالمعنى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الانذار أو بعد الوعيد بها إلا عشية أو ضحاها واعتبار كون اللبث فى الدنيا أو القبور لا يقتضيه المقام وإنما الذى يقتضيه اعتبار كونه بعد الإنذار أو بعدالوعيد تحقيقا للانذار وردا لاستبطائهم والجملة على الأول حال من الموصول فإنه على تقديرى الإضافة وعدمها مفعول لمنذر كما أن قوله تعالى (كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) حال من ضمير المفعول فى يحشرهم أى يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث فى الدنيا إلا ساعة خلا أن الشبه هناك فى الأحوال الظاهرة من الزى والهيئة وفيما نحن فيه فى الاعتقاد كأنه قيل تنذرهم مشبهين يوم يرونها فى الاعتقاد بمن لم يلبث بعد الإنذار بها إلا تلك المدة اليسيرة وعلى الثانى مستأنفة لا محل لها من الإعراب . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والنازعات كان ممن حبسه الله عز وجل فى القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة مكتوبة ، والله أعلم .

✡ ✡ ✡

سورة عبس

مكية ، وآيها إحدى وأربعون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾ روى أن ابن أم مكتوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن أبى ربيعة الفهرى وأم مكتوم اسم أم أبيه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة أبنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم فقال له يا رسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله تعالى وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله عليه الصلاة والسلام بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت فكان رسول الله صلى الله وسلم يكرمه ويقول إذا رآه مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ويقول له هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين وقرىء عبس بالتشديد للمبالغة وأن جاءه علة لتولى أو عبس على اختلاف الرأيين أى لأن جاءه الأعمى والتعرض لعنوان عماه إما لتمهيد عذره فى الإقدام على قطع كلامه عليه الصلاة والسلام بالقوم والإيذان باستحقاقه بالرفق والرأفة وأما لزيادة الانكار كأنه قيل تولى لكونه أعمى كما أن الالتفات فى قوله تعالى ﴿ ومايدريك ﴾ لذلك فان المشافهة أدخل فى تشديد العتاب أى وأى شىء يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه وقوله تعالى ﴿ لعله يزكى ﴾ استئناف وارد لبيان ما يلوح به ماقبله فانه مع إشعاره بأن له شأنا منافيا للإعراض عنه خارجا عن دراية الغير وادرائه مؤذن بأنه تعالى يدريه ذلك أى لعله يتطهر بما يقتبس منك من أوضار الأوزار بالكلية وكلمة لعل مع تحقق التزكى واردة على سنن الكبرياء أو على اعتبار معنى الترجى بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام للتنبيه على أن الأعراض عنه عند كونه مرجو التزكى مما لا يجوز فكيف إذا كان مقطوعا بالتزكى كما فى قولك لعلك ستندم على مافعلت وفيه اشارة الى أن من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لايرجى منهم التزكى

والتذكر أصلا وقوله تعالى ﴿ أو يذكر ﴾ عطف على يزكى داخل معه فى حكم الترجى وقوله تعالى ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾ بالنصب على جواب لعل وقرىء بالرفع عطفا على يذكر أى أو يتذكر فتنفعه موعظتك أن لم يبلغ درجة التزكى التام وقيل الضمير فى لعله للكافر فالمعنى أنك طمعت فى أن يتزكى أو يذكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق ولذلك توليت عن الأعمى وما يدريك أن ذلك مرجو الوقوع ﴿ أما من استغنى ﴾ أى عن الإيمان وعما عندك من العلوم والمعارف التى ينطوى عليها القرآن ﴿ فأنت له تصدى ﴾ أى تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه والاهتمام بارشاده واستصلاحه وفيه مزيد تنفير له عليه الصلاة والسلام عن مصاحبتهم فان الإقبال على المدبر ليس من شيم الكبار وقرىء تصدى بادغام التاء فى الصاد وقرىء تصدى بضم التاء أى تعرض ومعناه يدعوك إلى التصدى له داع من الحرص والتهالك على إسلامه ﴿ وما عليك أن لا يزكى ﴾ وليس عليك بأس فى أن لا يتزكى بالإسلام حتى تهتم بأمره وتعرض عمن أسلم والجملة حال كونه وقيل ما استفهامية للإنكار أى أى شىء عليك فى ألا يتزكى ومآله النفى أيضا .

﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ أى حال كونه مسرعا طالبا لما عندك من أحكام الرشد وخصال الخير ﴿ وهو يخشى ﴾ أى الله تعالى وقيل يخشى أذية الكفار فى إتيانك وقيل يخشى الكبوة إذ لم يكن معه قائد والجملة حال من فاعل يسعى كما أنه حال من فاعل جاءك ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ تتشاغل يقال لهى عنه والتهى وتلهى وقرىء تلهى وتلهى أى يلهيك شأن الصناديد وفى تقديم ضميره عليه الصلاة والسلام على الفعلين تنبيه على أن مناط الإنكار خصوصيته عليه الصلاة والسلام أى مثلك خصوصا لا ينبغى أن يتصدى للمستغنى ويتلهى الفقير الطالب للخير وتقديم له وعنه للتعريض باهتمامه عليه الصلاة والسلام بمضمونهما . روى أنه عليه الصلاة والسلام ما عبس بعد ذلك فى وجه فقير قط ولا تصدى لغنى ﴿ كلا ﴾ ردع له عليه الصلاة والسلام عما عوتب عليه من التصدى لمن استغنى عما دعاه إليه من الإيمان والطاعة وما يوجبهما من القرآن الكريم مبالغا فى الاهتمام بأمره

على إسلامه معرضا بسبب ذلك عن إرشاد من يسترشده وقوله تعالى ﴿ إنها تذكرة ﴾ أى موعظة يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها تعليل للردع عما ذكر ببيان علو رتبة القرآن العظيم الذى استغنى عنه من تصدى عليه الصلاة والسلام له وتحقيق أن شأنه يكون موعظة حقيقة بالاتعاظ بها فمن رغب فيها اتعظ بها كما نطق به قوله تعالى ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أى حفظه واتعظ به ومن رغب عنها كما فعل المستغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره فالضميران للقرآن وتأنيث الأول لتأنيث خبره وقيل الأول للسورة أو للآيات السابقة والثانى للتذكرة والتذكير لأنها فى معنى الذكر والوعظ وليس بذاك فإن السورة والآيات وإن كانت متصفة بما سيأتى من الصفات الشريفة لكنها ليست مما ألقى على من استغنى عنه واستحق بسبب ذلك ما سيأتى من الدعاء عليه والتعجب من كفره المفرط لنزولها بعد الحادثة وأما من جوز رجوعهما إلى العتاب المذكور فقد أخطأ وأساء الأدب وخبط خبطا يقضى منه العجب فتأمل وكن على الحق المبين وقوله تعالى ﴿ فى صحف ﴾ متعلق بمضمر هو صفة لتذكرة وما بينهما اعتراض جىء به للترغيب فيها والحث على حفظها أى كائنة فى صحف منتسخة من اللوح أو خبر ثان لأن ﴿ مكرمة ﴾ عند الله عز وجل ﴿ مرفوعة ﴾ أى فى السماء السابعة أو مرفوعة المقدار والذكر ﴿ مطهرة ﴾ منزهة عن مساس أيدى الشياطين .

﴿ بأيدى سفرة ﴾ أى كتبة من الملائكة ينتسخون الكتب من اللوح على أنه جمع سافر من السفر وهو الكتب وقيل بأيدى رسل من الملائكة يسفرون بالوحى بينه تعالى وبين الأنبياء على أنه جمع سفير من السفارة وحملهم على الأنبياء عليهم السلام بعيد فإن وظيفتهم التلقى من الوحى لا الكتب منه وإرشاد الأمة بالأمر والنهى وتعليم الشرائع والأحكام لا مجرد السفارة إليهم وكذا حملهم على القراء لقراءتهم الأسفار أو على أصحابه عليه الصلاة والسلام وقد قالوا هذه اللفظة مختصة بالملائكة لا تكاد تطلق على غيرهم وإن جاز الاطلاق بحسب اللغة والباء متعلقة بمطهرة قال القفال لما لم يمسها إلا الملائكة المطهرون أضيف التطهير إليها لطهارة من يمسها وقال القرطبى إن المراد بما فى قوله تعالى

لا يمسه إلا المطهرون هؤلاء السفرة الكرام البررة ﴿كرام﴾ عند الله عز وجل أو متعطفين على المؤمنين يكلمونهم ويستغفرون لهم ﴿بررة﴾ أتقياء وقيل مطيعين لله تعالى من قولهم فلان يبر خالقه أي يطيعه وقيل صادقين من بر في يمينه ﴿قتل الإنسان﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات وقوله تعالى ﴿ما أكفره﴾ تعجب من إفراطه في الكفران وبيان لاستحقاقه للدعاء عليه والمراد به إما من استغنى عن القرآن الكريم الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة للإقبال عليه والإيمان به وإما الجنس باعتبار انتظامه له ولأمثاله من أفراده لا باعتبار جميع أفراده وفيه مع قصر متنه وتقارب قطريه من الأنباء عن سخط عظيم ومذمة بالغة ما لا غاية وراءه وقوله تعالى ﴿من أي شيء خلقه﴾ شروع في بيان إفراطه في الكفران بتفصيل ما أفاض عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره من فنون النعم الموجبة لقضاء حقها بالشكر والطاعة مع إخلاله بذلك وفي الاستفهام عن مبدأ خلقه ثم بيانه بقوله تعالى ﴿من نطفة خلقه﴾ تحقير له أي من أي شيء حقير مهين خلقه من نطفة مذرة خلقه ﴿فقدره﴾ فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال أو فقدره أطوارا إلى أن تم خلقه وقوله تعالى:

﴿ثم السبيل يسره﴾ منصوب بمضمر يفسره الظاهر أي ثم سهل مخرجه من البطن بأن فتح فم الرحم وألهمه أن يتنكس أو يسر له سبيل الخير والشر ومكنه من السلوك فيهما وتعريف السبيل باللام دون الإضافة للاشعار بعمومه ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي جعله ذا قبر يوارى فيه تكرمة له ولم يدعه مطروحا على وجه الأرض جزرا للسباع والطير كسائر الحيوان يقال قبر الميت إذا دفنه وأقبره إذا أمر بدفنه أو مكن منه وعد الإماتة من النعم لأنها وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي إذا شاء إنشاره أنشره على القاعدة المستمرة في حذف مفعول المشيئة وفي تعليق الإنشار بمشيئته تعالى إيذان بأن وقته غير متعين بل هو تابع لها وقرىء نشره ﴿كلا﴾ ردع للانسان عما هو عليه وقوله تعالى ﴿لما يقض ما أمره﴾ بيان لسبب الردع أي لم يقض بعد من لدن آدم عليه السلام إلى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده

ما أمره الله تعالى بأسره إذ لا يخلو أحد من تقصير ما كذا قالوا وهكذا نقل عن مجاهد وقتادة ولا ريب فى أن مساق الآيات الكريمة لبيان غاية عظم جناية الإنسان وتحقيق كفرانه المفرط المستوجب للسخط العظيم وظاهر أن ذلك لا يتحقق بهذا القدر من نوع تقصير لا يخلو عنه أحد من أفراده كيف لا وقد قال عليه الصلاة والسلام شيبتنى سورة هود لما فيها من قوله تعالى فاستقم كما أمرت[1] فالوجه أن يحمل عدم القضاء على عموم النفى لا على نفى العموم إما على أن المحكوم عليه هو المستغنى أو هو الجنس لكن لا على الإطلاق بل على أن مصداق الحكم بعدم القضاء بعض أفراده وقد أسند إلى الكل كما فى قوله تعالى (إن الإنسان لظلوم كفار) للإشباع فى اللوم بحكم المجانسة على طريقة قولهم بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم وإما على أن مصداقه الكل من حيث هو كل بطريق رفع الإيجاب الكلى دون السلب الكلى فالمعنى لما يقض جميع أفراده ما أمره بل أخل به بعضها بالكفر والعصيان مع أن مقتضى ما فصل من فنون النعماء الشاملة للكل أن لا يتخلف عنه أحد أصلا هذا وقد قيل كلا بمعنى حقا فيتعلق بما بعده أى حقا لم يعمل بما أمره به .

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ شروع فى تعداد النعم المتعلقة ببقائه بعد تفصيل النعم المتعلقة بحدوثه أى فلينظر إلى طعامه الذى عليه يدور أمر معاشه كيف دبرناه وقوله تعالى ﴿أنا صببنا الماء صبا﴾ أى الغيث بدل اشتمال من طعامه لأن الماء سبب لحدوث الطعام فهو مشتمل عليه وقرىء انا على الاستئناف وقرىء أنى بالإمالة أى كيف صببنا إلى آخره أى صببناه صبا عجيبا ﴿ثم شققنا الأرض﴾ أى بالنبات ﴿شقا﴾ بديعا لائقا بما يشقها من النبات صغرا وكبرا وشكلا وهيئة وحمل شقها على ما بالكراب بجعل إسناده إلى نون العظمة من قبيل إسناد الفعل إلى سببه يأباه كلمة ثم والفاء فى قوله تعالى ﴿فأنبتنا فيها حبا﴾ فإن الشق بالمعنى المذكور لا ترتب بينه وبين الأمطار أصلا

---

(١) أخرجه أحمد فى الزهد من طرق .

ولا بينه وبين إنبات الحب بلا مهلة وإنما الترتيب بين الأمطار وبين الشق بالنبات على التراخى المعهود وبين الشق المذكور وبين إنبات الحب بلا مهلة فإن المراد بالنبات ما نبت من الأرض إلى أن يتكامل النمو وينعقد الحب فإن انشقاق الأرض بالنبات لا يزال يتزايد ويتسع إلى تلك المرتبة على أن مساق النظم الكريم لبيان النعم الفائضة من جنابه تعالى على وجه بديع خارج عن العادات المعهودة كما ينبىء عنه تأكيد الفعلين بالمصدرين فتوسيط فعل المنعم عليه فى حصول تلك النعم مخل بالمرام وقوله تعالى ﴿وعنبا﴾ عطف على حبا وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه فلا ضير فى خلو إنبات العنب عن شق الأرض﴿وقضبا﴾ أى رطبة سميت بمصدر قضبه أى قطعه مبالغة كأنها لتكرر قطعها وتكثره نفس القطع ﴿ وزيتونا ونخلا ﴾ الكلام فيهما وفى أمثالهما كما فى العنب ﴿ وحدائق غلبا ﴾ أى عظاما وصف به الحدائق لتكاثفها وكثرة أشجارها أو لأنها ذات أشجار غلاظ مستعار من وصف الرقاب ﴿وفاكهة وأبا﴾ أى مرعى من أبه إذا أمه أى قصده لأنه يؤم وينتجع أو من أب لكذا إذا تهيأ له لأنه متهيىء للرعى أو فاكهة يابسة تؤب للشتاء وعن الصديق رضى الله عنه أنه سئل عن الأب فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله ما لا علم لى به وعن عمر رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال كل هذا قد عرفنا فما الأب ثم رفع عصا كانت بيده وقال هذا لعمر الله التكلف وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدرى ما الأب ثم قال اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه ﴿ متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ إما مفعول له أى فعل ذلك تمتيعا لكم ولمواشيكم فإن بعض النعم المعدودة طعام لهم وبعضها علف لدوابهم والالتفات لتكميل الامتنان وإما مصدر مؤكد لفعله المضمر بحذف الزوائد أى متعكم بذلك متاعا أو لفعل مترتب عليه أى متعكم بذلك فتمتعتم متاعا أى تمتعا كما مر غير مرة أو مصدر من غير لفظه فإن ما ذكر من الأفعال الثلاثة فى معنى التمتيع .

﴿فإذا جاءت الصاخة﴾ شروع فى بيان أحوال معادهم إثر بيان مبدأ خلقهم

ومعاشهم والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ماقبلها من فنون النعم عن قريب كما يشعر لفظ المتاع بسرعة زوالها وقرب اضمحلالها والصاخة هى الداهية العظيمة التى يصخ لها الخلائق أى يصيخون لها من صخ لحديثه إذا أصاخ له واستمع وصفت بها النفخة الثانية لأن الناس يصيخون لها وقيل هى الصيحة التى تصخ الآذان أى تصمها لشدة وقعها وقيل هى مأخوذة من صخه بالحجر أى صكه وقوله تعالى ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾ إما منصوب بأعنى تفسيراً للصاخة أو بدل منها مبنى على الفتح بالإضافة إلى الفعل على رأى الكوفيين وقيل بدل من إذا جاءت كما مر فى قوله تعالى يوم يتذكر الخ أى يعرض عنهم ولا يصاحبهم ولا يسأل عن حالهم كما فى الدنيا لاشتغاله بحال نفسه وأما تعليل ذلك بعلمه بأنهم لا يغنون عنه شيئاً أو بالحذر من مطالبتهم بالتبعات فيأباه قوله تعالى ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ فإنه استئناف وارد لبيان سبب الفرار أى لكل واحد من المذكورين شغل شاغل وخطب هائل يكفيه فى الاهتمام به وأما الفرار حذرا من مطالبتهم أو بغضا لهم كما يروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه يفر قابيل من أخيه هابيل ويفر النبى عليه الصلاة والسلام من أمه ويفر إبراهيم عليه السلام من أبيه ونوح عليه السلام من ابنه ولوط عليه السلام من امرأته فليس من قبيل هذا الفرار وكذا ما يروى أن الرجل يفر من أصحابه وأقربائه لئلا يروه على ما هو عليه من سوء الحال وقرىء يعنيه بالياء المفتوحة والعين المهملة أى يهمه من عناه الأمر إذا أهمه أى أوقعه فى الهم ومنه من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه لا من عناه إذا قصده كما قيل وقوله تعالى ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ بيان لمآل أمر المذكورين وانقسامهم إلى السعداء والأشقياء بعد ذكر وقوعهم فى داهية دهياء فوجوه مبتدأ وإن كانت نكرة لكونها فى حيز التنويع ومسفرة خبره ويومئذ متعلق به أى مضيئة متهللة من أسفر الصبح إذا أضاء وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ذلك من قيام الليل وفى الحديث من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وعن الضحاك من آثار الوضوء وقيل من طول ما اغبرت

فى سبيل الله ﴿ضاحكة مستبشرة﴾ بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ﴾ أى غبار وكدورة ﴿ ترهقها ﴾ أى تعلوها وتغشاها ﴿ قترة ﴾ أى سواد وظلمة ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى سوء الحال أى أولئك الموصوفون بسواد الوجوه وغيره ﴿هم الكفرة الفجرة﴾ الجامعون بين الكفر والفجور فلذلك جمع الله تعالى إلى سواد وجوههم الغبرة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة عبس جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر

* * *

سورة التكوير

مكية ، وآيها تسع وعشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿إذا الشمس كورت﴾ أى لفت من كورت العمامة إذا لففتها على أن المراد بذلك إما رفعها وإزالتها من مقرها فإن الثوب إذا أريد رفعه يلف لفا ويطوى ونحوه قوله تعالى (يوم نطوى السماء) وأما لف ضوئها المنبسط فى الآفاق المنتشر فى الأقطار على أنه عبارة عن إزالتها والذهاب بها بحكم استلزام زوال اللازم لزوال الملزوم أو ألقيت عن فلكها كما وصفت النجوم بالانكدار من طعنه فكوره إذا ألقاه على الأرض وعن أبى صالح كورت نكست وعن ابن عباس رضى الله عنهما تكويرها إدخالها فى العرش ومدار التركيب على الإدارة والجمع وارتفاع الشمس على أنه فاعل لفعل مضمر يفسره المذكور وعند البعض على الابتداء ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أى انقضت وقيل تناثرت وتساقطت . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لا يبقى يومئذ نجم إلا سقط فى الأرض وعنه رضى الله عنه أن منجوم قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من

نور بأيدى ملائكة من نور فإذا مات من فى السموات ومن فى الأرض تساقطت من أيديهم وقيل انكدارها انطماس نورها ويروى أن الشمس والنجوم تطرح فى جهنم ليراها من عبدها كما قال (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ﴿وإذا الجبال سيرت﴾ أى عن أماكنها بالرجفة الحاصلة لا فى الجو فإن ذلك بعد النفخة الثانية ﴿وإذا العشار﴾ جمع عشراء وهى الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر وهو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة وهى أنفس ما يكون عند أهلها وأعزها عليهم ﴿عطلت﴾ تركت مهملة لاشتغال أهلها بأنفسهم وقيل العشار السحائب(١) فإن العرب تشبهها بالحامل ومنه قوله تعالى (فالحاملات وقرآ) وتعطيلها عدم إمطارها وقرىء عطلت بالتخفيف ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ أى جمعت من كل جانب وقيل بعثت للقصاص قال قتادة يحشر كل شىء حتى الذباب للقصاص فإذا قضى بينها ردت ترابا فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبنى آدم وإعجاب بصورته كالطاوس ونحوه وقرىء حشرت بالتشديد ﴿وإذا البحار سجرت﴾ أى أحميت أو ملئت بتفجير بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحدا من سجر التنور إذا ملأه بالحطب ليحميه وقيل ملئت نيرانا تضطرم بها(٢) لتعذيب أهل النار وعن الحسن يذهب ماؤها حتى لا يبقى فيها قطرة وقرىء سجرت بالتخفيف .

﴿وإذا النفوس زوجت﴾ أى قرنت بأجسادها أو قرنت كل نفس بشكلها أو بكتابها أو بعملها أو نفوس المؤمنين بالحور ونفوس الكافرين بالشياطين ﴿وإذا الموؤدة﴾ أى المدفونة حية وكانت العرب تئد البنات مخافة الإملاق أو لحوق العار بهم من أجلهن قيل كان الرجل منهم إذا ولدت له بنت ألبسها جبة من صوف أو شعر حتى إذا بلغت ست سنين ذهب بها إلى الصحراء وقد حفر لها حفرة فيلقيها فيها ويهيل عليها التراب وقيل كانت الحامل إذا أقربت

(١) فى ١١ السحاب (٢) سقطت من الأصل

حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فاذا ولدت بنتا رمت بها وإن ولدت إبنا حبسته ﴿ سئلت بأى ذنب قتلت ﴾ توجيه السؤال إليها لتسليتها وإظهار كال الغيظ والسخط لوائدها وإسقاطه عن درجة الخطاب والمبالغة فى تبكيته كما فى قوله تعالى (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين) وقرىء سألت أى خاصمت أو سألت الله تعالى أو قاتلها وإنما قيل قتلت لما أن الكلام إخبار عنها لا حكاية لما خوطبت به حين سئلت ليقال قتلت على الخطاب ولا حكاية لكلامها حين سألت ليقال قتلت على الحكاية عن نفسها وقد قرىء كذلك وبالتشديد أيضا وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن أطفال المشركين فقال لا يعذبون واحتج بهذه الآية :

﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ أى صحف الأعمال فانها تطوى عند الموت وتنشر عند الحساب عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال يحشر الناس عراة حفاة فقالت أم سلمة فكيف بالنساء فقال شغل الناس يا أم سلمة قالت وماشغلهم قال نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل وقيل نشرت أى فرقت بين أصحابها وعن مرثد بن وداعة إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش فتقع صحيفة المؤمن فى يده فى جنة عالية وتقع صحيفة الكافر فى يده فى سموم وحميم أى مكتوب فيها ذلك وهى صحف غير صحف الأعمال ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ قلعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة والغطاء عن الشىء المستور به وقرىء قشطت واعتقاب الكاف والقاف غير عزيز كالكافور والقافور ﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أى أوقدت إيقادا شديدا قيل سعرها غضب الله عز وجل وخطايا بنى آدم وقرىء سعرت بالتخفيف ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أى قربت من المتقين كقوله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) قيل هذه اثنتا عشرة خصلة ست منها فى الدنيا أى فيما بين النفختين وهن من أول السورة إلى قوله تعالى (وإذا البحار سجرت) على أن المراد بحشر الوحوش جمعها من كل ناحية لا بعثها للقصاص وست فى الآخرة أى بعد النفخة الثانية وقوله تعالى ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ جواب إذا على أن المراد بها زمان واحد

ممتد يسع ما فى سياقها وسياق ما عطف عليها من الخصال مبدؤه النفخة الأولى ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم فى كل جزء من أجزاء ذلك الوقت المديد أو عند وقوع داهية من تلك الدواهى بل عند نشر الصحف إلا أنه لما كان بعض تلك الدواهى من مباديه وبعضها من روادفه نسب علمها بذلك إلى زمان وقوع (١) كلها تهويلا للخطب وتفظيعا للحال والمراد بما أحضرت أعمالها من الخير والشر وبحضورها إما حضور صحائفها كما يعرب عنه نشرها وإما حضور أنفسها على ما قالوا من أن الأعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح على كيفيات مخصوصة وهيآت معينة حتى أن الذنوب والمعاصى تتجسم هنالك وتتصور بصورة النار وعلى ذلك حمل قوله تعالى (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وقوله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا) وكذا قوله عليه الصلاة والسلام فى حق من يشرب من آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم (٢) ولا بعد فى ذلك ألا يرى أن العلم يظهر فى عالم المثال على صورة اللبن كما لا يخفى على من له خبرة بأحوال الحضرات الخمس وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة وبالأعمال السيئة على صور قبيحة فتوضع فى الميزان وأيا ما كان فإسناد إحضارها إلى النفس مع أنها تحضر بأمر الله تعالى كما ينطق به قوله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) الآية لأنها لما عملتها فى الدنيا فكأنها أحضرتها فى الموقف ومعنى علمها بها حينئذ أنها تشاهدها على ما هى عليه فى الحقيقة فان كانت صالحة تشاهدها على صور أحسن مما كانت تشاهدها عليه فى الدنيا لأن الطاعات لا تخلو فيها عن نوع مشقة وان كانت سيئة تشاهدها على خلاف ما كانت تشاهدها عليه ههنا لأنها كانت مزينة لها

---

(١) فى ١١ وقوعها كلها .

(٢) أخرجه أحمد فى الزهد عن البراء بن عازب .

موافقة لهواها وتنكير النفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس أو لبعض منها للايذان بأن ثبوته لجميع أفرادها قاطبة من الظهور والوضوح بحيث لا يكاد يحوم حوله شائبة اشتباه قطعاً يعرفه كل أحد ولو جيء بعبارة تدل على خلافه وللرمز إلى أن تلك النفوس العالمة بما ذكر مع توفر أفرادها وتكثر أعدادها مما يستقل بالنسبة إلى جناب الكبرياء الذى أشير إلى بعض بدائع شئونه المنبئة عن عظم سلطانه وأما ما قيل من أن هذا من قبيل عكس كلامهم الذى يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه وتمثيله بقوله تعالى (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) وبقول من قال :

* قد أترك القرن مصفرا أنامله *

وبقول من قال حين سئل عن عدد فرسانه رب فارس عندى وعنده المقانب قاصدا بذلك التمادى فى تكثير فرسانه وإظهار براءته من التزيد وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا أن يتزيد فمن لوائح النظر الجليل إلا أن الكلام المعكوس عنه فيما ذكر من الأمثلة مما يقبل الإفراط والتمادى فيه فانه فى الأول كثيرا ما يود وفى الثانى كثيراً ما أترك وفى الثالث كثير من الفرسان وكل واحد من ذلك قابل للإفراط والمبالغة فيه لعدم انحصار مراتب الكثرة وقد قصد بعكسه ما ذكر من التمادى فى التكثير حسبما فصل أما فيما نحن فيه فالكلام الذى عكس عنه علمت كل نفس ما أحضرت كما صرح به القائل وليس فيه إمكان التكثير حتى يقصد بعكسه المبالغة والتمادى فيه وإنما الذى يمكن فيه من المبالغة ماذكرناه فتأمل ويجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هى تلك التى علمت ما أحضرت فكيف وكل نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه لعلك ستندم على ما فعلت وربما ندم الإنسان على ما فعل فانك لا تقصد بذلك أن ندمه مرجو الوجود لا متيقن به أو نادر الوقوع بل تريد أن العاقل يجب عليه أن يجتنب أمراً يرجى فيه الندم أو قلما يقع فيه فكيف به إذا كان قطعى الوجود كثير الوقوع .

﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ أى الكواكب الرواجع من خنس إذا تأخر وهى ما عدا النيرين من الدرارى الخمسة وهى بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشترى وصفت بقوله تعالى ﴿ الجوار الكنس ﴾ لأنها تجرى مع الشمس والقمر وترجع حتى تختفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها وكنوسها اختفاؤها تحت ضوئها من كنس الوحش إذا دخل كناسه وهو البيت الذى يتخذه من أغصان الشجر وقيل هى جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل أى تطلع فى أماكنها كالوحش فى كنسها ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ أى أدبر ظلامه أو أقبل فانه من الأضداد وكذلك سعسع قال الفراء أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر وعليه قول العجاج :

حتى إذا الصبح لها تنفسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا

وقيل هى لغة قريش خاصة وقيل معنى إقبال ظلامه أوفق لقوله تعالى ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ لأنه أول النهار وقيل إدباره أقرب من تنفس الصبح ومعناه أن الصبح إذا أقبل يقبل باقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفسا له مجازا فقيل تنفس الصبح ﴿ إنه ﴾ أى القرآن الكريم الناطق بما ذكر من الدواهى الهائلة ﴿ لقول رسول كريم ﴾ هو جبريل عليه السلام قاله من جهة الله عز وجل ﴿ ذى قوة ﴾ شديدة كقوله تعالى شديد القوى وقيل المراد القوة فى أداء طاعة الله تعالى وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف ﴿ عند ذى العرش مكين ﴾ ذى مكانة رفيعة عند الله تعالى عندية إكرام وتشريف لا عندية مكان ﴿ مطاع ﴾ فيما بين ملائكته المقربين يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه ﴿ ثم أمين ﴾ على الوحى وثم ظرف لما قبله وقيل لما بعده وقرىء ثم تعظيما لوصف الأمانة وتفضيلا لها على سائر الأوصاف ﴿ وما صاحبكم ﴾ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ بمجنون ﴾ كما تبهته الكفرة والتعرض لعنوان المصاحبة للتلويح باحاطتهم بتفاصيل أحواله عليه الصلاة والسلام خبرا وعلمهم بنزاهته عليه السلام عما نسبوه إليه بالكلية وقد استدل به على فضل جبريل عليه عليهما السلام للتباين البين بين وصفيهما وهو ضعيف إذ المقصود

رد قول الكفرة فى حقه عليه الصلاة والسلام (إنما يعلمه بشر أفترى على الله كذبا أم به جنة) لا تعداد فضائلهما والموازنة بينهما ﴿ ولقد رآه ﴾ أى وبالله لقد رأى رسول الله جبريل عليهما الصلاة والسلام. ﴿ بالأفق المبين ﴾ بمطلع الشمس الأعلى ﴿ وما هو ﴾ أى رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ على الغيب ﴾ على ما يخبره من الوحى إليه وغيره من الغيوب ﴿ بضنين ﴾ أى ببخيل لا يبخل بالوحى ولا يقصر فى التبليغ والتعليم وقرىء بظنين أى بمتهم من الظنة وهى التهمة ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ أى قول بعض المسترقة للسمع وهو نفى لقولهم إنه كهانة وسحر ﴿ فأين تذهبون ﴾ استضلال لهم فيما يسلكونه فى أمر القرآن والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ظهور أنه وحى مبين وليس مما يقولون فى شىء كما تقول لمن ترك الجادة بعد ظهورها هذا الطريق الواضح فأين تذهب ﴿ إن هو ﴾ ما هو ﴿ إلا ذكر للعالمين ﴾ موعظة وتذكير لهم وقوله تعالى ﴿ لمن شاء منكم ﴾ بدل من العالمين باعادة الجار .

وقوله تعالى ﴿أن يستقيم﴾ مفعول شاء أي لمن شاء منكم الاستقامة بتحرى الحق وملازمة الصواب وإبداله من العالمين لأنهم المنتفعون بالتذكير ﴿ وما تشاؤون ﴾ أى الاستقامة مشيئة مستتبعة لها فى وقت من الأوقات ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أى إلا وقت أن يشاء الله تعالى تلك المشيئة أى المستتبعة للاستقامة فإن مشيئتكم لا تستتبعها بدون مشيئة الله تعالى لها ﴿ رب العالمين ﴾ مالك الخلق ومربيهم أجمعين . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التكوير أعاذه الله أن يفضحه حين تنشر صحيفته .

سورة انفطرت

مكية ، وآيها تسع عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ أى انشقت لنزول الملائكة كقوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) وقوله تعالى (وفتحت السماء فكانت أبوابا) والكلام فى ارتفاع السماء كما مر فى ارتفاع الشمس ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ أى تساقطت متفرقة ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ فتح بعضها إلى بعض فاختلط العذب بالأجاج وزال ما بينهما من البرزخ الحاجز وصارت البحار بحراً واحداً وروى أن الأرض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية وهو معنى التسجير عند الحسن رضى الله عنه وقيل إن مياه البحار الآن راكدة مجتمعة فاذا فجرت تفرقت وذهبت وقرىء فجرت بالتخفيف مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل أيضاً بمعنى بغت من الفجور نظرا إلى قوله تعالى لا يبغيان ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ أى قلب ترابها وأخرج موتاها ونظيره بحثر لفظا ومعنى وهما مركبان من البعث والبحث مع راء ضمت اليهما وقوله تعالى ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ جواب إذا لكن لا على أنها تعلمه عند البعث بل عند نشر الصحف لما عرفت من أن المراد بها زمان واحد مبدؤه النفخة الأولى ومنتهاه الفصل بين الخلائق لا أزمنة متعددة حسب تعدد كلمة إذا وإنما كررت لتهويل ما فى حيزها من الدواهى والكلام فيها كالذى مر تفصيله فى نظيرها[1] ومعنى ما قدم وأخر ما أسلف من عمل خير أو شر وأخر من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده قاله ابن عباس وابن مسعود وعن ابن عباس أيضا ما قدم من معصية وأخر من طاعة وهو قول قتادة وقيل ما قدم من أمواله لنفسه وما أخر لورثته وقيل ما قدم من فرض وأخر من فرض وقيل أول عمله وآخره ومعنى علمها بهما علمها التفصيلى حسبما ذكر فيما مر مرارا ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك

(١) فى الأصل : فيها . . . نظيره .

بربك الكريم ﴾ أى أى شىء خدعك وجرأك على عصيانه وقد علمت ما بين يديك من الدواهى التامة والعراقيل الطامة وما سيكون حينئذ من مشاهدة أعمالك كلها والتعرض لعنوان كرمه تعالى للايذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدارا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له أفعل ما شئت فإن ربك كريم قد تفضل عليك فى الدنيا وسيفعل مثله فى الآخرة فإنه قياس عقيم وتمنية باطلة بل هو مما يوجب المبالغة فى الإقبال على الإيمان والطاعة والاجتناب عن الكفر والعصيان كأنه قيل ما حملك على عصيان ربك الموصوف بالصفات الزاجرة عنه الداعية إلى خلافه وقوله تعالى ﴿ الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾ صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم منبهة على أن من قدر على ذلك بدءا قدر عليه إعادة والتسوية جعل الأعضاء سليمة سوية معدة لمنافعها وعدلها عدل بعضها ببعض بحيث اعتدلت ولم تتفاوت أو صرفها عن خلقة غير ملائمة لها وقرىء فعدلك بالتشديد أى صيرك معتدلا متناسب الخلق من غير تفاوت فيه ﴿ فى أى صورة ماشاء ركبك ﴾ أى ركبك فى أى صورة شاءها من الصور المختلفة وما مزيدة وشاء صفة لصورة أى ركبك فى أى صورة شاءها واختارها لك من الصور العجيبة الحسنة كقوله تعالى (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وإنما لم يعطف الجملة على ما قبلها لأنها بيان لعدلك .

﴿ كلا ﴾ ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى وجعله ذريعة إلى الكفر والمعاصى مع كونه موجبا للشكر والطاعة وقوله تعالى ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ إضراب عن جملة مقدرة ينساق إليها الكلام كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض وأنتم لا ترتدعون عن ذلك بل تجترئون على أعظم من ذلك حيث تكذبون بالجزاء والبعث رأسا أو بدين الإسلام الذى هما من جملة أحكامه فلا تصدقون سؤالا ولا جوابا ولا ثوابا ولا عقابا وقيل كأنه قيل إنكم لا تستقيمون على ما توجبه نعمى[1] عليكم وارشادى لكم بل تكذبون الخ وقال القفال ليس

(١) فى ١١ : نعمائى .

الأمر كما تقولون من أنه لا بعث ولا نشور ثم قيل أنتم لا تقبلون بهذا البيان بل تكذبون بيوم الدين وقوله تعالى ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ حال من فاعل تكذبون مفيدة لبطلان تكذيبهم وتحقق ما يكذبون به أى تكذبون بالجزاء والحال أن عليكم من قبلنا لحافظين لأعمالكم ﴿ كراما ﴾ لدينا ﴿ كاتبين ﴾ لها ﴿ يعلمون ماتفعلون ﴾ من الأفعال قليلا وكثيرا ويضبطونه نقيراً وقطميراً لتجازوا بذلك وفى تعظيم الكاتبين بالثناء عليهم تفخيم لأمر الجزاء وأنه عند الله عز وجل من جلائل الأمور حيث يستعمل فيه هؤلاء الكرام وقوله تعالى ﴿ إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم ﴾ استئناف مسوق لبيان نتيجة الحفظ والكتاب من الثواب والعقاب وفى تنكير النعيم والجحيم من التفخيم والتهويل ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ يصلونها ﴾ إما صفة لجحيم أو استئناف مبنى على سؤال نشأ من تهويلها كأنه قيل ما حالهم فيها فقيل يقاسون حرها ﴿ يوم الدين ﴾ يوم الجزاء الذى كانوا يكذبون به ﴿ وماهم عنها بغائبين ﴾ طرفة عين فإن المراد دوام نفى الغيبه لا نفى دوام الغيبه لما مر مرارا من أن الجملة الاسمية المنفية قد يراد بها استمرار النفى لا نفى الاستمرار باعتبار ما تفيده من الدوام والثبات بعد النفى لا قبله وقيل معناه وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون سمومها فى قبورهم حسبما قال النبى عليه الصلاة والسلام القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران وقوله تعالى :

﴿ وما أدراك مايوم الدين ثم ما أدراك مايوم الدين ﴾ تفخيم لشأن يوم الدين الذى يكذبون به إثر تفخيم وتهويل لأمره بعد تهويل ببيان أنه خارج عن دائرة دراية الخلق على أى صورة تصوروه فهو فوقها وكيفما تخيلوه فهو أطم من ذلك وأعظم أى وأى شىء جعلك داريا[1] مايوم الدين على أن ما الاستفهامية خبر ليوم الدين لا بالعكس كما هو رأى سيبويه لما مر من أن مدار الافادة هو

(١) فى ١١ : تدرى .

الخبر لا المبتدأ ولا ريب فى أن مناط إفادة الهول والفخامة هنا هو ما لا يوم الدين أى أى شيء عجيب هو فى الهول والفظاعة لما مر غير مرة أن كلمة ما قد يطلب بها الوصف وإن كانت موضوعة لطلب الحقيقة وشرح الاسم يقال ما زيد فيقال فى الجواب كاتب أو طبيب وفى إظهار يوم الدين فى موقع الاضمار تأكيد لهوله وفخامته وقوله تعالى ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ بيان إجمالى لشأن يوم الدين إثر إبهامه وبيان خروجه عن علوم الخلق بطريق إنجاز الوعد فإن نفى إدراكهم مشعر بالوعد الكريم بالإدراء قال ابن عباس رضى الله عنهما كل ما فى القرآن من قوله تعالى ما أدراك فقد أدراه وكل ما فيه من قوله وما يدرك فقد طوى عنه ويوم مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف وحركته الفتح لإضافته إلى غير متمكن كأنه قيل هو يوم لا يملك فيه نفس من النفوس شيئاً من الأشياء إلخ أو منصوب بإضمار اذكر كأنه قيل بعد تفخيم أمر يوم الدين وتشويقه عليه الصلاة والسلام إلى معرفته اذكر يوم لا تملك نفس إلخ فإنه يدريك ما هو وقيل باضمار يدانون وليس بذاك فإنه عار عن إفادة ما يفيده ما قبله كما أن إبداله من يوم الدين على قراءة الرفع كذلك بل الحق حينئذ الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الانفطار كتب الله تعالى له بعدد كل قطرة من السماء وبعدد كل قبر حسنة والله تعالى أعلم .

* * *

سورة المطففين

مختلف فيها ، وآيها ست وثلاثون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ويل للمطففين ﴾ قيل الويل شدة الشر وقيل العذاب الأليم وقيل هو واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره وقيل وقيل وأياما كان فهو مبتدأ وإن كان نكرة لوقوعه فى موقع الدعاء والتطفيف البخس فى الكيل والوزن لأن ما يبخس شىء طفيف حقير وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وكان أهلها من أخبث الناس كيلا فنزلت فأحسنوا الكيل وقيل قدمها عليه الصلاة والسلام وبها رجل يعرف بأبى جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر وقيل كان أهل المدينة تجارا يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة فنزلت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم وقال خمس بخمس ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر وقوله تعالى ﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ إلخ صفة كاشفة للمطففين شارحة لكيفية تطفيفهم الذى استحقوا به الذم والدعاء بالويل أى إذا اكتالوا من الناس مكيلهم بحكم الشراء ونحوه يأخذونه وافيا وافرا وتبديل كلمة على بمن لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء أو للإشارة إلى أنه اكتيال مضربهم لكن لا على اعتبار الضرر فى حيز الشرط الذى يتضمنه كلمة إذا لإخلاله بالمعنى بل فى نفس الأمر بموجب الجواب فإن المراد بالاستيفاء ليس أخذ الحق وافيا من غير نقص بل مجرد الأخذ الوافى الوافر حسبما أرادوا بأى وجه تيسر من وجوه الحيل وكانوا يفعلونه بكبس المكيل وتحريك المكيال والاحتيال فى ملئه

وأما ما قيل من أن ذلك للدلالة على أن اكتيالهم لما لهم على الناس فمع اقتضائه لعدم شمول الحكم لاكتيالهم قبل أن يكون لهم على الناس شيء بطريق الشراء ونحوه مع أنه الشائع فيما بينهم يقتضى أن يكون معنى الاستيفاء أخذ مالهم عليهم وافيا من غير نقص إذ هو المتبادر منه عند الإطلاق فى معرض الحق فلا يكون مدار لذمهم والدعاء عليهم وحمل مالهم عليهم على معنى ما سيكون لهم عليهم مع كونه بعيدا جدا مما لا يجدى نفعا فإن اعتبار كون المكيل لهم حالا كان أو مآلا يستدعى كون الاستيفاء بالمعنى المذكور حتما وهكذا حال ما نقل عن الفراء من أن من وعلى تعتقبان فى هذا الموضع لأنه حق عليه فإذا قال اكتلت عليك فكأنه قال أخذت ما عليك وإذا قال اكتلت منك فكقوله إستوفيت منك فتأمل وقد جوز أن تكون على متعلقة بيستوفون ويكون تقديمها على الفعل لإفادة الخصوصية أى يستوفون على الناس خاصة فأما أنفسهم فيستوفون لها وأنت خبير بأن القصر بتقديم الجار والمجرور وإنما يكون فيما يمكن تعلق الفعل بغير المجرور أيضا حسب تعلقه به فيقصد بالتقديم قصره عليه بطريق القلب أو الإفراد أو التعيين حسبما يقتضيه المقام ولا ريب فى أن الاستيفاء الذى هو عبارة عن الأخذ الوافى مما لا يتصور أن يكون على أنفسهم حتى يقصد بتقديم الجار والمجرور قصره على الناس على أن الحديث واقع فى الفعل لا فيما وقع عليه فتدبر والضمير البارز فى قوله تعالى ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم ﴾ للناس أى إذا كالوا لهم أو وزنوا لهم للبيع ونحوه ﴿ يخسرون ﴾ أى ينقصون يقال خسر الميزان وأخسره فحذف الجار وأوصل الفعل كما فى قوله :

ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلا .

أى جنيت لك وجعل البارز تأكيداً للمستكن مما لا يليق بجزالة التنزيل ولعل ذكر الكيل والوزن فى صورة الإخسار والاقتصار على الاكتيال فى صورة الاستيفاء لما أنهم لم يكونوا متمكنين من الاحتيال عند الاتزان تمكنهم منه عند الكيل والوزن وعدم التعرض للمكيل والموزون فى الصورتين

لأن مساق الكلام لبيان سوء معاملتهم فى الأخذ والإعطاء(١) لا فى خصوصية المأخوذ والمعطى وقوله تعالى ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ﴾ استئناف وارد لتهويل ما ارتكبوه من التطفيف والتعجيب من اجترائهم عليه وأولئك إشارة إلى المطففين ووضعه موضع ضميرهم للإشعار بمناط الحكم الذى هو وصفهم فإن الإشارة إلى الشىء متعرضة له من حيث اتصافه بوصفه وأما الضمير فلا يتعرض لوصفه وللإيذان بأنهم ممتازون بذلك الوصف القبيح عن سائر الناس أكمل امتياز نازلون منزلة المشار إليها إشارة حسية وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد درجتهم فى الشرارة والفساد أى ألا يظن أولئك الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل أنهم مبعوثون ﴿ ليوم عظيم ﴾ لا يقادر قدر عظمه وعظم ما فيه ومحاسبون فيه على مقدار الذرة والخردلة فإن من يظن ذلك وإن كان ظنا ضعيفا متاخما للشك والوهم لا يكاد يتجاسر على أمثال هاتيك القبائح فكيف بمن تيقنه وقوله تعالى :

﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ أى لحكمه وقضائه منصوب بإضمار أعنى وقيل بمبعوثون أو مرفوع المحل خبراً لمبتدأ مضمر أو مجرور بدلا من يوم عظيم مبنى على الفتح لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعا كما هو رأى الكوفيين ويؤيد الأخيرين القراءة بالرفع وبالجر وفى هذا الإنكار والتعجيب وإيراد الظن ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه كافة لله تعالى خاضعين ووصفه تعالى بربوبية العالمين من البيان البليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم فى التطفيف وأمثاله ما لا يخفى ﴿ كلا ﴾ ردع عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب وقوله تعالى ﴿ إن كتاب الفجار لفى سجين ﴾ إلخ تعليل للردع أو وجوب الارتداع بطريق التحقيق وسجين علم لكتاب جامع هو ديوان الشر دون فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الثقلين منقول من وصف كحاتم وأصله فعيل من السجن وهو الحبس والتضييق لأنه سبب الحبس والتضييق

(١) فى ١١ : والعطاء

فى جهنم أو لأنه مطروح كما قيل تحت الأرض السابعة فى مكان مظلم موحش وهو مسكن إبليس وذريته فالمعنى أن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون أى ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفى ذلك الكتاب المدون فيه قبائح أعمال المذكورين وقوله تعالى ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ تهويل لأمره أى هو بحيث لا يبلغه دراية أحد وقوله تعالى ﴿ كتاب مرقوم ﴾ أى مسطور بين الكتابة أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه وقيل هو اسم المكان والتقدير ما كتاب السجين أو محل كتاب مرقوم وقوله تعالى ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ متصل بقوله تعالى (يوم يقوم الناس لرب العالمين) وما بينهما اعتراض وقوله تعالى ﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ إما مجرور على أنه صفة ذامة للمكذبين أو بدل منه أو مرفوع أو منصوب على الذم .

﴿ وما يكذب به إلا كل معتد ﴾ أى متجاوز عن حدود النظر والاعتبار غال فى التقليد حتى استقصر قدرة الله تعالى وعلمه عن الإعادة مع مشاهدته للبدء ﴿ أثيم ﴾ أى منهمك فى الشهوات المخدجة الفانية بحيث شغلته عما وراءها من اللذات التامة الباقية وحملته على إنكارها ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا ﴾ الناطقة بذلك ﴿ قال ﴾ من فرط جهله وإعراضه عن الحق الذى لا محيد عنه ﴿ أساطير الأولين ﴾ أى هى حكايات الأولين قال الكلبى المراد بالمعتدى الأثيم هو الوليد ابن المغيرة وقيل النضر بن الحرث وقيل عام لكل من اتصف بالأوصاف المذكورة وقرىء إذا يتلى بتذكير الفعل وقرىء أإذا تتلى على الاستفهام الإنكارى ﴿ كلا ﴾ ردع للمعتدى الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له فيه وقوله تعالى :

﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ بيان لما أدى بهم إلى التفوه بتلك العظيمة أى ليس فى آياتنا ما يصح أن يقال فى شأنها مثل هذه المقالات الباطلة بل ركب على قلوبهم وغلب عليها ما كانوا يكسبونها من الكفر والمعاصى حتى صارت كالصدأ فى المرآة فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق كما قال صلى الله عليه وسلم إن العبد كلما أذنب ذنبا حصل فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود

قلبه ولذلك قالوا ما قالوا والرين الصدأ يقال ران عليه الذنب وغان عليه رينا وغينا ويقال ران فيه النوم أى رسخ فيه وقرىء بإدغام اللام فى الراء ﴿ كلا ﴾ ردع وزجر عن الكسب الرائن ﴿ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فلا يكادون يرونه بخلاف المؤمنين وقيل هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك وعن ابن عباس وقتادة وابن أبى مليكة محجوبون عن رحمته وعن ابن كيسان عن كرامته ﴿ ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ أى داخلوا النار وثم لتراخى الرتبة فإن صلى الجحيم أشد من الإهانة والحرمان من الرحمة والكرامة ﴿ ثم يقال ﴾ لهم توبيخا وتقريعا من جهة الزبانية ﴿ هذا الذى كنتم به تكذبون ﴾ فذوقوا عذابه .

﴿ كلا ﴾ ردع عما كانوا عليه بعد ردع وزجر إثر زجر وقوله تعالى ﴿ إن كتاب الأبرار لفى عليين ﴾ استئناف مسوق لبيان محل كتاب الأبرار بعده بيان سوء حال الفجار متصلا ببيان سوء حال كتابهم وفيه تأكيد للردع ووجوب الارتداع وكتابهم ما كتب من أعمالهم وعليون علم لديوان الخير الذى دون فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين منقول من جمع على فعيل من العلو سمى بذلك إما لأنه سبب الارتفاع إلى أعالى الدرجات فى الجنة وإما لأنه مرفوع فى السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريما له وتعظيما والكلام فى قوله تعالى ﴿ وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم ﴾ كما مر فى نظيره وقوله تعالى :

﴿ يشهده المقربون ﴾ صفة أخرى لكتاب أى يحضرونه ويحفظونه أو يشهدون بما فيه يوم القيامة ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ شروع فى بيان محاسن أحوالهم إثر بيان حال كتابهم على طريقة ما مر فى شأن الفجار ﴿ على الأرائك ﴾ أى على الأسرة فى الحجال ولا يكاد تطلق الأريكة على السرير عندهم إلا عند كونه فى الحجلة ﴿ ينظرون ﴾ أى إلى ما شاؤا مد أعينهم إليه من رغائب مناظر الجنة وإلى ما أولاهم الله تعالى من النعمة والكرامة وإلى أعدائهم يعذبون فى النار وما تحجب الحجال أبصارهم عن الإدراك .

﴿ تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ﴾ أى بهجة التنعم وماءه ورونقه والخطاب لكل أحد ممن له حظ من الخطاب للإيذان بأن مالهم من آثار النعمة وأحكام البهجة بحيث لا يختص برؤية راء دون راء ﴿ يسقون من رحيق ﴾ شراب خالص لا غش فيه ﴿ مختوم ختامه مسك ﴾ أى مختوم أوانيه وأكوابه بالمسك مكان الطين ولعله تمثيل لكمال نفاسته وقيل ختامه مسك أى مقطعه رائحة مسك وقرىء خاتمه بفتح التاء وكسرها أى ما يختم به ويقطع ﴿ وفى ذلك ﴾ إشارة إلى الرحيق وهو الأنسب لما بعده أو إلى ما ذكر من أحوالهم ومافيه من معنى البعد إما للإشعار بعلو مرتبته وبعد منزلته أو لكونه فى الجنة أى فى ذلك خاصة دون غيره ﴿ فليتنافس المتنافسون ﴾ أى فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله وقيل فليعمل العاملون كقوله تعالى (لمثل هذا فليعمل العاملون) وقيل فليستبق المستبقون وأصل التنافس التغالب فى الشىء النفيس وأصله من النفس لعزتها قال الواحدى نفست الشىء أنفسه نفاسة والتنافس تفاعل منه كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به وقال البغوى وأصله من الشىء النفيس الذى يحرص عليه نفوس الناس ويريده كل أحد لنفسه وينفس به على غيره أى يضن به ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ عطف على ختامه صفة أخرى لرحيق مثله وما بينهما اعتراض مقرر لنفاسته أى ما يمزج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم على أن من بيانية أو تبعيضية أو من نفسه على أنها ابتدائية والتسنيم علم لعين بعينها سميت به إما لأنها أرفع شراب فى الجنة وإما لأنها تأتيهم من فوق . روى أنها تجرى فى الهواء متسنمة فتنصب فى أوانيهم ﴿ عينا ﴾ نصب على الاختصاص وجواز أن يكون حالا من تسنيم مع كونه جامداً لاتصافه بقوله تعالى ﴿ يشرب بها المقربون ﴾ فإنهم يشربونها صرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة فالباء مزيدة أو بمعنى من وقوله تعالى :

﴿ إن الذين أجرموا ﴾ الخ حكاية لبعض قبائح مشركى قريش جىء بها تمهيداً لذكر بعض أحوال الأبرار فى الجنة ﴿ كانوا ﴾ فى الدنيا ﴿ من الذين آمنوا يضحكون ﴾ أى يستهزئون بفقرائهم كعمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم

من فقراء المؤمنين وتقديم الجار والمجرور إما للقصر إشعاراً بغاية شناعة مافعلوا أى كانوا من الذين آمنوا يضحكون مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك على منهاج قوله تعالى (أفى الله شك) أو لمرعاة الفواصل ﴿ وإذا مروا ﴾ أى فقراء المؤمنين ﴿ بهم ﴾ أى بالمشركين وهم فى أنديتهم وهو الأظهر وإن جاز العكس أيضا ﴿ يتغامزون ﴾ أى يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم ﴿ وإذا انقلبوا ﴾ من مجالسهم ﴿ إلى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ ملتذين بذكرهم بالسوء والسخرية منهم وفيه إشارة إلى أنهم كانوا لا يفعلون ذلك بمرأى من المارين بهم ويكتفون حينئذ بالتغامز وقرىء فاكهين قيل هما بمعنى وقيل فكهين أشرين وقيل فرحين وفاكهين متفكهين وقيل ناعمين وقيل مازحين ﴿ وإذا رأوهم ﴾ أينما كانوا ﴿ قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ أى نسبوا المسلمين بمن رأوهم ومن غيرهم إلى الضلال بطريق التأكيد ﴿ وما أرسلوا عليهم ﴾ على المسلمين ﴿ حافظين ﴾ حال من واو قالوا أى قالوا ذلك والحال أنهم ما أرسلوا من جهة الله تعالى موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيمنون على أعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم وهذا تهكم بهم وإشعار بأن ما اجترأوا عليه من القول من وظائف من أرسل من جهته تعالى وقد جوز أن يكون ذلك من جملة قول المجرمين كأنهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا علينا حافظين إنكاراً لصدهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام وإنما قيل عليهم نقلا له بالمعنى كما فى قولك حلف ليفعلن لا بالعبارة كما فى قولك حلف لأفعلن ﴿ فاليوم الذين آمنوا ﴾ أى المعهودون من الفقراء ﴿ من الكفار ﴾ أى من المعهودين وهو الأظهر وإن أمكن التعميم من الجانبين ﴿ يضحكون ﴾ حين يرونهم أذلاء مغلولين قد غشيهم فنون الهوان والصغار بعد العزة والكبر ورهقهم ألوان العذاب بعد التنعم والترفه وتقديم الجار والمجرور للقصر تحقيقاً للمقابلة أى فاليوم هم من الكفار يضحكون لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون فى الدنيا وقوله تعالى :

﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ حال من فاعل يضحكون أى يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من سوء الحال وقيل يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال

لهم اخرجوا إليها فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم يفعل بهم ذلك مراراً ويضحك المؤمنون منهم ويأباه قوله تعالى ﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ فإنه صريح فى أن ضحك المؤمنين منهم جزاء لضحكهم منهم فى الدنيا فلا بد من المجانسة والمشاكلة حتما والتثويب والإثابة المجازاة وقرىء بإدغام اللام فى الثاء . وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المطففين سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم .

* * *

سورة الانشقاق

مكية ، وآيها خمس وعشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إذا السماء انشقت ﴾ أى بالغمام كما فى قوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام) وعن على رضى الله تعالى عنه تنشق من المجرة ﴿ وأذنت لربها ﴾ أى واستمعت أى انقادت وأذعنت لتأثير قدرته تعالى حين تعلقت إرادته بانشقاقها انقياد المأمور المطواع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليها للإشعار بعلة الحكم وهذه الجملة ونظيرتها الآتية بمنزلة قوله تعالى أتينا طائعين فى الإنباء عن كون ما نسب إلى السماء والأرض من الانشقاق والمد وغيرهما جاريا على مقتضى الحكمة كما أشير إليه فيما سلف ﴿ وحقت ﴾ أى جعلت حقيقة بالاستماع والانقياد لكن لا بعد أن لم تكن كذلك بل فى نفسها وحد ذاتها من قولهم هو محقوق بكذا وحقيق به والمعنى انقادت لربها وهى حقيقة بذلك لكن لا على أن المراد خصوصية ذاتها من بين سائر المقدورات بل خصوصية المقدرة القاهرة الربانية التى يتأتى لها كل مقدور ولا يتخلف عنها أمر من الأمور فحق الجملة أن تكون اعتراضاً مقرراً لما قبلها لا

معطوفة عليه ﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ أى بسطت بإزالة جبالها وآكامها من مقارها وتسويتها بحيث صارت قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا أو زيدت سعة وبسطة من مده بمعنى أمده أى زاده ﴿ وألقت مافيها ﴾ أى رمت مافى جوفها من الموتى والكنوز كقوله تعالى (وأخرجت الأرض أثقالها) ﴿ وتخلت ﴾ وخلت عما فيها غاية الخلو حتى لم يبق فيها شىء منه كأنها تكلفت فى ذلك أقصى جهدها ﴿ وأذنت لربها ﴾ فى الإلقاء والتخلى ﴿ وحقت ﴾ أى وهى حقيقة بذلك أى شأنها ذلك بالنسبة إلى القدرة الربانية وتكرير كلمة إذا مع اتحاد الأفعال المنسوبة إلى السماء والأرض وقوعا فى الوقت الممتد الذى هو مدلولها قد مر سره فيما مر .

﴿ يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحا ﴾ أى جاهد ومجد إلى الموت وما بعده من الأحوال التى مثلت باللقاء مبالغ فى ذلك فإن الكدح جهد النفس فى العمل والكد فيه بحيث يؤثر فيها من كدح جلده إذا خدشه ﴿ فملاقيه ﴾ أى فملاق له عقيب ذلك لا محالة من غير صارف يلويك عنه وقوله تعالى ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ﴾ الخ قيل جواب إذا كما فى قوله تعالى (فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقوله تعالى (يا أيها الإنسان) الخ اعتراض وقيل هو محذوف للتهويل والإيماء إلى قصور العبارة عن بيانه أو للتعويل على دلالة ما مر فى سورة التكوير والانفطار عليه وقيل هو ما دل عليه قوله تعالى يا أيها الإنسان الخ تقديره لاقى الإنسان كدحه وقيل هو قوله تعالى فملاقيه وما قبله اعتراض وقيل هو يا أيها الإنسان الخ باضمار القول ومعنى يسيرا سهلا لا مناقشة فيه ولا اعتراض وعن الصديقة[1] رضى الله عنها هو أن يعرف ذنوبه ثم يتجاوز عنه ﴿ وينقلب إلى أهله مسرورا ﴾ أى عشيرته المؤمنين أو فريق المؤمنين مبتهجا بحاله قائلا هاؤم

(١) يعنى عائشة رضى الله عنها .

اقرؤا كتابيه وقيل إلى أهله فى الجنة من الحور والغلمان ﴿ وأما من أوتى كتابه وراء ظهره ﴾ أى يؤتاه بشماله من وراء ظهره قيل تغل يمناه إلى عنقه ويجعل شماله وراء ظهره فيؤتى كتابه بشماله وقيل تخلع يده اليسرى من وراء ظهره ﴿ فسوف يدعوا ثبورا ﴾ أى يتمنى الثبور وهو الهلاك ويدعوه ياثبوراه تعال فإنه أوانك وأنى له ذلك ﴿ ويصلى سعيرا ﴾ أى يدخلها وقرىء يصلى كقوله تعالى (وتصلية جحيم) وقرىء ويصلى كما فى قوله تعالى (ونصليه جهنم) .

﴿ إنه كان فى أهله ﴾ فيما بين أهله وعشيرته فى الدنيا ﴿ مسرورا ﴾ مترفا بطرا مستبشرا كديدن الفجار[1] الذين لايهمهم ولا يخطر ببالهم أمور الآخرة ولا يتفكرون فى العواقب ولم يكن حزينا متفكرا فى حاله ومآله كسنة الصلحاء والمتقين والجملة استئناف لبيان علة ما قبلها وقوله تعالى ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ تعليل لسروره فى الدنيا أى ظن أن لن يرجع إلى الله تعالى تكذيبا للمعاد وأن مخففة من أن سادة مع ما فى حيزها مسد مفعولى الظن أو أحدهما على الخلاف المعروف ﴿ بلى ﴾ إيجاب لما بعد لن وقوله تعالى ﴿ إن ربه كان به بصيرا ﴾ تحقيق وتعليل له أى بلى ليحورن البتة إن ربه الذى خلقه كان به وبأعماله الموجبة للجزاء بصيرا بحيث لا يخفى منها خافية فلابد من رجعه وحسابه وجزائه عليها حتما وقيل نزلت الآيتان فى أبى سلمة بن عبد الأشد وأخيه الأسود ﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ هى الحمرة التى تشاهد فى أفق المغرب بعد الغروب أو البياض الذى يليها سمى به لرقته ومنه الشفقة التى هى عبارة عن رقة القلب ﴿ والليل وما وسق ﴾ وما جمع وضم يقال وسقه فاتسق واستوسق أى جمعه فاجتمع وما عبارة عما يجتمع بالليل ويأوى إلى مكانه من الدواب وغيرها ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ أى اجتمع وتم بدرا ليلة أربع عشرة .

﴿ لتركبن طبقا عن طبق ﴾ أى لتلاقن حالا بعد حال كل واحدة منها

(١) فى ١١ : الكفار .

مطابقة لأختها فى الشدة والفظاعة وقيل الطبق جمع طبقة وهى المرتبة وهو الأوفق للركوب المنبىء عن الاعتلاء والمعنى لتركبن أحوالا بعد أحوال هى طبقات فى الشدة بعضها أرفع من بعض وهى الموت وما بعده من مواطن القيامة ودواهيها وقرىء لتركبن بالإفراد على خطاب الإنسان باعتبار اللفظ لا باعتبار شموله لأفراده كالقراءة الأولى وقرىء بكسر الباء على خطاب النفس وليركبن بالياء أى ليركبن الإنسان ومحل عن طبق النصب على أنه صفة لطبقا أى طبقا مجاوزا لطبق أو حال من الضمير فى لتركبن أى لتركبن طبقا مجاوزين أو مجاوزا أو مجاورة على حسب القراءة والفاء فى قوله تعالى :

﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة وأهوالها الموجبة للإيمان والسجود أى إذا كان حالهم يوم القيامة كما ذكر فأى شىء لهم حال كونهم غير مؤمنين أى أى شىء يمنعهم من الإيمان مع تعاضد موجباته وقوله تعالى :

﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ جملة شرطية محلها النصب على الحالية نسقا على ما قبلها أى فأى مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم واستكانتهم عند قراءة القرآن وقيل قرأ النبى عليه الصلاة والسلام ذات يوم واسجد واقترب فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤسهم وتصفر فنزلت وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى على وجوب السجدة وعن ابن عباس رضى الله عنهما ليس فى المفصل سجدة وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سجد فيها وقال والله ما سجدت إلا بعد أن رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يسجد فيها وعن أنس رضى الله عنه صليت خلف أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم فسجدوا وعن الحسن هى غير واجبة[1] ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾

---

(١) انظر ابن قدامة ١ / ٣٤٥ .

بالقرآن الناطق بما ذكر من أحوال القيامة وأهوالها مع تحقق موجبات تصديقه ولذلك لا يخضعون عند تلاوته ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ بما يضمرون فى قلوبهم ويجمعون فى صدورهم من الكفر والحسد والبغى والبغضاء أو بما يجمعون فى صحفهم من أعمال السوء ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذاب علما فعليا ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ لأن علمه تعالى بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم حتما ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ استثناء منقطع إن جعل الموصول عبارة عن المؤمنين كافة ومتصل أن أريد به من آمن منهم بعد ذلك وقوله تعالى ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ أى غير مقطوع أو ممنون به عليهم استئناف مقرر لما أفاده الاستثناء من انتفاء العذاب عنهم ومبين لكيفيته ومقارنته للثواب العظيم.
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة انشقت أعاذه الله تعالى أن يعطيه كتابه وراء ظهره .

* * *

سورة البروج

مكية ، وآيها ثنتان وعشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والسماء ذات البروج ﴾ هى البروج الإثنا عشر شبهت بالقصور لأنها تنزلها السيارات ويكون فيها الثوابت أو منازل القمر أو عظام الكواكب سميت بروجا لظهورها أو أبواب السماء فإن النوازل تخرج منها وأصل التركيب للظهور ﴿ واليوم الموعود ﴾ أى يوم القيامة ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ أى ومن يشهد فى ذلك اليوم من الخلائق وما يحضر فيه من العجائب وتنكيرهما للابهام فى الوصف أى وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما أو للمبالغة فى الكثرة وقيل الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم والمشهود يوم القيامة وقيل عيسى عليه السلام وأمته لقوله تعالى (وكنت عليهم شهيدا) الخ وقيل أمة محمد وسائر الأمم وقيل يوم التروية ويوم عرفة وقيل يوم عرفة ويوم الجمعة وقيل الحجر الأسود والحجيج وقيل الأيام والليالى وبنو آدم وعن الحسن ما من يوم إلا وينادى إنى يوم جديد وإنى على ما يعمل فى شهيد فاغتنمنى فلو غابت شمسى لم تدركنى إلى يوم القيامة وقيل الحفظة وبنو آدم وقيل الأنبياء ومحمد عليهم الصلاة والسلام ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ قيل هو جواب القسم على حذف اللام منه للطول والأصل لقتل كما فى قول من قال :

حلفت لها بالله حلفة فاجر   لناموا فما إن من حديث ولا صال

وقيل تقديره لقد قتل وأيا ما كان فالجملة خبرية والأظهر أنها دعائية دالة على الجواب كأنه قيل أقسم بهذه الأشياء أنهم أى كفار مكة ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود لما أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان وتصبيرهم على أذية الكفرة وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من

التعذيب على الإيمان وصبرهم على ذلك حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ويعلموا أن هؤلاء عند الله عز وجل بمنزلة أولئك المعذبين ملعونون مثلهم أحقاء بأن يقال فيهم ما قد قيل فيهم وقرىء قتل بالتشديد والأخدود الخد فى الأرض وهو الشق ونحوهما بناء ومعنى الحق والأحقوق . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر ضم إليه غلاما ليعلمه السحر وكان فى طريق الغلام راهب فسمع منه فرأى فى طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس قيل كانت الدابة أسدا فأخذ حجرا فقال اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها فكان الغلام بعد ذلك يبرىء الأكمه والأبرص ويشفى من الأدواء وعمى جليس للملك فأبرأه فأبصره الملك فسأله من رد عليك بصرك فقال ربى فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه فدل على الراهب فلم يرجع الراهب عن دينه فقد بالمنشار وأبى الغلام فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا فرجف بالقوم فطاحوا ونجا فذهب به إلى قرقور فلججوا به ليغرقوه فدعا فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا فقال للملك لست بقاتلى حتى تجمع الناس فى صعيد وتصلبنى على جذع وتأخذ سهما من كنانتى وتقول باسم الله رب الغلام ثم ترمينى به فرماه فوقع فى صدغه فوضع يده عليه ومات فقال الناس آمنا برب الغلام فقيل للملك نزل بك ما كنت تحذر فأمر بأخاديد فى أفواه السكك وأوقدت فيها النيران فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبى فتقاعست فقال الصبى يا أماه اصبرى فإنك على الحق فاقتحمت وقيل قال لها قعى ولا تنافقى ما هى إلا غميضة فصبرت قيل أخرج الغلام من قبره فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل وعن على رضى الله عنه أن بعض ملوك المجوس وقع على أخته وهو سكران فلما صحا ندم وطلب المخرج فقالت له المخرج أن تخطب بالناس فتقول إن الله قد أحل نكاح الأخوات ثم تخطبهم بعد ذلك أن الله قد حرمه فخطب فلم يقبلوا منه فقالت له أبسط فيهم السوط ففعل فلم يقبلوا فقالت أبسط فيهم السيف ففعل فلم يقبلوا فأمر بالأخاديد وإيقاد النار وطرح

من أبى فيهافهم الذين أرادهم الله تعالى بقوله (قتل أصحاب الأخدود) وقيل وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام فدعاهم فأجابوه فسار إليهم ذو نواس اليهودى بجنود من حمير فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا فأحرق منهم اثنى عشر ألفا فى الأخاديد وقيل سبعين ألفا وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعا وعرضه اثنى عشر ذراعا[1] ﴿ النار ﴾ بدل اشتمال من الأخدود ﴿ذات الوقود﴾ وصف لها بغاية العظم وارتفاع اللهب وكثرة ما يوجبه من الحطب وأبدان الناس وقرىء الوقود بالضم وقوله تعالى ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ ظرف لقتل أى لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها فى مكان مشرف عليها من حافات الأخدود كما فى قوله :

* وبات على النار الندى والمحلق *

﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ أى يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأن أحدا لم يقصر فيما أمر به أو أنهم شهود يشهدون بما فعلوا بالمؤمنين يوم القيامة يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وقيل على بمعنى مع والمعنى وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور لا يرقون لهم لغاية قسوة قلوبهم هذا هو الذى يستدعيه النظم الكريم وتنطق به الروايات المشهورة وقد روى أن الجبابرة لما ألقوا المؤمنين فى النار وهم قعود حولها علقت بهم النار فأحرقتهم ونجى الله عز وجل المؤمنين منها سالمين وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنس والواحدى وعلى ذلك حملا قوله تعالى ولهم عذاب الحريق ﴿وما نقموا منهم﴾ أى ما أنكروا منهم وما عابوا ﴿ إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ استثناء مفصح عن براءتهم عما يعاب وينكر بالكلية على منهاج قوله :

ولا عيب فيهم غير أن ضيوفهم　　تلام بنسيان الأحبة والوطن

ووصفه تعالى بكونه عزيزا غالبا يخشى عقابه وحميدا منعما يرجى ثوابه وتأكيد

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدى ، والثعلبى ١٣٧ ، وقصص الأنبياء للكسائى ط ليدن ١٩٤ .

ذلك بقوله تعالى ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ﴾ للإشعار بمناط إيمانهم وقوله تعالى ﴿ والله على كل شىء شهيد ﴾ وعد لهم ووعيد شديد لمعذبيهم فان علمه تعالى بجميع الأشياء التى من جملتها أعمال الفريقين يستدعى توفير جزاء كل منهما حتما ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ أى محنوهم فى دينهم ليرجعوا عنه والمراد بهم إما أصحاب الأخدود خاصة وبالمفتونين المطرحون فى الأخدود وإما الذين بلوهم فى ذلك بالأذية والتعذيب على الإطلاق وهم داخلون فى جملتهم دخولا أوليا .

﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ أى عن كفرهم وفتنتهم فان ما ذكر من الفتنة فى الدين لا يتصور من غير الكافر قطعا وقوله تعالى ﴿ فلهم عذاب جهنم ﴾ جملة وقعت خبرا لأن أو الخبر لهم وعذاب مرتفع به على الفاعلية وهو الأحسن والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ولا ضير فى نسخه بأن وإن خالف الأخفش والمعنى لهم فى الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ وهى نار أخرى عظيمة بسبب فتنتهم للمؤمنين ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ على الإطلاق من المفتونين وغيرهم ﴿ لهم ﴾ بسبب ما ذكر من الإيمان والعمل الصالح ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ إن أريد بالجنات الأشجار فجريان الأنهار من تحتها ظاهر وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر فان أشجارها ساترة لساحتها كما يعرب عنه اسم الجنة وقد مر بيانه مرارا ﴿ ذلك ﴾ إشارة إما إلى الجنات الموصوفة والتذكير لتأويلها بما ذكر للإشعار بأن مدار الحكم عنوانها الذى يتنافس فيه المتنافسون فان اسم الإشارة متعرض لذات المشار إليه من حيث اتصافه بأوصافه المذكورة لا لذاته فقط كما هو شأن الضمير فاذا أشير إلى الجنات من حيث ذكرها فقد اعتبر معها عنوانها المذكور حتما وإما إلى ما يفيده قوله تعالى لهم جنات الخ من حيازتهم لها فان حصولها لهم مستلزم لحيازتهم لها قطعا وأيا ما كان فما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجته وبعد منزلته فى الفضل والشرف ومحله الرفع على الابتداء خبره ما بعده أى ذلك المذكور العظيم الشأن ﴿ الفوز الكبير ﴾

الذى يصغر عنده الدنيا وما فيها من فنون الرغائب بحذافيرها والفوز النجاة من الشر والظفر بالخير فعلى الأول هو مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى مصدر على حاله .

﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ استئناف خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم إيذانا بأن لكفار قومه نصيبا موفورا من مضمونه كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام والبطش الأخذ بعنف وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم وهو بطشه بالجبابرة والظلمة وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام كقوله تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) ﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ أى هو يبدىء الخلق وهو يعيده من غير دخل لأحد فى شىء منهما ففيه مزيد تقرير لشدة بطشه أو هو يبدىء البطش بالكفرة فى الدنيا ويعيده فى الآخرة ﴿ وهو الغفور ﴾ لمن تاب وآمن ﴿ الودود ﴾ المحب لمن أطاع .

﴿ ذو العرش ﴾ خالقه وقيل المراد بالعرش الملك أى ذو السلطنة القاهرة وقرىء ذى العرش على أنه صفة ربك ﴿ المجيد ﴾ العظيم فى ذاته وصفاته فإنه واجب الوجود تام القدرة كامل الحكمة وقرىء بالجر على أنه صفة لربك أو للعرش ومجده علوه وعظمته ﴿ فعال لما يريد ﴾ بحيث لا يتخلف عن إرادته مراد من أفعاله تعالى وأفعال غيره وهو خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى ﴿ هل أتاك حديث الجنود ﴾ استئناف مقرر لشدة بطشه تعالى بالظلمة العصاة والكفرة العتاة وكونه فعالا لما يريد متضمن لتسليته عليه الصلاة والسلام بالإشعار بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجنود ﴿ فرعون وثمود ﴾ بدل من الجنود لأن المراد بفرعون هو وقومه والمراد بحديثهم ما صدر عنهم من التمادى فى الكفر والضلال وما حل بهم من العذاب والنكال والمعنى قد أتاك حديثهم وعرفت ما فعلوا وما فعل بهم فذكر قومك بشئون الله تعالى وأنذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم وقوله تعالى ﴿ بل الذين كفروا فى تكذيب ﴾ إضراب عن مماثلتهم لهم وبيان لكونهم أشد منهم فى الكفر والطغيان كأنه قيل ليسوا مثلهم فى ذلك

بل هم أشد منهم فى استحقاق العذاب واستيجاب العقاب فإنهم مستقرون فى تكذيب شديد للقرآن الكريم أو قيل ليست جنايتهم مجرد عدم التذكر والاتعاظ بما سمعوا من حديثهم بل هم مع ذلك فى تكذيب شديد للقرآن الناطق بذلك لكن لا أنهم يكذبون بوقوع الحادثة بل بكون ما نطق به قرآنا من عند الله تعالى مع وضوح أمره وظهور حاله بالبينات الباهرة ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى بعدم فوت المحاط المحيط وقوله تعالى ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ رد لكفرهم وإبطال لتكذيبهم وتحقيق للحق أى ليس الأمر كما قالوا بل هو كتاب شريف عالى الطبقة فيما بين الكتب الإلهية فى النظم والمعنى وقرىء قرآن مجيد بالإضافة أى قرآن رب مجيد ﴿ فى لوح محفوظ ﴾ أى من التحريف ووصول الشياطين إليه وقرىء محفوظ بالرفع على أنه صفة قرآن وقرىء فى لوح وهو الهواء أى ما فوق السماء السابعة الذى فيه اللوح. عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة البروج أعطاه الله تعالى بعدد كل جمعة وعرفة تكون فى الدنيا عشر حسنات .

* * *

سورة الطارق

مكية ، وآيها سبع عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والسماء والطارق ﴾ الطارق فى الأصل اسم فاعل من طرق طرقا وطروقا إذا جاء ليلا قال الماوردى وأصل الطرق الدق ومنه سميت المطرقة وإنما سمى قاصد الليل طارقا لاحتياجه إلى طرق الباب غالبا ثم اتسع فى كل ما ظهر بالليل كائنا ما كان ثم أتسع فى التوسع حتى أطلق على الصور الخيالية البادية بالليل قال:

طرق الخيال ولا كليلة مدلج　　سدكا بأرجلنا ولم يتعرج

والمراد ههنا الكوكب البادى بالليل إما على أنه اسم جنس أو كوكب معهود وقيل الطارق النجم الذى يقال له كوكب الصبح وقوله تعالى ﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾ تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام به وتنبيه على أن رفعة قدره بحيث لا ينالها إدراك الخلق فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم فما الأولى مبتدأ وأدراك خبر والثانية خبر والطارق مبتدأ حسبما بين فى نظائره أى وأى شىء أعلمك ما الطارق وقوله تعالى ﴿ النجم الثاقب ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف وقع جوابا عن استفهام نشأ مما قبله كأنه قيل ما هو فقيل النجم المضىء فى الغاية كأنه يثقب الظلام أو الأفلاك بضوئه وينفذ فيها والمراد به إما الجنس فإن لكل كوكب ضوءاً ثاقباً لا محالة وإما كوكب معهود قيل هو زحل وقيل هو الثريا وقيل هو الجدى وقيل النجم الثاقب نجم فى السماء السابعة لا يسكنها غيره فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة وهو زحل فهو طارق حين ينزل وحين يصعد وفى إيراده عند الإقسام به بوصف مشترك بينه وبين غيره ثم الإشارة إلى أن ذلك الوصف غير كاشف عن كنه أمره وأن ذلك مما لا تبلغه أفكار الخلائق ثم تفسيره بالنجم الثاقب من تفخيم شأنه وإجلال محله بما لا يخفى .

وقوله تعالى ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ جواب للقسم وما بينهما اعتراض جيء به لما ذكر من تأكيد فخامة المقسم به المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسم عليها وإن نافية ولما بمعنى إلا أى ما كل نفس إلا عليها حافظ مهيمن رقيب وهو الله عز وجل كما فى قوله تعالى (وكان الله على كل شيء رقيبا) وقيل هو من يحفظ عملها ويحصى عليها ماتكسب من خير وشر كما فى قوله تعالى (وإن عليكم لحافظين كراما) الآية وقوله تعالى (ويرسل عليكم حفظة) وقوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه) وقرىء لما مخففة على أن إن مخففة من الثقيلة واسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف واللام هى الفارقة وما مزيدة أى أن الشأن كل نفس لعليها حافظ والفاء فى قوله تعالى ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ للتنبيه على أن ما بين من أن كل نفس عليها حافظ يحصى عليها كل ما يصدر عنها من قول وفعل مستوجب على الإنسان أن يتفكر فى مبدأ فطرته حق االلتفكر حتى يتضح له أن من قدر على إنشائه من مواد لم تشم رائحة الحياة قط فهو قادر على إعادته بل أقدر على قياس العقل فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ما ينفعه يومئذ ويجديه ولا يملى على حافظه ما يرديه وقوله تعالى ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ استئناف وقع جوابا عن استفهام مقدر كأنه قيل مم خلق فقيل خلق من ماء ذى دفق وهو صب فيه دفع وسيلان بسرعة والمراد به الممتزج من الماءين فى الرحم كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ أى صلب الرجل وترائب المرأة وهى عظام صدرها قالوا إن النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الأعضاء حتى تستعد لأن يتولد منها مثل تلك الأعضاء ومقرها عروق ملتف بعضها بالبعض عند البيضتين فالدماغ أعظم الأعضاء معونة فى توليدها ولذلك تشبهه ويورث الإفراط فى الجماع الضعف فيه وله خليفه هو (١) النخاع وهو فى الصلب وشعب كثيرة نازلة إلى الترائب وهما أقرب إلى أوعية المنى فلذلك خصا بالذكر وقرىء الصلب بفتحتين والصلب بضمتين وفيه لغة رابعة هى صالب .

(١) فى الأصل هى

﴿ إنه ﴾ الضمير للخالق تعالى فإن قوله خلق يدل عليه أى أن ذلك الذى خلقه إبتداء مما ذكر ﴿ على رجعه ﴾ أى على إعادته بعد موته ﴿ لقادر ﴾ لبين القدرة ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ أى يتعرف ويتصفح ما أسر فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها وما أخفى من الأعمال ويميز بين ما طاب منها وما خبث وهو ظرف لرجعه ﴿ فماله ﴾ أى للإنسان ﴿ من قوة ﴾ فى نفسه يمتنع بها ﴿ ولا ناصر ﴾ ينتصر به ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ أى المطر سمى رجعاً لما أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض أو أرادوا بذلك التفاؤل ليرجع ولذلك سموه أوبا أو لأن الله تعالى يرجعه حيناً فحيناً .

﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات أو مصدر من المبنى للمفعول وهو تشققها بالنبات لا بالعيون كما قيل فإن وصف السماء والأرض عند الأقسام بهما على حقية القرآن الناطق بالبعث بما ذكر من الوصفين للايماء إلى أنهما فى أنفسهما من شواهده وهو السر فى التعبير بالصدع عنه وعن المطر بالرجع وذلك فى تشقق الأرض بالنبات المحاكى للنشور حسبما ذكر فى مواقع من التنزيل لا فى تشققها بالعيون ﴿ إنه ﴾ أى القرآن الذى من جملته ما تلى من الآيات الناطقة بمبدأ حال الانسان ومعاده ﴿ لقول فصل ﴾ أى فاصل بين الحق والباطل مبالغ فى ذلك كأنه نفس الفصل ﴿ وما هو بالهزل ﴾ ليس فى شىء منه شائبة هزل بل كله جد محض لا هوادة فيه فمن حقه أن يهتدى به الغواة وتخضع له رقاب العتاة ﴿ إنهم ﴾ أى أهل مكة ﴿ يكيدون ﴾ فى إبطال أمره وإطفاء نوره ﴿ كيدا ﴾ حسبما تفى به قدرتهم ﴿ وأكيد كيدا ﴾ أى أقابلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث أستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴿ فمهل الكافرين ﴾ أى لا تشتغل بالانتقام منهم ولا تدع عليهم بالهلاك أو لا تستعجل به والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن الإخبار بتوليه تعالى لكيدهم بالذات مما يوجب إمهالهم وترك التصدى لمكايدتهم قطعا وقوله تعالى ﴿ أمهلهم ﴾ بدل من مهل وقوله تعالى ﴿ رويدا ﴾ إما مصدر مؤيد لمعنى العامل

أو نعت لمصدره المحذوف أى أمهلهم إمهالا رويدا أى قريبا كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما أو قليلا كما قاله قتادة قال أبو عبيدة هو فى الأصل تصغير رود بالضم وأنشد ه كأنها ثمل تمشى على روده أى على مهل وقيل تصغير ارواد مصدر أرود بالترخيم وله فى الاستعمال وجهان آخران كونه اسم فعل نحو رويد زيدا وكونه حالا نحو سار القوم رويدا أى متمهلين وفى إيراد البدل بصيغة لا تحتمل التكثير وتقييده برويدا على أحد الوجهين المذكورين من تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسكين قلبه مالا يخفى . وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الطارق أعطاه الله تعالى بعدد كل نجم فى السماء عشر حسنات ، والله أعلم .

• • •

سورة الأعلى

(مكية وآيها تسع عشرة)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ أى نزه اسمه عز وجل عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائغة وعن إطلاقه على غيره بوجه يشعر بتشاركهما فيه وعن ذكره لا على وجه الإعظام والإجلال والأعلى إما صفة للرب وهو الأظهر أو للاسم وقرىء سبحان ربى الأعلى وفى الحديث لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال عليه الصلاة والسلام اجعلوها فى ركوعكم فلما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال اجعلوها فى سجودكم وكانوا يقولون فى الركوع اللهم لك ركعت وفى السجود اللهم لك سجدت ﴿الذى خلق فسوى﴾ صفة أخرى للرب على الوجه الأول ومنصوب على المدح على الثانى لئلا يلزم الفصل بين الموصوف والصفة بصفة غيره أى

خلق كل شيء فسوى خلقه بأن جعل له ما به يتأتى كماله ويتسنى معاشه وقوله تعالى ﴿ والذى قدر ﴾ إما صفة أخرى للرب كالموصول الأول أو معطوف عليه وكذا حال ما بعده قدر أجناس الأشياء وأنواعها وأفرادها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها ﴿ فهدى ﴾ أى فوجه كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغى له طبعا أو اختيارا ويسره لما خلق له بخلق الميول والإلهامات ونصب الدلائل وإنزال الآيات ولو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات لرأيت فى كل منها ما تحار فيه العقول يروى أن الأفعى إذا بلغت ألف سنة عميت وقد ألهمها الله تعالى أن تمسح عينها بورق الرازيانج الغض يرد إليها بصرها فربما كانت عند عروض العمى لها فى برية بينها وبين الريف مسافة طويلة فتطويها حتى تهجم فى بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها فتحك عينها بورقها وترجع باصرة بإذن الله عز وجل ويروى أن التمساح لا يكون له دبر وإنما يخرج فضلات ما يأكله من فمه حيث قيض الله له طائرا قدر غذاؤه من ذلك فإذا رآه التمساح يفتح فمه فيدخله الطائر فيأكل ما فيه وقد خلق الله تعالى له من فوق منقاره ومن تحته قرنين لئلا يطبق عليه التمساح فمه هذا وأما فنون هداياته سبحانه وتعالى للإنسان من حيث الجسمية ومن حيث الحيوانية لاسيما من حيث الإنسانية فمما لا يحيط به فلك العبارة والتحرير ولا يعلمه إلا العليم الخبير ﴿ والذى أخرج المرعى ﴾ أى أنبت ما يرعاه الدواب غضا طريا يرف ﴿ فجعله ﴾ بعد ذلك ﴿ غثاء أحوى ﴾ أى دريننا أسود وقيل أحوى حال من المرعى أى أخرجه أحوى من شدة الخضرة والرى فجعله غثاء بعد ذلك وقوله تعالى :

﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ بيان لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم إثر بيان هدايته تعالى العامة لكافة مخلوقاته وهى هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقى الوحى وحفظ القرآن الذى هو هدى للعالمين وتوفيقه عليه الصلاة والسلام لهداية الناس أجمعين والسين إما للتأكيد وإما لأن المراد اقراء ما أوحى الله إليه حينئذ وما سيوحى إليه بعد ذلك فهو وعد كريم باستمرار الوحى فى

ضمن الوعد بالإقراء أى سنقرئك ما نوحى إليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام أو سنجعلك قارئا بإلهام القراءة فلا تنسى أصلا من قوة الحفظ والإتقان مع أنك أمى لا تدرى ما الكتاب وما القراءة ليكون ذلك آية أخرى لك مع ما فى تضاعيف ما تقرؤه من الآيات البينات من حيث الإعجاز ومن حيث الإخبار بالمغيبات وقيل فلا تنسى نهى والألف لمراعاة الفاصلة كما فى قوله تعالى (فأضلونا السبيلا) وقوله تعالى ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أى لا تنسى مما تقرؤه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه أبدا بأن نسخ تلاوته والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة والإيذان بدوران المشيئة على عنوان الألوهية المستتبعة لسائر الصفات وقيل المراد به النسيان فى الجملة على القلة والندرة كما روى أنه عليه الصلاة والسلام أسقط آية فى قراءته فى الصلاة حسب[1] أبى أنها نسخت فسأله فقال عليه الصلاة والسلام نسيتها وقيل نفى النسيان رأسا فإن القلة قد تستعمل فى النفى فالمراد بالنسيان حينئذ النسيان بالكلية إذ هو المنفى رأسا لا ما قد ينسى ثم يذكر ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ تعليل لما قبله أى يعلم ما ظهر وما بطن من الأمور التى من جملتها ما أوحى إليك فينسى ما يشاء إنساءه ويبقى محفوظا ما يشاء إبقاءه لما نيط بكل منهما من مصالح دينكم .

﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ عطف على نقرئك كما ينبىء عنه الالتفات إلى الحكاية وما بينهما اعتراض وارد لما ذكر من التعليل وتعليق التيسير به عليه الصلاة والسلام مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل كما فى قوله تعالى (ويسر لى أمرى) للإيذان بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليها كما فى قوله عليه الصلاة والسلام اعملوا فكل ميسر لما خلق له أى نوفقك

---

(١) فى ١١ فحسب .

توفيقا مستمرا للطريقه اليسرى فى كل باب من أبواب الدين علما وتعليما واهتداء وهداية فيندرج فيه تيسير طريق تلقى الوحى والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة والنواميس الإلهية مما يتعلق بتكميل نفسه عليه الصلاة والسلام وتكميل غيره كما تفصح عنه الفاء فى قوله تعالى ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ أى فذكر الناس حسبما يسرناك له بما يوحى إليك واهدهم إلى ما فى تضاعيفه من الأحكام الشرعية كما كنت تفعله لا بعد ما استتب لك الأمر كما قيل وتقييد التذكير بنفع الذكرى لما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طالما كان يذكرهم ويستفرغ فيه غاية المجهود ويتجاوز فى الجد كل حد معهود حرصا على إيمانهم وماكان يزيد ذلك بعضهم إلا كفرا وعنادا فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يخص التذكير بمواد النفع فى الجملة بأن يكون من يذكره كلا أو بعضا ممن يرجى منه التذكر ولا يتعب نفسه فى تذكير من لا يورثه التذكير إلا عتوا ونفورا من المطبوع على قلوبهم كما فى قوله تعالى (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) وقوله تعالى (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) وقيل هو ذم للمذكرين وأخبار عن حالهم واستبعاد لتأثير التذكير فيهم وتسجيل عليهم بالطبع على قلوبهم كقولك للواعظ عظ المكاسين إن سمعوا منك قصدا إلى أنه مما لا يكون والأول أنسب لقوله تعالى ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ أى سيتذكر بتذكيرك من من شأنه أن يخشى الله تعالى حق خشيته أو من يخشى الله تعالى فى الجملة فيزداد ذلك بالتذكير فيتفكر فى أمر ما تذكر به فيقف على حقيته فيؤمن به وقيل إن بمعنى إذ كما فى قوله تعالى(وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) أى إذ كنتم وقيل هى بمعنى ما أى فذكر ما نفعت الذكرى فإنها لا تخلو عن نفع بكل حال وقيل هناك محذوف والتقدير إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع كقوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) قاله الفراء والنحاس والجرجانى والزهراوى .

﴿ ويتجنبها ﴾ أى الذكرى ﴿ الأشقى ﴾ من الكفرة لتوغله فى عداوة

النبي صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن أبي ربيعة ﴿ الذى يصلى النار الكبرى ﴾ أى الطبقة السفلى من طبقات النار وقيل الكبرى نار جهنم والصغرى نار الدنيا لقوله عليه الصلاة والسلام « ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم »[1] ﴿ ثم لا يموت فيها ﴾ حتى يستريح ﴿ ولا يحيى ﴾ حياة تنفعه وثم للتراخى فى مراتب الشدة لأن التردد بين الموت والحياة أفظع من الصلى .

﴿ قد أفلح ﴾ أى نجا من المكروه وظفر بما يرجوه ﴿ من تزكى ﴾ أى تطهر من الكفر والمعاصى بتذكره واتعاظه بالذكرى أو تكثر من التقوى والخشية من الزكاء وهو النماء وقيل تزكى تفعل من الزكاة وكلمة قد لما أن عند الإخبار بسوء حال المتجنب عن الذكرى فى الآخرة يتوقع السامع الأخبار بحسن حال المتذكر فيها وينتظره ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ بقلبه ولسانه ﴿ فصلى ﴾ أقام الصلوات كقوله تعالى (أقم الصلاة لذكرى) أو كبر تكبيرة الافتتاح فصلى وقيل تزكى أى تصدق صدقة الفطر وذكر اسم ربه أى كبره يوم العيد فصلى أى صلاته .

﴿ بل تؤثرون الحيوة الدنيا ﴾ إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل إثر بيان ما يؤدى إلى الفلاح لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها والخطاب إما للكفرة فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها والإعراض عن الآخرة بالكلية كما فى قوله تعالى (إن إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها) الآية أو للكل فالمراد بإيثارها ما هو أعم مما ذكر وما لا يخلو عنه الإنسان غالبا من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة فى السعى وترتيب المبادى والالتفات

(١) أخرجه السيوطى فى البدور من طرق مختلفة

على الأول لتشديد والتوبيخ على الثانى كذلك فى حق الكفرة وتشديد العتاب فى حق المسلمين وقرىء يؤثرون بالياء وقوله تعالى ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ حال من فاعل تؤثرون مؤكدة للتوبيخ والعتاب أى تؤثرونها على الآخرة والحال أن الآخرة خير فى نفسها لما أن نعيمها مع كونه فى غاية ما يكون من اللذة خالص عن شائبة الغائلة أبدى لا انصرام له وعدم التعرض لبيان تكدر نعيم الدنيا بالمنغصات وانقطاعه عما قليل لغاية ظهوره .

﴿ إن هذا ﴾ إشارة إلى ما ذكر من قوله تعالى (قد أفلح من تزكى) وقيل إلى ما فى السورة جميعاً ﴿ لفى الصحف الأولى ﴾ أى ثابت فيها معناه (صحف إبراهيم وموسى ﴾ بدل من الصحف الأولى وفى إبهامها ووصفها بالقدم ثم بيانها وتفسيرها من تفخيم شأنها ما لا يخفى . روى أن جميع ما أنزل الله عز وجل من كتاب مائة وأربعة كتب أنزل على آدم عليه السلام عشر صحف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف عليهم السلام والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الأعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله تعالى على إبراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام .

• • •

سورة الغاشية

مكية وآيها ست وعشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ قيل هل بمعنى قد كما فى قوله تعالى (هل أتى على الإنسان) الآية قال قطرب أى قدجاءك يامحمد حديث الغاشية وليس بذاك بل هو استفهام أريد به التعجيب مما فى حيزه والتشويق إلى استماعه والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة التى حقها أن يتناقلها الرواة ويتنافس فى تلقيها الوعاة من كل حاضر وباد والغاشية الداهية الشديدة التى تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها وهى القيامة من قوله تعالى (يوم يغشاهم العذاب) إلخ وقيل هى النار من قوله تعالى (وتغشى وجوههم النار) وقوله تعالى (ومن فوقهم غواش) والأول هو الحق فإن ما سيروى من حديثها ليس مختصا بالنار وأهلها بل ناطق بأحوال أهل الجنة أيضا وقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ إلى قوله تعالى مبثوثة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الاستفهام التشويقى كأنه قيل من جهته عليه الصلاة والسلام ما أتانى حديثها فما هو فقيل وجوه يومئذ أى يوم إذ غشيت ذليلة قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن أتاه عليه الصلاة والسلام حديثها فأخبره عليه الصلاة والسلام عنها فقال وجوه إلخ فوجوه مبتدأ ولا بأس بتنكيرها لأنها فى موقع التنويع وخاشعة خبره وقوله تعالى ﴿ عاملة ناصبة ﴾ خبران آخران لوجوه إذ المراد بها أصحابها أى تعمل أعمالا شاقة تتعب فيها وهى جر السلاسل والأغلال والخوض فى النار خوض الإبل فى الوحل والصعود والهبوط فى تلال النار ووهادها وقيل عملت فى الدنيا أعمال السوء والتذت بها فهى يومئذ فى نصب منها وقيل عملت ونصبت فى أعمال لا تجدى عليها فى الآخرة وقوله تعالى ﴿ تصلى ﴾ أى تدخل ﴿ نارا حامية ﴾ أى متناهية فى الحر خبر آخر لوجوه وقيل هو الخبر وما قبله صفات لوجوه

وقد مر غير مرة أن الصفة حقها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع قبل جعلها صفة له ولا ريب فى أن صلى النار وما قبله من الخشوع والعمل والنصب أمور متساوية فى الانتساب إلى الوجوه معرفة وجهالة فجعل بعضها عنوانا للموضوع قيدا مفروغا عنه[1] غير مقصود الإفادة وبعضها مناطا للإفادة تحكم بحت ويجوز أن يكون هذا وما بعده من الجملتين استئنافا مبينا لتفاصيل أحوالها .

﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أى متناهية فى الحر كما فى قوله تعالى (وبين حميم آن) ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ بيان لطعامهم إثر بيان شرابهم والضريع يبيس الشبرق وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطبا وإذا يبس تحامته وهو سم قاتل وقيل هى شجرة نارية تشبه الضريع وقال ابن كيسان هو طعام يضرعون عنده ويذلون ويتضرعون إلى الله تعالى طلبا للخلاص منه فسمى بذلك وهذا طعام لبعض أهل النار والزقوم والغسلين لآخرين ﴿ لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾ أى ليس من شأنه الاسمان والإشباع كما هو شأن طعام الدنيا وإنما هو شىء يضطرون إلى أكله من غير أن يكون له دفع لضرورتهم لكن لا على أن لهم استعداداً للشبع والسمن إلا أنه لا يفيدهم شيئاً منهما بل على أنه لا استعداد من جهتهم ولا إفادة من جهة طعامهم وتحقيق ذلك أن جوعهم وعطشهم ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما فى هذه النشأة من حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة لبدل ما يتحلل من البدن مشوقة له إلى المطعوم والمشروب بحيث يلتذ بها عند الأكل والشرب ويستغنى بهما عن غيرهما عند استقرارهما فى المعدة ويستفيد منهما قوة وسمنا عند انهضامهما بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند اضطرام النار فى أحشائهم إلى إدخال شىء كثيف يملؤها ويخرج ما فيها من اللهب وأما أن يكون لهم شوق إلى مطعوم ما أو التذاذ به عند الأكل واستغناء به عن الغير أو استفادة قوة فهيهات وكذا عطشهم عبارة عن اضطرارهم

---

(١) فى ١١ : مفروغامنه .

عند أكل الضريع والتهابه فى بطونهم إلى شىء مائع بارد يطفئه من غير أن يكون لهم التذاذ بشربه أو استفادة قوة به فى الجملة وهو المعنى بما روى أنه تعالى يسلط عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش فيضطرهم إلى شرب الحميم فيشوى وجوههم ويقطع أمعاءهم وتنكير الجوع للتحقير أى لا يغنى من جوع ما وتأخير نفى الإغناء منه لمراعاة الفواصل والتوسل به إلى التصريح بنفى كلا الأمرين إذ لو قدم لما احتيج إلى ذكر نفى الأسمان ضرورة استلزام نفى الإغناء عن الجوع إياه بخلاف العكس ولذلك كرر لا لتأكيد النفى وقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ شروع فى رواية حديث أهل الجنة وتقديم حكاية حال أهل النار لأنه أدخل فى تهويل الغاشية وتفخيم حديثها ولأن حكاية حسن حال أهل الجنة بعد حكاية سوء حال أهل النار مما يزيد المحكى حسنا وبهجة والكلام فى إعراب الجملة كالذى مر فى نظيرتها وإنما لم تعطف عليها إيذانا بكمال تباين مضمونيهما ومعنى ناعمة ذات بهجة وحسن كقوله تعالى (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) أو متنعمة ﴿ لسعيها راضية ﴾ أى لعملها الذى عملته فى الدنيا حيث شاهدت ثمرته ﴿ فى جنة عالية ﴾ مرتفعة المحل أو علية المقدار .

﴿ لا تسمع ﴾ أى أنت أو الوجوه ﴿ فيها لاغية ﴾ لغوا أو كلمة ذات لغو أو نفسا تلغو فإن كلام أهل الجنة كله أذكار وحكم وقرىء لا تسمع على البناء للمفعول بالياء والتاء ورفع لاغية ﴿ فيها عين جارية ﴾ أى عيون كثيرة تجرى مياهها كقوله تعالى علمت نفس ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ رفيعة السمك أو المقدار ﴿ وأكواب ﴾ جمع كوب وهو إناء لا عروة له ﴿ موضوعة ﴾ أى بين أيديهم ﴿ ونمارق ﴾ وسائد جمع نمرقة بالفتح والضم ﴿ مصفوفة ﴾ بعضها إلى بعض ﴿ وزرابى ﴾ أى بسط فاخرة جمع زربية ﴿ مبثوثة ﴾ أى مبسوطة ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما فصل من حديث الغاشية وما هو مبنى عليه من البعث الذى هم فيه مختلفون بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون إنكاره والهمزة للإنكار والتوبيخ والفاء

للعطف على مقدر يقتضيه المقام وكلمة كيف منصوبة بما بعدها كما فى قوله تعالى (كيف تكفرون بالله) معلقة لفعل النظر والجملة فى حيز الجر على أنها بدل اشتمال من الإبل أى أينكرون ما ذكر من البعث وأحكامه ويستبعدون وقوعه من قدرة الله عز وجل فلا ينظرون إلى الإبل التى هى نصب أعينهم يستعملونها كل حين إلى انها كيف خلقت خلقا بديعا معدولا به عن سنن خلقة سائر أنواع الحيوانات فى عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيآتها اللائقة بتأتى ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة كالنوء باوقار الثقيلة وجر الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة وفى صبرها على الجوع والعطش حتى أن أظماءها لتبلغ العشر فصاعدا واكتفائها باليسير ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم وفى انقيادها مع ذلك للإنسان فى الحركة والسكون والبروك والنهوض حيث يستعملها فى ذلك كيفما يشاء ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير. ﴿ وإلى السماء ﴾ التى يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار ﴿ كيف رفعت ﴾ رفعا سحيق المدى بلا عماد ولا مساك بحيث لا يناله الفهم والإدراك ﴿ وإلى الجبال ﴾ التى ينزلون فى أقطارها وينتفعون بمياهها وأشجارها ﴿ كيف نصبت ﴾ نصبا رصينا فهى راسخة لا تميل ولا تميد ﴿ وإلى الأرض ﴾ التى يضربون فيها ويتقلبون عليها ﴿ كيف سطحت ﴾ سطحا بتوطئة وتمهيد وتسوية وتوطيد حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق وقرىء سطحت مشددا وقرئت الأفعال الأربعة على بناء الفاعل للمتكلم وحذف الراجع المنصوب والمعنى أفلا ينظرون نظر التدبر والاعتبار إلى كيفية خلق هذه المخلوقات الشاهدة بحقية البعث والنشور ليرجعوا عما هم عليه من الإنكار والنفور ويسمعوا إنذارك ويستعدوا للقائه بالإيمان والطاعة والفاء فى قوله تعالى ﴿ فذكر ﴾ لترتيب الأمر بالتذكير على ما ينبىء عنه الإنكار السابق من عدم النظر أى فاقتصر على التذكير ولا تلح عليهم ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يتذكرون وقوله تعالى ﴿ إنما أنت مذكر ﴾ تعليل للأمر وقوله تعالى ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ تقرير له وتحقيق لمعنى الإنذار أى لست بمتسلط عليهم تجبرهم على ما تريد كقوله تعالى

(وما أنت عليهم بجبار) وقرىء بالسين على الأصل وبالإشمام وقرىء بفتح الطاء قيل هي لغة بنى تميم فإن سيطر عندهم متعد ومنه قولهم تسيطر وقوله تعالى ﴿إلا من تولى وكفر﴾ استثناء منقطع أى لكن من تولى منهم فإن لله تعالى الولاية والقهر ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ الذى هو عذاب جهنم وقيل استثناء متصل من قوله تعالى فذكر أى فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض ويعضد الأول أنه قرىء ألا على التنبيه وقوله تعالى ﴿إن إلينا إيابهم﴾ تعليل لتعذيبه تعالى بالعذاب الأكبر أى إن إلينا رجوعهم بالموت والبعث لا إلى أحد سوانا لا استقلالا ولا اشتراكا وجمع الضمير فيه وفيما بعده باعتبار معنى من كما أن إفراده فيما سبق باعتبار لفظها وقرىء إيابهم على أنه فيعال مصدر فيعل من الإياب أو فعال من أوب كفسار من فسر ثم قيل إيوابا كديوان فى دوان ثم قلبت الواو ياء فأدغمت الياء الأولى فى الثانية ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ فى المحشر لا على غيرنا وثم للتراخى فى الرتبة لا فى الزمان فإن الترتب الزمانى بين إيابهم وحسابهم لا بين كون إيابهم إليه تعالى وحسابهم عليه تعالى فإنهما أمران مستمران وفى تصدير الجملتين بأن وتقديم خبرها وعطف الثانية على الأولى بكلمة ثم المفيدة لبعد منزلة الحساب فى الشدة من الإنباء عن غاية السخط الموجب لتشديد العذاب ما لا يخفى . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الغاشية يحاسبه الله تعالى حسابا يسيرا .

• • •

سورة الفجر

مكية، وآيها تسع وعشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والفجر ﴾ أقسم سبحانه بالفجر كما أقسم بالصبح حيث قال والصبح إذا تنفس وقيل المراد به صلاته ﴿ وليال عشر ﴾ هن عشر ذى الحجة ولذلك فسر الفجر بفجر عرفة أو النحر أو العشر الأواخر من رمضان وتنكيرها للتفخيم وقرىء وليال عشر بالإضافة على أن المراد بالعشر الأيام ﴿ والشفع والوتر ﴾ أى الأشياء كلها شفعها ووترها أو شفع هذه الليالى ووترها وقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام فسرهما بيوم النحر ويوم عرفة ولقد كثرت فيهما الأقوال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال وقرىء بكسر الواو وهما لغتان كالحبر والحبر وقيل الوتر بالفتح فى العدد وبالكسر فى الذحل وقرىء والوتر وقرىء والوتر بفتح الواو وكسر التاء.

﴿ والليل إذا يسر ﴾ أى يمضى كقوله تعالى (والليل إذ أدبر) (والليل إذا عسعس) والتقييد لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة أو أو يسرى فيه من قولهم صلى المقام أى صلى فيه وحذف الياء اكتفاء بالكسر وقرىء بإثباتها على الإطلاق وبحذفها فى الوقف خاصة وقرىء يسر بالتنوين كما قرىء والفجر والوتر وهو التنوين الذى يقع بدلا من حرف الإطلاق ﴿ هل فى ذلك قسم ﴾ إلخ تحقيق وتقرير لفخامة شأن المقسم بها وكونها أموراً جليلة حقيقة بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول وتنبيه على أن الإقسام بها أمر معتد به خليق بأن يؤكد به الأخبار على طريقة قوله تعالى (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وذلك إشارة إما إلى الأمور المقسم بها والتذكير بتأويل ما ذكر كما مر تحقيقه أو إلى الإقسام بها وأياما كان فما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار

إليه وبعد منزلته فى الشرف والفضل أى هل فيما ذكر من الأشياء قسم أى مقسم به ﴿لذى حجر﴾ يراه حقيقاً بأن يقسم به إجلالا وتعظيما والمراد تحقيق أن الكل كذلك وإنما أوثرت هذه الطريقة هضما للخلق وإيذانا بظهور الأمر أو هل فى إقسامى بتلك الأشياء إقسام لذى حجر مقبول عنده يعتد به ويفعل مثله ويؤكد به المقسم عليه والحجر العقل لأنه يحجر صاحبه أى يمنعه من التهافت فيما لا ينبغى كما سمى عقلا ونهية لأنه يعقل وينهى وحصاة أيضاً من الإحصاء وهو الضبط قال الفراء يقال إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها والمقسم عليه محذوف وهو ليعذبن كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ الخ فإنه استشهاد بعلمه عليه الصلاة والسلام بما يدل عليه من تعذيب عاد وأضرابهم المشاركين لقومه عليه الصلاة والسلام فى الطغيان والفساد على على طريقة قوله تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) الآية وقوله تعالى (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) كأنه قيل ألم تعلم علما يقينيا كيف عذب ربك عادا ونظائرهم فيعذب هؤلاء أيضاً لاشتراكهم فيما يوجبه من الكفر والمعاصى والمراد بعاد أولاد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام قوم هود عليه السلام سموا باسم أبيهم كما سمى بنو هاشم هاشما وقد قيل لأوائلهم عاد الأولى ولأواخرهم عاد الآخرة قال عماد الدين بن كثير كل ما ورد فى القرآن خبر عاد الأولى إلا ما فى سورة الأحقاف وقوله تعالى :

﴿إرم﴾ عطف بيان لعاد للإيذان بأنهم عاد الأولى بتقدير مضاف أى سبط إرم أو أهل إرم على ما قيل من أن إرم اسم بلدتهم أو أرضهم التى كانوا فيها ويؤيده القراءة بالإضافة وأيا ما كان فامتناع صرفها للتعريف والتأنيث وقرىء إرم بإسكان الراء تخفيفاً كما قرىء بورقكم ﴿ذات العماد﴾ صفة لإرم أى ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالأعمدة ومنه قولهم رجل عمد وعمدان إذا كان طويلا أو ذات الخيام والأعمدة حيث كانوا بدويين أهل عمد أو ذات البناء الرفيع أو ذات الأساطين على أن إرم اسم بلدتهم وقرىء إرم ذات العماد بإضافة إرم إلى ذات العماد .

والإرم العلم أى بعاد أهل أعلام ذات العماد على أنها اسم بلدتهم وقرىء إرم

ذات العماد أى جعلها الله تعالى رميما بدل من فعل ربك وقيل هى جملة دعائية اعترضت بين الموصوف والصفة وروى أنه كان لعاد ابنان شديد وشداد فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال أبنى مثلها فبنى إرم فى بعض صحارى عدن فى ثلثمائة سنة وهى مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء فهلكوا وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج فى طلب إبل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثمة وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال هى إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج فى طلب إبل له ثم التفت إلى ابن قلابة فقال هذا ذلك الرجل(١) ﴿التى لم يخلق مثلها فى البلاد﴾ صفة أخرى لإرم أى لم يخلق مثلهم فى عظم الأجرام والقوة حيث كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع وكان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها ويلقيها على الحى فيهلكهم أو لم يخلق مثل مدينة شداد فى جميع بلاد الدنيا وقرىء لم يخلق على إسناده إلى الله تعالى .

﴿وثمود﴾ عطف على عاد وهى قبيلة مشهورة سميت باسم جدهم ثمود أخى جديس وهما ابنا عامر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك وكانوا يعبدون الأصنام كعاد ﴿الذين جابوا الصخر بالواد﴾ أى قطعوا صخر الجبال فاتخذوا فيها بيوتاً نحتوها من الصخر كقوله تعالى (وتنحتون من الجبال بيوتا) قيل هم أول من نحت الجبال والصخور والرخام وقد بنوا ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ﴿وفرعون ذى الأوتاد﴾ وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التى يضربونها فى منازلهم أو لتعذيبه بالأوتاد ﴿الذين طغوا فى البلاد﴾ إما مجرور على أنه صفة المذكورين

---

(١) انظر الخبر فى ترجمة ابن قلابة من أسد الغابة ٨٧/٧

أو منصوب أو مرفوع على الذم أى طغى كل طائفة منهم فى بلادهم وكذا الكلام فى قوله تعالى ﴿ فأكثروا فيها الفساد ﴾ أى بالكفر وسائر المعاصى ﴿ فصب عليهم ربك ﴾ أى أنزل إنزالا شديدا على كل طائفة من أولئك الطوائف عقيب ما فعلته من الطغيان والفساد ﴿ سوط عذاب ﴾ أى عذاب شديد لا يدرك غايته وهو عبارة عما حل بكل منهم من فنون العذاب التى شرحت فى سائر السور الكريمة وتسميته سوطا للإشارة إلى أن ذلك بالنسبة إلى ما أعد لهم فى الآخرة بمنزلة السوط عند السيف والتعبير عن إنزاله بالصب للإيذان بكثرته واستمراره وتتابعه فإنه عبارة عن إراقة شىء مائع أو جار مجراه فى السيلان كالرمل والحبوب وإفراغه بشدة وكثرة واستمرار ونسبته إلى السوط مع أنه ليس من ذلك القبيل باعتبار تشبيهه فى نزوله المتتابع المتدارك على المضروب بقطرات الشىء المصبوب وقيل السوط خلط الشىء بعضه ببعض فالمعنى ما خلط لهم من أنواع العذاب وقد فسر بالتصبب وبالشدة أيضا لأن السوط يطلق على كل منهما لغة فلا حاجة حينئذ فى تشبيهه بالمصبوب إلى اعتبار تكرر تعلقه بالمعذب كما فى المعنى الأول فإن كل واحد من هذه المعانى مما يقبل الاستمرار فى نفسه وقوله تعالى:

﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ تعليل لما قبله وإيذان بأن كفار قومه عليه الصلاة والسلام سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام وقيل هو جواب القسم وما بينهما اعتراض والمرصاد المكان الذى يترقب فيه الرصد مفعال من رصده كالميقات من وقته وهذا تمثيل لإرصاده تعالى بالعصاة وأنهم لا يفوتونه وقوله تعالى ﴿ فأما الإنسان ﴾ الخ متصل بما قبله كأنه قيل إنه تعالى بصدد مراقبة أحوال عباده ومجازاتهم بأعمالهم خيرا وشرا فأما الإنسان فلا يهمه ذلك وإنما مطمح أنظاره ومرصد أفكاره الدنيا ولذائذها ﴿ إذا ما ابتلاه ربه ﴾ أى عامله معاملة من يبتليه بالغنى واليسار والفاء فى قوله تعالى ﴿ فأكرمه ونعمه ﴾ تفسيرية فإن الإكرام والتنعيم من الابتلاء ﴿ فيقول ربى أكرمن ﴾ أى فضلنى بما أعطانى من المال والجاه حسبما كنت استحقه ولا يخطر بباله أنه فضل تفضل

به عليه ليبلوه أيشكر أم يكفر وهو خبر للمبتدإ الذى هو الإنسان والفاء لما فى أما من معنى الشرط والظرف المتوسط على نية التأخير كأنه قيل فإما الإنسان فيقول ربى أكرمن وقت ابتلائه بالإنعام وإنما تقديمه للإيذان من أول الأمر بأن الاكرام والتنعيم بطريق الابتلاء ليتضح اختلال قوله المحكى ﴿ وأما إذا ما ابتلاه ﴾ أى وأما هو إذا ما ابتلاه ربه ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ﴿ فيقول ربى أهانن ﴾ ولا يخطر بباله أن ذلك ليبلوه أيصبر أم يجزع مع أنه ليس من الإهانة فى شىء بل التقتير قد يؤدى إلى كرامة الدارين والتوسعة قد تفضى إلى خسرانهما وقرىء فقدر بالتشديد وقرىء أكرمنى وأهاننى باثبات الياء وأكرمن وأهانن بسكون النون فى الوقف ﴿ كلا ﴾ ردع للإنسان عن مقالته المحكية وتكذيب له فيها فى كلتا الحالتين قال ابن عباس رضى الله عنهما المعنى لم أبتله بالغنى لكرامته على ولم أبتله بالفقر لهوانه على بل ذلك لمحض القضاء والقدر وحمل الردع والتكذيب إلى قوله الأخير بعيد وقوله تعالى ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ انتقال من بيان سوء أقواله إلى بيان سوء أفعاله والالتفات إلى الخطاب للايذان باقتضاء ملاحظة جنايته السابقة لمشافهته بالتوبيخ تشديداً للتقريع وتأكيداً للتشنيع والجمع باعتبار معنى الإنسان إذ المراد هو الجنس أى بل لكم أحوال أشد شراً مما ذكر وأدل على تهالككم على المال حيث يكرمكم الله تعالى بكثرة المال فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالمبرة به وقرىء لا يكرمون .

﴿ ولا تحاضون ﴾ بحذف إحدى التاءين من تتحاضون أى لا يحض بعضكم بعضا ﴿ على طعام المسكين ﴾ أى على إطعامه وقرىء تحاضون من المحاضة وقرىء يحضون بالياء والتاء ﴿ وتأكلون التراث ﴾ أى الميراث وأصله وراث ﴿ أكلا لما ﴾ أى ذا لم أى جمع بين الحلال والحرام فإنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون أنصباءهم أو ويأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك ﴿ وتحبون المال حبا جما ﴾ كثيرا مع حرص وشره وقرىء ويحبون بالياء ﴿ كلا ﴾ ردع لهم عن ذلك وقوله تعالى :

﴿ إذا دكت الأرض دكا دكا ﴾ الخ استئناف جيء به بطريق الوعيد تعليلا للردع أى إذا دكت الأرض دكا متتابعا حتى انكسر وذهب كل ما على وجهها من جبال وأبنية وقصور حين زلزلت وصارت هباء منبثا وقيل الدك حط المرتفع بالبسط والتسوية فالمعنى إذا سويت تسوية بعد تسوية ولم يبق على وجهها شيء حتى صارت كالصخرة الملساء وأياما كان فهو عبارة عما عرض لها عند النفخة الثانية ﴿ وجاء ربك ﴾ أى ظهرت آيات قدرته وآثار قهره مثل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من أحكام هيبته وسياسته وقيل جاء أمره تعالى وقضاؤه على حذف المضاف للتهويل .

﴿ والملك صفا صفا ﴾ أى مصطفين أو ذوى صفوف فإنه ينزل يومئذ ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف بحسب منازلهم ومراتبهم محدقين بالجن والإنس .

﴿ وجيء يومئذ بجهنم ﴾ كقوله تعالى (وبرزت الجحيم) قال ابن مسعود ومقاتل تقاد جهنم بسبعين ألف زمام كل زمام معه سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش لها تغيظ وزفير وقد رواه مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود مرفوعا . ﴿ يومئذ ﴾ بدل من إذا دكت والعامل فيهما قوله تعالى : ﴿ يتذكر الإنسان ﴾ أى يتذكر ما فرط فيه بتفاصيله بمشاهدة آثاره وأحكامه أو بمعاينة عينه على أن الأعمال تتجسم فى النشأة الآخرة فيبرز كل من الحسنات والسيئات بما يناسبها من الصور الحسنة والقبيحة أو يتعظ وقوله تعالى ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ اعتراض جيء به لتحقيق أنه ليس يتذكر حقيقة لعرائه عن الجدوى بعدم وقوعه فى أوانه وأنى خبر مقدم والذكرى مبتدأ وله متعلق بما تعلق به الخبر أى ومن أين يكون له الذكرى وقد فات أوانها وقيل هناك مضاف محذوف أى وأنى له منفعة الذكرى والاستدلال به على عدم وجوب قبول التوبة فى دار التكليف مما لا وجه له على أن تذكره ليس من التوبة فى شيء فإنه عالم بأنها إنما تكون فى الدنيا كما يعرب عنه قوله تعالى :

﴿ يقول ياليتنى قدمت لحياتى ﴾ وهو بدل اشتمال من يتذكر أو استئناف

وقع جواباً عن سؤال نشأ منه كأنه قيل ماذا يقول عند تذكره فقيل يقول ياليتنى عملت لأجل حياتى هذه أو وقت حياتى فى الدنيا أعمالا صالحة أنتفع بها اليوم وليس فى هذا التمنى شائبة دلالة على استقلال العبد بفعله وإنما الذى يدل عليه ذلك اعتقاد كونه متمكنا من تقديم الأعمال الصالحة وإما أن ذلك بمحض قدرته أو بخلق الله تعالى عند صرف قدرته الكاسبة إليه فكلا وأما ما قيل من أن المحجور قد يتمنى أن كان ممكنا منه فربما يوهم أن من صرف قدرته إلى أحد طرفى الفعل يعتقد أنه محجور من الطرف الآخر وليس كذلك بل كل أحد جازم بأنه لو صرف قدرته إلى أى طرف كان من أفعاله الاختيارية لحصل وعلى هذا يدور فلك التكليف وإلزام الحجة ﴿ فيومئذ ﴾ أى يوم إذ يكون ما ذكر من الأحوال والأقوال .

﴿ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ الهاء لله تعالى أى لا يتولى عذاب الله تعالى ووثاقه أحد سواه إذ الأمر كله له أو للإنسان أى لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه وقرىء الفعلان على البناء للمفعول والضمير للإنسان أيضا وقيل المراد به أبى بن خلف أى لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه لتناهيه فى الكفر والعناد وقيل لا يحمل عذاب الإنسان كقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقوله تعالى ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ حكاية لأحوال من اطمأن بذكر الله عز وجل وطاعته إثر حكاية أحوال من اطمأن بالدنيا وصفت بالاطمئنان لأنها تترقى فى معارج الأسباب والمسببات إلى المبدأ المؤثر بالذات فتستقر دون معرفته وتستغنى به فى وجودها وسائر شئونها عن غيره بالكلية وقيل هى النفس المؤمنة المطمئنة إلى الحق الواصلة إلى ثلج اليقين بحيث لا يخالجها شك ما وقيل هى الآمنة التى لا يستفزها خوف ولا حزن ويؤيده أنه قرىء يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة أى يقول الله تعالى ذلك بالذات كما كلم موسى عليه السلام أو على لسان الملك عند تمام حساب الناس وهو الأظهر وقيل عند البعث وقيل عند الموت ﴿ ارجعى إلى ربك ﴾ أى إلى موعده أو إلى أمره ﴿ راضية ﴾ بما أوتيت من النعيم المقيم

﴿ مرضية ﴾ عند الله عز وجل ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ في زمرة عبادي الصالحين المختصين بي ﴿ وادخلي جنتي ﴾ معهم أو انتظمي في سلك المقربين واستضيئي بأنوارهم فإن الجواهر القدسية كالمرايا المتقابلة وقيل المراد بالنفس الروح والمعنى فادخلي أجساد عبادي التي افترقت(١) عنها وادخلي دار ثوابي وهذا يؤيد كون الخطاب عند البعث وقرىء فادخلي في عبدي وقرىء في جسد عبدي وقيل نزلت في حمزة بن عبدالمطلب وقيل في حبيب بن عدي رضي الله عنهما والظاهر العموم. عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نورا يوم القيامة .

***

سورة البلد

مكية ، وآيها عشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ أقسم سبحانه بالبلد الحرام وبما عطف عليه على أن الإنسان خلق مغمورا بمقاساة الشدائد ومعاناة المشاق واعترض بين القسم وجوابه بقوله تعالى ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ إما لتشريفه عليه الصلاة والسلام بجعل حلوله به مناطا لإعظامه بالإقسام به أو التنبيه من أول الأمر على تحقق مضمون الجواب بذكر بعض مواد المكابدة على نهج براعة الاستهلال وبيان أنه عليه الصلاة والسلام مع جلالة قدره وعظم حرمته قد استحلوه في هذا البلد الحرام وتعرضوا له بما لا خير فيه وهموا بما لم ينالوا عن شرحبيل يحرمون أن يقتلوا بها صيدا ويعضدوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك أو لتسليته عليه الصلاة والسلام بالوعد بفتحه على معنى وأنت حل به في المستقبل كما في قوله

---

(١) في الأصل : فارقت .

تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) تصنع فيه ماتريد من القتل والأسر وقد كان كذلك حيث أحل له عليه الصلاة والسلام مكة وفتحها عليه وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له فأحل عليه الصلاة والسلام فيها ما شاء وحرم ما شاء قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ومقيس بن ضبابة وغيرهما وحرم دار أبى سفيان ثم قال إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلى ولن تحل لأحد بعدى ولم تحل لى إلا ساعة من نهار فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد فقال العباس يارسول الله إلا الإذخر فإنه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا فقال عليه الصلاة والسلام إلا الإذخر .

﴿ووالد﴾ عطف على هذا البلد والمراد به إبراهيم وبقوله تعالى ﴿وماولد﴾ إسمعيل والنبى صلوات الله عليهم أجمعين حسبما ينبىء عنه المعطوف عليه فإنه حرم إبراهيم ومنشأ إسمعيل ومسقط رأس رسول الله عليهم الصلاة والسلام والتعبير عنهما بما دون من التفخيم والتعظيم كتنكير والد وإيرادهم بعنوان الولاد ترشيح لمضمون الجواب وإيماء إلى أنه متحقق فى حالتى الوالدية والولدية وقيل آدم عليه السلام ونسله وهو أنسب لمضمون الجواب من حيث شموله للكل إلا أن التفخيم المستفاد من كلمة ما لا بد فيه من اعتبار التغليب وقيل وكل والد وولده ﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾ أى تعب ومشقة فإنه لا يزال يقاسى فنون الشدائد من وقت نفخ الروح إلى حين نزعها وما وراءه يقال كبد الرجل كذا إذا وجعت كبده وأصله كبده إذا أصاب كبده ثم اتسع فيه حتى استعمل فى كل نصب ومشقة ومنه اشتقت المكابدة كما قيل كبته بمعنى أهلكه وهو تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما كان يكابده من كفار قريش والضمير فى قوله تعالى ﴿أيحسب﴾ لبعضهم الذى كان عليه الصلاة والسلام يكابد منهم ما يكابد كالوليد بن المغيرة وأضرابه وقيل هو أبو الأشد بن كلدة الجمحى وكان شديد القوة مغترا بقوته وكان يبسط له الأديم العكاظى فيقوم عليه ويقول من أزالنى عنه فله كذا فيجذبه عشرة فينقطع قطعا ولا تزل قدماه أى أيظن هذا القوى المارد

المتضعف للمؤمنين ﴿ أن لن يقدر عليه أحد ﴾ أن مخففة من أن واسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف أى أيحسب أنه لن يقدر على الانتقام منه أحد ﴿ يقول أهلكت مالا لبدا ﴾ يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ويدعونها معالى ومفاخر ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ حين كان ينفق وأنه تعالى لا يسأله عنه ولا يجازيه عليه ﴿ألم نجعل له عينين﴾ يبصر بهما ﴿ ولسانا ﴾ يترجم به عن ضمائره ﴿ وشفتين ﴾ يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب وغيرها ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أى طريق الخير والشر أوالثديين وأصل النجد المكان المرتفع ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ أى فلم يشكر تلك النعم الجليلة بالأعمال الصالحة وعبر عنها بالعقبة التى هى الطريق فى الجبل لصعوبة سلوكها وقوله تعالى :

﴿وما أدراك ما العقبة﴾ أى أى شىء أعلمك ما اقتحام العقبة لزيادة تقريرها وكونها عند الله تعالى بمكانة رفيعة ﴿فك رقبة﴾ أى هو إعتاق رقبة ﴿أو إطعام فى يوم ذى مسغبة﴾ أى مجاعة ﴿يتيما ذا مقربة﴾ أى قرابة ﴿أو مسكينا ذامتربة﴾ أى افتقار وحيث كان المراد باقتحام العقبة هذه الأمور حسن دخول لا على الماضى فإنها لا تكاد تقع إلا مكررة إذ المعنى فلا فك رقبة ولا أطعم يتيما أو مسكينا والمسغبة والمقربة والمتربة مفعلات من سغب إذا جاع وقرب من النسب وترب إذا افتقر وقرىء فك رقبة أو أطعم على الإبدال من اقتحم ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ عطف على المنفى بلا وثم للدلالة على تراخى رتبة الإيمان ورفعة محله لاشتراط جميع الأعمال الصالحة به[1] ﴿وتواصوا بالصبر﴾ عطف على آمنوا أى أوصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله ﴿ وتواصوا بالمرحمة﴾ بالرحمة على عباده أو بموجبات رحمته من الخيرات ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز صلته وما فيه من معنى البعد مع

---

(١) فى ١١ : فيه .

قرب العهد بالمشار إليه للايذان ببعد درجتهم فى الشرف والفضل أى أولئك الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ أى اليمين أو اليمن ﴿ والذين كفروا بآياتنا ﴾ بما نصبناه دليلا على الحق من كتاب وحجة أو بالقرآن ﴿هم أصحاب المشأمة﴾ أى الشمال أو الشؤم ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ مطبقة من آصدت الباب إذا أطبقته وأغلقته وقرىء موصدة بغير الهمزة من أوصدته . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله تعالى الأمان من غضبه يوم القيامة[1] .

سورة الشمس
مكية ، وآيها خمس عشرة
﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿والشمس وضحاها﴾ أى ضوئها إذا أشرقت وقام سلطانها وقيل الضحوة ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك والضحاء بالفتح والمد إذا امتد النهار وكاد ينتصف ﴿والقمر إذا تلاها﴾ بأن طلع بعد غروبها وقيل إذا تلا طلوعه طلوعها وقيل إذا تلاها فى الاستدارة وكمال النور ﴿والنهار إذا جلاها﴾ أى جلى الشمس فإنها تتجلى عند انبساط النهار فكأنه جلاها مع أنها التى تبسطه أو جلى الظلمة أو الدنيا أو الأرض وإن لم يجر لها ذكر للعلم بها ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ أى الشمس فيغطى ضوءها أو الآفاق أو الأرض وحيث كانت الواوات العاطفة نوائب للواو الأولى القسمية القائمة مقام الفعل والباء سادة مسدهما معا فى قولك أقسم بالله حققن أن يعملن عمل الفعل والجار جميعا كما تقول ضرب زيد عمرا وبكر خالدا ﴿ والسماء وما بناها ﴾ أى ومن بناها وإيثار ما على من لإرادة الوصفية تفخيما كأنه قيل والقادر العظيم الشأن الذى بناها وجعلها مصدرية مخل بالنظم الكريم وكذا الكلام فى قوله تعالى ﴿ والأرض وما طحاها ﴾

(١) أخرجه القرطبى فى التذكار عن أبى هريرة .

أى بسطها من كل جانب كدحاها ﴿ونفس وما سواها﴾ أى أنشأها وأبدعها مستعدة لكمالاتها والتنكير للتفخيم على أن المراد نفس آدم عليه السلام أو للتكثير وهو الأنسب للجواب ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ أى أفهمها إياهما وعرفها حالها من الحسن والقبح وما تؤدى إليه كل منهما ومكنها من اختيار أيهما شاءت وتقديم الفجور لمراعاة الفواصل ﴿قد أفلح من زكاها﴾ أى فاز بكل مطلوب ونجا من كل مكروه من أنماها وأعلاها بالتقوى وهو جواب القسم وحذف اللام لطول الكلام وتكرير قد فى قوله تعالى :

﴿وقد خاب من دساها﴾ لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه والإيذان بتعلق القسم به أيضا أصالة أى خسر من نقصها وأخفاها بالفجور وأصل دسى دسس كتقضى وتقضض وقيل هو كلام تابع لقوله تعالى (فألهمها فجورها وتقواها) بطريق الاستطراد وإنما الجواب ما حذف تعويلا على دلالة قوله تعالى ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ عليه كأنه قيل ليدمدمن الله تعالى على كفار مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحا عليه السلام وهو على الأول استئناف وارد لتقرير مضمون قوله تعالى (وقد خاب من دساها) والطغوى بالفتح الطغيان والباء للسببية أى فعلت التكذيب بسبب طغيانها كما تقول ظلمنى بجراءته على الله تعالى أو صلة للتكذيب أى كذبت بما أوعدت به من العذاب ذى الطغوى كقوله تعالى (فأهلكوا بالطاغية) وقرىء بطغواها بضم الطاء وهو أيضا مصدر كالرجعى ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ منصوب بكذبت أو بالطغوى أى حين قام أشقى ثمود وهو قدار بن سالف أو هو ومن تصدى معه لعقر الناقة من الأشقياء فإن أفعل التفضيل إذا أضيف يصلح للواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وفضل شقاوتهم على من عداهم لمباشرتهم العقر مع اشتراك الكل فى الرضا به ﴿فقال لهم﴾ أى لثمود ﴿رسول الله﴾ أى صالح عليه السلام عبر عنه بعنوان الرسالة إيذانا بوجوب طاعته وبيانا لغاية عتوهم وتماديهم فى الطغيان وهو السر فى إضافة الناقة إلى الله تعالى فى قوله تعالى ﴿ناقة الله﴾ أى ذروا ناقة الله ﴿وسقياها﴾ ولا تذودوها عنها فى نوبتها ﴿فكذبوه﴾

أى فى وعيده بقوله تعالى (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) وقد جوز أن يكون ضميرلهم للأشقين ولا يلائمه ذكر سقياها .

﴿ فعقروها ﴾ أى الأشقى والجمع على تقدير وحدته لرضا الكل بفعله وقال قتادة بلغنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وقال الفراء عقرها اثنان والعرب تقول هذان أفضل الناس ﴿ فدمدم عليهم ربهم ﴾ فأطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم ناقة مدمدمة إذا ألبسها الشحم ﴿ بذنبهم ﴾ بسبب ذنبهم المحكى والتصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للإنذار بعاقبة الذنب ليعتبر به كل مذنب ﴿ فسواها ﴾ أى الدمدمة بينهم لم يفلت منهم أحد من صغير وكبير أو فسوى ثمود بالأرض أو سواها فى الهلاك ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ أى عاقبتها وتبعتها كما يخاف سائر المعاقبين من الملوك فيبقى بعض الإبقاء وذلك أنه تعالى لا يفعل فعلا إلا بحق وكل من فعل فإنه بحق لا يخاف عاقبة فعله وإن كان من شأنه الخوف والواو للحال أو للاستئناف وقرىء فلا يخاف وقرىء ولم يخف. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الشمس فكأنما تصدق بكل شىء طلعت عليه الشمس والقمر .

* * *

سورة والليل

مكية ، وآيها إحدى وعشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والليل إذا يغشى ﴾ أى حين يغشى الشمس كقوله تعالى (والليل إذا يغشاها) أو النهار أو كل ما يواريه بظلامه ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل أو تبين وتكشف بطلوع الشمس ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ أى والقادر العظيم القدرة الذى خلق صنفى الذكر والأنثى من كل ماله توالد وقيل هما آدم

وحواء وقرىء والذكر والأنثى وقرىء والذى خلق الذكر والأنثى وقيل ما مصدرية ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ جواب القسم وشتى جمع شتيت أى أن مساعيكم لأشتات مختلفة وقوله تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ﴾ الخ تفصيل لتلك المساعى المشتتة وتبيين لأحكامها أى فأما من أعطى حقوق ماله واتقى محارم الله تعالى التى نهى عنها وصدق بالخصلة الحسنى وهى الإيمان أو بالكلمة الحسنى وهى كلمة التوحيد أو بالملة الحسنى وهى ملة الإسلام أو بالمثوبة الحسنى وهى الجنة ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ فسنهيئه للخصلة التى تؤدى إلى يسر وراحة كدخول الجنة ومباديه من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها وألجمها ﴿ وأما من بخل ﴾ أى بماله فلم يبذله فى سبيل الخير ﴿ واستغنى ﴾ أى زهد فيما عنده تعالى كأنه مستغن عنه فلم يتقه أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أى ما ذكر من المعانى المتلازمة ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ أى للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة كدخول النار ومقدماته لاختياره لها ولعل تصدير القسمين بالإعطاء والبخل مع أن كلا منهما أدنى رتبة مما بعدهما فى استتباع التيسير لليسرى والتيسير للعسرى للإيذان بأن كلا منهما أصل فيما ذكر لا تتمة لما بعدهما من التصديق والتقوى والتكذيب والاستغناء وتفسير الأول بإعطاء الطاعة والثانى بالبخل بما أمر به مع كونه خلاف الظاهر يأباه قوله تعالى :

﴿ وما يغنى عنه ﴾ أى ولا يغنى أو أى شىء يغنى عنه ﴿ ماله ﴾ الذى يبخل به ﴿ إذا تردى ﴾ أى هلك تفعل من الردى الذى هو الهلاك أو تردى فى الحفرة إذا قبر أو تردى فى قعر جهنم ﴿ إن علينا للهدى ﴾ استئناف مقرر لما قبله أى إن علينا بموجب قضائنا المبنى على الحكم البالغة حيث خلقنا الخلق للعبادة أن نبين لهم طريق الهدى وما يؤدى إليه من طريق الضلال وما يؤدى إليه وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه حيث بينا حال من سلك كلا الطريقين ترغيبا وترهيبا ومن ههنا تبين أن الهداية هى الدلالة على ما يوصل إلى البغية لا الدلالة الموصلة إليها قطعا ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ أى التصرف الكلى فيهما كيفما نشاء فنفعل فيهما ما نشاء من الأفعال التى من جملتها ما وعدنا من

التيسير لليسرى والتيسير للعسرى وقيل إن لنا كل ما فى الدنيا والآخرة فلا يضرنا تركـكم الاهتداء بهدانا ﴿ فأنذرتـكم نارا تلظى ﴾ بحذف إحدى التاءين من تتلظى أى تتلهب وقرىء على الأصل ﴿ لا يصلاها ﴾ صليا لازما ﴿ إلا الأشقى ﴾ إلا الـكافر فإن الفاسق لا يصـلاها صليا لازما وقد صرح به قوله تعالى ﴿ الذى كذب وتولى ﴾ أى كذب بالحق وأعرض عن الطاعة ﴿ وسيجنبها ﴾ أى سيبعد عنها ﴿ الأتقى ﴾ المبالغ فى اتقاء الـكفر والمعاصى فلا يحوم حولها فضلا عن دخولها أو صليها الأبدى وأما من دونه ممن يتقى الـكفر دون المعاصى فلا يبعد عنها هذا التبعيد وذلك لا يستلزم صليها بالمعنى المذكور فلا يقدح فى الحصر السابق ﴿ الذى يؤتى ماله ﴾ يعطيه ويصرفه فى وجوه البر والحسنات وقوله تعالى ﴿ يتزكى ﴾ إما بدل من يؤتى داخل فى حكم الصلة لا محل له أو فى حيز النصب على أنه حال من ضمير يؤتى أى يطلب أن يـكون عند الله تعالى زاكيا ناميا لا يريد به رياء ولا سمعة .

﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ استئناف مقرر لـكون إيتائه للتزكى خالصا لوجه الله تعالى أى ليس لأحد عنده نعمة من شأنها أن تجزى وتكافأ فيقصد بإيتاء ما يؤتى مجازاتها وقوله تعالى ﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ استثناء منقطع من نعمة وقرىء بالرفع على البـدل من محل نعمة فإنه الرفع إما على الفاعلية أو على الابتداء ومن مزيدة ويجوز أن يكون مفعولا له لأن المعنى لا يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا لمـكافأة نعمه والآيات نزلت فى حق أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين اشترى بلالا فى جماعة كان يؤذيهم المشركون فأعتقهم ولذلك قالوا المراد بالأشقى أبو جهـل أو أمية بن خلف وقد روى عطاء والضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه عذب المشركون بلالا وبلال يقول أحد أحد فمر به النبى عليه الصلاة والسلام فقال أحد يعنى الله تعالى ينجيك ثم قال لأبى بـكر رضى الله عنه إن بلالا يعذب فى الله فعرف مراده عليه الصلاة والسلام فانصرف إلى منزله فأخذ رطلا من ذهب ومضى به إلى أمية بن خلف فقال له أتبيعنى بلالا قال نعم فاشتراه فأعتقه فقال المشركون

ما أعتقه أبو بكر إلا ليد كانت له عنده فنزلت وقوله تعالى ﴿ ولسوف يرضى ﴾ جواب قسم مضمر أى وبالله لسوف يرضى وهو وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها إذ به يتحقق الرضا وقرىء يرضى مبنيا للمفعول من الإرضاء . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من « قرأ سورة والليل أعطاه الله تعالى حتى يرضى وعافاه من العسر ويسر له اليسر » .

• • •

سورة والضحى

مكية ، وآيها إحدى عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والضحى ﴾ هو وقت ارتفاع الشمس وصدر النهار قالوا تخصيصه بالإقسام به لأنها الساعة التى كلم فيها موسى عليه السلام وألقى فيها السحرة سجدا لقوله تعالى (وأن يحشر الناس ضحى) وقيل أريد به النهار كما فى قوله تعالى (أن يأتيهم بأسنا ضحى) فى مقابلة بياتا ﴿ والليل ﴾ أى جنس الليل ﴿ إذا سجى ﴾ أى سكن أهله أو ركد ظلامه من سجا البحر سجوا إذا سكنت أمواجه ونقل عن قتادة ومقاتل وجعفر الصادق أن المراد بالضحى هو الضحى الذى كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام وبالليل ليلة المعراج وقوله تعالى ﴿ ما ودعك ربك ﴾ جواب القسم أى ما قطعك قطع المودع وقرىء بالتخفيف أى ما تركك ﴿ وما قلى ﴾ أى وما أبغضك وحذف المفعول إما للاستغناء عنه بذكره من قبل أو للقصد إلى نفى صدور الفعل عنه تعالى بالكلية مع أن فيه مراعاة للفواصل . روى أن الوحى تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما لتركه الاستثناء كما مر فى سورة الكهف أو لزجره سائلا ملحا فقال المشركون إن محمدا ودعه ربه وقلاه فنزلت ردا عليهم وتبشيراً له عليه الصلاة والسلام بالكرامة الحاصلة والمترقبة كما يشعر به إيرادا اسم الرب المنبىء عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة

إلى ضميره عليه الصلاة والسلام وحيث تضمن ما سبق من نفي التوديع والقلى أنه تعالى يواصله بالوحي والكرامة في الدنيا بشره عليه الصلاة والسلام بأن ما سيؤتيه في الآخرة أجل وأعظم من ذلك فقيل ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ لما أنها باقية صافية عن الشوائب على الإطلاق وهذه فانية مشوبة بالمضار وما أوتي عليه الصلاة والسلام من شرف النبوة وإن كان مما لا يعادله(١) شرف ولا يدانيه فضل لكنه لا يخلو في الدنيا من بعض العوارض القادحة في تمشية الأحكام مع أنه عند ما أعد له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من السبق والتقدم على كافة الأنبياء والرسل يوم الجمع (يوم يقوم الناس لرب العالمين) وكون أمته شهداء على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنية التي لا تحيط بها العبارة بمنزلة بعض المبادى بالنسبة إلى المطالب وقيل المراد بالآخرة عاقبة أمره عليه الصلاة والسلام أي لنهاية أمرك خير من بدايته لا تزال تتزايد قوة وتتصاعد رفعة وقوله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ عدة كريمة شاملة لما أعطاه الله تعالى في الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين وظهور الأمر وإعلاء الدين بالفتوح الواقعة في عصره عليه الصلاة والسلام وفي أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من الملوك الإسلامية وفشوا الدعوة والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ولما ادخر له من الكرامات التي لا يعلمها إلا الله تعالى وقد أنبأ ابن عباس رضي الله عنهما عن شمة منها حيث قال له عليه الصلاة والسلام في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك واللام للابتداء دخلت الخبر لتأكيد مضمون الجملة والمبتدأ محذوف تقديره ولأنت سوف يعطيك الخ لا للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة وجمعها مع سوف للدلالة على أن الإعطاء كائن لا محالة وإن تراخى لحكمة وقيل هي للقسم وقاعدة التلازم بينها وبين نون التأكيد قد استثنى النحاة منها صورتين إحداهما أن يفصل

---

(١) في ١١ : يعد له .

بينها وبين الفعل بحرف التنفيس كهذه الآية وكقوله والله لسأعطيك والثانية أن يفصل بينهما بمعمول الفعل كقوله تعالى (لإلى الله تحشرون) وقال أبو على الفارسى ليست هذه اللام هى التى فى قولك إن زيداً لقائم بل هى التى فى قولك لأقومن ونابت سوف عن إحدى نونى التأكيد فكأنه قيل وليعطينك وكذلك اللام فى قوله تعالى وللآخرة الخ وقوله تعالى :

﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾ تعديد لما أفاض عليه عليه الصلاة والسلام من أول أمره إلى ذلك الوقت من فنون النعماء العظام ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود فيطمئن قلبه وينشرح صدره والهمزة لإنكار النفى وتقرير المنفى على أبلغ وجه كأنه قيل قد وجدك الخ والوجود بمعنى العلم ويتيما مفعوله الثانى وقيل بمعنى المصادفة ويتيما حال من مفعوله . روى أن أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته وذلك إيواؤه وقرىء فأوى وهو إما من أواه بمعنى آواه أو من أوى له إذا رحمه وقوله تعالى ﴿ ووجدك ضالا ﴾ عطف على ما يقتضيه الإنكار السابق كما أشير إليه أو على المضارع المنفى بلم داخل فى حكمه كأنه قيل أما وجدك يتيما فآوى ووجدك غافلا عن الشرائع التى لا تهتدى إليها العقول كما فى قوله تعالى ما كنت تدرى ما الكتاب وقيل ضل فى صباه فى بعض شعاب مكة فرده أبو جهل إلى عبد المطلب وقيل ضل مرة أخرى وطلبوه فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا وتضرع إلى الله تعالى فسمعوا مناديا ينادى من السماء يا معشر الناس لا تضجوا فان لمحمد ربا لا يخذله ولا يضيعه وإن محمدا بوادى تهامة عند شجر السمر فسار عبد المطلب وورقة بن نوفل فاذا النبى عليه الصلاة والسلام قائم تحت شجرة يلعب بالأغصان والأوراق وقيل أضلته مرضعته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب وقيل ضل فى طريق الشام حين خرج به أبو طالب [1]

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى أعلام النبوة من طرق .

يروى أن ابليس أخذ بزمام ناقته فى ليلة ظلماء فعدل به عن الطريق فجاء جبريل عليه السلام فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند ورده إلى القافلة ﴿ فهدى ﴾ فهداك إلى مناهج الشرائع المنطوية فى تضاعيف ما أوحى إليك من الكتاب المبين وعلمك ما لم تكن تعلم أو أزال ضلالك عن جدك أو عمك ﴿ ووجدك عائلا ﴾ أى فقيرا وقرىء عيلا وقرىء عديما ﴿ فأغنى ﴾ فأغناك بمال خديجة أو بمال حصل لك من ربح التجارة أو بما أفاء عليك من الغنائم قال عليه الصلاة والسلام جعل رزقى تحت ظل رمحى وقيل قنعك وأغنى قلبك.

﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ فلا تغلبه على ماله وقال مجاهد لا تحتقر وقرىء فلا تكهر أى فلا تعبس فى وجهه ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ فلا تزجر ولا تغلظ له القول بل رده ردا جميلا قال إبراهيم بن أدهم نعم القوم السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة وقال إبراهيم النخعى السائل يريد الآخرة يجىء إلى باب أحدكم فيقول أتبعثون إلى أهليكم بشىء وقيل المراد بالسائل ههنا الذى يسأل عن الدين.

﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ بشكرها وإشاعتها وإظهار آثارها وأحكامها أريد بها ما أفاضه الله تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من فنون النعم التى من جملتها النعم المعدودة الموجودة منها والموعودة والمعنى أنك كنت يتيما وضالا وعائلا فآواك الله تعالى وهداك وأغناك فمهما يكن من شىء فلا تنس حقوق نعمة الله تعالى عليك فى هذه الثلاث واقتد بالله تعالى وأحسن كما أحسن الله إليك فتعطف على اليتيم فآوه وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن بابك وحدث بنعمة الله كلها وحيث كان معظمها نعمة النبوة فقد اندرج تحت الأمر هدايته عليه الصلاة والسلام للضلال وتعليمه للشرائع والأحكام حسبما هداه الله عز وجل وعلمه من الكتاب والحكمة. عن النبى صلى الله عليه وسلم «من قرأ سوره والضحى جعله الله تعالى فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل»[1].

(١) أخرجه الطبرى فى التذكار عن ابن عمر وأبى هريرة.

سورة ألم نشرح

مكية ، وآيها ثمان

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ لما كان الصدر محلا لأحوال النفس ومخزنا لسرائرها من العلوم والإدراكات والملكات والإرادات وغيرها عبر بشرحه عن توسيع دائرة تصرفاتها بتأييدها بالقوة القدسية وتحليتها بالكمالات الأنسية أى ألم نفسحه حتى حوى عالمى الغيب والشهادة وجمع بين ملكتى الاستفادة والإفادة فما صدك الملابسة بالعلائق الجسمانية عن اقتباس أنوار الملكات الروحانية وما عاقك التعلق بمصالح الخلق عن الاستغراق فى شئون الحق وقيل أريد به ما روى أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صباه أو يوم الميثاق فاستخرج قلبه فغسله ثم ملأه إيمانا وعلما ولعله تمثيل لما ذكر أو أنموذج جسمانى مما سيظهر له عليه الصلاة والسلام من الكمال الروحانى والتعبير عن ثبوت الشرح بالاستفهام الإنكارى عن انتفائه للإيذان بأن ثبوته من الظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يجيب عنه بغير بلى وزيادة الجار والمجرور مع توسيطه بين الفعل ومفعوله للإيذان من أول الأمر بأن الشرح من منافعه عليه الصلاة والسلام ومصالحه مسارعة إلى إدخال المسرة فى قلبه عليه الصلاة والسلام وتشويقا له إلى ما يعقبه ليتمكن عنده وقت وروده فضل تمكن وقوله تعالى ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ عطف على ما أشير إليه من مدلول الجملة السابقة كأنه قد شرحنا صدرك ووضعنا إلخ وعنك متعلق بوضعنا وتقديمه على المفعول الصريح مع أن حقه التأخر عنه لما مر آنفا من القصد إلى تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر ولما أن فى وصفه نوع طول فتأخير الجار والمجرور عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم أى حططنا عنك عبأك الثقيل .

﴿ الذى أنقض ظهرك ﴾ أى حمله على النقيض وهو صوت الانتضاض

والانفكاك كما يسمع من الرحل المتداعى إلى الانتقاض من ثقل الحمل مثل به حاله عليه الصلاة والسلام مما كان يثقل عليه ويغمه من فرطاته قبل النبوة أو من عدم إحاطته بتفاصيل الأحكام والشرائع أو من تهالكه على إسلام المعاندين من قومه وتلهفه ووضعه عنه مغفرته وتعليم الشرائع وتمهيد عذره بعد أن بلغ وبالغ وقرىء وحططنا وحللنا مكان وضعنا وقرىء (وحللنا عنك وقرك) ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ بعنوان النبوة وأحكامها أى رفع حيث قرن اسمه باسم الله تعالى فى كلمة الشهادة والآذان والإقامة وجعل طاعته طاعته تعالى وصلى عليه هو وملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه وسمى رسول الله ونبى الله والكلام فى العطف وزيادة لك كالذى سلف وقوله تعالى ﴿ فإن مع العسر يسرا ﴾ تقرير لما قبله ووعد كريم بتيسير كل عسير له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين كأنه قيل خولناك ما خولناك من جلائل النعم فكن على ثقة بفضل الله تعالى ولطفه فإن مع العسر يسرا كثيرا وفى كلمته مع إشعار بغاية سرعة مجىء اليسر كأنه مقارن للعسر ﴿ إن مع العسر يسرا ﴾ تكرير للتأكيد أو عدة مستأنفة بأن العسر مشفوع بيسر آخر كثواب الآخرة كقولك إن للصائم فرحة إن للصائم فرحة أى فرحة عند الإفطار وفرحة عند لقاء الرب وعليه قوله عليه الصلاة والسلام لن يغلب عسر يسرين فإن المعرف إذا أعيد يكون الثانى عين الأول سواء كان معهودا أو جنسا وأما المنكر فيحتمل أن يراد بالثانى فرد مغاير لما أريد بالأول ﴿ فإذا فرغت ﴾ أى من التبليغ وقيل من الغزو ﴿ فانصب ﴾ فاجتهد فى العبادة واتعب شكرا لما أوليناك من النعم السالفة ووعدناك من الآلاء الآنفة وقيل فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد فى الدعاء وقيل إذا فرغت من دنياك فانصب فى صلاتك ﴿ وإلى ربك ﴾ وحده ﴿ فارغب ﴾ بالسؤال ولا تسأل غيره فإنه القادر على إسعافك لا غيره وقرىء فرغب أى فرغب الناس إلى طلب ما عنده . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ ألم نشرح فكأنما جاءنى وأنا مغتم ففرج عنى »[1] .

(١) أخرجه الأجهورى فى الإرشاد عن أبى هريرة وأبى طلحة من طرق

سورة التين

مكية ، وقيل مدنية ، وآيها ثمان

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والتين والزيتون ﴾ هما هذا التين وهذا الزيتون خصهما الله سبحانه من بين الثمار بالإقسام بهما لاختصاصهما بخواص جليلة فإن التين فاكهة طيبة لافضل له وغذاء لطيف سريع الهضم ودواء كثير النفع يلين الطبع ويحلل البلغم ويطهر الكليتين ويزيل ما فى المثانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح سدد الكبد والطحال وروى أبو ذر رضى الله عنه أنه أهدى للنبى عليه الصلاة والسلام سل من تين فأكل منه وقال لأصحابه : «كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذا لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس» .

وعن على بن موسى الرضا التين يزيل نكهة الفم ويطول الشعر وهو أمان من الفالج وأما الزيتون فهو فاكهة وإدام ودواء ولو لم يكن له سوى اختصاصه بدهن كثير المنافع مع حصوله فى بقاع لا دهنية فيها لكفى به فضلا وشجرته هى الشجرة المباركة المشهود لها فى التنزيل ومر معاذ بن جبل رضى الله عنه بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيبا واستاك به وقال سمعت النبى عليه الصلاة والسلام يقول نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة وسمعته يقول هو سواكى وسواك الأنبياء قبلى وقيل هما جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية طورتينا وطورزيتا لأنهما منبتا التين والزيتون وقيل التين جبال ما بين حلوان وهمدان والزيتون جبال الشام لأنهما منابتهما كأنه قيل ومنابت التين والزيتون وقال قتادة التين الجبل الذى عليه دمشق والزيتون الجبل الذى عليه بيت المقدس وقال عكرمة وابن زيد التين دمشق

والزيتون بيت المقدس وهو اختيار الطبرى وقال محمد بن كعب التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد إيليا وعن ابن عباس رضى الله عنهما التين مسجد نوح عليه السلام الذى بناه على الجودى والزيتون مسجد بيت المقدس وقال الضحاك التين المسجد الحرام والزيتون المسجد الأقصى والصحيح هو الأول قال ابن عباس رضى الله عنهما هو تينكم الذى تأكلون وزيتونكم الذى تعصرون منه الزيت وبه قال مجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعى وعطاء وجابر وزيد ومقاتل والكلبى ﴿ وطور سينين ﴾ هو الجبل الذى ناجى عليه موسى ربه وسينين وسيناء علمان للموضع الذى هو فيه ولذلك أضيف إليهما وسينون كبيرون فى جواز الإعراب بالواو والياء والإقرار على الياء وتحريك النون بالحركات الإعرابية ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ أى الآمن من أمن الرجل أمانة فهو أمين وهو مكة شرفها الله تعالى وأمانتها أنها تحفظ من دخلها كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل كما وصف بالآمن فى قوله تعالى (حرما آمنا) بمعنى ذى أمن ووجه الأقسام بهاتيك البقاع المباركة المشحونة ببركات الدنيا والدين غنى عن الشرح والتبيين .

﴿ لقد خلقنا الإنسان ﴾ أى جنس الإنسان ﴿ فى أحسن تقويم ﴾ أى كائنا فى أحسن ما يكون من التقويم والتعديل صورة ومعنى حيث براه الله تعالى مستوى القامة متناسب الأعضاء متصفا بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والتكلم والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات التى هى من أنموذجات من الصفات السبحانية وآثار لها وقد عبر بعض العلماء عن ذلك بقوله خلق آدم على صورته وفى رواية على صورة الرحمن وبنى عليه تحقيق معنى قوله من عرف نفسه فقد عرف ربه وقال إن النفس الإنسانية مجردة ليست حالة فى البدن ولا خارجة عنه متعلقة به تعلق التدبير والتصرف تستعمله كيفما شاءت فإذا أرادت فعلا من الأفاعيل الجسمانية تلقيه إلى ما فى القلب من الروح

الحيوانى الذى هو أعدل الأرواح وأصفاها وأقربها منها وأقواها مناسبة إلى عالم المجردات إلقاء روحانيا وهو يلقيه بواسطة ما فى الشرايين من الأرواح إلى الدماغ الذى هو منبت الأعصاب التى فيها القوى المحركة للانسان فعند ذلك يحرك من الأعضاء ما يليق بذلك الفعل من مباديه البعيدة والقريبة فيصدر عنه ذلك بهذه الطريقة فمن عرف نفسه على هذه الكيفية من صفاتها وأفعالها تسنى له أن يترقى إلى معارج معرفة رب العزة عز سلطانه ويطلع على أنه سبحانه منزه عن كونه داخلا فى العالم أو خارجا عنه يفعل فيه ما يشاء ويحكم ما يريد بواسطة مارتبه فيه من الملائكة الذين يستدل على شئونهم بما ذكر من الأرواح والقوى المرتبة فى العالم الإنسانى الذى هو نسخة للعالم الأكبر وأنموذج منه[1] وقوله تعالى :

﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ أى جعلناه من أهل النار الذين هم أقبح من كل قبيح وأسفل من كل سافل لعدم جريانه على موجب ما خلقناه عليه من الصفات التى لو عمل بمقتضاها لكان فى أعلى عليين وقيل رددناه إلى أرذل العمر وهو الهرم بعد الشباب والضعف بعد القوة كقوله تعالى (ومن نعمره ننكسه فى الخلق) وأياً ما كان فأسفل سافلين إما حال من المفعول أى رددناه حال كونه أسفل سافلين أو صفة لمكان محذوف أى رددناه مكانا أسفل سافلين والأول أظهر وقرىء أسفل السافلين وقوله تعالى :

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ على الأول استثناء متصل من ضمير رددناه فإنه فى معنى الجمع وعلى الثانى منقطع أى لكن الذين كانوا صالحين من الهرمى ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله تعالى بالشيخوخة والهرم وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة

---

(١) انظر تفسير من عرف نفسه عرف ربه فى تفضيل النشأتين للراغب ص٧ وخلق آدم على الصورة فى مشكل الحديث لابن فورك وفى المواهب للقاضى عياض ورقة ١٦٥ خط.

على تخاذل نهوضهم أو غير ممنون به عليهم وهذه الجملة على الأول مقررة لما يفيده الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد ومبينة لكيفية حالهم والخطاب فى قوله تعالى ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام أى فأى شيء يكذبك دلالة أو نطقا بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة به وقيل ما بمعنى من وقيل الخطاب للإنسان على طريق الالتفات لتشديد التوبيخ والتبكيت أى فما يجعلك كاذبا بسبب الدين وإنكاره بعد هذه الدلائل والمعنى أن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشراً سويا وتحويله من حال إلى حال كمالا ونقصانا من أوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل على البعث والجزاء فأى شيء يضطرك بعد هذا الدليل القاطع إلى أن تكون كاذبا بسبب تكذيبه أيها الإنسان ؟

﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ أى أليس الذى فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين صنعا وتدبيرا حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء وحيث استحال عدم كونه أحكم الحاكمين تعين الإعادة والجزاء فالجملة تقرير لما قبلها وقيل الحكم بمعنى القضاء فهى وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما يستحقونه من العذاب . عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها يقول بلى وأنا على ذلك من الشاهدين . وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة والتين أعطاه الله تعالى الخصلتين العافية واليقين ما دام فى دار الدنيا وإذا مات أعطاه الله تعالى من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة .

* * *

﴿ سورة العلق ﴾

مكية، وآيها تسع عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ اقرأ ﴾ أى ما يوحى إليك فإن الأمر بالقراءة يقتضى المقروء قطعا وحيث لم يعين وجب أن يكون ذلك ما يتصل بالأمر حتما سواء كانت السورة أول ما نزل أولا والأقرب أن هذا إلى قوله تعالى (ما لم يعلم) أول ما نزل عليه عليه الصلاة والسلام كما ينطق به حديث الزهرى المشهور وقوله تعالى ﴿ باسم ربك ﴾ متعلق بمضمر هو حال من ضمير الفاعل أى اقرأ ملتبسا باسمه تعالى أى مبتدئا به لتتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية بإنزال الوحى المتواتر ووصف الرب بقوله تعالى ﴿ الذى خلق ﴾ لتذكير أول النعماء الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام منه تعالى والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلا عن سائر الكمالات قادر على تعليم القراءة للحى العالم المتكلم أى الذى أنشأ الخلق واستأثر به أو خلق كل شىء وقوله تعالى :

﴿ خلق الإنسان ﴾ على الأول تخصيص لخلق الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير وعلى الثانى لإفراد للإنسان من بين سائر المخلوقات بالبيان وتفخيم لشأنه إذ هو أشرفهم وإليه التنزيل وهو المأمور بالقراءة ويجوز أن يراد بالفعل الأول أيضاً خلق الإنسان ويقصد بتجريده عن المفعول الإبهام ثم التفسير روما لتفخيم فطرته وقوله تعالى ﴿ من علق ﴾ أى دم جامد لبيان كمال قدرته تعالى بإظهار ما بين حالته الأولى والآخرة من التباين البين وإيراده بلفظ الجمع بناء على أن الإنسان فى معنى الجمع لمراعاة

الفواصل ولعله هو السر فى تخصيصه بالذكر من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية مع كون النطفة والتراب أدل منه على كمال القدرة لكونهما أبعد منه بالنسبة إلى الإنسانية ولما كان خلق الإنسان أو النعم الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام منه تعالى وأقدم الدلائل الدالة على وجوده عز وجل وكمال قدرته وعلمه وحكمته وصف ذاته تعالى بذلك أولا ليستشهد عليه السلام به على تمكينه تعالى له من القراءة ثم كرر الأمر بقوله تعالى ﴿ اقرأ ﴾ أى افعل ما أمرت به تأكيدا للإيجاب وتمهيدا لما يعقبه من قوله تعالى ﴿ وربك الأكرم ﴾ الخ فإنه كلام مستأنف وارد لإزاحة ما بينه عليه السلام من العذر بقوله عليه السلام « ما أنا بقارىء »[1] يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ وأنا أمى فقيل له وربك الذى أمرك بالقراءة مبتدئا باسمه هو الأكرم ﴿ الذى علم بالقلم ﴾ أى علم ما علم بواسطة القلم لا غيره فكما علم القارىء بواسطة الكتابة والقلم يعلمك بدونهما وقوله تعالى :

﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ بدل اشتمال من علم بالقلم أى علمه به وبدونه من الأمور الكلية والجزئية والجلية والخفية ما لم يخطر بباله وفى حذف المفعول أولا وإيراده بعنوان عدم المعلومية ثانيا من الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمال كرمه والإشعار بأنه تعالى يعلمه من العلوم مما[2] لا تحيط به العقول ما لا يخفى ﴿ كلا ﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله تعالى بطغيانه وإن لم يسبق ذكره للمبالغة فى الزجر وقوله تعالى ﴿ إن الإنسان ليطغى ﴾ أى ليجاوز الحد ويستكبر على ربه بيان للمردوع والمردوع عنه قيل هذا إلى آخر السورة نزل فى أبى جهل بعد زمان وهو الظاهر وقوله تعالى ﴿ أن رآه استغنى ﴾ مفعول له أى يطغى لأن رأى نفسه مستغنيا على أن استغنى مفعول ثان لرأى لأنه بمعنى علم ولذلك ساغ كون فاعله ومفعوله ضميرى واحد كما فى علمتنى

---

(١) أخرجه مسلم والبخارى فى بدء الوحى .

(٢) فى الأصل : مالا يحيط .

وإن جوزه بعضهم فى الرؤية البصرية أيضا وجعل من ذلك قول عائشة رضى الله عنها لقد رأيتنامع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام إلا الأسودان وتعليل طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء كما ينبيء عنه قوله تعالى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) للايذان بأن مدار طغيانه عمه الفاسد . روى أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتزعم أن من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهبا لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال إن شئت فعلنا ذلك ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم مافعلنا بأصحاب المائدة فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم وقوله تعالى ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ تهديد للطاغى وتحذير له من عاقبة الطغيان والالتفات للتشديد فى التهديد والرجعى مصدر بمعنى الرجوع كالبشرى وتقديم الجار والمجرور عليه أى إن إلى مالك أمرك رجوع الكل بالموت والبعث لا إلى غيره استقلالا ولا اشتراكا فسترى حينئذ عاقبة طغيانك وقوله تعالى :

﴿ أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى ﴾ تقبيح وتشنيع لحاله وتعجيب منها وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى منه الرؤية ويقضى منها العجب . روى أن أبا جهل قال فى ملأ من طغاة قريش لئن رأيت محمدا يصلى لأطأن عنقه فرآه عليه السلام فى الصلاة فجاءه ثم نكص على عقبيه فقالوا مالك قال إن بينى وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة فنزلت ولفظ العبد وتنكيره لتفخيمه عليه السلام واستعظام النهى وتأكيد التعجب منه والرؤية ههنا بصرية وأما مافى قوله تعالى ﴿ أرأيت إن كان على الهدى أوأمر بالتقوى ﴾ وما فى قوله تعالى ﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾ فقلبية معناه أخبرنى فإن الرؤية لما كانت سببا للإخبار عن المرئى أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها والخطاب لكل من صلح للخطاب ونظم الأمر والتكذيب والتولى فى سلك الشرط المتردد بين الوقوع وعدمه ليس باعتبار

نفس الأفعال المذكورة من حيث صدورها عن الفاعل فإن ذلك ليس فى حيز التردد أصلا بل باعتبار أوصافها التى هى كونها أمرا بالتقوى وتكذيبا وتوليا كما فى قوله تعالى (أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به) كما مر والمفعول الأول لأ رأيت محذوف وهو ضمير يعود إلى الموصول أو اسم إشارة يشار به إليه ومفعوله الثانى سد مسده الجملة الشرطية بجوابها المحذوف فإن المفعول الثانى لأرأيت لا يكون إلا جملة استفهامية أو قسمية والمعنى أخبرنى ذلك الناهى إن كان على الهدى فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى أو آمرا بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقده أو مكذبا للحق معرضاً عن الصواب كما نقول نحن ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ أى يطلع على أحواله فيجازيه بها حتى اجترأ على ما فعل وإنما أفرد التكذيب والتولى بشرطية مستقلة مقرونة بالجواب مصدرة باستخبار مستأنف ولم ينظما فى سلك الشرط الأول بعطفهما على كان للإيذان باستقلالهما بالوقوع فى نفس الأمر واستتباع الوعيد الذى ينطق به الجواب وأما القسم الأول فأمر مستحيل قد ذكر فى حيز الشرط لتوسيع الدائرة وهو السر فى تجريد الشرطية الأولى عن الجواب والإحالة به على جواب الثانية هذا وقد قيل أرأيت الأول بمعنى أخبرنى مفعوله الأول الموصول ومفعوله الثانى الشرطية الأولى بجوابها المحذوف لدلالة جواب الشرطية الثانية عليه وأرأيت فى الموضعين تكرير للتأكيد ومعناه أخبرنى عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهى على طريقة سديدة فيما ينهى عن عبادة الله تعالى أو كان آمرا بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقده وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولى عن الدين الصحيح كما نقول نحن ألم يعلم بأن الله يرى ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك فتأمل وقيل المعنى أرأيت الذى ينهى عبدا يصلى والمنهى عن الهدى آمر بالتقوى والناهى مكذب متولى فما أعجب من ذا وقيل الخطاب الثانى للكافر فإنه تعالى كالحاكم الذى حضره الخصمان يخاطب هذا مرة والآخر أخرى وكأنه قال يا كافر أخبرنى إن كان صلاته هدى ودعاؤه إلا الله تعالى أمرا بالتقوى أتنهاه وقيل هو أمية

ابن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة ﴿ كلا ﴾ ردع للناهي اللعين وخسوء له واللام فى قوله تعالى :

﴿ لئن لم ينته ﴾ موطئة للقسم أى والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿ لنسفعا بالناصية ﴾ لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار والسفع القبض على الشيء وجذبه بعنف وشدة وقرىء لنسفعن بالنون المشددة وقرىء لأسفعن وكتبته[1] فى المصحف بالألف على حكم الوقف والاكتفاء بلام العهد عن الإضافة لظهور أن المراد ناصية المذكور ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ بدل من الناصية وإنما جاز إبدالها من المعرفة وهي نكرة لوصفها وقرئت بالرفع على هي ناصية وبالنصب وكلاهما على الذم والشتم ووصفها بالكذب والخطأ على الإسناد المجازي وهما لصاحبها وفيه من الجزالة ما ليس فى قولك ناصية كاذب خاطىء ﴿ فليدع ناديه ﴾ أى أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذى ينتدى فيه القوم أى يجتمعون. روى أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فقال ألم أنهك فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا فنزلت ﴿ سندع الزبانية ﴾ ليجروه إلى النار والزبانية الشرط الواحد زبنية كعفرية من الزبن وهو الدفع وقيل زبنى وكأنه نسب إلى الزبن ثم غير كأمسى وأصلها زبانى فقل زبانية بتعويض التاء عن الياء والمراد ملائكة العذاب وعن النبي عليه السلام لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عيانا ﴿ كلا ﴾ ردع بعد ردع وزجر إثر زجر ﴿ لا تطعه ﴾ أى دم على ما أنت عليه من معاصاته ﴿ واسجد ﴾ وواظب على سجودك وصلاتك غير مكترث به ﴿ واقترب ﴾ وتقرب بذلك إلى ربك وفى الحديث أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة العلق أعطى من الأجر كأنما قرأ المفصل كله[2] .

---

(١) فى ١١ : وبكتابته

(٢) أخرجه القرطبي فى التذكار عن عبد الله بن عمرو بن العاص

﴿ سورة القدر ﴾

مختلف فيها ، وآيها خمس

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ تنويه بشأن القرآن الكريم وإجلال لمحله بإضماره المؤذن بغاية نباهته المغنية عن التصريح به كأنه حاضر فى جميع الأذهان وبإسناد إنزاله إلى نون العظمة المنبىء عن كمال العناية به وتفخيم وقت إنزاله بقوله تعالى ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ لما فيه من الدلالة على أن علو قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق لا يدريها ولا يدريها إلا علام الغيوب كما يشعر به قوله تعالى ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ فإنه بيان إجمالى لشأنها إثر تشويقه عليه السلام إلى درايتها فإن ذلك معرب عن الوعد بادرائها وقد مر بيان كيفية إعراب الجملتين وفى إظهار ليلة القدر فى الموضعين من تأكيد التفخيم ما لا يخفى والمراد بإنزاله فيها إما إنزاله كله إلى السماء الدنيا كما روى أنه أنزل جملة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا وأملاه جبريل عليه السلام على السفرة ثم كان ينزله على النبى عليه السلام نجوما فى ثلاث وعشرين سنة وإما ابتداء إنزاله فيها كما نقل عن الشعبى وقيل المعنى أنزلناه فى شأن ليلة القدر وفضلها كما فى قول عمر رضى الله عنه خشيت أن ينزل فى قرآن وقول عائشة رضى الله عنها لأنا أحقر فى نفسى من أن ينزل فى قرآن فالأنسب أن يجعل الضمير حينئذ للسورة التى هى جزء من القرآن لا للكل واختلفوا فى وقتها فأكثرهم على أنها فى شهر رمضان فى العشر الأواخر فى أوتارها وأكثر الأقوال أنها السابعة منها ولعل السر فى إخفائها تعريض من يريدها للثواب الكثير بإحياء الليالى الكثيرة رجاء لموافقتها وتسميتها بذلك إما لتقدير الأمور وقضائها فيها لقوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم) أو لخطرها وشرفها على سائر الليالى وتخصيص الألف بالذكر إما للتكثير أو لما روى أنه عليه السلام ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر فعجب المؤمنون منه وتقاصرت إليهم أعمالهم فأعطوا ليلة

هى خير من مدة ذلك الغازى وقيل إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد وقيل أرى النبى عليه السلام أعمار الأمم كافة فاستقصر اعمار أمته فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر وجعلها خيرا من ألف شهر لسائر الأمم وقيل كان ملك سليمان خمسمائة شهر وملك ذى القرنين خمسمائة شهر فجعل الله تعالى العمل فى هذه الليلة لمن أدركها خيرا من ملكهما وقوله تعالى :

﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ استئناف مبين لمناط فضلها على تلك المدة المتطاولة وقد سبق فى سورة النبأ ما قيل فى شأن الروح على التفصيل وقيل هم خلق من الملائكة لا يراهم الملائكة إلا تلك الليلة أى تتنزل الملائكة والروح فى تلك الليلة من كل سماء إلى الأرض أو إلى السماء الدنيا ﴿ بإذن ربهم ﴾ متعلق بتنزل أو بمحذوف هو حال من فاعله أى ملتبسين بإذن ربهم أى بأمره ﴿ من كل أمر ﴾ أى من أجل كل أمر قضاه الله عز وجل لتلك السنة إلى قابل كقوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم) وقرىء من كل امرىء أى من أجل كل إنسان قيل لا يلقون فيها مؤمنا ولا مؤمنة إلا سلموا عليه ﴿ سلام هى ﴾ أى ما هى إلا سلامة أى لا يقدر الله تعالى فيها إلا السلامة والخير وأما فى غيرها فيقضى سلامة وبلاء أو ما هى إلا سلام لكثرة ما يسلمون فيها على المؤمنين ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ أى وقت طلوعه وقرىء بالكسر على أنه مصدر كالمرجع أو اسم زمان على غير قياس كالمشرق وحتى متعلقة بتنزل على أنها غاية لحكم التنزل أى لمكثهم فى محل تنزلهم أو لنفس تنزلهم بأن لا ينقطع تنزلهم فوجا بعد فوج إلى طلوع الفجر وقيل متعلقة بسلام بناء على أن الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ مغتفر فى الجار عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القدر أعطى من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر .

سورة لم يكن

مختلف فيها، وآيها ثمان

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ أى اليهود والنصارى وإيرادهم بذلك العنوان للإشعار بعلة ما نسب إليهم من الوعد باتباع الحق فإن مناط ذلك وجدانهم له فى كتابهم وإيراد الصلة فعلا لما أن كفرهم حادث بعد أنبيائهم ﴿ والمشركين ﴾ أى عبدة الأصنام وقرىء والمشركون عطفا على الموصول ﴿ منفكين ﴾ أى عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق و الإيمان بالرسول المبعوث فى آخر الزمان والعزم على إنجازه وهذا الوعد من أهل الكتاب مما لا ريب فيه حتى أنهم كانوا يستفتحون ويقولون اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان ويقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم وأما من المشركين فلعله قد وقع من متأخريهم بعد ما شاع ذلك من أهل الكتاب واعتقدوا صحته بما شاهدوا من نصرتهم على أسلافهم كما يشهد به أنهم كانوا يسألونهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هل هو المذكور فى كتابهم وكانوا يغرونهم بتغيير نعوته عليه السلام وانفكاك الشىء عن الشىء أن يزايله بعد التحامه كالعظم إذا انفك من مفصله وفيه إشارة إلى كمال وكادة وعدهم أى لم يكونوا مفارقين للوعد المذكور بل كانوا مجمعين عليه عازمين على إنجازه ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ التى كانوا قد جعلوا إتيانها ميقاتا لاجتماع الكلمة والاتفاق على الحق فجعلوه ميقاتا للانفكاك والافتراق وإخلاف الوعد والتعبير عن إتيانها بصيغة المضارع باعتبار حال المحكى لا باعتبار حال الحكاية كما فى قوله تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين) أى تلت وقوله تعالى:

﴿ رسول ﴾ بدل من البينة عبر عنه عليه السلام بالبينة للإيذان بغاية

ظهور أمره وكونه ذلك الموعود فى الكتابين وقوله تعالى ﴿ من الله ﴾ متعلق بمضمر هو صفة لرسول مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي رسول وأى رسول كائن منه تعالى وقوله تعالى ﴿ يتلو ﴾ صفة أخرى له أو حال من الضمير فى متعلق الجار ﴿ صحفا مطهرة ﴾ أى منزهة عن الباطل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أو من أن يمسه غير المطهرين ونسبة تلاوتها إليه عليه السلام من حيث أن تلاوة ما فيها بمنزلة تلاوتها وقوله تعالى ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ صفة لصحفا أو حال من ضميرها فى مطهرة ويجوز أن يكون الصفة أو الحال الجار والمجرور فقط وكتب مرتفعا به على الفاعلية ومعنى قيمة مستقيمة ناطقة بالحق والصواب وقوله تعالى :

﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ إلخ كلام مسوق لغاية تشنيع أهل الكتاب خاصة وتغليظ جناياتهم ببيان أن ما نسب إليهم من الانفكاك لم يكن لاشتباه ما فى الأمر بل كان بعد وضوح الحق وتبين الحال وانقطاع الأعذار بالكلية وهو السر فى وصفهم بإيتاء الكتاب المنبىء عن كمال تمكنهم من مطالعته والإحاطة بما فى تضاعيفه من الأحكام والأخبار التى من جملتها نعوت النبي عليه الصلاة والسلام بعد ذكرهم فيما سبق بما هو جار مجرى اسم الجنس للطائفتين ولما كان هؤلاء والمشركون باعتبار اتفاقهم على الرأى المذكور فى حكم فريق واحد عبر عما صدر عنهم عقيب الاتفاق عند الإخبار بوقوعه بالانفكاك وعند بيان كيفية وقوعه بالتفرق اعتبار الاستقلال كل من فريقى أهل الكتاب وإيذانا بأن انفكاكهم عن الرأى المذكور ليس بطريق الاتفاق على رأى آخر بل بطريق الاختلاف القديم وقوله تعالى .

﴿ إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأوقات أى وما تفرقوا فى وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة الدالة على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الموعود فى كتابهم دلالة جلية لا ريب فيها كقوله تعالى (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم)

وقوله تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله ﴾ جملة حالية مفيدة لغاية قبح مافعلوا أي والحال أنهم ما أمروا بما أمروا في كتابهم إلا لأجل أن يعبدوا الله وقيل اللام بمعنى أن أي إلا بأن يعبدوا الله ويعضده قراءة إلا أن يعبدوا الله ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي جاعلين دينهم خالصا له تعالى أو جاعلين أنفسهم خالصة له تعالى في الدين ﴿ حنفاء ﴾ مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام ﴿ ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكوة ﴾ إن أريد بهما ما في شريعتهم من الصلاة والزكاة فالأمر ظاهر وإن أريد ما في شريعتنا فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أن أمرهم باتباع شريعتنا أمر لهم بجميع أحكامها التي هما من جملتها .

﴿ وذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من عبادة الله تعالى بالإخلاص وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته ﴿ دين القيمة ﴾ أي دين الملة القيمة وقرىء الدين القيمة على تأويل الدين بالملة هذا وقد قيل قوله تعالى (لم يكن الذين كفروا) إلى قوله كتب قيمة حكاية لما كانوا يقولونه قبل مبعثه عليه السلام من أنهم لا ينفكون عن دينهم إلى مبعثه ويعدون أن ينفكوا عنه حينئذ ويتفقوا على الحق وقوله تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) بيان إلخ لإخلافهم الوعد وتعكيسهم الأمر بجعلهم ماهو سبب لانفكاكهم عن دينهم الباطل حسبما وعدوه سببا لثباتهم عليه وعدم انفكاكهم عنه ومثل ذلك بأن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه لا أنفك عما أنا فيه حتى أستغني فيستغني فيزداد فسقا فيقول له واعظه لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر وما عكفت على الفسق إلا بعد اليسار وأنت خبير بأن هذا إنما يتسنى بعد اللتيا والتي على تقدير أن يراد بالتفرق تفرقهم عن الحق بأن يقال التفرق عن الحق مستلزم للثبات على الباطل فكأنه قيل وما أجمعوا على دينهم إلا من بعد ما جاءتهم البينة وأما على تقدير أن يراد به تفرقهم فرقا فمنهم من آمن ومنهم من أنكر ومنهم من عرف وعاند كما جوزه القائل فلا فتأمل

﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم ﴾ بيان لحال الفريقين فى الآخرة بعد بيان حالهم فى الدنيا وذكر المشركين لئلا يتوهم اختصاص الحكم بأهل الكتاب حسب اختصاص مشاهدة شواهد النبوة فى الكتاب بهم ومعنى كونهم فيها أنهم يصيرون إليها يوم القيامة وإيراد الجملة الاسمية للإيذان بتحقق مضمونها لا محالة أو أنهم فيها الآن إما على تنزيل ملابستهم لما يوجبها منزلة ملابستهم لها وإما على أن ما هم فيه من الكفر والمعاصى عين النار إلا أنها ظهرت فى هذه النشأة بصورة عرضية وستخلعها فى النشأة الآخرة وتظهر بصورتها الحقيقية كما فى قوله تعالى (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) فى سورة الأعراف .

﴿ خالدين فيها ﴾ حال من المستكن فى الخبر واشتراك الفريقين فى دخول دار العذاب بطريق الخلود لا ينافى تفاوت عذابهم فى الكيفية فإن جهنم دركات وعذابها ألوان ﴿ أولئك ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما هم فيه من القبائح المذكورة وما فيه من معنى البعد للإشعار بغاية بعد منزلتهم فى الشر أى أولئك البعداء المذكورون ﴿ هم شر البرية ﴾ شر الخليقة أى أعمالا وهو الموافق لما سيأتى فى حق المؤمنين فيكون فى حيز التعليل لخلودهم فى النار أو شرهم مقاما ومصيرا فيكون تأكيدا لفظاعة حالهم وقرىء بالهمز على الأصل .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ بيان لمحاسن أحوال المؤمنين إثر بيان سوء حال الكفرة جريا على السنة القرآنية من شفع الترهيب بالترغيب ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بما هو فى الغاية القاصية من الشرف والفضيلة من الإيمان والطاعة .

﴿ هم خير البرية ﴾ وقرىء خيار البرية وهو جمع خير نحو جيد وجياد ﴿ جزاؤهم ﴾ بمقابلة ما لهم من الإيمان والطاعة ﴿ عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار ﴾ إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة الأغصان كما هو الظاهر فجريان الأنهار من تحتها ظاهر وإن أريد بها مجموع الأرض وما عليها فهو

باعتبار الجزء الظاهر وأياً ما كان فالمراد جريانها بغير أخدود ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ متنعمين بفنون النعم الجسمانية والروحانية وفى تقديم مدحهم بخيرية البرية وذكر الجزاء المؤذن بكون ما منحوه فى مقابلة ما وصفوا به وبيان كونه من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم وجمع الجنات وتقييدها بالإضافة وبما يزيدها نعيما وتأكيد[1] الخلود بالأبود من الدلالة على غاية حسن حالهم ما لا يخفى ﴿ رضى الله عنهم ﴾ استئناف مبين لما يتفضل عليهم زيادة على ما ذكر من أجزية أعمالهم ﴿ ورضوا عنه ﴾ حيث بلغوا من المطالب قاصيتها وملكوا من المآرب ناصيتها وأتيح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من الجزاء والرضوان ﴿ لمن خشى ربه ﴾ فإن الخشية التى هى من خصائص العلماء بشئون الله عز وجل مناط لجميع الكمالات العلمية والعملية المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية والتعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية والتربية للإشعار بعلة الخشية والتحذير من الاغترار بالتربية . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقيلا .

* * *

(١) فى الأصل : وتأبيد .

سورة الزلزلة

مختلف فيها، وآيها تسع

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إذا زلزلت الأرض ﴾ أى حركت تحريكا عنيفاً متكرراً متداركا ﴿ زلزالها ﴾ أى الزلزال المخصوص بها على مقتضى المشيئة الإلهية المبنية على الحكم البالغة وهو الزلزال الشديد الذى لا غاية وراءه أو زلزالها العجيب الذى لا يقادر قدره أو زلزالها الداخل فى حيز الإمكان وقرىء بفتح الزاى وهو اسم وليس فى الأبنية فعلال بالفتح إلا فى المضاعف وقولهم ناقة خزعال نادر وقد قيل الزلزال بالفتح أيضا مصدر كالوسواس والجرجار والقلقال وذلك عند النفخة الثانية لقوله عز وجل ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ أى ما فى جوفها من الأموات والدفائن جمع ثقل وهو متاع البيت وإظهار الأرض فى موقع الإضمار لزيادة التقرير أو للإيماء إلى تبدل الارض غير الأرض أو لأن إخراج الأثقال حال بعض أجزائها ﴿ وقال الإنسان ﴾ أى كل فرد من أفراده لما يدهمهم من الطامة التامة ويبهرهم من الداهية العامة ﴿ مالها ﴾ زلزلت هذه المرتبة الشديدة من الزلزال وأخرجت ما فيها من الأثقال استعظاما لما شاهدوه من الأمر الهائل وقد سيرت الجبال فى الجو وصيرت هباء وقيل هو قول الكافر إذ لم يكن مؤمنا بالبعث والأظهر هو الأول على أن المؤمن يقوله بطريق الاستعظام والكافر بطريق التعجب ﴿ يومئذ ﴾ بدل من إذا وقوله تعالى ﴿ تحدث أخبارها ﴾ عامل فيهما ويجوز أن يكون إذا منتصبا بمضمر أى يوم إذ زلزلت الأرض تحدث الخلق أخبارها إما بلسان الحال حيث تدل دلالة ظاهرة على ما لأجله زلزالها وإخراج أثقالها وإما بلسان المقال حيث ينطقها الله تعالى فتخبر بما عمل عليها من خير وشر وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم

أنها تشهد على كل أحد بما عمل على ظهرها[1] وقرىء تنبىء أخبارها وقرىء تنبىء من الإنباء ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ أى تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها وأمره إياها بالتحديث على أحد الوجهين ويجوز أن يكون بدلا من أخبارها كأنه قيل تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لأن التحديث يستعمل بالباء وبدونها وأوحى لها بمعنى أوحى إليها .

﴿ يومئذ ﴾ أى يوم إذ يقع ما ذكر ﴿ يصدر الناس ﴾ من قبورهم إلى موقف الحساب ﴿ أشتاتا ﴾ متفرقين بحسب طبقاتهم بيض الوجوه آمنين وسود الوجوه فزعين كما مر فى قوله تعالى فتأتون أفواجا وقيل يصدرون عن الموقف أشتاتا ذات اليمين إلى الجنة وذات الشمال إلى النار ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ أى أجزية أعمالهم خيرا كان أو شرا وقرىء ليروا بالفتح وقوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ تفصيل ليروا وقرىء يره والذرة النملة الصغيرة وقيل ما يرى فى شعاع الشمس من الهباء وأياً ما كان فمعنى رؤية ما يعادلها من خير وشر إما مشاهدة جزائه فمن الأولى مختصة بالسعداء والثانية بالأشقياء كيف لا وحسنات الكافر محبطة بالكفر وسيئات المؤمن المجتنب عن الكبائر معفوة وما قيل من أن حسنة الكافر تؤثر فى نقص العقاب يرده قوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وأما مشاهدة نفسه من غير أن يعتبر معه الجزاء ولا عدمه بل يفوض كل منهما إلى سائر الدلائل الناطقة بعفو صغائر المؤمن المجتنب عن الكبائر وإثابته بجميع حسناته وبحبوط حسنات الكافر ومعاقبته بجميع معاصيه فالمعنى ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيرا أو شرا إلا أراه الله تعالى إياه أما المؤمن فيغفر له سيئاته ويثيبه بحسناته وأما الكافر فيرد حسناته تحسرا ويعاقبه بسيئاته .

عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله والله أعلم .

---

(١) أخرجه السيوطى فى البدور من طرق .

سورة والعاديات

مختلف فيها ، وآيها إحدى عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والعاديات ﴾ أقسم سبحانه بخيل الغزاة التى تعدو نحو العدو وقوله تعالى ﴿ ضبحا ﴾ مصدر منصوب إما بفعله المحذوف الواقع حالا منها أى تضبح ضبحا وهو صوت أنفاسها عند عدوها أو بالعاديات فإن العدو مستلزم للضبح كأنه قيل والضابحات أو حال على أنه مصدر بمعنى الفاعل أى ضابحات ﴿ فالموريات قدحا ﴾ الإيراء إخراج النار والقدح الصك يقال قدح فأورى أى فالتى تورى النار من حوافرها وانتصاب قدحا كانتصاب ضبحا على الوجوه الثلاثة ﴿ فالمغيرات ﴾ أسند الإغارة التى هى مباغتة العدو للنهب أو للقتل أو للأسر إليها وهى حال أهلها إيذانا بأنها العمدة فى إغارتهم ﴿ صبحا ﴾ أى فى وقت الصبح وهو المعتاد فى الغارات يعدون ليلا لئلا يشعر بهم العدو ويهجمون عليهم صباحا ليروا ما يأتون وما يذرون وقوله تعالى ﴿ فأثرن به ﴾ عطف على الفعل الذى دل عليه اسم الفاعل إذ المعنى واللاتى عدون فأورين فأغرن فأثرن به أى فهيجن بذلك الوقت ﴿ نقعا ﴾ أى غبارا وتخصيص إثارته بالصبح لأنه لا يثور أو لا يظهر ثورانه بالليل وبهذا ظهر أن الإيراء الذى لا يظهر فى النهار واقع فى الليل ولله در شأن التنزيل وقيل النقع الصياح والجلبة وقرىء فأثرن بالتشديد بمعنى فأظهرن به غبارا لأن التأثير فيه معنى الإظهار ﴿ فوسطن به ﴾ أى توسطن بذلك الوقت أو توسطن ملتبسات بالنقع ﴿ جمعاً ﴾ من جموع الأعداء والفاءات للدلالة على ترتب ما بعد كل منها على ما قبلها كما فى قوله :

يا لهف زيابة للحارث الـــصابح فالغانم فالآيب

فإن توسط الجمع مترتب على الإثارة المترتبة على الإغارة المترتبة على الإيراء المترتب على العدو وقوله تعالى ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ أى لكفور من

كفد النعمة كنودا جواب القسم والمراد بالإنسان بعض أفراده . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى أناس من بنى كنانة سرية واستعمل عليها المنذر ابن عمرو الأنصارى وكان أحد النقباء فأبطأ عليه عليه الصلاة والسلام خبرها شهرا فقال المنافقون إنهم قتلوا فنزلت السورة إخبارا للنبى عليه الصلاة والسلام بسلامتها وبشارة له بإغارتها على القوم ونعيا على المرجفين فى حقهم ما هم فيه من الكنود وفى تخصيص خيل الغزاة بالإقسام بها من البراعة ما لامزيد عليه كأنه قيل وخيل الغزاة التى فعلت كيت وكيت وقد أرجف هؤلاء فى حق أربابها ما أرجفوا أنهم مبالغون فى الكفران ﴿ وإنه على ذلك ﴾ أى وإن الإنسان على كنوده ﴿ لشهيد ﴾ يشهد على نفسه بالكنود لظهور أثره عليه ﴿ وإنه لحب الخير ﴾ أى المال كما فى قوله تعالى إن ترك خيرا ﴿ لشديد ﴾ أى قوى مطيق مجد فى طلبه وتحصيله متهالك عليه يقال هو شديد لهذا الأمر وقوى له إذا كان مطيقا له ضابطا وقيل الشديد البخيل أى إنه لأجل حب المال وثقل إنفاقه عليه لبخيل ممسك ولعل وصفه بهذا الوصف القبيح بعد وصفه بالكنود للإيماء إلى أن من جملة الأمور الداعية للمنافقين إلى النفاق حب المال لأنهم بما يظهرون من الإيمان يعصمون أموالهم ويحوزون من الغنائم نصيبا وقوله تعالى :

﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ﴾ الخ تهديد ووعيد والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيفعل ما يفعل من القبائح أو ألا يلاحظ فلا يعلم حاله إذا بعث من فى القبور من الموتى وإيراد ما لكونهم إذ ذاك بمعزل عن رتبة العقلاء وقرىء بحثر وبحث وبحثر وبحث على بنائهما للفاعل ﴿ وحصل ﴾ أى جمع محصلا أو ميز خيره من شره وقرىء وحصل مبنيا للفاعل وحصل مخففا ﴿ ما فى الصدور ﴾ من الأسرار الخفية التى من جملتها ما يخفيه المنافقون من الكفر والمعاصى فضلا عن الأعمال الجلية ﴿ إن ربهم ﴾ أى المبعوثين كنى عنهم بعد الإحياء الثانى بضمير العقلاء بعد ما عبر عنهم قبل ذلك بما بناء على تفاوتهم فى الحالين كما فعل نظيره بعد الإحياء الأول حيث

التفت إلى الخطاب فى قوله تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار) الآية بعد قوله (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) إيذانا بصلاحيتهم للخطاب بعد نفخ الروح وبعدمها قبله كما أشير إليه هناك ﴿ بهم ﴾ بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاصيلها ﴿ يومئذ ﴾ يوم إذ يكون ما ذكر من بعث ما فى القبور وتحصيل ما فى الصدور ﴿ لخبير ﴾ أى عالم بظواهر ما عملوا وبواطنه علما موجبا للجزاء متصلا به كما ينبىء عنه تقييده بذلك اليوم وإلا فمطلق علمه سبحانه محيط بما كان وما سيكون وقوله تعالى بهم ويومئذ متعلقان بخبير قدما عليه لمراعاة الفواصل واللام غير مانعة من ذلك وقرأ ابن السماك إن ربهم بهم يومئذ خبير .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والعاديات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بمزدلفة وشهد جمعا .

* * *

سورة القارعة

مكية ، وآيها عشر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ القارعة ﴾ القرع هو الضرب بشدة واعتماد بحيث يحصل منه صوت شديد وهى القيامة التى مبدؤها النفخة الأولى ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق كما مر فى سورة التكوير سميت بها لأنها تقرع القلوب والأسماع بفنون الأفزاع والأهوال وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال السماء بالانشقاق والانفطار والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتشار والأرض بالزلزال والتبديل والجبال بالدك والنسف وهى مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ ما القارعة ﴾ على أن ما الاستفهامية خبر القارعة مبتدأ لا بالعكس لما مر غير مرة أن محط الفائدة هو الخبر لا المبتدأ ولا ريب فى أن مدار إفادة الهول

والفخامة ههنا هو كلمة ما لا القارعة أى أى شىء عجيب هى فى الفخامة والفظاعة وقد وضع الظاهر موضع الضمير تأكيداً لهولها وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق على معنى أن عظم شأنها ومدى شدتها بحيث لا تكاد تناله دراية أحد حتى يدريك بها وما فى حيز الرفع على الابتداء وأدراك هو الخبر ولا سبيل إلى العكس ههنا وما القارعة جملة كما مر محلها النصب على نزع الخافض لأن أدرى يتعدى إلى المفعول الثانى بالباء كما فى قوله تعالى (ولا أدراكم به) فلما وقعت الجملة الاستفهامية معلقة له كانت فى موقع المفعول الثانى له والجملة الكبيرة معطوفة على ما قبلها من الجملة الواقعة خبراً للمبتدأ الأول أى وأى شىء أعلمك ما شأن القارعة ولما كان هذا منبئا عن الوعد الكريم بإعلامها أنجز ذلك بقوله تعالى :

﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ على أن يوم مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف وحركته الفتح لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعا كما هو رأى الكوفيين أى هى يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث فى الكثرة والانتشار والضعف والذلة والاضطراب والتطاير إلى الداعى كتطاير الفراش إلى النار أو منصوب باضمار اذكر كأنه قيل بعد تفخيم أمر القارعة وتشويقه عليه الصلاة والسلام إلى معرفتها اذكر يوم يكون الناس الخ فإنه يدريك ماهى هذا وقد قيل إنه ظرف ناصبه مضمر[1] يدل عليه القارعة أى تقرع يوم يكون الناس الخ وقيل تقديره ستأتيكم القارعة يوم يكون الخ ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ أى كالصوف الملون بالألوان المختلفة المندوف فى تفرق أجزائها وتطايرها فى الجو حسبما نطق به قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) وكلا الأمرين من آثار القارعة بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدل الله عز وجل الأرض غير الأرض ويغير هيئاتها ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئات الهائلة ليشاهدها أهل المحشر وهى وإن

---

(١) فى ١١ : نصب بمضمر .

اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية كما ينطق به قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعى) وقوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الوحد القهار) فإن اتباع الداعى الذى هو إسرافيل عليه السلام وبروز الخلق لله سبحانه لا يكون إلا بعد البعث قطعا وقدمر تمام الكلام فى سورة النمل وقوله تعالى ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ الخ بيان إجمالى لتحزب الناس إلى حزبين وتنبيه على كيفية الأحوال الخاصة بكل منهما إثر بيان الأحوال الشاملة للكل والموازين إما جمع الموزون وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله كما قاله الفراء أو جمع ميزان قال ابن عباس رضى الله عنهما إنه ميزان له لسان وكفتان لا يوزن فيه إلا الأعمال قالوا توضع فيه صحائف الأعمال فينظر اليه الخلائق إظهاراً للمعدلة وقطعا للمعذرة وقيل الوزن عبارة عن القضاء السوى والحكم العادل وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك واختاره كثير من المتأخرين قالوا إن الميزان لا يتوصل به إلا إلى معرفة مقادير الأجسام فكيف يمكن أن يعرف به مقادير الأعمال التى هى أعراض منقضية وقيل إن الأعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة وبالأعمال السيئة على صور قبيحة فتوضع فى الميزان أى فمن ترجحت مقادير حسناته[1] ﴿فهو فى عيشة راضية﴾ أى ذات رضا أو مرضية ﴿وأما من خفت موازينه﴾ بأن لم يكن له حسنة يعتد بها أو ترجحت سيئاته على حسناته ﴿فأمه﴾ أى فمأواه ﴿هاوية﴾ هى من أسماء النار سميت بها لغاية عمقها وبعد مهواها .

روى أن أهل النار تهوى فيها سبعين خريفا وقيل إنها اسم للباب الأسفل منها وعبر عن المأوى باللام لأن أهلها يأوون إليها كما يأوى الولد إلى أمه وعن

(١) انظر باب الميزان من البدور للسيوطى ففيه تفصيلات وافية .

قتادة وعكرمة والكلبي أن المعنى فأم رأسه هاوية فى قعر جهنم لأنه يطرح فيها منكوسا والأول هو الموافق لقوله تعالى ﴿ وما أدراك ماهيه نار حامية ﴾ فإنه تقرير لها بعد إبهامها والإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة للتفخيم والتهويل وهى ضمير الهاوية والهاء للسكت وإذا وصل القارىء حذفها وقيل حقه أن لا يدرج لئلا يسقطها الإدراج لأنها ثابتة فى المصحف وقد أجيز إثباتها مع الوصل .

عن النبي صلى الله عليه وسلم « من قرأ القارعة ثقل الله تعالى به ميزانه يوم القيامة » .

* * *

سورة التكاثر

مختلف فيها ، وآيها ثمان

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ أى شغلكم التغالب فى الكثرة والتفاخر بها . روى أن بنى عبد مناف وبنى سهم تفاخروا وتعادوا وتكاثروا بالسادة والأشراف فى الإسلام فقال كل من الفريقين نحن أكثر منكم سيدا وأعز عزيزا وأعظم نفرا فكثرهم بنو عبد مناف فقال بنو سهم إن البغى أفنانا فى الجاهلية فعادونا بالأحياء والأموات فكثرهم بنو سهم والمعنى أنكم تكاثرتم بالأحياء ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ أى حتى إذا استوعبتم عددهم صرتم إلى التفاخر والتكاثر بالأموات فعبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة القبور تهكما بهم وقيل كانوا يزورون المقابر فيقولون هذا قبر فلان وهذا قبر فلان يفتخرون بذلك وقيل المعنى ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم مضيعين أعماركم فى طلب الدنيا معرضين عما يهمكم من السعى لأخراكم فتكون زيارة القبور عبارة عن الموت وقرىء أألهاكم على الاستفهام التقريرى ﴿ كلا ﴾ ردع وتنبيه على

أن العاقل ينبغى أن لا يكون معظم همه مقصورا على الدنيا فإن عاقبة ذلك وخيمة ﴿ سوف تعلمون ﴾ سوء مغبة ما أنتم عليه إذا عاينتم عاقبته .

﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ تكرير للتأكيد وثم للدلالة على أن الثانى أبلغ من الأول أو الأول عند الموت أو فى القبر والثانى عند النشور ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ أى لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين أى كعلمكم ما تستيقنونه لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه فحذف الجواب للتهويل وقوله تعالى ﴿ لترون الجحيم ﴾ جواب قسم مضمر أكد به له الوعيد وشدد به التهديد وأوضح به ما أنذروه بعد إبهامه تفخيما ﴿ ثم لترونها ﴾ تكرير للتأكيد أو الأولى إذا رأتهم من مكان بعيد والثانية إذا وردوها أو المراد بالأولى المعرفة وبالثانية المشاهدة والمعاينة ﴿ عين اليقين ﴾ (١) أى الرؤية التى هى نفس اليقين فإن علم المشاهدة أقصى مراتب اليقين ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ أى عن النعيم الذى ألهاكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه فإن الخطاب مخصوص بمن عكف همته على استيفاء اللذات ولم يعش إلا ليأكل الطيب ويلبس اللين ويقطع أوقاته باللهو والطرب لا يعبأ بالعلم والعمل ولا يحمل نفسه مشاقهما فأما من تمتع بنعمة الله تعالى وتقوى بها على طاعته وكان ناهضا بالشكر فهو من ذلك بمعزل بعيد وقيل الآية مخصوصة بالكفار . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التكاثر لم يحاسبه الله تعالى بالنعيم الذى أنعم به عليه فى دار الدنيا وأعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آية .

* * *

(١) علم اليقين هو شهود الغيب كأنه محسوس كما فى حديث حذيفة وعين اليقين التحقيق بهذا اليقين ذوقا .

سورة والعصر
مكية ، وآيها ثلاث

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والعصر ﴾ أقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها الباهر أو بالعشى الذى هو ما بين الزوال والغروب كما أقسم بالضحى أو بعصر النبوة لظهور فضله على سائر الأعصار أو بالدهر لانطوائه على تعاجيب الأمور القارة والمارة ﴿ إن الإنسان لفى خسر ﴾ أى خسران فى متاجرهم ومساعيهم وصرف أعمارهم فى مباغيهم والتعريف للجنس والتنكير للتعظيم ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فإنهم فى تجارة لن تبور حيث باعوا الفانى الخسيس واشتروا الباقى النفيس واستبدلوا الباقيات الصالحات بالعاديات الرائحات فيالها من صفقة ما أربحها وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم وقوله تعالى ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ الخ بيان لتكميلهم لغيرهم أى وصى بعضهم بعضا بالأمر الثابت الذى لا سبيل إلى إنكاره ولا زوال فى الدارين لمحاسن آثاره وهو الخير كله من الإيمان بالله عز وجل واتباع كتبه ورسله فى كل عقد وعمل ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ أى عن المعاصى التى تشتاق إليها النفس بحكم الجبلة البشرية وعلى الطاعات التى يشق عليها أداؤها أو على ما يبلو الله عز وجل به عباده وتخصيص هذا التواصى بالذكر مع اندراجه تحت التواصى بالحق لإبراز كمال الاعتناء(١) به أو لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة التى هى فعل ما يرضى به الله تعالى والثانى عن رتبة العبودية التى هى الرضا بما فعل الله تعالى فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتشوق إليه من فعل وترك بل هو تلقى ماورد منه تعالى بالجميل والرضا به ظاهرا وباطنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والعصر غفر الله تعالى له وكان ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر .

---

(١) فى ١١ : العناية به .

سورة الهمزة

مكية ، وآيها تسع

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ويل ﴾ مبتدأ خبره ﴿ لكل همزة لمزة ﴾ وساغ الابتداء به مع كونه نكرة لأنه دعاء عليهم بالهلكة أو بشدة الشر والهمز الكسر كالهزم واللمز الطعن كاللهز شاعا فى الكسر من أعراض الناس والطعن فيهم وبناء فعلة للدلالة على أن ذلك منه عادة مستمرة قد ضرى بها وكذلك اللعنة والضحكة وقرىء لكل همزة لمزة بسكون الميم وهو المسخرة الذى يأتى بالأضاحيك فيضحك منه ويستهزأ به وقيل نزلت فى الأخنس بن شريق فإنه كان ضاريا بالغيبة والوقيعة وقيل فى أمية بن خلف وقيل فى الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وغضه من جنابه الرفيع واختصاص السبب لا يستدعى خصوص الوعيد بهم بل كل من اتصف بوصفهم القبيح فله ذنوب منه مثل ذنوبهم ﴿ الذى جمع مالا ﴾ بدل من كل أو منصوب أو مرفوع على الذم وقرىء جمع بالتشديد للتكثير وتنكير مالا للتفخيم والتكثير الموافق لقوله تعالى ﴿ وعدده ﴾ وقيل معنى عدده جعله عدة لنوائب الدهر وقرىء وعدده أى جمع المال وضبط عدده أو جمع ماله وعدده الذين ينصرونه من قولك فلان ذو عدد وعدد إذا كان له عدد وافر من الأنصار والأعوان وقيل هو فعل ماض بفك الإدغام ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ أى يعمل عمل من يظن أن ماله يبقيه حيا والإظهار فى موقع الإضمار لزيادة التقرير وقيل طول المال أمله ومناه الأمانى البعيدة حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أن المال تركه خالدا فى الدنيا لا يموت وقيل هو تعريض بالعمل الصالح والزهد فى الدنيا وأنه هو الذى أخلد صاحبه فى الحياة الأبدية والنعيم المقيم فأما المال فليس بخالد لا بمخلد وروى أن الأخنس كان له أربعة آلاف دينار وقيل عشرة آلاف والجملة مستأنفة أوحال من فاعل

جمع ﴿ كلا ﴾ ردع له عن ذلك الحسبان الباطل وقوله تعالى ﴿ لينبذن ﴾ جواب قسم مقدر والجملة استئناف مبين لعلة الردع أى والله ليطرحن بسبب تعاطيه للأفعال المذكورة ﴿ فى الحطمة ﴾ أى فى النار التى شأنها أن تحطم وتكسر كل ما يلقى فيها كما أن شأنه كسر أعراض الناس وجمع المال .

وقوله تعالى ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ لتهويل أمرها ببيان أنها ليست من الأمور التى تنالها عقول الخلق ، وقوله تعالى ﴿ نار الله ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة بيان لشأن المسئول عنها أى هى نار الله ﴿ الموقدة ﴾ بأمر الله عز سلطانه وفى إضافتها إليه سبحانه ووصفها بالإيقاد من تهويل أمرها ما لا مزيد عليه ﴿ التى تطلع على الأفئدة ﴾ أى تعلو أوساط القلوب وتغشاها وتخصيصها بالذكر لما أن الفؤاد ألطف ما فى الجسد وأشده تألما بأدنى أذى يمسه أو لأنه محل العقائد الزائغة والنيات الخبيثة ومنشأ الأعمال السيئة .

﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أى مطبقة من أوصدت الباب وآصدته أى أطبقته ﴿ فى عمد ممددة ﴾ إما حال من الضمير المجرور فى عليهم أى كائنين فى عمد ممددة أى موثقين فيها مثل المقاطر التى تقطرفيها اللصوص أو خبر مبتدأ مضمر أى هم فى عمد أو صفة لمؤصدة قاله أبو البقاء أى كائنة فى عمد ممدودة بأن تؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد استيثاقا فى استيثاق اللهم أجرنا منها ياخير مستجار[1] وقرىء عمد بضمتين . عن النبى صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد وأصحابه »[2] .

(١) فى ١١ : مجير

(٢) اليافعى فى فضائل القرآن وفيه إسماعيل بن عياش تكلم فيه كثيرا

سورة الفيل

مكية ، وآيها خمس

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة لتقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام بإنكار عدمها وكيف معلقة لفعل الرؤية منصوبة بما بعدها والرؤية علمية أى ألم تعلم علما رصينا متاخما للمشاهدة والعيان باستماع الأخبار المتواترة ومعاينة الآثار الظاهرة وتعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لا بنفسه بأن يقال ألم تر ما فعل ربك الخ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام فإن ذلك من الإرهاصات لما روى أن القصة وقعت فى السنة التى ولد فيها النبى عليه الصلاة والسلام وتفصيلها أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشى بنى بصنعاء كنيسة وسماها القليس وأراد أن يصرف إليها الحاج فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلا فأغضبه ذلك وقيل أججت رفقة من العرب نارا فحملتها الريح فأحرقتها فحلف ليهدمن الكعبة فخرج مع جيشه ومعه فيل له اسمه محمود وكان قويا عظيما واثنا عشر فيلا غيره وقيل ثمانية وقيل ألف وقيل كان معه وحده فلما بلغ المغمس خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى وعبأ جيشه وقدم الفيل فكان كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هرول فأرسل الله تعالى طيراً سوداً وقيل خضراً وقيل بيضاً مع كل طائر حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ففروا فهلكوا فى كل طريق ومنهل وروى أن أبرهة تساقطت أنامله

وآرابه وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره أبويكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بين يديه وقيل إن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتى بعير فخرج إليه فى شأنها فلما رآه أبرهة عظم فى عينه وكان رجلا وسيماً جسيماً وقيل هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذى يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رؤس الجبال فنزل أبرهة عن سريره وجلس على بساطه وقيل أجلسه معه على سريره ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك فلما ذكر حاجته قال سقطت من عينى حيث جئت لأهدم البيت الذى هو دينك ودين آبائك وعصمتكم وشرفكم فى قديم الدهر لا تكلمنى فيه ألهاك عنه ذود أخذت لك فقال عبد المطلب أنا رب الإبل وإن للبيت ربا يحميه ثم رجع وأتى باب الكعبة فأخذ بحلقته ومعه نفر من قريش يدعون الله عز وجل فالتفت وهو يدعو فإذ هو بطير من نحو اليمن فقال والله إنها لطير غريبة ما هى نجدية ولا تهامية فأرسل حلقة الباب ثم انطلق مع أصحابه ينتظرون ماذا يفعل أبرهة فأرسل الله تعالى عليهم الطير فكان ما كان وقيل كان أبرهة جد النجاشى الذى كان فى زمن النبي عليه الصلاة والسلام وعن عائشة رضى الله عنها قالت رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان(١) وقرىء ألم تر بسكون الراء للجد فى إظهار أثر الجازم وقوله تعالى ﴿ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ﴾ الخ بيان إجمالى لما فعله الله تعالى بهم والهمزة للتقرير كما سبق ولذلك عطف على الجملة الاستفهامية ما بعدها كأنه قيل قد جعل كيدهم فى تعطيل الكعبة وتخريبها فى تضييع وإبطال بأن دمرهم أشنع تدمير ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ أى طوائف وجماعات جمع أبالة وهى الحزمة الكبيرة شبهت بها الجماعة من الطير فى تضامها وقيل أبابيل مثل عبابيد وشماطيط لا واحد لها ﴿ ترميهم بحجارة ﴾ صفة لطيراً وقرىء يرميهم بالتذكير لأن الطير اسم

(١) أبو نعيم فى الدلائل من طرق . وابن أبى حاتم والبيهقى ، والسيوطى فى الخصائص .

جمع تأنيثه باعتبار المعنى ﴿ من سجيل ﴾ من طين متحجر معرب سنك كل وقيل كأنه علم للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار كما أن سجينا علم للديوان الذى يكتب فيه أعمالهم كأنه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ كورق زرع وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود أو أكل حبه فبقى صفرا منه أو كتبن أكلته الدواب وراثته أشير إليه بأول أحواله . عن النبي صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الفيل أعفاه الله تعالى أيام حياته من الخسف والمسخ » والله أعلم .

* * *

سورة قريش

مكية ، وآيها أربع

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ لإيلاف قريش ﴾ متعلق بقوله تعالى فليعبدوا والفاء لما فى الكلام من معنى الشرط إذ المعنى أن نعم الله تعالى عليهم غير محصورة فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة وقيل بمضمر تقديره فعلنا ما فعلنا من إهلاك أصحاب الفيل لإيلاف الخ وقيل تقديره أعجبوا لإيلاف الخ وقيل بما قبله من قوله تعالى (فجعلهم كعصف مأكول) ويؤيده أنهما فى مصحف أبى سورة واحدة بلا فصل والمعنى أهلك من قصدهم من الحبشة ليتسامع الناس بذلك فيتهيبوا لهم زيادة تهيب ويحترموهم فضل احترام حتى ينتظم لهم الأمن فى رحلتيهم فلا يجترىء عليهم أحد وكانت لقريش رحلتان يرحلون فى الشتاء إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام فيمتارون ويتجرون وكانوا فى رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله تعالى وولاة بيته العزيز فلا يتعرض لهم والناس بين متخطف ومنهوب

والإيلاف من قولك آلفت المكان إيلافا إذا ألفته وقرىء لإلاف قريش أى لمؤالفتهم وقيل يقال ألفته ألفا وألافا وقرىء لألف قريش وقريش ولد النضر بن كنانة سموا بتصغير القرش وهو دابة عظيمة فى البحر تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار والتصغير للتعظيم وقيل من القرش وهو الكسب لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم فى البلاد وقوله تعالى :

﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ بدل من الأول ورحلة مفعول لإيلافهم وإفرادها مع أن المراد رحلتى الشتاء والصيف لأمن الإلباس وفى إطلاق الإيلاف عن المفعول أولا وإبدال هذا منه تفخيم لأمره وتذكير لعظيم النعمة فيه وقرىء ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف وقرىء رحلة بالضم وهى الجهة التى يرحل إليها ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم ﴾ بسبب تينك الرحلتين اللتين تمكنوا فيهما بواسطة كونهم من جيرانه ﴿ من جوع ﴾ شديد كانوا فيه قبلهما وقيل أريد به القحط الذى أكلوا فيه الجيف والعظام ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ عظيم لا يقادر قدره وهو خوف أصحاب الفيل أو خوف التخطف فى بلدهم [وفى](١) مسايرهم وقيل خوف الجذام فلا يصيبهم فى بلدهم .

عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة قريش أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها .

* **

(١) سقطت من الأصل .

سورة المـاعون

مختلف فيها وآيها سبع

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين ﴾ استفهام أريد به تشويق السامع إلى معرفة من سيق له الكلام والتعجيب منه والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لكل عاقل والرؤية بمعنى المعرفة وقرىء أرأيتك بزيادة حرف الخطاب والفاء فى قوله تعالى ﴿ فذلك الذى يدع اليتيم ﴾ جواب شرط محذوف على أن ذلك مبتدأ والموصول خبره والمعنى هل عرفت الذى يكذب بالجزاء أو بالإسلام إن لم تعرفه أو إن أردت أن تعرفه فهو الذى يدفع اليتيم دفعا عنيفا ويزجره زجرا قبيحا ووضع اسم الإشارة المتعرض لوصف المشار إليه موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم والتنبيه بما فيه من معنى البعد على بعد منزلته فى الشر والفساد قيل هو أبو جهل كان وصيا ليتيم فأتاه عريانا يسأله من مال نفسه فدفعه دفعا شنيعا وقيل أبو سفيان نحر جزورا فسأله يتيم لحما فقرعه بعصاه وقيل هو الوليد ابن المغيرة وقيل هو العاص بن وائل السهمى وقيل هو رجل بخيل من المنافقين وقيل الموصول على عمومه وقرىء يدع اليتيم أى يتركه[1] ويجفوه ﴿ ولا يحض ﴾ أى أهله وغيرهم من الموسرين ﴿ على طعام المسكين ﴾ وإذا كان حال من ترك حث غيره على ما ذكر فما ظنك بحال من ترك ذلك مع القدرة عليه والفاء فى قوله تعالى ﴿ فويل ﴾ الخ إما لربط ما بعدها بشرط محذوف كأنه قيل إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين من دلائل التكذيب بالدين وموجبات الذم والتوبيخ فويل ﴿ للمصلين الذين هم عن صلوتهم ساهون ﴾ غافلون غير مبالين بها ﴿ الذين هم يراءون ﴾ أى يرون الناس أعمالهم ليروهم الثناء عليها

---

(١) فى ١١ : أى يدعه بمعنى يتركه .

﴿ ويمنعون الماعون ﴾ أى الزكاة أو ما يتعاور عادة فان عدم المبالاة باليتيم والمسكين حيث كان كما ذكر فعدم المبالاة بالصلاة التى هى عماد الدين والرياء الذى هو شعبة من الكفر ومنع الزكاة التى هى قنطرة الإسلام وسوء المعاملة مع الخلق أحق بذلك وإما لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذكر من قبائحهم ووضع المصلين موضع ضميرهم ليتوسل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخر غير ما ذكر . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الدين غفر له إن كان للزكاة مؤديا .

***

سورة الكوثر

مكية ، وآيها ثلاث

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إنا أعطيناك ﴾ وقرىء أنطيناك ﴿ الكوثر ﴾ أى الخير المفرط الكثير من شرف النبوة الجامعة لخيرى الدارين والرياسة العامة المستتبعة لسعادة الدنيا والدين فوعل من الكثرة وقيل هو نهر فى الجنة وعن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قرأها فقال أتدرون ما الكوثر إنه نهر فى الجنة وعدنيه ربى فيه خير كثير وروى فى صفته أنه أحلى من العسل وأشد بياضا من اللبن وأبرد من الثلج وألين من الزبد حافتاه الزبرجد وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء وروى لا يظمأ من شرب منه أبدا أول وارديه فقراء المهاجرين الدنسو الثياب الشعث الرؤس الذين لا يزوجون المنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد يموت أحدهم وحاجته تتلجلج فى صدره لو أقسم على الله لأبره (١) وعن ابن عباس رضى الله عنهما

---

(١) أخرجه السيوطى فى البدور ورقة ٢١٥ .

أنه فسر الكوثر بالخير الكثير فقال له سعيد بن جبير فان ناسا يقولون هو نهر فى الجنة فقال هو من الخير الكثير وقيل هو حوض فيها وقيل هو أولاده وأتباعه أو علماء أمته أو القرآن الحاوى لخير الدنيا والدين والفاء فى قوله تعالى ﴿فصل لربك﴾ لترتيب ما بعدها على ماقبلها فان إعطاءه تعالى إياه عليه السلام ما ذكر من العطية التى لم يعطها ولن يعطيها أحدا من العالمين مستوجب للمأمور به أى استيجاب أى فدم على الصلاة لربك الذى أفاض عليك هذه النعمة الجليلة التى لا يضاهيها نعمة خالصة لوجهه خلاف الساهين عنها المرائين فيها أداء لحقوق شكرها فإن الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر ﴿وانحر﴾ البدن التى هى خيار أموال العرب باسمه تعالى وتصدق على المحاويج خلافا لمن يدعهم ويمنع عنهم الماعون وعن عطية هى صلاة الفجر بجمع والنحر بمنى وقيل صلاة العيد والتضحية وقيل هى جنس الصلاة والنحر وضع اليمين على الشمال وقيل هو أن يرفع يديه فى التكبير إلى نحره هو المروى عن النبى عليه الصلاة والسلام وعن ابن عباس رضى الله عنهما استقبل القبلة بنحرك وهو قول الفراء والكلبى وأبى الأحوص ﴿إن شانئك﴾ أى مبغضك كائنا من كان ﴿هو الأبتر﴾ الذى لا عقب له حيث لا يبقى منه نسل ولا حسن ذكر وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة ولك فى الآخرة مالا يندرج تحت البيان وقيل نزلت فى العاص بن وائل وأيا ما كان فلا ريب فى عموم الحكم . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكوثر سقاه الله تعالى من كل نهر فى الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد فى يوم النحر (١) .

---

(١) أخرجه القرطبى فى التذكار عن ابن عمر .

سورة الكافرون
مكية ، وآيها ست

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ هم كفرة مخصوصون قد علم الله تعالى أنه لا يتأتى منهم الإيمان أبدا . روى أن رهطا من عتاة قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فقال معاذ الله أن أشرك بالله غيره فقالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك فنزلت فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤسهم فقرأها عليهم فأيسوا ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ أى فيما يستقبل لأن «لا» لا تدخل غالبا إلا على مضارع فى معنى الاستقبال كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الحال والمعنى لا أفعل فى المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهتكم ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أى ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهى ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ أى وما كنت قط عابدا فيما سلف ما عبدتم فيه أى لم يعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية فكيف ترجى منى فى الإسلام ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾(١) أى وما عبدتم فى وقت من الأوقات ما أنا على عبادته وقيل هاتان الجملتان لنفى العبادة حالا كما أن الأولين لنفيها استقبالا وإنما لم يقل ما عبدت ليوافق ما عبدتم لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوما بعبادة الله تعالى وإيثار ما فى أعبد على من لأن المراد هو الوصف كأنه قيل ما أعبد من المعبود العظيم الشأن الذى لا يقادر قدر عظمته وقيل إن ما مصدرية أى لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى وقيل الأوليان بمعنى الذى والأخريان مصدريتان وقيل قوله تعالى (ولا أنا

---

(١) انظر متشابه القرآن للقسطلانى خط ورقة ٨٠ .

عابد ما عبدتم) تأكيد لقوله تعالى (لا أعبد ما تعبدون) وقوله تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ثانيا تأكيد لمثله المذكور أولا وقوله تعالى ﴿ لكم دينكم ﴾ تقرير لقوله تعالى (لا أعبد ما تعبدون) وقوله تعالى(ولا أنا عابد ماعبدتم) كما أن قوله تعالى ﴿ ولى دين ﴾ تقرير لقوله تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) والمعنى أن دينكم الذى هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول لى أيضا كما تطمعون فيه فلا تعلقوا به أمانيكم الفارغة فإن ذلك من المحالات وأن دينى الذى هو التوحيد مقصور على الحصول لى لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضا لأنكم علقتموه بالمحال الذى هو عبادتى لآلهتكم أو استلامى إياها ولأن ما وعدتموه عين الإشراك وحيث كان مبنى قولهم تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة على شركة الفريقين فى كلتا العبادتين كان القصر المستفاد من تقديم المسند قصر إفراد حتما ويجوز أن يكون هذا تقريرا لقوله تعالى (ولا أنا عابد ما عبدتم) أى ولى دينى لا دينكم كما هو فى قوله تعالى (ولكم ما كسبتم) وقيل المعنى إنى نبى مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة فإذا لم تقبلوا منى ولم تتبعونى فدعونى كفافا ولا تدعونى إلى الشرك فتأمل .

عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرىء من الشرك وتعافى من الفزع الأكبر .

* * *

﴿ ســـورة النصر ﴾

مدنية ، وآيها ثلاث

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ أى إعانته تعالى وإظهاره إياك على عدوك ﴿ والفتح ﴾ أى فتح مكة وقيل جنس نصر الله تعالى ومطلق الفتح فان فتح مكة لما كان مفتاح الفتوح ومناطها كما أن نفسها أم القرى وإمامها جعل مجيئه بمنزلة مجىء سائر الفتوح وعلق به أمره عليه السلام بالتسبيح والحمد والتعبير عن حصول النصر والفتح بالمجىء للايذان بأنهما متوجهان نحوه عليه السلام وأنهما على جناح الوصول إليه عليه السلام عن قريب . روى أنها نزلت قبل الفتح وعليه الأكثر وقيل فى أيام التشريق بمنى فى حجة الوداع فكلمة إذا حينئذ باعتبار أن بعض مافى حيزها أعنى رؤية دخول الناس الخ غير منقض بعد وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان ومع النبى عليه الصلاة والسلام عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب وأقام بها خمس عشرة ليلة وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثم قال يا أهل مكة ما ترون أنى فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فياء ولذلك سمى أهل مكة الطلقاء ثم بايعوه على الإسلام ثم خرج إلى هوازن(١) ﴿ ورأيت الناس ﴾ أى أبصرتهم أو علمتهم ﴿ يدخلون فى دين الله ﴾ أى ملة الإسلام التى لا دين يضاف إليه تعالى غيرها والجملة على الأول حال من الناس وعلى الثانى مفعول ثان لرأيت وقوله تعالى ﴿ أفواجا ﴾ حال من فاعل يدخلون أى يدخلون فيه جماعات كثيفة كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب وكانوا قبل ذلك يدخلون فيه واحداً واحدا واثنين اثنين . روى

(١) تفاصيل الخبر فى عيون الأثر لابن سيد الناس ص ٢٤٠

أنه عليه السلام لما فتح مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا إذا ظفر بأهل الحرم فلن يقاومه أحد وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل ومن كل من أرادهم فكانوا يدخلون فى دين الإسلام أفواجا من غير قتال وقرىء فتح الله والنصر وقرىء يدخلون على البناء للمفعول ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ فقل سبحان الله حامدا له أو فتعجب لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببال أحد من أن يغلب أحد على أهل حرمه المحترم واحمده على جميل صنعه هذا على الرواية الأولى ظاهر وأما على الثانية فلعله عليه السلام أمر بأن يداوم على ذلك استعظاما لنعمه لا بإحداث التعجب لما ذكر فإنه إنما يناسب حالة الفتح أو فاذكره مسبحا حامدا زيادة فى عبادته والثناء عليه لزيادة إنعامه عليك أو فصل له حامدا على نعمه روى أنه لما فتح باب الكعبة صلى الصلاة مضحى ثمان ركعات أو فنزهه عما يقوله الظلمة حامدا له على أن صدق وعده أو فأثن على الله تعالى بصفات الجلال حامدا له على صفات الإكرام ﴿ واستغفره ﴾ هضما لنفسك واستقصارا لعملك واستعظاما لحقوق الله تعالى واستدراكا لما فرط منك من ترك الأولى عن عائشة رضى الله عنها أنه كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك وأتوب إليك وعنه عليه السلام إنى لأستغفر فى اليوم والليلة مائة مرة وروى أنه لما قرأها النبى عليه الصلاة والسلام على أصحابه استبشروا وبكى العباس فقال عليه السلام ما يبكيك يا عم فقال نعيت إليك نفسك قال عليه السلام إنها لكما تقول(١) فلم ير عليه السلام بعد ذلك ضاحكا مستبشرا وقيل إن ابن عباس هو الذى قال ذلك فقال عليه السلام لقد أوتى هذا الغلام علما كثيرا ولعل ذلك للدلالة على تمام أمر الدعوة وتكامل أمر الدين كقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) وروى أنها لما نزلت خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن عبدا خيره الله تعالى بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء الله تعالى فعلم أبو بكر رضى الله عنه فقال فديناك بأنفسنا وآبائنا وأولادنا. وعنه عليه السلام أنه دعا فاطمة رضى الله عنها فقال يا بنتاه إنه نعيت

(١) فى سير السلف للأصبهانى أن هذا التفسير لابن عباس.

إلى نفسي فبكت فقال لا تبكى فإنك أول أهلي لحوقا بي وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن هذه السورة تسمى سورة التوديع وقيل هو أمر بالاستغفار[١] لأمته ﴿ إنه كان توابا ﴾ منذ خلق المكلفين أى مبالغا فى قبول توبتهم فليكن كل تائب مستغفر متوقعا للقبول عن النبى صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة النصر أعطى من الأجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة »[٢] .

• • •

سورة تبت

مكية ، وآيها خمس

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ تبت ﴾ أى هلكت ﴿ يدا أبى لهب ﴾ هو عبد العزى بن عبد المطلب وإيثار التباب على الهلاك وإسناده إلى يديه لما روى أنه لما نزل (وأنذر عشيرتك الأقربين) رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا وجمع أقاربه فأنذرهم فقال أبو لهب تبا لك ألهذا دعوتنا وأخذ حجرا ليرميه عليه السلام به ﴿ وتب ﴾ أى وهلك كله وقيل المراد بالأول هلاك جملته كقوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ومعنى وتب وكان ذلك وحصل كقول من قال :

جزانى جزاه الله شر جزائه جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

ويؤيده قراءة من قرأ وقد تب وقيل الأول إخبار عن هلاك عمله لأن الأعمال تزاول غالبا بالأيدى والثانى إخبار عن هلاك نفسه وقيل كلاهما دعاء عليه بالهلاك وقيل الأول دعاء والثانى إخبار وذكر كنيته للتعريض بكونه

---

(١) جميع هذه الأخبار أخرجه الأجهورى فى الإرشاد من طرق .

(٢) فى القرطبى فى التذكار عن أبى هريرة .

جهنميا ولاشتهاره بها ولكراهة ذكر اسمه القبيح وقرىء أبو لهب كما قيل على ابن أبو طالب وقرىء أبى لهب بسكون الهاء ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ أى لم يغن عنه حين حل به التباب على أن ما نافية أو أى شىء أغنى عنه على أنها استفهامية فى معنى الإنكار منصوبة بما بعدها أصل ماله وما كسبه من الأرباح والنتائج والمنافع والوجاهة والأتباع أو ماله الموروث من أبيه والذى كسبه بنفسه أو عمله الخبيث الذى هو كيده فى عداوة النبى عليه الصلاة والسلام أو عمله الذى ظن أنه منه على شىء كقوله تعالى (وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما كسب ولده وروى أنه كان يقول إن كان ما يقول ابن أخى حقا فأنا أفتدى منه نفسى بمالى وولدى فأستخلص منه وقد خاب مرجاه وما حصل ما تمناه فافترس ولده عتبة أسد فى طريق الشام بين العير المكتنفة به وقد كان عليه السلام دعا عليه وقال اللهم سلط عليه كلبا من كلابك وهلك نفسه بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال فاجتنبه أهله مخافة العدوى وكانت قريش تتقيها كالطاعون فبقى ثلاثا حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه فكان الأمر كما أخبر به القرآن ﴿ سيصلى ﴾ بفتح الياء وقرىء بضمها وفتح اللام بالتخفيف والتشديد والسين لتأكيد الوعيد وتشديده أى سيدخل لا محالة بعد هذا العذاب العاجل فى الآخرة ﴿ ناراً ذات لهب ﴾ أى نارا عظيمة ذات اشتعال وتوقد وهى نار جهنم وليس هذا نصا فى أنه لا يؤمن أبدا حتى يلزم تكليفه الإيمان بالقرآن مكلفا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن أبدا فيكون مأمورا بالجمع بين النقيضين كما هو المشهور فإن صلى النار غير مختص بالكفار فيجوز أن يفهم أبو لهب منه هذا أن دخوله النار لفسقه ومعاصيه لا لكفره فلا اضطرارا إلى الجواب المشهور من أن ما كلفه هو الإيمان بجميع ما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام إجمالا لا الإيمان بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم أن يكلف الإيمان بعدم إيمانه المستمر ﴿ وامرأته ﴾ عطف على المستكن فى سيصلى لمكان الفصل بالمفعول وهى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنثرها

بالليل فى طريق النبى عليه الصلاة والسلام وكان عليه السلام يطؤه كما يطأ الحرير
وقيل كانت تمشى بالنميمة ويقال لمن يمشى بالنمائم ويفسد بين الناس يحمل الحطب
بينهم أى يوقد بينهم النار ﴿حمالة الحطب﴾ بالنصب على الشتم والذم وقيل على الحالية
بناء على أن الإضافة غير حقيقية إذ المراد أنها تحمل يوم القيامة حزمة من
حطب جهنم كالزقوم والضريع وعن قتادة أنها مع كثرة مالها كانت تحمل
الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيرت بالبخل فالنصب حينئذ على الشتم حتما
وقرىء بالرفع على أنه خبر وامرأته مبتدأ وقرىء حمالة للحطب بالتنوين نصبا
ورفعا وقرىء مريئته بالتصغير للتحقير ﴿فى جيدها حبل من مسد﴾ جملة من
خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة حالية وقيل الظرف خبر لامرأته وحبل مرتفع
به على الفاعلية وقيل هو حال من امرأته على تقدير عطفها على ضمير سيصلى
وحبل فاعل كما ذكر والمسد ما يفتل من الحبال فتلا شديدا من ليف المقل وقيل
من أى ليف كان وقيل من لحاء شجر باليمن وقد يكون من جلود الإبل وأوبارها
والمعنى فى عنقها حبل مما مسد من الحبال وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها
فى جيدها كما يفعل الحطابون تخسيسا بحالها وتصويرا لها بصورة بعض الحطابات
من المواهن لتمتعض من ذلك ويتمعض بعلها وهما فى بيت العز والشرف قال
مرة الهمدانى كانت أم جميل تأتى كل يوم بإبالة من حسك فتطرحها على طريق
المسلمين فبينا هى ذات ليلة حاملة حزمة أعيت فقعدت على حجر لتستريح فجذبها
الملك من خلفها فاختنقت بحبلها . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة
تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبى لهب فى دار واحدة .

سورة الإخلاص

مختلف، فيها وآيها أربع

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ قل هو الله أحد ﴾ الضمير للشأن ومدار وضعه وموضعه مع عدم سبق ذكره الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد وإليه يشير كل مشير وإليه يعود كل ضمير كما ينبيء عنه اسمه الذى أصله القصد أطلق على المفعول مبالغة ومحله الرفع على الابتداء خبره والجملة بعده ولا حاجة إلى الربط لأنها عين الشأن الذى عبر عنه بالضمير والسر فى تصدير الجملة به التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها وجلالة حيزها مع ما فيه من زيادة تحقيق وتقرير فإن الضمير لا يفهم من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن مترقبا لما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن وهمزة أحد مبدلة من الواو وأصله وحد لا كهمزة ما يلازم النفى ويراد به العموم كما فى قوله تعالى (فما منكم من أحد عنه حاجزين) وما فى قوله (منكم من أحد عنه حاجزين) وما فى قوله عليه السلام ما أحلت الغنائم لأحد سود الرؤس غيركم فإنها أصلية وقال مكى أصل أحد واحد فأبدلت الواو همزة فاجتمع ألفان لأن الهمزة تشبه الألف فحذفت إحداهما تخفيفا وقال ثعلب إن أحد لا يبنى عليه العدد ابتداء فلا يقال أحد واثنان كما يقال واحد واثنان ولا يقال رجل أحد كما يقال رجل واحد ولذلك اختص به تعالى أو هو لما سئل عنه أى الذى سألتم عنه هو الله إذا روى أن قريشا قالوا صف لنا ربك الذى تدعونا إليه وانسبه فنزلت فالضمير مبتدأ والله خبره وأحد بدل منه أو خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف وقرىء هو الله أحد بغير قل وقرىء الله أحد بغير قل هو وقرىء قل هو الواحد وقوله تعالى ﴿ الله الصمد ﴾ مبتدأ وخبر والصمد فعل بمعنى مفعول

من يصمد إليه إذا قصده أى هو السيد المصمود إليه فى الحوائج المستغنى بذاته وكل ما عداه محتاج إليه فى جميع جهاته وقيل الصمد الدائم الباقى الذى لم يزل ولا يزال وقيل الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وتعريفه لعلمهم بصمديته بخلاف أحديته وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل من استحقاق الألوهية وتعرية الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى بين أولا ألوهيته عز وجل المستتبعة لكافة نعوت الكمال ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد والتركيب بوجه من الوجوه وتوهم المشاركة فى الحقيقة وخواصها ثم صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتى عما سواه وافتقار جميع المخلوقات إليه فى وجودها وبقائها وسائر أحوالها تحقيقا للحق وإرشادا لهم إلى سننه الواضح ثم صرح ببعض أحكام جزئية مندرجة تحت الأحكام السابقة فقيل ﴿لم يلد﴾ تنصيصا على إبطال زعم المفترين فى حق الملائكة والمسيح ولذلك ورد النفى على صيغة الماضى أى لم يصدر عنه ولد لأنه لا يجانسه شىء ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالد كما نطق به قوله تعالى (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة) ولا يفتقر إلى ما يعينه أو يخلفه لاستحالة الحاجة والفناء عليه سبحانه ﴿ولم يولد﴾ أى لم يصدر عنه شىء لاستحالة نسبة العدم سابقا ولاحقا والتصريح به مع كونهم معرفين بمضمونه لتقرير ما قبله وتحقيقه بالإشارة إلى أنهما متلازمان إذ المعهود أن ما يلد يولد وما لا فلا ومن قضية الاعتراف بأنه لا يلد فهو قريب من عطف لا يستقدمون على لا يستأخرون كما مر تحقيقه ﴿ولم يكن له كفوًا أحد﴾ أى لم يكافئه أحد ولم يماثله ولم يشاكله من صاحبة وغيرها وله صلة لكفوًا قدمت عليه مع أن حقها التأخر عنه للاهتمام بها لأن المقصود نفى المكافأة عن ذاته تعالى وقد جوز أن يكون خبرا لا صلة ويكون كفوًا حالا من أحد وليس بذاك وأما تأخير اسم كان فلمراعاة الفواصل ووجه الوصل بين هذه الجمل غنى عن البيان وقرىء بضم الكاف والفاء مع تسهيل الهمزة وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء هذا ولانطواء السورة الكريمة مع تقارب قطريها على أشتات المعارف الإلهية والرد على من ألحد فيها

ورد فى الحديث النبوى أنها تعدل ثلث القرآن فإن مقاصده منحصرة فى بيان العقائد والأحكام والقصص ومن عدلها بكلمة اعتبر المقصود بالذات منه. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد أى ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله تعالى ومعرفة صفاته التى نطقت بها هذه السورة . وعنه عليه السلام أنه سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد فقال وجبت فقيل وما وجبت يا رسول الله قال وجبت له الجنة(١) .

* * *

﴿ سـورة الفلق ﴾
مختلف ، فيهـا وآيها خمس

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ الفلق الصبح كالفرق لأنه يفلق عنه الليل وبفرق فعل بمعنى مفعول فإن كل واحد من المفلوق والمفلوق عنه مفعول وقيل هو ما انفلق من عموده وقيل هو كل ما يفلقه الله تعالى كالأرض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن الأمطار والحب والنوى عما يخرج منهما وغير ذلك وفى تعليق العياذ باسم الرب المضاف إلى الفلق المنبىء عن النور عقيب الظلمة والسعة بعد الضيق والفتق بعد الرتق عدة كريمة بإعاذة العائذ مما يعوذ منه وإنجائه منه وتقوية لرجائه بتذكير بعض نظائره ومزيد ترغيب له فى الجد والاعتناء بقرع باب الالتجاء إليه تعالى وأما الإشعار بأن من قدر أن يزيل ظلمة الليل من هذا العالم قدر أن يزيل عن العائذ ما يخافه كما قيل فلا إذ لا ريب للعائذ فى قدرته تعالى على ذلك حتى يحتاج إلى التنبيه عليها .

---

(١) أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن أبى هريرة من طريقيه .

﴿ من شر ما خلق ﴾ أى من شر ما خلقه من الثقلين وغيرهما كائنا ما كان من ذوات الطبائع والاختيار وهذا كما ترى شامل لجميع الشرور فمن توهم أن الاستعاذة ههنا من المضار البدنية وأنها تعم الإنسان وغيره مما ليس بصدد الاستعاذة ثم جعل عمومها مداراً لإضافة الرب إلى الفلق فقد نأى عن الحق بمراحل وإضافة الشر إليه لاختصاصه بعالم الخلق المؤسس على امتزاج المواد المتباينة وتفاعل كيفياتها المتضادة المستتبعة للكون والفساد وأما عالم الأمر فهو خير محض منزه عن شوائب الشر بالمرة وقوله تعالى ﴿ ومن شر غاسق ﴾ تخصيص لبعض الشرور بالذكر مع اندراجه فيما قبله لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه لكثرة وقوعه ولأن تعيين المستعاذ منه أدل على الاعتناء بالاستعاذة وأدعى إلى الإعادة أى ومن شر ليل معتكر ظلامه من قوله تعالى (إلى غسق الليل) وأصل الغسق الامتلاء يقال غسقت العين إذا امتلأت دمعا وقيل هو السيلان وغسق الليل انصباب ظلامه وغسق العين سيلان دمعها وإضافة الشر إلى الليل لملابسته له بحدوثه فيه وتنكيره لعدم شمول الشر لجميع أفراده ولا لكل أجزائه وتقييده بقوله تعالى ﴿ إذا وقب ﴾ أى دخل ظلامه فى كل شىء لأن حدوثه فيه أكثر والتحرز منه أصعب وأعسر ولذلك قيل الليل أخفى للويل وقيل الغاسق هو القمر إذا امتلأ ووقوبه دخوله فى الخسوف واسوداده لما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فأشار إلى القمر فقال تعوذى بالله تعالى من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب وقيل التعبير عن القمر بالغاسق لأن جرمه مظلم وإنما يستنير بضوء الشمس ووقوبه المحاق فى آخر الشهر والمنجمون يعدونه نحسا ولذلك لا يشتغل السحرة بالسحر المورث للتمريض إلا فى ذلك الوقت قيل وهو المناسب لسبب النزول وقيل الغاسق الثريا ووقوبها سقوطها لأنها إذا سقطت كثرت الأمراض والطواعين وقيل هو كل شر يعترى الإنسان ووقوبه هجومه .

﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ أى ومن شر النفوس أو النساء السواحر اللاتى يعقدن عقدا فى خيوط وينفثن عليها والنفث النفخ مع ريق وقيل بدون

ريق وقرىء النافثات كما قرىء النفثات بغير ألف وتعريفها إما للعهد أو للإيذان بشمول الشر لجميع أفرادهن وتمحضهن فيه وتخصيصه بالذكر لما روى ابن عباس وعائشة رضى الله عنهم أنه كان غلام من اليهود يخدم النبي عليه الصلاة والسلام وكان عنده أسنان من مشطه عليه السلام فأعطاها اليهود فسحروه عليه السلام فيها وتولاه لبيد بن الأعصم اليهودى وبناته وهن النافثات فى العقد فدفنها فى بئر أريس فمرض النبي عليه الصلاة والسلام فنزل جبريل عليه السلام بالمعوذتين وأخبره بموضع السحر وبمن سحره وبم سحره فأرسل عليه الصلاة والسلام عليا كرم الله وجهه والزبير وعمارا رضى الله عنهما فنزحوا ماء البئر فكأنه نقاعة الحناء ثم رفعوا أراعوثة البئر وهى الصخرة التى توضع فى أسفل البئر فأخرجوا من تحتها الأسنان ومعها وتر قد عقد فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالأبر فجاؤا بها النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقرأ المعوذتين عليها فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد عليه السلام خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين فقام عليه السلام كأنما أنشط من عقال فقالوا يا رسول الله أفلا نقتل الخبيث فقال عليه السلام أما أنا فقد عافانى الله عز وجل وأكره أن أثير على الناس شرا قالت عائشة رضى الله عنها ما غضب النبى عليه الصلاة والسلام غضبا ينتقم لنفسه قط إلا أن يكون شيئا هو لله تعالى فيغضب لله وينتقم وقيل المراد بالنفث فى العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من تليين العقدة بنفث الريق ليسهل حلها ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ أى إذا أظهر ما فى نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ومبادىء الأضرار بالمحسود قولا أو فعلا والتقييد بذلك لما أن ضرر الحسد قبله إنما يحيق بالحاسد لا غير .

عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التى أنزلها الله تعالى[1] .

(١) انظر تفاصيل أخرى فى سير السلف للأصفهانى ورقة ٢٤٠ خط .

سورة الناس

مختلف فيها ، وآيها ست

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ قل أعوذ ﴾ وقرىء فى السورتين بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام ﴿ برب الناس ﴾ أى مالك أمورهم ومربيهم بإفاضة ما يصلحهم ودفع ما يضرهم وقوله تعالى ﴿ ملك الناس ﴾ عطف بيان جىء به لبيان أن تربيته تعالى إياهم ليست بطريق تربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من مماليكهم بل بطريق الملك الكامل والتصرف الكلى والسلطان القاهر وكذا قوله تعالى ﴿ إله الناس ﴾ فإنه لبيان أن ملكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم والقيام بتدبير أمورهم وسياستهم والتولى لترتيب مبادىء حفظهم وحمايتهم كما هو قصارى أمر الملوك بل هو بطريق المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلى فيهم إحياء وإماتة وإيجادا وإعداما وتخصيص الإضافة بالناس مع انتظام جميع العالمين فى سلك ربوبيته تعالى وملكوتيته وألوهيته للإرشاد إلى منهاج الاستعاذة المرضية عنده تعالى الحقيقية بالإعاذة فإن توسل العائذ بربه وانتسابه إليه تعالى بالمربوبية والمملوكية والعبودية فى ضمن جنس هو فرد من أفراده من دواعى مزيد الرحمة والرأفة وأمره تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالإعاذة لا محالة ولأن المستعاذ منه شر الشيطان المعروف بعداوتهم ففى التنصيص على انتظامهم فى سلك عبوديته تعالى وملكوته رمز إلى إنجائهم من ملكة الشيطان وتسلطه عليهم حسبما ينطق به قوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) فمن جعل مدار تخصيص الإضافة مجرد كون الاستعاذة من المضار المختصة بالنفوس البشرية فقد قصر فى توفية المقام حقه وأما جعل المستعاذ منه فيما سبق المضار البدنية فقد عرفت حاله وتكرير المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالإضافة ﴿ من شر الوسواس ﴾ هو اسم بمعنى الوسوسة

وهي الصوت الخفي كالزلزال بمعنى الزلزلة وأما المصدر فبالكسر والمراد الشيطان سمي لفعله مبالغة كأنه نفس الوسوسة ﴿ الخناس ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتأخر إذا ذكر الإنسان ربه ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ إذا غفلوا عن ذكره تعالى ومحل الموصول أما الجر على الوصف وأما الرفع أو النصب على الذم ﴿ من الجنة والناس ﴾ بيان للذي يوسوس على أنه ضربان جني وإنسي كما قال عز وجل (شياطين الإنس والجن) أو متعلق بيوسوس أو يوسوس في صدورهم من جهة الجن ومن جهة الإنس وقد جوز أن يكون بيانا للناس على أنه يطلق على الجن أيضا حسب إطلاق النفر والرجال عليهم ولا تعويل عليه وأقرب منه أن يراد بالناس الناسي ويجعل سقوط الياء كسقوطها في قوله تعالى (يوم يدع الداع) ثم يبين بالجنة والناس فإن كل فرد من أفراد الفريقين مبتلى بنسيان حق الله تعالى إلا من تداركه شوافع عصمته وتناوله واسع رحمته عصمنا الله تعالى من الغفلة عن ذكره ووفقنا لأداء حقوق شكره ؟

خاتمة المؤلف

قال العبد الذليل متضرعا إلى ربه الجليل : اللهم يا ولى العصمة والإرشاد وهادى الغواة إلى سنن الرشاد بارىء البرية مالك الرقاب عليك توكلى وإليك متاب أنت المغيث لكل حائر ملهوف والمجير من كل هائل مخوف ألوذ بحرمك المأمون من غوائل ريب المنون وألتجىء إلى حرزك الحريز وآوى إلى ركنك العزيز وأسألك من خزائن برك المخزون فى مكامن سرك المكنون خير ما جرى به قلم التكوين من أمور الدنيا والدين وأعوذ بك من فنون الفتن والشرور لا سيما الاطمئنان بدار الغرور والاغترار بنعيمها وزهرتها والافتتان بزخارفها وزينتها فأعذنى بحمايتك وأعنى بعنايتك وأفض على من شوارق الأنوار الربانية وبوارق الآثار السبحانية ما يخلصنى من العوائق الظلمانية ويجردنى من العلائق الجسمانية وهذب نفسى الأبية من دنس الطبائع والأخلاق ونور قلبى القاسى بلوامع الإشراق ليستعد للعبور على سرائر الأنس ويتهيأ للحضور فى حظائر القدس وثبتنى على مناهج الحق والهدى وأرشدنى إلى مسالك البر والتقوى واجعل أعز مرامى ابتغاء رضاك وأشرف أيامى يوم لقاك يوم يقوم الناس لرب العالمين فريقا فريقا واحشرنى مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

فهرس موضوعى